نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية
Dar al-Kotob al-Ilmiyah
Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O.Box : 11-9424 Beirut بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب: ١١ - ٩٤٢٤ بيروت
Tel & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398 هاتف وفاكس: (١-٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨
Beirut - lebanon بيروت - لبنان



الباب الرابع
في ذكر قرطبة التي كانت الخلافة بمصيرها للأعداء قاهرة

في ذكر قُرْطُبة التي كانت الخلافة بمصيرها للأعداء قاهرة، وجامِعِها الأمَوِي ذي البدائع الباهية الباهرة، والإلمَاعِ بحَضْرتي الملك الناصرية الزَّهْراء والعامرية الزاهرة، ووصف جملة من منتزهات تلك الأقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة، وما يجرُّ إليه شُجونُ الحديث من أمور تقضي بحُسْن إيرادها القرائح الوَقّادة والأفكار الماهرة.

قال ابن سعيد رحمه اللّه: مملكة قُرْطبة في الإقليم الرابع، وإيالته للشمس، وفي هذه المملكة معدن الفضة الخالصة في قرية كُرْتِش[1]، ومعدن الزئبق والزنجفر في بلد بسطاسة، ولأجزائها خواصّ مذكورة في متفرّقاتها، وأرضها أرض كريمة النبات[2]، انتهى.

وقدّم، رحمه الله، في المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الأندلس وقال: إنما قدَّمْنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس الأُوَل اتّخذوها سريرًا لسلطنة الأندلس، ولم يعدلوا عن حضرتها قرطبة، ثم سلاطين بني أمية وخلفاؤهم، لم يعدلوا عن هذه المملكة، وتقلّبوا منها في ثلاثة أقطار[3] أداروا فيها خلافتهم: قرطبة، والزهراء، والزاهرة، وإنّما اتّخذوها لهذا الشأن لمّا رأوها لذلك أهلاً، وقرطبة أعظم عِلْمًا وأكثرُ فَضْلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك؛ لاتّصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها.

---

(١) يقول ابن سعيد في المغرب (ج ١ ص٢٠٣) إنّ قرية كُرْتش من عمل الجزيرة الخضراء.

(٢) في طبعة دار صادر: «للنّبات».

(٣) في طبعة دار صادر: «أقطاب».

ثم قسم ابن سعيد كتاب «الحلة المذهبة، في حِلَى مملكة[1] قُرْطُبة» بالنظر إلى الكُوَر إلى أحَدَ عشر كتابًا: الكتاب الأوّل كتاب «الحلة الذهبيّة، في[2] الكورة القرطبية». الكتاب الثاني كتاب «الدُّرَّة[3] المَصُونة، في حِلَى كورة بُلْكُونة». الكتاب الثالث كتاب «محادثة السَّيْر[4]، في حِلَى كورة القُصَيْر». الكتاب الرابع كتاب «الوَشْي المُصَوَّر، في حِلَى كورة المُدَوَّر». الكتاب الخامس كتاب «نَيْل المراد، في حِلَى كورة مُراد». الكتاب السادس كتاب «المُزْنَة، في حِلَى كورة كُزْنَة». الكتاب السابع كتاب «الدُّرّ النافق، في حلى كورة غافق». الكتاب الثامن كتاب «النُفحة[5] الأرِجَة، في حِلَى كورة إسْتِجَة». الكتاب التاسع كتاب «الكواكب الدُّرِّية، في حِلَى الكورة القَبْرِيّة». الكتاب العاشر كتاب «رِقَّة المَحَبَّة، في حلى كورة إسْتَبَّة». الكتاب الحادي عشر كتاب «السَّوْسَانَة، في حِلَى كورة اليُسّانة» انتهى. قال رحمه اللّه تعالى: إنّ العمارة اتّصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة، بحيث إنه كان يُمْشَى فيها لضوء السّرج الممتدّة[6] عشرة أميال حسبما ذكره الشَّقَنْدِي في رسالته، ثم قال: ولكلّ مدينة من مدن قرْطبَة وأعمالها ذكرٌ مختصٌ به، ثم ذكر المسافات التي بين ممالك قُرْطبة المذكورة فقال: بين الْمُدَوَّر وقُرْطُبَة ستة عشر ميلاً، وبين قُرْطُبة ومُرَاد خمسة وعشرون ميلاً، وبين قُرْطُبة والقُصَيْر ثمانية عشر ميلاً، وبين قرطبة وغَافِق مرحلتان، وبين قرطبة وإسْتَبَة ستة وثلاثون ميلاً، وبين قُرْطبة وبَلْكُونة مرحلتان، وبين قُرْطُبة واليُسّانة أربعون ميلاً، وبين قرطبة وقَبْرة ثلاثون ميلاً، وبين قرطبة وبَيَّانة مرحلتان، وبين قرطبة وإسْتِجة ثلاثون ميلاً، وكورة رُنْدة كانت في القديم من عمل قُرْطبة، ثم صارت من مملكة إشبيلِية، وهي أقرب وأدخل في المملكة الإشبيلية، انتهى.

ثم قَسَّمَ رحمه اللّه تعالى كتاب «الحلة الذهبية، في[7] الكورة القرطبية» إلى خمسة كتب[8]: الكتاب الأول كتاب «النُّغَم المُطْربة، في حُلى حضرة قُرْطُبة». الكتاب الثاني

---

(1) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «ممالك»، والتصويب من المغرب (ج ١ص ٣٥).

(2) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «في حلى».

(3) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «الدّرر»، والتصويب من المغرب.

(4) هكذا في المغرب. وفي طبعة دار صادر: «السمير».

(5) في المغرب: «النغمة».

(6) في طبعة دار صادر: «المتّصلة».

(7) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «في حلى الكورة...».

(8) هذا التقسيم في المغرب (ج ١ ص ٣٦).

«كتاب الصّبيحة الغَرّاء، في حِلى حضْرة الزهراء». الكتاب الثالث «كتاب البدائع الباهرة، في حُلى حضرة الزاهرة». الكتاب الرابع «كتاب الوَرْدَة في حلى مدينة شَقُنْده». الكتاب الخامس «الجُرْعة السَّيِّغة، في حلى كورة وَزَغة».

وقال[1] رحمه اللّه تعالى في كتاب «النُّغَم المطربة، في حلى حضرة قرطبة»: إن[2] حضرة قرطبة إحدى عرائس مملكتها، وفي اصطلاح الكتاب أن[2] للعَرُوس الكاملة الزينة مِنَصّة وهي مختصّة بما يتعلّق بذكر المدينة في نفسها، وتاجًا وهو مختصٌّ بالإيالة السلطانية، وسلكًا وهو مختصٌّ بأصحاب دُرَرِ[3] الكلام مِنَ النُّثّار والنُّظّام، وحُلّة وهي مختصّة بأعلام العلماء المصنّفين[4] الذين ليسَ لهم نظم ولا نثر ولا يجب إهمال تراجمهم، وأهدابًا وهي مختصّة بأصحاب فنون الهَزْل وما ينحو منحاه، انتهى.

ثم فَصَّل، رحمه اللّه تعالى، ذلك كلَّه بما تَعَدَّدَتْ منه الأجزاء، وقد لَخَّصْتُ منه هنا بعض ما ذكر، ثم أرْدَفْتُهُ بكلام غيره، فأقول: قال في كتاب إجار[5]: إن قرْطُبة[6] ـ بالظاء المعجمة ـ ومعناه أُجِر ساكنها[7]، يعني عربت بالطاء، ثم قال: ودَوْرُ مدينة قرطبة ثلاثون ألف ذراع، انتهى.

وقال غيره: إنَّ تكسيرها ومساحتها التي دار السور عليها دون الأرباض طولاً من القبلة إلى الجوْف ألف وستمائة ذراع، واتَّصلت العمارة بها أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضًا، وذلك من الأميال أربعة وعشرون في الطول، وفي العرض ستة، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادي المسمَّى بالوادي الكبير، وليس في الأندلس وادٍ يُسَمَّى باسم عربي غيره. ولم تزل قُرْطُبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة

---

(1) النّص في المغرب (ج 1 ص 37).

(2) حرف «إنّ» و«أنّ» ساقط في المغرب.

(3) في المغرب: «دُرّ».

(4) في المغرب: «والمصنّفين».

(5) هو كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، وقد تقدّمت ترجمة الإدريسي في الجزء الأوّل من نفح الطيب. وإجار هو روجار Roger أحد ملوك صقلية النورمانديين، وله ألّف الإدريسي كتابه المذكور.

(6) في طبعة عبد الحميد: «قرطبة» بالطاء غير المعجمة.

(7) في الروض المعطار (ص 458) أنّ تفسير قرطبة بلسان القوط قرظبة بالظاء المعجمة، ومعنى ذلك بلسانهم: القلوب المختلفة، وأن دور مدينة قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع.

أربعمائة، فانحطَّتْ، واستولى عليها الخرابُ بكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدوّ الكافر لها في ثالث[1] عشري شوّال سنة ستمائة وثلاث وعشرين.

ثم قال هذا القائل: ودَوْرُ قرطبة أعني المسوّر منها دون الأرباض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع، ودَورُ قصر إمارتها ألف ذراع ومائة ذراع، انتهى.

وعدد أرباضها أحد وعشرون، في كل رَبَض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره، وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية، في كل واحدة منبر وفقيه مُقلَّص[2] تكون الفُتْيا في الأحكام والشرائع له، وكان لا يجعل القالص عندهم على رأسه إلاّ مَنْ حفظ الموطّأ[3]، وقيل: من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي ﷺ، وحفظ المدوّنة، وكان هؤلاء المقلَّصون المجاورون لقُرْطُبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة، ويسلّمون عليه، ويطالعونه بأحوال بلدهم. انتهى.

قال: وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر إلى ثلاثة آلاف ألف دينار، بالإنصاف، وقد ذكرْنا في موضع آخر ما فيه مخالفة لهذا، فالله أعلم. وما أحسن قول بعضهم: [البسيط]

دَعْ عنك حَضْرَة بغدادٍ وبَهْجَتَها ... ولا تُعَظِّمْ بلادَ الفرس والصِّينِ
فما على الأرض قُطْرٌ مِثْل قُرْطُبة ... وما مَشَى فَوْقَها مِثْلُ ابنِ حَمْدينِ

وقال بعضهم[4]: قُرْطُبة قاعدة الأندلس ودار الملك التي يُجْبَى لها ثمرات كل جهة وخيراتُ كلِّ ناحية، واسطة بين الكُوَر، موفية على النهر، زاهرة مشرقة، أحدقت بها المُنَى فحسن مرآها، وطاب جَنَاها.

وفي كتاب «فرحة الأندلس» لابن غالب: أما قرطبة فإنه اسم ينحو إلى لفظ اليونانيين، وتأويله القلوب المشكّكة.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ثاني وعشرين شوّال سنة ستمائة وثلاث وعشرين».
(٢) مُقَلَّص، بالصّاد والسّين: الذي يلبس القلنسوة. لسان العرب (قلص) و (قلس).
(٣) هو كتاب «المُوَطّأ» للإمام مالك بن أنس.
(٤) هو أحمد الرازي كما في قطعة من كتاب فرحة الأنفس (ص ٢٩٥).

وقال أبو عبيد البكري(1): إنها في لفظ القوط بالظاء المعجمة. وقال الحِجَاري: الضبط فيها بإهمال الطاء وضمِّها، وقد يكسرها المشرقيّون في الضبط، كما يعجّمها آخرون. انتهى.

وقال بعض العلماء(2): أما قُرْطُبة فهي قاعدة الأندلس، وقُطْبُها، وقُطْرُها الأعظم، وأُمُّ مدائنها ومساكنها، ومستقرُّ الخلفاء، ودار المملكة في النصرانية والإسلام، ومدينة العلم، ومستقر(3) السّنّة والجماعة، نَزَلَها جُمْلة من التابعين وتابعي التابعين، ويقال: نزلها بعض من الصحابة، وفيه كلام.

وهي مدينة عظيمة أزَلية مِنْ بُنْيان الأوائل، طيّبة الماء والهواء، أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب، وبها المحْرَثُ العظيمُ الذي ليس له(4) في بلاد الأندلس نظير ولا أعظم منه بركة.

وقال الرازي: قرطُبة أمُّ المدائن، وسُرَّة الأندلس، وقرارة الملك في القديم والحديث والجاهلية والإسلام، ونَهْرُها أعظمُ أنهار الأندلس، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض في الصنعة والإحكام، والجامعُ الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه.

وقال ابن حوقل(5): هي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة أهل، وسَعَة محلّ، وفُسْحة أسواق، ونظافة محالّ، وعمارة مساجد، وكثرة حمّامات وفنادق، ويزعم قوم من أهلها أنّها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به، وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحالّ حسنة، وفيها كان سلاطينهم قديمًا، ودُورُهُمْ داخل سورها المحيط بها، وأكثر أبواب القصر السلطاني من البلد وجنوب قرطبة على نهرها.

---

(1) يقول البكري في جغرافية الأندلس وأوروبا (ص ١٠٠): «ذُكر أن تفسير قرطبة بلسان القوط» «قرظبة» بالظّاء المعجمة، ومعناه بلسانهم: «القلوب المختلفة».

(2) راجع نزهة المشتاق (ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥) والرّوض المعطار (ص ٤٥٦).

(3) في طبعة دار صادر: «ومقرّ».

(٤) في طبعة دار صادر: «ليس في بلاد الأندلس مثله...».

(5) في طبعة عبد الحميد: «وقال بعضهم». والنص في صورة الأرض (ص ١٠٧ ـ ١٠٨) ببعض الاختلاف عما هنا.

قال: وقرطبة هذه بائنة عن مساكن أرباضها ظاهرة ودُرْتُ بها في غير يوم في قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشيًا.

وقال الحجاري: وكانت قرطبة في الدولة المرْوَانية قُبّة الإسلام، ومجتَمَع علماء الأنام الأعلام، بها استقرَّ سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحّضت خلاصة القبائل المعدّيّة واليمانيّة، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء، إذ كانت مَرْكز الكرماء، ومعْدِن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، ويُباري فيها أصحابُ الكتب أصحابَ الكتائب، ولم تبرح ساحاتُها مَجَرَّ عوالٍ ومجرى سوابق، ومحطَّ معالٍ وحمى حقائق، وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزَّور[1] من الأسد، ولها الداخل الفسيح، والخارجُ الذي يمتّع البصر بامتداده فلا يزال مستريحًا وهو من تردُّد النظر طليح[2].

وقال الحجاري: حضرة قرطبة منذ افتتحت[3] الجزيرة هي كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأمَّ القرى، وقرارةَ أُوْلي الفضل والتُّقى، ووطنَ أُوْلي العلم والنُّهى، وقَلْبَ الإقليم، وينبوعَ متفجّر العلوم، وقُبَّةَ الإسلام، وحضرةَ الإمام، ودارَ صَوْب العقول، وبستانَ ثمر الخواطر، وبَحْرَ دُرَر القرائح، ومِنْ أُفُقِها طَلَعَتْ نجومُ الأرض وأعلامُ العصر وفرسانُ النظم والنثر، وبها أُنْشِئَتِ التأليفاتُ الرائقة، وصُنِّفَتِ التصنيفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثًا وقديمًا على من سواهم أنّ أُفقَهُم القرطبي لم يشتملْ قَطُّ إلاّ على البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب. انتهى.

وقال[4] علي بن سعيد[5]: أخبرني والدي أن السلطان الأعظم أبا يعقوب بن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد: ما عندك في قرطبة؟ قال: فقلت له: ما كان لي أن أتكلّم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها، فقال السلطان: إن ملوك بني أميّة حين اتّخذوها حضرةَ ملكهم لعَلَى بصيرة؛ الديار الكثيرة المنفسحة، والشوارع المتّسعة، والمباني الضخمة، والنهر الجاري، والهواء المعتدل، والخارج النضر، والْمَحرَث

---

(١) الزَّورُ، بفتح الزّاي وسكون الواو: أعلى الصَّدْر. مختار الصِّحاح (زور).

(٢) الطليح: التَّعِبُ المُعْي الهزيل. محيط المحيط (طلح).

(٣) في طبعة دار صادر: «استفتحت».

(٤) في طبعة دار صادر: «قال الإمام علي...».

(٥) تقدّم هذا النص في الجزء الأوّل من نفح الطِّيب.

العظيم، والشَّعْراء الكافية، والتوسّط بين شرق الأندلس وغربها، قال: فقلت: ما أبقى لي أمير المؤمنين ما أقول.

ثم قال ابن سعيد[1]: ومن كلام والدي في شأنها: هي من أحسن بلاد الأندلس مباني، وأوسعها مسالك، وأبرعها ظاهرًا وباطنًا، وتفضل إشبيلية بسلامتها في فصل الشتاء من كثرة الطين، ولأهلها رياسة ووقار، ولا[2] تزال سِمَةُ العلم متوارثة فيهم، إلاّ أنَّ عامّتها أكثرُ الناس فضولاً، وأشدُّهم تشنيعًا وتشغيبًا، ويُضْرَبُ بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلّة الرضا بأمورهم، حتى إنَّ السيد أبا يحيى بن[3] أبي يعقوب بن عبد المؤمن لمَّا انفصل عن ولايتها قيل له: كيف وجدْتَ أهلَ قرطبة؟ قال: مثل الجمل إنْ خَفَّفْتَ عنه الحملَ صاح، وإنْ أثْقَلتهُ به صاح، ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنجتنبه[4]، وما سلّط اللّه عليهم حجّاج الفتنة حتى كان عامّتها شرًّا من عامّة العراق، وإنّ العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندي ولاية، وإنِّي إنْ كُلِّفْتُ العَودَ إليها لقائل: لا يُلْدَغُ المؤمن من جحر مرتين.

قال والدي: ومن محاسنها ظرفُ اللباس، والتظاهرُ بالدِّيْن، والمواظبةُ على الصلاة، وتعظيمُ أهلها لجامعها الأعظم، وكَسْرُ أواني الخمر حيثما وَقَعَ عَينُ أحدٍ مِنْ أهلها عليها، والتستُّر بأنواع المنكرات، والتفاخرُ بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم، وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشدُّ الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفةُ يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلاّ لأنْ يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به.

قال الحضرمي: أَقَمْتُ مَرَّةً بقرطبة، ولازمْتُ سوق كتبها مدة أترقَّبُ فيه[5] وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أنْ وقع وهو بخط فصيح، وتفسير مليح[6]، فَفَرِحْتُ به أشدَّ

(١) تقدّم ذلك في الجزء الأوّل من نفح الطيب.

(٢) في طبعة دار صادر: «لا».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «أبا يحيى بن يعقوب بن أبي عبد المؤمن» وهو خطأ. والسيد أبو يحيى هو أخو السلطان يعقوب المنصور.

(٤) في طبعة دار صادر: «فنَتَجَنَّبه».

(٥) في طبعة دار صادر: «فيها».

(٦) في طبعة دار صادر: «بخط جيّد وتسفير مليح».

الفرح، فجعلْتُ أزيد في ثمنه، فيرجع إليَّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أنْ بلغ فوق حَدِّه، فقلت له: يا هذا، أرِني مَنْ يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فَدَنَوتُ منه، وقلت له: أعزَّ اللّه سيدنا الفقيه! إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركْتُه لك فقد بلغتْ به الزيادةُ بيننا فوق حدِّه؛ قال: فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكنِّي أقمْتُ خزانة كتب، واحتفلْتُ فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يَسَع هذا الكتاب، فلمّا رأيته حَسَنَ الخطِّ جيّد التجليد استحسنْتُه، ولم أُبالِ بما أزيد فيه، والحمد للّه على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأحرجني، وحملني على أن قلْتُ له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلاّ عند مثلك، يُعْطَى الجوزُ مَنْ لا عنده[1] أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلاً، وتَحُولُ قلّة ما بيدي بيني وبينه.

قال ابن سعيد: وجرتْ مناظرةٌ بين يدي منصور بني عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبي الوليد بن رُشْد والرئيس أبي بكر بن زُهْر، فقال ابن رشد لابن زهر في كلامه: ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأُرِيدَ بَيعُ كتبِهِ حُمِلَتْ إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا ماتَ مُطْرِبٌ بقُرطُبة فأُرِيدَ بَيعُ تركتِهِ حُمِلَتْ إلى إشبيلية.

وسُئِلَ ابنُ بَشْكُوال عن قصر قُرْطُبة، فقال[2]: هو قصر أوليٌّ تداوَلَتْهُ ملوكُ الأمم من لَدُنِ عهد موسى النبِّي، صلَّى اللّه على نبيّنا وعليه وسلّم، وفيه من المباني الأولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السالفة ما يُعْجِز الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بني مَرْوان ـ منذ فتح اللّهُ عليهم الأندلس بما فيها ـ في قصرها البدائعَ الحِسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة، والرياض الأنيقة[3]، وأجْرَوا فيه المياه العَذْبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة، وتموّنوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم[4]، وأجروها في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قَنَوات الرَّصاص تؤدّيها منها إلى المصانع صورٌ مختلفةَ الأشكال من الذهب الإبريز والفِضّة الخالصة والنحاس المُمَوَّه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «لا له».

(٢) في طبعة دار صادر: «ولما ذكر ابن بشكوال قصر قرطبة قال».

(٣) في طبعة دار صادر: «المونقة».

(٤) في طبعة دار صادر: «المُكَرَّم».

قال: وفي هذا القصر القِصَابُ العالية السموّ، المنيفة العلوّ، التي لم يَرَ الراؤون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها.

قال: ومن قصوره المشهورة، وبساتينه المعروفة: الكامل، والمجدد، والحائر[1]، والروضة، والزاهر، والمعشوق، والمبارك، والرشيق، وقصر السرور، والتاج، والبديع.

قال: ومن أبوابه التي فتحها الله لنصر المظلومين، وغياث الملهوفين، والحكم بالحق، البابُ الذي عليه السطح المشرف الذي لا نظير له في الدنيا، وعلى هذا الباب باب حديد، وفيه حَلَقُ لاطونٍ[2] قد أُثْبتت في قواعدها، وقد صورت صورة إنسان فَتَحَ فمه، وهي حَلَقُ باب مدينة أرْبُونَة من بلد الإفرنج، وكان الأمير محمد قد افتتحها، فجلب حَلَقها إلى هذا الباب، وله باب قبلي أيضًا، وهو المعروف بباب الجنان، وقُدَّامَ هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الأعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الأمير هشامٌ الرضى يستعمل الحكم في المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل، وله باب ثالث يُعْرَفُ بباب الوادي، وله باب بشماليه يُعْرَفُ بباب قُورِيَةَ، وله باب رابع يُدْعَى بباب الجامع، وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع على الساباط، وعدّد أبوابًا بعد هذا طُمِسَتْ أيام فتنة[3] المهدي بن عبد الجبار.

وذكر ابن بشْكُوالٍ رحمه الله، أنَّ أبواب قرطبة سبعة أبواب: باب القنطرة إلى جهة القبلة ويُعْرَف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر، وباب الحديد ويُعْرَفُ بباب سرَقُسْطَة، وباب ابن عبد الجبار وهو باب طُليطلة، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثةُ الرُّصُفُ التي تشقُّ دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرْمُونة إلى قُرْطُبة إلى سرَقُسْطة إلى طَرَّكُونة إلى أرْبُونة مارَّة في الأرض الكبيرة، ثم باب طَلَيِيرة وهو أيضًا باب لِيُون، ثم باب عامر القرشي وقُدّامه المقبرة المنسوبة إليه، ثم باب الجوز ويُعْرَف بباب بَطَلْيَوس، ثم باب العَطّارين وهو باب إشبيلية، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «وقصر الحائر».
(٢) لاطون: كلمة إسبانية وهي Latón، وتعني بالإسبانية النحاس الأصفر. قاموس ق. كورينطي.
(٣) هي الفتنة التي وقعت بقرطبة عام ٣٩٩ هـ، وعرفت في التاريخ الأندلسي بالفتنة البربرية، وقد تقدّم الحديث عنها في الجزء الأول.

وذكر أيضًا أنَّ عدد أرباض قُرْطُبة عند انتهائها في التوسُّع[1] والعمارة أحد[2] وعشرون ربضًا، منها القبليّة بعُدْوَة النهر: رَبَض شقَنْدَة، وربض مُنْيَة عَجب. وأما الغربية فتسعة: ربض حوانيت الريحان، وربض الرقّاقين، وربض مسجد الكَهْف، وربض بلاط مُغِيث، وربض مسجد الشِّفَاء، وربض حَمَّام الإلْبيري، وربض مسجد السُّرور، وربض مسجد الرَّوْضة، وربض السِّجْن القديم. وأمّا الشمالية فثلاثة: ربض باب اليَهُود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرُّصَافة. وأما الشرقية فسبعة: ربض شَبْلار، وربض فرن[3] بُرِّيل، وربض البُرْج، وربض مُنْية عبد اللّه، وربض مُنْية المُغِيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة.

قال: ووسط هذه الأرباض قصبة قرطبة التي تختصّ بالسُّور دونها، وكانت هذه الأرباض بدون[4] سور، فلمّا كانت أيام الفتنة صُنِعَ لها خندقٌ يدور بجميعها وحائط مانع.

وذكر ابن غالب أنه كان دَوْرُ هذا الحائط أربعة عشر[5] ميلًا، وشَقُنْدَة معدودةٌ في المدينة لأنّها مدينة قديمة كانت مسوّرة.

قال ابن سعيد في «المغرب»: ولنذكر الآن من منتزهات قرطبة ومَعاهدها المذكورة في الألسن نظمًا ونثرًا ما انتهى إليه الضبط، من غير تغلغل في غير المشهور منها والأهمّ، ونُوَشِّي ذلك بجميع ما يحضرني من مختار النظم في قرطبة، وما يحتوي عليه نِطاقُها المذكور.

فأوَّل ما نذكر من المنتزهات منتزه الخلفاء المروانية، وهو قصر الرُّصَافة[6]، فنقول: كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن بن معاوية في أول أيامه لنُزهه، وسُكْناه أكثر أوقاته: مُنْيَةُ الرُّصافة التي اتخذها بشمال قرطبة منحرفة إلى الغرب، فاتّخذ بها قصرًا حسنًا، ودَحَا جِنَانًا واسعة، ونقل إليها غرائب الغُرُوس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسَفَرٌ رسولاه إلى الشأم من النوى المختار[7] والحبوب الغريبة، حتى نمت

(١) في طبعة دار صادر: «التوسيع».
(٢) في طبعة دار صادر: «واحد».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «قرن».
(٤) في طبعة دار صادر: «دون».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «أربعة وعشرين».
(٦) في طبعة دار صادر: «الرصافة، قال والدي رحمه اللّه: كان ممّا ابتناه...».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «المختارة».

بيُمْن الجدّ وحسن التربية في المدة القريبة أشجارًا مُعْتَمَّة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عَمَّا قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها.

قال: وسمّاها باسم رُصَافة جدِّه هشام بأرض الشام الأثيرة لديه[1]، ولميله في اختيار هذه، وكلفه بها، وكثرة تردُّده عليها، ـ وسُكناه أكثر أوقاته بها؛ طار لها[2] الذكر في أيامه، واتّصل من بعده في إيثارها.

قال: وكلُّهم فَضَّلها، وزاد في عمارتها، وانبرى وُصَّاف الشعراء لها، فتناغوا[3] في ذلك فيما هو إلى الآن[4] مأثور عنهم، مستجاد منهم.

وقال[5] ابن سعيد: والرُّمّان السَّفْري[6] الذي فاض على أرجاء الأندلس، وصاروا لا يفضلون عليه سواه، أصله من هذه الرُّصافة. وقد ذكر ابن حيّان شأنه، وأفرد له فَصْلاً، فقال: إنه الموصوف بالفضيلة، المقدّم على أجناس الرُّمّان بعذوبة الطعم، ورقّة العَجْم، وغزارة الماء، وحسن الصورة، وكان رسوله إلى الشأم في توصيل أخته منها إلى الأندلس قد جلب طرائف منها من رُمَّان الرصافة المنسوبة إلى هشام، قال: فعرضه عبدُ الرحمن على خواصّ رجاله مُبَاهيًا به، وكان فيمن حضره منهم سفر بن عبيد الكلاعي من جند الأردُن، ويقال: هو من الأنصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول الله، ﷺ، في غزواته، قال: وهم يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني أمية، فأعطاه من ذلك الرمان جزءًا فَراقَهُ حُسْنُهُ وخُبْرُهُ، فسار به إلى قرية بكورة رَيَّةَ، فعالج عَجْمَه واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طَلَعَ شجرًا أثمر وأينع، فنزع إلى عِرْقه، وأغرب في حسنه، فجاء به عَمَّا قليل إلى عبد الرحمن، فإذا هو أشبه شيء بذلك الرصافي، فسأله الأمير عنه، فعرَّفه وجْهَ حيلته، فاستبرع استنباطه، واستنبل همّته، وشكر صنعه، وأجزل صلته، واغترس منه بمُنْية الرصافة وبغيرها من جناته،

(١) في طبعة دار صادر: «لديه، وأمثلته في اختيار رصافته هذه، وكلفه...».

(٢) في طبعة دار صادر: «فطار».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «فتنازعوا».

(٤) في طبعة عبد الحميد. «مشهور مأثور...».

(٥) في طبعة دار صادر: «قال».

(٦) نسبه إلى سفر بن عبيد الكلاعي الآتي اسمه بعد قليل. وقد ذكره الخشني في كتابه «قضاة قرطبة» (ص ٥٣).

فانتشر نوعه، واستوسع الناسُ في غِراسه، ولزمه النسب إليه، فصار يعرف إلى الآن بالرمان السّفري.

قال: وقد وصف هذا الرّمان أحمد بن محمد بن فرح[1] الشاعر في أبيات كتب بها إلى بعض مَنْ أهداه له، فقال: [المتقارب]

ولابسَةٍ صَدَفًا أحمرا ... أتتْكَ وقد مُلِئَتْ جوهرا
كأنك فاتحُ حُقٍّ لطيفٍ ... تَضَمَّنَ مَرْجانَهُ الأحْمَرَا
حُبُوبًا كمثلِ لثاتِ الحبيب ... رُضابًا إذا شِئْتَ أو مَنْظَرَا
وللسَّفْرِ تُعْزَى وما سافرت ... فتشكو النَّوى أو تقاسي السُّرَى
بلى فارقَتْ أيْكَها ناعِمًا ... رَطِيبًا وأغصانُها نُضَّرا
وجاءتك مُعْتاضةً إذ أتتْكَ ... بأكرم مِنْ عُودها عُنْصُرا
بعُودٍ ترى فيه ماءَ النَّدَى ... ويُورِقُ من قبل أن يُثْمِرا
هديةُ مَنْ لو غَدَتْ نفسه ... هَدِيَّتَه ظَنَّه قَصَّرَا

وقال ابن سعيد: وأخبرني والدي قال: أخبرني الوشّاح المبرِّز المحسن أبو الحسن الْمَريني[2] قال: بينما أنا أشرب مع ندماني بإزاء الرُّصافة، إذا بإنسان رَثِّ الهيئة، مَجْفُوِّ الطلعة، قد جاء فجلس معنا، فقلْنا له: ما هذا الإقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة؟ فقال: لا تعجلوا عليّ، ثم فكَّر قليلاً ورفع رأسه فأنشدنا: [الخفيف]

اسْقِنِيها إزاءَ قصر الرُّصافَةْ ... واعْتَبِرْ في مآلِ أمرِ الخلافَةْ
وانظر الأفْقَ كيف بُدِّل أرْضًا ... كي يطيلَ اللبيبُ فيه اعترافَهْ
ويَرَى أنَّ كلَّ ما هو فيه ... مِنْ نعيمٍ وعِزِّ أمْرٍ سَخافَةْ
كلُّ شيء رأيْته غَيْرَ شيء ... ما خلا لَذَّةَ الهَوَى والسُّلافَةْ

---

(1) في طبعة دار صادر: «أحمد بن فرج»، وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني، بالجيم المعجمة أو الحاء غير المعجمة؛ كثير الشعر، معدود في العلماء والشعراء. ألّف كتاب «الحدائق» للحكم المستنصر. سجنه الحكم، فمات في سجنه. جذوة المقتبس (ص ١٠٤) وبغية الملتمس (ص ١٥١) وفيهما: «أحمد بن محمد بن فرح» بالحاء. والمطرب (ص ٤) والمغرب (ج ٢ ص ٥٦).

(2) هو علي بن المريني؛ شاعر وشّاح ببلاد المغرب، كثير التجوّل، كان في مدّة المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي. المغرب (ج ٢ ص٢١٣). وإذا كان أبو الحسن أندلسيًا من ألمرية تكون نسبته المريي وليس المريني.

قال المريني: فَقَبَّلْتُ رأسه، وقلت له: بالله من تكون؟ فقال: قاسم بن عَبُّود الرياحي[1]، الذي يزعم الناس أنه موسوسٌ أحمق، قال: فقلت له: ما هذا شعر أحمق! وإنّ العقلاء لَتَعْجَزُ عنه، فبالله إلاَّ ما تمّمت مسرَّتنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة طُرَف أشعارك، فنادم وأَنشد، وما زلنا معه في طيبة عيش إلى أنْ وَدَّعْناه وهو يتلاطم مع الحيطان سُكْرًا، ويقول: اللهم غَفْرًا. انتهى.

قال: ومن[2] قصور خارج قرطبة قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن، وهو على متن النهر الأعظم، تحمله أقواس، وقيل للسيد: كيف تأنَّقتَ في بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة؟ فقال: علمْتُ أنهم لا يذكرون واليًا بعد عَزْله ولا له عندهم قَدْر؛ لما بقي في رؤوسهم من الخلافة المروانية، فأحببْتُ أن يبقى لي في بلادهم أثرٌ أُذْكَرُ به على رغمهم.

قال ابن سعيد: وأخبرني والدي أن ناهض[3] بن إدريس شاعر وادي آش في عصره أنشده لنفسه في هذا القصر: [الطويل]

أَلاَ حَبَّذا القَصْرُ الذي ارتفعتْ به ... على الماءِ من تحتِ الحجارةِ أقواسُ
هو المَصْنَعُ الأعلى الذي أنِفَ الثَّرَى ... ورَفَّعَه عَنْ لَثْمِهِ المَجْدُ والبَاسُ
فَأُرْكِبَ مَتْنَ النَّهْرِ عِزًّا ورِفْعَةً ... وفي موضع الأقدام لا يوجد الراسُ
فلا زالَ معمورَ الجنابِ وبابه ... يغصُّ وحَلَّت أُفْقَهُ الدَّهْرَ أعراسُ

وقال الفتح في قلائده، لما ذكر الوزير ابن عمار[4]: وتنزّه بالدمشق بقرطبة، وهو قصر شَيَّده بنو أمية بالصُّفَّاح والعَمَد، وجرى[5] في إتقانه إلى غير أمد، وأُبْدِعَ بناؤه، ونُمِّقَتْ ساحاتُه وفِناؤه، واتَّخذوه ميدانَ مراحهم، ومضمار أفراحهم[6]، وحكوا به قَصْرَهُمْ بالمَشْرِق،

---

(1) قد تكون «الرباحي» بالباء، نسبةً إلى قلعة رباح.
(2) في طبعة دار صادر: «ومن أبدع قصور خارج...».
(3) ناهض بن إدريس من مدّاح ناصر بن عبد المؤمن الموحدي. المغرب (ج ٢ ص ١٤٥).
(4) تقدّمت ترجمة ابن عمار في الجزء الأوّل. وقول الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان (ص ٨٤).
(5) في (قلائد العقيان): «وجَرَوا في إتقانه إلى غاية أمد...».
(6) في قلائد العقيان: «انشراحهم».

وأطلعوه كالكوكب المُشْرِق[1]، وأنشد فيه لابن عمّار[2]: [الخفيف]

كُلُّ قَصْرٍ بَعْدَ الدِّمَشْقِ يُذَمُّ ... فيه طابَ الجَنَى وَلَذَّ المِشَمُّ
مَنْظَرٌ رائقٌ، وماءٌ نَمِيرٌ ... وثَرًى عاطِرٌ، وقَصْرٌ أَشَمُّ
بِتُّ فيه والليلُ والفَجْرُ عندي ... عَنْبَرٌ أشهب ومِسْكٌ أَحَمُّ

[والمُنْيَة المُصْحفيّة][3] وهي منسوبة للحاجب أبي عثمان جعفر بن عثمان المصحفي.

وذكر الحِجَاري في «المسهب» أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفي، اجتاز بالمُنْيَة المصحفية التي كانت لجدّه أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر، فاستعبر حين تذكّر ما آل إليه حالُ جَدِّه مع المنصور بن أبي عامر، واستيلائه على ملكه وأملاكه، فقال: [الخفيف]

قِفْ قليلاً بالمُصْحَفِيَّةِ وانْدُبْ ... مُقْلَةً أَصْبَحَتْ بلا إنسانِ
واسْأَلَنْهَا عن جعفرٍ وسطاه ... ونَداه في سالف الأزمانِ
جعفرٌ مثلُ جعفرٍ حكم الدَّهْـ ... ـرُ عليه بعُسْرَةٍ وهَوَانِ
ولكم حَذَّر الرَّدَى فَضَمِمْنَا ... لا أمانٌ لصاحبِ السلطانِ
بَيْنَمَا يَعْتَلي غدًا خافضًا منـ ... ـه انتسابٌ لكفّة الميزانِ[4]

ومُنْيَة الزبير منسوبة إلى الزبير ابن الملثّم عمر[5] ملك قرطبة.

---

(1) في المصدر نفسه: «كالكوكب الثاقب لمشرق...».
(2) ستأتي هذه الأبيات في هذا الجزء. وهي في قلائد العقيان (ص ٨٤).
(3) ما بين قوسين زيادة لمقتضى السياق.
(4) في طبعة دار صادر: «اكتسابٌ ككفّة».
(5) في طبعة دار صادر: «الزبير بن عمر الملثّم». والزبير من ولاة المرابطين على قرطبة، وقد هجاه أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري، المشهور بالأبيض، بقوله: [الكامل]

عَكَفَ الزبيرُ على الظلالةِ جاهدًا ... ووزيرُهُ المشهورُ كلبُ النارِ

المغرب (ج ٢ ص ١٢٧).

قال ابن سعيد: أخبرني والدي عن أبيه قال: خرج معي إلى هذه المُنْية في زمان فتح النُّوَّار أبو بكر بن بَقِيٍّ الشاعر المشهور[1]، فجلسْنا تحت سطر من أشجار اللَّوز قد نَوَّرتْ، فقال ابن بقِيّ[2]: [البسيط]

سَطْرٌ من اللوز في البُسْتان قابَلَني ... ما زادَ شيءٌ على شيءٍ ولا نَقَصا
كأنّما كلُّ غُصْنٍ كُمُّ جاريةٍ ... إذا النسيم ثَنَى أعْطافَهُ رَقَصا

ثم قال شعرًا منه[3]: [الطويل]

عَجِبْتُ لِمَنْ أبْقَى على خَمْرِ دَنِّه ... غَداةَ رأى لَوْزَ الحديقةِ نَوَّرا

ولا أذكر بقية الأبيات، قال جدّي: ثم اجتمعْتُ به بعد ذلك بغَرْناطة، فذكرته باجتماعه في مُنْية الزبير، فتنهَّدَ وفكّر ساعة وقال: اكتبوا عنِّي، فكتَبْنا: [الطويل]

سقى اللّه بُسْتَانَ الزبير ودام في ... ذَرَاه مَسيلُ[4] النَّهْر ما غَنَّتِ الْوُرْقُ
فكائن لنا من نعمة في جنَابه ... كبَزّتِهِ الخضراءِ طالعُهَا طَلْقُ
هو الموضِعُ الزاهِي على كلِّ مَوْضع ... أمّا ظِلُّهُ ضافٍ أما ماؤه دَفْقُ
أهِيمُ به في حالة القُرْب والنوى ... وحُقَّ له مِنِّي التذكُّرُ والعِشْقُ
ومِنْ ذلك النهرِ الخفوقِ فؤاده ... بقلبِيَ ما غيَّبْتُ عن وَجْهه خَفْقُ

قال: فقلت له: جمع اللّه بينك وبينه على الحالة التي تشتهي، قال: ذلك لك، قلت: وكيف ذلك؟ قال: تدفع لي هذا السيف الذي تقلّدت به أتزوَّدُ به إليه، وأُنْفِقُ الباقي فيه على ما تعلم، قال: فقلت له: هذا السيف[5] شرّفني به السلطان أبو زكرياء بن غانية،

---

(١) هو يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور صاحب الموشّحات البديعة. توفي سنة ٥٤٠ هـ. وفيات الأعيان (ج ٦ ص ٢٠٢) والمغرب (ج ٢ ص ١٩) وقلائد العقيان (ص ٢٧٨) والذخيرة (ق ٢ ص ٦١٥).

(٢) سيأتي هذان البيتان في هذا الجزء.

(٣) سيرد هذا البيت في هذا الجزء.

(٤) في طبعة دار صادر: «مجاريه سيل النهر...».

(٥) في طبعة دار صادر: «هذا سيف».

وما لعطائه سبيل، ولكن أعطيك قيمته، فخرج وأتى بشخصٍ يَعْرف قيمة السيوف، فقدّره وجعل يقول: إنه سيف السلطان ابن غانية، ليعظّم قدره في عينه فيزيد في قيمته، ثم قبض ما قدَّر به، وأنشد ارتجالاً: [الوافر]

أطالَ اللّهُ عُمْرَ فتًى سعيدٍ وبقّاهُ ورَقَّتْهُ السُّعُودُ
غَدا لي جُودُهُ سَبَبًا لِعَوْدِي إلى وَطَني فها أنا ذا أعودُ
وألثِمُ كَفَّهُ شُكْرًا ويَتْلُو طريقي آيَ نُعْماهُ النشيدُ
حبَاني مِنْ ذخائره بسَيْفٍ به لم يَبْقَ للأحزان جِيدُ

والقصر الفارسي من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة، وقد ذكره الوزير أبو الوليد ابن زَيْدُون في قصيد ضَمَّنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه، وكان قد فَرَّ من قرطبة أيام بني جَهْوَر، فحضره في فِراره عيدٌ ذَكَّره بأعياد وطنه ومعاهده الأنْسِية مع وَلّادة التي كان يَهْواها ويتغزّل فيها، فقال[1]: [الطويل]

خليليَّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أَضْحى فما حالُ مَنْ أمسَى مَشُوقًا كما أَضْحَى؟

وستأتي هذه القصيدة في هذا الباب، كما ستأتي قصيدة أبي القاسم بن هشام القرطبي[2] التي أوّلها[3]: [البسيط]

يا هبَّةً باكَرَتْ من نحو دارِين

وفيها[4] كثير من منتزهات قرطبة.

قال ابن سعيد: كان والدي كثيرًا ما يأمرني بقراءتها عليه، ويقول: واللّه لقد أَنْبَأَتْ عن فضلٍ لهذا الرجل، قال: وكان أبو يحيى الحضرمي يحفظها، ويزيّن بها مجالسه، ويحلف

---

(٢) البيت من قصيدة من ١٩ بيتًا نظمها ابن زيدون في بطليوس بعد فراره من سجنه والتجائه إلى بني عباد بإشبيلية. وسترد في هذا الجزء من نفح الطيب وهي في ديوان ابن زيدون (ص ٢١ ـ ٢٢).

(٢) هو عامر بن هشام القرطبي؛ كان مشهورًا بالبِطالة، وله موشّحات. توفي سنة ٦٢٣ هـ. المغرب (ج ١ ص ٧٥).

(٣) هو صدر مطلع قصيدة من ٤١ بيتًا قالها، وهو بمرّاكش، يتذكّر المنتزهات القرطبية ويتشوّق إليها. وسترد في هذا الجزء من نفح الطيب.

(٤) أي في قصيدة أبي القاسم القرطبي.

أنْ لا ينشـدها بمحضر جاهـلٍ لا يفهم أو حاسـدٍ لا يُنْصِفُ في الاهتزاز لهـا، وإنّه لجَـدِيـرٌ بذلك، وإنها لمن كنوز الأدب.

ثم قال: والمرج النّضير المذكور بها[1] هو مَرْج الخَزّ، أخبرني والـدي أنه حضـر في زمان الصِّبا بهذا المرج على راحة، ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الـوزير أبي جعفـر الوَقَّشي[2] والْمسنُّ ابن دُوَيْدة[3] المشهور بخفّة الـروح، قال: فَسَبَحَتْ أمـامَنا إوَزٌّ، وجعلتْ تمرحُ وتنثُر ما عليها من الماء فوق المرج، والمرجُ قد أحدق بـه الوادي، والشمسُ قـد مالتْ عليه للغروب، فقال لي أبو الحسين: باللّه صِفْ يومَنا وحُسْنَ هذا المنـظر، فقلت: لا أصفه أو تصفه أنت، فقال: ولك مني ذلك، فَأَفْكَرَ كلٌّ منّا على انفراد بعدما ذكرنـا ما نصف نثـرًا، فقال أبو الحسين الْوَقَّشِي: [البسيط]

لـلَّه يـومٌ بِـمَـرْجِ الـخَـزِّ طـاب لـنـا ... فيـه النعيـمُ بحيث الـروضُ والـنَّهْـرُ
ولـلإوزِّ عـلى أرْجـائِـهِ لـعـبٌ ... إذا جَـرتْ بُـدِّدَتْ مـا بَيْنَنـا الـدُّرَرُ
والـشمسُ تَـجْنَـحُ نـحـو البَيْنِ مـائِلةً ... كـأنَّ عـاشِقَهـا في الغَـرْبِ ينـتـظرُ
والـكـأسُ جـائـلةٌ بـالـلُّبِّ حـائِـرَةٌ ... وكُـلُّنـا غـفَـلاتِ الـدهـرِ نَـبْـتـدرُ

قـال: فقـلـت: [الطـويـل]

أَلَا حَـبَّـذا يـومٌ ظَـفِـرْنـا بِـطِيـبـه ... بـأكْنَـافِ مَـرْجِ الخَـزِّ والنهـرُ يَبْسِمُ
وقـد مَـرِحَـتْ فيـه الإوزُّ، وأرسـلتْ ... عـلى سُـنـدُسٍ دُرًّا بـه يَـتَـنَـظَّمُ
ومُـدَّ بـه لـلشـمس فـهـوَ كـأنّـه ... لِثـامٌ لهـا مُـلقًى مـن النَّـوْرِ مِـعْـصَـمُ
أَدَرْنَـا عـليـه أكـؤسًـا بَـعَـثَـتْ بـه ... مـن الأنس مَـيْـتًـا عـادَ وهْـوَ يُـكـلِّمُ
غَـدَوْنـا إليـه صـامـتيـن سـكيـنـةً ... فـرُحْـنـا وكـلٌّ بـالـهَـوَى يَـتَـرنَّـمُ

---

(١) بها: أي بقرطبة.

(٢) أبو الحسين الوَقَّشي آية في الظرف، كان بارعًا بالموسيقى، وكان ذا صوت بديع في الغناء. وسيترجم له المقري في الجزء الخامس من نفح الطيب.

(٣) في طبعة دار صادر: «دريدة». وترجم له ابن سعيد في المغرب (ج ٢ ص ١٨١) فقال: المُسِنّ بن دَوَّرْيده القلعي، نسبة إلى قلعة سعيد، وروى له نادرتين؛ إحداهما مع رجل غثّ ثقيل، والأخرى مع أبي محمد عبد اللّه بن سعيد.

فأظهر كلٌّ منّا لصاحبه استحسان ما قـال تنشيطًا وتتميمًـا للمَسَرَّة، ثم قلْنـا للمُسِنّ: ما عندك أنت[1] تعارض به هاتين القطعتين؟ قال: بهذا، ورفع رجله وحَبَقَ[2] حبقة فرقعتْ منها أرجاؤه، فقال لـه أبو الحسين: مـا هذا يـا شيخ السـوء؟ فقال: الـطلاقُ يلزمه[3] إن لم تكن أوزن من شعركما، وأطيب رائحة، وأغنّ صوتًا، وأطرب معنى، فضحكْنا منه أشـدَّ ضحك، وجعلنا نهتزّ غاية الاهتزاز لموقع نادرته، فقال: والدليل على ذلـك أنّكم طربْتُمْ لَمَّـا جِئْتُ به أكثرَ مِمّا طربْتُمْ مِنْ شعركم.

ثم قال ابن سعيد: ومنْ متنزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق، مقصـود للفرجـة، يسرح فيه البصر، وتبتهج فيه النَّفْس، أخبرني والـدي عن أخيه أبي جعفـر بن عبد الملك بن سعيد قال: خرجْتُ مع الشـريف الأصمّ القرطبي إلى بسيط الجـزيرة الخضـراء ـ وقد تـدبّج بالنوار[4] ـ فلمَّا حركنا حسن المكان، وتشـوقنا إلى الأوطـان[5]، قال الشـريف: لقد ذكـرني هذا البسيط بسيط فحص السرادق، فقلت له: فهل ثار في خاطركم نظم فيه؟ قال: نعم، ثم أنشد: [الطويل]

أَلاَ فَـدَعُـوا ذِكْـرَ العُـذيبِ وبـارقِ ... ولا تسـأمـوا مِنْ ذِكْـرِ فَحْصِ السّـرادقِ
مجـرُّ ذيـولِ السُّكْـرِ مِنْ كـلِّ مُتْـرَفٍ ... ومَجْرَى الرؤوسِ المتـرعاتِ السّـوابق
قصـرْتُ عليه اللَّحْظَ مـا دُمْتُ حاضـرًا ... وفِكْـريَ في غـيْبٍ لـمـرْآه شـائقـي
أيـا طِـيبَ أيـام تَـقَـضَّـتْ بـروْضـةٍ ... عـلى لمـح غُـدْرانٍ وشَـمِّ حـدائـق
إذا غَـرَّدَتْ فيهـا حـمـائمُ دوْحِـهـا ... تخيَّلْتَهـا الكُتَّـابَ بين الْـمَهـارقِ[6]
وما بـاختيـار الـطرفِ فـارقْتُ حُسْنَهـا ... ولـكـنْ بـكـيـدٍ مِـنْ زمـانٍ مُـنـافـق

---

(١) في طبعة دار صادر: «ما تعارض».
(٢) حَبَقَ: ضَرَطَ. لسان العرب (حبق).
(٣) في طبعة دار صادر: «الطلاق له لازم إن. . .».
(٤) في طبعة دار صادر: «بالأنوار».
(٥) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «الأركان».
(٦) المهارِقُ: جمع مُهْرَق وهو الصحيفة. مختار الصحاح (هرق).

قال أبو جعفر: فلما سمعْتُ هذا الشِّعر لم أتمالكْ من الاستعبار، وحرّكني ذلك إلى أنْ قلت في حَوز مؤمل[1] سيد منتزهات غرْناطة، ولم يذكر هنا ما قاله فيه، وذكره في موضع آخر لم يحضرني الآن حتى أورده هنا[2]، واللّٰه أعلم.

ومن منتزهات قرطبة السُّدُّ، قال ابن سعيد: أخبرني والدي أن الشاعر المبرز أبا شهاب المالقي[3] أنشده لنفسه واصفًا يوم راحة بهذا السُّدّ: [الطويل]

ويوم لنا بالسُّدِّ لورُدَّ عَيْشُهُ ... بعيشةِ أيامِ الزمان رَدَدْناهُ
بَكَرْنا له والشمْسُ في خِدْر شَرْقها ... إلى أنْ أجابتْ إذْ دَعا الغَرْبُ دَعْواهُ
قَطَعْناه شَدْوًا واغْتباقًا ونشوةً ... ورَجْعَ حَديثٍ لورَقَى المَيتَ أحياهُ
على مثله من منزه تُبتَغى المُنَى ... فللّه ما أَحْلَى وأَبْدَعَ مَرآهُ
شَدَتْنا به الأرحا وأَلقَتْ نثارَها ... علينا فأَصْغَينا له وقَبِلْناهُ
لَئِنْ بانَ؛ إنّا بالأنين لِفَقْدِهِ ... وبالدَّمْعِ في إثْرِ الفراق حَكَيناه

وأنشدني والدي موشحة لأبي الحسن الْمَرِيني معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد، وهي[4]:

---

(١) حوز مؤمل أو حور مؤمل من أجمل منتزهات غرناطة وأشرفها وأظرفها. سمّي بذلك نسبة إلى مؤمل أحد خدام ملك غرناطة باديس بن حبوس، ولاحتوائه على سطر من شجر اللوز. وهذا الشجر هو الذي زرعه مؤمل نفسه. المغرب (ج ٢ ص ١٠٣) والإحاطة (ج ١ ص ١١٧).

(٢) قال أبو جعفر بن أبي مروان ابن سعيد: [السريع]

عَرِّجْ على الحَوْزِ وخَيِّمْ به ... حيث الأماني ضافياتُ الجَناحْ

سيرد هذا البيت في نفح الطيب (ج ٥).

وقوله أيضًا، وقد حان الانفصال بعد مبيته وحفصة بنت الحاج الركوني في جنة له في ذلك المكان، على ما يبيت عليه أهل الظرف والأدب: [الطويل]

دَعَى اللّٰهُ لَيلًا لم يُرَعْ بِمُذَمَّم ... عَشِيَّةَ وارانا بحور مُؤَمَّلِ

فضائل الأندلس وأهلها (ص ٥٦) والإحاطة (ج ١ ص ٤٩١). وسيرد في نفح الطيب (ج ٤) و(ج ٥).

(٣) كان أبو شهاب المالقي من أصحاب والد ابن سعيد في أيام الشباب، وكان خليع العذار في شرب العُقار، وكان في المائة السابعة. المغرب (ج ١ ص ٣٧).

(٤) هذه الموشحة تامة وتتكوّن من ستة أقفال وخمسة أبيات، والدور الأول هنا يتكون من القفل الثاني مع =

مطلع

في نَغْمَةِ العُودِ والسُّلافَهْ والروض والنهر والنَدِيمْ
أطالَ مَنْ لامني خلافَهْ فظلَّ في نصحه مُلِيمْ

دور

دعني على مَنْهَجِ التصابي ما قامَ لي العُذْرُ بالشبابْ
ولا تُطِلْ في المُنَى عتابي فلستُ أُصْغي إلى عِتابْ
لاَ تَرْجُ رَدِّي إلى صواب والكأسُ تَفْتَرُّ عن حُبابْ
والْغُصْنُ يُبْدِي لنا انعطافَهْ إذا هَفَا فَوْقَهُ النَّسِيمْ
والرّوضُ أَهْدَى لنا قِطَافَهْ واخْتَالَ في بُرْدِهِ الرقيمْ

دور

يا حَبَّذا عَهْدِيَ القديمُ ومَنْ به هِمْتُ مُسعِدِي
رِيمٌ عَنِ الوَصْلِ لا يَرِيمُ مُوَلَّعٌ بالتَّوَدُّدِ
مَا تَمَّ إلاَّ به النعيمُ طوعًا على رغمِ حُسَّدِي
مُعْتدلُ القَدِّ ذو نَحَافَهْ أسْقمني طَرْفُهُ السقيمْ
ورامَ طرْفي به انْتصافَهْ فَخَدّ في خدِّهِ الكليمْ

دور

غَضُّ الصِّبَا عاطرُ المُقَبَّلْ أحْلى من الأمْنِ والأملْ
ظامي الْحَشَا مُفْعَمُ المخلخلْ حُلو اللَّمَى ساحِرُ المُقَلْ
لِكلِّ مَنْ رامَهُ توَصَّلْ لم يَخْشَ رَدًّا بما فعلْ
أشكو فيُبْدي ليَ اعترافَهْ إنْ حاد عن نهجه القويمْ
لا أعدَمُ الدهرَ فيه رافةْ فحقّ لي فيه أن أهيمْ

دور

لله عَصْرٌ لنا تَقَضَّى بالسُّدِّ والمنبرِ[1] البهيجْ

= البيت الأول. والدور الثاني يتكون من القفل الثالث مع البيت الثاني، وهكذا. ومطلع الموشحة هو القفل الأول ويسمّى أيضًا المذهب أو اللازمة. والقفل الأخير يسمّى الخرجة، وجاءت باللغة الفصحى.

(١) المنبر من منتزهات قرطبة.

أرى آدِّكــاري إلــيــه فــرْضَــا وشَــوْقُــهُ دائــمًــا يــهــيــجْ
فــكــم خَــلــعْــنــا عــلــيــه غَــمْــضَــا ولــلــصِّــبــا مَــسْــرَحٌ أريــجْ
وِرْدٌ أطــالَ الــمُــنَــى ارتــشــافَــهْ حتى انقضى شُرْبُــه الــكــريــمْ
لــلَّــه مــا أسْــرَعَ انــحــرافَــهْ وهــكــذا الــدَّهْــرُ لا يــديــمْ

دور

يــا مــنْ يحــثُّ الــمَــطِيَّ غَــرْبَــا عــرِّجْ عــلى حــضــرةِ الــمــلوكْ
وانــشــرْ بهــا إنْ سَــفَــحْــتَ غَــرْبَــا[1] مِــنْ مــدمــع عــاطــل ســلوكْ
واســمــع إلــى مــن أقــام صَــبًّــا واحْــكِ صَــداهُ لا فُضَّ فــوكْ
بَــلِّغْ ســلامــي قَــصْــرَ الــرصــافَــهْ وذكــره[2] عــهــديَ الــقــديــمْ
وحــيِّ عــنِّــي دارَ الــخــلافَــهْ وقــفْ بــهــا وقــفــةَ الــغــريــمْ

قال ابن سعيد: والمنبر المذكور في هذه الموشحة من متنزهات قرطبة، والسُّدُّ هو الأرحا التي ذكرها في زجله قاسم بن عَبُّود الرياحي، رَوَيتُهُ عن والدي عن قائله، وهو[3]:

مطلع

بــالــلَّه أيــن نــصــيــبْ مــن لَسْ[4] لي فــيــه نــصــيــبْ
مــحــبــوبًــا مــخــالــف ومَــعُــو رقــيــبْ

دور

حــيــنْ نَــقــصــدْ مــكــانــو يَــقُــمْ[5] فِــ الــمــقــام
ويــبــخــلْ عــلــيــنــا بِــرَدِّ الــســلام
أَدْخــلَــتْ يــا قــلــبــي رُوحَــكْ فــي زحْــام
ســلامــتــك عــنــدي هــي شــيء عــجــيــب
وَكِــفْ[6] بــالــلَّه يَــسْــلَمْ مَــنْ هُــو فــي لــهــيــب

---

(١) الغَرْبُ: الدلو العظيمة. مختار الصحاح (غرب).

(٢) في طبعة دار صادر: «وذَكِّرو»، وهي كلمة عامّيّة، وبذلك تكون الخرجة هنا باللغة العامية.

(٣) هو الزجل الذي بين أيدينا وهو لقاسم بن عبود الرياحي الذي تقدّمت ترجمته.

(٤) «لَسْ» كلمة عامية، والزجل ينظم باللغة العامية. وفي طبعة عبد الحميد: «ليس».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «يقوم في».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «وكيف».

دور

بالله يا حبيبي أُتركْ ذا النَّفار
واعْمَد أن نطيب[1] في هذا النهار
واخرج معي للوادي لشربِ العُقار
نُتَمّم نهارنا في لذَّةْ وطيب
في الأرْحَا وإلّا في المرج الخصيب

دور

أوْ عند النواعِرْ[2] والروض الشريقْ
أو قصر الرصافةْ أو وادي العقيق
رَحِقْ[3] واللّه دونك هُو عندي الحريق
وفي حِبّك أمْسَيْتُ في أهلي غريبْ
وما الموتُ عنْدي إلّا حِنْ[4] تغيبْ

دور

اتَّكِلْ على اللّه وكُنْ فَظْ[5] جَسُورْ
وإن ريت فُضُولي وقَلْ أين تمورْ[6]
كَمِّشْ عنّي[7] وجْهَك فإن رآك نَفُورْ
يهرب عنَّك خائفْ ويَبْقى مُريب
وامْشِ أنت مُوَقَّرْ كأنّك خطيب

---

(١) في طبعة دار صادر: «واعملْ أن نطيبوا».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «النواعير».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «رحيق».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «حين».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «قط».
(٦) في طبعة عبد الحميد:

«وإن رأيت فضولي فَقُلْ أي تمور».

(٦) في طبعة دار صادر: «تَمنُو».

دور

مـا أعـجـب حـديـثـي إشْ[1] هـذا الـجُـنُـون
نـطلب ونُـدبِّـرْ أمـرًا لا يَـكُـون
وكَـمْ ذا نُـهَـوِّن شـيئًـا لا يَـهُـون
وإش[2] مـقْـدارْ مـا نـصْبـرْ لِـبُـعْـدِ الـحَـبـيـب
ربِّ اجْـمـعـنـي مَـعُـو عـاجـلًا قـريـبْ

قال ابن سعيد: وأما نهر قرطبة فإنه يصغر عن عظمه عند إشبيلية، بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتّى مثلها في نهر إشبيلية، ومنبعه من جهة شَقُورة يمرّ النّصف منه إلى مرسيَةَ مشرقًا والنّصف إلى قُرطُبة وإشبيلية مغربًا.

ولَمَّا ذكر الرّازي قرطبة قال: «ونهرها الساكن في جريه، اللين في انصبابه، الذي تؤمن مغبّة ضرره في حمله». وقال هذا؛ لأنه يعظم عند إشبيلية، فإذا حان حمله في أيام الأمطار أشرفت إشبيلية على الغرق، وتوقعَ أهلُها الهلاك.

والقنطرة التي على هذا النهر عند قُرْطَبَة من أعظم آثار الأندلس وأعجبها، أقواسها سبعة عشر قوسًا[3]، وبانيها ـ على ما ذكره ابنُ حيّان وغيرُه ـ السّمْحُ بن مالك الخَولاني صاحبُ الأندلس بأمر عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، وشيّدها بنو أمية بعد ذلك وحسّنوها. قال ابن حيان: وقيل: إنه قد كانت في هذا المكان قنطرة من بناء الأعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتي سنة أثّرتْ فيها الأزمان بمكابدة المُدُودِ[4] حتى سقطت حناياها، ومحيت أعاليها، وبقيت أرجلها وأسافلها، وعليها بَنَى السمحُ في سنة إحدى ومائة، انتهى.

وقال في مناهج الفكر: إن قنطرة قُرْطَبَة إحدى أعاجيب الدنيا، بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبد اللّه[5] الغافقي، وطولُها ثمانمائة ذراع، وعرضها

---

(١) في طبعة عبد الحميد «إيش».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «وإيش».
(٣) هكذا في نزهة المشتاق (ج ٢ ص ٥٧٩). وفي الروض المعطار (ص ٤٥٨): ١٩ قوسًا.
(٤) المُدُودُ: جمع مَدٍّ وهو ارتفاع ماء النهر. محيط المحيط (مدد).
(٥) في طبعة عبد الحميد: «عبيد اللّه».

عشرون باعًا، وارتفاعها[1] ستون ذراعًا، وعدد حناياها ثماني[2] عشرة حَنِيَّة، وعدد أبراجها تسعة عشر برجًا، انتهى.

رجع إلى قرطبة ـ ذكر ابن حيان والرازي والحِجَاري أن أكتبيان[3] ـ ثاني قياصرة الروم الذي ملك أكثر الدنيا وصَفَّح نهر رومية بالصُّفْر، فأرّخت الروم من ذلك العهد، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة ـ أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس، فَبُنِيَتْ في مدته قُرْطَبَة وإشبيلية ومَاردة وسَرَقُسْطَة، وانفرد الحِجَاري بأن أكتبيان[3] المذكور وَجَّه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كلُّ واحد منهم مدينة في الجهة التي ولّاه عليها، وسمّاها باسمه، وأنَّ هذه الأسماء الأربعة كانت أسماءً لأولئك الملوك، وغَيرُ الحجاري جعل أسماءَ هذه المدن مُشْتَقَّة مِمَّا تقتضيه أوضاعُها كما مَرَّ، وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة وُلَاة الروم الأخيرة الذين هم بنو عيصُو بن إسحق بن إبراهيم، على نبيِّنا وعليهم الصلاة والسلام! إلى أن انتزعها من أيديهم القُوطُ من ولد يافث المتغلّبون على الأندلس، إلى أن أخذها منهم المسلمون. ولم تكن في الجاهلية سريرًا لسلطنة الأندلس، بل كرسيًّا لخاصّ مملكتها، وسعدتْ في الإسلام، فصارتْ سريرًا للسلطنة العظمى الشاملة، وقطبًا للخلافة المروانية، وصارت إشبيلية وطُلَيطلة تبعًا لها، بعدما كان الأمر بالعكس، واللّه يفعل ما يشاء، بيده المُلك والتدبير، وهو على كل شيء قدير، لا إلَه إلَّا هو العليّ الكبير.

وقال صاحب «نَشْق الأزهار»[4] عندما تعرّض لذكر قرطبة: هي مدينة مشهورة، دار خلافة، وأهلها أعيان ناس في العلم والفضل، وبها جامع ليس في الإسلام مثله، انتهى.

ومن الأسباب في سَلْب محاسن قرطبة عَيث البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين الأموي حين استولى على قرطبة في دولته التي افْتُتِحَتْ بالقهر وسفك الدّماء، وكان من أمراء البربر المعاضدين لسليمان عليُّ بن حمود من بني علي بن إدريس بن إدريس بن عبد اللّه بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين! ـ

---

(١) في نزهة المشتاق والروض المعطار: «ثلاثون ذراعًا».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ثمان عشرة».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «التنبان». وهو Octavian المعروف باسم أكتافيوس قيصر.

(٤) هو كتاب «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» للمؤرخ المصري المملوكي أبي البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، المتوفّى سنة ٩٣٠ هـ. الإعلام (ج ٦ ص ٥ ومصادر حاشيته).

وَجدُّه إدريس هرب من هرون الرشيد إلى البربر، فتبربر ولده، وبَنَى ابنه إدريس مدينة فاس، وكان المؤيّد هشام يشتغل بالملاحم، ووقف على أن دولة بني أميّة تنقرض بالأندلس على يد علوي أول اسمه عين، فلمّا دخل سليمان مع البربر قرطبة وَمَحوا كثيرًا من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود، وبلغ هشامًا المؤيّد، وهو محبوس، خبرُه واسمه ونسبه فدسَّ إليه أنَّ الدولة صائرة إليك، وقال له: إن خاطري يحدّثني أن هذا الرجل يقتلني، يعني سليمان، فإنْ فعل فخذ بثأري، وكان هذا الأمر هو الذي قَوّى نفس ابن حَمُّود على طلب الإمامة، وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيّد، فكان المؤيّد أحد مَنْ أخذ بثأره بعد موته. وتولّى بعد ذلك علي بن حَمُّود، وبُويع بقرطبة في قصرها في اليوم الذي قُتِل فيه سليمانُ المستعينُ[1]، وأخذ الناس بالإرهاب والسطوة، وأذلَّ رؤوسَ البربر، وبرقت للعدل في أيامه بارقةُ خُلّبٍ[2] لم تكد تَقِدُ حتى خَبَتْ، وجلس للمظالم، وقدّمت له جماعة من البربر في إجرام فضرب رقابهم، وأهلهم وعشائرهم ينظرون، وخرج يومًا على باب عامر فالتقى فارسًا من البربر وأمامه حمل عنب، فاستوقفه وقال له: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته كما يأخذ الناس، فأمر بضرب عنقه، ووضع رأسه وسط الحمل، وطيف به في البلد، واستمرَّ على هذا مع أهل قرطبة في أحسن عِشْرة نحو ثمانية أشهر، حتى بلغه قيام الأندلسيين بالمرتضى[3] المَرواني في شرق الأندلس، فتغيَّر عَمّا كان عليه، وعزم على إخلاء قرطبة وإبادة أهلها، فلا يعود لأئمّتهم بها سلطان آخر الدّهر، وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء إلى حاله، وانتزع الإسلام من أهل قرطبة، وهدم المنازل، واستهان بالأكابر، ووضع المغارم، وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال، فلمّا غرموه سَرَّحهم، فلمّا جيء إليهم بدوابهم ليركبوها أَمَرَ مَنْ أَخَذَ الدّواب، وتركهم ينزلون إلى

---

(١) هو الخليفة سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، بويع سنة ٣٩٩ هـ، ودخل قرطبة سنة ٤٠٠ هـ، وخُلع بعد مضي سبعة أشهر. وفي سنة ٤٠٣ هـ هاجم قرطبة وجُدِّدَت له البيعة. وفي سنة ٤٠٧ هـ دخل علي بن حمود قرطبة وهجم على المستعين وذبحه. البيان المغرب (ج ٣ ص ٩١ ـ ١١٨) والذخيرة (ق ١ ص ٣٥ ـ ٤٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١١٤ ـ ١١٥، ١١٩ ـ ١٢١) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٨) وفوات الوفيات (ج ٢ ص ٦٢ ـ ٦٣).

(٢) البَرْقُ الخُلَّبُ: المُطْمع المُخْلِفُ. محيط المحيط (خلب).

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموي، بويع بقرطبة عام ٤٠٧ هـ ولقِّب بالمرتضى، وقُتل سنة ٤٠٩ هـ في معركة مع زاوي بن زيري. البيان المغرب (ج ٣ ص ١٢٥) والكامل في التاريخ (ج ٩ ص ٢٧٢) والذخيرة (ق ١ ص ٤٥٣).

منازلهم على أرجلهم، وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بَعْدُ وصارت دولته بوراثة ولده معدودة في دول الطوائف، فانجمعت عن عليٍّ النفوسُ، وتوالى عليه الدّعاء، فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مَروان في الحمام، وكان قتله غرة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة، وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في أماكن يعرفونها، وصحَّ عند الناس موته، ففرحوا، وكانت مدّته كما مَرَّ نحو عامين، وحقّقها بعض فقال: أحد وعشرون شهرًا وستة أيام.

وكان الناصر عليّ بن حمود ـ على عُجْمته، وبُعْده من الفضائل ـ يُصْغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النّسب العربيّ والكرم الهاشميّ، ومن شعرائه المختصّين به ابن الحنّاط[1] القرطبي، ومن شعره [فيه] قوله[2]: [الكامل]

راحت تُذكِّرُ بالنسيم الرّاحا ... وَطْفَاءُ تَكْسِرُ للجُنُوحِ جَناحا
أَخْفَى مسالِكَها الظلامُ فأَوْقَدَتْ ... مِنْ بَرْقِها كي تهتدي مِصْباحا

وعبادة بن ماء السماء، وكان معروفًا بالتشيّع، وفيه يقول من قصيدة: [الطويل]

أبوكُمْ عليٌّ كان بالشرق بَدْءَ ما ... وَرِثْتُمْ، وذا بالغرب أيضًا سَمِيُّهُ
فَصَلُّوا عليه أَجْمَعُونَ وسَلِّمُوا ... له الأمرَ إذْ وَلّاه فيكمْ وَلِيُّهُ

ومدحه ابنُ دَرّاج القَسْطَلّيُّ[3] بقوله: [المتقارب]

لَعَلَّكِ يا شَمْسُ عِنْدَ الأَصِيلِ ... شَجِيتِ لِشَجْوِ الغريبِ الذَّليلِ
فَكُوني شَفِيعيَ لابن[4] الشفيع ... وكوني رسوليَ لابن[4] الرسول

وكان أخوه القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين، وأُمُّهما واحدة، وهي علوية، ولَمَّا قُتِل النّاصر كان القاسم واليًا على إشبيلية، وكان يحيىٰ بن علي واليًا على سَبْتة، فاختلفت أهواءُ البربر[5]، فمال أكثرهم إلى القاسم لكونه غُبِنَ أوّلاً، وقُدِّم عليه أخوه الأصغر، وكونه

(١) في طبعة عبد الحميد: «ابن الخياط»، وقد تقدّمت ترجمة ابن الحناط في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٢) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٤٤٥). والبيت الأول في المغرب (ج ١ ص ١٢١).

(٣) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القَسْطَلّي الأندلسي؛ من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدّمين. توفي سنة ٤٢١ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه. وبيتاه استهلّ بهما قصيدة من ٧١ بيتًا قالها في مدح علي بن حمود سنة ٤٠٤ هـ، ووردت في ديوان ابن درّاج القسطلي (ص ٧٥ ـ ٨١).

(٤) في الديوان: «إلى ابن».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «فاختلف هؤلاء البربر».

قريبًا من قرطبة، وبينهم وبين يحيى البحر، فلمّا وصلت رُسُلُهم إلى القاسم لم يُظْهر فرحًا بالإمامة، وخاف أن تكون حيلة من أخيه عليه، فتقهقر إلى أن اتّضح له الحق، فركب إلى قرطبة، وبُويع فيها بعد ستة أيام من قتل أخيه، وأحسن السيرة، وأحسَّ من البربر الميل إلى يحيىٰ ابن أخيه عليّ صاحب سَبْتة، فتهالك في اقتناء السودان، وابتاع منهم كثيرًا، وقَوَّدَهم[1] على أعماله، فأنفت البرابر من ذلك، وانحرفوا عنه.

وفي سنة تسع وأربعمائة قام عليه بشرق الأندلس المرتضى عبدُ الرحمن من أعقاب الناصر؛ لأنَّ أهل الأندلس صعب عليهم ملك بني حَمُّود العَلَويين بسبب البرابر، فأرادوا رجوع الإمامة إلى بني مَروان، واجتمع له أكثر ملوك الطوائف، وكان معه حين أقبل لقرطبة مُنْذر التجيبيُّ صاحب سَرَقُسْطة وخَيْرَان العامري الصَّقْلبي صاحب ألْمَرِية، وانضاف إليهم جَمْعٌ من الفرنج، وتأهّب القاسم والبرابرة للقائهم، فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نِيَّةُ منذر وخَيْران على المرتضى، وقالا: أرانا في الأوّل وَجْهًا ليس بالوجه الذي نَراه حين اجتمع إليه الجمّ الغفير، وهذا ماكر غير صافي النِّيَّة، فكتب خيرانُ إلى ابن[2] زِيرِي الصِّنهاجي المتغلّب على غَرْناطة - وهو داهية البربر - وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه إلى قرطبة خَذَّل عن نصرته الْمَواليَ العامريين أعداءَ المَروانيين، وأصحاب رياسة الثغور، فأصغى ابن زِيرِي إلى ذلك، وكتب المرتضى إلى ابن زِيري يدعوه لطاعته، فقلب الكتاب، وكتب في ظهره ﴿ قُلْ يَا أيّها الكافرون ﴾ السورة[3]. فأرسل إليه كتابًا ثانيًا يقول فيه: قد جئتك بجميع أبطال الأندلس وبالفرنج، فماذا تصنع؟ وخَتَمَ الكتابَ بهذا البيت: [مخلع البسيط]

إنْ كنتَ منّا أَبشِرْ بخيرٍ[4]   أو لا فأيقِنْ بِكُلِّ شَرٍّ

---

(١) قَوَّدَهُم: جعلهم قادة. لسان العرب (قود).

(٢) هو زاوي بن زيري مؤسس دولة بني زيري الصناهجة بغرناطة عام ٤٠٣ هـ. ترك غرناطة وارتحل إلى القيروان عام ٤١٠ هـ. الذخيرة (ق ١ ص ٤٥٨) البيان المغرب جـ ٣ ص ١١٣، ١٢٨ وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١١٩، ٢٢٨) والإحاطة (ج ١ ص ٥١٧).

(٣) سورة الكافرون ١٠٩، الآية ١. والآية الثانية هي: ﴿ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُون ﴾.

(٤) صدر البيت مختلّ الوزن.

فأمر الكاتبَ أنْ يحوّل الكتابَ ويكتب في ظهره ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ السورة[1]. فازداد حنقه، وحمله الغيظ إلى أنْ ترك السير إلى حضرة الإمامة قُرْطبة، وعدل إلى محاربته، وهو يرى أنه يَصْطلمه[2] في ساعة من نهار، ودامت الحربُ أيامًا، وأرسل ابنُ زِيرِي إلى خَيران يستنجزه وعده، فأجابه: إنّما تَوَقَّفْتَ حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا، ولو كُنّا ببواطننا معك، ما ثَبَتَ[3] جمعك لنا، ونحن ننهزم عنه ونَخْذُلُه في غد.

ولَمّا كان من الغَدِ رَأى أعلامَ خَيران وأعلامَ منذر وأصحابَ الثغور قد وَلَّتْ عنه، فَسُقطَ في يد المرتضى، وثبت حتى كادوا يأخذونه، واستحرَّ القتل، وصُرِع كثيرٌ من أصحابه، فلمّا خاف القبض عليه وَلّى، فوضع عليه خيرانُ عيونًا فلحقوه بقرب وادي آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه، فهجموا عليه، فقتلوه وجاءوا برأسه إلى ألْمَرِية، وقد حلَّ بها خيران ومنذر، فتحدّث الناس أنهما اصْطَبحا عليه سرورًا بهلاكه.

وبعد هذه الواقعة أذعن أهل الأندلس للبرابرة، ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به إليهم، وضرب القاسمُ بن حمود سرادقَ المرتضى على نهر قُرْطُبة، وغشيه خلق من النظارة وقلوبُهم تتقطّع حسرات، وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التي أولها[4]: [الطويل]

لَكَ الخيرُ خَيرَانٌ مَضَى لسبيله وأَصْبَحَ أمرُ اللّه في ابن رَسُولِهِ

وتمكنت أمور القاسم، ووَلّى وعَزَل، وقالَ وفعل، إلى أن كشف وجهه في خلع طاعته ابنُ أخيه يحيى بن علي، وكتب من سَبْتة إلى أكابر البرابر بقرطبة: إن عمي أخذ ميراثي من أبي، ثم إنه قدّمَ في ولاياتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيدَ والسودان، وأنا أطلب ميراثي، وأولّيكم مناصبكم، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس، فأجابوه إلى ذلك، فجمع

---

(١) سورة التكاثر ١٠٢، الآية ١. والآية الثانية هي: ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾.
(٢) يصطلمه: يستأصله. لسان العرب (صلم).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «فأثبت».
(٤) هو مطلع قصيدة ورد منها ٨ أبيات في البيان المغرب (ج ٣ ص ١٣٠) دون أن يسمّي ابن عذاري اسم قائلها. وورد منها هذا البيت مع عشرة أبيات أخرى في الذخيرة (ق ١ ص ٤٥٢) لأبي عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط، يصف فيها خيران العامري وقتل المرتضى المرواني. وفي المصدرين «مُلْكُ» بدل «أمْرُ».

ما عنده من المراكب وأعانه أخوه إدريس صاحبُ مالَقَة، فجاز البحر بجمع وافر، وحصل بمالَقَةَ مع أخيه، وكتب له خيران صاحبُ ألمريَّة مذكّرًا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكّد المودّة فقال له أخوه إدريس: إن خيران رجل خدّاع، فقال يحيىٰ: ونحن منخدعون فيما لا يضرّنا، ثم إنَّ يحيىٰ أقبل إلى قُرْطُبة واثقًا بأنَّ البرابر معه، ففرَّ القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصِّه ليلة السبت ٢٨ من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٢[1]، وحلَّ يحيىٰ بقُرْطُبة، فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم السبت مُسْتَهلّ جُمادى الآخرة، وكان يحيىٰ من النجباء، وأُمُّه فاطميّة، وإنّما كانت آفته العُجب واصطناع السِّفْلة، واشتطّ أكابر البرابر عليه، وطلبوا ما وعدهم من إسقاط مراتب السودان، فبذل لهم ذلك، فلم يقنعوا منه، وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال، وفَرَّ السودان إلى عَمِّه بإشبيلية، ومن البرابر ومِنْ جُنْد الأندلس مَن احتجب عنهم يحيىٰ وتكبّر عليهم، ولم يَمِلْ إليه ملوكُ الطوائف، وبقي منهم كثير على الخطبة لعمِّه القاسم، إلى أن اختلَّتِ الحالُ بحضرة قرطبة، وأيقن يحيىٰ أنه متى أقام بها قبض عليه، وكان قد وَلَّى على سَبْتَة أخاه إدريس، وبلغه أن أهل مالقَة خاطبوا خَيران وكاتبوه، فطمع خيران فيها، وفرَّ يحيىٰ في خواصه تحت الليل إلى مالَقَة، ولمَّا بلغ القاسم فرارُهُ ركبَ من إشبيلية إلى قُرْطبة، فخطب له بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣، ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة، ووقع الاختلاف، وكان هَوَى السودان معه، وهوى كثير من البرابر مع يحيىٰ، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر، وكثر الإرجاف[2] بذلك، ووقع الطلب على بني أمية فتفرّقوا في البلاد، ودخلوا في أغْمَار الناس، وأخْفَوْا زيَّهم، ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة، وتكاثر البلديّون، وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيِّها، وقاتلهم مدّة خمسين يومًا قتالاً شديدًا، وبنى القرطبيون أبوابَ مدينتهم، وقاتلوا القاسم من الأسوار إلى أنْ طال عليهم الحصار، فهدموا بابًا من الأبواب وخرجوا خَرْجَة رجل واحد، وصبروا، فمنحهم اللّه تعالى الظفر، وفرَّ السودانُ مع القاسم إلى إشبيلية، وفَرَّ البرابرة إلى يحيىٰ وهو بمالَقَة، وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «٤١٣».

(٢) الإرجاف: الخوض في أخبار الفتن ونحوها. محيط المحيط (رجف).

وكان ابنُه محمد بن القاسم واليًا على إشبيلية، وثقته المدبرُ لأمره محمد بن زِيرِي من أكابر البرابرة، وقاضيها محمد بن عباد[1]، فعمل القاضي لنفسه، وهو جَدُّ المعتمد بن عباد، وأطمعَ ابنَ زِيرِي في التملّك، فأغلق الأبواب في وجه مصطنعه وحاربه، فَقُتِلَ من البرابر والسودان خلقٌ كثير، وابنُ عباد يضحك على الجميع، فيئس القاسم، وقنع أن يُخْرِجُوا إليه ابْنَه وأصحابه ويسير عنهم، فأخرجوهم إليه، فسار بهم إلى شَرِيش. وعندما استقرَّ بها وصل إليه يحيىٰ ابنُ أخيه من مالَقَةَ ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يومًا كانت فيها حروب صعاب، وقُتِلَ من الفريقين خلق كثير، وأجلت الحرب عن قهر يحيىٰ لِعمِّه وإسلام أهل شَرِيشَ له، وفرَّ سودانه، وحصل القاسم وابنه في يد يحيىٰ، وكان قد أقسم أنه إنْ حصل في يده لَيَقْتِلَنَّهُ، ولا يتركه حتى يلي الإمامة بقرطبة مرة ثانية[2]، فرأى التربُّص في قتله حتى يرى رأيه فيه، فحدّث عنه بعض أصحابه أنّه حمله بقيد إلى مالَقَةَ، وحبسه عنده، وكان كلّما سكر وأراد قتله رَغَّبه ندماؤه في الإبقاء عليه؛ لأنه لا قدرة له على الخلاص، وكان كلّما نام رأى والده عليًا في النوم يَنْهاه عن قتله، ويقول له: أخي أكبرُ منِّي، وكان مُحْسِنًا إليَّ في صغري ومُسَلِّمًا إليّ[3] عند إمارتي، اللّه اللّه فيه، وامتدّت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقًا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه؛ لأنه قد[4] كان حبسه في حصن من حصون مالقة، فَنُمِيَ إليه أنه قد تحدّث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال: أَوَ بقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة ٤٢٧، وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم عنها نَيِّفًا عن شهرين يَرَون رأيهم فيمن يبايعونه بالإمامة.

ولَمَّا كان يوم الثلاثاء[5] نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أُحْضِرَ المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموي آخر معه، فبايعا المستظهر، وقَبَّلا يده بعدما كان قد كُتِبَ عَقْد البيعة باسم

---

(١) هو أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن محمد بن عباد، ويقال له القاضي ابن عباد؛ كان في بدء أمره قاضيًا بإشبيلية، ثم استقلَّ بها سنة ٤١٤ هـ، واستمرَّ يحكمها إلى أن توفي سنة ٤٣٣ هـ، فخلفه ابنه المعتضد. جذوة المقتبس (ص ١١٧) وبغية الملتمس (ص ٢٨٠) وفيهما أن وفاة القاضي سنة ٤٣٠ هـ. ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٢٢) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٩٤ ـ ٢٠٤) وفيه أن وفاته في عام ٤٣٣ هـ، أو ٤٣١ هـ.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ثالثة».

(٣) في طبعة دار صادر: «لي».

(٤) في طبعة دار صادر: «لأنه كان قد حبسه..».

(٥) قارنْ هذا بما جاء في الذخيرة (ق ١ ص ٤٨ ـ ٥١).

سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الأماثل، فَبُشِرَ اسمه، وكتب اسم المستظهر وركب إلى القصر، وحمل معه ابني عمِّه المذكورين فحبسهما، وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العُجْبُ كُلَّ مذهب، كأبي عامر بن شُهَيد المنهمك في بطالته، وأبي محمد بن حَزم[1] المشهور بالرَّدِّ على العلماء في مقالته، وابن عَمِّه عبد الوهاب[2] بن حزم الغَزِل المُتْرف في حالته، فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والأكابر، وبادر المستظهر باصطناع البرابر، وأكرم مثواهم، وأحسن مأواهم، واشتغل مع ابن شُهَيْد وابني حَزْم بالمباحثة في الآداب، ونظم الشعر، والتمسّك بتلك الأهداب، والناسُ في ذلك الوقت أجهل ما يكون، وكان جماعة من أهل الشرّ في السجون يتعيّن أن لا يخرج منهم إنسان، فأخرج منهم شخصًا يقال له أبو عمران، وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم إخراجه، فأخرجه وخالفه في ذلك، ولم يقبل النصيحة، وفعل ما أَدّاه إلى الفضيحة، فَسَعَى القومُ الذين خرجوا من الْحُبُوس على إفساد دولته وإبدال فرحه بالْبُؤس، لما اشتغل عنهم بالأدباء والشعراء حَسْبما اقتضاه رأيُهُ المعكوس، فسَعوا في خلعه مع البرابر، وقُتِلَ في ذي القعدة من السنة التي بويع فيها، وصار كأَمْس الدابر، بعد سبعة وأربعين يومًا من يوم بويع بالخلافة، وإذا أراد اللّه أمرًا فلا يقدر أحد أن يأتي خلافه، وعمره ثلاث وعشرون سَنَة كأنها سِنَة[3].

ومن شعر المستظهر المذكور، وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور[4]: [مجزوء الرمل]

طالَ عُمْرُ الليلِ عندي مُذْ تَوَلَّعْتَ بِصَدّي

(١) هو الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، من أهل قرطبة؛ فقيه الأندلس وعالمها بالحديث والفقه واللغة والبلاغة، وشاعرها المشهور. له مؤلفات منها طوق الحمامة وجمهرة أنساب العرب. توفي سنة ٤٥٨ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٠٨) والصلة (ص ٦٠٥) والمغرب (ج ١ ص ٣٥٤) وبغية الملتمس (ص ٤١٥) والذخيرة (ق ١ ص ١٦٧) ومطمح الأنفس (ص ٥٥). وسيترجم له المقري ترجمة وافية في هذا الجزء.

(٢) هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم؛ من أهل قرطبة، أديب وكاتب. توفي سنة ٤٣٨ هـ. المغرب (ج ١ ص ٣٥٧) والصلة (ص ٥٥٥) وجذوة المقتبس (ص ٢٩١) وبغية الملتمس (ص ٣٩٣).

(٣) السِّنَةُ، بكسر السين: النعاس. مختار الصحاح (وسن).

(٤) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الأول من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا. وقد أشرنا هناك إلى المصادر الأخرى التي وردت فيهاهذه الأبيات.

يـا غـزالاً نـقَضَ الـعَـهْـ ـدَ ولـم يُـوفِ بـوعـدِ
أَنَـسِـيْـتَ الـعَـهْـدَ إذ بِـتْـ ـنـا عـلى مَـفْـرشِ وَرْدِ
واعْـتَـنَـقْـنَـا فـي وِشَـاحٍ وانْـتَـظَمْـنَـا نَـظْمَ عِـقْـد
ونـجـومُ الـلـيـلِ تَـسْـرِي ذَهَـبًـا فـي لازَوَرْدِ

وكتب إليه شاعر في طِرْسٍ(١) مكشوط: [الكامل]

الـطِّرْسُ(٢) مبشـورٌ وفيـه بشـارَةٌ بِبَقَا الإمامِ الفـاضِـلِ المستـظْهِرِ
مـلك أعـاد الـعيش غَضًّـا مُـلْكُـهُ وكـذا يـكـونُ بـه طـوالَ الأعْصُـرِ

فأجزل صلته، وكتب في ظهر الورقة: [الوافر]

قَـبِلْنـا الـعُـذْرَ في بَـشْـرِ الـكـتـابِ لمـا أحْكَمْتَ في فصْـلِ الـخـطابِ

وقد قدمنا في الباب الثالث شيئًا من هذه الأخبار، وما حصل بعد ذلك بقرطبة إلى أن تولّى الأمرَ ابنُ جَهْور في صورة الوزارة، ثم ابنه، إلى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد، حسبما ذكر في أخباره.

ثم آل الأمر بعد ذلك كله إلى استيلاء ملوك العُدْوَة من الملثّمين والموحِّدين، على قرطبة، إلى أن تسلَّمها النّصارى، أعادها اللّه تعالى للإسلام! كما يُذْكَرُ في الباب الثامن.

وقال صاحب «مناهج الفكر» في ذكر قرطبة، ما ملخصه: فأمَّا ما اشتمل عليه غرب الجزيرة، من البلاد الخطيرة، فمنها قُرْطُبة، وكانت مقرَّ الملك، ودار الإمارة، وأُمَّ ما عداها من البلاد، منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك إلى أنْ خرجتْ عن أيديهم، وتنقّلت في أيدي ملوك المسلمين إلى أن وصلت إلى الناصر عبد الرحمن، فبنى في تجاهها مدينة سمّاها الزهراء، يجري بينهما نهر عظيم، انتهى.

واعلم أنَّ المباني دالَّةٌ على عظيم قَدْر بانيها، كما ذكرْناه في كلام النّاصر الذي طابت له من الزهراء مجانيها، ولم يزل البلغاء يصفون المباني، بأحسن الألفاظ والمعاني، ورأينا

---

(١) الطِّرْس، بكسر الطاء وسكون الراء: الصحيفة. المكشوط: المكشوف. مختار الصحاح (طرس) و (كشط).

(٢) في طبعة دار صادر: «والطِّرْسُ».

أنْ نذكر هنا بعض ذلك، زيادة في توسيع المسالك، فمنِ ذلك قول ابن حَمْديس الصقلي[١] يصف داراً بناها المعتمد على اللَّه[٢]: [الطويل]

ويـا حَـبَّـذا دارٌ قَـضَـى الـلَّه أنَّـهَـا　　يُجَـدِّدُ فيهـا كـلُّ عِـزٍّ ولا يَـبْـلَى[٣]
مُـقَـدَّسَـةٌ لـو أنَّ مُـوسَى كَـلِيـمَـهُ　　مَشَى قَـدَمًـا في أرْضِهَـا خَـلَعَ النَّعْـلا
ومـا هِـيَ إلَّا خُـطَّةُ الـمَـلِكِ الـذي　　يَـحُطُّ[٤] إلـيـه كـلُّ ذي أمَـلٍ رَحْـلا
إذا فُـتِـحَـتْ أبـوابُـهـا خِـلْتَ أنَّـهـا　　تـقـولُ بتـرحيـبٍ لـداخِلِهَـا: أهْـلا
وقـد نَـقَلَتْ صُنَّـاعُهَـا مِنْ صفـاتِـهِ　　إلـيهـا أفـانِينًـا فـأحسَنَتِ النَّـقْـلا
فَمِنْ صَـدْرِهِ رَحْبًـا ومِنْ نُـورِهِ[٥] سَـنًـا　　ومن صِيتـه فَـرْعًـا ومن حِلْمـه أصْـلا
فـأعْلَتْ[٦] بـه في رُتْبَـةِ الملك نـاديًـا　　وقَـلَّ لـه فـوق السِّمـاكَـين أنْ يُعْـلى
نَسِيتُ بـه إيـوانَ كِسْـرَى لأنَّـني[٧]　　أراه لـه مَـولًى مِنَ الحُسْـنِ لا مِثْـلا
كـأنَّ سـليمـانَ بـنَ داودَ لـم تُـبِحْ　　مَخَـافَتُـه لـلْجِنِّ في صُنْعِـهِ مَـهْـلا
تَـرَى الشمسَ فيـه ليقـةً تستمـدّهـا　　أكُفٌّ أقـامَتْ مِنْ تصـاويـرهـا شَكْـلا
لهـا حَـرَكَـاتٌ أُوْدِعَتْ في سكـونـهـا　　فـمـا تَـبِعَتْ في نَـقْلِهِنَّ يَـدٌ رِجْـلا
ولَـمَّـا عَشِينَـا مِـنْ تَـوَقُّـدِ نُـورِهـا　　تَخِـذْنَـا سَنَـاهُ في[٨] نـواظـرنـا كحـلا

وقال من أخرى يصف دارًا بناها المنصور بن أعلى الناس بِبِجَايَة[٩]: [الكامل]

اعْمُرْ[١٠] بقَصْـرِ المُلْكِ نـادِيَـك الـذي　　أضْحَى بـمَجْـدِكَ بَـيْتُـه مَـعْـمُـورَا

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي؛ ولد بجزيرة صقلية سنة ٤٤٧ هـ، وفارقها سنة ٤٧١ هـ، والتحق بالمعتمد بن عباد بإشبيلية. توفي بجزيرة ميورقة سنة ٥٢٧ هـ. انظر ترجمته في مقدمة ديوانه بقلم المحقق الدكتور إحسان عباس.

(٢) الأبيات من قصيدة من ٦٠ بيتًا في ديوان ابن حمديس (ص ٣٧٨ ـ ٣٨٠).

(٣) رواية البيت في الديوان هي:

ويـا حَـبَّـذا دارٌ يَـدُ الـلَّهِ مَـسَّـحَـتْ　　عـليهـا بتجـديـدِ البقـاءِ فمـا تُبْلَى

(٤) في طبعة دار صادر: «يخطّ» بالخاء المعجمة. وفي الديوان: «يحطُّ لديه».

(٥) في الديوان: «ومن وَجْهِهِ».

(٦) في الديوان: «وأعْلَتْ بها».

(٧) في المصدر نفسه: «لأنه أراني له مَوْلًى من الفضل. .».

(٨) في المصدر نفسه: «من».

(٩) القصيدة في ديوان ابن حمديس (ص ٥٤٥ ـ ٥٤٩).

(١٠) في الديوان: «واعْمُرْ».

قصْـرٌ لـو أنّـكَ قـد كَحَلْتَ بنـوره ... أعْمَى لَعَـاد إلى المقـام بَصيـرَا

واشْتُقَّ من مَعْنَى الحيـاةِ[1] نسيمُـهُ ... فيكـاد يُحْـدِثُ للعِـظامِ نُشُـورَا

نُسِيَ الصبيـحُ مَع المليـحِ بذكـره ... وسَمَـا فَفَـاقَ خَـوَرْنقًـا وسَـدِيـرَا[2]

لـو أن[3] بالإيـوان قُـوبِـلَ حُسْنُـه ... مـا كـان شيء[4] عنـدهُ مَـذْكُـورَا

أعْيَتْ مصـانعُـهُ على الفُـرْسِ الألَى ... رَفَعُـوا البِنَـاءَ وأحكَمُـوا التّـدبِيـرَا

ومَضَتْ على الـروم الـدهـورُ ومـا بَنَـوا ... لـملوكـهـمْ شَـبَـهًـا لـه ونَـظِيـرَا

أذْكَـرْتَنَـا الفِـرْدَوسَ حين أرَيتَنَـا ... غُـرفًـا رَفَعْتَ بنـاءهـا وقُـصُـورَا

فـالمحسنـون تَـزيّـدُوا أعمـالَهُمْ ... ورَجَـوا بـذلـك جَـنَّـةً وحـرِيـرا

والمـذْنِبُـون هُـدُوا الصِّـراطَ وكَفَّـرَتْ ... حَسَنـاتُـهُمْ لـذنـوبهمْ تكْـفيـرا

فَـلَكٌ مـن الأفـلاك إلاَّ أنـه ... حَـقَـرَ البـدورَ فـأطلعَ المنصـورَا

أبْـصَـرْتُـه فـرأيْتُ أبـدعَ منـظرٍ ... ثـم انْثَنَيـتُ بنـاظـري محسـورا

فـظننتُ[5] أنـي حـالـمٌ فـي جَنَّـةٍ ... لَـمَّـا رأيتُ الـمُلْكَ فيـه كبيـرا

وإذا الـولائِـدُ فَـتَّـحَـتْ أبـوابَـهُ ... جَعَلَتْ تُـرحِّبُ بـالعُـفـاةِ صريـرا

عَـضَّتْ عـلى حلقـاتِهـنَّ ضَـراغِـمٌ ... فَغَـرَتْ بهـا أفـواهَهـا تكسيـرا[6]

فكـأنهـا لَبَـدَتْ لتهصـرَ عِنْـدهـا ... مَـنْ لم يكـن بـدُخُـولـه[7] مـأمُـورا

تجْـري الخـواطِـرُ مُطْلقـاتِ أعِنَّـةٍ ... فيـه فتكْبـو عـنْ مَـدَاه قـصُـورا

بِمُـرَخَّمِ السـاحـات تَحْسِبُ أنـه ... فُـرِشَ المَهَـا وتَـوَشَّـحَ الكـافـورا

ومُحصَّـبٍ بـالـدُّرِّ تَحْسِبُ تُـرْبَـهُ ... مِسْكًـا تَضَـوَّعَ نَشْـرُه وعَـبِيـرا

تَسْتخلِفُ الأبـصـار منـه إذا أتـى[8] ... صُبْحًـا عـلى غَسَقِ الـظلام مُنيـرا

---

(١) في طبعة عبد الحميد: معنى الجنانِ.. بالعظام..».

(٢) الخورنق وسدير قصران، وقد تقدّم الحديث عنهما في الجزء الأول.

(٣) في طبعة دار صادر وفي الديوان: «ولو أنَّ».

(٤) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «شيئًا».

(٥) في طبعة دار صادر والديوان: «وظَنَنْتُ».

(٦) هكذا في الديوان، وفي طبعة دار صادر: «تكشيرا».

(٧) في طبعة عبد الحميد: «بدخولها».

(٨) رواية صدر البيت في الديوان هي: «يستخلفُ الإصباحَ منه إذا انقضى».

ثم ذكر بركة فيه عليها أشجار من ذهب وفِضّة ترمي فروعها المياه، وتفَنَّنَ فذكر أُسُودًا على حافاتها قاذفة بالمياه أيضًا، فقال(١):

وضراغِمٌ سَكَنَتْ عَرِينَ رِياسةٍ ... تَرَكَتْ خريرَ الماءِ فيه زئيرا
فكأنما غَشَّى النُّضارُ جُسُومَها ... وأذابَ في أفْواهِها البَلُّورا
أُسْدٌ كأنَّ سكونَها مُتَحرِّكٌ ... في النَّفْس لو وَجَدَتْ هناك مُثِيرا
وتَذَكَّرَتْ فَتَكاتِها فكأنَّما ... أَقْعَتْ على أدبارِها لِتَثُورا
وتَخالُها، والشَّمْسُ تَجْلو لَونَها، ... نارًا وأَلْسُنَها اللواحِسَ نُورا
فكأنما سُلَّتْ سيوفُ جَداول ... ذابَتْ بلا نارٍ فَعُدْنَ غَدِيرا
وكأنما نَسَجَ النسيمُ لِمائِهِ ... دِرْعًا فَقَدَّرَ سَرْدَها تَقْدِيرَا
وبَدِيعةِ الثمراتِ تَعْبُرُ نَحْوَها ... عَيناي بَحْرَ عجائبٍ مَسْجُورَا
شجريَّةٍ ذهبيةٍ نَزَعَتْ إلى ... سِحْرٍ يؤثِّرُ في النُّهَى تأثِيرَا
قد صَوْلَجَتْ أغصانَها فكأنَّما ... قَنَصَتْ بِهِنَّ(٢) من الفضاءِ طُيُورَا
وكأنَّما تأبى لِواقِعِ(٣) طَيْرِها ... أن تَسْتَقِلَّ بِنَهْضِها وتَطِيرَا
مِنْ كُلِّ واقعةٍ تَرَى مِنْقارَها ... ماءً كسَلْسالِ اللُّجَينِ نَمِيرَا
خُرْسٌ تُعَدُّ من الفِصاحِ فإنْ شَدَتْ ... جَعَلَتْ تُغَرِّدُ بالمِياهِ صَفِيرَا
وكأنما في كلِّ غصنٍ فِضَّةٌ ... لانَتْ فأُرْسِلَ خيطُها مَجْرورَا
وتُرِيكَ في الصِّهْرِيج مَوْقِعَ قَطْرِها ... فوقَ الزَّبَرْجَدِ لُؤْلُؤًا مَنْثُورَا
ضَحِكَتْ محاسِنُه إليكَ كأنما ... جُعِلَتْ لها زُهْرُ النجوم ثُغُورَا
ومُصَفَّحِ الأبوابِ تِبْرًا نَظَّروا ... بالنَّقْش فوق(٤) شُكُولِهِ تَنْظِيرا
تَبْدُو مساميرُ النُّضارِ كما عَلَتْ ... تلكَ(٥) النهودُ من الحِسانِ صُدُورَا
خَلَعَتْ عليه غلائلاً وَرْسِيَّةً ... شَمْسٌ تَرُدُّ الطَّرْفَ عَنْهُ حَسِيرَا
وإذا نَظَرْتَ إلى غرائبِ سَقْفِهِ ... أبْصَرْتَ رَوضًا في السَّماء نَضِيرَا

---

(١) الأبيات هي من القصيدة الآنفة الذكر، والبيت التالي جاء بعد البيت السابق مباشرة.
(٢) في الديوان: «لهنَّ».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «لوَقَّع».
(٤) في الديوان: «بين».
(٥) في الديوان: «فلك».

وعَجِبْتَ مِنْ خُطَّاف عَسْجَدِهِ التي حَامَتْ لِتَبْنِيَ في ذُرَاهُ وُكُورَا
وَضَعَتْ به صُنَّاعُهُ[1] أقلامَهَا فأَرَتْكَ كلَّ طَرِيدَةٍ تَصْوِيرَا
وكأنما للشمس فيه لِيقَةٌ مَشَقُوا بها التزويقَ والتَّشْجِيرَا
وكأنما باللازَوَرْدِ[2] مُخَرَّمٌ بالخطِّ في وَرَق السماء سُطورا
وكأنما وَشَّوا عليه مُلاءَةً تَرَكُوا مكانَ وِشاحِها مَقْصورَا

ثم مدح المنصور بعد ذلك، وختم القصيدة بقوله[3]:

يا مالكَ الأرضِ الذي أضْحَى لَهُ مَلِكُ السماءِ على العُدَاة نَصِيرَا
كم مِنْ قُصُورٍ للملوكِ تَقَدَّمَتْ واسْتَوجَبَتْ بِقُصُورِكَ[4] التأخِيرَا
فَعَمَرتَهَا ومَلَكْتَ كلَّ رياسةٍ منها ودَمَّرْتَ العِدَا تدميرَا

قلت: لم أرَ لهذه القصيدة من نظير، في معناها اليانع النضير، ولفظها العذب النَّمير، الذي شَمَّرَ فيه قائلها عن ساعد الإجادة أيَّ تشمير، غير أن فيها عندي عَيبًا واحدًا، وهو خَتْمُها بلفظ التدمير، وعلى كل حال فالحسن والإحسان، يُقَادانِ في أرْسَان[5]، لعبد الجبار بن حَمْديس المذكور ذي المقاصد الحسان، وخصوصًا في وصف المباني والبِرَك، فما أبقى لسواه في ذلك حُسْنًا ولا تَرَك.

ومن ذلك قولُه في وصف بركة تجري إليها المياه من شاذَرْوَان من أفواه طيور وزرافات وأُسود، وكل ذلك في قصر أَطْنَبَ في وصفه في قصيدة طويلة[6]: [الكامل]

والماءُ مِنْهُ سَبَائكٌ فِضِّيَّةٌ[7] ذابَتْ على دَوحَات[8] شاذَرْوَانِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «صُنّاعُها».

(٢) في الديوان: «اللازورد».

(٣) الأبيات الثلاثة الآتية هي من قصيدة ابن حمديس الآنفة الذكر، والبيت التالي جاء بعد البيت السابق مباشرة.

(٤) في الديوان: «لِقصورِكَ».

(٥) الأَرْسان: جمع رَسَن وهو الحبل. لسان العرب (رسن).

(٦) الأبيات من قصيدة من ٣٧ بيتًا قالها ابن حمديس في مدح المنصور بن الناصر بن علناس، من بني حماد. ديوان ابن حمديس (ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦).

(٧) في طبعة عبد الحميد: «من فِضّةٍ».

(٨) في الديوان: «دَرَجاتِ».

وكــأنــمــا سَــيــفٌ هــنــاك مُــشَــطَّبٌ | أَلْــقَــتْــهُ يَــومَ الــحَــرْبِ كَــفُّ جَــبَــانِ
كم شــاخصٍ فيــه يُــطِيــلُ تَعَجُّبًــا | مِــنْ دَوحَــةٍ نَــبَــتَــتْ مِــنَ الــعِــقْــيَــانِ
عَجَبًــا لهــا تَسْقي الــريــاضَ يَنــابِعًــا | نَــبَعــتْ مِــنَ الــثَّــمَــرَاتِ والأغــصــان
خُــصَّــتْ بِــطَائــرةٍ عــلى فَــنَــنٍ لَــهَــا | حَسُنَتْ فــأُفْــرِدَ حُسْنُهَــا مِــنْ ثَــانِي
قُسُّ الــطيــورِ الخــاشعــاتِ بــلاغــةً | وفــصــاحَــةً مِنْ مَــنْــطقٍ وبَــيَــانِ
فــإذا أُتِيــحَ لهــا الــكــلامُ تَكَــلَّمَتْ | بــخــريــرِ مــاءٍ دائِــمِ الــهَــمَــلان
وكــأنَّ صــانِعَهــا استبــدَّ بِصَنْعَــةٍ | فَخَــرَ الجَمَــادُ بهــا عــلى الحَيَــوان
أَوْفَتْ على حَــوْضٍ لــهــا فكــأنّــهــا | منها على[1] على العَجَبِ العُجَابِ رَوانِي
فكــأنــهــا ظَــنَّــتْ حــلاوةَ مــائــهــا | شُــهْــدًا[2] فــذَاقَــتْــهُ بــكــلِّ لِــسَــان
وَزَرَافَــةٍ في الجــوف مِنْ أُنْبــوبِــهَــا | مــاءٌ يُــرِيــكَ الجَــرْيَ في الــطيــرَان
مَــرْكــوزةٍ كــالــرمْــحِ حَيْثُ تَــرَى لــه | مِنْ طَعْنِــهِ الخلقَ[3] انْعــطَافَ سِنَــان
وكــأنمــا تَــرْمِي السمــاءَ بِبُنْــدُقٍ[4] | مُــسْــتَــنْــبَطٍ مــن لــؤلــؤ وجُــمَــان
لــو عــاد ذاكَ المــاءُ نَفْــطًا أَحْــرَقَتْ | في الجــوِّ مــنــه قميصَ كــلِّ عَنَــان
في بِــرْكــةٍ قــامتْ على حــافــاتهــا | أُسْــدٌ تــذلُّ لِــعِــزَّةِ الــســلطان
نَــزَعَتْ إلى ظُلْمِ النفوسِ نُفُــوسُهَــا | فــلذلــك انْــتُــزِعَــتْ مــن الأبــدان
وكــأنَّ بَــرْدَ المــاءِ منهــا مُــطْفِىءٌ | نــارًا مُــضَــرَّمَــةً مــن الــعــدوان
وكــأنــمــا الحَيَّــاتُ من أَفْــواهِــهَــا | يَــطْرَحْــنَ أنــفــسَهُــنَّ في الــغُــدْران
وكــأنمــا الحِيتــانُ إذْ لــم تَخْشَهَــا | أَخَــذَتْ من المنصــور عــقْــدَ أمــان

وهاتان القصيدتان لابن حمديس، كما في المناهج، مع طولهما تدلّان على الإبداع الذي ابتكره، والاختراع الذي مَا وَلَجَ سَمْعَ أحدٍ من الفضلاء إلّا شكره [لما أسكره][5].

---

(١) في الديوان: «إلى».
(٢) الشُّهْد، بضم الشين وفتحها: العسل في شَمْعها. مختار الصّحاح (شهد).
(٣) في ديوان ابن حمديس: «الحلق» بالحاء غير المعجمة.
(٤) البُنْدُقُ: الذي يُرمَى به، الواحدة بُنْدُقَةٌ، والجمع البنادق. مختار الصحاح (بندق).
(٥) ما بين قوسين مركنين ساقط في طبعة صادر.

وقال أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز الأندلسي(١) يصف قصرًا بمصر يُسَمَّى «منزل العز» بناه حسنُ بن علي [بن يحيىٰ](٢) بن تميم بن المعز العُبَيدي: [الخفيف]

مـنـزلُ الـعِـزِّ كـاسـمـه معْـنَـاه — لا عَـدا الـعـزُّ مـنْ بـه سَـمَّـاهُ
مـنـزِلٌ وَدَّتِ الـمـنـازلُ فـي أعْـ — ـلَى ذراهُ لـو صُـيِّـرتْ إيّـاهُ
فـأجِـلْ فيـه لَحْظَ عَينَيـك تُبْـصِـر — أيَّ حُـسْـن دون الـقـصـورِ حَـواهُ
سـالَ في سَقْـفِـهِ النُّـضَـارُ ولـكـنْ — جَـمَـدَتْ فـي قـراره الأمْـواه
وبـأرْجَـائـه مَـجَـالُ طِـرادٍ — لـيس تَـنْـفَـكُّ مِنْ وغًـى خَـيـلاه
تُـبْـصِـر الـفـارسَ الْمُـدَجَّـجَ فـيـه — لـيس تَـدْمَـىٰ مِـنَ الـطِّعـان قَـنَـاه
وتَـرى الـنـابـلَ الـمـواصـل لـلنَّـزْ — عِ بَـعِـيـدًا مِـنْ قِـرْنـه مَـرْمَـاه
وصفُـوفًـا من الـوحـوش وطَـيـر الـ — ـجَـوِّ كُـلٌّ مُـسْـتَـحْـسِـنٌ مـرآهُ
سَـكَـنَـاتٌ تَـخَـالُـهـا حَـرَكـاتٍ — واخـتـلافُ كـأنـه إشْـبَـاه
كَمُحَـيَّـا الحبيب حَـرْفًـا بِحَـرْفٍ — مـا تَـعَـدَّى صِـفـاتِـه إذْ حَـكَـاهُ
وَرْدُهُ وَجْـنـتـاه، نَـرْجِـسُـهُ الـفَـتْـ — ـتَـانُ عـيـنَـاه، آسُـهُ عـارضـاه

---

(١) أبـو الصّلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي من أهل إشبيلية، عاش بها عشرين عامًا، وعشرين عامًا في المهدية بإفريقية في ظل ملوكها الثلاثة يحيىٰ بن تميم بن المعزّ بن باديس ابن زيري بن مناد الصنهاجي، وولده علي بن يحيىٰ، وحفيده الحسن بن علي بن يحيىٰ، آخر ملوك الصنهاجيين. وعاش عشرين سنة بمصر محبوسًا. كان طبيبًا فيلسوفًا متبحّرًا في العلوم، له باع طويل في المنثور والمنظوم. توفي سنة ٥٢٩ هـ. وفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٤٣) وفيه أن وفاته سنة ٥٢٩ هـ، وقيل ٥٢٨ هـ، وقيل ٥٤٦ هـ. وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠١) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٥٦) وفيه أنه توفي سنة ٥٢٠ هـ، وقيل بعد ذلك بيسير، وقيل سنة ٥٣٦ هـ. والمغرب (ج ١ ص ٢٦١). وخريدة القصر قسم شعراء المغرب، (ج ١ ص ١٨٩).

(٢) ما بين قوسين سقط من طبعة عبد الحميد. والمذكور هو حسن بن علي بن يحيىٰ بن تميم بن المعز بن باديس ابن زيري بن مناد الصنهاجي، وهو آخر ملوك الصنهاجيين بالمهدية. تولى أمر المهدية بعد وفاة أبيه سنة ٥١٥ هـ، وعمره اثنا عشر عامًا. هاجمه روجار Roger ملك صقلية فأخرجه من المهدية سنة ٥٤٣ هـ. توفي سنة ٥٦٣ هـ، وبوفاته انقرضت دولة صنهاجة بإفريقية. الكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩) والبيان المغرب (ج ١ ص ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٣) وتاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٣٣٠) ووفيات الأعيان (ج ٦ ص ٢١٦ ـ ٢١٧). وقد وهم المقري في قوله إن حسنًا بنى قصرًا بمصر؛ وقد يكون هذا القصر قد بناه الفاطميون العبيديون بمصر، وقد يكون قصرًا بناه المترجم له بالمهدية.

وكأنَّ الكافورَ والمِسْكَ في الطِّيـ ـبِ وفي اللون صُبْحُهُ ومَسَاهُ
مَنْظَرٌ يَبْعَثُ السرورَ ومَرْأى يذكر المَرْءَ طِيبُ عَصْرِ صِباه

وقال أبو الصَّلْت أمية الأندلسي المذكور يذكر بناء بناه علي[1] بن تميم بن المعز العُبَيْدِي: [الكامل]

لله مَجْلِسُكَ المنيفُ قبابُهُ بمُوَطَّدٍ فوق السِّمَاكِ مؤسَّسِ
مُوفٍ على حُبُكِ المَجَرَّةِ تَلْتَقِي فيه الجواري بالجواري الكُنَّسِ
تتقابلُ الأنوارُ مِنْ جَنَبَاتِهِ فالليلُ فيه كالنهار المُشْمِسِ
عَطَفَتْ حَنَايَاهُ دُوَينَ سَمَائِه عَطْفَ الأهلّةِ والحواجبِ والْقِسِيِ
واسْتَشْرَفَتْ عُمُدُ الرخام وظوهِرَت بأجلَّ مِنْ زَهْرِ الربيعِ وأنْفَسِ
فهواؤه مِنْ كلِّ قَدٍّ أهيَفٍ وقَرارُه مِنْ كلِّ خَدٍّ أمْلَسِ
فَلَكٌ تَحَيَّرَ فيه كلُّ مُنَجِّمٍ وأَقَرَّ بالتقصيرِ كلُّ مُهَنْدِسِ
فَبَدَا لِلَحْظِ العَينِ أحْسَنَ مَنْظَرٍ وغَدَا لِطِيبِ الْعَيْش خيرُ[2] مُعَرَّسِ
فاطلعْ به قمرًا إذا ما أطلعتْ شمسُ الخدورِ عليكَ شمسَ الأكْؤس
فالناسُ أجْمَعُ دون قَدْرِكَ رتبةً والأرضُ أجمعُ دون هذا المجلسِ

ويُعْجبني قول أبي الصلت أمية المذكور يصف حال زيادة النِّيل ونقصانه: [الطويل]

ولله مَجْرَى النِّيلِ منها إذا الصَّبَا أَرَتْنَا به مِنْ مَرِّهَا عَسْكَرًا مَجْرَا[3]
إذا زاد يحكي الوَرْدَ لَونًا وإنْ صَفَا حَكَى ماءه لَونًا ولم يَحْكِهِ مُرًّا[4]

---

(١) هو علي بن يحيىٰ بن تميم بن المعز بن باديس ابن زيري بن مناد الصنهاجي؛ ولي أمر إفريقية والمغرب بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٩ هـ، وكان شجاعًا حازمًا، كريمًا جوادًا، توفي سنة ٥١٥ هـ. الكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ٥٠٩، ٥١٤، ٥٨٨)، وفيات الأعيان (ج ٦ ص ٢١٦) والبيان المغرب (ج ١ ص ٣٠٦) وتاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٣٢٩ - ٣٣٠). وفي المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٥٧) خمسة أبيات تابعة لهذه القصيدة في وصف هذا البناء، ولكنها لم ترد هنا.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «طيب».

(٣) العَسْكَرُ المَجْرُ: العظيم. لسان العرب (مجر).

(٤) في طبعة دار صادر: «ولم يَعْدُهُ نَشْرا».

وقال رحمه اللّه تعالى يصف الرصد الذي بظاهر مصر: [البسيط]

يا نُزْهة الرَّصَدِ التي[1] قد اشْتَمَلَتْ ... من كلِّ شيءٍ حلاً في جانب الْوادي
فذا غَدِيرٌ، وذا روْضٌ، وذا جبلُ ... والضَّبُّ والنُّونُ والملاّحُ والْحادي

وهو مأخوذ من قول الأول يصف قَصْرَ أُنْسٍ بالبصرة[2]: [البسيط]

زُرْ واديَ القصر، نِعْمَ القَصْرُ والوادي ... لا بُدَّ مِنْ زَوْرةٍ مِنْ غيْرِ ميعادِ
زُرْهُ فليس له نِدٌّ يُشاكِلُهُ ... مِنْ منزلٍ حاضرٍ إنْ شِئْتَ أو بادي
تَلْقَى به السُّفْنَ والظِّلْمانَ[3] حاضِرَةً ... والضَّبَّ والنُّونَ والمَلاّحَ والحادي

وقال رحمه اللّه تعالى يذكر الهَرَمين[4]: [الطويل]

بعَيْشِكَ هل أَبْصَرْتَ أَحْسَنَ منْظَرًا ... على طول ما عايَنْتَ مِنْ هَرَمَي مِصْرِ
أنافا بأكنافِ السَّما، وأَشْرَفا ... على الجوِّ إشْرافَ السِّماكِ على[5] النَّسْرِ
وقَدْ وافيا نَشْزًا من الأرض عاليًا ... كأنهُما نَهْدانِ[6] قاما على صدْرِ

وستأتي ترجمته إن شاء اللّه تعالى في الباب الخامس.

وعلى ذكر الأنهار والبرك فما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عِدَّة فَوّارات: [الكامل]

غَضِبَتْ مجاريها فأظْهَرَ غَيْظُها ... ما في حَشَاها مِنْ خَفيٍّ مُضْمَرِ
وكأنَّ نَبْعَ الماءِ مِنْ جَنَباتها ... والعَيْنُ تَنْظُر منه أحْسنَ مَنْظَرِ
قُضُبٌ من البلّورِ أَثْمَرَ فَرْعُها ... لَمّا انتهتْ باللؤلؤ الْمُتَحَدِّرِ

---

(١) في طبعة دار صادر: «اللائي».
(٢) الأبيات لمحمد بن أبي عيينة بن المهلَب بن أبي صفرة، يصف فيها قصر عيسى بن جعفر بالخُرَيبة كما في الأغاني (ج ٢ ص ١٠٢) ومعجم البلدان (ج ٤ ص ٣٦١)، وهي في هذين المصدرين ببعض الاختلاف عما هنا.
(٣) الظِّلْمان، بكسر الظاء وسكون اللام: جمع الظَّلِيمْ وهو الذكر من النّعام. لسان العرب (ظلم).
(٤) سترد هذه الأبيات في الجزء الرابع من نفح الطيب ولكن ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) في طبعة دار صادر: «أو».
(٦) في طبعة دار صادر: «ثديان». والنَّشْزُ: المكان المرتفع. لسان العرب (نشز).

وقال ابن صارة الأندلسي[1] يصف ماء بالرّقة والصفاء [يجري على الصفا][2]: [الكامل]

والنَّهرُ قد رَقَّتْ غِلالَةُ خَصْرِهِ　　وعليه مِنْ صِبْغِ الأصيلِ طِرازُ
تَترَقْرَقُ الأمواجُ فيه كأنَّها　　عُكَنُ[3] الخصورِ تَهُزُّها الأعجازُ

وما أحسن قول بعض الأدباء ولم يحضرني الآن اسمه: [الكامل]

والنَّهرُ مَكْسُوٌّ غِلالَةَ فِضَّةٍ　　فإذا جَرَى سَيلاً فَثَوْب نُضَارِ
وإذا استقامَ رَأَيتَ صفحةَ مُنْصُلٍ　　وإذا استدارَ رأيتَ عَطْفَ سِوَارِ

وقال ابن حَمْديس المغربي يصف نهرًا بالصفاء[4]: [الطويل]

ومُطَّرِدِ الأمواجِ[5] يَصْقُلُ مَتْنَهُ　　صَبًا أَعْلَنَتْ لِلْعَينِ ما في ضميرِهِ
جَرِيحٌ بأطرافِ الحَصَى كلَّما جَرَى　　عليها شَكَا أوْجاعَهُ بخَريرِهِ

وهذا النهج مُتَّسع، ولم نُطِلِ السَّيرَ في هذه المَهامِهِ، وإنّما ذكرْنا بعض كلام المغاربة ليتنبَّه به مُنْتَقصُهُم من سِنَة أوهامه، ولأنَّ في أمرها عبرةً لمن عقل، إذا أصدأ مرآة حسنها ولطالما كان لمتنها صَقَل.

وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببْتُ ذكره ملخّصًا، وهو: ونُلْحِقُ بذكر المنازل التي راق منظرها، وفاق مخبرها، وارتفع بناؤها، واتّسع فِناؤها، طَرَفًا من الكلام على ما عَفَاه الدهرُ من رسومها، ومحاه من محاسن صُوَرٍ كانت أرواحًا لجسومها.

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة، ويقال سارة، الشنتريني. سكن إشبيلية وتعيَّش فيها بالوراقة، ونزل ألمرية وغرناطة وامتدح ولاتها. كان شاعرًا مُفْلقًا. الذخيرة (ق ٣ ص ٨٣٤) والمغرب (ج ١ ص ٤١٩) وقلائد العقيان (ص ٢٥٨) وأخبار وتراجم أندلسية (ص ١٥) والمطرب (ص ٧٨) وبغية الوعاة (ص ٢٨٨).

(٢) ما بين قوسين مركنين ساقط في طبعة دار صادر. وسيرد البيتان في الجزء الخامس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا. وهما في قلائد العقيان (ص ٢٦٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) العُكَنُ: جمع عُكْنَة وهي ما انطوى وَتَثَنّى من لحم البطن. محيط المحيط (عكن).

(٤) البيتان في ديوان ابن حمديس (ص ١٨٦).

(٥) في الديوان: «الأجزاء».

وصف أعرابي محلّةَ قومٍ ارتحلوا عنها فقال نَثْرًا: ارتحلت عنها ربَّات الخُدور، وأقامت بها أثافِيُّ[1] القدور، ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياحُ آثارهم، وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم، والعهدُ قريب، واللقاء بعيد.

وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن[2]: [السريع]

يا دارُ أمْسَت[3] دارسًا رسْمُها ... وَحْشًا قِفَارًا ما بها آهِلُ
قد جَرَّتِ الريحُ بها ذيلَها ... واسْتَنَّ في أطلالها الْوَابِلُ

ومن كلام الفتح بن خاقان، في قلائد العقيان، يذكر آل عَبَّاد من فَضْل أكثر فيه التفَجُّع، وأطال به التوجُّع[4]: والغصون تختال في أدواحها[5]، والأزاهر يُحْيي ميتَ الصَّبَابة شَذَا! أرواحها، وأطيارُ الرياض [قد أشرفت عليهم][6] كَثَكالى يَنُحْنَ على خرابها، وانقراض أطْرَابها[7]، والوهي بمشيدها لاعِب، وعلى كلِّ جدار[8] غُرَاب ناعِب، وقد مَحَتِ الحوادثُ ضياءها، وقلَّصت ظلالَها وأفياءها، ولطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحتْ مِنْ شَذَاهم وأرَجَتْ[9]، أيام نزلوا خلالها، وتفَيَّأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجَنَّاتها، ونَبَّهوا الآمال من سِناتِها، وراعوا الليوث في آجامِها، وأخجلوا الغيوثَ عند انسجامها، فأضحت[10] ولها [بالتداعي][11] تلفُّع واعتجار، ولم يبقَ من آثارها إلاّ نُؤي[12] وأحْجَار، قد هَوَت قِبَابُها، وهَرِمَ شَبَابُها، وقد يلين الحديد، ويَبْلَى على طَيِّه الجديد.

---

(١) الأثافيُّ: جمع أُثْفِيَّة وهي ثلاثة أحجار يوضع عليها القِدْرُ للطبخ. لسان العرب (أثف).
(٢) البيتان في ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٣٠١) من تسعة أبيات بعنوان: «إلى العاذل».
(٣) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «أمْسَى».
(٤) النص في قلائد العقيان (ص ١٠).
(٥) في قلائد العقيان: «أدواحها، وتنثني في أكُفِّ أرواحها وآثار الديار قد أشرقت..».
(٦) ما بين قوسين زيادة من قلائد العقيان.
(٧) في طبعة عبد الحميد: «أترابها». والأطراب، بصيغة الجمع: نقاوة الرياحين. محيط المحيط (طرب).
(٨) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «جدار منها غراب،».
(٩) في طبعة عبد الحميد: «وتأرَّجَتْ».
(١٠) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «فأصبحت».
(١١) ما بين قوسين زيادة من قلائد العقيان.
(١٢) النُّؤيُ بضم النون وفتحها: الحفير حول الخيمة يمنع السَّيل، والجمع آناء. محيط المحيط (نأى).

وقال أبو صخر القُرْطُبي يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها: [الطويل]

دِيارٌ عليها مِنْ بَشاشةِ أَهْلِها ... بقايا تَسُرُّ النَّفْسَ أُنْسًا ومَنْظَرَا
رُبوعٌ كَساها المُزْنُ مِنْ خِلَعِ الْحَيَا ... بُرُودًا وحَلاَّها من النَّور جَوهَرَا
تَسُرُّك طَورًا ثم تُشْجِيكَ تَارةً ... فترتاحُ تأنيسًا وتَشْجَى تَذَكُّرَا

ومن كلام أبي الحسن القاشاني يصف نادِيَ رئيسٍ خَلاَ من ازدحام الملا، وعَوّضه الزمانُ مِنْ تواصُل أحبابه هَجْوًا وقِلا: «قد كان منزله مألفَ الأضياف، ومأنسَ الأشراف، ومُنْتَجَعَ الرّكب، ومَقْصِدَ الوفد، فاستبدل بالأنس وحْشة، وبالضياء ظُلْمة، واعتاض من تزاحم المواكب، تلاطُمَ النّوادب، ومن ضجيج النداء والصّهيل، عَجيج البكاء والعَويل».

ومن رسالة لابن الأثير[1] الْجَزري يصف دِمْنَةَ دارٍ لعبتْ بها أيدي الزمن، وفرقت بين المسكن والسكن: «كانت مقاصيرَ جَنَّة، فأصبحت وهي ملاعبُ جِنَّة، وقد عميت أخبار قُطّانها، وآثار أوطانها، حتى شابهت إحداهما في الخَفَاء، الأخرى في العَفَاء، وكنت أظنُّ أنها لا تُسْقَى بعدهم بِغَمَام، ولا يُرْفَعُ عنها جِلْبَابُ ظلام، غير أنَّ السحاب بَكَاهم فأَجْرَى بها هوامِعَ دموعه، والليل شَقَّ عليهم جيوبَه فظهرَ الصباحُ من خلال صُدوعه».

وقد لمح في بعض كلامه قول الشريف [الرضي] من أبيات يصف فيها ما كان في الحيرة من منازل النعمان بن المنذر[2]: [الكامل]

ما زِلْتُ أَطَّرِقُ المنازلَ باللِّوَى ... حتى نَزَلْتُ منازِلَ النُّعْمانِ
بالْحِيرَةِ البيضاء تقابَلَتْ ... شُمَّ العِمادِ عَرِيضَةَ الأعطانِ[3]
شَهِدَتْ بفضلِ الرَّافعينَ قِبابَها ... ويَبِينُ بالبنيانِ فَضْلُ البَاني
ما ينفَعُ الماضينَ أنْ بقيَتْ لهمْ ... خِطَطٌ مُعَمَّرَةٌ بِعُمْرٍ فاني

يقول فيها:

ولقد رأيتُ بِدَيرِ هندٍ منزلاً ... أَلمًّا من الضَّرَّاء والْحِدْثانِ

---

(١) هو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري؛ ولد بجزيرة ابن عمر، وسكن الموصل. كان إمامًا في حفظ الحديث والتاريخ وخبيرًا بأنساب العرب. توفي سنة ٦٣٠ هـ. وفيات الأعيان (ج ٣ ص٣٤٨).

(٢) الأبيات في ديوان الشريف الرضي (ج ٢ ص ٤٦٨).

(٣) الأعطان: جمع عَطَن وهو مبرك الإبل عند الماء. وهنا يشير إلى كرم النعمان.

يُغْضِي كمستَمِع الهَوَانِ تَغَيَّبَتْ		أنصارُهُ وخَلاَ من الأعْوَانِ
بالي المعَالم أطرَقَتْ شُرُفاتُهُ		إطْراقَ مُنْجَذِبِ القَرِينةِ عانِي
أمَقَاصِرَ الغِزْلانِ غَيَّرَكِ البِلَى		حتى غَدَوتِ مرابِضَ الغِزْلان
وملاعِبَ الإنس الجميع طَوى الرَّدَى		منهُمْ فَصِرْتِ ملاعِبَ الْجِنَّانِ

ومنها:

مِسْكِيَّةُ النَّفَحات تَحْسَبُ تُرْبَها		بُرْدَ الخليع مُعَطَّرَ الأرْدانِ
وكأنما نَسِيَ التِّجارُ لَطِيمَةً		جَرتِ الرِّياحُ بها على الْقِيعَانِ[1]
ماء كجَيْبِ الدِّرع يَصْقُله الصَّبا		ويَفِي[2] بدَوْحَته النسيم الواني
زَفَرَ الزمانُ عليهمُ فتفرَّقُوا		وجَلَوا عن الأقطار والأوطانِ

وقال أبو إسحٰق الصابي، وتوارَدَ مع الشريف الرضي في المعنى والقافية، يصف قصر رَوحٍ بالبصرة[3]: [الكامل]

أحْبِبْ إليَّ بِقَصْرِ رَوحٍ منزلاً		شَهِدَت بَنِيَّتُهُ بفضل الباني
سورٌ عَلا وتَمَنّعَتْ شُرُفاتُهُ		فكأنَّ[4] إحداهُنَّ هَضْبُ أبَانِ
وكأنّما يَشْكو إلى زُوَّارِهِ		بَينَ الخليطِ وفُرْقَةَ الجيران
وكأنّما يُبْدِي لهمْ من نفسه		إطراقَ محزونِ الحَشَا حَرّانِ

ولأحمد بن فرج الإلبيري[5] من أبيات: [الوافر]

سألْتَ بها فما رَدّتْ جَوابًا		عليك، وكيف تُخبِرُك الطُّلولُ؟

---

(١) التِّجارُ: جمع تاجر. اللَّطِيمَةُ: وعاء المِسْك. القيعان: جمع قاع وهو الأرض السهلة بين جبلين. لسان العرب (تجر) و (لطم) و (قيع). وفي ديوان الشريف الرضي: «العِقْيان».
(٢) في الديوان: «ونَقًا يذْرجه».
(٣) الأبيات في يتيمة الدهر (ج ٢ ص ٢٦٨).
(٤) في يتيمة الدهر: «وكأنَّ».
(٥) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني، نسبة إلى جيان من إلبيرة؛ وافر الأدب، كثير الشعر، معدود في العلماء الشعراء. له كتاب «الحدائق» ألّفه للحكم المستنصر. سجنه الحكم فمات في سجنه. جذوة المقتبس (ص ١٠٥) وبغية الملتمس (ص ١٥١) والمغرب (ج ٢ ص ٥٦) والمطرب (ص ٤).

وِمِـنْ سَـفَـهٍ سُـؤالُـكَ رَسْـمَ دارٍ مَـضَـى لـعَـفَـائِـهِ زَمَـنٌ طَـويـلُ
فَـإنْ تَـكُ أصْبَحَتْ قَفْرًا خَلاءً لِعَينِكَ في مَغَانيها هُمُولُ
فَقِدْمًا قَد نَعِمْتَ قَرِيرَ عَينٍ بها وبِرَبْعِها الرشأُ الكَحِيلُ

وقال أبو عبد اللّه بن الحناط[1] الأندلسي الأعمى: [البسيط]

لو كنتَ تَعْلَمُ ما بالقلبِ من نارِ لم تُوقِدِ النارَ بالهنديِّ والْغَارِ
يا دارَ عُلْوَةَ، قد هَيَّجْتِ لي شَجَنًا وزِدْتِني حُرَقًا، حُيِّيتِ مِنْ دارِ
كم بِتُّ فيكِ على اللّذّات مُعْتَكِفًا والليلُ مُدَّرعٌ ثوبًا من القارِ
كأنه راهبٌ في المِسْحِ مُلْتَحِفٌ شَدَّ المُجِدُّ له وَسْطًا بزُنَّارِ
يُديرُ فيه كؤوسَ الراحِ ذو حَوَرٍ يُديرُ مِنْ لحظه[2] ألحاظ سَحَّارِ

ولا مزيد في التفجّع على الديار، والتوجّع للدِّمَن والآثار، على قول البحتري من قصيدة يرثي بها المتوكل[3]: [الطويل]

مَحَلٌّ على القاطولِ أخْلَقَ داثِرُهْ وعادَتْ صروفُ الدّهرِ جيشًا تُغاوِرُهْ[4]
كأن الصَّبا تُوفي نذورًا إذا انبرت تراوِحُه أذيالُها وتباكِرُه
ورُبَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهْدُه تَرِقُّ حواشيهِ ويونقُ[5] ناضره
تَغَيَّرَ حُسْنُ الجعْفريِّ وأُنْسُه وقُوِّض بادي الجعفريِّ وحاضره[6]
تَحَمَّلَ عنه ساكنوه فُجاءَةً فعادتْ سواء دُوره ومقابره
إذا نحن زُرْناه أجَدَّ لنا الأسَى وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائرُه
ولم أنسَ وَحْشَ القصرِ إذْ رِيعَ سِرْبهُ وإذْ ذُعِرَتْ أطلاؤه وجآذِرُه[7]

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الخياط». وقد تقدّمت ترجمة ابن الحناط في الجزء الأول. من نفح الطيب.
(٢) في طبعة دار صادر: «طرْفه».
(٣) القصيدة في ديوان البحتري (ص ٣١).
(٤) القاطول: نهر كان في موضع سامرّاء قبل أن تُعمَّر. معجم البلدان (ج ٤ ص ٢٩٧). تغاوره: تُغيرُ عليه. لسان العرب (غور).
(٥) في الديوان: «ويورق».
(٦) في الديوان: «وحاصره» بدل «وحاضره». والجعفري هو قصر المتوكِّل.
(٧) الأطلاء: جمع طَلْو وهو ولد الظَّبي. الجَآذر: جمع جُؤْذُر وهو ولد البقرة الوحشية. لسان العرب (طلا) و (جذر).

وإذ صِيحَ فيه بالرحيل فَهُتِّكَتْ ... على عَجَلٍ أسْتَارُه وستائره
وأَوْحَشَهُ[1] حتى كأن لم يكن به ... أَنِيسٌ ولم تَحْسُنْ لِعَينٍ مَنَاظِرُه
كأنْ لم تَبِتْ فيه الخلافة طَلْقَة ... بشاشَتُهَا والمُلْكُ يُشْرِقُ زاهرهُ
ولم تَجْمَعِ الدُّنيا إليه بَهاءَهَا ... وبَهْجَتَهَا والعَيْشُ غَضٌّ مَكاسِرُهْ
فأين الْحِجَابُ الصعب حيث تمنَّعَتْ ... بِهَيْبَتِهَا أبوابُه ومقاصِرُهْ؟
وأين عميدُ الناسِ في كلِّ نَوْبة ... تنوبُ وناهي الدهر فيهم وآمره؟

وعلى قول أبي إسحق بن خفاجة الأندلسي[2]: [الوافر]

ومُرْتَبَعٍ حَطَطْتُ الرَّحْلَ فيه ... بحيثُ الظِّلُّ والماءُ القَرَاحُ[3]
تَخَرَّمَ[4] حُسْنَ منظره مليكٌ ... تَخَرَّمَ مُلْكَهُ القَدَرُ الْمُتَاحُ
فَجِرْيَةُ ماءِ جَدْوَلِهِ بكاءٌ ... عليه، وشَدْوُ طائِرِه نُوَاحُ[5]

وهذا النوع من البكاء على الدِّمَن، والتأسّف على ما فعلت بها أيدي الزمن، كثير جدًا، لا يعرف الباحثُ عنه له حَدًّا، وذلك لشدّة وَلُوع النفوس بذكر أحبابها، وحنينها إلى أماكنها التي هي مواطن أطرابها، ولهذا اقتصرْنا على هذه النبذة القليلة، وجعلْناها نَغْبَةً[6] يشفي المشوقُ بها غليلَه، وقد كره بعض العقلاء التأسّف على الديار لعلْمهم أنه لا يُجْدِي، ولا يدفعُ عادية الدهر الخؤون ولا يُعْدِي، ونَهَوْا عنه لِمَا فيه من تجديد المصاب، المجرّع لصاحبه الصاب والأوصاب[7].

قال أبو عمر بن عبد البر[8]: [الكامل]

عَفَتِ المنازلُ غَيرَ أَرْسُمِ دِمْنَةٍ ... حَيَّيتُهَا مِنْ دِمْنَةٍ وَرُسُوم

---

(١) في الديوان: «ووحشته».
(٢) الأبيات في ديوان ابن خفاجة (ص ٦٤).
(٣) في الديوان: «منه» بدل «فيه». والمُرْتَبَعُ: مكان النزول في فصل الربيع. لسان العرب (ربع).
(٤) في الديوان: يُخَرِّمُ... يُخَرِّمُ مُلْكَهُ..».
(٥) في الديوان: «نِياحُ» وكلاهما بمعنى وهو النوح.
(٦) النُّغْبَةُ: الجرعة. لسان العرب (نغب).
(٧) الصاب: شجر مُرُّ الطعم. الأوصاب: جمع وَصَب وهو المرض والوجع الدائم: لسان العرب (صوب) و (صب).
(٨) هو يوسف بن عبد اللّه بن محمد بن عبد البرّ بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام أهل الأندلس في الفقه =

كم ذا الوقوفُ ولم تَقِفْ في مَنْسَكٍ　　كم ذا الطوافُ ولم تَطُفْ بحريمِ
فَكلِ الديارَ إلى الجنائبِ[1] والصَّبَا　　وَدَعِ القِفَارَ إلى الصَّدَى والبُومِ

انتهى كلامه رحمه اللّه تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار.

رجع إلى قرطبة ـ فنقول: وقد أَلَمَّ لسان الدين ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى، بذكر قرطبة وبعض أوصافها في كتاب له كتبه على لسان سلطانه إلى رسول اللّه، ﷺ، وقد ذكرناه بجملته في الباب الخامس من القسم الثاني فليراجَع ثَمَّةَ، ونَصُّ محلِّ الحاجة منه هنا: ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومَثْوَى الطارف والتِّلاد، قرطبة، وما قرطبة؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسيُّ الذي بعصاه رُعِي الهَمَل، والمصر المعمور[2] الذي في خطّه الناقة والجمل، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمية الحمل، فخيّم الإسلام في عُقوتها[3] المُسْتَبَاحة، وأجاز نهرها المعيي على السباحة، وعَمَّ دوحها الأشِبَ بوارًا، وأدار المحلات بسورها سوارًا، وأخذ بمُخَنَّقِها حصارًا، وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصارًا، وجَدَّلَ مِنْ أبطالها مَنْ لم يَرْضَ انجحارًا[4]، فأعمل إلى المسلمين إصحارًا، حتى قرع بعضَ جهاتها غِلابًا جهارًا، ورفعت الأعلامُ إعلامًا بعزِّ الإسلام وإظهارًا، فلولا استهلال الغوادي، وأن أتى الوادي، لأَفْضَتْ إلى فَتْح الفتوح تلك المبادي، وَلَقَضَى تَفَثَه العاكِفُ والبادي. انتهى.

ومِمّا كتب له لسان الدين ـ رحمه اللّه تعالى ـ في وصف هذه الغَزْوة لسلطان بني مَرِين على لسان صاحب الأندلس[5]، ما صورته: المقامُ الذي نَطالعه بأخبار الجهاد، ونُهْدِي إليه عواليَ العوالي صحيحة الإسناد، ونبشّره بأخبار الفتح البعيد الآماد، ونسأل اللّه

= والحديث. توفي سنة ٤٦٣ هـ بمدينة شاطبة من شرق الأندلس. الصلة (ص ٩٧٣) ووفيات الأعيان (ج ٧ ص ٦٦) والمغرب (ج ٢ ص ٤٠٧) وجذوة المقتبس (ص٣٦٧) وبغية الملتمس (ص ٤٨٩). وفي المصدرين الأخيرين أنه توفي سنة ٤٦٠ هـ. والذخيرة (ق ٣ ص ١٢٥) وفيها أنه توفي سنة ٤٧٤ هـ. وقلائد العقيان (ص ١٨٠).

(١) الجنائب: جمع جنوب وهي ريح تخالف الشمال، أي تهبُّ من الجنوب.

(٢) في طبعة دار صادر: «والمصر الذي له في خطّه المعمور الناقة...».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «عُقْرَتِها». والعُقْوَةُ: الساحة.

(٤) الانجحار: الدخول في الجحر. لسان العرب (جحر).

(٥) وهو الغني باللّه، وقد تقدمت ترجمته.

تعالى له تَـوَاليَ الإسعاف ودوام الإسعـاد والإمداد، ونـرتقب مِنْ صُنْع اللَّه تعـالى على يديـه تكييفًا يخرق حجاب المعتاد، وامتعاضًا يُطْلِعُ بآفاق البلاد نجـومَ غرر الجيـاد، ويفتح أبـواب الفتوح بأقاليد السيوف الحِداد، وينبيء عن مكارم مَنْ سلف من الآباء الكرام والأجداد، مقامُ مَحَـلٍّ أخينا الـذي نستفتح لـه بالفتـح والظهـور، ونهدي إلى مَجْـده لما نعلم من فضـل نيّته وحُسْن قصـده لَطائِفَ السـرور، ونستظهـر بملكه المؤيّـد المؤمَّل ومجـده المشهور، ونتـوعّد منهما العدوَّ بالحبيب المَذْخُـور والولي المنصـور، السلطان الكذا ابنُ[1] الكـذا ابن السلطان الكذا أبقاه اللَّه تعالى عاليَ القدر، قرير العين منشرح الصـدر، ولا زال حديث فخـره سائـرًا مسيرَ الشمس والبدر، عَـظَّمَ سلطانه الخَليقَ بـالتعظيم، الـواثقُ منه بـالذُّخـر الكريم، المُثْنِي على مجـده الصَّميم وفضله العميم، أميـرُ المسلمين عبـد اللَّه الغني بـاللَّه مـحمـد بـن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيـل بن فرج بن نصـر: سلام كريم، برٌّ عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، وأُخُوَّتكم الفضْلى، ورحمة اللَّه وبركـاته. أمّـا بعد حمد اللَّه ربِّ العباد، ومُلْهِم الرشاد، ومُكَيِّف الإسعاف والإسعاد، الولي النصير الـذي نُلْقي إلى التوكُّلِ عليه مقاليدَ الاعتماد، ونمدُّ إلى إنجاده، وإمداده[2] أيديَ الاعتـداد، ونرفـع إليه أكفَّ الاستمداد، ونُخْلصُ لوجهـه الكريم عمـلَ الجهاد، فنتعـرَّف عوارفَ الفضـل المزداد، ونجتني ثمار النصر من أغصـان القَنَا المنـآد[3]، ونجتلي وُجُوهَ الصنـع الْوَسيم أبهـر من وجه الصباح الباد، ونظفر بالنعيم العاجل في الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الأشهـاد، ونَتَفَيَّأ ظـلالَ الجَنَّـة من تحت أوراق السيوف الحِـداد، والصَّلاة على سيِّـدنا ومـولانا محمـد رسولـه النبيّ الهاد، رسول المَلْحَمَة المؤيَّدِ بالملائكة الشداد، ونبيِّ الرحمة الهـامية العِهَـاد، أكرمِ الخلق بين الـرائح والغـاد، ذي اللواء المعقود والْحَـوض المورود والشفـاعة في يـوم التَّنَـاد، الـذي بجاهه تجْدَع أنوفَ الآساد يوم الجِلاَد، وببركته ننالُ أَقْصَى الأمل والمراد، وفي مَرْضَاته نَصِلُ أسبـابَ الوداد، فنعـود بالتَّجْـر الرابـح من مَرْضـاة ربِّ العباد، ونستـولي مِنْ ميـدان السعـادة المعادة على الآماد، والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وحزبـه الكرمـاء الأمجاد، دعـائم الدين من بَعْـده وهُداة العبـاد، أنجاد الأنجـاد وآساد الآسـاد، الذين ظـاهـروه في حيـاتـه بـالحلوم

---

(١) في طبعة دار صادر: «ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه».

(٢) كلمة «وإمداده» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) في طبعة دار صادر: «المَيّاد».

الراجحة الأطواد، والبَسالة التي لا تُنال بـالعُدَد في سبيـل اللَّه والأعداد، حتى بَـوَّأوا الإسلام في القـواعد الشهيـرة والبلاد، وأرغمـوا أنوفَ أهـل الجحد والإلحـاد، فأصبـح الـدينُ رفيـعَ العماد، منصور العساكر والأجناد، مستصحب العزِّ في الإصدار والإيراد، والـدعاء لمقـامكم الأعلى بالسَّعد الذي يُغْني عن اختيار الطوالع وتقويم الميلاد، والنصر الذي تُشْـرِق أنباؤه في جنح ليل المداد، والصنع الذي تُشْرع له أبواب التوفيق والسَّداد، من حمْراء غَرْناطة حَـرَسَها اللَّه واليسـر[1] قد وطأ المِهاد، والخيـر واضح الأشهـاد، والحمـد للَّه في المبـدإ والْمَعـاد، والشكـرُ له على آلائـه المتّصلة التَّرْداد، ومقـامكم الذخـر الكافي العَتـاد، والمردّد المتكفّـل بـالإنجاد، وإلى هـذا وصل اللَّه سعـدكم، وحـرس مجـدكم، ووالَى نَصْـرَكم وعَضَّـدكم[2] وبلغكم من فضله العميم أَمَلَكم وقصْـدكم، فإننـا نؤثـر تعـريفكم بتافـه المتزيّـدات، ونـورد عليكم أشتـات الأحوال المتجـدِّدات، إقامـةً لرسم الخلوص في التعـريف بمـا قـلّ، ومـودّة خـالصة في اللَّه عَـزَّ وجلّ، فكيف إذا كـان التعريف بمـا تهتزُّ لـه[3] منابـر الإسلام ارتيـاحًـا لـوروده، وتنشرحُ الصـدورُ منه لمـواقع فضـل اللَّه وجوده، والمكيّفـات البديعـة الصفات في وجوده، وهو أننا قَدَّمْنـا إعلامكم بمـا نَوَيْنـاه من غزو مـدينة قُـرْطُبة أمِّ البـلاد الكافـرة، ومَقَرِّ الحامية المشهـودة والخيرات الـوافرة، والقُـطْر الذي عهـده بإلمـام الإسلام متقـادم، والركن الـذي لا يتوقّـع صَدْمَـةَ صادم، وقـد اشتمل سـورها من زعمـاء ملّة الصليب على كل رئيس بئيس، وهِزَبْرِ خِيْس[4]، وذي مكرٍ وتَلْبيس، ومن له سِمَة تذيـع مكانـه وتشيعه، وأتبـاع على المَنْشَط والمَكْرَه تطيعـه، فاستـدْعَيْنا المسلمين من أقـاصي البلاد، وأذَعْنـا في الجهات نَفِيـرَ الجهاد، وتَقَدَّمْنَا إلى الناس بِسَعَة الأزواد، وأعطينا الحركـة التي تخلف المسلمون فيهـا وراء جمهـور الكفـر من الأقـطار والأعـداد حقّهـا من الاستعـداد، وأفَضْنَـا العـطاء والاستلحـاق والاستـركاب في أهـل الغَناء وأبـطال[5] الجهاد والجـلاد، فحشر الخلق في صَعيـد، وأخذوا الأهبة والزينة في عيد سعيد، وشمل الاستـدعاء كـل قريب وبعيـد عن وعد ووعيـد، ورحلْنا وفضلُ اللَّه شامل، والتوكّل عليه كـافٍ كافـل، وخَيَّمْنا بـظاهر الحضـرة حتى استوفى النـاس

---

(١) في طبعة دار صادر: «واليسر وثيق المهاد. . .».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وعَضدكم، وعددكم وعددكم، وبلغكم. . .».

(٣) كلمة «له» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) الخِيسُ، بكسر الخاء وسكون الياء: غابة الأسد. لسان العرب (خيس).

(٥) في طبعة دار صادر: «وأبطال الجلاد، فحشر».

آرابَهُم، واستكملوا أسْرَابهم، ودُسْنا منهم بـلادَ النصـارى بجمـوع كثّرهـا اللّه ولـه الحمـد وأنماها، وأبعد في التماس ما عنده من الأجر مُنْتَماها، وعندما حَلَلْنا قَاشُرُهْ[1] وجدنا السلطان دُونْ بِـطْرُه مؤمـل نصـرنـا وإنجـادنـا، ومستعيـد حـظّه من مـواقـع[2] مهـادنـا، ومقتضي دَين كدْحه بـإعانتنـا إيّاه وإنجادنا، قـد نـَزَلَ بـظاهـرهـا في محـلاّت مِمَّن استقـرَّ على دعـوتـه، وتمسَّك بطاعته، وشمله حكم جماعته، فكان لقاؤنا إيّـاه على حالٍ أقَـرَّت عيون المسلمين، وتكفَّلت بإعزاز الدين، ومجملها يُغْني عن التعيين، والشرح والتبيين، ورأى هو ومن معه من وفور جيش اللّه ما هالهم، وأشكَ في حال اليقظة خيـالهم، من جموع تَسُـدُّ الفضا، وأبـطال تُنَازع[3] أسْدَ الغَضَا، وكتائب منصـورة، ورايات منشـورة، وأمم محشورة، تفضـل عن مَرْأَى العَين، وتُرْدِي العَدُوَّ في مَهَـاوِي الْحَين[4]، فاعتـرفوا بمـا لم يكن في حسابهم، واعتبـر في عزة اللّه سبحانه أولو ألبابهم، وإذا كَثَّرَ اللّه تعالى العدد نما وزكا، وإذا أزاح العِللَ مـا اعتذر غـازٍ ولا شكا، وسـالت من الغد الأبـاطح بـالأعراف، وسَمَت الهـوادي[5] إلى الاستشراف، وأخذ الترتيب حقّـه من المواسط الجهـاديّة والأطـراف، وأحكمت التعبية التي لا تـرى العينُ فيها خَلَلا، ولا يجدُ الاعتبار عندها دَخَلا، وكان النزول على فَرْسخ من عُـدْوَة النهر الأعـظم من خارج المدينة أنجز اللّه تعالى وَعْدَ دمَارها، وأعادها إلى عهـدها في الإسـلام وشعارهـا، ومحا ظلام الكُفْـر من آفاقهـا بملّة الإسلام وأنـوارها، وقـد برزت من حـاميتها شـوكة سـابغة الـدروع، وافرة الجمـوع، واستَجَنَّتْ[6] من أسوار القنـطرة العظمى بحمًى لا يُخْفَـر، وأخـذ أعقـابها من الحُمَـاة والكماة العـدَدَ الأوفر، فبـادر إليهم سَرْعَـانُ خَيْلِ المسلمين فصَـدَقُوهم الدفاع والقِرَاع، والمِصَال والمِصَاع، وخالطوهم هَبْرًا بالسيوف، ومباكرة بالحُتُوف، فتـركوهم حصِيدًا، وأذاقوهم وَبَالاً شديـدًا وجدَّلـوا منهم جملة وافرة، وأُمَّـة كافـرة، وملكوا بعضَ تلك الأسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة، وظهرت عليها عزماتهم الصـادقة، واقتحم المسلمـون

---

(١) قَاشُرُهْ: ذكرها يـاقوت في معجم البلدان (ج ٤ ص ٢٩٧) وعـدّها من أقـاليم لبلة. وفي اللمحة البـدرية (ص ٩٢، ١١٤): حصن قشرة.

(٢) في طبعة دار صادر: «من لواحق».

(٣) في طبعة دار صادر: «تُقارع أُسُودَ الغَضَا...».

(٤) الحَينُ: الهَلاك. لسان العرب (حين).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «وسمت الهوى...».

(٦) اسْتَجَنَّ: استتر بالجُنَّة، أي لبس الجُنَّة وهي السُّتْرة وكلّ ما وَقى من سلاح. لسان العرب (جنن).

الواديَ سَبْحًا[١] في غَمْرِه، واستهانةً في سبيل اللَّه بـأمره، وخـالطوا حـامية العـدو في ضفّته فاقتلعوهـا، وتلَّقوا بـأوائل الأسـوار ففرَعُـوها، فلو كُنَّـا في ذلك اليـوم على عَزْم من القتـال، وتيسيـر الآلات وترتيب الـرجال، لَـدُخِلَ البلدُ، ومُلِك الأهـلُ والولـد، لكن أجار الكفّـار من الليل كافـر، وقد هلك منهم عـدَد وافر، ورَجَـعَ المسلمون إلى محـلاّتهم ونَصْرُ اللَّه سـافر، والعزم ظافر، ومن الغد خُضْنا البحر الذي جعلنا العزم فيه سَفِينًـا، والتوكّـل على اللَّه للبلاغ ضمينًا، ونَزَلْنا من ضِفَّتِهِ القُصْـوَى منزلاً عـزيزًا مكينًـا، بحيث يجاور سـورها طُنُب القبـاب، وتصيب دورها من بين الخيمات[٢] بوارق النّشاب، وبرزت حاميتُها على متعدّدات الأبـواب، مقيمة أسواق الطِّعان والضِّـراب، فآبَتْ بصَفْقـة الخُسْر والتبـاب[٣]. ولما شـرعْنا في قتـالها، ورتّبْنا أشتات النِّكايات لنكالها، وإن كُنّا لم نُبْقِ على مُطاولـة نِزالهـا، أنزل اللَّه المـطرَ الذي قَدُم بعِهاده العَهْد، وساوى النجدُ من طوفَـانه الـوهْد، وعـظم به الجهْـد، ووقع الإبقـاء على السلاح، والكفّ بالضرورة عن الكفاح، وبلغ المقام عليها، والأخذ بمُخَنَّقِها والثَّواء لديهـا، خمسة أيام لم تَخْـلُ فيها الأسـوار من اقتراع، ولا الأبـواب من دفاع عليهـا وقِراع، وأنفـذت مقـاتل الستـائر أنقـابًا، وارتقب الفتـح الموعـود ارتقـابًـا، وفَشَتْ في أهلهـا الجـراح والعَيْث الصُّراح، وساءهم المساء بعزة اللَّه والصّباح، ولولا عائق المطر لكـان الإجهاز والاستفتـاح، واللَّه بعدها الفتّاح، وصُرِفَتِ الوجوهُ إلى تخريب العُمْران، وتسليط النيران، وعَقْر الأشجـار، وتعْفية الآثار، وأتى منهـا العَفاء على المصْـر الشهير في الأمصـار، وتركت زروعهـا المائحـة عِبْـرة لأولي الأبصار، ورَحَلْنـا عنها وقـد أَلْبَسَها الـدخانُ حـدادًا، ونكس من طغاتهـا أجيادًا، فاعتادت الذلّ اعتيادًا، وألفت الهون قيادًا، وكادت أن تستباح عَنْـوَةً لولا أن اللَّه تعـالى جعل لها ميعادًا، وأتى القتل من أبطالها، ومشاهير رجالها، ممن يبارز وينـاطح، ويمـاسي بالنـاس ويُصـابح، على عـدد جَمٍّ أخبرت سِيمـاهم المشهـورة بـأسمـائهم، ونَبَّهَتْ عـلامـاتهم على نبـاهاتهم[٤]، وظهـر إقدام المسلمين في المعتـركـات، وبـروزهم بـالحـدود المشتـركـات، وتنفيلهم الأسلاب، وقَودهم الخيلَ المسوّمـة قَود الغِـلاب، وكان القُفـول، وقد شمـل الأمن والقبول، وحصل الجهاد المقبول، وراع الكُفْرَ العِزُّ الذي يَهُول، والإقـدامُ الذي شهـدت به

(١) في طبعة عبد الحميد: «سيّما».

(٢) في طبعة دار صادر: «المخيّمات».

(٣) التَّبابُ: الهلاك. لسان العرب (تبب).

(٤) في طبعة دار صادر: «نبهائهم».

الرماح والخيول، وخاض المسلمون من زَرْع الطرق التي ركبوها، والمنازل التي استباحوها وانتهبوها، بحورًا بَعُدَ منها الساحل، وفلاحة مُدْركة تتعدّد فيها المراحل، فصيّروها صَرِيمًا[1]، وسلّطوا عليها النار غريمًا، وحَلُّوا بظاهر حِصْن أَنْدُوَجَر[2] وقد أصبح مألف أذْمار غير أوشاب، ووكر طير[3] نشاب، فلما بلونا مِرَاسَه صَعْبًا، وأبراجه مُلِئَتْ حَرَسًا شديدًا وشُهُبًا، ضَنًّا بالنفوس أنْ تفيض دون افتتاحه، فسلَّطْنا العَفَاء على سَاحه، وأغرينا الغارات باستيعاب ما بأحوازه واكتساحِه، وسلَّطْنا النارَ على حُزُونِهِ[4] وبِطَاحه، وألصقْنا بالرغام ذوائبَ أدواحه، وانصرَفْنا بفضل اللّه والمناجلُ دامية، والأجورُ نامية، وقد وَطِئْنا المواطىء التي كانت على الملوك قبلنا بَسْلاً[5]، ولم نترك بها حرثًا يرفد ولا نَسْلاً، ولا ضَرْعًا يرسل رَسْلاً، والحمد للّه الذي يتم[6] النعيم بحمده، ونسأله حُلة[7] النصر فما النصرُ إلّا من عنده؛ عَرَّفْناكم بهذه الكيفيات، الكريمة الصفات، والصنائع الروائع التي بَعُدَ العهدُ بمثلها في هذه الأوقات، علمًا بأنّها لديكم مِنْ أحسن الهديات الوُدِّيات، ولما نعلمه لديكم من حسن النِّيَّات وكرم الطَّوِيّات، فإنكم سُلالَة الجهاد المقبول، والرِّفْد المبذول، ووعد النصر المفعول، ونرجو اللّه، عزَّ وجلَّ، أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهاديّة، إلى المُعَاينة في نصر الملة المحمّديّة، وأن يجمع اللّه بكم كلمة الإسلام، على عَبَدة الأصنام، ويتمّ النّعمة على الأنام، ووُدُّنا لكم - ما علمتم - يزيد على مَمَرِّ الأيام، واللّه يجعله في ذاته لكم مُتَّصل الدوام، مُبَلِّغًا إلى دار السلام، وهو سبحانه يَصِلُ سَعْدكم، ويحرس مجدكم، ويضاعف الآلاء عندكم، والسلام الكريم يخصُّكم ورحمة اللّه وبركاته، انتهى.

ومن هذا المَنْحَى ما كتب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى عن سلطانه، ونَصُّه: المقامُ الذي أحاديثُ سعادته لا تُمَلُّ على الإعادة والتكرار، وسبيل مَجَادته الشهيرة أوضح من

---

(١) الصَّريمُ: القطعة من معظم الرمل، محيط المحيط (صرم). والمراد هنا أنهم صَيَّروها أرضًا لا نبات فيها.

(٢) أندوجر، بالإسبانية Andujar، وفي معجم البلدان (ج ١ ص ٣٦٤): «أَنْدُوشَر» وهي حصن بالأندلس بقرب قرطبة.

(٣) في طبعة دار صادر: «طيور».

(٤) الحزون: جمع حَزْن وهو ما غَلُظ من الأرض، مختار الصحاح (حزن).

(٥) بَسْلاً: أي محرَّمة. مختار الصحاح (بسل).

(٦) في طبعة دار صادر: «يتمّم».

(٧) في طبعة صادر: «صلة».

شمس الظهيرة عند الاستظهار، وأخبارُ صنائع اللّه لملكه، ونظمُ فرائد الآمال في سِلْكه، تخلدها أقلامُ الأقدار، بِمِداد الليل في قرطاس النهار، وتَرْسُمُها بتذهيب الإسفار في صفحات الأقمار، وتجعلها هِجِّيرَى[1] حملاء الأسفار، وحُداة القطار في مسالك الأقطار، مقامُ محلّ أخينا الذي نلذُّ عادة هنائه مع الإعادة، ونتلقّى أنباء علائه بالإذاعة والإشادة، ونُطَرِّز بأعلام ثنائه صحائفَ المَجادة، ونشكر اللّه أنْ وَهَبَ لنا من أُخُوَّته المضافة إلى المحبّة والوَدادة، وما يرجّح في ميزان الاعتبار أُخُوَّة الولادة، وعَرَّفنا بيُمْن ولايته عوارف السعادة، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه اللّه تعالى في أعلام الملك السعيد، بَيْتَ القصيد، ووُسْطَى القِلادة، ومجلى الكمال الذي تبارى بميدان بأسه وجوده جنسا الإبادة والإفادة، ولا زالت آمالُه القاصية تنثال طَوعَ الإرادة، ويمن نقِيبته يجمع من أشتات الفتوح والعِزّ الممنوح بين الحسنى والزيادة[2]، مُعَظِّمُ سلطانه العالي، المُثْني على مجده المرفوع إسنادُه في عَوَالي المعالي، المسرور بما يسنيه اللّه له من الصنع المتوالي، والفتح المُقَدَّم والتالي، أميرُ المسلمين عبد اللّه الغني باللّه محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر، أَيَّدَ اللّهُ أمره، وأسعد نصره[3]: سلام كريم يتأرَّجُ في الآفاق شَذَا طِيبِهِ، وتُسْمع في ذِرْوَة الودّ بلاغة خطيبه، ويتضمّن نوره سواد المِداد، عند مُراسلة الوداد، فيكاد يذهب بعُبُوسه المجهول وتقطيبه، ورحمة اللّه وبركاته، أَمَّا بَعْدَ حمدِ اللّه فاتحِ الأبواب بمقاليد الأسباب، مهما استصعبتْ، ومُيَسِّرِ الأمور بمحكم المقدور إذا أَجْهَدَتِ الحِيَلُ وأَتْعَبَتْ، مُخْمِدِ نِيران الفتن ما التَهَبَتْ، وجامعِ كلمة الإسلام وقد تَصَدَّعَتْ وتَشَعَّبَتْ، ومُسْكِنِ رَجَفان الأرض بعدما اضطربتْ، ومُحْيِيها، بعِهاد الرحمة مهما اهتزَّتْ وَرَبَتْ، اللطيفِ الخبيرِ الذي قَدَّرَتْ حكمتُهُ الأمورَ ورتَّبَتْ، مُنْهِي كلِّ نَفْسٍ إلى ما خَطَّتِ الأقلامُ عليها وكتبتْ، ونَفَتْ وأوجبتْ وشاءت وأَبَتْ، ومُجَازِيها يوم العرض بما كسبت، والصلاةِ والسلامِ على سيّدنا ومولانا محمد رسوله هازم الأحزاب لمّا تألَّفت وتأَلَّبَتْ[4]، وجالب الحَتْفِ إليها عندما أجلبت[5]، رسول الملحمة إذا الليوث وَثَبَتْ،

---

(١) الهِجِّيرَى: مصدر هاجر، وهي هنا بمعنى الدَّأْب والعادة. محيط المحيط (هجر).

(٢) في طبعة دار صادر: «وزيادة».

(٣) في طبعة دار صادر: «عصره».

(٤) تألَّبَتْ: تَجَمَّعَتْ. لسان العرب (ألب).

(٥) أَجْلَبَتْ: اختلطت أصوات بعضها ببعض وضَجَّتْ، لسان العرب (جلب).

ونبيّ الرحمة التي هيّأت النجاة وسَبَّبَتْ، وأبلغت النفوس المطمئنّة من السعادة ما طلبتْ، ومُداوي القلوب المريضة وقد انتكبت وانقلبت، بلطائفه التي راضتْ وهَذَّبَتْ، وقادتْ إلى الجنّة العليا واستجلبت، وأدَّتْ عن اللّه وأَدَّبَتْ، الذي بجاهه نستكشف الغَمّاء إذا أطنبت[1]، ونَسْتَوكف[2] النَّعماء إذا أخلفتِ البروقُ وكذبتْ، ونَتَحابُّ في طاعته ابتغاءَ الوسيلة إلى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت، والرِّضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه التي استحقّت المزية المرضية واستوجبت، لما انتمت إلى كماله وانتسبت، وببذل نفوسها في اللّه ومَرْضاته تَقَرَّبَتْ، وإلى نصرته في حياته انتدبتْ، والمناصل قد رويت من دماء الأعداء واخْتَضَبَتْ، وخلفته في أمّته بَعْدَ مَماته بالهمم التي عن صدق اليقين أَعْرَبَتْ، فتداعت لمجاهدة الكُفّار وانتدبتْ، وأبعدت المُغَار وأدربت[3]، حتى بلغ ملك أمّته أقاصي البلاد التي نَبَتْ[4]، فكسرت الصُّلُبَ التي نُصِبَتْ، ونفَّلَتِ التيجانَ التي عُصِبَتْ، ما هَمَتِ السُّحُبُ وانْسَحَبَتْ، وطَلَعَتِ الشمسُ وغَرَبَتْ، والدعاء لِمَثابتكم العليا بالنصر العزيز كلّما جُهِّزَتِ الكتائبُ وتكتَّبَتْ، والفتح المبين كلّما ركنت عقائل القواعد إذا خُطِبت، والصنائع التي مَهْما حَدَّقَتْ فيها العيونُ تَعَجَّبَتْ، أو جالت في لطائفها الأفكار استطابت مَذاق الشكر واستعذبتْ، حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت، فإنّا كتبنا إليكم كَتَبَ اللّه لكم أَغْيا[5] ما سألت الألسن السائلة واستوعبت، من حَمْراء غرناطة حرسها اللّه تعالى وجنودُ اللّه بفضل اللّه تعالى ونعمته قد غلبتْ، وفتحتْ وسلبتْ، وأُسُودُ جهادِهِ قد أَرْدتِ الأعداء بعدما كَلِبَتْ، ومراعي الآمال قد أَخْصَبَتْ، والحمد للّه حَمْدًا يجلو وجوه الرِّضا بعدما احتجبتْ، ويفتحُ أبوابَ المزيد فكلّما استقبلها الأملُ رَحَّبَتْ، والشكرُ يُقيِّدُ شواردَ النعم ممّا أَبِقَتْ وما هَرَبَتْ، وإلى هذا ـ وَصَلَ اللّهُ لمقامكم أسبابَ الظهور والاعتلاء، وعَرَّفكم عوارفَ الآلاء على الولاء ـ فإنّنا لَمّا وَرَدَ علينا كتابُكم البرُّ الوِفادةِ، الجَمُّ الإفادة، الجامع بين الحسنى والزيادة، جالي غُرَّة الفتحِ الأعظمِ من ثنايا السعادة، وواهب المنن المُتَاحة وواصف النعم المعادة، فوَقَفنَا مِنْ رِقِّه المنشور على تُحَفٍ سَنِيَّة، وأمانيَّ هَنِيَّة، وقِطَاف للنصرَ جَنِيَّة، ضمنتْ سكون

---

(١) في طبعة دار صادر: «طَنَّبَتْ».

(٢) يقال: استوكف الماء: أي طلب جريانه. لسان العرب (وكف).

(٣) أَدْرَبَتْ في الغزو: جاوزت الدرب ووصلت إلى أرض العدو. لسان العرب (درب).

(٤) نَبَتْ: بَعُدَتْ. لسان العرب (نبا).

(٥) أَغْيا ما سألتِ الألسنُ: أي غايته.

البلاد وقرارها، وأن اللّه قد أذهب الفتنَ وأوارَها وأخْمَدَ نَارَها، ونَضَحَ عن وجه الإسلام عارَها، وجَمَعَ الأهواءَ على مَنْ هويته السعادة بعد أنْ أَجْهَدَ اختيارها، فأصبح الشتيتُ[1] مجتمعًا، وجُنْحُ الجناح مرتفعًا، والجبلُ المخالفُ خاشعًا مُتَصَدِّعًا، وأصحب في القياد[2] من كان مُتَمَنِّعًا، فاستوثقت الطاعة، وتَبَجَّحَتْ السنَّة والجماعة، وارتفعت الشناعة، وتمسّكت البلاد المكرهة بأذيال وَلِيِّها لَمَّا رَأَتْهُ، وعادت الأجياد العاطلة إلى حَلْيها بعدما أنكرتْه، أجَلْنَا جِياد الأقلام في ملعب الهناء ومَيْدانه، لأول أوقات إمكانه على بُعْد مكانه، وأجهدْنا عبارة الكلام في إجلال هذا الصنع وتعظيم شانه، وأغرينا الثناء بِشِيَمِ مجدكم في شرحه لنا وبيانه، رأينا أن لا نَكِلَ ذلك إلى الْيَرَاع، ونفرده فيه بالاجتماع، وما يتعاطاه من مُنّة[3] الذراع، وأنْ نَشدَّ بِردْءٍ من المشافهة أزْرَه، ونعضد بِمَعِينٍ من اللسان أمره، فَعَيَّنَّا لذلك مَنْ يفسِّرُ منه المجمل ويمهِّدُ المقصد المُعمَلَ، حتى يجمع بين أغراض البر، والعلن منه والسِّرّ، ويقيم شَتَّى الأدلّة على الوداد المستقرّ، ووجَّهْنا في غَرَض الرسالة به إليكم، واخترْنا لشرحه بين يديكم، خَطِيبَ الوفود، وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود، الشيخَ الجليلَ الشهيرَ الكبيرَ الصالحَ الفاضلَ أبا البركات ابن الحاج[4] ـ وصل اللّه حفظه! ـ وأجزلَ من الحمد واللطف حَظّه! ـ وهو البطل الذي لَا يُعَلَّم الإجالة في الميدان، ولا يبصَّر بوظائف ذلك الشان، ومُرَادنا منه أن يُطيلَ ويطيب، ويجيل في وصف محاسنكم اللسان الرّطيب، ويقرّر ما عندنا لمقامكم من التشيّع الذي قام على الحبّ المتوارث أساسُه، واطَّرد حكمه وأنتَجَ قياسه، وليجعل تلو مقصد الهناء، بمجلسكم الباهر السناء، الصارف إلى الجهاد في سبل اللّه والفناء، وجه التهمُّم والاعتناء، على مَرِّ الآناء، ما تجدّد لدينا من الأنباء في جهاد الأعداء، وإنْ كان رسولكم ـ أعزّه اللّه تعالى! ـ قد شارك في السُّرى والسَّير ويُمْنِ الطَّير،

---

(١) الشَّتِيتُ: المُشَتَّتُ، المُتَبَدِّدُ. لسان العرب (شتت).

(٢) أصحب في القياد من كان مُتَمَنِّعًا: أي أذلَّة وجعله ينقاد له.

(٣) المُنَّةُ: القوّة. مختار الصحاح (منن).

(٤) هو محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف السّلمي ابن الحاج البَلْفِيقي، نسبةً إلى بَلْفِيق وهو حصن من عمل ألمرية؛ كان شيخ ابن الخطيب، ومن مشاهير القضاة بالأندلس، تولَّى القضاء بمالقة ثم صار قاضي الجماعة بغرناطة. توفي بمدينة ألمرية سنة ٧٧٣ هـ. الكتيبة الكامنة (ص ١٢٧) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٦٤). وسيترجم له المقري في الجزء الثامن من نفح الطيب، وفيه أنه توفي سنة ٧٧١ هـ.

وأغنى في الحكاية عن الغير، فلا سَرَفَ في الخير، وهو أننا لَمَّا انْصَرَفْنا من مُنَازلة قرطبة نظرًا للحشود التي نفدَت مُعِدّات أزوادها، وشابت بهشيم الغَلَّة المستغَلَّة مفارقُ بلادها، وإشفاقًا لفساد أقواتها، بِفَوَاتِ أَوْقاتها، رحلْنا عنها وقد انطوينا من إعفاء أكثر تلك الزروع، المائلة القروع، الهائلة الروع، على هَمٍّ مُمِضّ، وأسفٍ للمضاجع مُقِضّ، إذ كان عاذل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة في التهابها، وحلاق إهابها، ونفض أغوارها، ونَهْب شوارها، وإذاعة أسرارها، وهي البحور المتلاطمة، إذا حَطَّمَتْها الرياحُ الحاطمة، واللُّجَجُ الزاخرة، إذا حَرَّكَتْها السَّوافي الماخرة، تودُّ العيون أن تتحدّى حدودها القاصية فلا تطيق، والركائب الراكضة أن تُشْرِف على غايتها فيفصل عن مراحلها الطريق، وقد جلّلها الربيع أرزَاقًا تعضُّ بها الخوائن والأطباق، وحبوبًا مفضلة لا يرزؤها الإنفاد والإنفاق، ولو اعتصت[1] على انتسافها الآفاق، فَخَفَقْنَا في سبيل اللّه لتعقيب غزو تلك الأقطار المخالفة، بمحق الصائفة، وإعانة[2] تلك الطائفة، بكلوم المجاعة الجائفة[3]، خفوقًا لم تقنع فيه بالاستنابة، حرصًا على استئصال الصُّبَابة، وأعفينا الرحل[4] من اتّصال الكَدّ، وقابلْنا قبولهم على استصْحابنا فيها بالردّ، وأطللْنا على قرطبة بمحلّاتنا ننسف الجبال[5] نَسْفًا، ونعمُّ الأرض زَلْزَالاً وخَسْفًا، ونستقري مواقع البذر احتراقًا[6]، ونخترق أجوابها المختلفة بِحَبِّ الحصيدِ اخْتراقًا، ونسلّط عليها مِنْ شرر النار أمثال الجمالات الصُّفْر مَدَّتْ مِنَ الشُّواظ[7] أعناقًا، ونُوسِع القرى الواسعة قتلاً واسترقاقًا، ونديرُ على مستديرها كؤوسَ[8] الحُتُوف دِهَاقًا[9]،وأخذت النيران واديها الأعظم من كلا جانبيه حتى كأنَّ العيون[10] أَحْمَتْ سبيكته فاستحالتْ، وأذابت صفيحته فسالت، وأتت الكُفَّارَ سماؤهم بالدخان المبين، وصارت

---

(١) في طبعة دار صادر: «اعْتَصَبَتْ».

(٢) في طبعة دار صادر: «وإحانة».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «المجاع الجائفة». والجائفة: النافذة إلى الجوف.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الرجل».

(٥) في طبعة دار صادر: «ننسف جبال النعم. . .».

(٦) في طبعة دار صادر: «إحراقًا».

(٧) الشُّواظ، بضم الشين وكسرها: اللهب الذي لا دُخان له، مختار الصحاح (شوظ).

(٨) في طبعة دار صادر: «أكواس».

(٩) دِهاقًا: مَلأى. لسان العرب (دهق).

(١٠) في طبعة دار صادر: «القيون».

الشمس من بعد سفورها وعموم نورها مُنَقَّبة[1] المُحَيَّا معصبة الجبين، وخُضْنا أحشاء الفرنتيرة[2] نَعُمُّ أشتات النَّعَم انتسافًا، وأقوات أهليها إتلافًا، وآمال سكانها إخلافًا، وقد بُهتُوا لسرعة الرجوع، ودُهِشوا لوقوع الجوع، وتسبيب تخريب الربوع، فمن المنكر البعيد، أنْ يتأتَّى بَعْدُ عمرانُها المعهود، وقد اصْطُلم الزرعُ واجْتُثَّ العود، وصار إلى العدم منها الوجود، ورأوا من عزائم الإسلام خوارق تشِذُّ عن نطاق العوائد، وعجائب تستريب فيها عَينُ المشاهد، إذا اشتمل هذا العام، المتعرّف فيه من اللَّه تعالى الإنعام، على غَزَواتٍ دمَّرت فيها القواعد الشهيرة تدميرًا، وعلا فوق مراقيها الأذانُ عزيزًا جَهيرًا، وضُويِقَتْ كراسيُّ الملك تضييقًا كبيرًا، وأُذِيقَتْ وبالاً مُبيرًا، ورياحُ الإدالة إن شاء اللَّه تعالى تستأنف هُبوبًا، وبأسًا مَشْبُوبًا، والثقة باللَّه قد ملأتْ نفوسًا مؤمنة وقلوبًا، واللَّه سبحانه المسؤول أن يُوْزِعَ شكر هذه النعم التي أثقلت الأكتاد، وأبهظت الطَّوق المعتاد، وأبهجت المسيم والمرتاد، فبالشكر يستدرّ فريدها[3]، ويتوالى تجديدها، وقطعْنا في بُحْبُوحة تلك العمالة المستبحرة العمارة، والفَلَج المغني وَصْفُها عن الشرح والعبارة، مراحلَ خَتَمْنا بالتعريج على حزب[4] جَيَّان حَرْبَهَا، ففلَلْنا ثانية غَرْبَهَا وجَدَّدْنا كَرْبَهَا واستوعَبْنا حرقها وخربها، ونظَمْنا البلاد في سلك البلاء، وحَثَثْنا في إنجادها وأغوارها ركائبَ الاستيلاء، فلم نتركْ مَلْقَط طير، فضلاً عن مَعاف عَير، ولا أسأرنا لفلّها المحروب بُلالَةَ خَير، وقَفَلْنا وقد تركْنا بلاد النصارى التي منها لكيادنا المَدَدُ، والعُدَّةُ والعددُ، وفيها الخصام واللَّدَدُ، قد لبستِ الحداد حريقًا، وسلكتْ إلى الخلاء والجلاء طريقًا، ولم نتركْ لها مضغة تخالط ريقًا، ولا نعمة تصون من الفراق فريقًا، وما كانت تلك النعم لولا أنْ أعان اللَّه تعالى من عنصرَي النار والهواء بجنود كونه الواسع، ومدركه البعيد الشاسع، لتتولَّى الأيدي البشرية تغريبها ولا ترزأ كثيرها، ولا لِتَمْتَاحَ بالاغترافِ غديرها، بل للَّه القدرة جميعًا، فقدرته لا تتحامَى رِيعًا ولا حمى مَرِيعًا منيعًا، وعُدْنا والعَودُ في مثلها أحمد، وقد بَعُدَ من شفاء النفوس الأمد، ونُسخ بالسرور الكمد، ورُفِعَتْ مِنْ عِزِّ الإسلام العَمَد، والحمد للَّه حمد الشاكرين، ومنه نلتمس عادة النّصر على أعدائه فهو خير

---

(١) منقَّبة المُحَيَّا: أي لابسة النقاب على وجهها. لسان العرب (نقب).

(٢) في طبعة عبد الحميد: الغريرة. وكلمة «الفرنتيرا» كلمة إسبانية وهي بلغة الإسبان La Frontera، وتعني «الحدود» مع العدوّ. قاموس ف. كورينطي.

(٣) في طبعة دار صادر: «مزيدها».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «حرب» بالراء المهملة.

النّاصرين، عَرَّفْناكم به لِيُسر دينكم المتين، ومجدكم الذي راق منه الجبين، واللّه يصل سعدكم، ويحرسُ مجدكم، ويبلغكم أملكم من فضله، وقَصْدَكم بِمَنِّه وطَوله[1]، والسلام الكريم يخصّكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته، انتهى.

رجع إلى ما كُنّا بسبيله من أخبار قرطبة الجليلة الوَصْف، وذكر جامعها البديع الإتقان والرصف، فنقول:

قد شاع وذاع على ألسنة الجَمّ الغفير من الناس في هذه البلاد المشرقيّة وغيرها أنّ في جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقًا، على عدد أيام السنة، وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق، إلى أنْ يتمَّ الدور ثم تعود، وهذا شيء لم أقف عليه في كلام المؤرخين من أهل المغرب والأندلس، ولو كان كما شاع لذكروه وتعرّضوا له، لأنَّه مِنْ أعجب ما يُسْطَرُ، مع أنهم ذكروا ما هو دونه، فاللّه أعلم بحقيقة الحال في ذلك، وستأتي في الباب السابع رسالة الشَّقَنْدِي الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الأندلس الطَمُّ والرَّمُّ[2]، وقد ذكرنا في الباب الأول جملة من محاسن قرطبة، فأغنى ذلك عن إعادتها هنا، على أنَّ رسالة الشَّقنْدِي تكرّر فيها بعض ما ذكرناه؛ لأنَّا لم نُرِدْ أن نخل منها بحرف، فأتينا بها بلفظها، وإنْ تكرَّر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفْناه، والعذر واضح للمصنّف المُغْضِي، واللّه نسأل سلوكَ السبيل الذي يُرْضِي، بمنّه وكرمه.

وقال صاحب «نشق الأزهار»: إنَّ في جامع قرطبة تَنُّورًا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح، وفيه أشياء غريبة، من الصنائع العجيبة، يعجز عن وصفها الواصفون، قيل: أُحْكم عمله في سبع سنين، وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر، مكتوب على الواحد اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام، الثلاثة خلقها اللّه تعالى ولم يصنعها صانع، انتهى.

قلت: لم أَرَ أحدًا من محققي المؤرّخين للأندلس وثقاتهم ذكر هذا، على قلّة اطلاعي، وهو عندي بعيد؛ لأنه لو كان لَذَكَرَهُ الأئمةُ.

---

(١) الطَّولُ: المَنُّ. مختار الصحاح (طول).

(٢) يقال: فيها الطَّمُّ والرَّمُّ: أي فيها كل شيء، ويقال: جاء بالطَّمِّ والرَّمِّ، أي بالمال الكثير. لسان العرب (طمم).

وقد حكى القاضي عياض[1] في الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبيّنا، ﷺ، ولم يذكر هذا، ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر.

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب: إنَّ دَورَ قرطبة أربعة عشر ميلاً، وعرضها ميلان، وهي على النهر الكبير، وعليه جسران، وبها الجامع الكبير الإسلامي، وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى، وبهذه المدينة معدن الفِضَّة ومعدن الشاذنج[2]، وهو حجر من شأنه أن يقطع الدم، وكان يُجْلَبُ منها البغال التي تُباع كلٌّ واحدة منها بخمسمائة دينار من حسنها وعلوّها الزائد، انتهى.

رجع إلى أخبار البنيان ـ ولا خَفَاءَ أنه يدلُّ على عظم[3] قَدْر بانيه، ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المَرواني باني الزهراء، رحمه الله تعالى، حسبما نسبهما له بعضُ العلماء وبعضٌ ينسبهما لغيره، وسيأتيان في ترجمة نور الدين بن سعيد بن عليّ منسوبَين[4]:
[الكامل]

هِمَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكْرَها ... مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِألْسُنِ البُنْيانِ
إنَّ البِناءَ إذا تعاظَمَ قَدْرُهُ ... أَضْحَى يَدُلُّ على عظيمِ الشانِ

وتذكَّرْتُ هنا قصيدة قالها بعض الشاميين، وهو الأديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين، مِمّا يُكْتَبُ على أبراج دار الحسيب النسيب، الشهير البيت، الكبير الحي والميت، القاضي عبد الرحمن بن الفُرْفُور[5] الدمشقي، وضَمَّنها بيتي الناصر المذكورين:
[الكامل]

زُرْ مَجْلِسًا أَضْحَى أَعَزَّ مكانِ ... ومَحَلَّ أهلِ العلمِ والعِرْفانِ

---

(١) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحْصُبي السبتي، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. ولد بسبتة وولي القضاء بها، ثم وُلّي قضاء غرناطة. توفي بمرّاكش مسمومًا سنة ٥٤٤ هـ. الصلة (ص ٦٦٠) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٠١) ووفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٨٣) والمعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٣٠١).

(٢) الشاذنج: يسمّونه حجر الدم، ويستعملونه لدمل القروح، وتعمل منه شفايات لأمراض العَين.

(٣) في طبعة دار صادر: «عظيم».

(٤) البيتان لعبد الرحمن الناصر وهما في المغرب (ج ١ ص ٧٩ ـ ١٨٠) وجاء فيه: «شأنه» بدل «قدره»، وسيأتيان في هذا الجزء وفي الجزء الثالث وفيهما «شأنه» بدل «قدره».

(٥) هو زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن حمد بن الفرفور؛ قاضٍ، أديب، له شعر. ولد بدمشق وتوفي =

الْـمَـجْـدُ خَـيَّـمَ فـي ذُرَى أبْـرَاجِـه   والـسَّـعْـدُ عـبـدُ الـبـابِ طـولَ زمـانِ
كـالـخلد مـرفـوع الـبـنـاء، وأَرْضُـهُ   مـفـروشـةٌ بـالـدُّرِّ والـعـقـيـانِ
بـيـت بـه فـخـر الـبـيـوت لأنـه   بيت الـقـصـيـد ومَنْـزِلُ الضِّـيـفـان
مَغْنًى فسيحٌ فيه معنى مُفْصِح   عـن قـدر بـانـيـه بِـغَـيـرِ لـسـان
قـد قـال بعض ذوي الفضـائـل قَبْلَنـا   قـولًا بـديـعًـا واضـحَ الـتـبـيـان
هِـمَـمُ الـمـلوك إذا أرادوا ذِكْـرَهـا   مِنْ بَعْـدِهِـم فَبِـأَلْـسُنِ الـبُـنْـيـان
إنَّ الـبـنـاء إذا تـعـاظـمَ قَـدْرُهُ   أَضْحَى يَـدُلُّ على عـظيمِ الـشـانِ
قـد شـادَه مَـنْ سـاد أهـل زمـانـه   بـالأصـل والإفـضـال والـرُّجْـحـانِ
وَرِثَ الـسـيـادةَ كـابـرًا عـن كـابـر   وسَـمَـا بـرفـعـتـه عـلى كِـيـوَانِ
قـاضي القضـاة ومفخـر العصرِ الـذي   قـد جـاء فـيـه سـابـقَ الأقـران
فـي الـعـلم بـحـرٌ لا يُـنَـال قَـرارُه   في الـحُـكْـمِ مـثـل مُـهَـنَّـدٍ وسِـنَـان
يَـرْوي عـطاءٌ عـن يَـدَيـهِ قـد اقْتـفـى   آثـارَ آبـاءٍ ذوي إحـسـان
لا زال يـبـقـى شـائـدًا بيـتَ الـعُـلا   وعَـدُوُّه فـي الـوهـن والـنـقـصـان
يـا أيّها المولى الـذي يَجْـري مع الإقْـ   ـبـالِ والإسـعـاد طَـلْقَ عِـنَـان
دُمْ شـامـخَ المِقْـدار مـرتـفـع البـنـا   والـنـاسُ تحت رضـاك كـالـغِـلْـمـان
مُتَمَتِّـعًـا بـبـنـيـك سـادات الْـوَرَى   فـي عِـزٍّ ربٍّ دائـمِ الـسـلطان
مـا رَجَّـعَ الـقُـمْـرِيُّ(١) في تـغـريـده   فـي الـروض فـوق منـابـر الأغـصـان

وكان القاضي عبدُ الرحمن بن قُرْقُور المذكور عالي الهِمَّة، تضيق يده عمّا يريد، فلذلك كان كثيرًا ما يبثُّ شكواه في الطروس والدفاتر، ويعتب على الزمان الذي أَخْنَى على أهل الأدب وقطع آمالهم بحُسَامه الباتر، ويرحم اللّٰه القائل: [الكامل]

هٰـذا زمـانٌ دُرَيـهـمـي لا غـيـره   فَـدَعِ الـدفـاتـرَ للزمـانِ الفـاتـرِ

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض إخوانه، فكتب إليه معتذرًا، وأدمج شكوى الزمان الذي كان من شماتة الأعداء به حذرًا: [السريع]

أبـطأتُ فـي ذا الـجـزءِ يـا سَـيِّـدِي   كـتـابـةً مِـنْ جَـوْرِ دَهْـرٍ بَـغِـيضْ

= بها سنة ٩٩١ هـ. الأعلام (ج ٣ ص ٣٣١ ومصادر حاشيته).

(١) القُمْرِيُّ: طائر يشبه الحمامَ القُمْرَ البِيضَ. لسان العرب (قمر).

صابرْتُهُ فالجِسْمُ منِّي لَقًى[1] تَجَلُّدًا والقلبُ مني مريضْ
فإذ أبى إلَّا تلافِي وقد أحَلَّني منه مَحَلَّ النقيضْ
واقْتادني قَسْرًا إلى مَصْرَعٍ رَقَّ منه اللحمُ والعظمُ هِيضْ[2]
سَلَّمْتُ للأقدار مُسْتَسْرِعًا لباب مَولًى ذي عَطاء عريضْ
جُمُومُ صَبْرٍ كنتُ أسطو به على زَوَايا الدهر بالهمِّ غِيضْ
فلاَ تَلُمْ يا صاحِ مِنْ بَعْدِ ذا إذا تَمَثَّلْتُ بـ «حَالَ الْجَرِيضْ»[3]

ورأيت بخطِّه، رحمه الله تعالى، ممّا نسبه جدّه القطب الخيضري الحافظ لإبراهيم بن نصر الحموي ثم المصري المعروف بابن الفقيه: [مجزوء الرمل]

يا زمانا كلّما حا وَلْتُ أمرًا يَتَمَنَّعْ
إنْ تَعَصَّبْتَ فإني باصطباري أَتَقَنَّعْ

وهذه تورية بديعة للغاية في التعصّب والتقنّع، مع حلاوة النظم وجودة السَّبْك وخفّة الوزن، والله سبحانه يروِّح تلك الأرواح في الجنان، ويعاملنا وإيّاهم بمحض الفضل والامتنان، ويكفينا شجونَ دهرٍ جَرَى بنا طَلْقَ العنان!!.

رجع إلى ما كُنّا فيه ـ وكنت وقفْتُ في كلام بعض العلماء على أنَّ البيتين السابقين المنسوبين إلى أمير المؤمنين الناصر المَرواني ـ رحمه الله تعالى! ـ قالهما في الزهراء التي بناها، وسيأتي ذكرها قريبًا. وقال الشيخ سيّدي محيي الدين بن عربي[4] في المسامرات:

---

(١) لَقًى: مُلْقًى مطروحٌ. محيط المحيط (لقي).

(٢) هِيْض العظمُ: كُسِرَ؛ يقال: هاض فلانٌ العظمَ إذا كسره، محيط المحيط (هيض).

(٣) يشير هنا إلى المثل: «حالَ الجريضُ دون القريض»، يضرب للأمر يقدر عليه أخيرًا حين لا ينفع، والجريض: الغُصَّة، ومن الجَرَض وهو الرِّيق يُغَصُّ به. والقريض: الشِّعْرُ. وحال: مَنَعَ. مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٩١).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «العربي». وهو أبو بكر محمد بن علي بن محمد ابن عربي الأندلسي الملقّب بالشيخ الأكبر، فيلسوف وأديب بارع وكاتب بليغ، وكان له حظ من قرض الشعر. ولد بمرسية وانتقل إلى إشبيلية وزار المشرق وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ. فوات الوفيات (ج ٣ ص ٤٣٥) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٩٣ وفيه أنه توفي سنة ٦٣٧) والوافي بالوفيات (ج ٤ ص ١٧٣ ـ ١٧٨) والبداية والنهاية (ج ١٣ ص ١٥٦، وفيه أن كنيته أبو عبد الله) والتكملة (ص ٦٥٢)، وسيترجم له المقري في هذا الجزء بإسهاب رقم ١١٣.

قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش، وبناؤها عجيب في بلاد الأندلس، وهي قريبة من قرطبة، أبياتًا تُذَكِّرُ العاقل، وتُنَبِّهُ الغافل، وهي: [الطويل]

دِيارٌ بأكنافِ المَلاعِبِ تَلْمَعُ ... وما إنْ بها من ساكنٍ وَهْيَ بَلْقَعُ[1]

ينوحُ عليها الطيرُ مِنْ كلِّ جانبٍ ... فَيَصْمُتُ أحيانًا وحِينًا يُرَجِّعُ[2]

فخاطَبْتُ منها طائرًا مُتَغَرِّدًا ... له شَجَنٌ في القلب وهو مُرَوَّعُ

فقلت: على ماذا تنوحُ وتشتكي؟ ... فقال: على دَهْرٍ مَضَى ليس يَرجِعُ

ثم قال: وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أنَّ الناصر ماتت له سُرِّيَّة، وتركتْ مالاً كثيرًا، فأمر أن يفكَّ بذلك المال أَسْرَى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيرًا فلم يوجد، فشكر اللّه تعالى على ذلك، فقالت له جاريته الزهراء ـ وكان يُحِبُّها حُبًّا شديدًا ـ: اشتهيتُ لو بنيتَ لي به مدينة تسمِّيها باسمي، وتكون خاصّة لي، فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل، وشمال قرطبة، وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة أميال أو نحو ذلك، وأتقن بناءها، وأحكم الصنعة فيها، وجعلها مستنزهًا ومَسْكَنًا للزّهراء وحاشية أرباب دولته، ونَقَشَ صورتها على الباب، فلمّا قعدت الزهراءُ في مجلسها نظرتْ إلى بياض المدينة وحُسْنِها في حِجْر ذلك الجبل الأسود، فقالت: يا سيّدي، أَلاَ تَرَى إلى حُسْن هذه الجارية الحسناء في حِجر ذلك الزنجي؟ فأمر بزوال ذلك الجبل، فقال بعض جلسائه: أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يَشينُ العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما أزالوه حفرًا ولا قطعًا، ولا يزيله إلاَّ مَنْ خلقه، فأمر بقطع شجره وغَرْسه تِينًا ولوزًا، ولم يكن منظر أحسن منها، ولا سيّما في زمان الأزهار وتفتح الأشجار، وهي بين الجبل والسهل، انتهى ببعض اختصار.

وقال ابن خلكان في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته[3]: الزهراء ـ بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء، وبعدها همزة ممدودة ـ وهي من عجائب أبنية الدنيا، وأنشأها أبو المطرف[4] عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللّه الملقّب بالنّاصر، أحد ملوك بني أمية بالأندلس، بالقرب من قرطبة، في أوّل سنة خمس وعشرين وثلثمائة، ومسافة ما بينهما أربعة

---

(١) البَلْقعُ: الأرض القَفْرُ التي لا شيء بها. مختار الصحاح (بلقع).

(٢) رجَّع الطائر: ردَّد صوتَهُ في حلقه. لسان العرب (رجع).

(٣) النص في وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٢٦).

(٤) في الأصول: «أبو المظفر»، والتصويب عن وفيات الأعيان.

أميال وثلثا ميل، وطول الزّهراء من الشرق إلى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع، وعرضها من القبلة إلى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع، وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب. وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثًا: فثلث للجند، وثلث مدخر، وثلث يُنْفِقُهُ على عمارة الزّهراء، وكانت جباية الأندلس يومئذ[1] خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص[2] سبعمائة ألف دينار[3] وخمسة وستون ألف دينار، وهي من أهول ما بناه الإنس، وأجلّه خطرًا، وأعظمه شأنًا، ذكر ذلك كله ابن بَشْكُوال في تاريخ الأندلس. انتهى كلامه.

وحكى في المطمح[4] أن الوزير الكبير الشهير أبا الحزم بن جَهْور قال وقد وقف على قصور الأمويين التي تقوَّضت أبنيتها، وعُوِّضَتْ من أنيسها بالوحوش[5] أفنيتها: [الخفيف]

قلْتُ يومًا لدارِ قومٍ تَفَانَوا: أين سُكَّانُكِ العِزازُ عَلَينَا؟
فأجابتْ: هُنا أقاموا قليلاً، ثم ساروا، ولستُ أعلمُ أينا

وفيه[6] أن أبا عامر بن شُهَيد بات ليلة بإحدى كنائس قُرْطُبة وقد فُرِشَتْ بأضغاث آس، وعرشت بسرورٍ وائتناس، وقَرْعُ النواقيس يُبْهج سمعه، وبَرْقُ الحُمَيَّا يسرج[7] لمعه، والقَسُّ قد برز في عَبَدة المسيح، متوشّحًا بالزنانير أبدع توشيح، قد هَجَروا الأفراح، واطّرحوا النعم كل اطِّراح[8]: [البسيط]

لا يَعْمَدُونَ إلى ماءٍ بآنيةٍ إلَّا اغترافًا مِنَ الغُدْرانِ بالراحِ

---

(١) كلمة «يومئذ» سقطت من طبعة دار صادر.

(٢) هكذا في وفيات الأعيان وطبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «ومن الستوق والمستخلصة».

(٣) كلمة «دينار» غير موجودة في وفيات الأعيان.

(٤) مطمح الأنفس (ص ١٥).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «بالوحش».

(٦) مطمح الأنفس (ص ١٨).

(٧) في طبعة دار صادر: «يسرع».

(٨) لم يرد هذا البيت في ديوان ابن شهيد الأندلسي، الذي جمعه شارل بلاّ .

وأقام بينهم يعملها حميًا، كأنّما يرشف من كأسها شفة لَمْيا، وهي تنْفح له بأطيب عَرْف، كلّما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجل، بعدما ارتحل، فقال[1]: [الكامل]

وَلَرُبَّ حانٍ قد شَمِمْتُ بِدَيرِهِ ... خَمْرَ الصِّبا مُزِجَتْ بِصِرْف عَصِيرِهِ [2]
في فِتْيَةٍ جعلوا السُّرورَ شعارَهُمْ [3] ... متصاغرينَ تَخَشُّعًا لكبيرِهِ
والقَسُّ مِمَّا شاء طُولَ مُقَامِنا ... يَدْعو بِعُودٍ حَولَنا بِزَبُورِهِ
يُهْدي لنا بالراحِ كلَّ مُصَفَّرٍ ... كالخِشْفِ خَفَّرَهُ الْتماحُ خفيرِهِ[4]
يتناولُ الظُّرَفاءُ فيه وشُرْبُهُمْ ... لِسُلافِهِ[5]، والأكلُ مِنْ خنزيرِهِ

رجع إلى بناء[6] الزهراء ـ قال بعض من أَرَّخ الأندلس: كان يتصرّف في عمارة الزهراء كل يوم من الخدّام والفَعَلَة عشرة آلاف رجل، ومن الدّواب ألف وخمسمائة دابة، وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة، وكان يصرف فيها كلّ يوم من الصّخر المنحوت المعدّل ستة آلاف صخرة سوى الآجرّ والصخر غير المعدل، انتهى، وسيأتي في الزهراء مزيد كلام.

وقال ابن حيّان: ابتدأ النّاصر بناء الزّهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥، وجعل طولها من شرق إلى غرب ألفين وسبعمائة ذراع، وتكسيرها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع، كذا نقله بعضهم، وللنظر فيه مجال، قال[7]: وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان[8] يلزم على قطعها ونقلها ومؤونة حملها، وجَلَب إليها الرخام

---

(١) الأبيات في ديوان ابن شهيد (ص ٨١).

(٢) رواية البيت في الديوان:

وَلَرُبَّ حانٍ قد أَدَرْتُ بَدِيرِهِ ... خَمْرَ الصِّبا مُزِجَتْ بِصَفْو خُمُورِهِ

(٣) في الديوان: «جعلوا الزِّقاقَ تِكاءهُمْ».

(٤) رواية صدر البيت في الديوان هي:

«يُهْدِي إلينا الراحَ كلُّ مُعَصْفَرٍ».

والخِشْفُ: ولد الظبي أول ما يولد. محيط المحيط (خشف).

(٥) في الديوان: «أسلافهم».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «أنباء».

(٧) قارن بما جاء في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٠).

(٨) في طبعة دار صادر: «كان يلزمه من النفقة على قطعها».

الأبيض من أَلْمَرِية، والمُجَزَّع من رَيّة، والوردي والأخضر من إفريقية من إسفاقس وقَرْطَاجَنّة، والحوض المنقوش المذهب من الشام، وقيل: من القسطنطينية، وفيه نقوش وتماثيل وصُوَر[1] على صور الإنسان، وليس له قيمة، ولمّا جلبه أحمد الفيلسوف ـ وقيل غيره ـ أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، ونصب عليه اثني عشر تمثالاً، وبنى في قصر المجلس المسمَّى بقصر الخلافة، وكان سمْكه من الذهب والرخام الغليظ في جرمه الصافي لونه المتلونة أجناسه، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصرَ بها أليونُ ملكُ القسطنطينية، وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفِضّة، وهذا المجلس في وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حَنَايا من العاج والآبنوس المُرَصَّع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على سواري من الرخام الملوّن والبلّور الصافي، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان الناصر إذا أراد أنْ يُفْزع أحدًا من أهل مجلسه أَوْمَأَ إلى أحد صقالبته فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور، ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيّل لكل من في المجلس أنَّ المحلَّ قد طار بهم، ما دام الزئبق يتحرّك، وقيل: إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس، وقيل: كان ثابتًا على صُفّة هذا الصهريج، وهذا المجلس لم يتقدّم لأحد بناؤه في الجاهلية ولا في الإسلام، وإنّما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم، وكان بناء الزهراء في غاية الإتقان والحسن، وبها من المرمر والعُمُد كثير، وأجرى فيها المياه، وأحدق بها البساتين، وفيها يقول الشاعر السميسر[2]: [السريع]

وَقَفْتُ بالزهراء مُسْتَعْبِرًا ... مُعْتَبِرًا أندُبُ أشْتَاتا
فقلت: يا زَهْرَا، ألاَ فارْجِعِي ... قالت: وهل يَرْجِعُ مَنْ ماتا؟
فلم أزل أبْكِي وأُبْكِي بها ... هيهاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيهاتا
كأنمَا آثارُ مَنْ قد مَضَى ... نوادِبٌ يَنْدُبْنَ أَمْواتا

---

(١) كلمة: «وصور» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) هو أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري؛ من أعلام شعراء إلبيرة (غرناطة) في مدة ملوك الطوائف، مشهور بهجائه المقذع. توفي في حدود ٤٨٠ هـ. الذخيرة (ق ١ ص ٨٨٢) والمغرب (ج ٢ ص ١٠٠) والمطرب (ص ٩٣) وأخبار وتراجم أندلسية (ص ٢٨، ٨٣).

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخّصًا، وسيأتي ما يوافق جُلّه، ويخالف قُلّه، والله سبحانه يعلم الأمر كلّه، فإنّه ربّما ينظر المتأمّل هذا الكتاب فيجد في بعض الأخبار تخالفًا، فيحمل ذلك على الغلط، وليس كذلك، وإنّما السبب الحامل لذلك جَلْبُ كلام الناس بعباراتهم، والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا، وربّما يقع التكرار، وذلك من أجل ما ذكر، والله أعلم.

وتذكّرْت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذي شاده ملك طُلَيطلة المأمون ابن ذي النُّون[1] بها، وذلك أنه أَتْقَنَهُ إلى الغاية، وأَنْفَقَ عليه أموالًا طائلة، وصنع في وسطه بحيرة، وصنع في وسط البحيرة قُبَّة من زجاج ملوَّن منقوش بالذهب، وجلب الماء على رأس القبّة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبّة على جوانبها محيطًا بها ويتّصل بعضه ببعض، فكانت قبّة الزجاج في غِلَالة ممّا سكب خلف الزجاج لا يَفْتُرُ من الجَرْي، والمأمون قاعد فيها لا يمسّه من الماء شيء ولا يصله، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب، وبينما هو فيها مع جَوَاريه ذات ليلة إذ سمع منشدًا ينشد: [الطويل]

أتبني بناء الخالدين، وإنّما مُقَامُك[2] فيها لو عَلِمْتَ قليلُ
لقد كان في ظلِّ الأراك كفاية لمن كُلَّ يَوْمٍ يقتضيه رَحِيْلُ

فنغص عليه حاله، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، أظنُّ أنَّ الأجل قد قرب، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفّي، ولم يجلس في تلك القبّة بعدها، وذلك سنة ٤٦٧، تجاوز الله تعالى عنه! هكذا حكاه بعض مؤرخي المغرب.

وقد ذكر في غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبّة بلفظ ابن بدرون[3] شارح العبدونية فليراجع.

---

(١) هو أبو زكريا يحيىٰ بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن ذي النون؛ ولي طليطلة بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٥ هـ، واستمر في الحكم حتى وفاته سنة ٤٦٧ هـ. البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٧٧، وما بعدها) والذخيرة (ق ٤ ص ١٤٥).

(٢) في طبعة دار صادر: «بقاؤك».

(٣) ابن بدرون هو الأديب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون الرائية ومطلعها: [البسيط]

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَينِ بالأَثَرِ فما البكاءُ على الأَشْبَاحِ والصُّوَرِ؟

وقد تقدَّمت ترجمة ابن بدرون في الجزء الأول من نفح الطيب.

وتذكّرت هنا قول أبي محمد المصري[1] في صفة قصر طُلَيطلة[2]: [الكامل]

قَصْرٌ يُقَصِّرُ عن مَدَاهُ الفَرْقَدُ   عَذُبَتْ مصادره وطاب الْمَوِرِدُ
نَشَرَ الصباحُ عليه ثَوبَ مكارم   فعليه أَلْوِيَةُ السعادةِ تُعْقَدُ
وكأنَّما المأمونُ في أرْجَائِهِ   بَدْرُ تمامٍ قابَلَتْهُ أَسْعُدُ
وكأنَّما الأقداحُ في رَاحاتِهِ   دُرٌّ جَمَادٌ ذابَ فيه العَسْجَدُ

وله في صفة البركة والقبّة عليها[3]: [السريع]

شَمْسِيَّةُ الأنسابِ بَدْرِيَّةٌ   يَحَارُ في تشبيهها الخاطرُ
كأنّما المأمونُ بَدْرُ الدُّجَى   وَهْيَ عليه الفَلَكُ الدائرُ

وكان ملوك الأندلس في غاية الاحتفال بالمجلس والقصور، وللوزير الجزيري[4] ـ رحمه اللّه تعالى! ـ في وصف مجلس للمنصور بن أبي عامر ما يشهد لذلك، وهو قوله: [الكامل]

وتَوَسَّطَتْها لُجَّةٌ في قَعْرِها   بنت السَّلاحفِ ما تزالُ تُنَقْنِقُ
تَنْسابُ مِنْ فَكَّيْ هِزَبْرٍ إنْ يكن   ثَبْتَ الجنان فإنَّ فاه أَخْرَقُ
صاغوه من نَدٍّ وخَلَّق صفحتي   هاديه مَحْضُ الدُّرِّ فَهْوَ مُخَلَّقُ[5]
لِلياسمين تَطَلُّعٌ في عَرْشه   مثل المليك عَراه زَهْوٌ مُطْرِقُ
ونضائد من نرجس وبنفسج   وجَنيٍّ خِيريٍ وورد يَعْبِقُ
ترنو بسحر عيونها وتكاد من   طرب إليك بلا لسان تنطق

---

(١) أبو محمد المصري هو عبد اللّه بن خليفة القرطبي؛ عرف بالمصري لطول إقامته بمصر. اشتهر بالطب ورواية الشعر، مدح باديس بن حبوس، صاحب غرناطة، والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. توفي سنة ٤٩٦ هـ. الذخيرة (ق ٤ ص ٣٤٢) والمغرب (ج ١ ص ١٢٨) وقلائد العقيان (ص ٧).

(٢) الأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٥٥).

(٣) البيتان في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٥٥).

(٤) هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري، كاتب المنصور محمد بن أبي عامر ثم ولده عبد الملك المظفر. توفي مقتولاً سنة ٣٩٤ هـ. جذوة المقتبس (ص ٢٨٠) وبغية الملتمس (ص ٣٧٤) والمغرب (ج ١ ص ٣٢١) والصلة (ص ٥٢٢).

(٥) في طبعة دار صادر: «مُطَوَّقٌ» بدل «مُخلق».

وعلى يمينـك سَوسَنـات أطلعتْ[1] زهـر الـربيـع فَهُنَّ حُسْنًـا تشـرق
فكـأنّما هي في اختـلاف رُقُـومهـا رايـات نصـرك يـوم بـأسـك تَخْفِق
فـي مجلس جَمَـعَ الـسـرورَ لأهْـلِهِ مـلكٌ إذا جـمـعـت قـنـاه يـفـرق
حـازت بـدولتـه المغـاربُ رفعـةً[2] فغـدا ليحسُـدهـا عليـه المشـرق

ومـن هـذه القصيـدة:

أَمَّـا الـغَـمَـامُ فَشَـاهِـدُ لـك أنـه لا شـكّ صِـنْـوُك أو أخـوك الأوثـقُ
وافـى الصنيـعَ فـحين تَمَّ تَـمَـامُـهُ في الصَّحْـو أنشـأ وَدْقَـه[3] يـتـدفّق
وأظـنُّـه يـحـكـيـك جـودًا إذ رأى فـي اليـوم بَـحْـرَكَ زاخـرًا يَتـفـهَّـقُ

وكـان السبب في هذه الأبيـات أن المنصور صنـع في ذلك الأوان صنيعًـا لتطهيـر ابنـه عبد الرحمن، وكان عام قَحْطٍ، فارتفع السعر بقرطبة، وبلغ ربع الـدقيق إلى دينارين، فجـلا الناس من قرطبة، فلمّا كان يوم ذلك الصنيع نشـأت في السماء سحـابة عَمَّت الأفق، ثم أتى المطرُ الوابل، فاستبشر الناس، وسُرَّ المنصورُ بن أبي عامر فقال الجزيري بديهةً * أمّا الغمام إلخ *

وهو القائل على لسان نرجس العامرية[4]: [الكامل]

حَيّتْـكَ يـا قمـرَ العُـلاَ والمجلِسِ أزكـى تَحِيَّتِـهـا عـيـونُ الـنـرجسِ
زهـر[5] تُـريـكَ بِحُسْنِهـا وبِلَونِهـا زُهْـرَ النجـوم الجـاريـاتِ الكُنَّسِ
مُـلِّكْـن[6] أفئـدة النَّـدامَـى كـلمـا دارت بـمـجـلسـهـم مـدارَ الأكـؤس
مَلْكَ الهُـمـامِ العـامـريِّ محـمّـدِ لِلْمَـكْـرُمـاتِ ولـلنُّـهَـى والأنـفس

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «طلعت».
(٢) في طبعة دار صادر: «عزّة».
(٣) الوَدْقُ: المطر. مختار الصحاح (ودق).
(٤) الأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ٤٨).
(٥) في الذخيرة: «زهرا».
(٦) في المصدر نفسه: «يمْلكن».

قال ابن بسام[1]: ومن شعر الجزيري ما اندرج له أثناء نثره[2] الذي مَلُحَ فيه مخاطبته للمنصور على ألسنة أسماء كرائمه بزهر رياضه، فمن ذلك عن بَهَار العامرية[3]: [الكامل]

حَدَقُ الحِسانِ تُقِرُّ لي وتَغارُ ... وتَضِلُّ في صِفتي النُّهَى وتَحارُ
طَلَعَتْ على قُضبي عيونُ كمائمي[4] ... مثلَ العيون تَحُفُّها الأشفارُ
وأَخَصُّ شيء بي إذا شَبَّهْتَني ... دِرٌّ[5] تَنَطَّقَ سِلْكَها دينارُ
أَهْدَى له قُضُبَ الزُّمُرُّدِ ساقُهُ ... وحَباه أَنْفَسَ عِطْرِهِ العَطّارُ
أنا نرجسٌ حَقًّا بَهَرْتُ عقولهمْ ... ببديعِ تركيبي فقيلَ بَهارُ

ومن أخرى عن بنفسج العامرية[6]: إذا تدافعت الخصومُ - أيّد اللَّهُ مولانا المنصورَا! - في مذاهبها، وتنافرتْ في مفاخرها، فإليه مَفْزَعُها، وهو المَقْنَعُ في فصلِ القضيّةِ بينها لاستيلائه على المفاخر بأسرها، وعلمه بسرِّها وجَهْرِها، وقد ذهب البهارُ والنرجس في وصف محاسنهما، والفخر بمشابههما، كل مذهب. وما منها[7] إلّا ذو فضيلة غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعذبُ من الغَمام الذي يَسْقينا. وإن[8] كانا قد تَشَبَّها في شعرهما ببعض ما في العالَمِ مِنْ جواهِرِ الأرضِ ومصابيحِ السماءِ، وهي من الموت الصامت، فإني أتشبّه بأحسن ما زَيَّنَ اللَّهُ به الإنسانَ وهو الحيوانُ الناطق، مع أنّي أعطر منهما عِطْرًا، وأحمدُ خُبْرًا، وأكرمُ إمتاعًا شاهدًا وغائبًا ويانعًا وذابلًا، وكلاهما لا يمتع، إلّا ريثما يينع[9]. ثم إذا ذبل تَسْتَكْرِهُ النفوسُ[10] شَمَّهُ، وتستدفعُ الأَكُفُّ ضَمَّهُ، وأنا أمتّعُ

(١) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ٤٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) في طبعة عبد الحميد: «مدحه».
(٣) الأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ٤٨). وسترد عدا البيت الرابع منها في الجزء الخامس من نفح الطيب (ص ٢٠٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) في الأصول: «تمائمي» والتصويب عن الذخيرة.
(٥) في الأصول: «دُرَرٌ»، والتصويب عن الذخيرة.
(٦) هذا النص النثري في الذخيرة (ق ٤ ص ٤٨ - ٤٩).
(٧) في الذخيرة: «منهما».
(٨) في الذخيرة: «فإنْ».
(٩) في الذخيرة: «يَمْنَعُ».
(١٠) في المصدر نفسه: «الأنوفُ».

يابسًا ورطبًا[1]، وتَدَّخِرُني الملوكُ في خزائنها وسائر الأطبّاء، وأُصَرَّفُ في منافع الأعضاء. فإنْ فَخَرا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقي، فلا غَرْوَ أنَّ الوشي ضعيف، والهوى[2] لطيف، والمِسْكُ خفيف: [الوافر]

وليس المَجْدُ يُدْرَكُ بالصِّراع

وقد أوْدَعْتُ ـ أيَّدَ اللَّهُ مولانا ـ قوافي الشعر من وصف مَشابهي ما أودعاه، وحضرْتُ بنفسي لئلَّا أغيب عن حضرتهما، فقديمًا فُضِّلَ الحاضرُ وإنْ كان مفضولاً، ولذا[3] قالوا: ألذُّ الطعام ما حضرَ لوقته، وأشعر الناس مَنْ أنت في شعره، فَلِمَولَانا أتمُّ الحُكم[4] في أن يفصل بحكمه العدل، وأقول[5]: [الكامل]

شَهِدَتْ لِنُوّارِ البَنَفْسَجِ أَلْسُنٌ ... مِنْ لَونِهِ الأَحْوَى وِمِنْ إينَاعِهِ
لِمَشَابِهِ الشِّعْرِ الأعمِّ[6] أعاره الـ ... ـقَمرُ المنيرُ الطَّلقُ نُورَ شُعاعِهِ
ولربّما جمع[7] النجيع من الطّلَى ... من صارم المنصور يوم قِراعِهِ
فحكاه غَيرَ مخالفٍ في لونه ... لا في روائحه وطِيب طِباعِه
مَلِكٌ جَهِلْنَا قَبْلَهُ سُبُلَ العُلاَ[8] ... حتى وَضَحْنَ بِنَهْجِهِ وشِراعِهِ
في سيفه قِصَرٌ لِطُول نِجَادِهِ ... وتَمامِ ساعِدِهِ وفُسْحَةِ باعِهِ
ذو هِمَّةٍ كالبَرْقِ في إسراعِه ... وعزيمة[9] كالحَين في إيقاعِهِ
تلقى الزمانَ له مُطِيعًا سامِعًا ... وترى الملوكَ الشُّمَّ مِنْ أتباعِهِ

---

(١) في المصدر نفسه: «رَطْبًا ويابسًا».
(٢) في الذخيرة: «والهواءُ».
(٣) في المصدر نفسه: «ولهذا».
(٤) في المصدر نفسه: «الفضل».
(٥) الأبيات لابن إدريس الجزيري، وهي في الذخيرة (ق ٤ ص ٤٩ ـ ٥٠) وسترد الأبيات الأربعة الأوائل في الجزء الخامس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) في الذخيرة: «الأثيث».
(٧) في المصدر نفسه: «جَمَدَ... في صارم...».
(٨) في المصدر نفسه: «الهدى».
(٩) في الذخيرة: «وصريمة».

وما أحسن قول بعض الأندلسيين يصف حديقة: [الكامل]

وحـديـقـة مُـخْـضَـرَّة أثـوابُـهـا ... في قُضْبِهـا لـلطيـر كـلّ مُغَـرِّدِ
نـادَمْتُ فيهـا فتيـة صفحـاتُهُـمْ ... مثـلُ البـدورِ تنيـرُ بين الأسعُـدِ
والجـدوَل الفِضِّيُّ يـضحـك مـاؤه ... فكـأنـه في العيـن صَفْـحُ مُهَنَّـدِ
وإذا تـجعَّـدَ بـالـنسيم حَسِبْتَـه ... لَـمَّـا تـراه مشـبـهًـا لـلمـبـرد
وتنـاثـرَتْ نـقَطُ عـلى حـافـاتـه ... كـالعقـد بين مُجمَّـع ومُبَـدَّدِ
وتـدحـرجتْ للنـاظـرين كـأنهـا ... دُرٌّ نـثـيـرٌ فـي بـسـاط زَبـرْجـد

وكان بحمّام الشطارة بإشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الأندلس بقوله: [الوافر]

ودُمْيـة مـرمـرٍ تُـزْهى بِجِيـدٍ ... تَـنـاهى فـي التَّـوَرُّد والبيـاض
لـهـا ولـدٌ ولـم تـعـرفْ حـليـلاً ... ولا أَلِمَتْ بـأوجـاع المخـاضِ
ونَـعْلَمُ أنـهـا حَـجَـرٌ، ولـكـن ... تُـتَيِّـمُـنـا بـألـحـاظٍ مِـراضِ

وكان بسَرَقُسْطة في القصر المُسَمَّى بدار السرور أحد[1] قصور المقتدر بن هود مجلس الذهب، وفيه يقول ذو الوزارتين بن غُنْدَ شِلْبَ يهجو وزيرًا كان ينبز بتحقون: [الرمل]

ضَـجَّ من تحقـونَ بيتُ الـذهبِ ... ودعـا مـمَّـا بـه وَاحَـرَبِـي
رَبِّ طَـهِّـرْنـي فـقـد دنَّـسَـنـي ... عـارُ تَـحْـقُـونَ ألـوف[2] الـذنـب

وكتب بعض[3] كبراء الأندلس إلى إخوانه[4]: «كتابي هذا من وادي الزيتون، ونحن فيه مُحْتَلُّون[5]، ببقعة اكتست من السندس الأخضر، وتحلَّت بأنواع الزَّهَر، وتخايلت بأنهار

---

(١) في طبعة دار صادر: «السرور مجلس الذهب أحد قصور...».

(٢) في طبعة دار صادر: «الموَفّى».

(٣) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر، المعروف بابن الدباغ؛ وزير وكاتب المقتدر بن هود بسرقسطة، ثم استوحش منه فلحق بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، ثم التحق ببطليوس، ثم عاد إلى بلده سرقسطة، فقتل ببستان من بساتينها بعد فترة مديدة من لحاقه بها. الذخيرة (ق ٣ ص ٢٥١) والقلائد (ص ١٠٦) والمغرب (ج ٢ ص ٤٤٠).

(٤) النص في الذخيرة (ق ٤ ص ٢٨٢).

(٥) هكذا في الذخيرة. وفي طبعة دار صادر: «مختلفون».

تتخلّلها، وأشجار تُظَلّلها، تحجب أدواحُها الشمسَ لالتفافها، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها، وما شئتم من محاسنَ تروق وتُعجِبُ، وأطيار تتجاوب بألحان تُلْهي وتُطْرِبُ، في مثلها يعود الزمان كلّه صِبًا، وتجري الحياة على الأمل والمُنى، وأنا فيها[١] - أبقاكم اللّه سبحانه! - بحالِ مَنْ طاب غذاؤه، وحَسُنَ استمراؤه، وصَحَا مِنْ جنون العُقار، واستراح مِنْ مَضَض الْخُمار، وزايَلَتْهُ وساوِسُهُ، وخلصتْ من الخباط هواجِسُهُ»، ثم ذكر كلامًا من هذا النمط في وصف الخمار والدّعاء إلى العقار.

فراجعه أبو الفضل بن حسداي[٢] برقعة قال في صدرها[٣]: إلى[٤] سيدنا الذي ألزمنا بامتنانه الشُّكْرَ، وكبيرنا الذي علّمنا ببيانه السِّحْرَ، وعميدنا الذي عَقَدنا بحرمه[٥] وانحلَّ، ورمانا بدائه وانسلَّ، أبقاك اللّه تعالى لتوبة نَصُوحٍ تمرُّها، ويمينٍ غَمُوس تَبَرُّها؛ وَرَدَ[٦] أبقاك اللّه تعالى كتابُك الذي أَنْفَذْتَهُ مِنْ مُعَرَّسِك بوادي الزيتون، ووقفْنا على ما لُقِّنْتُ[٧] في أوصافه من حُجَّة المفتون، وإعجابِكَ بالتفافِ شجره ودَوحاته، واهتزازِكَ بلطيف[٨] بَوَاكره ورَوحاته، وسرورك[٩] به وهو حُوٌّ تِلاَعُه،موروده[١٠] هضابُه وأجراعُه، وكلُّ المشارب ما خلاه ذميم، وماؤه الدّهر خَصِرٌ والمياه حميم، وتلك عادة تَلَوُّنِكَ، وسجيَّةُ تخضرمك[١١]، وشاكلةُ ملالِكَ وسَأْمِكَ، وأشعرُ الناسِ عندك مَنْ أنت في شعره، وأحبُّ البلاد إليك ما أنت في عُقْره، فأين منك بساتينُ جِلّقَ وجِنَانه، ورياضُهُ المُونِقَةُ وخُلْجانُهُ، وقبابُهُ البِيضُ في حدائِقِهِ

---

(١) في الذخيرة: «وأنا - أبقاكم اللّه - فيها بحالِ . . .».

(٢) هو حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي، من بيت شرف اليهود بالأندلس؛ وزير وكاتب المقتدر بن هود بسرقسطة، وكان له باع في الأدب. الذخيرة (ق ٣ ص ٤٥٧) وقلائد العقيان (ص ١٨٣) والمغرب (ج ٢ ص ٤٤١) والمطرب (ص ١٩٦).

(٣) الرقعة في الذخيرة (ق ٣ ص ٢٨٤ - ٢٨٥).

(٤) في الذخيرة: «يا».

(٥) في المصدر نفسه: «بجرمه».

(٦) في المصدر نفسه: «وَرَدَنا».

(٧) في المصدر نفسه: «لَقِيتَ».

(٨) في الذخيرة: «لِطِيبِ».

(٩) في المصدر نفسه: «ومرورك». وفي طبعة دار صادر: «وغرورك».

(١٠) في الذخيرة: «مورّدة صفاته وأجزاعُهُ. . .».

(١١) في طبعة عبد الحميد: «تحضرمك».

الخضر، وَجوُه العطرُ[1] في جنابه النضر، وما تَضُمُّه حيطانه، وتَمجُّه أنجاده[2] وغِيطَانُه، من أمّهات الراح التي هَجَرْتَهَا[3] بزَعْمك، ومواردَّ[4] الشَّمول التي طَلَّقْتها برغمك. وهيهات! فواللّه ما فارقتك تلك الأجارعُ والمجاني[5]، ولا شاقَتْك تلك المنازلُ والمغاني، إلاَّ تذكّرًا لِمَا لدينا من طيب المعاهد، وحنينًا إلى ما عندنا من جميل المشاهد، وأين من المشتاق عَنْقَاءُ مَغرب». ثم ذكر كلامًا في جواب ما مَرَّ من الخمار لم يتعلّق لي به غرض.

وما أحلى ما كتب به أبو إسحق بن خفاجة من رسالة في ذكر مُتَنَزَهٍ[6]: ولما أَكَبَّ الغمامُ إكبابًا، لم أجد منه إغْبابًا، واتَّصَلَ المطرُ اتِّصالاً، لم أُلْفِ منه[7] انفصالاً، أذن اللّه تعالى للصَّحْو أن يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ، وينْشُرَ صَحِيفَتَهُ، فَقَشَعَتِ الريحُ السَّحابَ، كما طَوَى السِّجلُّ الكتابَ، وطَفِقَتِ السماءُ تخلع جلبابها، والشمس[8] تُميطُ نقابها، وطلعة الدنيا تبتهج كأنها عروس تَجَلَّتْ، وقد تحلَّتْ، ذَهَبْتُ في لُمَّةٍ من الإخوان نَسْتَبِقُ إلى الراحة رَكْضًا، ونَطْوي للتفرُّج أَرْضًا، فلا نُدْفَعُ[9] إلاَّ إلى غديرٍ، نميرٍ، قد استدارت[10] منه في كل قَرارة سماء، سحائبها غَمّاء، وانْسابَ في كُلِّ[11] تَلْعَةٍ حُبابُ، جلدُهُ[12] حَبابٌ، فتردَّدْنا بتلك الأباطح، نَتَهادَى تهادِيَ أغصانها، ونَتَضاحَكُ تضاحُكَ أُقْحُوانِها، وللنسيم، أثناء ذلك المنظَرِ الوسيم، تَراسُلُ مَشْيٍ، على بساط وَشْيٍ، فإذا مَرَّ بغديرٍ نَسَجَهُ دِرْعًا، وأَحْكَمَهُ صُنْعًا، وإنْ عَثَرَ بجدولٍ شَطَبَ منه نَصْلاً، وأَخْلَصَهُ صَقلاً، فلا تَرَى إلاَّ بِطاحًا، مملوءةً سِلاحًا، كأنَّما انْهَزَمَتْ هنالك كتائب، فألقتْ بما لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقولٍ، وسَيفٍ مسلولٍ.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وجُونُ العطر في جنانه...».

(٢) في الذخيرة: «نجاده».

(٣) في طبعة صادر: «طلَّقْتَها».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «وموارد».

(٥) في الذخيرة: «والمحاني».

(٦) الرسالة في الذخيرة (ق ٣ ص ٥٤٣ - ٥٤٤).

(٧) في الذخيرة: «معه».

(٨) في طبعة دار صادر والذخيرة: «والشمس تَحُطُّ نِقابَها، وتَطَلَّعَتِ الدنيا...».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «أندفع».

(١٠) في الذخيرة: «استدار منه... سحابيه عَمَاء، وانساب...».

(١١) كلمة «كل» ساقطة في طبعة عبد الحميد.

(١٢) في الذخيرة: «جلدَتُه».

ومن فصل منها[٦]: فاحْتَلَلْنا قبّةً خضراء ممدودة أشطانِ الأغصانِ، سُنْدُسيّة رِواقِ الأوراقِ. وما زلْنا نَلْتَحِفُ منها ببرْد ظِلّ ظَليل، ونشتملُ عليه برداء نسيمٍ عليل، ونُجيلُ الطَّرْفَ[٢] في نهر صَقيل، صافي لُجَينِ الماءِ، كأنه مَجَرَّةُ السماءِ، مُؤْتَلِق جوهرِ الحَبابِ، كأنه مِنْ ثغور الأحباب، وقد حَضرَنا مُسْمِعٌ يجري مع النفوس لطافةً، فهو يَعْلَمُ غَرَضَها وهَوَاها، ويُغَنّي لها مُقْتَرَحها ومُناها، فصيحُ لسان النَّقْرِ، يَشْفي مِنَ الوَقْر[٣]، كأنه كاتبُ حاسِبُ، تَمْشُقُ يُمْناه، وتَعْقِدُ يُسْراهُ: [الوافر]

يُحَرِّكُ حِينَ يَشْدو ساكناتٍ ... وتَنْبَعِثُ[٤] الطبائعُ للسكونِ

وكانت بين أبي إسحٰق وبعض إخوانه مُقاطعة، فاتّفق أنْ ولي ذلك الصديق حِصْنًا، فخاطبه أبو إسحٰق برقعة، منها[٥]: أطال اللّٰه بقاءَ سيّدي النَّبيهَةِ أوصافُهُ النزيهةِ عن الاستثناء، المرفوعة إمارته[٦] الكريمة بالابتداء، ما انحذفتْ ياء «يَرْمِي» للجَزْمِ، واعْتَلَّتْ واوُ «يغزو» لموضع الضَّمِّ، كَتَبْت عن وُدٍّ قديم[٧] هو الحال، لم يَلْحَقْها انتقال، وعهدٍ كريم هو الفعلُ لم يَدْخُلْه الاعتلال[٨]. واللّٰه يجعلُ هاتِيكَ مِنَ الأحوال الثابتة اللازمة، ويَعْصِمُ هذا بَعْدُ من الحروف الجازمة، وأنا أستنهض طَولَكَ إلى تجديدِ عَهْدِكَ بمُطالَعَةِ أَلِفِ الوَصْلِ، وتَعْديةِ فعلِ الفَصْلِ، وعُدُولكَ[٩] عن باب ألفِ القطع، إلى باب الوصْلِ والجَمْعِ، حتى يسقط[١٠] لِدَرَجِ الكلام بيننا هاءُ السَّكْتِ، ويَدْخُلَ الانتقالَ حالُ الصَّمْتِ. فلا تتخَيَّلْ ـ أعزك اللّٰه ـ أنَّ رَسْمَ إخائك عندي ذو حُسًا[١١] قد دَرَسَ عَفَاءً، ولا أنّ صَدري دارُ

---

(١) الذخيرة (ق ٣ ص ٥٤٤).

(٢) في الذخيرة: «النظر في نهر فسيح . . .».

(٣) الوَقْرُ، بفتح الواو وسكون القاف: الثِّقَلُ في الأذن. مختار الصحاح (وقر).

(٤) في الذخيرة: «ويَبْتَعِثُ».

(٥) الرقعة في الذخيرة (ق ٣ ص ٥٤٦ ـ ٥٤٨).

(٦) في الذخيرة: «قيادته».

(٧) في المصدر نفسه: «قَدَمٍ».

(٨) في المصدر نفسه: «اعتلال».

(٩) في الذخيرة: «وإلى عُدُولِكَ».

(١٠) في المصدر نفسه: «تَسْقُطَ».

(١١) ذو حُسًا: وادٍ من ديار عبس وغطفان. معجم البلدان (ج ٢ ص ٢٥٨). وهنا يشير ابن خفاجة إلى قول النابغة، وهو مطلع قصيدة قالها في مدح النعمان ويعتذر إليه: [الطويل]

عَفَا ذو حُسًا مِنْ فَرْتَنَى، فالفوارعُ ... فَجَنْبا أريكٍ، فالتِّلاعُ الدوافعُ =

مَيَّة أمسى مِن وُدِّكَ[١] خلاءً، وإنّما أنا فِعْلٌ إذا ثُنِّيَ ظَهَرَ مِنْ ضمير وُدِّه ما بَـطَن، وبَدَا منـه ما كَمَنَ[٢]. وهنيئًا ـ أَعَزَّكَ اللّه ـ أنَّ فِعْلَ وزارتِكَ حاضِرٌ لا يَلْحَقُ رَفْعَـهُ تغييرٌ، وأنَّ فِعْـلَ سَيفِكَ ماضٍ ما به للعوامل تأثيرٌ، وأنت بمجدِكَ جماع أبواب الظَّرْف، تأخذُ نَفْسَكَ العَلِيَّة بمطالَعَـةِ بـاب الصَّرْف، ودَرْسِ حـروفِ العَطْف، وتُـدْخِـلُ لامَ التبـرئـة على مـا حَـدَثَ مِنْ عَتْبِـكَ، وتُوجِبُ بَعْدَ النَّفْي ما سَلَفَ مِنْ قُرْبِك[٣]، وتَدَعُ أَلِفَ الأُلْفَةِ أنْ تكونَ بَعْـدُ من حروف اللِّين، وتَرْفَعُ بالإضافة بيننا وُجُـودَ التنوين، وتَسُـومُ ساكِنَ الـوُدِّ أنْ يَتَحَرَّك ومُعْتَـلَّ الإخاء أن يَصِـحَّ. وكتـابي هذا حَـرْفُ صِلَةٍ فلا تَحْـذِفهُ حتى[٤] تعـودَ الحالُ الأولى صِفَـةً، وتصيرَ هـذه النكـرةُ معـرفـةً، فـأنت ـ أعـزّكَ اللّه ـ مَصْـدَرُ فِعْـلِ السَّرْوِ والنَّبْـل[٥]، ومنـك آشتقـاق اسم السؤدد والفضل. وإنك وإنْ تأخَّرَ العَصْرُ بكَ، كالفاعل وَقَعَ مؤخَّرًا، وعَدُوَّكَ وإنْ تكبَّر، كالكُمَيْتِ لـم يَقَعْ إلاَّ مُصَغَّرًا. ولـلأيام عِلَلٌ تَبْسُطُ وتَقْبِضُ، وعـوامِلُ تَـرْفَعُ وتَخفِضُ، فـلا دَخَلَ عَـرُوضَكَ قَبْضٌ، ولا عـاقَبَ رَفْعَكَ خَفْضٌ، ولا زِلْتَ مُـرْتَبِطًا بـالفَضْلِ شَـرْطُك وجَـزاؤك، جاريًـا على الرَّفْعِ سَرْوُكَ الكريمُ وسناؤكَ، حتى يُخفضَ الفعلُ، وتُبْنَى على الكسر قَبْلُ، إن شاء اللّه.

وكتب رحمه اللّه تعالى يستدعي عُودَ غناء[٦]: انْتَظَمَ[٧] إخوانك ـ أَعَزَّكَ اللّه تعالى! ـ عِقْدُ شَرْبٍ يَتَساقَونَ في وُدِّك، ويَتَعاطَونَ رَيحانَةَ شُكْرِكَ وحَمْدك. وما منهمْ إلاَّ شَرِهُ المسـامع

= ديـوان النابغـة الذبيـاني (ص ٧٨). فَرْتَنى: اسم امـرأة. الفوارع: أعلى الجبـل. أريك: اسم مكـان. التلاع: جمع تلعة وهي مجرى الماء من أعلى الوادي. الدوافع: جمع دافعة والمقصـود بها التي تـدفع الماء إلى مجراه في الوادي، الديوان (حاشية ٢).

(١) في طبعة عبد الحميد: «وُدِّه». وهنا يشير أيضًا إلى قول النابغة الذبياني: [البسيط]

أَمْسَتْ خَـلاءً وأَمْسَى أهـلُهـا احْتَـمَـلُوا ... أَخْـنَى عـليهـا الـذي أَخْـنَى عـلى لُـبَـدِ

ديوان النابغة الذبياني (ص ٢٠). أَخْنَى عليها: بَدَّلَها من حال إلى حال. لُبد: اسم نَسْر يـروى أنه كـان للقمان بن عاد، وقد عاش عمرًا طويلاً جدًا. الديوان (حاشية ٣).

(٢) في الذخيرة: «ما كان كَمَنَ».

(٣) في المصدر نفسه: «عتابك».

(٤) في الذخيرة: «فلا تَحْذِفْهُ، ولا تَدُلَّ في اسم الجوابِ على سَرْوِكَ فاصْرِفْهُ، فبه الأُنْسُ ثلاثيٌّ فلا تُرَخِّمْهُ، وفعلٌ ماضٍ فلا تَجزِمْهُ، حتى تعودَ. . .».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «السرور والنَّيل». وفي طبعة دار صادر: «السرور والنُّبْل».

(٦) الذخيرة (ق ٣ ص ٥٤٩).

(٧) في الذخيرة: «من إخوانك».

إلى رَنَّةِ حَمامَةِ نادٍ، لا حَمَامةِ بَطْنِ وادٍ. والطَّول لك في صلتها(1) بجمادٍ ناطقٍ قد استعارَ من بنانٍ لسانًا، وصار لضميرِ صاحبِهِ ترجُمانًا، وهو على الإساءة والإحسان لا يَنْفَكُّ من إيقاع به، من(2) غيرِ إيجاعٍ له، فإنْ هَفَا عركَتْ أُذُنَهُ وأُدِّبَ، وإنْ تأتَّى(3) واستوى بُعِجَ بَطْنُهُ وضُرِبَ، لا زِلْتَ مُنْتَظِمَ الجَذَل، مُلْتَئِمَ الأملِ. انتهى.

ومن نظمه رحمه الله تعالى يتفجّعُ ويتوجّع(4): [الطويل]

شَرَابُ الأماني، لو عَلِمْتَ، سَرَابُ ... وعُتْبَى الليالي، لو عَرَفْتَ، عتابُ(5)
وهل مُهْجَةُ الإنسانِ إلَّا طريْدَةٌ ... يحومُ(6) عليها، للحِمَام، عُقابُ؟
يَخُبُّ بها في كلِّ يوم وليلةٍ ... مطايا إلى دارِ البِلَى ورِكابُ
وكيف يَغِيضُ الدَّمْعُ أو يبرُدُ الحَشَا ... وقد بادَ أقرانٌ وفاتَ شباب
أُقلِّبُ طَرْفي لا أرى غير لَيْلةٍ ... وقد حُطَّ عن وجه الصباح نِقَابُ
كأنِّي، وقد طار الصباحُ، حَمامَةٌ، ... يَمُدُّ جَناحَيه عليَّ غُراب
دَعَا بِهِمُ داعي الرَّدى فكأنما ... تبارَتْ بهمْ خيْلٌ هناك عِراب
فهاهم وسِلْمُ الدَّهْرِ حَرْبٌ كأنَّما ... جَثَا بينهمْ(7) طَعْنٌ لَهُمْ وضِراب
هُجُود ولا غَيرَ الترابِ حَشِيَّةٌ ... لِجَنْبٍ ولا غَيرَ القُبُور قِبَابُ
ولست بناس صاحبًا من ربيعة ... إذا نَسِيَتْ رَسْمَ الوفاء صحابُ
ومِمَّا شجاني أنْ قَضَى حَتْفَ أنفِهِ ... وما انْدَقَّ رُمْحٌ دونه وكعاب(8)
وأنَا تجارَينَا ثلاثينَ حِقْبَةً(9) ... ففات(10) سِباقًا والحِمام قِصَابُ

---

(1) في الذخيرة: «صلتنا».

(2) في المصدر نفسه: «في».

(3) في طبعة عبد الحميد: «تأبَّى».

(4) الأبيات من قصيدة من ٥١ بيتًا قالها ابن خفاجة في رثاء الوزير أبي ربيعة، في ديوان ابن خفاجة (ص ٥٣ ـ ٥٥) وفي الذخيرة (ق ٣ ص ٥٦٥ ـ ٥٦٦).

(5) في الديوان: «لو فَهِمْتَ، عتابُ». والعُتْبَى: الرِّضا.

(6) في الديوان: «تحوم».

(7) هكذا في الديوان. وفي طبعة دار صادر: «بِهِمُ».

(8) في الديوان: «وذُباب».

(9) هكذا في الديوان. وفي طبعة دار صادر: «حُجَّةً».

(10) في طبعة عبد الحميد: «فمات».

كـأنْ لم نَبِتْ في مـنـزلِ القَصْفِ لـيلةً ... نُـجيبُ بهـا داعـي الـصِّبـا ونُـجـاب
إذا قـام مِـنَّـا قـائـمٌ هَـزَّ عِـطْفَـهُ ... شـبـابٌ أرَقْـنَـاه بـهـا وشَـرَاب
ولَـمَّـا تـراءتْ لـلمَـشِيـبِ بُـرَيـقَـةٌ ... وأقْشَـعَ مِنْ ظِـلِّ الـشبـابِ سَحـابُ
نَـهَضْـنـا بـأعبـاءِ الـليـالـي جَـزالَـةً ... وأَرْسَتْ بنـا في الـنـائـبـات هِـضـاب
فيـا ظـاعِنًـا قـد حُطَّ من سـاحَـةِ البِلى ... بـمـنـزلِ بَـيـنٍ لـيس عـنـه مَـآب
كَفَى حَـزنًـا أنْ لم يَـزُرْني[1] على النَّـوَى ... رسـولٌ ولـم يَـنْـفُـذْ إليـك[2] كـتـاب
وأنِّـي إذا يَـمَّـمْـتُ قَـبْـرَكَ زائـرًا ... وَقَـفْـتُ ودونـي لـلـتـرابِ حِـجـاب
ولـو أنَّ حَـيًّـا كـان حـاوَرَ[3] مَـيِّـتًـا ... لَـطالَ كـلامٌ بَـيـنـنَـا وخِـطـاب
وأعْـرَبَ عَـمَّـا عِـنْـدَهُ مِـنْ جَـلِيَّـةٍ ... فـأقسـعَ[4] عن شمسٍ هنـاك ضَبـاب

وقد أَبْعَدْنا عَمّا كُنّا بصدده من ذكر قرطبة أعادها اللّه للإسلام، فنقول: قـال بعض من أَرَّخ الأندلس:

انتهت مسـاجد قـرطبة أيـام عبد الـرحمن الداخـل إلى أربعمائـة وتسعين مسجدًا، ثم زادت بعد ذلك كثيرًا كما سيأتي ذكره.

وقال بعضهم[5]: كانت قـرطبة قـاعدة الأنـدلس، وأُمَّ المدائن، وقـرارة الملك، وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلثمائـة، وكانت عـدّة الدُّور في القصـر الكبير أربعمـائة دار ونيِّفًا وثلاثين، وكانت عدّة دُور الرعايا والسَّواد بها الواجب على أهلها المبيت في السور مائـة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، حاشا دُور الوزراء وأكابر الناس والبياض.

ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لَمْتُونة والموحِّدين، قال: وكانت ديـار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار وثلثمائة دار. انتهى.

---

(١) في الديوان: «يَرِدْني».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «إليَّ».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «جاور».
(٤) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «فأقشع».
(٥) انظر أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٢).

وعدد أرباضها ثمانية وعشرون، وقيل: أحد[1] وعشرون، ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدًا وعدد الحمّامات المبرزة للناس سبعمائة حَمّام، وقيل: ثلثمائة حمّام.

وقال ابن حيان: إنَّ عدّة المساجد عند تناهيها في مدّة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد، والحمامات تسعمائة حمام.

وفي بعض التواريخ القديمة: كان بقرطبة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدًا ـ منها بشَقُنْدَةَ ثمانية عشر مسجدًا ـ وتسعمائة حَمّام وأحد عشر حَمّامًا، ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعيّة خصوصًا، وربّما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصّتها، هكذا نقله في المغرب، وهو أعلم بما يأتي ويَذَر، رحمه اللَّه تعالى!.

وقال بعض المؤرخين ـ بعد ذكره نحو ما تقدم[2] ـ: ووسط الأرباض قبة قرطبة التي تحيط بالسُّور دونها، وأمّا اليتيمة التي كانت في المجلس البديع فإنها كانت من تُحَف قصر اليونانيين بَعَث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنيّة. انتهى.

ونحوه لابن الفَرَضي وغير واحد، لكن خالفهم صاحب «المسالك والممالك» فذكر أنَّ عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجدًا، وهو بعيدٌ، وقال قبله: إنَّ دَورَ قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع، وتفسيرها باللسان القوطي القلوب المختلفة، وهي بالقوطية بالظاء المشالة، وقيل: إن معنى قرطبة أجر[3] فاسكنها، قال: وبقرطبة أقاليم كثيرة وكُوَرٌ جليلة، وكانت جبايتها في أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين دينارًا، وسبق ما يخالف هذا، ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمائة مدي، ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمائة مدي وسبعة وأربعين مديًا.

وقال بعض العلماء: أحصيت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر فكان مائتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار[4] وسبعة وسبعين دارًا، وهذه دُورُ الرعيّة، وأما دُور

---

(١) في طبعة دار صادر: «واحد وعشرون».

(٢) انظر أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٢).

(٣) في الروض المعطار (ص ٤٥٨): «آخر فاسْكُنْها».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «دارا».

الأكابر والوزراء والكُتّاب والأجناد وخاصّة الملك فستون ألف دار وثلثمائة دار، سوى مَصاري[1] الكِراء والحمّامات والخانات، وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون حانوتًا، ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غَيَّرَتْ رسوم ذلك العمران، ومُحِيَتْ آثارُ تلك القرى والبلدان، انتهى مُلَخّصًا.

وسيأتي في رسالة الشَّقْندي ما هو أشمل من هذا.

ولَمَّا رَقَّتْ حالُ أبي القاسم عامر بن هشام القرطبي بقرطبة وزَيَّنَ له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحِّدين مَرّاكُشَ قال وذكر المنتزهات القرطبية: [البسيط]

يا هَبّةً باكَرَتْ مِنْ نَحْوِ دارين[2] ... وافَتْ إليّ على بُعْدٍ تُحَيِّيني
سَرَتْ على صَفَحات النهر ناشرة ... جَناحَها بين خِيرِيٍّ ونسرينِ
رَدَّتْ إلى جَسدي رُوحَ الحياة وما ... خِلْتُ النسيمَ إذا ما مِتُّ يحييني
لولا تَنَسُّمُها مِنْ نَشْرِ أَرْضِكُمُ ... ما أصبحتْ من أليم الوَجد تُبْرِيني
مَرَّتْ على عقدات الرمل حاملةً ... مِنْ سِرّكمْ خَبَرًا بالوَحْيِ يَشْفِيني
عَرَفْتُ من عَرْفِهِ ما لستُ[3] أجهله ... لَمّا تَنَسَّمَ في تلك المَيادِينِ
نَزَوتُ من طَرَبٍ لَمّا هَفا سَحَرا ... وظَلَّ يَنْشُرُني طَورًا ويَطْويني
خِلْتُ الشمال شَمُولاً إذ[4] سَكِرْتُ بها ... سُكْرًا بما لستُ أرجوه يُمَنِّيني
أهْدَتْ إليّ أريجًا مِنْ شمائلكمْ ... فقلْتُ: قَرَّبَني مَنْ كان يُقصيني
وخِلْتُ مِنْ طَمَعٍ أنَّ اللِّقاء على ... إثْرِ النسيم وأضْحَى الشوقُ يَحْدُوني
فَظَلْتُ أَلْثِمُ مِنْ تعظيم حَقِّكُمُ ... مَجَرَّ أذيالها والوَجْدُ يُغْريني
مَسَارح كم بها سرحْتُ مِنْ كَمَدٍ ... قلبي وطَرْفي ولا سُلْوَان يَثْنِيني
بَينَ المُصَلَّى إلى وادي الْعَقيق وما ... يزال مثلَ اسمه مُذْ بان يُبْكِيني
إلى الرُّصافة بالْمَرْجِ النضيرِ فَوا ... دِي الدَّير فالعَطْفِ مِنْ بَطْحاءِ عَبْدُونِ
لباب عَبْدٍ سَقَتْهُ السُّحْبُ وابلَها ... فلم يزل بكُؤوس الأنس يَسْقِيني

---

(١) المَصاري: جمع مِصْريّة وهي غرفة مخصّصة للأجرة. الكِراء: أجرة المستأجر لسان العرب (كرى).

(٢) تقدم صدر هذا البيت في هذا الجزء من نفح الطيب.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «ما كنت أَجْهَلُهُ لمَّا تَبَسَّمَ».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «إذا».

لا بـاعَـدَ الـلَّهُ عَـيْـنـي عَـنْ مَـنَـازِهِـهِ ولا يـقـرِّبْ لَـهَـا أبـواب جَـيـرُونِ
حـاشـا لـهـا مِنْ مـحـلاَت مُفَـارقة مِنْ شَيِّق دونَهَـا فـي القـرب مَحْـزُونِ
أيـن الـمـسـيـرُ ورِزْقُ الـلَّه أُدْرِكُـهُ من دون جَـهْـدٍ وتـأمـيـلٍ يُـعَـنِّـيـنـي
يـا مَنْ يـزيِّنُ لـي التـرْحـالَ عـن بَلَدِي كم ذا تُـحَـاول نَـسْـلاً عـنـد عِـنِّـيـنِ
وأيـن يَعْـدِلُ عـن أرجـاء قُـرْطُـبَـة مَنْ شـاء يَظْفَـرُ بـالـدنيـا وبـالـدينِ
قُـطْرٌ فَـسِـيحٌ ونـهـرٌ مَـا بِـهِ كَـدَرٌ حَـفَتْ بِشَـطَّيـه ألفـافُ الْبَسَـاتـينِ
يـا لَيْتَ لي عُمْـرَ نُـوحٍ فـي إقـامتـهـا وأنَّ مـا لِـيَ فـيـه كَـنْـزُ قـارونِ
كـلاهـمـا كُنْـتُ أفـنـيـه عـلى نَـشَـوَا تِ الـراحِ نَهْبًـا ووَصْـلِ الحُـورِ[1] والعينِ
وَإنَّـمـا أسَـفِـي أنّـي أهِـيـمُ بـهـا وأنَّ حَـظِّيَ مـنـهـا حَظُّ مَـغْـبُـونِ
أرَى بـعـيـنـيَ مـا لا تَـسْـتَـطِـيـلُ يَـدِي لَـهُ وقَـدْ حَـازَهُ مَـنْ قَـدْرُه دُونـي
وأَنْكَـدُ النـاسِ عَيْشًـا مَـنْ تكـون لـه نَـفْسُ المـلوكِ وحَـالاَتُ المَـسَـاكِـيـنِ
يَـغُضُّ طَـرْفَ التـصـابي حين تَـبْهَـتُـه قُـضْبَـانُ نَـعْمَـان فـي كُثْبَـان يَبْـرِيـنِ
قـالـوا: الكَفَـافُ مُقِيمٌ قلت: ذاك لمنْ لا يَسْـتَـخِـفُّ إلى بَـيـتِ الـزراجِـيـنِ
ولا يُـبَـلْـبِـلُـهُ هَـبُّ الـصَّـبَـا سَـحَـرًا ولا يُـلَـطِّـفُـه عَـرْفُ الـريـاحـيـنِ
ولا يَـهِـيـمُ بـتُـفَّـاح الـخُـدُودِ ورُمَّـا نِ الـصُّـدُورِ[2] وتَـرْجِـيـعِ الـتـلاحِـينِ
لا تُـجْـتَـنَـى راحـةٌ إلاَّ عـلـى تـعَـبٍ ولا تُـنَـالُ الـعُـلا إلاَّ مـن الْـهُـونِ
وصَاحِـبُ الْعقْـلِ فـي الـدنْـيـا أخـو كـدرٍ وإنَّـمـا الصَّـفْـوُ فـيـهـا لـلمـجـانِـيـنِ
يـا آمـري أنْ أحـثَّ العِيـسَ عن وَطَـنِـي لـمَّـا رأى الـرِّزْقَ فيـه لَيسَ يُـرضِيني
نَـصَـحْـتَ لـكِـنّ لـي قَلْـبًـا يُـنـازِعُـنـي فَـلوْ تَـرَحّـلْـتُ عـنـه حَـلَّهُ دونِـي
لألـزَمَـنْ من وَطـنِـي طـورًا تُـطَاوِعُـنِـي قُـودُ الأمـانـي وطَـورًا فيـه تَـعْصِيني
مُـذلـلاً[3] بينَ عـرفـانـي وأضـربُ عن سَـيـرٍ لأرض بهـا مَنْ لَيس يَـدْرِيـنـي
هـذا يـقـولُ غـريـبٌ سَـاقـه طَـمَـعٌ وذاك حِـيـنَ أريـهِ الـبـرَّ يَـجْـفُـونـي
إلـيـكِ عَـنِّـيَ آمـالـي فَـبُـعْـدُكِ يَـهْـ ـديـني وقُـرْبُـكِ يُـطغيني ويُغْـويـنـي
يـا لَـحْظَ كـلِّ غـزالٍ لَسْـت أمـلكُـه يَـدْنـو ومـاليَ حَـالٌ منـه تُـدْنِيـنـي

---

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «الخُرَّدِ العِينِ».
(٢) في طبعة ليدن: «النهود».
(٣) في طبعة دار صادر: «مدللاً».

ويـا مُـدَامَـةَ دَيـرٍ لا أُلِـمُّ بِـهِ ... لـولاكُمَـا كـان مـا أُعْـطِيتُ يَكْفِينـي
لَأَصْـبِـرَنَّ عـلى مـا كـان مِـنْ كَـدَرٍ ... لـمن عَـطَايـاه بَيـنَ الـكـافِ والـنُّـونِ

وتُسمَّى هذه القصيدة عند أهل الأندلس «كنز الأدب» وقد أشرْنا في الباب الأول إلى كثيرٍ ممّا يتعلّق بقرطبة أعادها اللّه تعالى إلى الإسلام! فأغنى عن إعادته، وإنْ كان ذكره هنا أنسب؛ لأنَّ ما تقدَّم إنّما هو في ذكرها مع غيرها من بلاد الأندلس، وهذا الباب لها بالاستقلال.

وأنشد أبو العاصي غالب بن أمية الموروري[1] لَمَّا جلس على نهر قرطبة بإزاء الرَّبَض مُلْتَفِتًا إلى القصر، بديهة[2]: [المنسرح]

يـا قَصْرُ كم قـد[3] حَـوَيْـتَ مِنْ نِـعَمٍ ... عـادَتْ لَقًى في[4] عَـوَارضِ السِّكَـكِ
يـا قَصْرُ كم قـد[5] حَـوَيْـتَ من مَـلِكٍ ... دَارَتْ عـلـيـه دوائـرُ الْـفَـلَكِ
ابْـقَ بِـمَـا شِئْـتَ، كـلُّ مُـتَّـخَـذٍ ... يـعـودُ يـومًـا بـحـالِ مُـتَّـرِكِ[6]

---

(١) أبو العاصي غالب بن أمية بن غالب الموروري، أديب شاعر، سكن قرطبة، وقال هذه الأبيات سنة ٣٨٩ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٢٤ وفيه: المورِدي) وبغية الملتمس (ص ٤٣٩ وفيه: الموروري).

(٢) الأبيات، حسب رواية النفح، فيها خلل في الوزن، ولكنها جاءت في جذوة المقتبس وبغية الملتمس، ضمن خمسة عشر بيتًا، على البحر المنسرح، لذلك أبحْنا لأنفسنا حرية التصرّف بها، فأجرينا عليها بعض التعديلات بما يلائم المصدرين المذكورين.

(٣) كلمة «قد» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الجذوة والبغية.

(٤) في الأصل: «بعارض». وفي الجذوة: «دارتْ لَقًى».

(٥) كلمة «قد» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الجذوة والبغية. ورواية البيت في المصدرين الأخيرين هي:

يـا قَـصْـرُ كـم أَلِـفـت مِـنْ مَـلِكٍ ... دارتْ عـلـيـهِـمْ دوائـرُ الـفَـلَكِ

وفي صدر هذا البيت خلل في الوزن.

(٦) في أصول النفح:

مـا شِئْـتَ فـابْـقَ فـكـلُّ مُـتَّـخَـذٍ ... يـومًـا يـعـودُ بـحـالِ مُـتَّـرِكِ

وفي الجذوة: «أَنِفْ بما شئت...». وفي البغية: أَفِقْ بِمَا شِئت... لحالِ مُتَّرِكِ».

وقال القاضي أبو الفضل عياض[1] عند ارتحاله عن قرطبة[2]: [الطويل]

أقــول وقــد جَــدّ ارْتـحــالـي وغَــرَّدَتْ ... حُــدَاتـي وزُمَّتْ لـلفـراقِ رَكَـائـبـي [3]
وقــد غَمَضَتْ من كَثْرة الـدَّمْــع مُقْلتي ... وصـــارتْ هَــوَاء مِــنْ فـؤَادي تَـرَائـبي
ولــم يَـبْــقَ إلاَّ وَقْـفَــة يَـسْـتَـحِـثُّـهـا ... وَدَاعــيَ لــلأحـبــاب لا لِـلْـحَـبَـائِــبِ
رَعَى اللَّه جيــرانًــا بقـرطبــة الـعُــلا ... وجــادَ رُبـاهــا بــالعِهــاد السَّــواكِبِ[4]
وحَيَّــا زمــانًــا بَـيْـنـهــمْ قــد ألِـفْـتُــه ... طليقَ المُحَيَّــا مُسْتَــلانَ[5] الجَــوَانـبِ
أإخــوانــنــا بــاللَّه فــيـهــا تــذكّــروا ... مَــوَدَّةَ[6] جـارٍ أو مَــوَدَّةَ صــاحِــبِ
غَــدَوتُ بـهمْ مِنْ بِــرِّهمْ واحْـتـفــائـهـمْ ... كــأنّــي فــي أهــلي وبــيــن أقــاربــي

وأمَّا مسجد قرطبة فشهرته تغني عن كثرة الكلام فيه، ولكن نذكر من أوصافه وننشر من أحواله ما لا بُدَّ منه، فنقول:

قال بعض المؤرخين: ليس في بلاد الإسلام أعظم منه، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة، وكلَّما اجتمعت منه أربع سواري كان رأسها واحدًا، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه وأسفله، انتهى.

وكان الذي ابتدأ بناء[7] هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية، المعروف بالداخل، ولم يكمل في زمانه، وكمله ابنه هشام، ثم توالى الخلفاء من بني أميّة على الزيادة فيه، حتى صار المثل مضروبًا به، والذي ذكره غير واحد أنه لم يزل كلُّ خليفة يزيد فيه على مَنْ قبله إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء.

---

(١) هو القاضي عياض وقد تقدّمت ترجمته في هذا الجزء.
(٢) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٢٣) وفي أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨).
(٣) زُمَّتْ ركائبي: أُعدَّتْ للرحيل. لسان العرب (زمم).
(٤) العِهادُ: جمع عَهْد وهو أول مطر الوسميّ. لسان العرب (عهد). وفي قلائد العقيان: «وسقى» بدل «وجاد».
(٥) في القلائد: «مستلين».
(٦) في المصدر نفسه: «معاهد جارٍ».
(٧) في طبعة ليدن: «بنيان».

وقـال بعض المؤرخين: إن عبد الـرحمن الداخـل لَمَّا استقـرَّ أمره وعـظم بَنَى القصـرَ بقرطبة، وبَنَى المسجدَ الجامع، وأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وبَنَى بقرطبة الرُّصافـة تشبيهًا برُصَافة جَدِّه هشام بدمشق.

وقال بعض: إنه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار، واشتـرى موضعـه إذ كان كنيسـة بمائة ألف دينار، فاللَّه تعالى أعلم.

وقال بعض[1] المؤرخين في ترجمة عبد الـرحمن الداخـل ما صـورته: إنـه لَمَّا تَمَهَّـدَ ملكه شرع في تعظيم قرطبة، فجدَّد مغانيها، وشيّـد مبانيهـا، وحصّنها بـالسور، وابتنى قصـر الإمارة والمسجد الجـامع، ووسّـع فِناءه، وأَصْلَحَ مسـاجد الكُـوَرِ، ثم ابتنى مدينـة الرُّصـافة منتزهًا له، واتّخذ بها قصرًا حسنًا، وجِنانًا واسعة، نقـل إليها غـرائب الغراس وكـرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الأقطار، انتهى.

وكانت أخته أم الأصبـغ ترسـل إليه من الشـام بالغـرائب، مثل الـرمّان العجيب الـذي أرسلته إليه من دمشق الشام كما مَرَّ، وسيأتي كلام ابن سعيد بما هو أتمُّ من هذا.

ولما ذكر ابن بَشْكُوال زيادة المنصور بن أبي عامر في جامع قرطبة قال: ومن أحسن ما عاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامـريّة أعـلاج النصارى مُصَفَّـدِينَ في الحديـد من أرض قَشْتَالة وغيرها، وهم كانوا يتصـرّفون في البنيـان عوضًـا من رَجَّالـة المسلمين، إذلالاً للشِّرْك وعِـزَّةً للإسـلام، ولَمَّا عَـزَمَ على زيادتـه هذه جلس لأربـاب الدُّورِ التي نقـل أصحابهـا عنها بنفسه، فكان يُؤتَى بصاحب المنزل فيقول له: إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد أن أبتـاعها لجمـاعة المسلمين من مـالهم ومن فَيْئهم لأزيدهـا في جامعهم ومـوضـع صـلاتهم، فشَـطِّطْ واطْلُب ما شِئْتَ، فإذا ذكر له أقصى الثمن أَمَرَ أن يُضاعف له، وأن تُشْترى لـه بعد ذلـك دارٌ عوضًا منها، حتى أُتي بامرأة لها دار بصحن الجـامع فيهـا نخلة، فقالت: لا أقبـل عوضًـا إلاَّ دارًا بنخلة، فقال: تُبْتاع لها دار بنخلة، ولو ذهب فيها بيتُ المال، فاشتريت لهـا دار بنخلة، وبولغ في الثمن، وحكى ذلك ابن حيان أيضًا.

وقيـل: إن إنفاق الحكم في زيـادة الجامـع كان مـائة ألف وواحـدًا وستين ألف دينـار وَنَيِّفًا، وكلُّه من الأخماس.

---

(١) في طبعة دار صادر: «وقال بعضٌ في...».

وقال صاحب كتاب «مجموع المفترق»: وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة إلى الجَوْف قبل الزيادة مائتين وخمسة وعشرين ذراعًا، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع، ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع، فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراعًا، وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعًا، فتمَّ العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعًا، وكان عَدَدُ بلاطه[1] أحد عشر بلاطًا، عرض أوسطها ستة عشر ذراعًا، وعرض كل واحد من اللذين يَلِيانِهِ غربًا واللذين يليانه شرقًا أربعة عشر ذراعًا، وعرض كلٍّ واحد من الستة الباقية أحد عشر[2] ذراعًا، وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانيةً عرضُ كل واحد عشرة أذرع، وكان العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفًا، وخدم فيه بنفسه، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة ذراع وثمانية[3] وعشرون ذراعًا، وعرضه من القبلة إلى الجَوْف مائة ذراع وخمسة أذرع، وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع، فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعًا وعدد أبوابه تسعة: ثلاثة في صحنه غربًا وشرقًا وجَوفًا، وأربعة في بلاطاته: اثنان شرقيان واثنان غربيّان، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان، وجميعُ ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عمودًا، رخامًا كلّها، وباب مقصورة الجامع ذهب، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أُجْري فيه الذهب على الفُسَيْفِسَاء، وثُرَيَّات المقصورة فِضّة محضة، وارتفاعُ الصومعة اليوم - وهي من بناء عبد الرحمن بن محمد - ثلاثة وسبعون ذراعًا إلى أعلى القبّة المفتّحة التي يستديرُ[4] بها المؤذِّن، وفي رأس هذه القبّة تفافيح ذهب وفضة، ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف، فاثنتان[5] من التفافيح ذهب إبريز، وواحدة فِضّة، وتحت كل واحدة منها وفوقها سَوسَنة قد هُنْدست بأبدع صنعة، ورمّانة ذهب صغيرة على رأس الزج، وهي إحدى غرائب الأرض.

---

(١) في طبعة دار صادر: «بلاطاته».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «إحدى عشرة ذراعًا».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وثمانٍ».

(٤) في طبعة بولاق: «يستدبرها المؤذن».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «فاثنان».

وكان بالجامع[1] المذكور في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي اللَّه تعالى عنه، الذي خَطَّه بيده[2]، وعليه حلية ذهب مكلّلة بالـدُّرِّ والياقـوت، وعليه أغشيـة الديباج، وهو على كرسيّ من[3] العود الرَّطْب بمسامير الذهب.

رجع إلى المنارة ـ وارتفاعُ المنارة إلى مكـان الأذان أربعة[4] وخمسـون ذراعًا، وطـول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمانية عشر[5] ذراعًا، انتهى بحروفه.

وفيه بعض مخالفة لِمَا ذكره ابن الفرضي وبعضهم، إذ قال في ترجمة المنصور بن أبي عامر ما صورته[6]: وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب[7] البِرِّ والقُربَة بنيانُ المسجـد والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلثمائة، وذلك أنه لَمَّا زاد الناس بقُرْطُبَـة وانجلب إليها قبـائلُ البربر من العُدْوة وإفريقيـة، وتناهى حـالُها في الجـلالة، ضـاقت الأرباض وغَيـرُها، وضـاق المسجد الجامع عن حَمْل الناس، فشرع المنصورُ في الزيـادة بشرقِيِّـه حيث تتمكّن الزيـادة لاتّصال الجانب الغربي بقصر الخلافة، فبدأ ابنُ أبي عامر[8] هذه الزيادة على بَلَاطات تمتـدُّ طولًا من أول المسجد إلى آخره، وقصد ابن أبي عامر في هـذه الزيـادة المبالَغَـةَ في الإتقان والوثاقـة، دون الزخـرفة، ولم يُقَصِّـر ـ مع هـذا ـ عن سائـر الزيـادات جودةً، مـا عدا زيـادة الحكم. وأوّلُ ما عمله ابن أبي عامـر تطييبُ نفـوس أرباب الـدُّور[9] الذين اشْتُـرِيَتْ منهم للهَدْم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن[10]. وصَنَعَ في صحنه الجُبَّ العظيمَ قَـدْرُه، الواسـعَ فِناؤه. وهو ـ أعني ابن أبي عامر ـ هو الذي رتَّب إحراق الشمـع بالجـامع[11] زيـادة للزيت، فتطابق

---

(١) انظر الروض المعطار (ص ٤٥٧).

(٢) في الروض المعطار: «بيمينه».

(٣) حرف «من» ساقط من طبعتي دار صادر وبولاق.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «أربع».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «ثمان عشرة».

(٦) النص في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٧) هكذا في البيان المغرب وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «الخَيرُ والبِرُّ والقُرَبُ...».

(٨) في طبعة عبد الحميد: «في هذه».

(٩) في البيان المغرب: «الدُّور والمُسْتَغَلَّات الذين...».

(١٠) في المصدر نفسه: «من الثمن أو بمعاوضة...».

(١١) في المصدر نفسه: «الشمع في المسجد الجامع...».

بـذلك النُّـورانِ. وكان عـدد سواري الجـامع، الحـاملة لسمائـه واللاصقـة بمبـانيـه وقِبـابـه ومَنـاره، بين[1] كبيرة وصغيـرة ألف ساريـة وأربعمائـة ساريـة وسبع عشـرة ساريـة، وقيـل: أكثر[2]. وعَدَدُ ثُرَيَّات الجامع، ما بين كبيرة وصغيرة، مائتان وثمانون ثُرَيَّا[3]، وعددُ الكؤوس سبعة آلاف كأس وأربعمائة كأس وخمس وعشرون كأسًـا، وقيل[4]: عشـرة آلاف وثمانمـائة وخمس كؤوس، وزِنَةُ مَشَاكي الرصاص للكؤوس المذكورة[5] عشرة أرباع أو نحوها، وزِنَة ما يحتاج إليه الجامع من الـزيت في السنة خمسمـائة رُبْـع أو نحوهـا، يُصْرَفُ منـه في رمضان خاصَّةً نحو نصف العَدَد. ومِمَّا كان يختصُّ برمضان المعظَّم ثلاثـة قناطيـر من الشمع وثـلاثة أرباع القنطار من الكَتَّان المقطن[6] لإقامة الشمع المذكور؛ والكبيرة من الشمع التي[7] تؤخذ بجانب الإمام يكون وزنها من خمسين إلى ستين رطلاً، يحترق بعضهـا بطول الشهـر، ويَعمُّ الحَرْقُ لجميعها ليلة الختمة. وكان[8] عدد من يخدم الجامع المـذكور بقـرطبة في دولـة ابن أبي عـامر ويتصـرَّف فيـه من أئمَّـة ومقـرئين وأُمَنـاء ومُؤَذِّنين وسَـدَنـة ومُـوقِـدين وغيـرهم من المتصرِّفين مائة وتسعة وخمسين شخصًا. ويُوقَدُ من البَخور ليلة الخَتْمة أربع أَواقٍ من العنبـر الأَشْهب وثماني[9] أواقٍ من العود الرطب، انتهى.

قال بعض المؤرخين: كان للجـامع كـل ليلة[10] جمعة رطـل عود، وربـع رطل عنبـر، يتبخَّر به، انتهى.

وقال ابن سعيد، نقلاً عن ابن بَشْكوال: طول جامـع قرطبـة الأعظم الـذي هو بـداخل مدينتها من القبلة إلى الجوف ثلثمائـة وثلاثـون ذراعًا؛ الصحْنُ المكشوف منه[11] ثمانـون

---

(١) في المصدر نفسه: «ما بين».

(٢) عبارة: «وقيل: أكثر» ساقطة من البيان المغرب.

(٣) في البيان المغرب: «ثريّة».

(٤) عبارة: «وقيل: عشرة... كؤوس» ساقطة من البيان المغرب.

(٥) كلمة «المذكورة» ساقطة من البيان المغرب.

(٦) في البيان المغرب: «المُقَصَّر».

(٧) في المصدر نفسه: «الشمع تُوقَدُ بجانب...».

(٨) في المصدر نفسه: «وكان يخدم الجامع...».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «وثمان».

(١٠) كلمة «ليلة» ساقطة من طبعة ليدن.

(١١) في طبعتي دار صادر وليدن: «عنه».

ذراعًا، وغير ذلك مُقَرْمَد، وعرضه من الغرب إلى الشرق مائتان وخمسون ذراعًا، وعدد أَبْهَائِهِ عند اكتمالها بالشمالية التي زادها المنصور بن أبي عامر بعد هذا تسعة عشر بَهْوًا، وتسمى البلاطات، وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد[1] وعشرون بابًا؛ في الجانب الغربي تسعة أبواب، منها واحدٌ كبيرٌ للنساء يشرع إلى مقاصيرهنَّ، وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب، وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب، منها لدخول الرجال بابان كبيران، وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهنَّ، وليس لهذا الجامع في القبليّ سوى باب واحد بداخل المقصورة المتّخذة في قبلته متّصل بالساباط المُفْضِي إلى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر إلى الجامع لشهود الجمعة، وجميعُ هذه الأبواب مُلَبَّسَةٌ بالنّحاس الأصفر بأَغْرَبِ صنعة، وعددُ سواري هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة[2] بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألفٌ وأربَعُمائة سارية وتسع سوار، منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية. وذكر المقصورة البديعة التي صنعها الحكم المستنصر في هذا الجامع فقال: إنه خطر بها على خمسة[3] بلاطات من الزيادة الحكَمية، وأطلق حفافيها على الستة الباقية؛ ثلاثة من كل جهة فصار طولها من الشرق إلى الغرب خمسة[4] وسبعين ذراعًا، وعرضها من جدار الخشب إلى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعًا، وارتفاعُها في السماء إلى حَدِّ شرفاتها ثمانية[5] أذرع، وارتفاعُ كل شرفة ثلاثة أشبار، ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة إلى الجامع شرقيٌّ وغربيٌّ وشماليٌّ. ثم قال: وذَرْعُ المحراب[6] في الطول من القبلة إلى الجوف ثمانية[5] أذرع ونصف، وعرضه من الشرق إلى الغرب سبعة[7] أَذرع ونصف، وارتفاع قَبْوِهِ في السماء ثلاثة[8] عشر ذراعًا ونصف، والمنبر إلى جنبه مؤلَّفٌ من أكارم الخشب ما بين

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «أحد وعشرون».

(٢) في طبعة دار صادر: «والملصقة».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «خمس».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «خمسًا».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «ثمان».

(٦) ذَرْعُ المحراب: أي مقياسه بالذراع.

(٧) في طبعة عبد الحميد: «سبع».

(٨) في طبعة عبد الحميد: «ثلاث عشرة».

آبنوس وصَنْدَل ونَبْـع وبَقَّمٍ وشَوحَط ومـا أشبه ذلـك، ومبلغ النفقة فيـه خمسة وثـلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسـة دنانيـر وثلاثـة دراهم وثُلُث درهم وقيل غيـر ذلك، وعـدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه اللّه. وذكر أن عـدد ثُرَيَّـات الجامـع التي تُسْرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصّة ـ سوى ما منها على الأبواب ـ مائتان وأربع وعشـرون ثُريًّا، جميعُها من لاطون(١) مختلفة الصنعة، منها أربع ثَرَيَّات كبار معلّقة في البـلاط الأوسط أكبرها الضخمة المعلّقة في القبّـة الكبرى التي فيهـا المصاحف حيـال المقصورة، وفيهـا من السُرُج ـ فيما زعموا ـ ألف وأربعمائة وأربعة(٢) وخمسون، تستوقد هذه الثريّات الضخـام في العشر الأخير من شهر رمضان، تسقى كل ثريّا منها سبعةَ أرباع في الليلة، وكان مبلغ ما يُنْفَقُ من الزيت على جميع المصابيح في هذا المسجد في السنة أيام تمام وَقُوده في مـدة ابن أبي عامر مكملة(٣) بالزيادة المنسوبة ألف ربع، منهَا في شهر رمضـان سبعمائـة وخمسون ربعًـا، قال: وفي بعض التواريخ القديمة كان عدد القَوَمة بالمسجد الجامع بقرطبـة في زمن الخلفاء وفي زمن ابن أبي عامر ثلثمائة، انتهى. وفيه مخالفة لبعض ما تقدَّم.

وذكر بعضهم الزيت ـ ولكن قوله أولى بالاتباع، لنقله عن ابن بشكـوال، ولمعرفـة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكبر من غيـره، واللّه سبحانـه أعلم ـ فقال: ألف ربـع وثلاثـون ربعًا، منها في رمضان خمسمائة ربع، وفي الثريّات التي من الفِضّـة ـ وهي ثلاث(٤) ـ اثنـان وسبعون رطلاً، لكلٍّ واحدة ثمانية عشر في ليلة وَقْدِها. وقال في المنبـر: إنه مركّب من ستة وثـلاثين ألف وصل، قـام كل واحـد منها بسبعـة دراهم فِضّـة، وسمّـرت بمسـاميـر الـذهب والفِضّة، وفي بعضها نفيس الأحجار، واتّصل العمل فيه تسعةً، ثم قال: ودور الثريّا العظيمة خمسون شبرًا، وتحتوي على ألف كأس وأربعة وثمانين، كلُّها مُوَشّاة بالذهب، إلى غير ذلك من الغرائب.

وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد إبراهيم ابن صاحب الصلاة الوِلْبَني يصف جامع قـرطبة بما نَصُّه: عمر اللّه سبحانه بشمول السعـادة رَسْمَكَ، ووفّـر من جزيـل الكرامـة قسْمك، ولا

---

(١) لاطون: كلمة إسبانية وهي Latón وتعني النحاس الأصفر. قاموس ف. كورينطي.

(٢) في طبعة دار صادر: «ألف وأربعة وخمسون».

(٣) في طبعة بولاق: «مكمل».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «ثلاثة».

بَرِحَتْ سحائبُ الإنعام تَهْمي عليك ثَرَّة، وأنامل الأيام تهدي إليك كلَّ مَسَرَّة، لَئِنْ كان أعَزَّكَ اللَّهُ طريق الوداد بيننا عامرًا، وسبيل المحبة[1] غامرًا، لوجب أن نفضَّ خَتْمَهُ، ونرفض كَتْمَهُ، لا سيّما فيما يُدِرُّ أخلافَ الفضائل، ويَهُزُّ أعطافَ الشمائل، وإنِّي شخصْتُ إلى حضرة قرطبة ـ حَرَسَها اللَّه تعالى! ـ منشرحَ الصَّدْر، لحضور ليلة القَدْر، والجامع ـ قدَّس اللَّه تعالى بقعته ومكانه، وثَبَّتَ أساسه وأركانه! ـ قد كُسِي ببردة الازدهاء، وجُلي في معرض البهاء، كأنَّ شرفاته فلولٌ في سنان، أو أَشَرٌ في أسنان، وكأنّما ضُرِبَتْ على سمائه كِلَلٌ، أو خَلعَتْ على أرجائه حُلَلٌ، وكأنَّ الشمسَ[2] خلّفت فيه ضياءها، ونسجتْ على أقطاره أفياءها، فترى نهارًا قد أَحْدَقَ به ليلٌ، كما أَحْدَقَ برَبْوَةٍ سَيلٌ، ليل دامس، ونهار شامس، وللذُّبال[3] تألُّقٌ كنَضْنضة الحَيّات، أو إشارة السّبابات في التحيّات، قد أُتْرِعَتْ من السليط كؤوسُها، ووُصِلت بمحاجن الحديد رؤوسُها، ونِيطَتْ بسلاسلَ كالجذوع القائمة، أو كالثعابين العائمة، عُصبتْ بها تفاحٌ من الصُّفْر، كاللُّفّاح[4] الصُّفْر: بُولغ في صقلها وجلائها، حتى بهرتْ بحسنها ولألائها، كأنها جُليتْ باللَّهَب، وأُشْرِبَتْ ماء الذهب، إنْ سَمَتَّها[5] طولاً رأيْتَ منها سبائكَ عَسْجَدٍ، أو قلائدَ زَبَرْجَد، وإنْ أَتَيْتَها[6] عرضًا رأيْتَ منها أفلاكًا ولكنّها غيرُ دائرة، ونجومًا ولكنّها ليست بسائرة، تتعلّق تعلّق القراط من الذِّفْرَى[7]، وتبسط شُعاعَهَا بَسْطَ الأديم حين يُفْرَى، والشمع قد رُفعتْ على المنار رفع البنود، وعُرِضتْ عليها عرض الجنود، ليجتلي طلاقَه روائها القريب والبعيد، ويستوي في هداية ضيائها الشقيُّ والسعيد، وقد قُوبل منها مُبْيَضٌ بمحمرّ، وعُورض مخضرٌ بمصفرّ، تضحك ببكائها وتبكي بضحكها، وتهلك بحياتها وتحيى بهلكها، والطِّيبُ تفغم أفواحه، وتتنسّم أرواحه، وقُتارُ الألنجوج والنَّدّ[8]،

---

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «الاتحاد» بدل «المحبة».

(٢) في طبعة دار صادر: «قد خلّفت».

(٣) الذُّبالُ: جمع ذُبالة وهي الفتيلة. لسان العرب (ذبل).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «كاللُّقاح». واللُّفّاحُ: نبات يُشَمُّ وهو شبيه بالباذنجان إذا اصفرَّ. مختار الصحاح (لفح).

(٥) في طبعة دار صادر: «سامَتَّها». وسَمَتُّهَا: قَصَدْتَها. لسان العرب (سمت).

(٦) في طبعة دار صادر: «وإنْ جئتها».

(٧) الذِّفْرَى: الأذن. لسان العرب (ذفر).

(٨) القُتار، بضم القاف: ريح البخور، الطِّيب. الأَلَنْجُوجْ: عود البخور. النَّدُّ: بفتح النون وتشديد الدال: عود يُتَبَخَّرُ به أو العنبر. محيط المحيط (قتر) و (لجج) و (ندد).

يسترجع مِنْ رَوح الحياة ما نَدَّ[1]، وكلّما تصاعد وهو محاصَر، أطال من العمر ما كان تقاصر، في صفوف مَجَامر، ككعوب مُقَامر، وظهور القباب مؤلّلة، وبطونها مهلّلة، كأنّها تيجان، رُصِّع فيها ياقوتٌ ومرجان، قد قُوِّس محرابُها أحكم تقويس، ووُشِم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرّة مُقَرْطَقٌ، وبقوس قُزَح مُمَنْطَقٌ، وكأن اللازَوَرْدَ حول وُشُومِهِ، وبين رسومه، نُتَفٌ من قوادم الحمام، أو كسف من ظُلَل الغمام، والناس أخياف[2] في دواعيهم، وأوزاع[3] في أغراضهم ومراميهم، بين رُكَّع وسُجَّد، وإيقاظ وهُجَّد، ومزدحم على الرقاب يتخطّاها، ومقتحم على الظهور يتمطّاها، كأنهم بَرَدٌ خلال قَطْر، أو حروفٌ في عرض سطر، حتى إذا قرعتْ أسماعَهُمْ رَوعَةُ التسليم، تبادروا بالتكليم، وتجاذبوا بالأثواب، وتساقَوا بالأكواب، كأنّهم حُضُورٌ طال عليهم غياب، أو سَفْرٌ أُتيح لهم إياب، وصَفِيُّكَ مع إخوان صِدْق، تنسكبُ العلومُ بينهم انسكاب الوَدْق[4]، في مكان كَوَكْرِ العصفور، أستغفر اللّه أو ككِنَاس اليَعْفُور[5]، كأن أقليدسَ قد قسم بيننا مساحته بالموازين، وارتبطْنا فيه ارتباط البيادق بالفرازين، حتى صار عقدُنا لا يُحَلُّ، وحَدُّنا لا يُفَلُّ، بحيث نسمع سُوَرَ التنزيل كيف تُتْلَى، ونتطّلع صور التفصيل كيف تُجْلَى، والقَومة حوالينا يجهدون في دفع الضرر، ويعمدون إلى قرع العُمُدِ بالدِّرر، فإذا سمع بها الصبيان قد طبّقت الخافقين، وسَرَتْ نحوهم سُرَى القين، توهّموا أنها إلى أعطافهم واصلة، وفي أقحافهم حاصلة، ففرُّوا بين الأساطين، كما تفرُّ من النجوم الشياطين، كأنّما ضربهم أبو جَهْم[6] بعصاه، أو حَصَبَهُمْ[7] عميرُ بن

---

(١) نَدَّ: نَفَر، وهو هنا بمعنى غاب. محيط المحيط (ندد).

(٢) أخياف، بصيغة الجمع: مختلفون. محيط المحيط (خيف).

(٣) الأوزاع: الجماعات، أي مختلفون. محيط المحيط (وزع).

(٤) الوَدْقُ: المطر. لسان العرب (ودق).

(٥) اليَعْفُورُ، بفتح الياء وضمِّها: ظبي بلون التراب. محيط المحيط (عفر).

(٦) يشير هنا إلى ما قاله الرسول، ﷺ، في أبي جَهْم عامر بن حذيفة بن غانم العدوي بأنه لم يكن يرفع عصاه عن أهله، وأبو جهم هذا من بني عدي بن كعب، أسلم يوم فتح مكة، وهو أحد الأربعة الذين دفنوا عثمان. وكانت وفاته نحو ٧٠ هـ. الأعلام (ج ٣ ص ٢٥٠ ومصادر حاشيته).

(٧) حَصَبهُمْ: رماهم بالحصباء. محيط المحيط (حصب). وهنا يشير إلى أن عمير بن ظابىء بن الحارث بن تميم البرجمي قال لأصحابه حين جلس الحجاج بن يوسف على منبر الكوفة ساعة لا يتكلم: أحصبه لكم، فقالوا: أمهل حتى نظر. وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٣٣). وعمير بن ظابىء من البراجم، قتله =

ضـابىء بحصاه، فـأكرم بهـا مَسَاعٍ تشـوق إلى جنّة الخلد، ويهـون في السعي إليهـا إنفـاقَ الـطوارف والتُّلْد، تعظيمًـا لشعـائـرٍ اللَّه، وتنبيهًـا لكـلّ سـاهٍ ولاه، حكمـة تشهـد للَّه تعـالى بالربوبيّة، وطاعة تذلّ لها كلّ نفس أبيَّة، فلم أَرَ، أدام اللَّه سبحانه عِزَّكَ، منظرًا منهـا أَبْهَى، ولا مَخْبَرًا أشْهَى، وإذ لم تتأمّلْه عيانًا، فتخيّله بيانًا، وإن كـان حظ منطقي من الكـلام، حظ السفيح[1] من الأزلام، لكنْ ما بَيْنَنَا مِنْ مودّة أكَّدْنا وسائلها، وذِمَّة[2] تقلَّدْنا حمائلها، يـوجب قبول إتحافي سمينًا وغثًّا، ولبس إلطافي جديدًا وَرثًّا، لا زلْتُ لـزناد النُّبْـل مُورِيًـا، وإلى آماد الفضل مُجْرِيًـا، والتحيّة العَبِقَـة الريًـا، المشرقـةُ المُحَيًّا، عليـك ما طَلَعَ قَمَـرٌ، وأينع ثمـرٌ، ورحمة اللَّه تعالى وبركاته، انتهى.

وذكـر ابن بَشْكُـوَال أنَّ الحكم المستنصـر هَـدَمَ المِيضَـأة القـديمـة التي كـانت بِفِنــاء الجامع، الـذي يستقى[3] لها المـاء من بئر السـانية، وبَنَى أربـعَ مِيضَآت في كـل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي منها ثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء، أجرى في جميعها الماء في قناة اجتلبها من سفح جبل قُرْطُبـة إلى أن صبّت ماءهـا في أحواض رخـام لا ينقطع جريانه الليلَ والنهارَ، وأجرى فضل هذا الماء العذب إلى سقايات اتّخذهنَّ على أبواب هـذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغـربية والشمـالية، أجـراها هنـالك إلى ثـلاث جواب من حيـاض الرخـام استقطعهـا بمقطع المنستيـر[4] بسفح جبـل قـرطبـة بـالمـال الكثيـر، وألقـاه الرخَّامون[5] هنالك، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في المدة الطويلة حتى اسْتوتْ في صورهـا البديعة لأعين الناس، فخفّف ذلك من ثقلها، وأمكن من إهباطها إلى أماكن نصبهـا بأكنـاف المسجد الجامع، وأمدَّ اللَّه تعالى على ذلك بمعونته، فتهيّـأ حمل الـواحدة منهـا فوق عجلة كبيـرة اتّخذت من ضخـام خشب البلوط على فَلَكٍ موثّقـة بالحـديد المثقّف محفـوفة بـوثـاق

= الحجـاج سنة ٧٥ هـ بضـرب رقبته. الشعـر والشعراء (ص ٢٦٩) وطبقـات الشعـراء (ص ٧٢) وجمهـرة أنساب العرب (ص ٢٢٣).

(١) السَّفِيحُ، بفتح السين: قِدْح من قداح المَيسِر لا نصيب له. الأزلام: جمع زَلَم وهو قِدْح لا رِيش عليه. محيط المحيط (سفح) و(زلم).

(٢) في طبعتي دار صادر وليدن: «أذمّة».

(٣) في طبعة دار صادر: «يُسْتَسْقى».

(٤) أغلب الظن أنها كلمة إسبانية وهي Monasterio وتعني الدَّير. قاموس ف. كورنيطي.

(٥) في طبعة بولاق: «الرخاميون».

الحبال قُرِنَ لجرِّها سبعون دابة من أشدِّ الدواب، وسهلت قدّامها الطرق والمسالك، وسهّل اللَّه تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة في مدة اثني عشر يومًا، فنصبت في الأقباء المعقودة لها، قال: وابتنى المستنصر في غربي الجامع دارَ الصدقة، واتّخذها معهدًا لتفريق صدقاته المتوالية، وابتنى للفقراء البيوت قُبَالَةَ باب المسجد الكبير الغربي، انتهى.

واعلمْ أنه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجّةً بالمغرب، حتى إنّهم يقولون في الأحكام: هذا مِمّا جَرَى به عمل قرطبة، وفي هذه المسألة نزاع كثير، ولا بأس أنْ نذكر ما لا بُدَّ منه من ذلك، قال الإمام ابن عرفة[١] رحمه اللَّه تعالى: في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين - وإن خالف معتقد المشترط اجتهادًا وتقليدًا - ثلاثة أقوال: الصحة للباجي، ولعمل أهل قرطبة، ولظاهر شرط سحنون على مذهب مَنْ ولّاه الحكم بمذهب أهل المدينة، قال المازري: مع احتمال كون الرجل مجتهدًا. الثاني: البطلان، للطرطوشي، إذ قال في شرط أهل قرطبة: هذا جهل عظيم. الثالث: تَصِحُّ التولية ويبطل الشرط، تخريجًا على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للمازري عن بعض الناس، انتهى مختصرًا.

قال ابن غازي: إن ابن عرفة نسب للطرطوشي البطلان مطلقًا، وابن شاس إنما نسب له التفصيل، انتهى.

ولَمَّا ذكر مولاي الجَدُّ الإمام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد اللَّه المقري التلمساني[٢] في كتابه «القواعد» شرطَ أهل قرطبة المذكور، قال بعده ما نَصُّه: **وعلى هذا الشرط ترتّب إيجاب عمل القضاة بالأندلس، ثم انتقل إلى المغرب، فبينما نحن ننازع الناس في عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة مَنْ نَزَلَ بها مِنْ علماء الأمة كعلي وابن مسعود ومن كان معهما[٣]: [البسيط]**

ليس التَكَحُّلُ في العينين كالكَحَلِ

(١) هو أبو عبد اللَّه محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره. توفي بتونس سنة ٨٠٣ هـ. الأعلام (ج ٧ ص ٤٣) ومصادر حاشيته).

(٢) جَدُّ المؤلّف هذا هو الفقيه أبو عبد اللَّه محمد بن محمد بن أحمد المَقَّري التلمساني، أحد القضاة بتونس أيام خلافة أبي عنان. كان عبرة من العبر في غزارة الحفظ وكثرة مادة العلم. تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٦٩). وسيترجم له المقري في الجزء السابع.

(٣) هو عجز بيت قاله المتنبي من قصيدة من ٤٧ بيتًا في مدح سيف الدولة، والبيت هو:

لأنَّ حِلْمَك حِلْمٌ لا تكَلَّفُهُ ليس التَّكَحُّلُ في العينين كالكَحَلِ

=

سنح لنا بغض الجمود، ومعدن لتقليد: [الكامل]

اللَّه أخَّرَ مُدَّتي فَعمَّرْتُ حتى رأيتُ مِنَ الزمان عجائبا

يا للّه وللمسلمين، ذهبتْ قرطبة وأهلها، ولم يبرحْ من الناس جهلها، ما ذاك إلّا لأنَّ الشيطان يَسْعَى في مَحْو الحقِّ فينسيه، والباطل لا زال يلقنه ويلقيه، ألَا ترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والخطّ والتشاؤم وما أشبه ذلك، وأسماؤها[1] كالعتمة ويثرب، وكذا التنابز بالألقاب وغيره مِمّا نهي عنه وحُذِّر منه، كيف لم تَزُل من أهلها، وانتقلت إلى غيرهم مع تَيَسُّر أمرها، حتى كأنّهم لا يرفعون بالدين رأسًا، بل يجعلون العادات القديمة أُسًّا، وكذلك محبّة الشعر والتلحين والنسب وما انخرط في هذا السِّلْك ثابتة الموقع من القلوب، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه إلّا قولاً، ولا نحمله إلّا كَلًّا، انتهى.

وقال الحافظ ابن غازي[2] ـ بعد ذكر كلام مولاي الجَدِّ ـ ما نَصُّه: وحدّثني ثقة مِمَّنْ لقيتُ أنه لَمَّا قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيىٰ الشريف التلمساني وتصدَّى لإقراء التفسير بالبلد الجديد وأمر السلطان أبو سعيد الْمَرِيني[3] الحفيد أعيان الفقهاء بحضور مجلسه كان مِمّا ألقاه إليهم مَنْزع[4] المقَّري هذا، فبالغوا في إنكاره، ورأوا أنه لا معدل[5] عما عوّل عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطي من اعتماد عمل أهل قرطبة ومَنْ في معناهم، انتهى.

وقال بعض المؤرخين ـ حين ذكر قرطبة ـ ما ملخَّصُهُ: هي قاعدة بلاد الأندلس، ودار الخلافة الإسلامية، وهي مدينة عظيمة، وأهلها أعيان البلاد وسَرَاة الناس، في حسن المآكل

= العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣٥٤).

(١) في طبعة دار صادر: «وأسماءها».

(٢) هو أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني المكناسي؛ مؤرخ وفقيه. توفي بفاس سنة ٩١٩ هـ. الأعلام (ج ٥ ص ٣٣٦ ومصادر حاشيته).

(٣) هو عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن علي، من بني عبد الحق، من ملوك الدولة المرينية في المغرب. توفي سنة ٨٢٣ هـ. الأعلام (ج ٤ ص ٢٠٢ ومصادر حاشيته).

(٤) في طبعة بولاق: «مشرع».

(٥) في طبعة بولاق: «معول».

والمشارب والملابس والمراكب، وعلوّ الهمم، وبها أعلام العلماء، وساداتُ الفضلاء، وأجلادُ الغُزاة، وأنجادُ الحروب، وهي في تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضًا وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلّة بنفسها، وفيها ما يكفي أهلها من الحمامات والأسواق والصناعات، وطول قرطبة ثلاثة أميال في عرض ميل واحد، وهي في سفح جبل مطلّ عليها، وفي مدينتها الثالثة وهي الوسطى القنطرةُ والجامعُ الذي ليس في معمور الأرض مثله وطوله مائة ذراع في عرض ثمانين، وفيه من السواري الكبار ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة[1] ثريّا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح، وفيه من النقوش والرقوم ما لا يَقْدِرُ أحدٌ على وصفه، وبقبلته صناعات تدهش العقول، وعلى فرجة المحراب سبع قسِيٍّ قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحيّر الرومُ والمسلمون في حسن وضعها، وفي عِضَادتي المحراب أربعة أعمدة؛ اثنان أخضران واثنان لازَوَرْدِيّان، ليس لها قيمة لنفاستها، وبه منبر ليس على معمور الأرض أنفس منه ولا مثله في حسن صنعته، وخشبه ساج وآبنوس وبقَمّ وعُود قاقلّى، ويذكر في تاريخ بني أمية أنه أحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل فيه ثمانية صُنّاع، لكل صانع في كل يوم نصف مثقال محمدي[2]، فكان جملة ما صُرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالاً، وفي الجامع حاصل[3] كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وَقُودِهِ، وبهذا الجامع مصحف يقال: إنه عثماني، وللجامع عشرون بابًا مصفّحات بالنحاس الأندلسي مخرّمة تخريمًا عجيبًا بديعًا يعجز البشر ويبهرهم، وفي كل باب حلقة في نهاية الصنعة والحكمة، وبه الصومعة العجيبة التي ارتفاعها مائة ذراع بالمكي المعروف، بالرشاشي[4]، وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة ما يعجز الواصف عن وصفه ونَعْته، وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر، مكتوب على الواحد اسم محمد، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف، وعلى الثالث صورة غراب نوح، والجميع خلقة ربانية، وأما القنطرة التي بقرطبة فهي بديعة الصنعة، عجيبة المرأى، فاقت

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ثلاثة عشر».

(٢) تنسب الدنانير المحمدية إلى محمد بن الناصر الموحّدي، وتنسب أيضًا إلى محمدية العراق، كما تنسب إلى مدينة المحمدية بالمغرب. نفح الطيب (ج ١ ص ٥٥٩) طبعة دار صادر، الحاشية (رقم ٢).

(٣) الحاصل: المخزن. لسان العرب (حصل).

(٤) نسبة إلى الرشاش الذي كان يتّخذ ذراعه وحدة لقياس الطول والمساحة. طبقات النحويين واللغويين (ص ٢٨٤).

قناطر الدنيا حسنًا، وعدد قِسِيِّها سبعة عشر قوسًا، سعة كل قوس منها خمسون شبرًا وبين كل قوسين خمسون شبرًا، وبالجملة فمحاسن قرطبة أعظم من أن نحيط(١) بها وصفًا، انتهى ملخصًا.

وهو وإنْ تكرّر بعضه مع ما قدّمْتُه فلا يخلو من فائدة زائدة، واللّه الموفّق. .

وما ذكره في طول المسجد وعرضه مخالفٌ لِمَا مَرَّ، ويمكن الجواب بأنّ هذا الذراع أكبر من ذلك، كما أشار إليه هو في أمر الصومعة، وكذا ما ذكره في عدد السواري، إلاّ أنْ يقال: ما تقدَّم باعتبار الصغار والكبار، وهذا العدد الذي ذكره هنا إنّما هو للكبار فقط، كما صرّح به، واللّه تعالى أعلم.

وأمّا الثُّريات فقد خالف في عددها ما تقدّم، مع أنّ المتقدّم هو قول ثقات مؤرّخي الأندلس، ونحن جَلَبْنا النَّقْلَ من مواضعه، وإن اختلفت طرقه ومضموناته.

وقال في المغرب ـ عند تعرّضه لذكر جامع قرطبة ـ ما نَصُّه: اعتمدْتُ فيما نقلته(٢) في هذا الفصل على كتاب ابن بَشْكُوال، فقد اعتنى بهذا الشأن أتمَّ اعتناء، وأغنى عن الاستطلاع إلى كلام غيره: عن الرّازي أنه لَمَّا افتتح المسلمون الأندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي اللّه تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مِمَّا أخذوه صُلْحًا، فشاطر المسلمون أعاجمَ قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور، وكانوا يسمّونها بِسَان بِيِثْنتِ(٣)، وابتنوا في ذلك الشطر مسجدًا جامعًا، وبقي الشطر الثاني بأيدي النصارى؛ وهُدِمَتْ عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة، واقتنع المسلمون بما في أيديهم، إلى أن كثروا، وتزيّدت عمارة قرطبة، ونَزَلَها أمراءُ العرب، فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلّقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكِنُّونَ بها، حتى كان الناس ينالون في الوصول إلى داخل المسجد الأعظم مشقّة لتلاصق تلك السقائف، وقصر أبوابها، وتطامن سقفها، حتى ما

---

(١) في طبعة دار صادر: «يحيط بها وصفٌ. . .».

(٢) في طبعتي دار صادر وبولاق: «أنقله».

(٣) سان بِيِثْنتِ: بالإسبانية San Vicente، أي القِدِّيس بِيِثْنتِ. وفي طبعة عبد الحميد: «بسنت بنجنت». وفي طبعة دار صادر: بشنت «بنجنت»، والتصويب عن José L. Asiàn Pêna: Historia general del arte y de la cultura (p. 82).

يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الأرض، ولم يزل المسجد على هذه الصفة إلى أن دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية المَرواني إلى الأندلس، واستولى على إمارتها، وسكن دار سلطانها قرطبة، وتمدَّنَتْ به، فنظر في أمر الجامع، وذهب إلى توسعته وإتقان بنيانه، فأحضر أعاظمَ النصارى، وسامَهُم بَيعَ ما بقي بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع لِيُدْخِلَهُ فيه، وأوسع لهم البذل وَفَاءً بالعهد الذي صُولحوا عليه، فأَبَوا مِنْ بَيع ما بأيديهم، وسألوا بعد الجِدّ بهم أن يباحوا بناء كنيستهم[1] التي هُدِمَت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلَّوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طُولبوا به، فتمَّ الأمرُ على ذلك، وكان ذلك سنة ثمان وستين ومائة، فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة إلى تفسير[2] الزيادة فيه، وإنّما الحاجة في وصفه بكماله. وفي بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوي[3] من قصيدة: [الطويل]

وأنْفَقَ في دين الإلَه ووَجْهِه ... ثمانينَ ألفًا مِنْ لُجَينٍ وعَسْجَدِ
تَوَزَّعَهَا في مسجدٍ أُسُّهُ التُّقَى ... ومَنْهَجُهُ دِينُ النبيِّ محمدِ
ترى الذهبَ الناريَّ فوقَ سُمُوكِهِ ... يلوحُ كَبرْقِ العارضِ المتوقِّدِ

قال: وكمل سنة سبعين ومائة، ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضا وما جدَّده فيه، وأنه بناه من خُمْس فَيء أَرْبُونة، ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الأوسط لَمَّا تزايد الناسُ، قال: وهلك قَبْلَ أنْ يُتِمَّ الزخرفة، فأتمَّها ولده محمد بن عبد الرحمن، ثم رمَّ[4] المنذر بن محمد ما وَهَى منه، وذكر ما جدّده خليفتهم الناصر ونقضه للصومعة الأولى وبنيانه للصومعة العظيمة، قال: ولَمَّا ولي الحكم المستنصر بن الناصر ـ وقد اتَّسع نطاق قرطبة، وكثر أهلها، وتبيَّن الضيقُ في جامعها ـ لم يقدّم شيئًا على النظر في الزيادة، فبلغ الجَهْد، وزاد الزيادة العظمى، قال: وبها كملتْ محاسنُ هذا الجامع، وصار في حدّ يقصر[5] الوصف عنه، وذكر حضوره لمشاورة العلماء في تحريف القبلة إلى نحو المشرق، حسبما فعله والدُه الناصر في قبلة

---

(١) في طبعة ليدن: «كنائسهم».
(٢) في طبعة ليدن: «في تفسير الزيادات فيه».
(٣) في طبعة ليدن: «البلوني».
(٤) رمَّ: أصلح. مختار الصحاح (رمم).
(٥) في طبعتي ليدن وصادر: «يحسر الوصف».

جامع الزهراء؛ لأنَّ أهل التعديل يقولـون بانحـراف قبلة الجامـع القديمـة إلى نحو الغـرب، فقال له الفقيه أبو إبراهيم: يا أمير المؤمنين، إنه قد صلَّى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمّـة من أجـدادك الأئمّـة وصُلَحـاء المسلمين وعلمـائهم، منـذ افتتحت الأنـدلس إلى هـذا الـوقت، متـأسِّين[1] بأوّل مَنْ نصبهـا من التـابعين كمـوسى بن نُصَيـر وحنش الصنعـاني وأمثالهما[2]، رحمهم اللّه تعالى! وإنّما فَضَلَ مَنْ فضل بالاتّباع، وهلك من هلك بالابتداع، فأخذ الخليفة برأيه، وقال: نِعْمَ ما قلت، وإنّما مذهبنا[3] الاتباع.

قال ابن بَشْكُوال: ونقلت من خط أميـر المؤمنين المستنصر أنَّ النفقـة في هذه الـزيادة وما اتّصل بهـا انتهتْ إلى مائتي ألف دينـار وأحد وستين ألف دينـار وخمسمائـة دينار وسبعـة وثلاثين دينارًا ودِرْهَمَينِ ونصف.

ثم ذكر الصومعة نقلاً عن ابن بَشْكُوال فقال: أمر النـاصـر عبد الـرحمن بهدم الصـومعة الأولى سنة ٣٤٠ وأقام هذه الصومعة البديعة، فحفر في أساسها حتى بلغ الماء مُدَّةً مِنْ ثـلاثة وأربعين يومًا، ولَمَّا كملتْ ركب الناصرُ إليها من مدينة الزهراء وصَعَـدَ في الصَّومعـة من أحد دَرَجَيهـا[4]، ونَزَلَ من الثـاني، ثم خرج النـاصـر وصلَّى ركعتين في المقصـورة، وانصـرف، قال: وكانت الأولى ذات مَطْلع واحد، فصير لهذه مـطلعين، فَصَلَ بينهمـا البناء، فـلا يلتقي الراقون فيها إلاَّ بأعلاها، تزيد مراقي كل مطلع منها على مائةٍ سبعًا.

قال: وخبر هذه الصومعة مشهور في الأرض[5]، وليس في مسـاجد المسلمين صـومعة تعدلها.

قال ابن سعيد: قال ابن بَشْكُوال هذا لأنه لم يَـرَ صَومعـةَ مراكش ولا صـومعة إشبيليـة اللتين بناهما المنصور من بني عبد المؤمن، فهما أعظم وأطـول، لأنه ذكـر أنَّ طول صـومعة قرطبة إلى مكان موقف المؤذّن أربعة وخمسون ذراعًا وإلى أعلى الرمّانة الأخيـرة بأعلى الـزج ثلاثة وسبعون ذراعًا، وعرضها في كل تربيـع[6] ثمانيـة عشر ذراعًـا، قال ابن سعيـد: وطول

(١) في طبعة ليدن: «مؤْتسين».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وأمثالهم».

(٣) في طبعة ليدن: «مذهبي».

(٤) في طبعة ليدن: «درجَيه».

(٥) في طبعتي دار صادر وليدن: «في الأندلس».

(٦) في طبعة دار صادر: «تربيع منها».

صومعة مراكش مائة وعشرة أذرع. وذكر أن صومعة قرطبة بضخام الحجارة الفظيعة[1] مُنَجَّدة غاية التنجيد، وفي أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمّونها رمانات ملصقة في السفود البارز في أعلاها من النّحاس: الثنتان منها ذهب إبريز، والثالثة منها وسطى بينهما من فضة إكسير[2]، وفوقها سَوسَنة من ذهب مسدّسة فوقها رمّانة ذهب صغيرة في طرف الزج البارز بأعلى الجوّ، وكان تمام هذه الصومعة في ثلاثة عشر شهرًا.

وذكر ابن بَشْكُوال في رواية أنَّ موضع الجامع الأعظم بقُرْطُبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها أهلُ قرطبة قُمَامتهم وغيرها، فلمّا قدم سليمان بن داود صلّى اللّه عليهما ودخل قرطبة قال للجنّ: اِرْدِمُوا هذا الموضع وعدّلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يُعْبَدُ اللّهُ فيه، ففعلوا ما أمرهم به، وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور، قال: ومن فضائله أن الدارات الماثلة في تزاويق سمائه مكتوبة كلّها بالذكر والدعاء إلى غيره بأحكم صَنْعة، انتهى.

وذكر مصحف عثمان بن عفان رضي اللّه تعالى عنه الذي كان في جامع قرطبة وصار إلى بني عبد المؤمن فقال: هو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان، رضي اللّه تعالى عنه، مِمَّا خَطَّهُ بيمينه، وله عند أهل الأندلس شأن عظيم، انتهى.

وسنذكر فيه زيادة على هذا.

وأمّا الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أميرُ المؤمنين عبدُ الرحمن النّاصر لدين اللّه، وقد تقدّم ذكره، وهي من المدن الجليلة العظيمة القَدْر، قال ابن الفرضي وغيره[3]: كان يعمل في جامعها حين شُرِعَ فيه من حُذّاق الفَعَلة كلَّ يوم ألفُ نسمة منها ثلثمائة بَنَّاء ومائتا نجّار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع، فاستتمَّ بنيانه وإتقانه في مدة من ثمانية وأربعين يومًا، وجاء في غاية الإتقان من خمسة أبْهاء عجيبة الصَّنعة، وطوله من القبلة إلى الجَوف - حاشا المقصورة - ثلاثون ذراعًا، وعرض البَهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاثة عشر[4] ذراعًا، وعرض كلِّ بَهْو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر

---

(١) في طبعة دار صادر: «المقطّعة».

(٢) الإِكْسِير: ما يُلْقى على الفِضّة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص، وهو من صنائع الكيمياء عند الأقدمين. محيط المحيط (كسر).

(٣) قارن بما في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «ثلاث عشرة».

ذراعًا، وطول صَحْنه المكشوف من القبلة إلى الجوف ثلاثة وأربعون[1] ذراعًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب واحد[2] وأربعون ذراعًا، وجميعه مفروش بالرخام الخمري، وفي وسطه فَوَّارة يجري فيها الماء، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة إلى الجوف ـ سوى المحراب ـ سبعة[3] وتسعون ذراعًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة[4] وخمسون ذراعًا، وطول صَومعته في الهواء أربعون ذراعًا، وعرضها عشرة أذرع في مثلها.

وأمر الناصر لدين اللّه باتّخاذ مِنْبَر بديع لهذا المسجد، فَصُنع في نهاية من الحسن، ووُضع في مكانه منه، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة، وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند إكماله يوم الخميس لسبعٍ بقِيْنَ من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة.

قال[5]: وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي أجراها[6] وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، في المنَاهر[7] المهندسة، وعلى الحنايا المعقودة، يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة، عليها أَسَدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشَاهد أبْهَى منه فيما صَوَّر الملوكُ في غابر الدهر، مطليٌّ بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما وَبيص[8] شديد، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجُّه في تلك البركة مِنْ فِيهِ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثَجَاجَة صَبِّه، فَتُسْقَى من مُجَاجه جنان هذا القصر على سعتها، ويستفيض على ساحاته وجَنَباته، ويمدّ النهر الأعظم بما فضل منه، فكانت هذه القَنَاة وبرْكتها والتمثال الذي يصبّ فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر، لِبُعْدِ مسافتها، واختلاف مسالكها، وفخامة

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «ثلاث وأربعون».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «إحدى».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «سبع».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «تسع».
(٥) قارن بما في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٦٦).
(٦) في طبعة دار صادر: «التي جرى فيها الماء».
(٧) المناهر: جمع مَنْهر وهو موضع في النهر يحتفره الماء أو شِقٌّ في الحِصْن نافذ يجري منه ماء. لسان العرب (نهر).
(٨) في طبعة دار صادر: «وميض» وكلاهما بمعنى، وهو اللمعان والبرق. لسان العرب (ومض) و (وبص).

بنيانها، وسموِّ أبراجها التي يترقَّى الماء منها ويتصوَّبُ من أعاليها، وكانت مدّة العمل فيها من يوم ابْتُدئت من الجبل إلى أن وصلت ـ أعني القناة ـ إلى هذه البركة أربعة عشر شهرًا، وكان انطلاق الماءِ في هذه البركة الانطلاق الذي اتّصل واستمرّ يوم الخميس غرّة جمادى الآخرة من السنة، وكانت للناصر في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفْضَلَ فيها على عامّة أهل مملكته، ووصل المهندسين والقُوَّام بالعمل بصلات حسنة جليلة[1] جزيلة.

وأما مدينة الزهراء فاستمرَّ العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلثمائة إلى آخر دولة الناصر وابنه الحكم، وذلك نحو من أربعين سنة.

ولَمَّا فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أوّل جماعة صُلِّيَتْ فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمانٍ بَقِيْنَ من شعبان، وكان الإمامُ القاضيَ أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبي عيسى[2]، ومِنَ الغَدِ صَلَّى الناصرُ فيه الجمعة، وأوَّل[3] مَنْ خطب به القاضي المذكور. ولَمَّا بنى الناصرُ قصرَ الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على أنه لم يُبْنَ مثله في الإسلام البتّة، وما دخل إليه قَطُّ أحدٌ من سائر البلاد النائية والنِّحَل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر جهبذ[4]، وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة، إلاَّ وكلُّهم قَطَعَ أنه لم يَرَ له شبهًا، بل يسمع[5] به، بل لم يتوهّم كون مثله، حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدّث عنه، والأخبار عن هذا تتّسع جدًا، والأدلّة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلاَّ السطح المُمَرَّدُ المُشْرِف على الروضة المُبَاهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تَضَمَّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمّة وحسن المُسْتَشْرَف وبراعة الملبَس والحلّة ما بين مرمر مَسْنون وذهب مَصُون[6] وعَمَدٍ كأنما أُفْرِغتْ في القوالب، ونقوشٍ كالرياض، وبِرَكٍ عظيمة مُحْكَمَةِ

(١) كلمة «جليلة» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) محمد بن عبد اللّه بن أبي عيسى قاضي الجماعة بقرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر، وقد تولاّه سنة ٣٢٦ هـ. كان حافظًا للرأي، متصرّفًا في علم الإعراب ومعاني الشعر. تاريخ قضاة الأندلس (ص ٥٩).

(٣) في طبعة دار صادر: «وأول خطيب به القاضي...».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «وجهبذ».

(٥) في طبعة دار صادر: «بل لم يسمع به...».

(٦) في طبعتي دار صادر وليدن: «موضون».

الصنعة، وحياضٍ وتماثيلَ عجيبة الأشخاص لا تهتدي الأوهامُ إلى سبيل استقصاء التعبير عنها، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلّة كيما يُرِي الغافلين عنه من عباده مثالاً لِمَا أَعَدَّه لأهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلَّطُ عليها الفناء، ولا تحتاج إلى الرَّمِّ، لا إلَه إلاَّ هو المنفرد بالكرم.

وذكر المؤرّخ أبو مَروان ابن حيان[1] صاحب الشرطة أن مباني[2] الزَّهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية، ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة، ونيِّف على[3] ثلثمائة سارية هو ستَّ عشرةَ، قال: منها ما جُلب من مدينة رومة، ومنها ما أهداه صاحب القسطنطينية، وأنَّ مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تُنَيِّفُ على خمسة عشر ألف باب، وكلُّها ملبّسة بالحديد والنّحاس المموّه، واللَّه سبحانه أعلم فإنّها كانت من أهول ما بناه الإنس، وأجلّه خطرًا، وأعظمه شأنًا، انتهى.

قلت: فَسَّرَ بعضُهُمْ ذلك النَّيِّف في كلامه بثلاث عشرة، واللَّه أعلم.

وقال بعض من أَرَّخ الأندلس[4]: كان عدد الفتيان بالزّهراء ثلاثة عشر ألف فَتًى وسبعمائة وخمسين فَتًى، ودُخَالتهم من اللحم كل[5] يوم ـ حاشا أنواع الطير والحوت ـ ثلاثة عشر ألف رطل، وعدّة النساء بقصر الزّهراء الصّغار والكبار، وخدم الخِدْمَة ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة، انتهى.

وقيل: إنّ عدد الصبيان[6] الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون، وجعل بعضٌ مكان الخمسين سبعة وثمانين.

وقال آخر: ستة آلاف صَقْلبي وسبعة وثمانون، والمرتّبُ من الخبزِ لِحِيْتانِ بحيرة الزّهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم، ويُنْقَعُ لها من الحمّص الأَسْوَد ستة أقفزة كل يوم، انتهى.

---

(١) النص في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٦٨).
(٢) في طبعة دار صادر: «مباني قصر الزهراء. . .».
(٣) في طبعتي دار صادر وليدن: «ونَيِّف هو ثنتا عشرة على ثلاثمائة سارية. . .».
(٤) في أزهار الرياض: «وقال بعض المؤرخين».
(٥) في طبعة دار صادر: «في كل».
(٦) في طبعتي دار صادر وليدن: «الفِتْيان».

ثم قال الأوّل: وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل، تقسم من عشرة أرطال للشّخص إلى ما دون ذلك، سوى الدجاج والحَجَل وصنوف الطير وضروب الحِيْتان، انتهى.

وقال ابن حيان[١]: ألفيت بخط ابن دحُون[٢] الفقيه، قال مسلمة بن عبد اللّٰه العريف المهندس: بدأ عبد الرحمن الناصر لدين اللّٰه بعمارة[٣] الزّهراء أوّل سنة خمس وعشرين وثلثمائة، وكان مبلغ ما يُنْفقُ فيها كلّ يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، سوى الصّخر المُصَرَّف في التبليط، فإنه لم يدخل في هذا العدد، وكان يخدم في الزّهراء كلّ يوم ألف وأربعمائة بغل، وقيل أكثر، منها أربعمائة زوامل[٤] الناصر لدين اللّٰه، ومن دواب الأكرية[٥] الراتبة للخدمة ألف بغل، لكل بغل منها ثلاثة مثاقيل في الشهر، يجب لها في الشهر ثلاثة آلاف مثقال وكان يرد الزّهراء من الجير[٦] والجصّ في كل ثالث من الأيام ألف ومائة حمل، وكان فيها حمامان؛ واحد للقصر، وثانٍ للعامة.

وذكر بعض أهل الخِدْمَة في الزّهراء أنه قدّر النفقة فيها في كل عام بثلثمائة ألف دينار مدّة خمسة وعشرين عامًا التي بقيتْ من دولة الناصر من حين ابتدأها؛ لأنه توفي سنة خمسين، فحصل جميع الإنفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال.

قال[٧]: وجلب إليها الرخام من قَرْطَاجَنة وإفريقية وتونس، وكان الذين يجلبونه عبد اللّٰه بن يونس، عريف البنّائين، وحسن[٨] بن محمد وعلي بن جعفر الإسكندراني وكان النّاصر يَصِلهُمْ على كلٍّ رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير، انتهى.

---

(١) النص في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٦٩).

(٢) في طبعة بولاق: «ابن دجون».

(٣) في طبعة ليدن: «بنيان».

(٤) الزوامل: جمع زاملة وهي التي يُحْمَلُ عليها من الإبل وغيرها. محيط المحيط (زمل).

(٥) في طبعة دار صادر: «الأكرياء».

(٦) في طبعتي دار صادر وليدن: «الجيار». والجَيْرُ: الجِصُّ.

(٧) انظر أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٠).

(٨) في أزهار الرياض: «وحسن محمد ابنا جعفر الإسكندراني». وفي طبعة دار صادر: «وحسن وعلي بن جعفر الإسكندراني».

وقال بعض ثقات المؤرّخين: إنه كان يَصِلُهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير، وعلى كل سارية بثمانية دنانير[١]، قيل[٢]: وكان عدد السواري المجلوبة من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، ومن بلاد الإفرنج تسع عشرة سارية، وأَهْدَى إليه ملكُ الروم مائة وأربعين سارية، وسائرها من مقاطع الأندلس طَرَّكونة وغيرها، فالرخام المجزّع من رَيَّة، والأبيض من غيرها، والورديّ والأخضر من إفريقية من كنيسة إسفاقُس، وأما الحوض المنقوش المذهّب الغريب الشكل الغالي القيمة فجلبه إليه أحمد اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الأسقف القادم من إيلياء، وأمّا الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الإنسان فجلبه أحمد من الشام، وقيل: من القسطنطينية، مع ربيع الأسقف أيضًا، وقالوا: إنه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله، وحُمِلَ من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر[٣]، ونصبه النّاصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذّهب الأحمر مرصّعة بالدُّرِّ النفيس الغالي مِمّا عمل بدار الصّناعة بقرطبة: صورة أسد بجانبه[٤] غَزَال إلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل، وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحِدَأة ونسر[٥]. وكل ذلك من ذهب مرصّع بالجوهر النّفيس، ويخرج الماء من أفواهها، وكان المتولّي لهذا البنيان المذكور ابنُه الحكم، لم يتّكل فيه النّاصر على أمين غيره، وكان يخبز في أيامه[٦] في كل يوم برْسِم حِيتان البحيرات ثمانمائة خبزة، وقيل: أكثر، إلى غير ذلك مما يطول تتبّعه.

وكان[٧] النّاصر كما قَدَّمْنَا قَسَّمَ الجبايَةَ أثلاثًا: ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدخر، وكانت جباية الأندلس يومئذ مِنَ الكُوَر والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف

---

(١) في أزهار الرياض وطبعة دار صادر: «دنانير سجلماسية».

(٢) في طبعة ليدن: «قال».

(٣) في طبعة ليدن: «إلى البحر».

(٤) في طبعتي دار صادر وليدن: «إلى جانبه».

(٥) ذكر اثني عشر تمثالاً وعدّد ثلاثة عشر. وفي أزهار الرياض عدَّ منها أحد عشر ثم قال: لم يحضرني اسم الثاني عشر؛ وذلك أنه لم يذكر الحدأة والنَّسْر.

(٦) في طبعة ليدن: «على أيامه».

(٧) في طبعة دار صادر: «قال: وكان الناصر...».

وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار، وأمّا أخماس الغنيمة[1] فلا يحصيها ديوان.

وقد سبق هذا كله، وإنّما كَرَّرْتُه لقول بعضهم إثر حكايته له، ما صورته: وقيل: إنَّ مبلغ تحصيل النفقة في بناء الزهراء مائة مدي من الدّراهم القاسمية بكيل قرطبة، وقيل: إنَّ مبلغ النّفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديًا وسبعة أقفزة[2] من الدّراهم المذكورة. واتّصل بنيان الزّهراء أيام النّاصر خمسًا وعشرين سنة شطر خلافته، ثم اتّصل بعد وفاته خلافَةَ ابنه الحكم كلّها، وكانت خمسة عشر عامًا وأشهرًا، فسبحان الباقي بعد فناء الخلق، لا إله إلاّ هو، انتهى.

وقال ابن أصبغ[3] الهمداني والفتح في المطمح[4]: كان النّاصر كَلِفًا بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وانبساط مجاهلها[5]، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالّة على قوّة الملك وعزّة السلطان وعلوّ الهمّة، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابتنى مدينة الزّهراء البناء الشائع ذكره، الذّائع خبره، المنتشر صيته في الأرض[6]، واستفرغ جهده[7] في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها. وانهمك في ذلك حتى عَطَّلَ شهودَ الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتّخذ ثلاثَ جُمَعٍ متواليات، فأراد القاضي منذر أن يغضَّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير[8] بالإنابة والرجوع، فابتدأ في أوّل خطبته بقوله تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾[9] - إلى قوله تعالى: ﴿ من الواعظين ﴾[10] ثم

---

(١) في طبعة دار صادر: «وأمّا أخماس الغنائم العظيمة...».

(٢) في طبعة ليدن: «ستة أقفزة».

(٣) هكذا ورد اسمه في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٧). وفي طبعة بولاق: «ابن البديع».

(٤) مطمح الأنفس (ص ٤٠). وانظر أيضًا تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦٩) وأزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٧٩).

(٥) في طبعة دار صادر: «وانبساط أمرهما». وفي طبعة ليدن: «وانبساط مياهها». وفي مطمح الأنفس: «وتكثير مياهها».

(٦) في طبعتي دار صادر وليدن: «المنتشر في الأرض أثره».

(٧) في طبعتي دار صادر وليدن وفي تاريخ قضاة الأندلس: «وَسْعَهُ».

(٨) في طبعة دار صادر: «والتذكر». وفي تاريخ قضاة الأندلس: «والتذكرة».

(٩) سورة الشعراء ٢٦، الآية ١٢٨.

(١٠) سورة الشعراء ٢٦، الآية ١٣٦.

وصله بقوله: ﴿ فمتاعُ الدّنيا قليلٌ، والآخرةُ خَيرٌ لمن اتَّقى ﴾، وهي دارُ القرار، ومكان الجزاء، ومضى في ذَمِّ تشييد البنيان، والاستغراق في زخرفته، والإسراف في الإنفاق عليه، بكل كلام[1] جَزْل، وقول فَصْل، قال الحاكي: فجرى فيه طلقًا، وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ إلى آخر الآية[2]، وأتى بما يُشَاكِل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير من فجأته، والدّعاء إلى الزهد في هذه الدار الفانية، والحضّ على اعتزالها، والرفض لها، والنّدب إلى الإعراض عنها، والإقصار عن طلب اللّذّات، ونهي النفس عن اتّباع هَواها، فأسهب في ذلك كله، وأضاف إليه مِنْ آي القرآن ما يطابقه، وجلب من الحديث والأثر ما يشاكله، حتى أَذْكَرَ مَنْ حَضَرَهُ من الناس وخَشَعوا ورقّوا واعترفوا وبَكَوا وضَجُّوا ودعوا وأعلنوا التضرّع إلى اللّه تعالى في التوبة والابتهال في المغفرة، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظّ، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ باللّه من سخطه، إلاَّ أنه وَجَدَ على منذر لغلظ ما قَرَّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، وقال: واللّه لقد تعمدني مُنْذر بخطبته، وما عَنَى بها غيري، فأسرف عليَّ، وأفرط في تقريعي وتفزيعي[3]، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني، واستشاط غيظًا عليه فأقسم أنْ لا يصلِّي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرّف صاحب الصلاة بقرطبة، ويُجَانبُ الصلاة بالزّهراء، وقال له الحكم: فما الذي يمنعك من عَزْل منذر عن الصّلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟! فزجره وانتهره، وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أُمَّ لك ـ يُعْزَلُ لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من اللّه أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في وَرَعه وصدقه، ولكنه أحرجني، فأقسمْتُ، ولوددت أنّي أجد سبيلاً إلى كَفّارة يميني بملكي، بل يُصَلي بالناس حياتَه وحياتَنا إن شاء اللّه تعالى، فما أظنُّنا نعتاض منه أبدًا[4]. وقيلَ: إن الحكم اعتذر عَمّا قال منذر، وقال: يا أمير المؤمنين، إنه رجل صالح، وما أراد إلاَّ خيرًا، ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك، فأمر حينئذ النّاصر بالقصور فَفُرِشَتْ، وفُرِشَ

---

(١) في طبعة دار صادر: «بكلام».

(٢) سورة التوبة ٩، الآية ١٠٩.

(٣) كلمة: «وتفزيعي» ساقطة من مطبعة دار صادر.

(٤) هنا ينقطع النقل عن مطمح الأنفس.

ذلك المجلسُ بأصناف فرش الديباج، وأمر بالأطعمة، وقد أحضر العلماء[1] وغَصّ بهم المجلس، فدخل منذر في آخرهم، فأومأ إليه النّاصر أن يقعد بقربه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّما يَقْعُد الرجل حيث انتهى به المجلس، ولا يتخطّى الرقاب، فجلس في آخر الناس وعليه ثياب رَثَّة، ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلامًا من كلام المنذر يأتي قريبًا.

وقحط الناس[2] آخر مدّة النّاصر، فأمر القاضي منذر المذكور بالبروز إلى الاستسقاء بالنّاس، فتأهّب لذلك، وصام بين يديه أيّامًا ثلاثة[3] تَنَفُّلًا وإنابةً ورهبةً. واجتمع له النّاسُ في مصلّى الرَّبضِ بقرطبة بارِزينَ إلى اللّه تعالى في جمع عظيم. وصعد الخليفةُ النّاصرُ في أعلى مَصَانِعِهِ المرتفعة من القصر، ليشارِفَ الناس، ويشاركهم في الخروج إلى اللّه والضَّرَاعة له، فأبطأ القاضي حتى اجتمع الناسُ، وغَصَّتْ بهم ساحةُ المُصَلَّى. ثم خرج نحوهم ماشيًا متضرّعًا مُخْبِتًا متخشّعًا، وقام ليخطب، فلمّا رأى بِدَارَ الناس إلى ارتقائه[4]، واستكانتهم من خيفة اللّه، وإخْباتهم له، وابتهالهم إليه، رَقَّتْ نفسه، وغَلَبَتْه عيناه، فاستعبر[5] وبكى حينًا، ثم افتتح خطبته، بأن قال: يا أيّها الناس، سلام عليكم، ثم سكت ووقف شبه الحَصِر، ولم يَكُ من عادته، فنظر الناسُ بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما أراد بقوله، ثم اندفع تاليًا قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمةَ﴾، إلى قوله: ﴿رَحيم﴾[6] ثم قال: استغفروا رَبَّكُمْ إنه كان غفّارًا، استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه، وتزلّفوا بالأعمال الصالحة لديه. قال الحاكي: فضجَّ الناسُ بالبكاء، وجأروا بالدّعاء، ومضى على تمام خطبته، ففَزَّعَ النفوسَ بوعظه، وانبعث الإخلاص بتذكيره، فلم ينقضِ النهارُ حتى أرسل اللّه السماء بماء مُنْهَمِرٍ، رَوَّى الثرى، وطَرَدَ الْمَحلَ، وَسكَّن الأزْلَ، واللّه لطيف بعباده. وكان لمنذر في خطب الاستقساء استفتاح عجيب، ومنه أنْ قال يومًا ـ وقد سَرَّحَ طرفه في ملإ الناس عندما شخصوا إليه بأبصارهم، فهتف بهم كالمنادي ـ: يا أيّها النّاس،

---

(١) في طبعه دار صادر: «العلماء وغيرهم من الأمراء وغصّ. . . ».

(٢) النقل هنا عن مطمح الأنفس. وانظر أيضًا أزهار الرياض (ج ٢ ص ٢٧٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٠ ـ ٧١). والنص بإيجاز في الروض المعطار (ص ٩٥ مادة: فحص البلوط).

(٣) كلمة «ثلاثة» غير واردة في تاريخ قضاة الأندلس.

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «ارتقابه».

(٥) في المصدر نفسه: «فاستغفر».

(٦) سورة الأنعام ٦، الآية ٥٤.

وكرّرها عليهم مُشِيرًا بيده في نـواحيهم ﴿ أنتُم الفقراءُ إلى اللّه ﴾[1] إلى ﴿ بعـزيز ﴾ فـاشتدَّ وَجْدُ[2] النّاس، وانطلقت أعينُهُم بالبكاء، ومضى في خطبته.

وقيل: إنّ الخليفة النّـاصر طلبـه مرَّة لـلاستسقاء، واشْتَـدَّ عزمـه عليه، فتسـابق النّاس للمصلَّى، فقال للرّسول ـ وكان من خواصّ النّاس ـ: ليت شعري! مـا الذي يصنعـه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قَطُّ أخشعَ منه في يومنا هـذا، إنه منتبـذ حائـر منفرد بنفسـه، لابس أخسَّ الثياب، مفترش التراب، وقد رَمَّدَ به على رأسـه وعلى لحيته، وبكى واعتـرف بذنـوبه وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تعـذّب بي الرعيّـة وأنت أحكم الحاكمين؟ لن يفـوتك شيء مني، قـال الحاكي: فتهلّل وجـه القاضي منـذر عندمـا سمع قـوله، وقـال: يا غـلام، احْمِـلِ المَطَرَ معـك فقد أذن اللّه تعـالى بالسُّقْيَـا، إذا خشـع جَبّـار الأرض فقـد رحم جبـار السماء، وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلاّ عن السُّقْيا.

وكـان منذر شـديد[3] الصـلابة في أحكـامه، والمهـابة في أقضيتـه، وقوّة الحكـومة[4] والقيام بالحق في جميع ما يجري على يده، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه.

وقال أبو الحسن النُّبَاهي[5]، وأصله في المطمح وغيره[6]: ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة النّاصر في إنكاره عليه الإسرافَ في البناء، أن النّاصر كان اتّخذ لسطح القبيبـة (المصغّرة الاسم للخصوصيّة) التي كانت مائلة[7] على الصَّرْح الممرّد المشهور شـأنه بقصـر الزّهراء قراميد[7] ذهب وفضّة أنفق عليها مالاً جسيمًا، وقَرْمَدَ سقفها به، وجعل سقفها صفراء

(١) سورة فاطر ٣٥، الآية ١٥.

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٧١): «وَجَلُ».

(٣) في مطمح الأنفس: «من ذوي الصلابة».

(٤) في طبعة ليدن: «الخلوة».

(٥) الأصول: «ابن الحسن النباهي». وأبـو الحسن النباهي هـو صاحب كتـاب «المرقبـة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا» والمسمّى بكتاب «تاريخ قضاة الأندلس»، وقد توفي بعد سنة ٧٩٢ هـ. انظر تـرجمته في مقدمة كتابه المذكور.

(٦) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٧١ ـ ٧٢) والروض المعطار (ص ٩٥ مادة: فحص البلوط).

(٧) في تاريخ قضاة الأندلس: «مماثلة».

(٨) في المصدر نفسه: «قراميد مُغَشّاة ذهبًا وفضّة...».

فاقعة، إلى بيضاءَ ناصعة، تستلب[1] الأبصار بأشعّة نورها. وجلس فيها إثر تمامها يومًا لأهل مملكته، فقال لقرابته ومَنْ حضر من الوزراء وأهل الخدمة، مفتخرًا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتّصل به من البدائع الفتّانة: «هل رأيتم، أو سمعتم ملكًا كان قَبْلي فَعَلَ مِثْل[2] هذا أو قَدَرَ عليه؟». فقالوا: «لا واللّه يا أمير المؤمنين، وإنّك لأوحد[3] في شأنك كلّه، وما سَبَقَك إلى مبتدعاتك هذه ملكٌ رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره». فأبهجه قولهم وسرَّه، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد وهو[4] ناكسَ الرأس، فلمّا أخذ مجلسه قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السّقف المذهّب واقتداره على إبداعه، فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته وقال له: واللّه يا أمير المؤمنين، ما ظننْتُ أن الشيطان لعنه اللّه يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكّنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك اللّه من فضله ونعمته، وفَضَّلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزلتهم؟ قال: نعم، أليس اللّه تعالى يقول: ﴿ ولولا أن يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدةً ﴾ الآية[5] فوجم الخليفة، وأطرق مَلِيًّا ودموعه تتساقط خشوعًا للّه تعالى، قال الحاكي: ثم أقبل على منذر وقال له: جازاك اللّه يا قاضي عنّا وعن نفسك خيرًا وعن الدّين والمسلمين أجلَّ جزائه، وكَثَّرَ في النّاس أمثالك! فالذي قلت: هو الحق، وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر اللّه تعالى، وأمر بنَقْض سقف القبيبة، وأعاد قرمدها ترابًا على صفة غيرها، انتهى ما حكاه أبو الحسن[6] النُّباهي.

ولنذكر هذه الحكاية وغيرها، وإنْ خالف السياق ما سبق، وهذا منقول من كلام الحِجَاري في «المُسْهب، في أخبار المغرب» فإنه أتمّ فائدة، إذ قال رحمه اللّه: دخل منذر بن سعيد يومًا على النّاصر باني الزّهراء، وهو مُكِبٌّ على الاشتغال بالبنيان، فوعظه، فأنشد عبد الرحمن النّاصر[7]: [الكامل]

هِمَمُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكْرَهَا ... مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ البُنْيانِ

(١) في تاريخ قضاة الأندلس: «تُشْتَتُ». وفي الروض المعطار: «يستلبُ الأبصارَ شعاعُها».

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «مثل فعلي هذا...».

(٣) في المصدر نفسه: «لواحِدٌ».

(٤) في المصدر نفسه: «سعيد، واجمًا ناكِسَ..». وهكذا في الروض المعطار.

(٥) سورة الزخرف ٤٣، الآية ٣٣.

(٦) أصول النفح: «ابن الحسن».

(٧) الأبيات الثلاثة في المغرب (ج ١ ص ١٧٩ ـ ١٨٠). وقد تقدّم البيتان الأول والثالث (ص ٦٢ من هذا=

أوَ مَـا تَـرَى الـهَـرَمَيْنِ قـد بَقِيَـا وكَمْ　　مـلكٌ مَـحـاهُ حـادث[1] الأزمـان
إنَّ الـبـنـاءَ إذا تـعـاظَـم شَـأنُـهُ　　أَضْـحَى يَـدُلُّ عـلى عـظيم الـشـانِ

قـال: فما أدري أهـذا شعره أم تمثَّل به؟ فـإن كـان شعـره فقـد بلغ بـه إلى[2] غـايـة الإحسـان، وإنْ كان تمثَّل به فقـد استحقّه بـالتمثّل بـه في هذا المكـان، وكـان منـذر يكثـر تعنيفـه[3] على البنيان، ودخـل عليه مَـرَّةً وهو في قبّـة قد جعـل قرمـدهـا من ذهب وفِضّـة، واحتفل فيها احتفالاً ظنَّ أنَّ أحدًا من الملوك لم يصلْ إليه، فقـام خطيبًـا والمجلس قد غَصَّ بـأرباب الـدّولة، فتـلا قوله تعالى: ﴿ ولـولا أنْ يكونَ النّـاسُ أُمَّةً واحـدةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُـرُ بالرحمنِ لبيوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ ومَعارجَ عليها يظهرونَ ﴾ الآية[4]. وأتبعهـا بما يليق بـذلك، فوجم الملك، وأظهر الكآبة، ولم يسعه إلاَّ الاحتمال لمنـذر بن سعيد لعـظم قدره في علمـه ودينه.

وحضـر معه يـومًا في الـزّهراء، فقـام الرئيس أبـو عثمان بن إدريس[5] فـأنشد النّـاصر قصيدة منها[6]: [الطويل]

سيشهـدُ مـا أبقيتَ[7] أنـك لم تَكُنْ　　مُضِيعًـا وقـد مَكَّنْتَ للدِّين والـدنيـا
فبـالجـامـعِ المعمـورِ للعِلْمِ والتُّقَى　　وبالزّهرة الزّهراء للمُلْكِ والـعَـلْيـا

فاهتزَّ الناصر، وابتهج، وأطرق منذر بن سعيد ساعة، ثم قام منشدًا: [السريع]

يـا بـاني الـزّهـراء مُسْتَغْـرِقًـا　　أوقـاتـه فـيـهـا أمـا تـمـهـلُ
لـلَّهِ مـا أَحْـسَـنَـهـا رَونَـقًـا　　لـو لـم تكـن زهـرتـهـا تـذبـلُ

= الجزء) وفيه: «قدره» بدل «شأنه». وسيأتيان في الجزء الثالث دون تغيير عمّا هنا.

(١) أصول النفح «حوادث»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المغرب.

(٢) في طبعة دار صادر: «فيه».

(٣) في طبعة دار صادر: «تعنيته».

(٤) سورة الزخرف ٤٣، الآية ٣٣.

(٥) هو عبيد اللّه بن إدريس بن عبيـد اللّه بن أسلم، من أهل قـرطبة؛ كـان معتنيًا بـالآثار، عـالمًا بهـا. وزر لعبـد الـرحمن النـاصـر، وتـوفي سنـة ٣٤٠ هـ. تـاريـخ علمـاء الأنـدلس (ص ٤٣٠) والمغـرب (ج ١ ص ١٨٠).

(٦) البيتان في المغرب (ج ١ ص ١٨٠).

(٧) في المغرب: «شيّدْتَ».

فقال النّاصر: إذا هَبَّ عليها نسيم التّذكار والحنين، وسقتْها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل إن شاء اللّٰه تعالى، فقال منذر: اللهمَّ اَشْهَدْ أني قد بثثتُ ما عندي ولم آلُ نُصْحًا، انتهى.

ولقد صدق القاضي منذر رحمه اللّٰه تعالى فيما قال، فإنها ذبلت بعد ذلك في الفتنة، وقُلِبَ ما كان فيها مِنْ مِنْحة مِحْنة، وذلك عندما ولي الحجابةَ عبدُ الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الملقّب بشنجول[1]، وتصرّف في الدولة مثل ما تصرّف أخوه المظفر وأبوهما المنصور، فأساء التدبير، ولم يميّز بين الفتيل والنقير[2]، فدسَّ إلى المؤيد هشام بن الحكم مَنْ خَوَّفه منه حتى ولّاه عهده كما بَيَّنّا نصَّ العهد فيما سبق، فأطبق الخاصّة والعامّة على بغضه، وإضمار السوء له، وذلك سنة ثمان وتسعين وثلثمائة[3]، فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبّار بن النّاصر سنة تسع وتسعين وتلقّب بالمهدي[4] وخلع المؤيّد وحبسه، وأسلمت الجيوش شنجول فأُخِذَ وأُسِرَ وقُتِلَ.

قال ابن الرقيق: ومن أعجب ما رُوِيَ أنه من نصف نهار يوم الثّلاثاء لأربع بقين من جُمادى الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء فُتحت قرطبة، وهُدمت الزّهراء، وخُلع خليفة وهو المؤيّد، ووُلّي خليفة وهو المهدي، وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقُتل وزيرهم محمد بن عَسْقَلاجة[5]، وأقيمت جيوش من العامّة، ونُكِبَ خلق من الوزراء ووُلّي الوزارة

---

(١) عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ولي الحجابة بعد وفاة أخيه المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٩ هـ، لقِّب بشنجول Sanchuelo تصغير شنجة Sancho، تذكّرًا لاسم جدِّه لأمِّه شنجة الملك النصراني، إذ كانت أمه عبدة بنت شنجة تدعوه في صغره بشنجول، لأنه كان أشبه الناس به. قُتِل ذبحًا في السنة التي وُلّي فيها الحجابة. فكانت مدة حجابته أربعة أشهر. البيان المغرب (ج ٣ ص ٣٦ - ٧٣)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٨٩ - ٩٨) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢١).

(٢) في طبعة دار صادر: «بين القبيل والدَّبير».

(٣) الصواب: سنة ٣٩٩ هـ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

(٤) المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الأموي قام على هشام المؤيّد سنة ٣٩٩، فخلعه وقتل شنجول وملك قرطبة. قُتِلَ بقرطبة سنة ٤٠٠ هـ. البيان المغرب (ج ٣ ص ٥٠ - ١٠٠) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٠٩ - ١١٦) والحلة السيراء (ج ١ ص ٢٧٠) والذخيرة (ق ١ ص ٤٤ - ٤٥) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٣).

(٥) في طبعة بولاق: «علاجة». وفي البيان المغرب (ج ٣ ص ١٠٠، ١٠٥) أنَّ ابن عسقلاجة قُتل في عام ٤٠٠ هـ، وأُلْقيت جثته في الرصيف بالموضع الذي ألقيت فيه جثة المهدي. وهو محمد بن عمرو بن=

آخرون، وكان ذلك كلُّه على يد عشرة رجال فَحّامين وجزّارين وزبّالين، وهم جُنْد المهدي هذا، انتهى.

وقد تقدّم[1] بعض الكلام على المهدي هذا، وهو الذي قيل فيه لَمّا قام على الدّولة: [مخلع البسيط]

قد قامَ مَهْدِيُّنَا ولكنْ بِمِلَّةِ الفِسْقِ والمُجُونِ
وشارَكَ النّاسَ في حريمٍ لولاه ما زالَ بالمَصُونِ
مَنْ كان مِنْ قَبْلِ ذا أَجَمًّا فالْيَومَ قد صار ذا قُرُونِ

ومن شعر المهدي هذا وقد حَيَّاه في مجلس شرابه غلامٌ بقضيب آسٍ[2]: [الكامل]

أهْدَيْتَ شِبْهَ قَوَامِكَ المَيَّاسِ غُصْنًا رَطيبًا ناعمًا من آسِ
وكأنما يَحْكيك في حَرَكاته وكأنما تحكيه في الأنفاسِ

وقد ذكرنا فيما سبق في الفصل الثّالث خبر المهدي هذا وقتله.

ولقد كان قيامه مشؤومًا على الدّين والدّنيا، فإنّه فاتحُ أبوابِ الفتنة بالأندلس وماحي معالمها، حتى تفرّقت الدولة، وانتثر السِّلْك، وكثر[3] الرؤساء، وتطاول العدوّ إليها، وأخذها شيئًا فشيئًا حتّى محا اسم الإسلام منها، أعادها اللّه تعالى!.

وقد ألمَّ الوالي ابن خلدون في تاريخه بذكر الزّهراء في جملة مباني النّاصر، فقال ما نصّه[4]: ولَمّا استفحل ملكُ النّاصر صَرَفَ نظره إلى تشييد القصور[5] والمباني، وكان جَدُّه الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجدُّه الحكم قد احتفلوا[6] في ذلك وبَنُوا قصورهم

= أبي عامر، وعسقلاجة أو عَسْكلاجة لقبُ أبيه عمرو، وهو ابن عم المنصور محمد بن أبي عامر. وقد ترجم ابن الآبار لأخيه أبي حفص عبد اللّه بن عسكلاجة عمرو بن أبي عامر، وقال إنه قُتل على يد ابن عمه المنصور العامري سنة ٣٧٥ هـ. الحلة السيراء (ج ١ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

(١) تقدم في الجزء الأول من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا في الأبيات.

(٢) سيأتي هذان البيتان في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٢٦) دون تغيير عمّا هنا.

(٣) في طبعة بولاق: «وكسر».

(٤) تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣١١ ـ ٣١٢).

(٥) في تاريخ ابن خلدون: «المباني والقصور».

(٦) في المصدر نفسه: «اختلفوا».

على أكمل الإتقان والضّخامة، وكان فيها[1] المجلس الزّاهر والبهو[2] والكامل والمنيف، فبنى هو إلى جانب الزّاهر قصره العظيم، وسمّاه «دار الروضة»، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنّائين من كل قطر، فوفدوا عليه حتّى من بغداد والقسطنطينية. ثم أخذ في بناء المنتزهات[3]، فاتّخذ مُنْية[4] النّاعورة خارج القصور، وساقَ لها الماءَ من أعلى الجبل على أبعد مسافة. ثم اختطّ مدينة الزّهراء، واتّخذها لنُزُله[5]، وكرسيًّا لملكه، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عَفَّى[6] على مبانيهم الأولى، واتّخذ فيها محلّات للوحش فسيحة الفِناء، متباعدة السياج، ومسارح للطّيور مظلّلة بالشباك، واتّخذ فيها دُورًا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن. وأمر بعمل الظلّة على صحن الجامع بقرطبة وقايةً للناس مِنْ حَرِّ الشمس، انتهى.

وأما الزّاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر.

قال ابن خلدون أثناء كلامه على المنصور ما صورته[7] : وابتنى لنفسه مدينة لِنُزُلِهِ[8] سَمّاها الزّاهرة. ونقل إليها جزءًا[9] من الأموال والأسلحة، انتهى.

وقال غيره،وأظنّه صاحب المطمح[10]: وفي سنة ثمان وستين وثلثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء[11] الزّاهرة، وذلك عندما تكامل[12] واستفحل أمره، واتّقد جَمْرُه، وظهر

---

(١) في المصدر نفسه: «منها».

(٢) في المصدر نفسه: «والبهو الكامل، والقصر المنيف».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «المستنزهات».

(٤) في تاريخ ابن خلدون: «مينا».

(٥) في المصدر نفسه: «منزله».

(٦) في المصدر نفسه: «ما علا».

(٧) تاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٢٠).

(٨) في المصدر نفسه: «فنَزَلَها».

(٩) في المصدر نفسه: «خزائن الأموال...».

(١٠) النص لم يرد في مطمح الأنفس، وهو في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧).

(١١) في البيان المغرب: «ببناء قصره المعروف بالزاهرة».

(١٢) في طبعة دار صادر والبيان المغرب: «عندما استفحل أمره».

استبداده، وكثُر حُسَّاده[1] وأضداده وأنداده. وخاف على نفسه في الدّخول إلى قصر السلطان، وخشي أن يقع في أشطان، فتوثّق لنفسه، وكشف له ما سُتِرَ عنه في أَمْسه، من الاعتزاز عليه، ورفع الاستناد إليه، وسَمَا إلى ما سَمَتْ إليه الملوكُ من اختراع قَصْرٍ ينزل فيه، ويَحُلُّه بأهله وذَوِيْه، ويضمُّ إليه رياسته، ويتمّ به تدبيره وسياسته، ويجمع فيه فِتْيانه وغِلْمانه، فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزّاهرة، الموصوفة بالقصور الباهرة، وأقامها بِطَرَفِ البلدِ على نهر قرطبة الأعظم، ونَسَّق فيها كلَّ اقتدار مُعْجز ونَظَم. وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرّخة، وحشد[2] الصُّنّاع والفَعَلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسَرْبَلَها بهاءً يَرُدُّ الأعينَ[3] كَليلَةً، وتوسَّع في اختطاطها، وتولّع بانتشارها في البسيطة وانبساطها، وبالغ في رفع أسوارها، وثابر على تَسْوية أنجادها وأغوارها، فاتَّسعت هذه المدينة في المدّة القريبة، وصار بناؤها من الأنباء الغريبة، وبُني معظَمها في عامَيْن.

وفي سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور إليها ونزلها بخاصّته وعامّته، فتبوّأها وشَحَنَها بجميع أسلحته وأمواله وأَمْتِعته، واتّخذ فيها الدواوين والأعمال وعمل في داخلها[4] الأَهْرَاء، وأطلق بساحتها الأرحاء. ثم أقطع ما حَولَهَا لوزرائه وكُتّابه، وقُوّاده وحُجّابه، فابْتَنَوا بها[5] كبار الدُّور، وجليلات القصور، واتّخذوا خلالَهَا المُسْتَغلّات المفيدة، والمنازهَ المَشِيدة. وقامت بها الأسواق، وكَثُرَت فيها الأرفاق، وتنافس الناس بالنّزول[6] بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنوّ من صاحب الدولة، وتناهى الغلوّ في البناء حَوله، حتى اتَّصلت أرباضُهَا بأرباض قرطبة وكثرت بحَوزَتها العمارة، واستقرّت في بُحْبُوحَتِها الإمارة. وأفرد الخليفة من كلّ شيء إلاَّ من الاسم الخلافي، وصُيِّر ذلك هو الرسم العافي[7]. ورتّب فيها جلوس وزرائه، ورؤوس

---

(١) في طبعة دار صادر: «وكثر حُسّاده وأنداده، وخاف...»، وفي البيان المغرب: «وكثر حسّاده، وخاف...».

(٢) في البيان المغرب: «وحَشَدَ إليها الصُّنّاع..».

(٣) في المصدر نفسه: «العيون».

(٤) حرف «في» لم يرد في البيان المغرب.

(٥) في البيان المغرب (ص ٢٧٦): «فاقتنوا بأكنافها كبار...».

(٦) في المصدر نفسه: «في النزول».

(٧) العافي: الدارس. لسان العرب (عفا).

أمرائه، ونـدب إليها كـلَّ ذي خطةٍ بخـطته(1)، ونصب ببـابها(2) كـرسيَّ شُرْطتـه، وأجلس عليها واليًـا على رَسْم كرسيِّ الخليفـة، وفي صفة تلك المـرتبة المنيفـة. وكتب إلى الأقطار بـالأنـدلس والعُدْوَة بأن تُحْمَل إلى مدينته تلك أموالُ الجِبَايات، ويقصدها أصحـابُ الولايـات، ويتتابُعهـا طُـلاَّبُ الحوائـج، وحَذَّر أنْ يَعُـوجَ عنها إلى دار الخليفـة عائـج، فاقْتُضيت إليهـا اللُّبـابـات والأوطار، وانحشد النّاسُ إليها من جميع الأقطار. وتمَّ لمحمد بن أبي عامر ما أراد، وانتـظم بلَبَّةِ أمانيه المراد، وعطّل قَصْرَ الخليفة من جميعه، وصَيَّره بِمَعْزِل مِنْ سامعه ومُـطِيعه، وسـدَّ باب قصره عليـه، وجَدَّ في خبـر ألاَّ يصلَ إليـه، وجَعَل فيـه ثِقَةً مِنْ صنـائعه يَضْبُطُ القَصْـرَ، ويبسط فيه النَّهْيَ والأمرَ، ويُشْرِفُ منه على كلِّ داخل، ويمنع ما يحذَّره من الدّواخل، ورتَّب عليه الحُرَّاس والبوّابين، والسُّمّار والمنتابين، يلازمون حراسة مَنْ فيه ليـلاً ونهارًا، ويـراقبون حركاتهم سِرًّا وجهاراً، وقـد حَجَر على الخليفـة كلَّ تـدبير، ومنعـه من تملُّك قَبيل أو دَبيـر. وأقـام الخليفةُ هشـام مهجورَ الفِنَـاء، معجوز(3) الغَنَـاء، خفيَّ الذكـر، عليلَ الفِكْـر، مسدودَ الباب، محجوبَ الشخص عن الأحبـاب، لا يراه خـاصٌّ ولا عامٌّ، ولا يُخَـاف منه بـأسٌ ولا يُرْجَى منه إنعام، ولا يُعْهَدُ منه(4) إلاَّ الاسم السّلطانيُّ في السِّكَّة والدَّعْوة، وقـد نسخه ولَبَّس أُبَّهَتَهُ، وطَمَسَ بَهْجته. وأغنى النَّاسَ عنه، وأزال أطماعهم منه، وصَيَّرهم لا يعرفونه، وأمرهم أنّهم لا يذكرونه. واشتدَّ مُلْكُ محمد بن أبي عامر منذ نَزَلَ قصرَ الـزّاهرة، وتـوسَّعَ مـع الأيام في تشييـد أبنيتها(5) حتّى كملت أحسن كمـال، وجاءتـه في نهايـة الجمال، تفـاوت(6) بناء، وسَعَـةَ فِناء، واعتـدالَ هواءٍ رَقَّ أديمُـهُ، وصقالـةَ جوّ اعتـلَّ نسيمُهُ، ونَضْـرَةَ بستـانٍ، وبهجـةً للنفوس فيها افتنان، وفيها يقول صاعد اللغوي: [البسيط]

يـا أيّـهـا المَـلِكُ المَـنْصُـورُ مِـنْ يَـمَـنٍ ... والمُبْتَنـي نسَبًـا غَيْـرَ الـذي انْـتَسَبـا

بـغَــزْوَةٍ فـي قُـلوبِ الـشِّـرْكِ رائـعـةٍ(7) ... بين المنـايـا تنـاغي السُّمْـر والقُضُـبـا

---

(1) في طبعة عبد الحميد: «ذي خطّته».

(2) في البيان المغرب: «على بابها».

(3) في المصدر نفسه: «مَحْجُورَ».

(4) هكذا في البيان المغرب. وفي طبعتي دار صادر وبولاق: «فيه».

(5) هكذا في البيان المغرب (ص ٢٧٧). وفي طبعة دار صادر: «بُنْيتها».

(6) في البيان المغرب: «نقاوة بناء».

(7) في البيان المغرب: «راتعةٍ».

أَمَا تَرَى العَينَ تجري فوق مَرْمَرِها ... زَهْوًا فتُجري على أحفافها[1] الطَّرَبا
أَجْرَيتَها فَطَما الزاهِي بِجرْيَتِها ... كما طَمَوت فسُدْتَ العُجْمَ والعَرَبَا
تخالُ فيه جُنودَ الماء رافِلَةً ... مُسْتَلْئمات تُرِيكَ الدِّرْعَ واليَلَبا[2]
تحُفُّها من فُنون الأَيكِ زاهِرةً ... قد أورَقَتْ فِضَّةً إذا أورقتْ[3] ذَهَبا
بَدِيعَةُ المُلْكِ ما يَنْفَكُّ ناظِرُهَا ... يَتْلُو على السَّمْعِ منها آيةً عَجبا
لا يُحسِنُ الدَّهْرُ أَنْ يُنْشي لها مَثَلاً ... ولو تَعَنَّتَ فيها نَفْسَهُ طَلَبا

ودخل عليه ابنُ أبي الحباب[4] في بعض قصوره من المُنْيَة المعروفة بالعامرية، والروضُ قد تفتَّحتْ أنوارُه، وتوشَّحَتْ أنجادُه وأغوارُه، وتصرَّف فيها الدهرُ متواضِعًا ووقف بها السعد خاضِعًا، فقال[5]: [البسيط]

لا يَومَ كاليوم في أيَّامِكَ الأوَلِ ... بالعامِريَّةِ ذاتِ الماءِ والظُّلَلِ
هَوَاؤها في جميع الدهر مُعْتَدِلٌ ... طِيبًا وإنْ حَلَّ فَصْلٌ غيرُ معتدل
ما إنْ يُبَالي الذي يحتلُّ ساحَتَها ... بالسَّعْدِ أنْ لا تَحُلَّ الشمسُ بالحَمَلِ

وما زالت هذه المنية[6] رائقة، والسُّعُودُ بلَبَّتِها مُتَنَاسقة، تُرَاوحها الفتوح وتغاديها، وتُجْلب إليها منكسرةً أعاديها، لا تزحف عنها راية إلَّا إلى فتح، ولا يصدر عنها تدبير إلَّا إلى نُجح، إلى أنْ حان يومُهَا العصيب، وقُيِّضَ لها من المكروه أوفَرُ نصيب، فتولَّت فقيدة، وخَلَتْ مِنْ بَهْجتها كلُّ عقيدة، انتهى.

---

(١) في المصدر نفسه: «أحسائها».
(٢) اليَلَبُ: التُّرس. لسان العرب (يلب).
(٣) في البيان المغرب: «أَثْمَرَتْ».
(٤) في البيان المغرب: «عمرو بن أبي الحباب» وهو خطأ. وهو أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبي الحباب؛ من أهل قرطبة، من جلّة شيوخ الأدب، وعالم بالنحو واللغة والأخبار. كان مؤدّب المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، توفي سنة ٤٠٠ هـ. الصلة (ص ٥٠) وبغية الوعاة (ص ١٤٠). وترجم له الحميدي في موضعين؛ مرة باسم أحمد بن الحباب، وكنّاه أبا عمر. جذوة المقتبس (ص ١١٩). ومرة بكنيته وهي أبو المطرف. جذوة المقتبس (ص ٤٠٢). ونقل الضَّبِّي الترجمة عن الحميدي في بغية الملتمس (ص ١٧٣، ٥٢٩).
(٥) هكذا وردت الأبيات في البيان المغرب.
(٦) في طبعة دار صادر والبيان المغرب: «هذه المدينة».

وقد حكى الحميدي في «جذوة المقتبس»[١] هذه الحكاية الواقعة لابن أبي الحباب بزيادة، فقال ـ بعد أن ذكر هذه المُنْية العامرية التي إلى جانب الزّهراء ـ: إنَّ أبا المطرِّف بن أبي الحباب الشاعر دخل إلى المنصور في هذه المنية، فوقف على رَوضة فيها ثلاث سَوسَنَات ثنتان منها قد تفتحتا[٢] وواحدة لم تفتح[٣]، فقال يصف ذلك[٤]: [البسيط]

لا يَومَ كاليوم في أيامنا الأوَلِ ... بالعامرية ذاتِ الماءِ والظُّلَلِ[٥]
هواؤها في جميع الدهر مُعْتَدِلٌ ... طِيبًا، وإنْ حَلَّ فَصْلٌ غيرُ مُعتدل
ما إنْ يُبَالي الذي يحتلُّ ساحَتَها ... بالسُّعْد ألَّا تَحُلَّ الشَّمْسُ في الْحَمل[٦]
كأنما غُرِسَتْ في ساعةٍ وبَدَا الْـ ... ـسُوسانُ من من حينِه[٧] فيها على عَجَلِ
أَبْدَتْ ثلاثًا من السُّوسان مائلةً[٨] ... أَعْناقُهُنّ من الإعياء والكَسَلِ
فبعضُ نُوّارها للبَعْض[٩] مُنْفَتِحٌ ... والبعضُ منغلقٌ عنهنَّ في شُغُلِ
كأنّها راحةٌ ضَمَّتْ أناملَهَا ... مِنْ[١٠] بَعْدِما مُلِئَتْ مِنْ جُودِكَ الخَضِلِ
وأختُها بَسَطَتْ منها أناملَها ... تَرْجُو نَدَاكَ كما عَوَّدْتَها فَصِلِ

وقد ذكر ابن سعد أن ابن العريف[١١] النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات: [المجتث]

---

(١) جذوة المقتبس (ص ٤٠٢). وانظر أيضًا بغية الملتمس (ص ٢٥٩).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «فتّحتا».

(٣) في الجذوة والبغية: «تتفتّحْ».

(٤) هكذا في المصدرين السابقين. وعبارة «يصف ذلك» سقطت من طبعة دار صادر.

(٥) رواية عجز البيت في الجذوة: «في العامرية ذات الماء والعلل». وفي البغية: «ذات الماء والظّلل».

(٦) في الجذوة والبغية: «بالحمل».

(٧) في المصدرين نفسيهما: «قدّامها» بدل «من حينه».

(٨) في الجذوة: «قائمة وما تشكّى من...». وفي البغية: «قائمة وما تَشَكَّتْ من...».

(٩) في الجذوة والبغية: «بالحسن» بدل «للبغض».

(١٠) في المصدرين نفسيهما: «ممدودة مُلِئَتْ من...».

(١١) هو أبو القاسم الحسين بن الوليد بن نصر، المعروف بابن العريف؛ كان نحويًا عارفًا بالعربية، شاعرًا له حظ من الكلام. أقام بمصر مدة ثم عاد إلى الأندلس، فأدَّب أولاد المنصور محمد بن أبي عامر، توفي بطليطلة سنة ٣٩٠ هـ. جذوة المقتبس (ص ١٩٤) وبغية الملتمس (ص ٢٦٧) وبغية الوعاة (ص ٢٣٧).

فـالـعـامـريـة تَـزْهَـى عَـلَى جَـمـيـع الْـمَـبَـانـي
وأنـتَ فـيـهـا كَـسَـيـفٍ قـد حَـلَّ فـي غُـمْـدَانِ [1]

فقام صاعد، وكان مناقضًا له، فقال: أسعد اللّه تعالى الحاجب الأجلّ! ومكّن سلطانه! هذا الشعر الذي قاله قد أعدّه وتروَّى[2] فيه أقدرُ أن أقول أحسن منه ارتجالاً، فقال له المنصور: قل ليظهر صدقُ دعواك، فجعل يقول من غير فكرة كثيرة[3] : [المجتث]

يـا أيّـهـا الـحـاجِـبُ الـمُـعْـ ـتَـلِي عَـلَى كِـيـوَانِ
ومَـنْ بـه قـد تـنـاهـى فـخـارُ كـلِّ يَـمَـانِ
الـعـامـريـة أضْـحَـتْ كـجـنّـة الـرِّضْـوان
فـريـدة لـفـريـدٍ مـا بـيـن أهـل الـزمـان

ثم مَرَّ في الشعر إلى أن قال في وصفها:

انْـظُرْ إلـى الـنـهـر فـيـهـا يَـنْـسَـابُ كـالـثُّـعْـبَـانِ
والـطـيـرُ يـخـطبُ شـكـرًا عـلـى ذُرَا الأغـصـان
والـقُـضْـبُ تَـلْـتَـفُ سـكـرًا بـمُـيَّـسِ الـقُـضْـبـان
والـروضُ يَـفْـتَـرُّ زَهْـوًا عـن مَـبْـسِـمِ الأقـحـوان
والـنـرجسُ الـغَضُّ يَـرْنُـو بِـوَجْـنـةِ الـنُّـعْـمَـان
وراحـةُ الـريـح تـمـتـا رُ نـفـحـةَ الـريـحـان[4]
فَـدُمْ مَـدَى الـدّهـر فـيـهـا فـي غِـبْـطَةٍ وأمـان

فاستحسن المنصور ارتجاله، وقال لابن العريف: ما لك فائدة في مناقضة مَنْ هذا ارتجالُه، فكيف تكون رَوِيته؟ فقال ابن العريف: إنّما أنطقه وقَرَّبَ عليه المأخذَ إحسانُك، فقال له صاعد: فيخرج من هذا أنَّ قلّة إحسانه لك أسكتتك وبَعُدت عليك المأخذ، فضحك المنصور وقال: غير هذه المنازعة أَلْيَقُ بأدبكما.

---

(١) يريد سيف بن ذي يزن، وقصره «غمدان» باليمن. وقد تقدم الحديث عنهما في الجزء الأول.
(٢) في طبعة دار صادر: «وروَّى».
(٣) في طبعتي دار صادر وليدن: «فكرة طويلة».
(٤) تمتار نفحةَ الريحان: أي تجعل نفحة الريحان طعامًا لها؛ يقال: امتار إذا جمع لأهله الميرة، أي الطعام والمؤنة. لسان العرب (مير).

قلت: وقد ذكر مؤرّخو الأندلس مُنًى كثيرة بها: منها منية الناعورة السابقة، ومنية العامرية هذه، ومنية السرور، ومنية الزبير منسوبة إلى الزبير بن عمر المُلَثَّم ملك قرطبة.

قال أبو الحسن بن سعيد: أخبرني أبي عن أبيه قال: خرج معي إلى هذه المُنْيَة في زمان فتح نُوَّار اللوز أبو بكر بن بَقِيٍّ الشاعرُ المشهور، فجلسْنا تحت سطر لوز قد نوَّر، فقال ابن بَقِيّ[1]: [البسيط]

سَطْرٌ من اللوز في البُسْتَان قابَلَني　　　ما زادَ شيءٌ على شيء ولا نَقَصَا
كأنّما كلُّ غُصْنٍ كُمُّ جاريةٍ　　　إذا النَّسيمُ ثَنَى أعطافَهُ رَقَصَا

ثم قال[2]: [الطويل]

عَجِبْتُ لمن أَبْقَى على خَمْرِ دَنِّهِ　　　غَدَاةَ رأى لَوْزَ الحديقة نَوَّرَا

وذكر بعض مؤرِّخي الأندلس أن المنصور بن أبي عامر كان يزرع كلَّ سنة أَلْفَ مدي من الشعير قصيلاً لدوابّه الخاصّة به، وأنّه كان إذا قدم من غزوة من غزواته لا يحلُّ عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش، وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودُوره، قال: وكان له دخالة[3] كل يوم اثني عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحِيتان، وكان يصنع في كل عام اثني عشر ألف تُرْس عامرية لقصر الزّاهرة والزهراء، قال: وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة الزّاهرة ذات القصور والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة، انتهى.

ومن المطمح[4]: أنّ المنصور لَمّا فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة وأَبْعَدَ فيها الإيغال، وغال فيها من عظماء الروم مَنْ غال[5]، وحلَّ من أرضهم ما لم يُطْرق، وراع منهم ما لم يُرَعْ قط ولم يَفْرَق[6]، وصدر صدرًا سَمَا به على كل حسناءَ عَقِيلة، وجلا به كل صفحة للحُسْن

---

(١) تقدّم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ١٨).

(٢) تقدّم هذا البيت في هذا الجزء (ص ١٨).

(٣) لم ترد هذه اللفظة في معاجم اللغة، وفيها «الدخل» بمعنى الحاصل، ويظهر أن أهل الأندلس كانوا يستعملون لفظة «دخالة» بمعنى القسط أو النصيب أو الحصّة.

(٤) لم يرد هذا النص في مطمح الأنفس المطبوع.

(٥) غاله: اغتاله، أي أخذه من حيث لم يَدْرِ وقتله. مختار الصحاح (غول).

(٦) يَفْرَقُ: يخاف. لسان العرب (فرق).

صَقيلة، ودخل قرطبة دخولاً لم يُعْهَد، وشَهِدَ له فيها يوم مثله لم يُشْهَد، وكان ابن شُهَيد[١] متخلّفًا عن هذه الغزوة لِنِقْرِسٍ[٢] عداهُ عائده، وحَداهُ منتجعُه ورائده، وابنُ شُهَيد هذا أحد حُجّاب الناصر، وله على ابن أبي عامر أيادٍ مُحْكَمة الأواصر، وهو الذي نَهَضَ به أول انبعاثه، وشَفَى أمره زمن التياثة، وخاصم المصحفي عنه بلسان من الحماية ألَدَّ، وتوخّاهُ بإحسان قلّده من الرعاية ما قَلَّد، وأسْمَى رتبته، وحَلَّى بإعظام جاهه[٣] لَبَّته، وكان كثيرًا ما يُتْحِفه، ويَصِلُه ويُلْطفه، فلمّا صدر المنصور من غزوته هذه وقَفَل، نسي مُتَاحفته وغفل، فكتب إليه ابن شُهَيد[٤]: [الخفيف]

أنا شيخٌ والشيخُ يَهْوَى الصَّبايا ... يا بِنَفْسي أَقِيكَ كلَّ الرَّزَايا
ورَسُولُ الإلَه أسْهَمَ في الفَيْءِ لِمَنْ لم يُخِبَّ فيه المطايا
فاجْعَلَنّي ـ فُدِيتَ ـ أشكرُ معرو ... فَكَ وابْعَثْ بها عِذابَ الثَّنايا

فبعث إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جَوارٍ، كأنهنَّ نجومُ سَوارٍ، وكتب إليه[٥]: [الخفيف]

قد بَعَثْنا بها كشمس النهارِ ... في ثلاثٍ من المَهَا أبْكارِ
فاتَّئِدْ واجْتَهِدْ فإنك شيخ ... سَلَخَ الليلَ عن بَياض النهارِ
صانك اللّه عن كَلالِكَ فيها ... فَمِنَ العارِ كَلَّةُ المِسْمارِ

فكتب إليه ابن شُهَيد[٦]: [الخفيف]

قد فَضَضْنا خِتَامَ ذاك السِّوارِ ... واصْطَبَغْنا من النَّجِيع الجاري
ونَعِمْنا في ظلِّ أنْعَم ليلٍ ... ولَهَوْنا بالبَدْرِ ثم الدراري
وقَضَى الشيخُ ما قَضَى بِحُسامٍ ... ذي مَضَاءٍ عَضْبِ الظُّبا بَتَّارِ
فاصْطَنِعْهُ فليس يَجْزِيكَ كُفْرًا ... واتَّخِذْهُ سيفًا على الكُفّارِ

---

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد، والد صاحب رسالة التوابع والزوابع، وقد تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) النِّقْرِسُ، بكسر النون والراء وسكون القاف: داء معروف يأخذ في المفاصل. لسان العرب (نقرس).

(٣) في طبعة دار صادر: «بإعظام جيده ولَبَّتِهِ».

(٤) البيتان الأول والثاني تقدّما في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٥) تقدّمت هذه الأبيات في الجزء الأول من نفح الطيب ببعض الاختلاف في البيت الثاني.

(٦) تقدّمت في الجزء الأول ببعض الاختلاف في البيتين الثاني والرابع.

وقد قدمنا هذه الحكاية في أخبار المنصور من الباب الثالث[1]، ولكنّا أعدناها هنا بلفظ المطمح لمَا فيه من العذوبة والفائدة الزائدة.

وممن كان في أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبدُ الملك بن إدريس الخَولاني، قال في المطمح[2]: عَلَم من أعلام[3] الزمان، وعَين من أعين البَيَان، باهرُ الفصاحة، طاهِرُ الجناب والساحة، تولَّى التحبيرَ أيام المنصور والإنشاء، وأشعر بدولته الأفراح والانتشاء، ولبس العزة مدتَها[4] ضافية البُرود، وردَ بها النعمة صافية الورود، وامْتَطى من جياد التوجيه، أعْتَقَ[5] من لاحق والوجيه[6]، وتمادى طَلَقَهُ، ولا أحد يلحقَه، إلى أيام المظفر فمشى على سَنَنه، وتمادى السعدُ يترنَّم على فَنَنِه، إلى أن قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع، صاحب دولته وأميرها المُطاع، وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والانقطاع، فاتُّهِمَ معه، وكاد أن يذوق حِمامه ومَصْرَعه[7]، إلَّا أنَّ إحسانه شَفَعَ، وبيانه نفع ودفع، فَحُطَّ عن تلك الرتب، وحُمِلَ إلى طُرْطُوشة على القَتَب، فبقي هنالك مُعْتَقلاً في برج من أبراجها نائي[8] المنتهى، كأنّما يناجي السُّها، قد بعد ساكنه عن الأنيس، وقعد من النجم بمنزلة الجليس، تمرُّ الطيور دونه ولا تَجُوزُهُ، ويرى منه الثرى ولا يكاد يحُوزه، فبقي فيه دهرًا لا يرتقي إليه راقٍ، ولا يرجى لَبثّه راقٍ، إلى أن أُخْرج منه إلى ثَراه، واستراحَ مِمَّا عَرَاه، فمن بديع نظمه قوله يصف المعقل[9]، الذي فيه اعْتُقل: [الكامل]

يأوِي إليه كلُّ أعْوَرَ ناعقٍ[10] وتَهُبُّ فيه كلُّ ريح صَرْصَرِ

---

(١) أي في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٢) مطمح الأنفس (ص ١٣).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «علم من الأعلام فريد الزمان...».

(٤) كلمة «مدّتها» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٥) في طبعة عبد الحميد: «وأعنق منه...».

(٦) اللاحق، والوجيه: فحلان من فحول الخيل. لسان العرب (لحق) و (وجه).

(٧) في مطمح الأنفس: «أن يذوق الحمام فيصرعه».

(٨) في المصدر نفسه: «فات المنتهى».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «المعتقل».

(١٠) في المطمح: «ناعب».

ويكــادُ مَــنْ يَـرْقَـى إلــيـه مَـرَّة   من عمـره يشكـو انقـطاع الأبْهَــرِ[1]

ودخـل ليلة على المنصور والمنصـورُ قد اتّكـأ وارتفق، وتحلّى بمجلسـه ذلـك الأفق، والدُّنيا بمجلسه ذلك مَسُوقه، وأحاديث الأماني به مَنْسوقة، فأمره بالنـزول عنده[2] فنـزل في حملة الأصحاب، والقمر يظهر ويحتجب في السحاب، والأفق يبدو بـه أغرَّ ثم يعـود مبهمًا، والليل يتراءى منه أشقر ثم يعـود أدهمًا[3]، وأبـو مروان قـد انتَشى، وجالَ في ميـدان الأنسِ ومشى، وبُرْدُ خاطره قد دبّجه السرور ووشى، فـأقلقه ذلـك المغيب والالتياح، وأنْـطَقَه ذلـك السرور والارتياح، فقال[4]: [الوافر]

أرَى بــدْرَ الـسمــاءِ يـلوحُ حِيـنًـا   فـيـبــدو ثـم يـلتـحف الـسَّحــابـا
وذلــك أنــه لَــمَّــا تَـبَــدَّى   وأبْصَــرَ وَجْهَــك اسْتَحْيَــا فغــابـا
مَـقــالٌ لـو نَـمَـى عـنـدي إلـيـه   لَــراجــعـنــي بـذا حَـقًّـا جَـوابـا

وله في مدة اعتقاله، وتردّده في قِيلِهِ وقاله: [الكامل]

شَحَطَ المــزارُ فـلا مــزارَ، ونـافـرتْ   عيني الهجـوعَ فـلا خيــالٌ يَـعْتَـرِي
أَزْرَى بصبــري وهـو مشــدود القُـوَى   وألآنَ عــودي وهــو صُلْبُ المَـكْسِـرِ
وطَـوَى ســروري كـلَّه وتَــلَذُّذي   بـالـعيش طيَّ صحيفـةٍ لـم تُنْشَـرِ
هــا إنّـمــا ألقـى الحبيبَ تـوهُّمًـا   بضميـر تـذكـاري وعين تـذكُّـري
عجبًــا لـقلبـي يـومَ راعتـني الـنَّـوَى   ودَنَــا وَدَاعٌ[5] كـيـف لـم يَـتَـفَـطَّرِ

---

(١) الأبهر: عِرْقٌ إذا نقطع مات صاحبه، وهما أبهران يخرجان من القلب ثم يتشعّب منهما سائر الشرايين. محيط المحيط (بهر).

(٢) كلمة: «عنده» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) أصـل القول: «أدهم» ممنـوعة من الصـرف لأنها اسم تفضيـل على وزن «أفعل»، وقـد صرفهـا مراعـاة للسَّجْع.

(٤) ستأتي هذه الأبيات في الجزء الرابع من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا، وسيأتي البيتـان الأول والثـاني في الجـزء الخـامس وهي في جـذوة المقتبس (ص ٢٨١) وبغيـة الملتمس (ص ٣٧٥) مع بعض الاختلاف أيضًا.

(٥) في طبعتي دار صادر وليدن: «وداعي».

رجع إلى المنصور: وكان المنصور إذا أراد أمرًا مُهمًّا شاور أرباب الدولة والأكابر[1] من خدّام الدولة الأموية، فيشيرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة الأموية عليه، فيخالفهم إلى المنهج الذي ابتدعه، فيقضون في أنفسهم بالهلاك في الطريق الذي سلكه، والمَهيع[2] الذي اخترعه، فتُسْفِرُ العاقبة عن السلامة التامّة التي اقتضاها سَعْدُه، فيكثرون التّعجّب من موارد أموره ومصادرها.

وقيل له مَرَّةً: إنَّ فلانًا مشؤوم فلا تستخدمه، فقال: أفٍّ لسعدٍ لا يغطي على شؤمه، فاستخدمه، ولم ينلْه من شؤمه الذي جرت به العادة شيء.

وحكي عنه أنه كان في قصره بالزاهرة، فتأمّل محاسنه، ونظر إلى مياهه المُطَّردة، وأنْصَتَ لأطياره المغرّدة، وملأ عينه من الذي حواه من حسن وجمال، والتفت في الزاهرة من اليمين إلى الشمال، فانْحدرت دموعُه، وتجهّم وقال: ويها[3] لك يا زاهرة، فليت شعري مَنِ الخائنُ الذي يكون خرابك على يديه عن قريب؟ فقال له بعض خاصّته: ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قطّ؟ وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال به؟ فقال: واللّه لَتَرَونَ ما قلت، وكأني بمحاسن الزاهرة قد مُحِيَتْ، وبرسومها قد غُيِّرَتْ، وبمبانيها قد هُدِمَتْ ونُحِّيَتْ، وبخزائنها قد نُهِبَتْ، وبساحاتها قد أُضْرِمَتْ بنار الفتنة وأُلْهِبَتْ، قال الحاكي: فلم يكن إلاَّ أن توفي المنصور وتولّى المظفرُ ولم تَطُلْ مدّتهُ، فقام بالأمر أخوه عبد الرحمن الملقّب بشنجول، فقام عليه المهدي والعامّة، وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامَّة، وانقرضت دولة آل عامر، ولم يبقَ منهم آمر: [الطويل]

كأن لم يكن بين الحَجُونِ إلى الصَّفا ... أَنِيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكّةَ سامِرُ
بلَى نحن كُنّا أهلَها فأبادَنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثِرُ

وخرجت الزاهرة، ومضت[4] كأمس الدابر، وخلتْ منها الدسوتُ الملوكية والدساكر[5]، واستولى النهب على ما فيها من العدّة والذخائر، والسلاح، وتلاشَى أمرها فلم

(١) في طبعة دار صادر: «الأكابر» بدون واو العطف.
(٢) المَهيعُ: الطريق الواسع الواضح. محيط المحيط (مهع).
(٣) في طبعة بولاق: «ويل».
(٤) في طبعتي دار صادر وليدن: «وذهبتْ».
(٥) في طبعتي دار صادر وليدن: «والمنابر».

يُرْجَ لفسادها صلاح، وصارت قاعًا صَفْصَفا[1]، وأُبْدِلَت[2] بأيام الترح عن أيام الفرح والصَّفَا.

ويُرْوَى أن بعض أولياء ذلك الزمان مَرَّ بها، ونظر إلى مصانعها السامية الفائقة، ومبانيها العالية الرائقة، فقال: يا دار فيك من كل دار، فجعل اللّه منك في كل دار.

قال الحاكي: فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح إلَّا أيام يسيرة حتى نُهِبَتْ ذخائرُها، وعُمَّ بالخراب سائرُها، فلم تبقَ دار في الأندلس إلَّا ودخلها من فيئها حصّة كثيرة أو قليلة، وحقّق اللّه تعالى دعاء ذلك الرجل الذي هِمَّتُه مع ربِّه جليلة.

ولقد حُكِي أنَّ بعض ما نُهِبَ منها بِيعَ ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية، فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضي ملكه! لا إلّه إلَّا هو.

وتذكَّرْتُ هنا ما رآه في المنام بعضُ أهل المغرب بالليلة التي انقرض فيها ملك الموحِّدين أن شخصًا ينشده: [مخلع البسيط]

مُلْكُ بني مؤمن تَوَلَّى ... وكان فَوْقَ السِّماك سَمْكَهْ
فاعتبروا وانظروا وقولوا: ... سبحان من لا يبيدُ مُلْكَهْ

لا إلّه إلَّا هو.

وكان المهدي القائم على العامريين ماجنًا فاتكاً، وقال ـ وقد حَيَّاه في مجلس شرابه غلامٌ بقضيب آس[3] ـ: [الكامل]

أَهْدَيْتَ شِبْهَ قَوامِكَ المَيّاسِ ... غُصْنًا رَطِيبًا ناعمًا من آسِ
وكأنَّما يَحْكِيكَ في حركاته ... وكأنَّما تحكيه في الأنفاسِ

وكان المنصور بن أبي عامر حين تغلَّب على ملك الأمويين غير مكترث بمثل المهدي المذكور، فسلَّطه اللّه تعالى على كل ما أسّسه المنصور حتى هدمه، وأخَّر كلَّ ما قَدَّمَهُ، ولم

---

(١) القاع: الأرض السهلة المطمئنّة. الصَّفْصَفُ: المستوي من الأرض. محيط المحيط (قوع) و (صفصف).

(٢) في طبعة دار صادر: «وأديلت».

(٣) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء (ص ١١٤) دون تغيير عمّا هنا.

ينفع في ذلك احتياط ولا حزم، ولا رادَّ للقضاء المبرم الجزم: [الكامل المجزوء]

والـلّه يـحـكـم مـا يـشـا ء فـلا تـكـنْ مُـتـعـرِّضـا

وقد قَدَّمْنا شيئًا من أخبار المنصور، ولا بـأس أنْ نُلِمَّ هنا ببعضهـا وإنْ حصل منـه نوع تكرار في نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض.

قال بعض المحققين من المؤرخين: حَجَرَ المنصورُ بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولِّي الحجابة، وربّما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنسًا، وعلى جواريه مثل ذلك، فلا يُعْرَفُ منهنَّ، ويأمر مَنْ يُنَحِّي الناس من طريقه، حتى ينتهي المؤيّد إلى موضع تنزّهه، ثم يعود، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة في بعض الأيام لغرضٍ له، كما أَلْمَعْنا به فيما سبق، وكان المنصور إذا سافر وكَّلَ بالمؤيّد من يفعل معه ذلك، فكان هذا من فعله سببًا لانقطاع ملك بني أمية من الأندلس، وأخذ مع ذلك في قتل مَنْ يخشى منه من بني أميّة خوفًا أن يثوروا به، ويُظْهَر أنه يفعل ذلك شفقةً على المؤيّد، حتى أَفْنَى من يصلح منهم للولاية، ثم فرّق باقيهم في البلاد، وأدخلهم زوايا الخمول عارين مِنَ الطِّرف والتِّلاد، وربما سكن بعضهم البادية، وترك مجلس الأبّهة وناديه، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة: [الكامل]

أَبَني أميـةَ، أين أقمـارُ الـدُّجَى منكمْ؟ وأين نجـومُهـا والكـوكـبُ؟
غـابـتْ أُسُـودُ منكُمُ عن غَـابِهَـا فلذاك حـازَ المُـلْكَ هـذا الثـعلبُ

مع أن للمنصور مفاخر، بَذَّ بها[1] الأوائل والأواخر، من المثابرة على جهاد العدو، وتكرار الذهاب بنفسه في الروح والغدوّ، وله مع المصحفي وغيره أخبار مَرَّتْ ويأتي بعضها، ولا بأس أن نلخّص ترجمة المصحفي فنقول:

قال الفتح في المطمح[2]: الحاجب جعفر المصحفي ـ تَجَرَّد للعَلْيا، وتمرّد في طلب الدنيا، حتى بلغ المُنَى، وتَسَوَّغَ ذلك الْجَنَى، فسما دون سابقة، وارْتَمَى إلى رتبة لم تكن لِبِنْيَتِهِ بمُطَابقة، والْتَاحَ في أفياء[3] الخلافة، وارتاح إليها بعطفه[4] كنَشْوان السُّلافة، واستوزره

(١) بذّهم: تفوّق عليهم وغلبهم. لسان العرب (بذذ).

(٢) مطمح الأنفس (ص ٤ ـ ٨).

(٣) في طبعة ليدن: «في أفق».

(٤) في طبعة ليدن: «معطفه».

المستنصر، وعنه كان يَسْمع وبه كان يبصر، فأدرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائلَ والشَّرَك، واقتنى وادَّخَرَ، وأزْرَى بمن سواه وسَخر، واستعطفه المنصور محمد[1] بن أبي عامر ونجمُه بعد غائرٌ لم يَلُحْ، وسرُّه مكتومٌ لم يبح، فما عَطَف، ولا جَنَى من روضة دنياه ولا قطف، فأقام في تدبير الأندلس ما أقام والأندلس متغيّرة، والأذهان في تكيّف سعده متحيّرة، فناهيك مِنْ ذكرٍ خلّد، ومن فَخْرٍ تقلّد، ومِنْ صَعْبٍ راضَ، وجَناح فتنةٍ هَاضَ، ولم يزلْ بِنَجاد تلك الخلافة معتقلاً، وفي مطالعها مُنْتقلاً، إلى أن توفي الحكم، فانتقض عقده المُحْكم، وانبرت إليه النوائب، وتسدَّدت إليه من الخطوب[2] سهامٌ صوائب، واتَّصل إلى المنصور ذلك الأمرُ، واختصَّ به كما مال بيزيد أخوهُ الغَمْرُ، وأناف في تلك الخلافة كما شَبَّ قبل اليوم عن طوقه عمرو، وانتدب للمصحفي بصدر قد[3] كان أوغَرَه، وساءه وصَغَّره، فاقتصَّ من تلك الإساءة، وأغصَّ حلقه بأي مَساءة، فأخمله ونكبه، وأرجله عما كان الدهرُ أركبه، وألهب جوارحَه[4] حَزَنًا، ونهب له مدّخَرًا ومُخْتَزَنًا، ودَمَّر عليه ما كان حاط، وأحاط به من مكروهه ما أحاط، وغَبَرَ سنين في مهوى تلك النكبة، وجَوَى تلك الكربة، ينقله المنصور معه في غَزَواته ويعتقله بين ضيق المُطْبِق ولَهَواته، إلى أنْ تكوَّرت شمسُه، وفاظتْ[5] بين أثناء المحن نفسُه، ومن بديع ما حُفظ له في نكبته، قوله يستريح من كربته[6]: [الطويل]

صَبَرْتُ على الأيام لَمَّا تَوَلَّتِ ... وأَلْزَمْتُ نفسي صَبْرَها فاسْتَمَرَّتِ
وَمَا النفسُ إلاَّ حيث يَجْعَلُها الفَتَى ... فإنْ طَمِعَتْ تاقتْ وإلاَّ تَسَلَّتِ[7]
فَوا عَجَبًا للقلبِ كيف اعْتِرافُهُ ... ولِلنَّفْسِ بَعْدَ العِزِّ كيف اسْتَذَلَّتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً ... فلمَّا رأَتْ صبري على الذُّلِّ ذَلَّتِ
فقُلْتُ لها: يا نفسُ، مُوتي كريمةً ... فقد كانتِ الدنيا لنا ثم وَلَّتِ

---

(١) كلمة «محمد» سقطت من طبعة دار صادر.
(٢) من الخطوب: زيادة من مطمح الأنفس.
(٣) كلمة «قد» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٤) في طبعة ليدن: «جوانحه».
(٥) فاظت نفسه وفاضت نفسه: خرجت روحه ومات. محيط المحيط (فيظ) و (فيض).
(٦) سترد هذه الأبيات في هذا الجزء (ص ١٣٨).
(٧) جاء هذا البيت في طبعة صادر بالترتيب ثالثًا.

وكان له أدب بارع، وخاطر إلى نظم القريض يُسَارع[1]، فمن محاسن نظامه[2] إنشاده، التي بعثها إيناسُ دهره بإسعاده، قوله[3]: [الطويل]

لعينيك في قلبي عَلَيَّ عيونُ   وبَيْنَ ضلوعي للشجون فُنُونُ
لَئِنْ كان جسمي مخلقًا في يَدِ الهوى   فحبُّك عندي في الفؤاد مَصُونُ

وله وقد أصبح عاكفًا على حُمَيَّاه، هاتفًا بإجابة دنياه، مرتشفًا ثغر الأنس متنسّمًا رَيَّاه، والملك يغازله بطَرْف كَليل، والسَّعْدُ قد عُقِدَ عليه منه إكليل، يصف لون مُدَامِهِ، وما تعرَف له منها دون نِدامِهِ[4]: [الكامل]

صَفْرَاء تُطْرِقُ في الزجاج فإنْ سَرَتْ   في الجسم دَبَّتْ مِثْلَ صِلٍّ[5] لادغِ
خَفِيَتْ على شُرَّابها فكأنما[6]   يَجِدُونَ رِيًّا مِنْ إناءٍ فارغِ

ومن شعره الذي قاله في السَّفَرْجَل مشبّهًا، وغدَا به لنائم البديع مُنَبِّهًا، قوله يصف سفرجلة، ويقال إنه ارتجله: [الطويل]

ومُصْفَرَّةٍ تختالُ في ثوب نَرْجِس   وتَعْبُقُ عَنْ مِسْكٍ ذكي التَّنَفُّسِ
لها رِيحُ محبوبٍ وقَسْوَة قلْبِهِ   ولَونُ محبٍّ حُلَّةَ السُّقْم مُكْتَسِي
فصُفْرَتها من صفرتي مُسْتعارةٌ   وأنفاسُهَا في الطِّيب أنفاس مُؤنِسي
وكان لها ثوبٌ من الزغبِ أغْبَرُ   على جِسْمٍ مُصْفَرٍّ مِنَ التِّبْرِ أمْلَسِ
فلما اسْتَتَمَّتْ في القَضيبِ شَبَابَهَا   وحاكتْ لها الأوراقُ أبوابَ سُنْدُسِ
مَدَدْتُ يدِي باللُّطْفِ أبغي اجْتِنَاءَهَا   لأَجْعَلَهَا رَيحَانتي وَسْطَ مجلسي

---

(١) في طبعة ليدن: «مسارع».
(٢) كلمة «نظامه» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٣) البيتان في الجزء الثامن من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا. وهما في يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٩٤) وفيه: «شجون» بدل «فنون».
(٤) البيتان في يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٩٥) والحلة السيراء (ج ١ ص ٢٦٣) وسيأتيان في هذا الجزء (ص ١٣٥) وفي الجزء الثامن .
(٥) في يتيمة الدهر: أيم». والصِّلُّ: بكسر الصاد: الحيّة التي لا تنفع منها الرُّقْية. والأيم: الحية. مختار الصلاح (صلل) و (أيم).
(٦) في يتيمة الدهر: «فكأنهم».

فَبَزَّتْ[1] يدِي غَضْبًا لها ثوبَ جسمها وأعْرَيتُهَا بالَّلطف مِنْ كلِّ مَلْبَسِ
ولَمَّا تَعَرَّتْ في يدي مِنْ بُرُودِهَا ولم تَبْقَ إلاَّ في غِلاَلة نَرْجِسِ
ذكَرْتُ لها مَنْ لا أبوح بذكره فأذبَلَها في الكف حَرُّ التنفُّسِ

وله وقد أعاده المنصور إلى المُطْبِق، والشجون تُسْرِع إليه وتَسْبِق، معزِّيًا لنفسه، ومجتزيًا بإسعاد[2] أَمْسِهِ: [المتقارب]

أُجازي الزمانَ على حاله مُجَازاة نَفْسي لأَنْفاسِهَا
إذا نَفَسٌ صاعدٌ شَفَّهَا تَوارَتْ به دون جُلاَّسِهَا
وإنْ عكفَتْ نَكْبة للزمان عَكَفْتُ[3] بنفسي عَلَى رَاسِهَا

ومِمَّا حُفِظَ له في استعطافه، واستنزاله للمنصور واستلطافه، قولُه: [للمتقارب]

عَفَا اللَّه عَنْكَ، أَلاَ رحمةٌ تجودُ بعفوكَ أنْ أُبْعَدَا؟
لَئِنْ جَلَّ ذَنْبٌ ولم أعْتَمِدهُ فأنتَ أجلُّ وأعْلَى يَدَا
ألم تَرَ عَبْدًا عَدَا طَورَهُ ومَوْلًى عَفَا ورشيدًا هَدَى
ومفْسدَ أمرٍ تلافيتَهُ فعاد فأصْلَحَ ما أفْسَدَا؟
أقِلْنِي أقالكَ مَنْ لم يزل يَقِيكَ ويَصْرِفُ عنك الرَّدَى

عود وانعطاف إلى أخبار المنصور بن أبي عامر رحمه اللَّه تعالى! وجازاه عن جهاده أفضل الجزاء بمنِّه وكرمه وفضله وطَوله! فنقول:

وكان له في كل غَزْوَة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الإسلامية، فمنها أنَّ بعض الأجناد نسيَ رايته مَرْكوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم، فأقامت عدّة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العساكر، وهذا بلا خفاء ممّا يفتخر به أهل التوحيد على أهل[4] التثليث؛ لأنهم لَمّا أُشرب قلوبُهُم خَوفَ شِرْذِمة المنصور وحِزْبه، وعلم كلٌّ من ملوكهم أنه لا طاقة له بِحَرْبه، لَجأوا إلى الفِرَار والتحصُّن بالمعاقل والقلاع، ولم يحصل منهم غير الإشراف مِنْ بُعْدٍ والاطلاع.

---

(١) بَزَّتْ: سلبت. مختار الصحاح (بزز).
(٢) في مطمح الأنفس: «بأخبار أَمْسِهِ».
(٣) في طبعة دار صادر: «عطفت». وفي المطمح: «عطفت بصلدي».
(٤) كلمة «أهل» ساقطة في طبعة دار صادر.

ومن مفاخر المنصور في بعض غزواته أنّه مَرَّ بين جَبَلين عظيمين في طريق عرض بريد بوسط بلاد الإفرنج، فلمّا جاوز ذلك المحلّ ـ وهو آخذ في التحريق والتخريب والغارات والسبي يمينًا وشمالاً ـ لم يجسر أحد من الإفرنج على لقائه، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام، ثم عاد فوجد الإفرنج قد استجاشوا مَنْ وراءهم، وضبطوا ذلك المدخل الضيّق الذي بين جبلين، وكان الوقت شتاء، فلمّا رأى ما فعلوه رَجَعَ واختار منزلاً من بلادهم أناخَ به فيمن معه من العساكر، وتقدّم ببناء الدُّور والمنازل، وبجَمْع آلات الحرث ونحوها، وبثّ سَرَاياه فَسَبَتْ وغنمتْ، فاسترقّ الصِّغارَ، وضرب أعناق الكبارَ، وألقى جُثَثهم حتى سَدَّ بها المدخلَ الذي من جهته، وصارتْ سَرَاياه تخرج فلا تجد إلاَّ بلدًا خرابًا، فلمّا طال البَلاَء على العدوِّ أرسلوا إليه في طلب الصلح، وأن يخرج بغير أَسْرَى ولا غنائم، فامتنع من ذلك، فلم تزل رسلهم تتردّد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسْرَاه، فأجابهم: إنَّ أصحابي أَبَوا أن يخرجوا، وقالوا: إنَّا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلاَّ وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فنقعد ههنا إلى وقت الغزاة، فإذا غزونا عُدْنا، فما زال الإفرنج يسألونه إلى أنْ قرَّر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي، وأن يُمِدُّوه بالمِيرة حتى يصل إلى بلاده، وأن يُنَحُّوا جِيَفَ القَتْلَى عن طريقه بأنفسهم، ففعلوا ذلك كله، وانصرف.

ولَعَمْري إنَّ هذا لَعِزٌّ ما وراءَه مطمح، ونَصْرٌ لا يكاد الزمانُ يَجُودُ بمثله ويَسْمح، خصوصًا إزالتهم جِيَفَ قتلاهم من الطريق، وغصصهم[1] في شرب ذلك بالرِّيْق.

ومن مآثره التي هي في جبين عَصْره غُرَّة، ولعين دهره قُرَّة، أنه لَمَّا خَتَن أولاده خَتَنَ معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي، ومن أولاد الضعفاء عدد لا يحصر[2]، فبلغت النفقة عليهم في هذا الإعذار، خمسمائة ألف دينار، وهذه مكرمة مُخَلَّدة، ومنه مُقَلدة، فاللَّه سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء! ويجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء!.

ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظنّ[3]، أن أكثر جنده مِنْ سَبْيِهِ على ما حقّقه بعضُ المؤرّخين، وذلك غاية المنح من اللَّه والمنّ.

---

(١) في طبعة ليدن: «وغصَّهم».

(٢) في طبعتي دار صادر وليدن: «لا ينحصر».

(٣) في طبعة ليدن: «في غابر الزمن».

ومن أخباره الدالّـة على إقبال أمره وخيبة عـدوّه وإدباره، أنـه ما عـاد قَطُّ مِنْ غَزْوةٍ إلاّ استعدَّ لأخرى، ولم تُهْزَم له قَطُّ رايةٌ مع كثرة غزواته شاتية وصائفة وكفاه ذلك فَخْرًا.

ومنها أن لَقِيَتْهُ ـ وقد عاد من بعض غزواته ـ امرأةٌ تَغَصَّتْ[1] عليه بلوغ مُنَـاه وشهواتـه، وقالت له: يـا منصور، استمـع ندائي، فـأنت في طيب عيشك وأنـا في بكائي، فسـألها عن مصيبتها التي عَمَّتها وغَمَّتها، فذكرتْ له أن لها ابنًا أسيرًا في بلادٍ سَمَّتْها، وأنها لا يهنأ عيشها لفقده، ولا يخبو ضِرَامُ قَلَقِها مِنْ وَقْده، وأنشدَ لسانُ حالها ذلك الملك العليّ[2]: [الوافر]

أيا وَيحَ الشَّجِيِّ مِنْ الخَلِيّ[3]

فرحَّب المنصورُ بها، وأظهر الرقّة بسببها، وخرج من القابلة إلى تلك المدينة التي فيها ابنها وجاسَ أقـطارَهَا وتخلّلهـا، حتى دَوَّخها إذ أنـاخ عليها بكلكله[4] وذلّلهـا، وأعراهـا من حُمَاتها وببنود الإسلام المنصورة ظَلَّلها، وخَلَّص جميعَ مَنْ فيها من الأَسْرَى، وجلبتْ عَوَامِلُه إلى قارب الكفرة كَسْرًا، وانقلبتْ عيون الأعداء حَسْرَى، وتَلَا لسانُ حـال المرأة: ﴿ فـإنَّ مَعَ العُسْر يُسْرًا، إنَّ مَعَ العُسْر يُسْرًا ﴾[5].

فهكذا تكون الهِمَّة السلطانية، والنخوة الإيمانية، فاللّه سبحانه يـروّح تلك الأرواح في الجنان، ويرقي درجاتها ويعاملها بمَحْض الفضل والامتنان.

وقد تذكَّرْتُ هنا والحديث شجون[6]، وبذكر[7] المنـاسبات يَبْلُغ الـطُّلاَّبُ ما يَـرْجُون،

---

(١) في طبعة دار صادر: «نَقَمَتْ».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وأنشد لسانُ حالها:

يـا ذلـك الـملك الـعَـليّ وَيـحَ الـشَّجِـيُّ مـن الـخَـلِيّ

وهكذا يكون البيت على مجزوء الكامل.

(٣) الشجيُّ: الحزين. الخَلِيُّ: الناعم البال أي الفارغ من الهمّ. لسان العرب (شجي) (وخلي). وهو شطر مطلع قصيدة مديح لأبي تمام يمدح الحسن بن وهب، والبيت هو:

أيـا وَيـلَ الـشَّـجـيُّ مـن الـخَـلـيِّ وبـالـي الـرَّبـعِ مـن إحـدى بـلـيِّ

ديوان أبي تمام (ص ٣٠٥).

(٤) الكَلكَلُ: الصَّدرُ. أناخ عليها بكلكله: أي نال منها كثيرًا.

(٥) سورة الشرح، ٩٤، الآيتان ٥، ٦.

(٦) يشير إلى المثل: «الحديث ذو شجون» أي ذو فنـون وأغراض. مجمـع الأمثال (ج ١ ص ١٩٧) ولسـان العرب (شجن).

(٧) في طبعة دار صادر: «وفي ذكر».

كتابًا كتبه الأديبُ الكاتبُ أبو محمد ابن الإمام الحافظ محدث الأندلس أبي عمر بن عبد البَرِّ النُّميري، إلى المنصور بن أبي عامر، وهو من ذُرِّيّة المنصور الكبير الذي كُنّا نتحدّث في أخباره، يمتُّ إليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدّم من آبائه بتعظيم قَدْره وإكباره، وهو[1]: عَمَّرَ اللَّهُ ببقاء سيدي[2] ذي السابقتين بَهْجَةَ أوطانه، ومَلّكه عنان زمانه، ومَدَّ عليه ظلال أمانه، إني، أَبْقَى[3] اللَّهُ الملك الكريم، والسيّد الزعيم، لَمَّا أضاءت لي أهِلّة مفاخركم[4] في سماء الفخار، وأشرقتْ شموس مكارمكم على مفارق الأحرار، وأبصرت شمائلك الزُّهْرَ تهدي إليك من الهمم محامدها[5]، ومحاسنك الغرّ توقظ لك من الآمال رَوَاقدها[6]، أيقنت أنه بحقّ انقادت لك القلوبُ بأعِنّتها، وتهادتْ إليك النفوسُ بأزمّتها، فآليتُ أن لا أُلِمّ إلاَّ بحِمَاك، ولا أحطّ رَحْلاً إلاَّ بِفِنَاك[7]، عِلْمًا بأنك نثرة الفخر، وغرّة الدهر، فَتَيَمَّمْتُ ساريًا في ساطع نورك، متيمّنًا بيمن طائرك، محققًا للربح[8]، مُوقِنًا بالفُلج والنُّجح، حتى حللْتُ في دَوحة المجد، وأنختُ بدولة السَّعْد، واستشعرْتُ لبسة الشكر والحمد، وجعلْتُ أنظِمُ من جَوَاهر الكلام، ما يُرْبي على جواهر النِّظَام، وأنشر من عطر الثناء، ما يزري بالروضة الغَنَّاء، وحاشا للفهم[9] أن يعطل ليلي من أقمارك، أو يخلي أُفُقي من أنوارك، فأراني منخرطًا في غير سلكه، ومُنْحَطًّا إلى غير ملكه، لا جَرمَ أنه مَنِ استضاء بالهلال، غني عن الذُّبَال[10]؛ ومن استنار بالصباح، أَلْقَى[11] سَنَا المصباح، وتاللَّه ما هَزّت آمالي ذوائِبَها إلى سواك، ولا

---

(١) الرسالة في الذخيرة (ق ٣ ص ١٦٧ - ١٦٩) ببعض الاختلاف عمّا هنا، وقد جاء الضمير فيها أحيانًا للغائب وليس للمتكلم كما في النفح. وعبارة: «عمر اللَّه... ظلال أمانه» لم ترد في الذخيرة، وقد بدأها ابن بسام بقوله: «إني - أيّد اللَّه الملكَ الكريم...».

(٢) في طبعة دار صادر: «مولاي».

(٣) في الذخيرة: «أيّد اللَّه».

(٤) في المصدر نفسه: «مفاخره».

(٥) في طبعة دار صادر: «كامنها» بدل «محامدها». وفي الذخيرة: «كثير من الهمم كامنها».

(٦) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «نائمها».

(٧) في الذخيرة: «إلاَّ في ذَرَاه».

(٨) في المصدر نفسه: «بيمن طائره، بأمل متحقّق الربح، مُوقِنٍ...».

(٩) في الذخيرة: «للفضل».

(١٠) الذُّبال: جمع ذَبِيلة وهي ا... مختار الصحاح (ذبل).

(١١) في الذخيرة: «ألغى».

حَـذَتْ أوطاري ركـائبَهَا مَنْ عـداك[1]، ليكون فيَّ أثـر الوسْمِيِّ في المـاحـل، وعليَّ جمـالُ الحلي على العـاطـل، لسيـادتـك السنيّـة، وريـاسـتـك الأوليّـة، التي يَقْصُـر عنهـا لســانُ إفصـاحي[2]، ويَعْيَا في[3] بعضهـا بياني وإيضـاحي، فـالقـراطيسُ عنـد بَثِّ منـاقبـك تَفْنَى، والأقـلامُ في رَسْمِ مـآثـرك تَحْفَى[4] ومـا أمَـلُ المجـدِب، في حيـاة المخصِب، ولا جَـذَلُ المذنب، برضا المُعْتِب، كأملي في التعزّز بحَوزتك، والتجمُّل بجملتك، والترفّع بخدمتك، فالسعيدُ[5] مَنْ نشأ في دولتك، وظهـر في أُمَّتك[6]، واسْتضـاء بعزّتـك، لقد فـاز بالسَّبْق مَنْ لَحَظَتْه عينُ[7] رعايتك، وكَنَفَتْه[8] حَوزةُ حمايتك، فأنت الذي أُمِنَتْ بعَـدْله نـوائبُ الأيام، وقـويت بسلطانـه[9] دعـائمُ الإسـلام، تختـال بـك المعـاني اختيـالَ العَـرُوس، وتخضـعُ لجلالك[10] أعزّة النفوس، سابقةٌ أشهرُ من الفجر، وفطنةٌ أنورُ مِنَ البَدْر، وهِمَّةٌ أنفذ[11] من الدهر: [الطويل]

لـقــد فــاز مَنْ أضـحى بـكُمْ مُـتَمَسِّكًـا ... يَـشُـدُّ[12] على تـأميـل عِـزِّكُـمْ يَـدَا
سَلَكْتَ سَبيـلَ الفَخْـر[13] خلقًـا مـركبًـا ... وغَـيـرُك لا يـأتـيـه إلَّا تَـجَـلُّدَا
فــأنــتـمْ لــواءُ الــدِّيْــنِ لا زالَ قَـيِّـمًــا ... بـآرائكمْ في ظُلْمـة الخَـطْب يُهْتَـدَى[14]
لِـيَـهْـنِـكُــمُ مَـجْـدٌ تَـلِـيـدٌ بَـنَـيـتُـمُ ... أغـار سَنَـاه فـي البــلاد وأنـجَـدَا[15]

(١) في طبعة عبد الحميد: «مداك».
(٢) في الذخيرة: «يقصر عن وصفها إفصاحي».
(٣) في المصدر نفسه: «عنه».
(٤) من هنا حتى: «والترفع بخدمتك» غير وارد في الذخيرة.
(٥) في الذخيرة: «والسعيد».
(٦) في المصدر نفسه: «جملتك واستضاء بغرّتك».
(٧) في المصدر نفسه: «عيون».
(٨) في المصدر نفسه: «وكَنَفَهُ حِرْز...».
(٩) في الذخيرة: «بفضله».
(١٠) في المصدر نفسه: «لجلالتك».
(١١) في المصدر نفسه: «أبعد».
(١٢) في الذخيرة: «يمدُّ إلى تأميل...».
(١٣) في المصدر نفسه: «سبيل الفضل».
(١٤) هذا البيت لم يرد في الذخيرة.
(١٥) في الذخيرة: «ليهنيكم.. أغار لعمري...». وعجز البيت من قول الأعشى: [الطويل]

ومثله أبقاه اللَّه سبحانه يستثمر إيراقه، فيثمر جَنَاه، ويستمطر إبراقه، فيُمْطر حَيَاه، لا سيما وإني نشأةٌ حَفَّها إحسان أوائلك الطّاهرين، وألفها إنعام أكابرك الأخيار الطيبين، وجَديرٌ بقَبُولك وإقبالك، وبِرِّك وإجمالك، مَنْ أصله ثابت في أهل محبتكم، وفَرْعُه نابتٌ في خاصتكم(١): [الطويل]

وما رَغْبَتي في عَسْجَدٍ أسْتَفيدُهُ ... ولكنَّها في مَفْخَرٍ أسْتَجِدُّهُ

فكُلُّ نوالٍ كانَ أو هُوَ كائِنٌ ... فلَحْظَةُ طَرْفٍ منك عِنْدِيَ نِدُّهُ

فكُنْ في اصْطِنَاعِي مُحْسِنًا كمجرِّبٍ ... يَبِنْ لك تقريبُ الْجَوَادِ وشَدُّهُ

إذا كنتَ في شكٍّ مِنَ السَّيفِ فابلُهُ ... فإمّا تُنفِّيه(٢) وإمّا تُعِدُّهُ

وَمَا الصارمُ الهنديُّ إلاّ كغيره ... إذا لم يُفَارِقْه النِّجادُ وغِمْدُهُ

ولا بأس(٣) أنْ يتطوَّلَ مولاي بغَرْس الصنيعة في أزكى الترب، ووضع الْهَنَاء موضع النُّقْب(٤)، واللَّه سبحانه يُبْقي مولاي آخذًا بزمام الفخر، ناهضًا بأعباء البِرِّ، مالكًا لأعِنَّةِ الدهر، وصنع اللَّه سبحانه لسيدي أتمّ الصنع وأجمله، وأفضله وأكمله، بِمَنِّهِ لا ربّ سواه، انتهى.

رجع إلى أخبار المنصور الكبير محمد بن أبي عامر، رحمه اللَّه!.

وكُنّا قد ذكرْنا أنّه قبض على الوزير الحاجب المصحفي مع أنه كان أحد أتباعه.

= بني يرى ما لا ترون وذكره ... أغارَ لعمري في البلاد وأنْجَدَا

(١) الأبيات للمتني، وترتيبها هنا مختلف عمّا في الديوان. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٩١ - ٤٩٢).

(٢) هكذا في الديوان وفي الذخيرة. وفي طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «تنافيه».

(٣) في طبعة دار صادر: «ولا غرو».

(٤) في طبعة دار صادر: «مكان النُّقْبِ». الهِناء، بكسر الهاء: القَطِران. النُّقْبُ، بضم النون وسكون القاف وفتحها: القِطَعُ المتفرّقة من الجرب، واحدتها نُقْبة. وأصله من المثل: «يضع الهِناء موضع النُّقْبِ»، يضرب لمن يضع الشيء في موضعه. محيط المحيط (هنأ)، وهو من قول دريد بن الصِّمّة: [الكامل]

مُتبذِّلاً تبدو محاسنُهُ ... يضعُ الهناءَ مواضعَ النُّقْبِ

لسان العرب (نقب).

قـال صاحب كتـاب «روضة الأزهـار، وبهجة النفـوس، ونزهة الأبصار»[١]: ولَمَّـا أَمَـرَ المنصـورُ بن أبي عامـر بسَجْن المصحفي في المُطْبِق بـالزّهـراء[٢] ودَّع أهله[٣] وودَّعوه وَداعَ الفُرْقة، وقال لهم: لستمْ تروني[٤] بعدها حَيًـا، فقد أتى وَقْتُ إجـابة الـدعوة، ومـا كنتُ[٥] أرتقبه منذ أربعين سنة، وذلك أني أشركت[٦] في سَجن رجل في عهد الناصر، وما أطلقتـه إلَّا برؤيا رأيتُها بأن قيل لي: أَطْلِقْ فلانًا فقد أُجِيبَتْ فيك دعوتُـه، فأطلقْتُـه وأحضرْتُـه وسألتُـه عن دَعْـوتـه[٧] عليَّ، فقـال: دعـوتُ على مَنْ شـارك في أمـري أن يمِيتَـهُ اللَّهُ في أضيقِ السجون، فقلت[٨]: إنها قد أجيبت، فإني كنت مِمَّنْ شـارك في أمره، ونـدمْتُ حين لا ينفع الندم، فيروى أنه كتب للمنصور بن أبي عامر بهذه الأبيات[٩]: [البسيط]

هَـبْنِـي أســأتُ فـأين الـعَفْـوُ والـكَـرَمُ ... إذ قـادنـي نَـحْـوَكَ الإذعـانُ والـنَّـدَمُ
يـا خَيْـرَ مَنْ مُـدَّتِ الأيـدي إليـه أمـا ... تـرثـي لشيـخ نَعـاهُ عنـدكَ الـقَـلَمُ؟
بـالغْتَ في السُّخْطِ فَاصْفَحْ صَفْحَ مُقْتَـدِرٍ ... إنَّ الملوكَ إذا مـا اسْتُـرْحِمُـوا رَحِمُـوا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيري: [البسيط]

يـا جـاهـلًا بعـدمـا زَلَّتْ بِـكَ القَـدَمُ ... تَبْغي التكـرُّم لَمَّـا فـاتَـكَ الـكـرَمُ
نـدمـتَ إذا لم تَـعُـدْ مِـنِّـي بـطـائـلةٍ ... وقـلَّمـا يَـنْـفَـعُ الإذعـانُ والـنَّـدَمُ
نفسي إذا جمحتْ لـيسـت بـراجعـةٍ ... ولـو تَشَفَّـعَ فيـك العُـرْبُ والعَجَـمُ

---

(١) لم نهتدِ إلى صاحب هذا الكتاب، ولكن النص ورد في الذخيرة (ق ٤ ص ٦٨). وابن بسام ينقل النص عن ابن حيان. كذلك ورد في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٧٠).

(٢) في طبعتي دار صادر وليدن: «بالمطبق في الزهراء». وفي الذخيرة: «إلى المطبق بالزهراء».

(٣) في الذخيرة: «وَدّع أهله وولده».

(٤) في المصدر نفسه: «تروني».

(٥) في المصدر نفسه: «الدعوة، وأنا أرتقبه».

(٦) في طبعة ليدن: «شـارَكْتُ». وفي الذخيـرة: «أسرفْتُ على فـلان ـ رجـل سُجِنَ بعهـد النـاصـر ـ ومـا أطلقته...».

(٧) «عن دعوته» غير وارد في الذخيرة.

(٨) في الذخيرة: «فَحَلِمْتُ أنها قد أُجِيبَتْ، ونَدِمْتُ بحيث لا تُغْني الندامة...».

(٩) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الأول من نفح الطيب وقد أشرنا هناك إلى المصادر التي وردت فيها هذه الأبيات.

فبقي في المطبق حتى مات، نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم، انتهى.

وقد ذكر بعضهم في هذه الأبيات زيادة حسبما ذكرْناه في غير هذا المحلّ، فإنَّ هذه الأبيات للمنصور، وهذا المؤرخ مصرِّحٌ بأنها لعبد الملك الجزيري، وقد يقال: لا منافاة بينهما، فإنَّ المنصور أجاب بالأبيات، وهل هو قائلها أم لا؟ الأمر أعَمّ، فَبَيِّنَ هنا، والله أعلم.

وقال بعض مؤرخي المغرب[1]: إنَّ الحاجب المصحفي حصل له في هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظَنَّ أنه يَصْدر من مثله، حتى إنه كتب إلى المنصور بن أبي عامر يطلب منه أن يقعد في دهليزه معلِّمًا لأولاده، فقال المنصور بدهائه وحذقه: إن هذا الرجل يريد أن يحطَّ مِنْ قدري عند الناس؛ لأنهم طالما رأوني بدهليزه خادمًا ومسلِّمًا، فكيف يرونه الآن في دهليزي معلِّمًا؟! وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه في غزواته، حتى إنه حكى بعضهم أنه رأى الحاجب المصحفي في ليلة نَهَى المنصورُ فيها الناسَ عن إيقاد النيران تعمية على العدوّ الكافر، وهو ينفخ فحمًا في كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه، أو كما قال، فسبحان مديل[2] الدول، لا إله إلاَّ هو، فإنَّ هذا المصحفي بلغ من الجلالة والعظم والتحكّم في الدولة المدةَ المديدة أمرًا لا مزيد عليه، والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

ولقد ذكر بعض علماء[3] المغاربة أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن أبي عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي. ولم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يتربَّصُون به الدوائر، فغلب سَعْدُه الذي هو المثل السائر، وربما همس بعض الشعراء يهجوه وهجو الدولة جميعًا إذ قال[4]: [السريع]

اقْتَرَبَ الْوَعْدُ وحانَ الهلاكْ ... وكُلُّ ما تحذرهُ[5] قد أتاكْ

(١) أورد ابن عذاري بعضًا من هذا النص في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٦٨).

(٢) مُدِيلُ الدول: هو الله سبحانه، ينقل هذه الدول من حاكم إلى آخر، يقال: دالت له دولةٌ إذا صارت إليه.

(٣) في طبعة دار صادر: «العلماء».

(٤) البيتان في البيان المغرب (ج ٢ ص ٢٨٠).

(٥) في البيان المغرب: «تكرهه».

خليفةٌ يلعبُ[1] في مكتبٍ وأُمُّهُ حُبلَى وقاضٍ يُناكْ

يعني بالخليفة هشامًا المؤيّد لكونه كان صغيرًا، وأمُّه صبح البشكنشية[2] كان الأعداء يتّهمون بها المنصور، وذلك بهتان وزُور، وأفظع منه رَمْيُهم القاضي بالفجور، واللَّه عالم بسرائر الأمور، ونعوذ باللَّه من ألسنة الشعراء الذين لا يراعون إلاًّ ولا ذمّة، ويُطْلقون ألسنتهم في العلماء والأئمّة[3]: [الطويل]

وأظْلَمُ أهلِ الأرضِ مَنْ كان حاسدًا لمن بَاتَ في نَعْمائِهِ يتقلَّبُ

جدير بأن لا يدرك ما يؤمّل ويتطلّب، لأنه يعترض على اللَّه سبحانه في أحكامه، نعوذ باللَّه مِنْ شَرِّ أنفسنا ومِنْ شَرِّ كلِّ ذي شرّ، بجاه نبيِّنا عليه أزكى صلوات اللَّه وأفضل سلامه.

وقد قَدَّمْنا أنَّ المنصور بن أبي عامر كان أولاً يخدم جعفر بن عثمان المصحفي مدبِّر مملكة هشام المؤيد، ويريه النصيحة، وأنه ما زال يَسْتَجْلب القلوبَ بجوده وحسن خُلْقه، والمصحفي ينفِّرها ببخله وسوء خُلْقه، إلى أن كان من أمره ما كان، فاستولى على الحجابة، وسَجَنَ المصحفي، وفي ذلك يقول المصحفي[4]: [الطويل]

غَرَسْتُ قضيبًا خِلْتُهُ عُودَ كَرْمَةٍ وكنْتُ عليه في الْحَوَادِثِ قَيِّمَا
وأُكْرِمُه دَهْرِي فَيَزْدادُ خُبْثُهُ ولو كان من أصلٍ كريمٍ تكرَّمَا[5]

ولَمَّا يئس المصحفي من عفو المنصور قال[6]: [الكامل]

لي مُدَّةٌ لا بُدَّ أبْلُغُها فإذا انْقَضَتْ أيامُها مُتُّ

---

(١) في المصدر نفسه: «يَحْضُرُ».
(٢) في طبعة دار صادر: «البشكنسية».
(٣) أورد محقق طبعة دار صادر بعض هذا البيت الشعري نثرًا بقوله: «ومن كان حاسدًا لمن بات في نعمائه يتقلّب، جدير...»، وعلّق عليه بقوله: أخذه من قول الشاعر، وأورد البيت كله: «وأظلم... يتقلّب».
(٤) البيتان في الذخيرة (ق ٤ ص ٧٠).
(١) رواية البيت في الذخيرة هي:
أُكَرِّمُهُ دهري فيزدادُ خِسَّةً ولو كان من عُودٍ كريمٍ تَكَرَّما
(٦) الأبيات في الذخيرة (ق ٤ ص ٧٠) والحلة السيراء (ج ١ ص ٢٦٧).

لــو قَــابَــلَتْــنِــي الأَسْــدُ ضَــارِيــةً والـمَــوْتُ لم يـقــرب[1] لَمَــا خِـفْـتُ
فــانــظر إلــيَّ وكُــنْ عــلى حَــذرٍ في مِثْــلِ[2] حــالِـكِ أمسِ قَـدْ كُنْتُ

ومن أحسن ما نَعَى به نفسه قولُه حسبما تقدّم[3]: [الطويل]

صَبَــرْتُ عـلى الأيــام حــتى تَــوَلَّــتِ وأَلْــزَمْتُ نَفْسي صَبْــرَهــا فــاسْتَمَــرَّتِ
فــواعَــجَبــا لــلقَلْبِ كـيـف اعْتِــرَافُــهُ ولـلنَّفْس بَـعْـدَ العِــزِّ كـيف آسْتَــذَلَّـتِ
ومــا الـنَّفْسُ إلاَّ حـيثُ يَـجْعَـلُهَــا الفَـتَى فــإنْ طَـمِـعَـتْ مــاتـت وإلاَّ تَـسَــلَّـتِ
وكــانَـتْ على الأيــام نَـفْسِـي عــزيــزَةً فـلمَّــا رأتْ صَبْــرِي عـلى الــذُّلِّ ذَلَّـتِ
فَقُلْتُ لهــا يــا نَفْسُ، مُــوتـي كــريمــةً وقــد كــانـتِ الــدنيــا لـنــا ثُمَّ وَلَّـتِ

وأنشد له الفتح في المطمح، ونسبهما غيره لأحمد بن الفرج صاحب الحدائق[4]: [الخفيف]

كَــلَّمَـتْـنِي فــقُــلْتُ: دُرٌّ سَــقِـيطٌ فتــأَمَّلْتُ[5] عِـقْــدَهَــا هَــلْ تَنَــاثَــرْ
فــازْدَهــاهَــا تَــبَــسُّــمٌ فــأرَتْــنِــي نَــظْمَ دُرٍّ مِــنَ التَّــبَــسُّــمِ آخــر[6]

ولــه كَمـا مَــرَّ[7]: [الكامل]

صفراء تُطْرِقُ في الـزجاج، فـإنْ سَرَتْ فــي الجـسم دَبَّـتْ مـثــل صِــلٍّ لادِغِ
خَـفِيَـتْ على شُــرّابـهــا فـكــأنّــمــا يَــجِــدُون رِيًّــا مِــن إنــاء فــارغِ

---

(١) في الذخيرة: «لم يَدْنُ»، وفي الحلة السيراء: «لم يُقْدَرْ».
(٢) في الذخيرة: «فبمثل».
(٣) تقدّمت في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٢٨).
(٤) البيتان لم يوردهما ابن خاقان في مطمح الأنفس، وهما في كتاب التشبيهات (ص ١٤٤) لأحمد بن فرج، وفي الحلة السيراء (ج ١ ص ٢٦٠) ينسبهما ابن الأبار إلى المصحفي، ثم يقول: ويروى الشعر لغيره، وهما في المرقصات والمطربات (ص ٧٦) للمصحفي.
(٥) في المرقصات والمطربات: وتأمّلْتُ.
(٦) في الحلة السيراء: «وازدهاها تَبَسُّمٌ فأَرَتْنا عِقْدَ. . .». وفي التشبيهات: «عِقْد دُرّ».
(٧) تقدم البيتان في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٢٩) وأشرنا هناك إلى المصادر الأخرى التي وردا فيها.

ولــه: [السريع]

يــا ذا الــذي أوْدَعَــنِـي سِــرَّهُ لا تَــرْجُ أنْ تَــسْــمَــعَــه مِــنِّــي
لــم أجْــرِ بَــعْــدَكَ فـي خــاطِـرِي كــأنــه مــا مَــرَّ فــي أُذْنِــي

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات[1]: [الطويل]

سألْتُ نُجومَ الليلِ: هل يَنْقَضِي الدُّجى؟ فَخَـطَّتْ جـوابًـا بـالثُّـرَيَّـا كَخَطِّ «لا»
وكــنْـتُ أرى أنــي بــآخِـرِ لـيـلـتي[2] فــأُطْـرِقُ حــتــى خِـلْـتُـهُ عــادَ أوَّلا
ومــا عَنْ هَـوًى ســامَــرْتُهــا، غيــر أنني أُنــافِسُهـا المَجْــرَى إلى طُـرُقِ العُــلا[3]

رجع ـ وكان كما تقدَّم بقُرْطُبة المصحفُ العثماني، وهو متداول[4] بين أهل الأندلس، قالوا: ثم آل أمره إلى الموحِّدين، ثم إلى بني مَرِين، قـال الخطيب بن مـرزوق[5] في كتابه «المسند الصحيح الحسن» ما مُلَخَّصُهُ: وكـان السلطان أبو الحسن لا يسـافر مـوضعًا[6] إلاَّ ومعه المصحف الكريم العثماني، وله عنـد أهل الأنـدلس شأن عـظيم، ومقام كبيـر، وكيف لا؟ قال ابن بَشْكُوال: أُخْرِجَ هذا المصحفُ منها[7] ـ أي قرطبة ـ وغُرِّبَ منهـا وكان بجـامعها الأعظم، ليلة السبت حادي عشر شوّال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة في أيام أبي محمد[8]

---

(١) يقصد بصاحب بدائع التشبيهات الشيخ أبـا عبد الله محمـد بن الكتاني الـطبيب المتوفَّى سنـة ٤٢٠ هـ. وكتـابه هـو «كتاب التشبيهـات من أشعار أهـل الأندلس». والبيتـان الأول والثالث في كتـاب التشبيهـات (ص ٢٠)، والثلاثة في الحلة السيراء (ج ١ ص ٢٥٩).

(٢) في الحلة السيراء: «ليلةٍ».

(٣) في الحلة السيراء: «رُتَبِ» بدل «طُرُقِ». وفي كتاب التشبيهات: «وما عن جَوى... رُتَبِ العلا».

(٤) في طبعة ليدن: «وهو متواتر عند أهل...».

(٥) هو شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن محمـد بن مرزوق؛ فقيـه خطيب، من أعيـان تلمسان، ومن كبـار رجالات دولـة بني مرين. تـوفي سنة ٧٨١ هـ. الأعـلام (ج ٥ ص ٣٢٨، ومصادر حـاشيته). وسيترجم له المقري ترجمة طويلة في الجزء السابع.

(٦) كلمة «موضعًا» ساقطة في طبعة دار صادر.

(٧) في طبعة دار صادر: «المصحف من قرطبة وغُرِّب»

(٨) أبو محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي مؤسِّسُ دولة الموحدين في المغرب وإفريقية والأنـدلس، توفي سنة ٥٥٨ هـ. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٢٣٧) والمن بالإمامة (ص ١٢٠ ـ ٢٢٠) والحلل الموشية (ص ١٠٧ ـ ١١٩).

عبد المؤمن بن علي وبأمره، وهذا أحد المصاحف الأربعة التي بعث بها عثمانُ رضي اللَّه تعالى عنه إلى الأمصار: مكّة، والبصرة، والكوفة، والشام. وما قيل إنَّ فيه دم عثمان هو بعيدٌ، وإنْ يكن أحدها فلعله الشامي، قاله ابن عبد الملك.

قال أبو القاسم التجيبي السبتي: أما الشامي فهو باقٍ بمقصورة جامع بني أمية بدمشق المحروسة، وعاينْتُه هناك سنة ٦٥٧، كما عاينْتُ المكي بقبّة اليهودية، وهي قبّة التراب، قلْتُ[١]: عاينتها[٢] مع الذي بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيهما[٣]، قال النخعي: لعلّه الكوفي أو البصري. وأقول: اختبرت الذي بالمدينة والذي نقل من الأندلس فألفيتُ خَطَّهما سواء، وما توهّموه[٤] أنه خطه بيمينه فليس بصحيح، فلم يخطَّ عثمان واحدًا منها، وإنّما جمع عليها بعضًا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدني، ونَصُّ ما على ظهره: هذا ما أجمع عليه جماعة من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، منهم زيد بن ثابت وعبد اللَّه بن الزبير وسعيد بن العاصي، وذكر العدد الذي جمعه عثمان رضي اللَّه تعالى عنه من الصحابة رضي اللَّه تعالى عنهم على كَتْب المصحف، انتهى.

واعتنى به عبد المؤمن بن علي، ولم يزل الموحّدون يحملونه في أسفارهم متبرّكين به، إلى أن حمله المعتضد وهو السعيد علي[٥] بن المأمون أبي العلاء إدريس بن المنصور، حين توجّه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥، فَقُتِلَ قريبًا من تلمسان، وقُدِّمَ ابنه إبراهيم، ثم قتل، ووقع النهب في الخزائن، واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر، ونهب المصحف ولم يُعْلَمْ مُسْتَقَرُّهُ، وقيل: إنه في خزانة ملوك تلمسان، قلت: لم يزل هذا المصحف في الخزانة إلى أن افتتحها إمامنا أبو الحسن[٦] أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧، فظفر به وحصل

---

(١) القول هنا لابن مرزوق.

(٢) في طبعة دار صادر: «عاينتهما».

(٣) في طبعة دار صادر: «فيها».

(٤) في طبعة دار صادر: «وما توهّموا». وفي طبعة ليدن: «وما توهّموا من أنه خطّ».

(٥) المعتضد باللَّه السعيد أبو الحسن علي بن المأمون أبي العلاء إدريس بن يعقوب المنصور، من خلفاء الموحدين بمرّاكش. بويع بعد وفاة أخيه الرشيد سنة ٦٤٠ هـ، وقُتل بظاهر تلمسان في معركة مع بني مرين سنة ٦٤٦ هـ. اللمحة البدرية (ص ٤٦).

(٦) هو أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، صاحب المغرب، وقد تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

عنده إلى أن أصيب في وقعة طريف[1]، وحصل في بلاد برتقال، وأعمل الحيلة في استخلاصه، ووصل إلى فاس سنة ٧٤٥ على يد أحد تجار أُزُمُّورَ[2]، واستمرّ بقاؤه في الخزانة، انتهى باختصار.

واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء، كما ذكره ابن رُشَيد[3] في رحلته، ولا بأس أن أذكر كلامه بجملته، والرسالة في شأن المصحف لِمَا فيها من الفائدة، ونَصُّ محلّ الحاجة منه: أنشدني الخطيب أبو محمد بن بُرْطَلَة من لفظه وكتبته من خَطِّه، قال: أنشدني الشيخُ الفقيهُ القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن كاتب الخلافة أبي عبد اللَّه بن عياش لأبيه رحمهم اللَّه تعالى مِمَّا نظمه، وقد أمر أمير المؤمنين المنصور بتحلية المصحف: [الطويل]

وَنَفَّلْتَه مِنْ كلِّ مَلْكٍ ذخيرةً ... كأنهمُ كانوا بِرَسْمِ مكاسِبِهْ
فإنْ وَرِثَ الأملاكَ شَرْقًا ومَغْرِبًا ... فكم قَدْ أَخَلُّوا جاهلين بواجِبِهْ
وكيف يفوتُ النصرُ جيشًا جعلْتَهُ ... أمامَ قَنَاهُ في الْوَغى وقَواضِبِهْ
وأَلْبَسْتَهُ الياقوتَ والدُّرَّ حِلْيَةً ... وغَيرُكَ قد روّاه مِنْ دم صاحِبِهْ[4]

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الأمر في وصوله إلى الخليفة أمير المؤمنين عبد المؤمن، وما أبدى في ذلك من الأمور الغريبة التي لم يُسْمع بمثلها في سالف الدهر، حسبما أَطْرَفَنَا الوزير الأجل أبو زكرياء يحيىٰ بن أحمد بن يحيىٰ بن محمد بن عبد الملك بن طُفَيل القيسي حفظه اللَّه تعالى وشكره، مِمَّا استفاده وأفاده لنا مِمَّا

(١) هي وقعة شهيرة كانت بمدينة طريف بالأندلس يوم الاثنين السابع لجمادَى الأولى من العام ٧٤١ هـ، بين أبي الحسن المريني وطاغية الروم ألفنش بن هرانده، وقد غُلب فيها أبو الحسن وأسرع اللحاق بالمغرب مغلولاً صابرًا يروم الكَرّة. اللمحة البدرية (ص ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) وردت أُزُمُّور في معجم البلدان (ج ١ ص ١٦٩): أَزْمُورَة، وهي بلد بالمغرب في جبال البربر.

(٣) هو محب الدين أبو عبد اللَّه محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهري السبتي، رحّالة وعالم باللغة والأدب والعروض والحديث والتاريخ. ولد بسبتة ووُلّي الخطابة بالمسجد الجامع بغرناطة، ومات بفاس سنة ٧٢١ هـ. صنَّف رحلة سمَّاها «مِلْء العيبة فيما جُمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة» وهي ست مجلدات. بغية الوعاة (ص ٨٥).

(٤) يشير إلى الذين حاصروا أمير المؤمنين عثمان بن عفّان يوم الدار وقتلوه وهو يقرأ القرآن، فخضّبوا المصحف بدمه.

لم نسمع به قبل، عن كتاب جدِّه الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طُفَيل[1] المذكور، مما تضمَّنه من وصف قصة المصحف، فقال: وصل إليهم أدام اللّه سبحانه تأييدهم قمرًا الأندلس النَّيِّران، وأميراها الْمَتَخيِّران، السَّيِّدان الأجلّان أبو سعيد وأبو يعقوب أيّدهما اللّه، وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفّان رضي اللّه تعالى عنه، وهو الإمام الذي لم يختلف فيه مختلف، وما زال ينقله خلف عن سلف، وقد حفظ شخصه على كثرة المتناولين، وذَخَرَه اللّه لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين، وله من غرائب الأنباء ومتقدّم الإشعار بما آل إليه أمره من الإيماء ما ملئت به الطروس، وتحفظه من أهل الأندلس الرائس والمرؤوس فَتُلُقِّيَ عند وصوله بالإجلال والإعظام، وبُودِرَ إليه بما يجب من التبجيل والإكرام، وعُكِفَ عليه أطول العكوف والْتُزِمَ أشدَّ الالتزام، وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لأولي الألباب، وبلاغ في الإغراب والإعجاب، وذلك أنَّ سيِّدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين، أدام اللّه له عوائد النصر والتمكين، كان قبل ذلك بأيام قد جرى ذكره في خاطره الكريم، وحَرَّكَتْه إليه دواعي خُلقه العظيم، وتراءى مع نفسه المطمئنَّة المرضيّة، وسجاياه الحسنة الرضيّة، في معنى اجتلابه من مدينة قُرْطُبة محمل مَثْوَاه القديم، ووطنه الموصل بحرمته للتقديم، فتوقّع أن يتأذّى أهلُ ذلك القطر بفراقه، ويستوحشوا لفقدان إضاءته في أُفقهم وإشراقه، فتوقّف عن ذلك لِمَا جُبِل عليه من رحمته وإشفاقه، فأوصله إليه تحفة سنيّة، وهديّة هنيّة، وتحيّة من عنده مباركة زكيَّة، دون أن يكدرها من البشر اكتساب، أو يتقدّمها استدعاء أو اجتلاب، بل أوقع اللّه سبحانه وتعالى في نفوس أهل ذلك القطر من الفرح بإرساله إلى مستحقّه، والتبرّع به إلى القائم إلى اللّه تعالى بحقّه، ما اطّلع بالمشاهدة والتواتر على صحّته وصدقه، وعضدت مخايلَ بَرْقه سواكبُ وَدْقه، وكان ذلك من كرامات سيِّدنا ومولانا الخليفة معدودًا، وإلى أمره الذي هو أمر اللّه مردودًا، وجمع عند ذلك بحضرة مراكش ـ حرسها اللّه تعالى! ـ سائر الأبناء الكرام، والسادة الأعلام، بُدُور الآفاق، وكواكب الإشراق، وأهل الاستئهال للمقامات الرفيعة وذوو الاستحقاق، فانتظم عند ذلك هذا القصد مشيرًا إلى اجتماع هذه الدراري

---

(١) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي فيلسوفٌ، وطبيب السلطان أبي يعقوب يوسف الموحدي، وصاحب القصة الفلسفية «حي بن يقظان». توفي بمرّاكش سنة ٥٨١ هـ. الأعلام (ج ٦ ص ٢٤٩ ومصادر حاشيته).

الزّاهرة، والتئام خطوطها على مركز الدائرة، ووصول المتقدّم ذكره، المشهور في جميع المعمور أمره، وهو هذا: [الطويل]

دَراريُّ مِنْ نُورِ الهُدَى تَتَوَقَّدُ ... مَطالِعُها فوق المَجَرَّةِ أَسْعُدُ
وأنهارُ جُودٍ كلّما أَمْسَكَ الحَيَا ... يمدُّ بها طامي الغَوارب مُزْبِدُ[1]
وآسادُ حَرْبٍ غابُها شَجَر القَنَا ... ولا لِبَدُ[2] إلاَّ العَجاجُ المُلَبَّدُ
مَساعِيرُ في الهَيْجا مَساريعُ للنَّدَى ... بأيديهِمُ يُحْمَى الهَجيرُ ويَبْرُدُ
تَشُبُّ بهِمْ نارانِ للحرب والقِرَى ... ويَجْري بهم سَيلانِ جيشٌ وعَسْجَدُ
ويَسْتَمْطِرُونَ البَرْقَ عندهمْ ... سيوفٌ على أُفق العُداة تُجَرَّدُ
إذا عَنَّ[3] سجف الساريات مضاؤها ... فما الذي يُغْني الحديدُ المُسَرَّدُ
ويسترشدون النَّجْمَ والنَّجْمُ عندهم ... نُصُولٌ إلى حَبِّ القلوب تُسَدَّدُ
تَزَاحَمُ في جَوِّ السماء كأنّما ... عَوَامِلُهَا[4] في الأفْقِ صَرْحٌ مُمَرَّدُ
تَخَازَرُ ألحاظُ الكواكب دُونَها ... ويَفْرَقُ منها المِرْزَمانِ وفَرْقَدُ[5]
ألم تَرَها في الأفْق خافقَةَ الْحَشَا ... كما تطرف العينان والقَلْبُ يُزْأَدُ[6]
وليس احْمرارُ الفَجْرِ مِنْ أَثَرِ السَّنَا ... ولكنَّهُ ذاكَ النَّجِيعُ المُوَرَّدُ
وما انبسَطَتْ كَفُّ الثريَّا فَدَافَعَتْ ... ولكنَّها في الْحَرْب شِلْوٌ مُقَدَّدُ
وحطّ سُهَيلاً ذُعْرُهُ عن سَمِيِّهِ ... فأضْحَى على أفْقِ البسيطة يُرْعَدُ
ولَمَّا رأى نَسْرٌ وقوعَ أَلِيفِهِ ... تطايَرَ مِنْ خَوفٍ فما زال يَجْهَدُ
مواقعُ أمرِ اللَّه في كلِّ حالةٍ ... يكادُ لها رأسُ الثَّرَى يَتَمَيَّدُ
أَهَابَ بأقْصَى الخافِقَينِ فَنَظَّمَتْ ... وهَيَّبَ جَمْعَ المخفقين فَبُدِّدُوا

---

(١) الحَيَا: المطر. الطامي: النهر؛ يقال: طَمَى الماءُ النهرَ إذا ارتفع وملأه. الغوارب: جمع غارب وهو أعالي الموج. لسان العرب (حيي) و(طما) و(غرب).
(٢) في طبعتي دار صادر وليدن: «لُبْدة».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «منَّ».
(٤) العوامل: جمع عامل، وعامل الرمح: صدره وهو ما يلي السِّنان. محيط المحيط (عمل).
(٥) تخازَرُ: أي تتخازر؛ يقال: تخازر الرجل إذا ضيَّق جفنه ليحدّد النظر. يَفْرَقُ: يخاف. المِرْزمان نجمان. الفَرْقَدُ: نجمٌ يُهْتَدَى به. محيط المحيط (خزر) و(فرق) و(رزم) و(فرقد).
(٦) يُزْأَدُ: يُذْعَرُ. محيط المحيط (زأد).

وأضْفَى على الدنيا ملابِسَ رحمةٍ   نَضَارتُهَا في كلِّ حينٍ تَجَدَّدُ
وأخضَل أرْجاءَ الرُّبَا فكأنما   عليها من النَّبْتِ النضيرِ زَبَرْجَدُ
فمن طَرَب ما أصبح البَرْقُ باسمًا   ومِنْ فَرَح ما أضحت المُزْنُ تُرْعَدُ
وغَنَّى على أفنان كلِّ أراكةٍ   غذاهَا حَيَا النُّعْمىٰ حَمامٌ مُغَرِّدُ
وكَبَّرَ ذو نُطْقٍ وسَبَّحَ صامِتٌ   وكاد بهِ المعدوم يُحْيَا ويُوجَدُ
وأبرز للأذهان ما كان غائبًا   فسِيَّان فيها مُطْلَقٌ ومُقَيَّدُ
سلامٌ على المَهْدِيِّ، أمَّا قضاؤه   فَحَتْمٌ، وأمّا أمْرُهُ فمؤكَّدُ
إمام الوَرَى عَمَّ البسيطةَ عَدْلُهُ   على حين وَجْهُ الأرض بالجَورِ أرْبَدُ(١)
بَصِيرٌ رأى الدنيا بعَينٍ جَلِيَّةٍ   فَلَمْ يُغْنِهِ إلاّ المقامُ المُمَجَّدُ
ولَمَّا مَضى والأمرُ للَّه وَحْدَهُ   وبُلِّغَ مأمولٌ وأُنْجِزَ مَوعِدُ
تَرَدَّى أميرُ المؤمنين رداءَهُ   وقامَ بأمر اللَّه والناسُ هُجَّدُ
بعَزْمةِ شَيْحَانِ(٢) الفؤادِ مُصَمِّمٍ   يقومُ به أقضى الوُجودِ ويَقْعُدُ
مَشِيئَتُهُ ما شاءه اللَّه، إنه   إذا هَمَّ فالحكمُ الإلَهِيُّ يُسْعِدُ
كتائبُه مَشْفُوعَةٌ بمَلاَئِكٍ   تُرَادِفُهَا(٣) في كل حالٍ وتُرْفَدُ
وما ذاكَ إلاّ نِيَّةٌ خَلَصَتْ لَهُ   فليس له فيما سِوَى اللَّه مَقْصِدُ
إذا خَطَبَتْ راياتُه وَسْطَ محفلٍ   تَرَى قِمَمَ الأعداء في التُّرْبِ تَسْجدُ
وإنْ نَطَقَتْ بالفصلِ فيهمْ سُيوفُه   أقرَّ بأمرِ اللَّهِ مَنْ كان يَجْحَدُ
مُعِيدُ علومِ الدِّينِ بعد ارتفاعِهَا   ومُبْدِي علومٍ لم تكن قَبْلُ تُعْهَدُ
وباسطُ أنوارِ الهدايةِ في الوَرَى   وقد ضَمَّ قُرْصَ الشمسِ في الغرب مَلْحَدُ
وقد كان ضوءُ الشمسِ عند طُلُوعِها   يُغانُ بأكنانِ الضلالِ ويُغْمَدُ(٤)
فما زال يَجْلو عن مطالعها الصَّدا   ويُبْرِزُها بيضاءَ والجَوُّ أسْوَدُ
جَزَى اللَّه عن هذا الأنام خليفةً   به شربوا ماء الحياة فَخُلِّدُوا

---

(١) الأَرْبَدُ: المائل لونه إلى الغُبْرة. محيط المحيط (ربد).
(٢) الشَّيْحانُ: الحازم، وشَيحان الفؤاد: قويُّ الفؤاد. محيط المحيط (شيح).
(٣) تُرادِفُها: تتبعها وتكون لها رَدِيفًا. محيط المحيط (ردف).
(٤) يُغانُ: يُغَطَّى؛ يقال: غِينَ على قلبه إذا غُطِّي عليه أو غُشِيَ عليه. الأكنان: جمع كِنّ وهو السِّتْرُ. محيط المحيط (غين) و (كنن).

وحَيَّاهُ ما دامتْ محاسِنُ ذكرهِ … على مَدْرَجِ الأيام تُتْلَى وتُنْشَدُ
لِمُصْحَفِ[1] عُثمانَ الشهيدِ وجمعه … تَبَيَّنَ أنَّ الحَقَّ بالحَقِّ يُعْضَدُ
تحامَتْهُ أيدي الروم بَعْدَ انْتسافِهِ … وقد كاد لولا سَعْدُهُ يَتَبَدَّدُ
فما هو إلاَّ أنْ تَمَرَّس صارخٌ … بدعوته العَلْيا فَصِينَ المُبَدَّدُ
وجاء وليُّ الثأرِ يرغبُ نَصْرَهُ … فَلَبَّاهُ منه عَزْمُهُ المُتَجَرِّدُ
رأى أَثَرَ المسفوحِ في صَفَحاته … فقام لأخذ الثأر منه مؤيَّدُ
وشبَّهه بالبَدْرِ وَقْتَ خُسُوفِهِ … فللَّه تَشْبِيهُ له الشَّرْعُ يَشْهَدُ[2]
زمان ارتفاع العلم كانَ خسوفه … وقد عادَ بالمهديِّ والعَودُ أَحْمَدُ
أَتَتْكَ أميرَ المؤمنين أَلُوكَةُ[3] … من الحرم الأقصى لأمرك تَمْهَدُ
سيوفُ بني عيلانَ قامتْ شهيرةً … لدعوتك العلياء تَهْدِي وتُرْشِدُ
وطافتْ ببيت اللَّه فاشتدَّ شَوقُهُ … إليك ولَبَّى منه حِجْرٌ ومَسْجِدُ
وحَجَّ إلَيكَ الركنُ والمَروُ والصَّفا … فأنت لذاك الحَجِّ حَجٌّ ومَقْصِدُ
مَشاعِرُها الأجسامُ والروحُ أمركمْ … ومنكمْ لها يرضى المقام[4] المخلَّدُ
فللَّه حجٌّ واعتمارٌ وزَوْرَةٌ … أَتَتْنا ولم يَبْرَحْك بالغرب مَشْهَدُ
وللَّه سَبْعٌ نَيِّراتٌ تقارنَتْ … بها فِئَةُ الإسلام تُحْمىٰ[5] وتسعدُ
إذا لم يكنْ إلَّافِنَاءَكَ عصمةٌ … فماذا الذي يرجو القصيُّ المُبَعَّدُ
فَدُمْ للوَرَى غَيثًا وعِزًّا ورَحْمَةً … فقُرْبُكَ في الدارَينِ مُنْجٍ ومُسْعِدُ
وزادتْ بك الأعيادُ حُسْنًا وبهجةً … كأنك للأعياد زِيٌّ مُجَدَّدُ
ولا زِلْتَ للأيام تُبْلي جديدَها … وعُمْرُكَ في ريعانِهِ ليس يَنْفَدُ

ثم إنهم أدام اللَّه سبحانه تأييدهم، ووصل سعودهم، لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور، واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير[6]،

(١) في طبعة دار صادر: «بمصحف».
(٢) في طبعة بولاق: «قبل خسوفه. . . وبه الشَّرْعُ يَشْهَدُ».
(٣) الأَلُوكَةُ: الرسالة. محيط المحيط (ألك).
(٤) في طبعة دار صادر: «البقاء».
(٥) في طبعة بولاق: «تحيا».
(٦) التَّعْزِيرُ: التوقير والتعظيم. مختار الصحاح (عزر).

شرعوا في انتخاب كسوته، وأخذوا في اختيار حليته، وتأنّقوا في استعمال أحفظته، وبالغوا في استجادة أصْوِنته[1]، فحشروا له الصُّنَّاعَ المتقنين والمَهَرَةَ المتفنِّنين، مِمَّنْ كان بحضرتهم العليَّة، أو سائر بلادهم القريبة والقَصِيَّة، فاجتمع لذلك حُذَّاق كل صناعة، ومَهَرَة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين[2] والنقَّاشين والمرصِّعين والنجّارين والزواقين والرسّامين والمجلّدين وعُرفاء البنّائين، ولم يَبْقَ مَنْ يُوصَفُ ببراعة، أو يُنْسَبُ إلى الحذق في صناعة، إلاَّ أُحْضِر للعمل فيه، والاشتغال بمعنى من معانيه، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة، وأشكال مُبْتَدَعَة، وضَمَّنوها من غرائب الحركات، وخَفِيِّ إمداد الأسباب للمسبّبات، ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم، واستفرغوا فيه جَهْدَ قوّتهم، والهمّة العليّة أدام اللّه سموّها تترقّى فوق معارجهم[3] وتتخلّص كالشّهاب الثاقب وراء موالجهم[4]، وتنيف على ما ظنّوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم، فسلكوا من عمل هذه الأمثلة كل شِعْب[5]، ورأبوا من منتشرها كل شَعْب، وأشرفوا عند تحقيقها وإبراز دقيقها على كل صَعْب، فكانت منهم وقفة كادت لها النّفس تيأس عن مَطْلَبها، والخواطر تكرُّ راجعةً عن خَفيٍّ مذهبها، حتى أطلع اللّه خليفته في خلقه، وأمينه المرتضى لإقامة حَقِّه، على وجهٍ انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها[6]، وتخلَّصت أشكالُها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها، ألقوا ذلك - أَيَّدَهُم اللّهُ بنصره، وأمدّهم بمعونته ويُسْره! - إلى المهندسين والصُّنّاع فقبلوه أحسن القَبُول، وتصوّروه بأذهانهم فرأوه على مطابقة المأمول، فَوَقَفَهُمْ حسنُ تنبيهه مِمّا جعلوه على طَور غريب من موجبات التعظيم، وعلموا أن الفضل للّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم.

وسيأتي بعد هذا إشارة إلى تفصيل تلك الحركات المسْتَغْرَبَة، والأشكال المُونِقة المُعجبة، إن شاء اللّه تعالى؛ ممَّا صنع للمصحف العظيم من الأصْوِنة الغريبة، والأحفظة

---

(١) الأَصْوِنَةُ: جمع صَوان وهو ما يُحْفَظُ فيه الشيء ويُصان. محيط المحيط (صون).

(٢) الحلاؤون: صانعو الحلي.

(٣) المعارج: جمع مِعْراج وهو السُّلَّم، ومنه ليلة المِعْرَاج. مختار الصحاح (عرج).

(٤) المَوَالِجُ: جمعَ مَولِج وهو المدخل. محيط المحيط (ولج).

(٥) الشِّعْبُ، بكسر الشين: الطريق في الجبل. والشَّعْبُ، بفتح الشين: الصَّدْعُ. ورأبوا الصَّدْع: أصلحوه. محيط المحيط (شعب) و (رأب).

(٦) الاعتياص: الصعوبة؛ يقال: اعتاص الأمر إذا صعب. لسان العرب (عيص).

العجيبة، أنه كُسِيَ كلّه بِصِوّان واحد من الذهب والفِضّة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه، لا يشبه بعضها بعضًا، قد أُجْرِيَ فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يُعْهَدْ له في العصر الأول مثال، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال، وله مَفَاصل تجتمع إليها أجزاؤه وتلتئم، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم، قد أَسْلَسَتْ للتحرّك أعطافُها، وأُحْكم إنشاؤها على البُغْية وانعطافُها، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدُّرِّ وعظيم الزُّمُرُّد ما لم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس في أفراده وتتوارثه على مرور الزمن وتَرْدَاده، وتظنّ العزّ الأقعس[1]، والملك الأنفس، في ادّخاره وإعداده، وتسمي الواحدَ منها بعد الواحد بالاسم لشذوذه في صنعه واتّحاده، فانتظم عليه منها ما شاكله زُهْرُ الكواكب في تلألئه واتّقاده، وأشبهه الروض المزخرف غبَّ سماءٍ أقلعت عن إمداده، وأتى هذا الصِّوانُ الموصوف رائق المنظر، آخذًا بمَجَامع القلب والبصر، مستوليًا بصُورَته الغريبة على جميع الصُّوَر، يُدْهش العقول بَهاء، ويحيّر الألباب روَاء[2]، ويكاد يُعْشي النّاظر[3] تألُّقًا وضياء، فحين تَمَّتْ خِصالُه، واستركبتْ أوصالُه، وحان ارتباطُه بالمصحف العظيم واتّصاله، رَأَوْا ـ أدام اللّه تأييدهم، وأعلى كلمتهم! ـ مِمّا رزقهم اللّه تعالى من ملاحظة الجهات، والإشراف على جميع الثنيات، أن يُتَلَطَّفَ في وجه يكون به هذا الصِّوان المذكور طورًا متصلاً، وطورًا منفصلاً، ويتأتّى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذّلاً وتارة للعموم متجمّلاً، إذ مَعَارج الناس في الاستبصار تختلف، وكلٌّ له مقام إليه ينتهي وعنده يقف، فعمل فيه على شاكلة هذا المقصد، وتلطّف في تتميم هذا الغرض المعتمد، وكسي المصحف العزيز بِصِوَانٍ لطيفٍ مِنَ السندسِ الأخضرِ، ذي حلية عظيمة[4] خفيفة تلازمه في الغيب والمحضر، ورُتِّبَ ترتيبًا يتأتّى معه أن يُكْسَى بالصِّوان الأكبر، فيلتئم به التئامًا يغطّي على العين من هذا الأثر، وكَمُلَ ذلك كلُّه على أجمل الصفات وأحسنها، وأبدع المذاهب وأتقنها، وصُنع له محمل غريب الصنعة، بديع الشكل والصبغة[5]، ذو مفاصل ينبو عن دقّتها الإدراك، ويشتدّ بها الارتباط بين المفصلين ويصحّ الاشتراك، مُغْشًّى كلُّه بضروب من

(١) العِزُّ الأقعس: الثابت. محيط المحيط (قعس).

(٢) الرُّواء، بضم الراء: حُسْنُ المنظر. مختار الصحاح (رأى).

(٣) يُعْشي الناظرَ: يجعله أعشى، والأعشى هو من ساء بصره أو عمي. محيط المحيط (عشي).

(٤) كلمة «عظيمة» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٥) في طبعة دار صادر: «والصيغة».

الترصيع، وفنون من النقش البديع، في قطع من الآبنوس والخشب الرفيع، لم تُعْمَلْ قطُّ في زمـان من الأزمان، ولا انتهتْ قَطُّ إلى أيسـره نَوَافـذُ الأذهان، مُـدَار بصنعـة قـد أجـريت في صفائح الذهب، وامتدَّتِ امتـدادَ ذوائب الشُّهب، وصُنع لـذلك المحمـل كرسيٌّ يحمله عنـد الانتقال، ويشاركه في أكثر الأحوال، مرصَّـع مثل تـرصيعه الغـريب، ومُشاكـل له في جـودة التقسيم وحُسْن الترتيب، وصنع لذلك كلّه تابوت يحتوي عليه احتواء المِشْكاة على أنوارها، والصدور على محفوظ أفكارها، مكعّب الشكـل سامٍ في الـطول، حسن الجملة والتفصيل، بالغ ما شاء من التتميم في أوصاله والتكميـل، جارٍ مجـرى المحمل في التـزيين والتجميل، وله في أحد غـوَاربه بـابٌ رُكِّبَتْ عليه دفّتَـان قد أُحْكِمَ ارتتـاجهما[١]، ويسـر بعد الإبهـام[٢] انفراجهما، ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه، وتـركب المحمل عليـه، ما دبّرت الحركـات الهندسيـة، وتلقيت تلك التنبيهات القـدسية، وانتـظمت العجائب المعنـويّة والحسيّة، والتأمت الـذخائـرُ النفيسةُ والنفسيّـة، وذلك أنَّ بـأسفل هـاتين الدَّفْتَينِ فَيصَـلاً فيه موضع قد أُعِدَّ له مفتاح لطيف يدخل فيه، فإذا أُدْخِل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتـح الباب بانعطاف الدفتين إلى داخل الدفتين من تلقـائهما، وخـرج الكرسي من ذاتـه بما عليـه إلى أقصى غايته، وفي خـلال خروج الكـرسي يتحرّك عليـه المحمل حـركة منتـظمة مقتـرنة بحركته يأتي بها من مؤخّر الكرسيّ زحفًـا إلى مقدمـه، فإذا كمـل الكرسيّ بـالخروج وكمـل المحمل بالتقدّم عليه انغلق البابُ برجوع الدفّتين إلى موضعهما من تلقائهما دون أن يمسّهما أحدٌ، وترتّبت هذه الحركات الأربع على حركة المفتاح فقط دون تكلّف شيء آخر، فإذا أُدير المفتـاح إلى خلف الجهة التي أُديـر إليهـا أولاً انفتـح البـاب وأخـذ الكـرسيّ في الـدخـول والمحمل في التأخّـر عن مقدَّم الكـرسي إلى مؤخّره، فـإذا عاد كـلٌّ إلى مكانـه انْسدَّ البـابُ بالدفّتين أيضًا من تلقائه، كلُّ ذلك يترتّب على حركة المفتاح، كالذي كان في حال خروجه، وصَحَّت هذه الحركات اللطيفة على أسبـاب ومُسَبّبات غـائبة عن الحسّ في بـاطن الكرسيّ، وهي ممّا يَدِقُّ وصفُها، ويصعُب ذكرُها، أظهرتها بركاتُ هذا الأمر السعيد، وتنبيهـات سيّدنـا ومولانا الخليفة، أدامَ اللَّهُ تعالى أمرهم! وأعزَّ نصرهم!

---

(١) في طبعة دار صادر: «إرتاجهما». يقال: أرتج الباب إرتاجًا إذا أغلقه إغلاقًا وثيقًا. وارتتاج دَفَّتَيْ الباب: انغلاقهما بإحكام. لسان العرب (رتج).

(٢) يقال: أبهم البابَ إذا أغلقه وسدَّه، وأُبْهِمَ عليه الأمر: لم يجعل له وجهًا يعرفه. لسان العرب (بهم).

وفي خلال الاشتغال بهذه الأعمال التي هي غُرَر الدهر، وفرائد العمر، أمروا ـ أدام الله تعالى تأييدهم! ـ ببناء المسجد الجامع بحضرة مرّاكش ـ حرسها الله تعالى! ـ فبدىء ببنائه[1] وتأسيس قبلته في العشر الأُوَل من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، وكمل منتصف شعبان المكرّم من العام المذكور، على أكمل الوجوه، وأغرب الصّنائع، وأفسح المساحة، وأبعد البناء والنجارة، وفيه من شمسيات الزّجاج ودرجات[2] المنبر والمقصورة ما لو عُمِلَ في السنين العديدة لاسْتُغْرِبَ تمامُه، فكيف في هذا الأمد اليسير الذي لم يتخيّل أحدٌ من الصُّنّاع أن يتمّ فيه فضلاً عن بنائه؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور، ونهضوا ـ أدام الله سبحانه تأييدهم! ـ عقب ذلك لزيارة البقعة المكرّمة والروضة المعظّمة، بمدينة تِينُمَلَّل[3] أدام الله رِفْعَتَها، فأقاموا بها بقيّة شعبان المكرّم، وأكثر شهر رمضان المعظّم، وحملوا في صحبتهم المصحفَ العزيز ومعه مصحف الإمام المهديّ المعلوم رضي الله تعالى عنه في التابوت الموصوف، إذا كان قد صُنع له غرفة في أعلاه، وأُحْكِمت فيه إحكامًا كَمُلَ به معناه، واجتمع في مِشْكَاته فعاد النور إلى مبتداه، وخُتم القرآنُ العزيز في مسجد الإمام المعلوم ختمات كادت لا تُحْصَى لكثرتها، وهنا انتهى ما وجدناه من هذا المكتوب.

ثم قال ابن رُشَيد ـ بعد إيراد ما تقدّم ـ ما صورته: نجزت الرسالة في المصحف العظيم، والحمد لله ربّ العالمين، انتهى محلُّ الحاجة منه.

وما أَحْسَنَ قولَ الشيخ الإمام أبي محمد عبد الحقّ بن غالب ابن عطية[4] يستودع أهل قرطبة: [المنسرح]

---

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «ببنيانه».

(٢) في طبعتي دار صادر وليدن: «وحركات».

(٣) تِينُمَلَّلْ أو تِينُ مَلَّلْ: مدينة بالمغرب كانت سرير ملك بني عبد المؤمن الموحدي، وفيها مات. معجم البلدان (ج ٢ ص ٦٩).

(٤) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي فقيهٌ من أهل غرناطة، قويّ الأدب، متفنّن في العلوم. وزر للمرابطين وكانت وفاته في سنة ٥٤٢ هـ. الصلة (ص ٥٦٣) وقلائد العقيان (ص ٢٠٧) والإحاطة (ج ٣ ص ٥٣٩). وسيترجم له المقري في الجزء الثالث من نفح الطيب.

أَسْتَودِعُ اللَّه أهْلَ قُرْطُبة ... حيث وَجَدْتُ[1] الحَيَاء والكَرَما
والجامع الأعظم العتيق ولا ... زال مَدَى الدَّهر مأمنًا حَرَما

وقال أبو الربيع بن سالم[2]: حدّثني بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري[3] قال: أنشدني أبو محمد بن عطية لنفسه، فذكرهما بعد أن قال: إنّه لمّا أزمع القاضي أبو محمد بن عطيّة الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع وأنشدني[4] البيتين، انتهى.

وقال ابن عطيّة أيضًا رحمه اللّه تعالى[5]: [البسيط]

بأربعٍ فاقَتِ الأمصارَ قرطبةٌ ... وهُنَّ قنْطَرَةُ الوادي وجامِعُها
هاتان ثنتان، والزّهراء ثالثةٌ، ... والعِلْمُ أكبرُ شيء وهْوَ رابعُها

وقد تقدم[6] إنشادنا لهذين البيتين من غير نسبتهما لأحد.

ومِمّا يدخل في أخبار الزّاهرة من غير ما قدّمناه ما حكاه عن نفسه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حَزْم قال: نادمْتُ يومًا المنصور بن أبي عامر في منية السرور بالزّاهرة ذات الحسن النضير، وهي جامعة بين روضة وغَدِير، فلمّا تضمّخ النهارُ بزعفران العَشِي، ورَفْرَفَ غرابُ الليل الدَّجُوجِيّ، وأسبلَ الليلُ جُنْحَه، وتقلّد السِّماكُ رُمْحَه، وهَمَّ النَّسْرُ بالطيران، وعام في الأفق زورق الزِّبْرِقان[7]، أَوْقَدْنا مصابيحَ الراح، واشتملْنا مُلاءَ الارتياح، وللدَّجْنِ فوقنا رُوَاقُ

---

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «عهدت».
(٢) أبو الربيع ابن سالم هو سليمان بن موسى بن سالم الحميري الكلاعي؛ من أهل بلنسية، تولّى القضاء بها، وكان متبحّرًا في الأدب والبلاغة. توفي ببلنسية سنة ٦٣٤ هـ. الذيل والتكملة (ج ٤ ص ٨٣) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١١٩). وسيترجم له المقري في الجزء السادس من نفح الطيب.
(٣) أبو الحسن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري من أهل قرطبة، ولّي القضاء بإستجة، وكان شيخًا جليلاً معتنيًا بالحديث. توفي بغرب العُدْوة صادرًا من مرّاكش سنة ٥٨٥ هـ. التكملة رقم ١٦١٩.
(٤) في طبعة دار صادر: «وأنشد».
(٥) البيتان في التكملة في ترجمة أبي الربيع الأشعري.
(٦) تقدّم البيتان في الجزء الأول من نفح الطيب .
(٧) الزِّبْرِقانُ: القمر. محيط المحيط (زبرق).

مضروب، فَغَنَّتنا عند ذلك جارية تسمَّى أنس القلوب وقالت[1]: [الخفيف]

قَـدِمَ الـليـلُ عـنـد سَـيْـرِ الـنـهـارِ ... وبَـدَا البَـدْرُ مِـثْـلَ نـصف الـسِّـوارِ
فـكـأنَّ الـنـهـارَ صَـفْـحَـةُ خَـدٍّ ... وكـأنَّ الـظلامَ خَطُّ عِـذارِ
وكـأن الـكـؤوس جـامـدُ مـاءٍ ... وكـأن الـمُـدامَ ذائـبُ نـارِ
نـظري قـد جَـنَـى عـليَّ ذنـوبًـا ... كيف مِمَّـا جَنَتْـهُ عيني اعتـذاري؟
يـا لَـقَـومي تَـعَـجَّـبـوا مِنْ غـزال ... جـائـرٍ فـي مـحبّـتـي وهـو جـاري
لـيـت لـو كـان لـي إليـه سـبـيـلٌ ... فـأَقَـضِّـي مـن الـهـوى[2] أوطـاري

قال: فلما أكملت الغناء، أحسْستُ بالمعنى، فقلت: [الخفيف]

كـيف كـيف الـوصـول لـلأقـمـارِ ... بَينَ سُمْـرِ القَـنَـا وبِيضِ الـشِّفـارِ؟
لـو عَـلِمْـنـا بـأنَّ حُـبّـكَ حَـقٌّ ... لَـطَلَبْـنـا الـحـيـاةَ مـنـكَ بـثـارِ
وإذا مـا الـكـرامُ هَـمُّـوا بـشـيء ... خَـاطَـروا بـالنّفـوس في الأخـطار

قال: فعند ذلك بادر المنصور لحسامه، وغلظ في كلامه، وقال لها: قولي واصدقي إلى مَنْ تشيرين، بهذا الشوق والحنين؟ فقالت الجارية: إن كان الكذب أنجى، فالصدق أحرى وأولى، واللَّه ما كانت إلاَّ نظرة، ولَّدَتْ في القلب فكرة، فتكلَّم الحبّ على لساني، وبَرَّح الشوقُ بكتماني، والعفو مضمون لديك عند المقدرة، والصفحُ معلومٌ منك عند المعذرة، ثم بكتْ فكأنَّ دَمْعَهَا دُرٌّ تناثرَ مِنْ عِقْدٍ، أو طَلٌّ[3] تساقط من ورد، وأنشدت: [المجتث]

أذْنَـبْـتُ ذنـبًـا عـظيـمًـا ... فـكـيـف مـنـه اعـتـذاري؟
والـلَّهُ قـدَّر هـذا ... ولـم يـكـن بـاخـتـيـاري
والـعَـفْـو أحـسـنُ شـيء ... يـكـونُ عـنـد اقـتـدارِ

قال: فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب إليَّ، وسَلَّ سَيْفَ السّخْط عليَّ، فقُلْتُ: أَيَّدَكَ اللَّهُ تعالى! إنّما كانت هَفْوَةً جرَّها الفكرُ، وصبْوَة أيَّدها النظرُ، وليس للمرء إلاَّ ما قدر

---

(١) كلمة «وقالت» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٢) في طبعة دار صادر: «من حُبِّه». وفي طبعة ليدن: «وأقضِّي من حُبِّه».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «ظِلٌّ».

له، لا ما اختاره وأمله. فأطرق المنصور قليلاً ثم عفا وصفح، وتجاوز عنّا وسمح، وخلّى سبيلي، فسكن وَجيبُ قلبي وغليلي، ووهب الجارية لي فَبِتْنا بأنعم ليلة، وسحبنا فيها للصِّبا ذيله، فلما شَمَّرَ الليلُ غَدَائره، وسَلَّ الصباح بواتره، وتجاوبت الأطيارُ بضروب الألحان، في أعالي الأغصان، انصرفت بالجارية إلى منزلي، وتكامل سروري.

قال بعضهم: ذكّرتني حكاية أبي المغيرة هذه حكاية قرأتها في النوادر[1] لأبي علي القالي البغدادي حَذَتْ في الظرف حَذْوَها، وزَهَتْ في الإغراب زَهْوَها، وهي ما أسنده عن منصور البرمكي أنه كانت للرشيد جارية غُلاَمية[2] وكان المأمون يميل إليها وهو إذ ذاك أمرد فوقفت[3] تصبُّ على يد الرشيد من إبريق معها، والمأمون[4] خلف الرشيد، فأشار[5] إليها يقبِّلُها، فأنكرت ذلك بعينها، وأبطأت في الصبِّ على قدر[6] نظرها للمأمون وإشارتها إليه، فقال الرشيد: ما هذا؟ ضعي الإبريق من يدك، ففعلتْ، فقال لها[7]: والله لئن لم تصدقيني لأقتلنّك، فقالت: يا سيدي، أشار إليَّ[8] كأنه يقبّلني، فأنكرتُ ذلك عليه، فالْتَفَتَ إلى المأمون فنظر[9] إليه كأنه ميت لِمَا داخله من الجزع والخجل، فرحمه وضمّه إليه، وقال: يا عبد الله، أتحبُّها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: هي لك فاخْلُ[10] بها في تلك القبّة، ففعل، ثم قال له: هل قلت في هذا الأمر شيئًا؟ فقال: نعم يا سيدي، وأنشد[11]: [المجتث]

ظَبْيٌ كَتَبْتُ[12] بطَرْفِي مِنَ الضمير إليهِ

---

(١) هذه الحكاية في كتاب الأمالي في لغة العرب (ج ١ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠).

(٢) الجارية الغلامية: يعني الوصيفة على قدّ الغلام. الأمالي.

(٣) في الأمالي: «فوقفت يومًا».

(٤) في الأمالي: «والمأمون جالسٌ خلف...».

(٥) في المصدر نفسه: «فأشار المأمون إليها كأنه يُقَبِّلُها...».

(٦) في المصدر نفسه: «على مقدار نظرها إلى المأمون».

(٧) كلمة «لها» ساقطة من الأمالي.

(٨) في الأمالي: «أشار إليَّ عبد الله كأنه...».

(٩) في المصدر نفسه: «ونظر... لِمَا دخله...».

(١٠) في المصدر نفسه: «لك قُمْ فادخل في تلك...». وفي طبعة ليدن: «فادخل بها» بدل «فاخْلُ بها».

(١١) في طبعتي دار صادر وليدن وفي الأمالي: «ثم أنشد».

(١٢) في الأمالي: «كتبتُ».

قَـبَّـلْتُـه مِـنْ بَـعِـيـدٍ فـاعْـتَـلَّ مِـنْ شَـفَـتَـيْـهِ
وردَّ أخـبـث ردٍّ بـالـكَـسْـرِ مـن حـاجِـبَـيْـهِ
فـمـا بَـرِحْـتُ مـكـانـي حـتـى قَـدَرْتُ عـلـيـه

وفي هـذا المعنى يقول بعض البلغـاء: اللحْظُ، يُعْرِب عن اللفظ، وقـال آخـر: رُبَّ كناية تغني عن إيضاح، ورُبَّ لفظٍ يدلُّ على ضمير، ونظمه الشاعر فقال: [الطويل]

جَـعَـلْنَـا عـلامـاتِ الـمَـوَدَّةِ بَـيـنَـنَـا دقـائـقَ لَحْظٍ هُـنَّ أمْضَـى مِنَ السِّـحْـرِ
فـأَعْـرِفُ منهـا الـوَصْـلَ في لين لحـظهـا وأعـرفُ منهـا الهَجْـرَ بـالـنـظر الشزْرِ(١)

وفي هذا قال بعض الحكماء: العين باب القلب، فمـا في القلب ظَهَرَ في العين وقـال الشاعر: [البسيط]

العَينُ تُبْـدِي الـذي في نَفْس صـاحبهـا مِـنَ الـمـحـبَّـة أو بُـغْضٍ إذا كـانـا
فـالـعَـيـنُ تـنـطق والأفـواه صـامِـتَـةٌ حتى تَـرَى من ضميـر القلب تِبْـيَـانَـا

وأبو المغيرة ابن حَزْم قال في حقّه في المطمح ما نَصُّه(٢): الوزير الكاتب أبـو المغيرة عبد الوهّاب ابن حزم، وبَنُو حزم فِتْيَة علم وأدب، وثَنِيَّةُ مَجْـد وحَسَب، وأبو المغيـرة هذا في الكتابة أوحد، لا يُنْعَت ولا يُحد، وهو فارس المضمار، حامي ذلك الذِّمار، وبطل الـرَّعيل، وأسد ذلك الغِيـل(٣)، نَسَق المعجزات، وسَبَق في المعضـلات والموجـزات، إذا كتب وَشَّى المهارق ودبَّج، وركب من بحر البلاغة الثَّبَج(٤)، وكان هو وأبو عامر بن شُهَيد خليلَي صفاء، وحليفَي وفاء، لا ينفصلان في رَواح ولا مَقِيل، ولا يفترقان كمالك وعقيل(٥)، وكـانا بقُـرْطُبة رافعَي ألوية الصَّبْوة، وعامِرَي أندية السلوة، إلى أن اتُّخِذ(٦) أبو عامر في حِبالة الرَّدَى وعلق،

---

(١) يقال: نظر إليه شَزْرًا: وهو نظرُ الغضبان بمؤخَّر عينه. مختار الصحاح (شزر).

(٢) مطمح الأنفس (ص ٢٢).

(٣) الرَّعيل: القطعة المتقدمة من الرجال. الغِيلُ: موضع الأسد. لسان العرب (رعل) و (غيل).

(٤) الثَّبَجُ من الشيء: معظمه، ومن الموج أعلاه، لسان العرب (ثبج).

(٥) مالك وعقيل: يضرب بهما المثل في الصـداقة والمـودّة وطول الإقـامة، قـال أبو خـراش خويلد بن مـرة الهذلي يخاطب أميمة امرأة عروة بن مرة: [الطويل]

ألـم تَـعْـلمـي أنْ قـد تَـفَـرَّقَ قَبْـلَنـا نَـديـمَـا صـفـاءٍ مـالـكٌ وعـقـيـلُ؟

الأغاني (ج ٢١ ص ٢٢٨).

(٦) في مطمح الأنفس: «أخذ».

وغدا رَهْنُه فيها وغلق[1]، فانفرد أبو المغيرة بذلك المَيدان، واستردَّ من سَبْقِه ما فاته منذ زمان، فلم تُذْكر له مع أبي عامر حسنة، ولا سَرَتْ له فِقْرَة مستحسنة، لتعذّر ذلك وامتناعه، بشُفوف أبي عامر وامتداد باعه، وأمّا شعر أبي المغيرة فمرتبطٌ بنثره، ومختلطٌ زهره بدُرِّه[2]، وقد أثبتُّ له منها فنونًا، تجنّ بها الأفهام جنونًا، فمن ذلك قوله[3]: [الكامل]

ضَعَنَتْ وفي أحْداجِها مِنْ شَكْلِها ... عِينُ فَضَحْنَ بِحُسنِهِنَّ العِيْنَا[4]
ما أنصفَتْ في جَنْبِ تُوضِحَ[5] إذ قَرَتْ ... ضَيفَ الوِدادِ بَلابِلاً وشُجُونا
أضحى الغرامُ قَطِينَ ربعِ فؤادِهِ ... إذ لم يَجِدْ بالرَّقْمَتَينِ[6] قَطِينا

وله[7]: [المنسرح]

لَمّا رأيتُ الهِلالَ مُنْطَوِيًا ... في غُرَّةِ الفَجْرِ قارنَ[8] الزُّهَرَهْ
شَبَّهْتُه والعِيانُ يشهدُ لي ... بصَولَجانٍ انثنى[9] لضَربِ كُرَهْ

وأبو عامر بن شُهَيد المذكور قال في حَقِّه ما صورته[10]:

الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد الأشجعي[11]، عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حائز قَصَبَ السبق فيها، لا يُشْبهه أحدٌ من أهل زمانه، ولا ينسق ما نسق مِنْ دُرَرِ البيان وجُمانه، توغل في شعاب البلاغة وطُرُقها، وأخذ على مُتَعاطِيها ما بين مغربها

(١) في طبعة دار صادر: «فيها قد غلق».
(٢) في المطمح: «ومختلط بزهرة».
(٣) الأبيات في جذوة المقتبس (ص ٢٩٢) وبغية الملتمس (ص ٣٩٣).
(٤) في بغية الملتمس: «طعنت وفي إحداهما... فضحى بحسنهنَّ...».
(٥) تُوضِحُ: من قرى قَرْقَرى باليمامة. معجم البلدان (ج ٢ ص ٥٩).
(٦) في مطمح الأنفس: «بالرقتين».
(٧) البيتان في جذوة المقتبس (ص ٢٩٢) وبغية الملتمس (ص ٣٩٤).
(٨) في البغية: «فارق».
(٩) في طبعة دار صادر وفي الجذوة والبغية: «أوفى».
(١٠) مطمح الأنفس (ص ١٩).
(١١) أبو عامر ابن شهيد الأندلسي هو صاحب رسالة التوابع والزوابع، وقد تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

ومشرقها، لا يُقَاومه عمرو بن بَحْر[1]، ولا تـراه يغترف إلّا من بَحْـر، مع انـطباع، مشى في طـريقه بـأمدِّ بـاع، وله الحسب المشهـور، والمكان الـذي لم يَعْدُ ظهـوره[2]، وهو من ولـد الوضّـاح، المتقلّد تلك المفاخر والأوضاح، والضحّاك[3] صـاحب يوم المـرج، وراكب ذلك الهرج، وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب، ونَبْع لا يُرَاش إلّا من ذلك الغرب، وقد أثبتُّ له ما هو بالسحر لاحـق، ولنور المحاسن ماحق، فمن ذلك قوله [4] : [البسيط]

إنَّ الـكـريـمَ إذا نـابَـتْـه مَـخْـمَـصَـةٌ   أبْـدَى إلى النـاس رِيًّـا وهْـوَ ظَمْـآنُ [5]
يَحْنِي الضلوعَ على مثـل اللَّظَى حُـرَقًـا   والـوَجْـهُ غَمْـرٌ بمـاء البِشْـرِ رَيّـانُ [6]

وهو مأخوذ من قول الرضي [7] : [الكامل]

مـا إنْ رأيْـتُ كَـمَـعْـشَـرٍ صـبَـرُوا   عِـزًّا عـلى الأزلاتِ والأزْمِ [8]
بَسَـطوا الـوجـوهَ وبيـن أضـلعـهـمْ   حَـرُّ الـجَـوَى ومـآلـمٍ الـكَـلْمِ

ولـه أيضًـا [9] : [البسيط]

كَلِفْتُ[10] بـالـحُبِّ حتى لـودَنـا أجَـلي   لَمـا وَجـدْتُ لِـطعَمِ المـوت من أَلَـمِ
كـلا النـدى والْهَـوَى قِـدمًـا ولعتُ بـه[11]   وَيـلي مِنَ الـحُبِّ أو ويـلي مِـنَ الـكَـرَمِ

---

(1) عمرو بن بحر هو أبو عثمان الجاحظ صاحب كتابي الحيوان والبيان والتبيين وغيرهما.
(2) في طبعة دار صادر: «للظهور».
(3) في طبعة دار صادر: «صاحب الضحّاك يوم».
(4) البيتان في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ١٦٤).
(5) في الديوان: «شبعًا وهو طيّـان». المَخْمَصَةُ: المجـاعة، أي خـلاء البطن من الـطعام. محيط المحيط (خمص).
(6) في الديوان: «البِشْر ملآن».
(7) ديوان الرضي (ج ٢ ص ٤٢٢) مع بعض الاختلاف عمّا هنا.
(8) الأزلات جمع أزْل وهو الشِّدَّة والضِّيق. الأزْمُ: جمع أزْمَة وهي الشِّدَّة. لسان العرب (أزل) و (أزم).
(9) البيتان في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ١٤٨).
(١٠) في الديوان: «أَلِمْتُ».
(١١) رواية صدر البيت في الديوان هي: وذادَني كَرَمي عَمَّنْ وَلِهْتُ به.

وأخبرني الوزير أبو الحسين[1] بن سراج ـ وهو بمنزل ابنِ شُهَيد ـ وكان من البلاغة في مدى غاية البيان، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان، وكنّا نحضر مجلس شرابه، ولا نغيبُ عن بابه، وكان له بباب الصَّومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره، ولا يخْلِيه من نثر دُرره وأزهاره، فقعد في ليلة ٢٧ من رمضان في لُمّة من إخوانه، وأئمة سُلْوانه، وقد حَفّوا به ليقطفوا نُخَبَ أدبه، وهو يخلط لهم الجِدَّ بِهَزْلٍ، ولا يفرط في انبساط مشتهر ولا انقباض جَزْل، وإذا بجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواريها، من يسترها ويُواريها، وهي ترتاد موضعًا لمناجاة ربِّها، وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنبها، وهي متنقّبة، خائفة ممّن يَرْقُبها مترقّبة، وأمامها طفل لها كأنه غصن آس، أو ظبي يمرح في كِنَاس، فلمّا وقعت عينُها على أبي عامر وَلَّتْ سريعة، وتولّت مَرُوعة، خيْفَةَ أن يشبب بها، أو يشهرها باسمها، فلمّا نظرها، قال قولاً فَضَحَها به وشهرها[2]: [المتقارب]

وناظرةٍ تحتَ طَيِّ القِنَاعِ ... دَعَاهَا إلى اللّه بالخَير[3] داعي
سَعَتْ[4] خِيفَةً تَبْتَغِي منزلاً ... لِوَصْلِ التَبَتُّلِ والانقطاع
فجاءَتْ تَهَادَى كمثلِ الرَّؤُوم ... تُرَاعِي غَزَالاً بِرَوضٍ[5] اليَفَاع
وجَالَتْ بموضِعِنَا جَولَةً ... فحلَّ الربيعُ بتلك البِقاع
أَتَتْنا تَبَخْتَر في مَشْيِها ... فحلَّتْ بوادٍ كثير السِّبَاع
ورِيعَتْ حِذارًا على طِفْلِهَا ... فنَادَيتُ: يا هٰذِهِ، لا تُرَاعِي
غَزالُكِ تَفْرَقُ منه الليوثُ ... وتَفْرَغُ منه كُماةُ المَصَاعِ[6]
فولَّتْ ولِلْمِسْكِ في[7] ذَيلِهَا ... على الأرضِ خَطٌّ كظَهْرِ الشُّجاعِ[8]

---

(١) في طبعة بولاق: «أبو الحسن».
(٢) الأبيات في ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ٩٤ ـ ٩٥).
(٣) في الديوان: «والخير».
(٤) في الديوان: «سَعَتْ بابنها».
(٥) في المصدر نفسه: «بأعلى يفاع».
(٦) في طبعة ليدن وفي الديوان: «وتنصاع» بدل «وتفزع». تَفْرَقُ: تخاف. المِصاعُ، بكسر الميم: المضاربة بالسيوف. لسان العرب (مصع).
(٧) في الديوان: «منه».
(٨) الشُّجاع، بضم الشين وكسرها: الحَيَّةُ. لسان العرب (شجع).

رجع ـ ومِمّا ينخرط في سلك أخبار الزّهراء ما حكاه الفتح في ترجمة المعتمد ابن عبّاد إذ قال[١]: وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين[٢] بن سِراج أنه حضر مع الوزراء والكُتّاب بالزّهراء في يوم قد غَفَلَ عنه الدّهر فلم يَرْمُقْه بطَرْف، ولم يطْرُقْهُ بصَرْف، أرَّخَتْ به المَسَرَّاتُ عَهْدَها، وأبرزتْ له الأماني خَدَّها ونَهْدَها[٣] وأرشفت فيه لَمَاها، وأباحت للزائرين حِمَاها، وما زالوا ينتقلون[٤] من قصر إلى قصر، ويبتذلون الغصون بجَنًى وهَصْر، ويَتَوقّلون في تلك الغُرُفات، ويتعاطَون الكؤوسَ بين تلك الشُّرُفات، حتى استقرّوا بالروض من بعد ما قضوا من تلك الآثار أوطارًا، ووقروا[٥] بالاعتبار قِطارًا، فحلّوا[٦] منها في درانك ربيع مُفَوَّفة بالأزهار، مطرّزة بالجداول والأنهار، والغصونُ تختال في أدْوَاحها، وتتثنّى في أكُفِّ أرواحها، وآثارُ الديار قد أشرفتْ عليهم كثكالى يَنُحْنَ على خرابها، وانقراض أترابها[٧] وأطرابها، والوهي بمشيدها لاعب، وعلى كل جدارٍ غرابٌ ناعب، وقد مَحَتِ الحوادثُ ضياءها، وقلّصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت، وفاحت من شَذَاهم وتأرّجتْ[٨]، أيام نَزَلُوا خلالها، وتفيّأوا ظلالها، وعَمَرُوا حدائقها وجَنّاتها، ونبّهوا الآمال من سِنَاتها، وراعوا الليوث في آجامها، وأخجلُوا الغُيُوثَ عند انسجامها، فأضْحَتْ ولها بالتّداعي تلفُّع واعتجار، ولم يبق من آثارها إلاّ نُؤْيٌ وأحجار، قد وَهَت قِبابُها، وهَرِمَ شبابُهَا، وقد يلين الحديد، ويَبْلَى على طَيِّه الجديد، فبينما هم يتعاطَونَهَا صغارًا وكبارًا، ويُديرونها أُنْسًا واعتبارًا، إذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة[٩] فيها: [الخفيف]

حَسَدَ القصرُ فيكُمُ الزّهراءَ ... ولَعَمْري وعَمْرِكمْ ما أساءَ
قد طَلَعْتُمْ بها شموسًا صباحًا ... فاطْلُعُوا عندنا بدورًا مَسَاءَ

(١) قلائد العقيان (ص ١٠).
(٢) في قلائد العقيان: «أبو الحسن».
(٣) كلمة «ونهدها» لم ترد في طبعة دار صادر ولا في قلائد العقيان.
(٤) في طبعة دار صادر: «ينقلون». وفي القلائد: «يتنقلون».
(٥) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «وأوقروا».
(٦) في القلائد: «فحلوا منه في درانيك».
(٧) في طبعة دار صادر والقلائد: «وانقراض أطرابها».
(٨) في طبعة دار صادر والقلائد: «وأرجت».
(٩) في طبعة دار صادر: «برقعة مكتوب فيها».

فساروا[1] إلى قصر البستان بباب العطّارين فألفوا مجلسًا قد حَار فيه الوصف، واحتشد فيه اللهو والقَصْف، وتوقّدت نجومُ مُدامِه، وتأوّدت قدودُ خُدّامه، وأرْبى على الخَوَرْنَق والسَّدير، وأَبْدَى صفحةَ البدر من أَزْرَار المُدِير، فأقاموا ليلتهم[2] ما عَرَاهم[3] نوم، ولا عداهم[4] عن طيب اللّذّات سَوم، وكانت قرطبة منتهى أمله، وكان رَوم أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمُدَاخلة أهليها، ومُوَاصلة واليها، إذ لم يكن في منازلتها قائد، ولم يكن لها إلاّ حِيَل ومكايد: لاستمساكهم بِدَعْوَة خلفائها، وأَنَفتهم من طُمُوس رسوم الخلافة وعَفَائها، وحين اتّفق له تملُّكها، وأطلعه فَلَكُها، وحصل في قطب دائرتها، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها، قال[5]: [البسيط]

مَنْ للملوك بِشَأْوِ الأَصْيَدِ البَطَل؟ هيهاتَ جاءَتْكُمُ مَهْدِيَّةُ الدُّوَلِ
خَطَبْتُ قرطبَةَ الحسناءَ إذ مَنَعَتْ مَنْ جاء يخْطُبها بالبِيضِ والأَسَل
وكم غَدَتْ عاطلاً حتى عَرَضْتُ لها فأَصْبَحَتْ في سَرِيِّ الْحَلْي والحلل
عِرْسُ الملوكِ لنا في قَصْرِها عُرُسٌ كلُّ الملوك بها في مأتم الوَجَل
فَراقِبُوا عنْ قريبٍ لا أبا لكُمُ هجومَ لَيْثٍ بِدِرْعِ البأس مُشْتَمِل

ولَمَّا انتظمتْ في سلكه، واتَّسَمَتْ بملكه، أعطى ابنه الظافر زمامها، وولّاه نقضها وإبرامها، فأفاض فيها نِداه، وزاد على أمده ومَدَاه، وجَمَّلَها بكثرة حِبَائه، واستقلَّ[6] بأعبائها على فَتَائه، ولم يزل فيها آمرًا وناهيًا، غافلاً عن المَكْر ساهيًا، حُسْنَ ظَنٍّ بأهلها اعتقده، واغترارًا بهم ما رواه[7] ولا انتقده، وهيهات كم من ملك كَفَّنُوه في دمائه، ودفنوه بذمائه، وكم من عرْشٍ ثلّوه، وكم[8] من عزيز ملك أذلّوه، إلى أن ثار فيها ابن عُكاشة ليلاً، وجَرَّ إليها

---

(١) في قلائد العقيان: «فصاروا».
(٢) في طبعة ليدن: «ليلهم».
(٣) في القلائد: «ما طرقهم».
(٤) في المصدر نفسه: «عراهم».
(٥) ديوان المعتمد بن عباد (ص ٦٥).
(٦) في القلائد: «واشتغل بأعبائها عن فتائه».
(٧) في المصدر نفسه: «رآه».
(٨) في المصدر نفسه: «ثلّوه، وعزيز أذلّوه».

حربًا وويلاً، فبرز الظافر منفردًا عن كُمَاته، عـاريًا مـن[1] حُمَاته، وسيفه في يمينه، وهاديه في الظلماء نور جبينه، فإنه كان غلامًا قد[2] بلَّله الشباب بأنـدائه، وألحفـه الحُسْنُ بردائـه، فدافعهم أكثر ليله، وقد منع منه تلاحق رَجْله وخَيْله، حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لَعا، ولا استقال[3] منها ولا سعى، فَتُـرِكَ ملتحفًا في الـظلماء، تحت نجـوم السماء، مُعَفَّـرًا في وسط أكماء[4]، تحرسـه الكواكب، بعـد المواكب، ويستـره الحِنْدِس، بعـد السندس، فمرَّ بمصرعه سَحَرًا أحدُ أئمّـة الجامـع المُغَلِّسين، فرآه[5] وقـد ذهـب ما كـان عليه ومضى، وهـو أعرى من الحسام المُنْتَضَى، فخلع رداءهُ عن منكبيه ونَضَاه، وستـره به ستـرًا أقنع المجـد به وأرضاه، وأصبح لا يعلم ربّ تلك الصنيعة، ولا يعرف فتشكّر له يده الرفيعة، فكان المعتمد إذا تذكّر صَرْعَته، وسَعَّر الحُزْنُ لوعته، رفع بالعويل نداءه، وأنشد[6]: [الطويل]

ولـم أَدْرِ مـن ألـقـى عـليـه رداءه

ولَمَّا كان من الغد حُزَّ رأسه ورُفع على سِنِّ رمـح وهو يشـرق كنار على علم، ويـرشق نفس كل ناظر بألم، فلَمَّا رَمَقَتْه الأبصار، وتحقّقته الحمـاة والأنصار، رَمَـوْا أسلحتهم، وسوّوا للفرار أجنحتهم، فمنهم من اختار فراره وجلاه، ومنهم من أتت بـه إلى حَينه رجـلاه، وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره، ونَصْب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره، وعـدل عن تأبينـه، إلى البحث عن مفرقه وجبينه، فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوعتـه شافيـة، إلاَّ إشارتـه إليـه، في تأبين أَخـوَيه، المـأمون والـراضي المقتولين في أوّل النـائرة[7]، والفتنـة الثـائـرة، انتهى.

(١) في المصدر نفسه: «عن».

(٢) في طبعتي دار صادر وليدن وفي قلائد العقيان: «كما».

(٣) في طبعتي دار صادر وليدن وفي قلائد العقيان: «استقلّ».

(٤) في طبعتي دار صـادر وليدن: «ملتحفًا بالـظَّلْمـا، تحت نجـوم السَّمـا، معفـرًا في وسط الحمى». وفي القلائد: «ملتحفًا بالظلماء، معفرًا في وسط الحماء...».

(٥) كلمة: «فرآه» غير واردة في القلائد.

(٦) هو صدر بيت لخويلد بن مرّة الهذلي، وعجزه هو:

سـوى أنه قـد سُـلَّ عن مـاجـدٍ مَحْضِ

(٧) النائرة: الهائجة. لسان العرب (نار).

وقد رأيتُ أن أزيد على ما تقدَّم ـ مِمّا قصدْتُ جَلْبه في هذا الموضع ـ نبذة من كلام لفتح في ذكر مُنْتزهات قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس ووصْف مجالس الأنْس التي كانت بها مِمّا تنشرح له الأنفس، ووقع ذكر غير قرطبة والزّهراء لهما تبعًا، ولا يخلو ذلك من عبرة بحال مَن جَعَلَ في اللهو مَصِيفًا ومُرْتَبَعًا، ثم طواه الدّهر طَيَّ السجلّ، ومحا آثاره التي كانت تسمو وتَجِلّ، وما قصدْنَا، عَلم اللَّهُ غير الاعتبار، بهذه الأخبار، لا الحثّ على الحرام، وتسهيل القصد إليه والمرام، والأعمال بالنيّات، واللَّه سبحانه كفيل بفضله وكرمه ببلوغ الأمنيات، وتعويضنا عن هذه النعم الفانيات، بالنعم الباقيات السَّنيَّات.

قال الفتح رحمه اللَّه تعالى في ترجمة الوزير أبي الوليد بن زيدون، ما صورته[1]: وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسين[2] بن سراج رحمه اللَّه تعالى أنه في وقت فراره أضحى، غداة الأضحى، وقد ثار به[3] الوجد بمن كان يألفه والغرام، وتراءت لعينيه تلك الظِّباء الأوانس والآرام، وقد كان الفطر وافاه، والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى عفاه[4]، فلمّا عاده منهما[5] ما عاد، وأعياه ذلك النكد المعاد، استراح إلى ذكر عهده الحسن، وأراح جفونه المُسَهَّدَة بتوهّم ذلك الوَسَن، وذكر معاهد كان يخرج إليها في العيد، ويتفرّج بها مع أولئك الغِيد، فقال[6]: [الطويل]

خليليَّ، لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضحَى ... فما حالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كما أَضْحَى؟
لَئِنْ شاقني شَرْقُ العُقَاب فلم أزلْ ... أَخُصُّ بممحوض[7] الهَوَى ذلك السَّفْحا
وما انفكَّ جوفيُّ الرُّصَافةِ مُشْعِري ... دَواعيَ بَثٍّ يُعْقِبُ الأَسَفَ البَرْحا[8]
ويَهْتَاجُ قَصْرُ الفارِسيِّ صَبَابَةً ... لِقَلْبيَ لا يألو زِنَادَ الأَسَى قَدْحا[9]

---

(١) النص في قلائد العقيان (ص ٧٢ ـ ٧٣).
(٢) في قلائد العقيان: «أبو الحسن».
(٣) في المصدر نفسه: «له».
(٤) في الأصول: «أعفاه» والتصويب عن القلائد.
(٥) في القلائد: «منه».
(٦) القصيدة في قلائد العقيان (ص ٧٢) وفي ديوان ابن زيدون (ص ٢١ ـ ٢٢). وقد تقدّم مطلعها في الجزء الأول من نفح الطيب.
(٧) في قلائد العقيان: «بمخصوص».
(٨) في الديوان والقلائد: «تُعْقِبُ الأسف».
(٩) رواية عجز البيت في الديوان والقلائد مختلفة عمّا هنا.

وليس ذَمِيمًا عَهْدُ مَجْبِسٍ(١) نـاصحٍ ... فـأقْبَلَ في فَرْطِ الوَلُوعِ بـه نُصْحا
كأنِّيَ لم أشْهَدْ لَدَى عَيْنِ شَهْدَةٍ ... نِزَالَ عِتابٍ كان آخِرُهُ الفَتْحا
وقائعُ جانيها التَّجَنِّي فإن مشى ... سَفِيرُ خُضُوعٍ بَيْنَنا أكَّدَ الصُّلْحا
وأيامُ وَصْلٍ بالعقيق اقْتَضَيْتُهُ ... فإن(٢) لم يَكُنْ ميعادُه العِيدَ فالفِصْحَا
وآصالَ لَهْوٍ في مُسَنَّاةِ مالِكٍ ... مُعاطاةَ نَدْمانٍ إذا شِئْتَ أو سَبْحَا
لَدَى راكِدٍ تُصْبِيكَ(٣) من صَفحاتِهِ ... قَوارِيرُ خُضْرٌ خِلْتَها مُرِّدَتْ صَرْحَا
مَعاهِدُ لَذَّاتٍ وأوطانُ صَبْوَةٍ ... أَجَلْتُ المُعَلَّى في الأماني بها قِدْحَا
أَلاَ هلْ إلى الزَّهراء أَوْبةُ نازِحٍ ... تَقَضَّى تَنائيها(٤) مَدامِعُهُ نَزْحَا
مَقاصِيرُ مُلْكٍ أشْرَقَتْ جَنَباتُها ... فخِلْنا العَشاء(٥) الْجُونَ أثناءها صُبْحَا
يُمَثِّلُ قُرْطَيها لِيَ الوَهْمُ جَهْرَةً ... فقُبَّتَها فالكَوكَبَ الرَّحْبَ فالسَّطْحَا
مَحَلَّ ارتياحٍ يُذَكِّرُ الخُلْدَ طِيبُهُ ... إذا عَزَّ أنْ يَصْدَى الفتى فيه أو يَضْحَى(٦)
هُنَاكَ الجِمامُ(٧) الزُّرْقُ تَنْدَى حِفافُهَا ... ظِلالٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فيها فَتًى سَمْحَا
تَعَوَّضْتُ من شَدْوِ القِيانِ خِلالَهَا ... صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أطار الكَرَى ضُبْحَا(٨)
ومِنْ حَمْلِيَ الكأسَ المُفَدَّى مُدِيرُهَا ... تَقَحُّمُ أهوالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمْحَا
أجَلْ إن لَيْلِي فَوقَ شاطِىءِ نَيطَة ... لأقْصَرُ من لَيلِي بآنَةَ فالبَطْحَا(٩)

---

(١) في القلائد: «مجلس».
(٢) في الديوان والقلائد: «فإلاّ يكن».
(٣) في الديوان: «يصبيك».
(٤) في القلائد: «تَقَضَّتْ مبانيها».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «العشايا».
(٦) في قلائد العقيان: «يَضْحَا». يَصْدَى: يعطش. يَضْحَى: يتعرّض للشمس، أو يبرز إليها. لسان العرب (صدى) و (ضحى).
(٧) في القلائد: «هناك الحمام». الجمام: جمع جَمَّة وهي المكان الذي يجتمع فيه ماء البئر. لسان العرب (جمم).
(٨) في الديوان: «ضَبْحا». والضَّبْحُ للخيل؛ يقال: ضبحت الخيل إذا أسمعت صوتًا ليس بصهيل ولا حمحمة. لسان العرب (ضبح).
(٩) في طبعة عبد الحميد: «شاطىء بيطة». ونيطة وآنة نهران.

وهذه معاهد[1] بني أميّة قطعوا بها لياليَ وأيامًا، وظلّت فيها الحوادثُ عنهم نيامًا، فهاموا بشرق العُقَاب، وشامُوا به برقًا يَبْدو من نِقاب، ونعموا بجَوفيِّ الرُّصافة، وطعموا عيشًا تولّى الدهرُ جلاءه وزِفافه، وأبعدوا نصح الناصح، وحمدوا أنسَ مَحْبِس[2] ناصح، وعَمُوا بالزهراء، وصَمُّوا عن نبإ[3] صاحب الزوراء، حتى رحلهم الموت عنها وقوَّضهم، وعوّضهم منها ما عوّضهم، فصاروا أحاديثَ وأنباء، ولم يتزوّدوا منها إلاّ حَنُوطًا وكِباء، وغدَتْ تلك المعاهدُ تصافحها أيدي الغِير، وتناوحها نَعبَات الطير، وراحت بعد الزينة سُدَى، وأمْسَتْ مسرحًا للبُوم[4] ومَلْعبًا للصَّدى، يُسْمَعُ للجنّ بها عَزيف، ويُصْرَعُ فيها البطلُ الباسلُ والنزيف، وكذا الدنيا أعمالُها خراب، ومآلها[5] آلٌ وسَرَاب، أهلكت أصحاب الأخدود، وأذهبت ما كان بمأرب من حِيازات وحُدُود، انتهى.

وقال الفتح بعد كلام ما صورته[6] : ولَمَّا عَضَّتْه أنيابُ الاعتقال، ورَضَّتْه تلك النُّوبُ الثِّقال، وعُوِّض بخشانة العيش من اللين، وكابد قَسْوَةَ خَطْبٍ لا تَلين، تَذَكَّر عَهْدَ عيشه الرقيق، ومَرَحه[7] بين الرُّصافة والعقيق، وحَنَّ إلى سَعْدٍ زُرَّتْ عليه جُيُوبُه، واسْتَهْدَى نسيم عيشٍ طابَ له هُبوبُه، وتأسَّى بمن باتتْ له النوائبُ بمرصاد، ورَمَتْهُ بسهامٍ ذاتِ إقصاد وضِيمَ من عهد الأحَصِّ إلى ذات الإصاد[8]، فقال[9]: [الخفيف]

الْهَوَى في طُلوعِ تلك النجومِ	والْمُنَى في هُبوبِ ذاكَ النَّسيمِ
سَرَّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشي	لو يدومُ السُّرورُ لِلْمُسْتَدِيمِ

---

(١) في قلائد العقيان: «لبني أمية قطعت».

(٢) في المصدر نفسه: «مجلس».

(٣) في المصدر نفسه: «بناء».

(٤) في قلائد العقيان: «للسيد».

(٥) في طبعتي دار صادر وليدن وفي القلائد: «وآمالها».

(٦) النص في قلائد العقيان (ص ٧٧).

(٧) في قلائد العقيان: «ومراحه».

(٨) الأَحَصُّ: موضع بنجد كانت فيه منازل ربيعة وابني وائل بكر وتغلب، وكان يحميه كليب واسمه وائل بن ربيعة بن وائل. وذات الإصاد: رَدْهَةٌ في ديار عبس يجتمع فيها الماء. معجم البلدان (ج ١ ص ١١٢، ٢٠٥). والذين ضيموا في ذينك الموضعين هم بنو مرّة، الذين ثأروا فيما بعد بقتل كليب.

(٩) الأبيات في ديوان ابن زيدون (ص ١٢٣ ـ ١٢٤) من قصيدة من ٢٨ بيتًا نظمها ابن زيدون وهو في السجن، يمدح فيها ابن جَهْور ويشكو إليه سوء حاله.

وَطَـرٌ مـا انْقَضَـى إلى أن تَـقَـضَّـى زَمَـنٌ مـا ذِمـامُـه بـالـذَّمِـيـمِ
أيُّـهَـا الـمـؤذِنِي بـظُلْمِ الـلَّيَـالِـي لَـيْسَ يَـومِـي بـواجِـدٍ مـن ظَـلُومِ
مـا تَـرى الـبَـدْرَ إنْ تـأمَّلْتَ والـشَّـمْـ ـسَ هُـمَـا[1] يُكْسَفَـان دونَ الـنجُـومِ
وهُـوَ الـدَّهْـرُ ليس يَـنْـفَـكُّ يَـنْـحُـو بـالمُصَـاب العـظِيمِ نحـو العـظِيـم

وقال الفتح أيضًا في شأن ابن زيدون، ما صورته[2]:

ولَمّا تعذّر انفكاكه[3]، وعُفّر فرقده وسماكه، وعاودته[4] الأوهام والفكر، وخانه من أبي الحزم الصارمُ الذَّكَر، قال يصف ما بين مَسَرَّاته وكُرُوبه، ويذكر بُعْدَ طلوع سَعْده[5] من غروبه، ويبكي لِمَا هو فيه من التعذير[6]، ويعذر أبا الحزم وليس له غيره من عذير، ويتعزّى بإخناء[7] الدَّهر على الأحرار، وإلحاحه على التمام بالسِّرار، ويخاطب وَلَّادَةَ بوَفاء عهده، ويُقيم لها البراهينَ على أرَقِه وسُهده[8] : [البسيط]

ما جال بَعْـدَكِ لَحْظي في سَنَـا الْقَمَـرِ إلّا ذكَـرْتُـكِ ذِكْـرَ الْـعَـيْـنِ بـالأثَـرِ
ولا اسْتَـطَلْتُ ذَمَـاءَ الـليـلِ مِنْ أسَـفٍ إلّا عَـلَى لـيـلةٍ سَـرَّتْ مـع القِـصَـرِ
في نَشْـوَةٍ مِنْ سِنَاتِ الـدَّهْـرِ مُـوهِمَـةٍ أنْ لا مَسَـافـة بين الـوَهْنِ والسَّحَـرِ[9]
يَـا لَيْتَ[10] ذاكَ السَّـوادَ الجَـونَ مُتَّصِلٌ قـد اسـتعـارَ سـوادَ الـقـلب والـبَـصَـرِ
يَـا لـلرَّزَايَـا لقـد شـافَهْتُ مَـنْـهَـلَهَـا غمـرًا فمـا أشربُ المَكْرُوهَ بـالغُمَـرِ[11]

---

(١) في قلائد العقيان: «كما». وفي الديوان: «قمر الأفق، إنْ تأمَّلْتَ. . .».
(٢) قلائد العقيان (ص ٧٦ ـ ٧٧).
(٣) في القلائد: «فكاكه».
(٤) في طبعة دار صادر: «وعادته».
(٥) في القلائد: «أمله».
(٦) في المصدر نفسه: «التعزير».
(٧) في طبعتي دار صادر وليدن، وفي القلائد: «بإنحاء».
(٨) الأبيات في ديوان ابن زيدون (ص ١٤٧ ـ ١٤٩) من قصيدة من ٥١ بيتًا بعث بها ابن زيدون من سجنه إلى أبي الحزم بن جهور يمدحه بها ويستعطفه.
(٩) لم يرد هذا البيت في الديوان. وفي قلائد العقيان: «ألاّ مسافة».
(١٠) في الديوان: «فليت. . . لو استعار. . .».
(١١) هذا البيت لم يرد في الديوان.

لا يهنأ[1] الشامتَ المُرتاحَ خاطِرُهُ | أنّي مُعَنّى الأماني ضائعُ الخَطَرِ
هل الرياحُ بنَجْمِ الأرضِ عاصِفَةٌ | أم الكُسُوفُ لِغَيرِ الشَّمْس والقَمَرِ؟
إنْ طالَ في السجن إيداعي فلا عَجَب | قد يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصارمِ الذَّكَرِ
وإن يُثَبِّطْ، أبا الحزمِ الرضا، قَدَرٌ | عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فلا عَتْبٌ على القَدَرِ
مَنْ لم أزل مِنْ تَدانيه[2] على ثِقَةٍ | ولم أبِتْ مِنْ تجنِّيه على حَذرِ

وله يتغزّل، ويعاتب من يستعطفه ويتنزل[3]: [مخلع البسيط]

يا مستخفًّا بعاشِقِيهِ | ومُسْتَغِشًّا لِناصِحِيهِ
ومَنْ أطاعَ الوُشَاة فِينا | حتى أطَعْنَا السُّلُوَّ فيه
الحمدُ للَّه إذ أراني | تكذيبَ ما كُنت تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أن يُهْزَمَ التَّسَلِّي | ويَغْلِبَ الشَّوْقُ ما يليه

وما أحسن قولَ ابن زيدون المذكور في قصيدته النونية الشهيرة[4]: [البسيط]

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينَا الْهَوَى فَدَعَوا | بأنْ نَغَصَّ، فقال الدَّهْرُ آمينا

ومن أغرب ما وقفْتُ عليه مُوشَّحة لابن الوكيل[5] دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون، وهي:

غدا مُنَادينا مُحَكَّمًا فينا | يَقْضِي علينا الأَسَى لولا تأسِّينا

(١) في الديوان: «لا يهنىء».
(٢) في طبعتي دار صادر وليدن وفي الديوان: «تأنِّيه».
(٣) الأبيات في ديوان ابن زيدون (ص ٥٣) وقلائد العقيان (ص ٧٧).
(٤) هي القصيدة المشهورة التي أرسلها ابن زيدون إلى محبوبته ولّادة بنت المستكفي، يسألها فيها أن تدوم على عهده ويتحسّر على أيامهما الماضية، وهي من ٥١ بيتًا. ومطلعها:
أَضْحَى التَّنائي بَديلًا مِنْ تَدانِينا | ونابَ عن طِيب لُقْيَانا تجافِينا
(٥) هو صدر الدين أبو عبد اللَّه محمد بن عمر بن مكي، المعروف في الشام بابن الوكيل؛ شيخ الشافعية في وقته، وشاعر له شعر وموشحات رقيقة. توفي بالقاهرة سنة ٧١٦ هـ. فوات الوفيات (ج ٤ ص ١٣) والبداية والنهاية (ج ١٤ ص ٨٠).
وهذه الموشحة تتكون من ٩ أقفال و ٨ أبيات، وتكون بذلك قد خرجت على قواعد ابن سناء الملك، التي تحدّد الموشحة التامة بستة أقفال وخمسة أبيات.
وقد خرج ابن الوكيل فيها أيضًا على قواعد الموشحات، إذ لم تتّفق الأبيات هنا في الروي إلّا في الجزء الأخير من كل بيت، وهو روي النون.

بَـحْـرُ الـهَـوَى يُـغْـرِقْ مَـنْ فـيـه جَـهْـدَهُ عَـامْ
ونـارُه تُـحْـرِقْ مَـنْ هَـمَّ أو قَـدْ هـام
ورُبّـمـا يُـقْـلِقْ فـتًـى عـلـيـه نَـام
قـد غَيَّـرَ الأجسـامْ وصَيَّـر الأيـامْ سُـودًا وكـانَتْ بكم بِيضًـا ليـالينـا
يـا صـاحـبَ الـنَّـجْـوَى قِـفْ واسْـتَـمِـعْ مـنـي
إيّـاكَ أن تـهْـوَى إنَّ الـهَـوى يُـضْـنِـي
لا تَـقْـرَبِ الـبَـلْوَى إسْـمَـعْ وقُـلْ عَـنِّـي
بِحَـارُهُ مَـرَّةْ خُـضْـنَـا على غِـرَّةْ حِينًـا فقـامَ بهـا للنَّعي نـاعينـا
مَـنْ هـامَ بـالـغِـيـدِ لاقَـى بِـهِـمْ هَـمَّـا
بـذلْـتُ مـجـهـودي لأحْـوَرٍ أَلْـمَـى
يَـهُـمُّ بـالـجُـودِ وردٌ مـا هَـمَّـا
وعندما قـد جاد بـالوصْـلِ أو قد كـاد أضحى التنـائي بـديـلاً مِنْ تـدانينـا
بِـحَـقِّ مـا بَـيـنـي وبَـيـنـكُـمْ إلَّا
أقْـرَرْتُـم عَـيـنِـي فـتـجـمـعُـوا الـشَّـمْـلا
فـالـعَـيـنُ بـالـبَـيـنِ بـفَـقْـدكُـمْ أبْـلَى
جـديدَ مـا قد كـانْ بالأهـل والإخوانْ ومَـورِدِ اللهْـوِ صـافٍ مِنْ تصَـافينـا
يـا جـيـرة بـانـتْ عـن مُـغْـرَمٍ صَـبِّ
لِـعَـهْـدِهِ خـانـتْ مِـنْ غـيـر مـا ذنـبِ
مـا هـكَـذا كـانـتْ عـوائِـدُ الـعُـرْبِ
لا تحسبـوا البُعْـدَا يُغَيِّـرَ العَهْـدَا إذ طـالمـا غَيَّـرَ النـأيُ المُحِبِّينـا
يـا نـازلاً بـالـبـان بـالـشَّـفْـعِ والْـوَتْـرِ
والـنـمـل والـفـرقـان والـلـيـل إذا يَـسْـرِ
وسُـورة الـرحـمـن والـنـحـلِ والـحِـجْـرِ
هل حلّ في الأديـانْ أن يَقْتُلَ الظمآنْ مَنْ كـان صِرْفَ الهـوى والودّ يسقينا
يـا سـائـل الـقَـطْـر عَـرِّجْ عـلـى الـوادي
مِـنْ سـاكـنـي بَـدْرِ وقِـفْ بـهـم نـادي
عـسـى صَـبًـا تَـسْـرِي لِـمُـغْـرَمٍ صـادي

إنْ شِئْتَ تُحْيِينـا بَلِّغْ تـحيّـتنـا[1] مَنْ لَـوْ على البُعْـدِ حيًّا كـان يُحْيينـا
وافَـتْ لـنـا أيـامْ كـأنـهـا أعْـوامْ
وكـان لـي أعْـوَامْ كـأنـهـا أيـامْ
تـمـرُّ كـالأحْـلاَمْ بـالـوصـل لـي لـو دام
والكـأسُ مُتْـرَعَـهْ حُثَّتْ مُشَعْشَعَـهْ فينـا الشَّمُـولُ وغنّـانـا مُغَنِّينـا

رجع إلى ما يتعلّق بقرطبة - قال الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنَة، يخاطب الوزير أبا الحسين بن سراج، ويذكر لِمَّةً[2] من إخوانه بقرطبة[3]: [الكامل]

يـا سيِّدِي وأبي هُـدًى[4] وجَـلالـةً ورسـولَ وُدِّي إنْ طَـلَبْـتَ رسـولاَ
عَـرِّجْ بـقـرطبـةٍ ولُـذْ إن جئـتـهـا بـأبي الحسين ونـادِه تمـويـلا[5]
فـإذا سَعِـدْتَ بنـظرةٍ مِنْ وَجْهِـهِ فـأهْـدِ السَّـلامَ لكفِّـه تـقـبيـلا
واذْكُـرْ لـه شكـري وشـوقي مجمـلاً ولـو استطعْتَ سَـرَدْتَـهُ تفصيـلا[6]
بِتَحِـيَّـةٍ تُـهْـدَى إلـيـه كـأنـمـا جَـرَّتْ على زهـرِ الـريـاض ذُيُـولاَ
وأَشِمَّ منهـا المُصْحَفِيَّ عـلى النَّـوَى نَـفَسًـا يُـنَسِّي السـوسن الـمبلولا
وإلـى أبـي مَـرْوَانَ مـنـه نَفْـحَـةً تُهْـدي لـه نَـورَ الـرُّبـا مَـطْلولا[7]
وإذا لَـقِـيـتَ الأخـطبيَّ فَـسَـقِّـه من صفـوِ وُدِّي قَـرْقَـفًـا وشَمُـولا[8]

---

(١) في طبعة دار صادر: «تحيينا» وهو أصوب للوزن وللروي.
(٢) كلمة «من» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٣) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٧٦٧ - ٧٦٨) وقلائد العقيان (ص ١٥١ - ١٥٢). وقد تقدمت منها الأبيات الخمسة الأوائل في الجزء الأول من نفح الطيب.
(٤) في طبعة دار صادر: «هوًى».
(٥) في طبعة عبد الحميد: «تعويلا». وفي قلائد العقيان والذخيرة: «عَرِّج بقرطبة إذا بُلِّغْتَها». وقوله: «تمويلا»: أي قُلْ له: يا مولاي.
(٦) في القلائد: «واذكر له شوقي وشكري... شرحته تفصيلا». وفي الذخيرة: واذكر له شوقي ووجدي... شَرَحْتَهُ تفصيلا». وفي طبعة دار صادر: «شَرَحْتَهُ» بدل «سَرَدْتَهُ».
(٧) في القلائد: «منها» بدل «منه». وفي الذخيرة: «منها نفحة تجني».
(٨) في القلائد: «فأسقه» بدل «فَسَقِّهِ». وفي الذخيرة: «الأخطليَّ فَسَقِّه». والقَرْقَفُ والشَّمُولُ: الخمر. لسان العرب (قرقف) و (شمل).

وأبــو عــلـيٍّ سَـقٍّ[1] مـنـهــا رَبْـعَــه   مِـسْـكًــا بـمــاء غـمــامــةٍ مـحـلولا
واذْكُــرْ لَـهـمْ زمـنًــا يـهـبُّ نَـسِـيـمُــه   أُصُلاً كَـنَفْـثِ الـراقـيـات عـلـيـلا
مــولًـى ومُــولِـيَ نِـعْـمَــةٍ وكــرامــةٍ   وأخــا إخــاء مُـخْـلِـصًــا وخـلـيــلا[2]
بـالحَـيـرِ مـا عبست[3] هنـاك غَـمـامَـةٌ   إلَّا تـضــاحــك إذْخِــرًا وجَــلِـيــلا
يــومًــا ولــيــلاً كــان ذلــك كــلُّه   سَــحَــرًا وهــذا بُــكْــرَةً وأصِـيــلا
لا أدركــتْ تــلك الأَهِــلَّةُ دَهْــرَهَــا   نـقـصًــا ولا تـلك الـنــجــومُ أُفُــولا

قال أبو نصر: الحير الذي ذكره هنا هو حَير الزَّجَّالي خارج بـاب اليهود بقـرطبة الـذي يقول فيه أبو عامر بن شُهَيد[4] : [المتقارب]

لـقــد أطْلَعُــوا عـنــد بــاب الـيـهــو   د شمسًــا أبى الحسنُ أن تـكـسـفـا[5]
تــراه الــيــهــودُ عــلى بــابــهــا   أمــيــرًا فــتــحْــسَــبُــه يــوسُــفــا

وهذا الْحَير من أبدع المواضع وأجملها، وأتمّها حُسْنًا وأكملها، صَحْنُهُ مرمرٌ صـافي[6] البياض، يخترقه جدول كالحيّة النَّضْنَاض، به جابية[7]، كل لجّة بها كابيـة، قد قـربصت[8] بالذهب واللازورد سماؤه، وتـأزَّرَتْ بهما جـوانبه وأرجـاؤه، والروض قـد اعتدلت أسـطاره، وابْتسمتْ من كمـائمها أزهـاره، ومنع الشمس أن تـرمق ثـراه، وتعـطَّر النسيم بهبـوبـه عليـه ومَسْراه، شهدت بـه[9] لياليَ وأيَّـامًا كـأنّما تصوَّرت من لمحـات الأحبـاب، أو قُـدَّتْ من صفحات أيام الشباب، وكانت لأبي عامر بن شُهَيد به فُـرَجٌ وراحات، أعـطاه فيها الـدهر مـا شاء، ووالى عليه الصحو والانتشاء، وكان هو وصاحب الروض المدفون بإزائه أليفَيْ صَبْـوَة،

---

(١) في القلائد: «وأبا عليّ بُلَّ. . .». وفي الذخيرة: «بُلَّ» بدل «سَقِّ».
(١) في الذخيرة: «نعمةٍ ومواليًا. . . خالصًا وخليلا».
(٣) في القلائد: «بالحير عابسةٌ». وفي الذخيرة: «بالحير لا عبست عليه. . .».
(٤) البيتـان في ديـوان ابن شهيـد الأنـدلسي (ص ١٠٠). وقـد تقـدمـا في الجـزء الأول من نفــح الـطيب.
(٥) في ديوان ابن شهيد: «بدرًا أبى الحُسْنُ أن يُكْسَفا».
(٦) في قلائد العقيان (ص ١٥٢)- «صحنه مرموصًا».
(٧) الجابية: الحوض الذي يُجْبَى فيه الماء للإبل، أي يُجْمَعُ، والجمع الجوابي. مختار الصحاح (جبا).
(٨) في القلائد: «قرنست».
(٩) هكذا في القلائد، وفي طبعة دار صادر: «له».

وحليفي نشوة، عَكَفَا فيه على جِرْيَالهما[1]، وتصرَّفا بين زَهْوهما واختيالهما، حتى ردَّاهما الرَّدَى، وعداهما الحِمام عن ذلك المدى، فتجاوروا في الممات، تجاورهما في الحياة، وتقلّصت عنهما وارفات تلك الفيئات، وإلى ذلك العهد أشار ابن شُهَيد وبه عرَّض، وبشوقه صحّح وما مرض، حيث يقول عند موته يخاطب أبا مروان صاحبه وأمر أن يُدْفَنَ بإزائه ويُكْتَبَ على قبره[2]: [مخلع البسيط]

يا صاحِبِي قُمْ فقد أطَلْنا ... أنحنُ طولَ المَدَى هُجُودُ؟
فقال لي: لن نقوم منها ... ما دامَ مِنْ فوقنا الصَّعِيدُ
تَذْكُرُ كمْ ليلةٍ نَعِمْنَا[3] ... في ظِلِّها والزمانُ عِيدُ
وكم سرور[4] هَمَى علينا ... سحابةً ثَرَّةً تجود؟
فخيرُهُ مُسرعا تقَضَّى[5] ... وشُؤْمُهُ حاضِرٌ عَتِيدُ
حَصَّله كاتبٌ حَفِيظٌ ... وضَمَّهُ صادِقٌ شهيدُ
يا وَيْلَنا إنْ تَنكَّبَتْنا ... رَحْمَةُ مَنْ بَطْشُهُ شديدُ
يا ربِّ عفْوًا فأنت مولًى ... قَصَّرَ في أمرك العبيدُ

انتهى.

ثم قال بعد كلام[6]: وركب أبو الحسن ابن القَبْطُرْنَة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسين بن سراج، فنظر إلى أبي الحكم بن حزم غلامًا كما عَقَّ تمائمه[7]، وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فيه، فأُرْتِجَ عليه[8]، فثنى عنان القول إليه، فقال: [الطويل]

---

(١) الجريالُ: الخمر، مختار الصحاح (جرل).

(٢) الأبيات في ديوان ابن شهيد (ص ٤٦ - ٤٧) وقلائد العقيان (ص ١٥٢ - ١٥٣).

(٣) في الديوان: «ليلةٍ لَهَونا».

(٤) هكذا في الديوان والقلائد وطبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: «سرورًا».

(٥) في طبعة دار صادر والديوان والقلائد: «كلٌّ كأنْ لم يَكُنْ تَقَضَّى».

(٦) قلائد العقيان (ص ١٥٤).

(٧) التمائم: جمع تميمة وهي خرزات كان الأعراب يعلّقونها على أولادهم يتّقون بها العين بزعمهم. وعَقَّ تمائمه: رماها ولم يعد يحتاجها لأنه جاوز حَدَّ الطفولة. محيط المحيط (تمم) و (عقق).

(٨) أُرْتِجَ عليه الكلامُ: استغلق عليه. لسان العرب (رتج).

رأى صاحبي عَمْرًا فكَلَّف وصفه ... وحَمَّلني من ذاك ما ليس في الطوقِ
فقلت له: عمرو كعمرٍو، فقال لي: ... صَدَقْتَ ولكنْ ذاكَ[1] شَبَّ على الطَّوقِ

وكان بنو القَبْطُرْنَة بالأندلس أشهَرَ مِنْ نار على عَلَم، وقد تصرّفوا في البراعة والقَلم، ولهم الوزارة المذكورة، والفضائل المشكورة، ولذا قال أبو نصر في حقّهم ما صورته[2]:

هم للمجد كالأثافي، وما منهم إلاّ موفور القَوادم والخَوافي، إن ظهروا، زَهَرُوا، وإنْ تجمَّعُوا، تضوّعوا، وإن نطقوا، صدقوا، ماؤهم صَفْو، وكل واحد منهم لصاحبه كُفْو، أنارَتْ بهم نجومُ المعالي وشموسُها، ودانت لهم أرواحُها ونفوسُها، ولهم النظام الصافي الزجاجة، المضمحلّ العجاجة، انتهى.

ثم قال[3]: وبات منهم أبو محمد مع أخويه في أيام صِباه، واستطابة[4] جَنُوب الشَّباب وصَبَاه، بالمنية المسمّاة بالبديع، وهو[5] روض كان المتوكل يَكْلَف بموافاته، ويبتهج بحسن صفاته، ويقطف رياحِينَه وزَهَرَه، ويوقف[6] عليه إغفاءهُ وسَهَرَه، ويستفزُّه الطرب متى ذَكَرَه، وينتهز فُرَصَ الأنس فيه رَوحَاته وبُكَره، ويدير حُمَيَّاه على ضفة نهره، ويخلع سرّه فيه لطاعة جهره، ومعه أخَوَاه فطاردوا اللّذّات حتى أنضَوهَا، ولبسوا برود السرور وما نَضَوها، حتى صَرَعَتْهُمُ العُقَار، وطلَّحتهم تلك الأوقار، فلمّا همَّ رداءُ الفجر أن يَنْدَى، وجبينُ الصبح أن يَتَبَدَّى، قام الوزير أبو محمد فقال[7]: [الخفيف]

يا شقيقي، وافى[8] الصباحُ بوَجْهٍ ... سَتَرَ الليلَ نُورُه وبَهَاؤهْ
فاصْطَبِحْ واغتنمْ مَسَرَّة يومٍ ... لَسْتَ[9] تدرِي بما يجيءُ مَسَاؤُهْ

---

(١) في طبعة بولاق وفي القلائد: «ولكن ذا أشبّ».
(٢) أبو نصر هو ابن خاقان. والنص في قلائد العقيان (ص ١٤٨).
(٣) قلائد العقيان (ص ١٥٠).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «واستطابته».
(٥) في قلائد العقيان: «وهي».
(٦) في المصدر نفسه: «ويقف».
(٧) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٥٠) والمغرب (ج ١ ص ٣٦٧).
(٨) في المغرب: «أتى».
(٩) في القلائد والمغرب: «ليس».

ثمّ استيقظ أخوه أبو بكر فقال[1]: [الخفيف]

يـا أخِي، قُـمْ تَـرَ الـنَّـسِـيـمَ عـلـيـلا ... بـاكِـرِ الـرَّوْضَ والـمُـدَامَ شَـمُـولاَ
لا تَـنَـمْ، واغـتـنـمْ مَـسَـرَّةَ يـومٍ ... إنَّ تـحـت الـتـرابِ نَـومًـا طـويـلا
في ريـاضٍ تـعـانَـقَ الـزَّهْـرُ فـيـهـا ... مـثـلَ مـا عـانق الـخـلـيـلُ الـخـلـيـلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن، وقد[2] هبَّ من غفلة الوَسَن، فقال[3]: [البسيط]

يـا صَـاحِـبـيَّ ذَرَا لَـومِـي ومَـعْـتَـبَـتِـي ... قُمْ نَصْطَبِحْ خمـرةً من خَيـر مـا ذَخَـرُوا
وبـادِرَا غـفـلَـةَ الأيـام وَاغْـتَـنِـمـا ... فـاليومَ خَمْـرٌ ويَبْـدو في غَـدٍ خَبَـرُ[4]

وساق صاحبُ البدائع هذه القصة فقال[5]: وذكر الفتح ما هذا معناه أنه خرج الوزراء بنو القَبْطُرْنَة إلى المنْيَة المسماة بالبديع، وهو روض قد اخضَرَّت مسارحُ نباته، واخْضَلَّت مساري هَبَّاته، ودَمَعَتْ بالطلِّ عيونُ أزهاره، وذاب على زَبَرْجَده بَلّور أنهاره، وتجمَّعَتْ فيه المحاسن المتفرِّقَة، وأضحتْ مُقَل الحوادث عنه مُطْرِقة، فخيولُ النسيم تركض في مَيادينه فلا تَكْبُو، ونصولُ السّواقي تحسم[6] أدواء الشّجر فلا تنبو، والزروع قد نقَّبتْ وجه الثرى، وحجبتِ الأرضَ عن العيونِ فما تُبْصَرُ ولا تُرَى، وكان المتوكّل بن الأفطس يَعُدُّهُ غاية الأرب، ويُعِدُّه مشهدًا[7] للطّرب، ومدفعًا للكرب، فباتوا فيه ليلتهم يريدون لُمَعَ لَهَب يتمنون فيه الخلود، ويَتَحَسَّونَ ذَوْب ذهب لا يُصْهَر به ما في بطونهم والجلود، حتى تركتهم ابنة الخابية، كأنهم أعجازُ نَخْل خاوية، فلما هزم رُوميُّ الصباح زنجيَّ الظلام، ونادى الدِّيكُ حيَّ على المُدَام، انتبه كبيرُهم أبو محمد مستعجلاً، وأنشد مُرْتجلاً: «يا شقيقي - إلخ» فانتبه أخوه أبو بكر لصوته، وتخوّف لذهاب ذلك الوقت وفَوته وأنبه أخاهما أبا الحسن وهو يرتجل:

---

(١) الأبيات الثلاثة في قلائد العقيان (ص ١٥٠) وجاء فيه البيت الثاني في الترتيب ثالثًا. والبيتان الأول والثاني في المغرب (ج ١ ص ٣٦٧).

(٢) في القلائد: «وقد ذهب من عقله الوسن».

(٣) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٥٠) والمغرب (ج ١ ص ٣٦٨).

(٤) يشير هنا إلى قول امرىء القيس: «اليوم خمر وغدًا أمر»، وقد قاله عندما أبلغ أن بني أسد ثاروا على أبيه وقتلوه، وكان آنذاك في مجلس شراب.

(٥) بدائع البدائه للأزدي (ج ٢ ص ١٤٠).

(٦) في بدائع البدائه: «تصول لحسم».

(٧) في المصدر نفسه: «منبّهة للطرب».

«يا أخي قُمْ تَرَ النسيمَ. . . إلى آخره». فانتبه أخوه لكلامه، دافعًا لـذّة منامه للذّة قيامه، وارتجل: «يا صاحبيَّ ذَرَا ـ إلخ، انتهى.

قال الفتح[1]: ولَمَّا أمر المعتمد بن عبّاد أبا بكر بن القَبْطُرنة السابق الذكر مع الوزير أبي الحسين بن سراج بلقاء ذي الوزارتين أبي الحسن بن اليَسَع[2] القائد، والمشي إليه، والنزول عليه، تنويهًا بمقْدمه[3]، وتنبيهًا على حظوته لديه وتقدّمه، فصارا[4] إلى بابه، فوجداه مقفرًا مِنْ حُجَّابه، فاستغربا خُلُوَّه من خَول، وظنَّ كلٌّ واحد منهما وتأوَّل، ثم أجمعا على قَرْع الباب، ورَفْعِ ذلك[5] الارتياب، فخرج وَهُو دهِش، وأشار إليهما بالتحيّة ويَدُه ترتعش، وأنزلهما خجِلاً، ومشى بين أيديهما عَجِلاً، وأشار إلى شَخْص فتوارى بالحجاب، وبارى الرِّيحَ سرعةً في الاحتجاب، فقعدا ومُقْلة الخِشف، ترمق من خلال السِّجْف[6]، فانصرفا عنه، وعَزما أن يكتبا إليه بما فهما منه، فكتبا إليه: [الهزج]

سَمِعْنَا خَشْفَةَ الخِشْفِ[7] ... وشِمْنَا طَرْفَةَ الطَّرْفِ
وصَدَّقْنَا ولم نقطعْ ... وكَذَّبْنَا ولم نَنْفِ
وأغْضَيْنَا لإجلالـ ... ـك عن أُكْرُومَةِ الظَّرْفِ
ولم تُنْصَفْ وقد جِئْنَا ... كَ ما تَنْهَضُ مِنْ ضَعْفِ
وكان الحكم[8] أن تَحْمِـ ... ـلَ أو تُرْدِفَ في الرِّدْفِ

فراجعهما في الحين بقطعة منها: [مجزوء الوافر]

أيا أَسَفِي على حَالٍ ... سُلِبْتُ بها من الظرفِ[9]

---

(١) قلائد العقيان (ص ١٦٧).

(٢) أبو الحسن بن اليسع أمير ولّاه المعتمد بن عباد مرسيه فصار فيها قائدًا ووزيرًا، ولكن أهلها ثاروا عليه وخلعوه. الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٧٢) وقلائد العقيان (ص ١٦٧) والمغرب (ج ٢ ص ٨٧).

(٣) في طبعة دار صادر وقلائد العقيان: «لمقدمه».

(٤) في القلائد: «فسارا».

(٥) في المصدر نفسه: «ذاك».

(٦) الخِشْفُ: ولد الظبية، السِّجْفُ: السِّتْرُ. لسان العرب (خشف) و (سجف).

(٧) في القلائد: «الحشف».

(٨) هكذا في القلائد، وفي طبعة ليدن: «الحق».

(٩) في قلائد العقيان: «أيا أسفًا. . .». وفي طبعة ليدن: «سللت» بدل «سلبْتُ».

ويـا لَـهْـفِـي عـلى جـهـلي بـضَـيْـفٍ[1] كـان مِنْ صـنْـفِ

ولأهل الأندلس في مغاني الأنس الحسان، ما لا يفي به لسان.

وقال الفتح في ترجمة الوزير أبي الفضل بن حَسْدَاي، بعد كلام، ما صورته[2]: فمنها هذه القطعة التي أطلَعَهَا نَيِّرة، وترك الألباب بها متحيّرة، في يوم كان عند المقتدر بالله مع عِلْيـة، قد اتّخذوا المجد حِلْية، والأملُ قد سَفَرَ لهم عن مُحَيَّاه، وعبق لهم عن[3] رَيَّاه، فصافحه الكلُّ منهم وحَيَّاه، وشمس الراح، دائرة على فلك الراح، والملك ينشر فضله، وينشر وابله وطَلّه، يُسْدي العَلاء، ويهب الغنى والغناء، فصَدَحَت الغواني. وأفصحت المَثَالث والْمَثاني، بما استنزل من مرقب[4] الوقار، وسرى في النفوس مسرى العُقَار[5].

[البسيط]

تـوريـدُ خَـدِّك لـلأحـداق لَـذَّاتُ عليـه مـن عَـنْبَـرِ الأصـداغِ لاَمَـاتُ

نِيـرانُ هَجْـرِكَ لـلعُشَّـاقِ نـارُ لَـظًى لـكـنَّ وَصْـلَكَ[6] إنْ وَاصَلْتَ جَـنّـاتُ

كـأنمـا الـراحُ والـراحـاتُ تَحْـمِلُهـا بُـدُورُ تِـمٍّ وأيـدِي الـشَّـرْبِ هـالاتُ

حُشَـاشَـةٌ مـا تَـرَكْنَـا المـاءَ يَقْـتُلُهَـا إلَّا لِـتَـحْـيَـا بـهـا مـنـا حُشـاشَـاتُ

قـد كـان في كـأسهـا مِنْ قبْلهـا ثِقَـلٌ فَـخَفَّ إذ مُـلِئَتْ مـنـهـا الـزُّجَـاجَـاتُ

عَـهْـدُ لِلُبْـنَـى تـقـاضَـتْـه الأمـانـاتُ بـانَـتْ ومـا قُضِيَتْ مـنـهـا لُـبَـانـاتُ

يُـدْنِـي التَّـوَهُّـمُ للمُشْتـاق مُـنْـتَـزِحًـا مـن الأمـور، وفـي الأوهـامِ راحـاتُ

تُقْضَى عِـدَاتُ إذا هَبَّ[7] الكـرى، وإذا هَـبَّ النسيـمُ فـقـد تُـهْـدَى تـحـيَّـاتُ

زُورٌ يُـعَـلِّلُ قَـلْـبُ الـمُـسْـتَـهَـام بـه دَهْـرًا، وقـد بَقِيَتْ في النفس حـاجـات

لَـعَـلَّ عَـتْـبَ الـلـيـالـي أن يَـعُـودَ إلـى عُـتْـبَـى فَـتُـبْـلَغَ أوْطَـارٌ ولَـذَّاتُ

حتى نَـفُـوز بـمـا جـادَ الـخيـالُ بـهِ فـرُبَّـمـا صَـدَقَـتْ تـلك الْـمَـنَـامَـاتُ

(١) هكذا في القلائد. وفي طبعة دار صادر: «بصنف».

(٢) قلائد العقيان (ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

(٣) كلمة «عن» لم ترد في القلائد.

(٤) في القلائد: «موقف».

(٥) الأبيات في القلائد (ص ١٨٣) وفي المطرب (ص ١٩٦) الأبيات الخمسة الأول. وستأتي الأبيات الخمسة الأول في الجزء الرابع من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا.

(٦) في المطرب: «لكنْ وِصالُكَ».

(٧) في القلائد: «عاد».

ولما أعرس المستعينُ بالله(١) ببنت الوزير الأجلِّ أبي بكر بن عبد العزيز(٢) احتفل أبوه المؤتمن في ذلك احتفالاً شَهَرَه، وأبدع فيه إبداعًا راق مَنْ حضره وبَهَرَه، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة، والأدوات المخترعة، ما بهَرَ الألباب، وقَطَع بذكائه(٣) دون معرفتها الأسباب، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس، مِنْ دَانٍ وقاص، ومُطِيع وعاصٍ، فأتَوه مسرعين، ولَبَّوه متبرّعين، وكان مُدِيرَ تلك الآراء ومُدَبِّرَها، ومنشىء مخاطباتها ومُحَبِّرَها، الوزير الكاتب أبو الفضل، وصدرتْ عنه في ذلك الوقت كتبٌ ظهر إعجازُهَا، وبهر اقتضابها وإيجازها، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر(٤): مَحَلُّك أعزَّك الله في طيّ الجوانح ثابتٌ وإنْ نزحت الدار، وعِيَانُكَ في أحناء الضلوع بَادٍ وإنْ شَحَطَ المزار، فالنفس فائزة منك بتمثّل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تمتّع من لقائك بظفَر اللحظ، فلا عائدة أسبغُ بُرْدًا، ولا موهب أسْوَغُ وِرْدا، من تفضلك بالخفوف(٥) إلى مأْنسٍ يتمُّ بمشاهدتك التئامُه، ويتّصل بمحاضرتك انتظامُه، ولك فضل الإجمال، بالإمتاع من ذلك أعظم الآمال، وأنا أعزّك الله على شَرَف سُؤددك حاكم، وعلى مَشْرَع سنائك حائم، وحَسْبي ما تتحقّقه من نِزاعي وتشوُّقي، وتتيقّنه من تطلُّعي وتتوُّقي، وقد تمكّن الارتياح باستحكام الثقة، واعترض الانشراح(٦) بارتقاب الصلة، وأنت وَصَل الله سَعْدَكَ بسَمَاحة شيمك، وبارع كرمك، تُنْشىء للمؤانسة عهدًا، وتُورِي بالمكارمة زَنْدًا، وتَقْتَضي

---

(١) المستعين بالله هو أحمد بن المؤتمن بن يوسف بن أحمد بن سليمان بن هود، رابع ملوك دولة بني هود بسرقسطة. تولّى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٤٧٨ هـ، وظل يحكم حتى سنة ٥٠٣ هـ، وقيل: ٥٠١ هـ. الأعلام (ج ١ ص ٢٧٣ ومصادر حاشيته).

(٢) أبو بكر بن عبد العزيز من بيت شرف وعِزّ ببلنسية. كان عَين بلنسية ووزيرها. وكان متحققًا بالأدب. توفي سنة ٤٥٦ هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني، ص ٢٠٢) وقلائد العقيان (ص ١٦٢).

(٣) كلمة «بذكائه» لم ترد في طبعة دار صادر ولا في قلائد العقيان.

(٤) هو محمد بن أحمد بن إسحق بن طاهر؛ قام بأمر مرسية حينًا، فثار عليه أهلها واستغاثوا بالمعتمد بن عباد، فأغاثهم وأخذ مرسية، فخرج ابن طاهر منها إلى بلنسية وظل فيها حتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ. قلائد العقيان (ص ٥٦) والمغرب (ج ٢ ص ٢٤٧) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٠١).

(٥) في قلائد العقيان: بالحفوف. والخفوف: الإسراع. لسان العرب (خفف).

(٦) في طبعتي دار صادر وبولاق: «واعترض الاقتراح باستحباب...». وفي القلائد: «واعتراض الانتزاح بارتقاب الصلة».

بالمشاركة شكرًا حافلاً وحمدًا، لا زِلْتَ مُهَنَّئًا بالسعود المقتبلة[1]، مُسَوَّغًا اجتلاء غُرَرِ الأماني المتهلّلة، بمنِّه، انتهى.

ثم قال بعد هذا بيسير، ما نصّه[2]: وركب المستعين بالله يومًا نهرَ سَرَقُسْطة يريد طِرَادَ لذّته، وارتياد نزهته، وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بلَبَّته، واجتمع له من أصحابه، من اختصّه لاستصحابه، وفيهم أبو الفضل مشاهدًا لانفراجهم، سالكًا لمنهاجهم، والمستعين قد أحضر من آلات إيناسه، وأظهر من أنواع ذلك وأجناسه، ما رَاقَ مَنْ حضر، وفاق حسنُه الروضَ الأنضر، والزوارق قد حفّت به، والتفّت بجوانبه، ونغماتُ الأوتار تحبس السائر عن عَدْوه، وتخرس الطائر المُفْصِح بشَدْوه، والسمك[3] تثيرها المكايد، وتغوصُ إليها المصايد، فتبرز منها للعين، قُضْبَان دُرٍّ أو سَبَائِك لُجَينٍ، والراحُ لا يطمس لها لمع، ولا يبخس منها بصر ولا سمع، والدهرُ قد غضّت صروفُه، واقتصّ من نكره[4] معروفه، فقال[5]: [البسيط]

لـلّه يَـومٌ أَنِـيـقٌ واضـحُ الـغُـرَرِ[6] مُـفَـضَّضٌ مُـذْهَـبُ الآصـال وَالـبُـكَـرِ

كـأنّـمـا الـدهْـرُ لَمَّـا سـاء أعْـتَبَـنَـا فيـه بعُـتْبَى وأبْـدَى صَفْـحَ مُعْـتَـذِرِ

نسيـرُ في زَوْرَقٍ حَفَّ السَّفِـينُ بـه مِنْ جانبيـهِ بمنـظومٍ ومُنْـتَـثِـرِ

مُـدَّ الـشـراعُ بـه نشـرًا على مَلِكٍ بَـذَّ الأوائـلَ فـي أيـامـه الأُخَـرِ

هـو الإمـام الهمـام المستعينُ حَوَى عليـاء مؤتمن عن هَـدْيِ مُقْتَـدِرِ

تحـوي السفينـةُ منـه آيـةً عجـبًـا بَحْـرٌ تَجَمَّـعَ حتى صار في نَهَـرِ

تُصـادِ مِنْ قَعْرِه النينـانُ مُصْعَـدةً[7] صيـدًا كمـا ظفـر الغـوّاصُ بـالـدُّرَرِ

ولِلـنَّـدَامـى بـه عَـبٌّ ومُـرْتَشَـفٌ كـالـرِّيـق يَعْـذُب في وِرْدٍ وفي صَـدَرِ

والشَّـرْبُ في مَـدْح[8] مولًى خُلْقُه زَهَـرٌ يـذْكُـو وغـرَّتُـه أبهى من القـمـر

---

(١) هكذا في القلائد. وفي طبعتي دار صادر وليدن: «المقبلة».

(٢) قلائد العقيان (ص ١٨٤ ـ ١٨٥).

(٣) هكذا في قلائد العقيان. وفي طبعة دار صادر: «السمك» بدون واو العطف.

(٤) في القلائد: «منكرة».

(٥) سترد هذه الأبيات في الجزء الرابع من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٦) في قلائد العقيان: «يومٌ للّه أنيقٌ...»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في القلائد: «تُثارُ من قعره...». النِّينانُ: جمع نون وهو الحوت. لسان العرب (نون).

(٨) في القلائد: «ودِّ».

وقال في ترجمة العلامة الكبير، الأستاذ أبي محمد عبد الله بن السيِّد البطليوسي شارح أدب الكتاب وسقْط الزَّند وغيرهما[1]، ما صورته[2]: أخبرني أنه حضر مع المأمون بن ذي النون في مجلس الناعورة بالمُنية التي تطمح إليها المُنَى، ومَرْآها هو المقترح والمتمنَّى، والمأمون قد احْتَبى، وأفاض الحُبا، والمجلسُ يروق كأنّ الشَّمْسَ[3] في أُفقِه، والبدرَ[4] في مفْرقه، والنَّوْر عبق، وعلى ماء النهر مُصْطبح ومُغْتَبِق، والدولاب يئنُّ كناقة إثـر الحُوَار[5]، أو كَثْكَلَى من حرِّ الأُوار، والجوّ قد عَنْبَرَتْه أنواؤه، والروض قد رَشّته أنداؤه، والأُسْدُ قد فغَرَت أفواهها، ومجت أمواهها، فقال: [المنسرح]

يا مَنْظَرًا إنْ نَظَرْتُ بَهْجَتَهُ ... أذْكَرَنِي حُسْنَ[6] جَنَّةِ الخُلْدِ
تُرْبَةُ مِسْكٍ، وجَوُّ عَنْبَرَةٍ، ... وغَيْمُ نَدّ، وطشُّ ما وَرْدِ
والماءُ كاللاَّزَوَرْدِ قد نَظَمَتْ فيه ... اللآلي فَوَاغِرُ الأُسدِ
كأنما جائلُ[7] الحباب به ... يَلْعَبُ في جانبيه بالنَّرْدِ
تَرَاهُ يَزْهو إذا يَحلُّ به الـ ... ـمأمونُ زَهْوَ الفتاة بالعِقْدِ[8]
تَخَالُه إنْ بَدَا قَمَرًا ... تِمًّا بَدَا في مطالع السَّعْدِ
كأنَّما أُلْبِسَتْ حَدائِقُهُ ... مَا حازَ مِنْ شِيمَةٍ ومن مَجْدِ
كأنما جَادَهَا فَرَوَّضَهَا ... بِوَابِلٍ من يمينه رَغْدِ
لاَ زَالَ في رِفْعَةٍ مُضَاعَفَةٍ ... متمّم الرِّفْدِ وَارِيَ الزَّنْدِ[9]

وقال في وصف هذا المجلس بعينه، في الكتاب الذي أفرده لترجمة ابن السيِّد ما صورته[10]: فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس الناعورة بطلَيطلة في

---

(١) أدب الكتاب هو لأبي بكر محمد بن يحيىٰ الصولي، وسقط الزند لأبي العلاء المعرِّي.
(٢) قلائد العقيان (ص ١٩٣).
(٣) هكذا في قلائد العقيان. وفي طبعة دار صادر: «يروق كالشمس في...».
(٤) هكذا في القلائد. وفي طبعة دار صادر: «والبدر كالتاج في...».
(٥) الحُوار، بضمِّ الحاء: ولد الناقة منذ ولادته حتى فطامه. لسان العرب (حور).
(٦) في القلائد: «حسنه».
(٧) في المصدر نفسه: «جائل».
(٨) في طبعة ليدن: «تراه يزهى...». وهذا البيت لم يرد في قلائد العقيان.
(٩) في طبعة ليدن: «لا زال في عزّة». وفي القلائد: «لا زال في عزه... ميمم الرِّفْدِ...».
(١٠) الكتاب الذي أفرده ابن خاقان لترجمة ابن السيد في أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٠٣ ـ ١٠٧).

المنية المتناهية البهاء والإشراق، المباهية لزَوْراء العراق، التي ينفح شَذاها العَطِر، ويَكاد من الغَضَارة يُمْطر، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوَقَار وارْتَدَاه، وحَكَّم العُقَارَ في جوده ونَدَاه، والمجلسُ يشرق كالشمس في الحمل، ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل، والزَهر عَبِق، وعلى ماء النهر مُصْطبح ومغتبق، والدولابُ يَئِنُّ كناقة إثر حُوَار، إلى آخر ما سبق.

وقال ابن ظافر[1] في وصف هذا المجلس حاذيًا حذو الفتح، ما صورته: حضر الأستاذ أبو محمد بن السيد عند المأمون ابن ذي النون في بعض منتزهاته، في وقت[2] طاب نَعيمهُ، وسَرَت بالسعود نجومه، والروض قد أجادَ وشيَه راقمه، والماء قد جَرَت بين الأعشاب أراقمه، وثمَّ بركة مملوة، كأنها مرآة مجلوّة، قد اتّخذت سباعُ الصُّفْر بشاطئها غابًا، ومَجَّتْ بها من سائغ الماء لُعابًا، فكأنها آساد عَين، أدْلَعَتْ ألسنة من لُجَين، وهي لا تزال تقذف الماء ولا تَفْتُر، وتنظم لآلي الحباب بعد ما تنثُر، فأمره بوصف ذلك الموضع، الذي تَخِدُ[3] إليه ركائبُ القلوب وتُوضع[4]، فقال بديهًا: «يا منظر إلخ»، انتهى.

ثم قال الفتح في هذا التصنيف بعد كلام في المذكور، ما نَصُّه: وما أبدع قوله في وصف الراح، والحضِّ على النَّبْذ للهموم والاطِّراح، بِمُعَاطاة[5] كأسها، وموالاة إيناسها، ومُعَاقرة دِنانها، واهتصار ثمار الفُتُوّة من أفنانها[6]، والإعراض عن الأيام وأنكادها، والجَرْي في مَيدان الصَّبْوة إلى أبعد آمادها: [الكامل]

سَلِّ الهُمُومَ إذا نَبَا زَمَنٌ ... بِمُدَامةٍ صَفْرَاءَ كالذَّهَبِ
مُزِجَتْ، فمن دُرٍّ على ذَهَبٍ ... طافٍ ومِنْ حَبَبٍ على لَهَبِ
وكأنَّ ساقِيَهَا يُثِيرُ شَذَى ... مِسْكٍ لدَى الأقوام مُنْتَهَبِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «وقال الفضل»، والنصّ في بدائع البدائه (ج ٢ ص ٤٠).
(٢) في بدائع البدائه: «في يوم».
(٣) في المصدر نفسه: «تخب». ويقال: وخَدَ الجمل إذا أسرع. لسان العرب (وخد).
(٤) توضع: تُسْرِع؛ يقال: أوضعت الناقة إذا أسرعت. لسان العرب (وضع).
(٥) في أزهار الرياض: «بمعاطاة كؤوسها، وموالاة تأنيسها».
(٦) في طبعة دار صادر: «من أفنانها».

ولله هو فقد ندب إلى المندوب، وذهب إلى مداواة القلوب من الندوب، وإبرائها من الآلام، وإهدائها كلَّ تحية وسلام، وإبهاجها بآصال وبُكَر، وعلاجها من هموم وفكر، في زمنٍ حَليَ عاطلُه، وجُلّي في أحسن الصور باطلُه، ونفقتْ مُحَالاته، وطبقتْ أرضه وسماءَهُ استحالاته، فليثه كأسد، وذئبه مُسْتأسد، وحُفّاثه[1] تُنَمَّر، وبغَاثه قد اسْتَنْسر[2]، فلا استراحة إلَّا في مُعَاطاةِ حُمَيًّا، ومواخاة وسيم[3] المحيًّا، وقد كان ابن عمار ذَهب مذهبه، وفَضَّضه بالإبداع وذهَّبه، حين دخل سَرَقُسْطة ورأى غَبَاوة أهلها، وتكاثُفَ جهلها، وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فصْلاً، وواصَل مَنْ لا يعرف قَطْعًا ولا وصلاً، فأقبل على راحِهِ يتعاطاها، وعكف عليها ما تَعَدَّاها ولا تخطَّاها، حتى بلغه أنهم نقموا مُعَاقرته العُقار، وجالتْ ألسنتُهم في توبيخه مَجَالَ ذي الفَقَار[4]، فقال: [الطويل]

نَقَمْتُمْ عَلَيَّ الرَّاح أُدْمِنُ شُرْبَها ... وقلتمْ فَتَى راحٍ وليس فتى مَجْدِ
ومَنْ ذا الذي قاد الجياد إلى الوَغَى ... سِوَايَ ومَنْ أعطى كثيرًا ولم يُكْدِ؟
فَدَيْتُكُمُ لم تفهموا السِّرَّ، إنّما ... قَلَيْتُكُمُ جَهْدِي فأبعدْتكُمْ جَهْدِي

ودُعِيَ ابنُ السيد ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب، وقرع فيه السرورُ نبعه بالغَرَب، ولاحتْ نجوم أكواسه، وفاخ نسيم رَنْدِهِ وآسه، وأبدتْ صدور أباريقه أسرارها، وضَمَّتْ عليه المجالس أزرارها، والراحُ يديرها أهيفُ أوطَفُ[5]، والأماني تُجْنَى وتُقْطَف، فقال: [الكامل]

يا رُبَّ ليلٍ قد هَتَكْتَ حِجابَهُ ... بِمُدامَةٍ وَقَّادَةٍ كالكوكبِ
يَسْعَى بها أحْوَى الجُفُون كأنها ... مِنْ خَدِّه وَرُضاب فيه الأشْنَبِ

---

(١) هكذا في طبعة صادر، وفي طبعتي عبد الحميد وليدن: «وأضغاثه تَنْسِرُ». وفي أزهار الرياض: «وأحفاشه...». والحُفَّاثُ، بضم الحاء وتشديد الفاء: حيَّةٌ أعظم من الحنث. محيط المحيط (حنث). وهذا النوع من الحيّات ذكره الجاحظ في الحيوان (ج ٤ ص ١٤٨) فقال: «وفي البادية حَيَّةٌ يقال لها الحُفَّات، والحُفَّاتُ من الحَيَّات تأكل الفأر وأشباه الفأر، ولها وَعِيدٌ مُنْكَرٌ، ونَفْخٌ وإظهار للصَّولة...».

(٢) البُغاث، بضم الباء وكسرها: طائر بطيء الطيران، وفي المثل: «إنَّ البغاث بأرضنا يَسْتَنْسِرُ» أي: من جاورنا عَزَّ بنا. محيط المحيط (بغث).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «وسم».

(٤) يريد بذي الفقار سيف الإمام علي بن أبي طالب، عليه الصلاة والسلام.

(٥) الأوطَف: كثير شعر الحاجبين والعينين. محيط المحيط (وطف).

بَــدْرانِ بَـدْرٌ قــد أمِـنْـتَ غــروبَـه يَـسْـعَـى بِـبَــدْرٍ جــانـحٍ لـلمغــربِ
فــإذا نَـعِمْـتَ بِـرَشْفِ بَـدْرٍ غــاربٍ فــأنْعَمْ بـرشفـةِ طـالـعٍ لم يَغْـرُبِ
حتى تَـرى زُهــرَ الـنجـوم كـأنـهــا حَــولَ المَجَــرَّةِ رَبْــرَبٌ في مشْــربِ
والليــل منفجــر[1] يــطيــر غــرابــه والـصـبــح يــطرُده بـبــازٍ أشـهــبِ

ثم قال الفتح، بعد كلام كثير، ما صورته[2]: ودخل ـ يعني ابن السيد ـ سَرَقُسْطة أيام المستعين وهي جَنّة الدنيا، وفتنة الْمَحيا، ومنتهى الوصف، وموقف السرور والقَصْف، ملك نمير البشاشة، كثير الهشاشة، وملك أبهجُ الفِنَاء، أرِجُ الأرجاء، يروق المجتلي، ويفوق النجم المعتلي، وحضرة منسابة الماء، منجابة السماء، يبسم زهرها، وينساب نهرها، وتتفتح خمائلها، وتتضوّع صَبَاها وشمائلها، والحوادث لا تعترضها، والكوارث لا تقترضها[3]، ونازلها عن عرس إلى موسم، وآملها متّصلٌ بالأماني ومُتَّسم، فنزل منها في مثل الخَوَرْنَق والسَّدير، وتصرّف فيها بين روضة وغدير، فلم يَخْفَ على المستعين احتلاله[4]، ولم تَخِفَّ لديه خلاله، فذكره معلمًا به ومعرِّفًا، وأحضره مُنَوِّهًا به ومُشَرِّفًا، وقد كان فَرَّ من ابن زَرِين، فرار السرور من نفس الحزين، وخلص من اعتقاله، خلوص السَّيف من ثقاله[5]، فقال يمدحه[6]: [الطويل]

هُمُ سلبـوني حُسْنَ صبـريَ إذ بـانـوا بـأقـمـار أطـواقٍ مَـطالـعُـهَـا بـانُ
لَئِنْ غـادروني بـاللِّوَى إنّ مـهجتـي مسـايـرةٌ أظعـانَـهُم حيثمـا كـانـوا
سَقى عَهْـدَهُمْ بـالخَيفِ عَهْـدُ غمـائم يُنـازعهـا نهـرٌ[7] مِنَ الـدَّمْـعِ هتَّـانُ
أأحْبـابَنـا، هـل ذلـك العَهْـدُ راجـعٌ وهـل ليَ عنكمْ آخِـرَ الـدَّهْـرِ سُلوان
ولـي مُـقْـلَةٌ عَـبْـرَى وبـيـن جـوانـحي فـؤادٌ إلـى لُـقْـيـاكُـمُ الـدَّهْـرَ حـنَّـان

---

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «مُنْحَفِزٌ».
(٢) أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٠٩).
(٣) في طبعتي دار صادر وليدن: «تقرضها»، وهما بمعنى.
(٤) في أزهار الرياض: «اختلاله».
(٥) في طبعة دار صادر: «صقاله».
(٦) في قلائد العقيان (ص ١٩٩): ١٤ بيتاً. وسيأتي البيتان الأول والثاني في الجزء الخامس من نفح الطيب منسوبين إلى ابن عائشة.
(٧) في قلائد العقيان: «مُزْنٌ».

تَنَكَّرَتِ الدُّنيا لنا بَعْدَ بُعدِكُمْ ... وحَفَّت[1] بنا من مُعْضِلِ الخطب ألوان
أناخت بنا في أرض شَنْتَمَرِيَّةٍ ... هواجسُ ظَنٍّ خانَ والظَّنُّ خَوَّان
وشِمْنَا بروقًا للمواعيد أتعبتْ ... نواظِرَنَا دَهْرًا ولم يَهْمِ تَهْتَانُ[2]
فَسِرْنَا وما نُلوِي على متعذِّر ... إذا وَطَنٌ أقصاكَ آوتْكَ أوطان
ولا زاد إلاَّ ما انْتَشَتْهُ مِنَ الصَّبَا ... أُنُوفُ وحازتْه مِنَ الماء أجفان
رَحَلْنا سَوَامَ الحمد منها لغيرها ... فلا ماؤها صَدًّا ولا النَّبْتُ سَعْدَان[3]
إلى ملك حاباه بالمجد يوسف ... وشاد له البيتَ الرفيعَ سليمان
إلى مستعين بالإله مؤيَّدٍ، ... له النصر حزبٌ والمقادير أعوان
جَفَتْنَا بلا جرم كأنَّ مودَّةً ... ثَنَى نحونا منها الأعنَّةَ شَنْآن[4]
ولو لم تُفِدْ منا سوى الشِّعْر وحده ... لحقَّ لنا بِرٌّ عليه وإحسانُ
فكيف ولم نجعل بها الشِّعْرَ مَكْسَبًا ... فيوجَبَ للمُكْدِي جفاءٌ وحِرْمانُ
ولا نحن مِمَّنْ يرتضي الشِّعْرَ خُطَّة ... وإن قَصُرَتْ عن شأونا فيه أعيان
ومَنْ أوهَمَتْهُ غَيرَ ذاك ظُنُونُهُ ... فَثَمَّ مجالٌ للمقال ومَيدان
خليليَّ، من يُعْدِي على زمن له ... إذا ما قضى حَيفٌ عليَّ وعُدْوَانُ
وهل رِيءَ مِنْ قبلي غريقُ مدامعٍ ... يفيض بعينيه الحَيَا وهْو حرَّان[5]
وهل طَرَفَتْ عينٌ لمجدٍ ولم يكُنْ ... لها مُقْلَةُ من آل هُودٍ وإنسانُ
بوجه ابن هودٍ كلَّما أعرض الورى ... صحيفة إقبال لها البِشْرُ عُنْوان
فتى المجد في بُرْدَيهِ بَدْرٌ وضَيغَمٌ ... وبَحْرٌ وقُدْسٌ ذو الْهِضاب وثَهْلَانُ

---

(١) في المصدر نفسه: «وحقّت».
(٢) في أزهار الرياض: «هتّان».
(٣) في القلائد: «الحمد عنها». صَدًّا: أصلها: صَدَّاء وهي رَكِيَّة لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها، والرَّكِيَّة هي البئر ذات الماء، ومنه المثل: «ماءٌ ولا كَصَدّاء». مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٢٧٧) ولسان العرب (صدد). السَّعْدان: نَبْتٌ ذو شوك من أطيب مراعي الإبل ما دام رطبًا، والعرب تقول: أطيب الإبل لبنًا، ما أكل السَّعْدانَ، ولذلك قيل في المثل: «مَرْعًى ولا كالسَّعْدان». مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٢٧٥) ولسان العرب (سعد).
(٤) الشَّنْآنُ: المبغض. لسان العرب (شنأ).
(٥) رِيءَ: أصلها: رُئِيَ. الحَيَا: المطر. الحَرَّان: الشديد العطش. محيط المحيط (حيا) و(حرر).

من النفر الشُّمّ الذين أكفُّهُمْ غيوثٌ ولكنَّ الخواطرَ نيران
لُيوثُ شَرًى ما زال منهم لدى الوغى هِزَبْرٌ بِيُمْنَاهُ من السمِّ ثُعْبَان[1]
وهل فوق ما قد شاد مُقْتَدِرٌ لهم ومؤتمن بالله لقياه إيمان
ألا ليس فخري في الورى غير فخرهم وإلاَّ فإنَّ الفخرَ زُورٌ وبُهْتَان
فيا مستعينًا مُسْتَغاثًا[2] لمن نَبَا به وطنٌ يومًا وعَضَّتْه أزمان
كَسَوتُكَ مِنْ نظمي قِلادةَ مَفْخَرٍ يباهي بها جِيدُ المعالي[3] ويَزْدَان
وإنْ قصُرَت عمّا لَبِسْتَ فرُبَّما تجاور دُرٌّ في النظام ومَرْجَان
معانٍ حكتْ غُنْجَ الحِسان كأنني بهنَّ حبيبٌ أو بَطَلْيَوسُ بغدان[4]
إذا غَرَسَتْ كَفَّاكَ غرس مكارم بأرضيَ أَجْنَتْكَ الثَّنا منه أغصان

وقال في وصف مجلس لأبي عيسى بن لُبُّون[5] أحضر إليه ابنَ السيد منوّهًا بقدره، ما صورته[6]: وأحضرهُ إلى مجلس نام عنه الدهر وغفل، وقام لفرط أنسه واحتفل، قد بانت صُرُوفه، ودَنَتْ من الزائر قطوفه، وقال: هلمَّ بنا إلى الاجتماع بمذهبك، والاستمتاع بما شئته من براعة[7] أدبك، فأقاموا يُعْمِلون كأسهم، ويصلون إيناسهم، وباتوا ليلتهم[8] ما طرقهم نوم، ولا عَدَاهم عن طِيبْ اللّذّات سَوْم.

---

(١) في طبعة دار صادر: «من السُّمْر ثُعْبان». الهِزَبْرُ: الأسد. مختار الصحاح (هزبر).

(٢) في طبعة دار صادر: «مستعانًا».

(٣) في طبعتي دار صادر وليدن: «الزمان».

(٤) بغدان: هي بغداد. وحبيب هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي. وهنا يشبّه نفسه بأبي تمام ويشبه مدينة بطليوس ببغداد.

(٥) لُبُّون: كلمة إسبانية بصيغة التكبير من الاسم لُبّ LABO، أي ذئب. وأبو عيسى بن لبون هو لبون بن عبد العزيز بن لبون: كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون بطليطلة، ثم رأس بُمِرْبَيطِر من أعمال بلنسية، ثم تخلّى عنها لابن رزين صاحب شنتمرية الشرق. الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٦٧) والمغرب (ج ٢ ص ٣٧٦) وقلائد العقيان (ص ٩٨).

(٦) أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٢١).

(٧) في طبعتي دار صادر وليدن: «ببراعة».

(٨) في المصدرين نفسيهما: «ليلهم».

ثم قال بعد كلام كثير(١): وحضر ابنُ السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذي النون مجلسًا رَفعت فيه المنى لواءها، وخلعت(٢) أضواءها، وزَفَّتْ إليه المَسرّات أبكارها، وفارقتْ إليه الطيرُ أَوْكَارَها، فقال يصف(٣): [الرجز]

لـم تَـرَ عـيـنـي مِـثْـلَه ولا تَـرَى ... أنْفَسَ في نفسي وأَبْهَى مَنْظَرَا(٤)

إذا تَـرَدَّى وَشْـيَـهُ الـمُـصَـوَّرَا ... مِنْ حَوكِ صَنْعاءَ وحَوكِ عَبْقَرَا

ونـسـج قُـرْقُـوبٍ ونسج تُسْتَرَا(٥) ... خِلْتَ الربيع الطلق فيه نَوَّرا

كـأنـمـا الإبـريـقُ حـيـن قَـرْقَـرَا ... قَدْ أَمَّ لَثْمَ الكأس حين فَغَرَا

وَحْشِيَّةٌ ظَلَّتْ تناغي جُؤْذَرَا(٦) ... تُرْضِعُه الدَّرَّ ويَرْنُو حَذِرَا

كـأنّـمـا مَـجَّ عَـقِـيـقًـا أحْـمَـرَا ... أوْ فَتَّ مِنْ رَيَّاه مِسْكًا أَذْفَرَا

أو عـابـد الـرحـمـن يَـومًـا ذُكِـرا ... فَنَمَّ مِسْكًا ذِكْرُه وعَنْبَرَا

الـظافـر الْـمَـلْكُ الـذي مَـنْ ظَفرَا ... بقربه نال العَلاء الأكْبَرَا

لـو أنَّ كِـسْـرَى رَاءهُ أو قَـيْـصَـرَا ... هَلَّلَ إكْبارًا له وكَبَّرَا

تُـبْـدِي سـمـاء الـمـلك مـنـه قـمـرًا ... إذا حجابُ المجد عنه سَفَرَا

يـا أيّهـا الْمُنْضِي المطايا بالسُّرى ... تبغي غَمَامَ المكرمات الممطرا

وقال الفتح في ترجمة الأديب أبي القاسم بن العطار(٧)، ما صورته(٨) : هو أحد أدباء إشبيلية ونحاتها، العامرين لأرجاء المعارف وساحاتها، لولا مواصلة راحاته، وتعطيل بُكْرِهِ

---

(١) أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٢٧).

(٢) في أزهار الرياض: «عليه الشمسُ».

(٣) في طبعة دار صادر: «يصفه».

(٤) قبل هذا البيت بيت ورد في أزهار الرياض وهو:

ومجلسٍ جمّ الملاهي أزْهَرا ... ألذَّ في الأجفان من طَعْم الكَرَى

(٥) قُرْقُوبُ: بلدة متوسطة بين واسط والبصرة والأهواز. تُسْتُر: أعظم مدينة بخوزستان. معجم البلدان (ج ٢ ص ٢٩) و (ج ٤ ص ٣٢٨).

(٦) الجُؤْذَرُ: ولد البقرة الوحشية، والجمع جآذر. مختار الصحاح (جأذر).

(٧) أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية، كثير الارتياح والفرح، والانهتاك في حب الغِلْمان. المغرب (ج ١ ص ٢٥٩).

(٨) قلائد العقيان (ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

ورَوحَاته، ومُوَالاته للفُرَج، ومغالاته في عَرْف لأنس أو أرج[1]، لا يُعَرِّجُ إلاَّ على ضفَّة نهر، ولا يلهج[2] إلاَّ بقطعة زهر، ولا يحْفِل بملام، ولا يتنقل[3] إلاَّ في طاعة غلام، ناهيك من رجلٍ مخلوع العِنان في ميدان الصبابة، مُغرم بالحسان غَرَامَ يزيد[4] بحَبَابه، لا تراه إلاَّ في ذمَّة انهماك، ولا تَلْقاه إلاَّ في لُمَّةِ انهتاك، رافعًا لرايات الْهَوى، فارعًا[5] لثنيَّات الجوى، لا يُقْفِر فؤاده من كلف، ولا يبيت إلاَّ رَهْن تلف، أكثر خلق اللَّه تعالى[6] عَلاَقة، وأحضرهم لمشهد خَلاقة، مع جزالةٍ تُحَرك السكون، وتُضْحك الطير في الوُكُون، وقد أَثْبَتُّ له مما ارتجله[7] في أوقات أُنْسه وساعاته، ونفَثَ به أثناء زَفَرَاته ولَوعاته، فمن ذلك ما قاله في يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه، وارتضاعه لثغور اللّذّات وارتشافه[8]: [الطويل]

عَبَرْنَا سماء النهر والجَوُّ مُشْرِقٌ ... وليس لنا إلاَّ الحَبابَ نُجُومُ
وقد أَلْبَسَتْه الأيكُ بُرْدَ ظِلاَلها ... وللشمس في تلك البرود رُقُومُ

وله فيه[9]: [الطويل]

مَرَرْنَا بشاطي النهر بَينَ حَدائقٍ ... بها حَدَقُ الأزهار تَسْتَوقِفُ الْحَدَقْ
وقد نَسَجَتْ كفُّ النسيم مُفَاضَةً ... عليه وما غَيْرُ الحَبابِ لها حَلَقْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «الأنس والأرج». وفي طبعة دار صادر: «للأنس...».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «يبتهج».
(٣) في القلائد: «ينتقل».
(٤) يزيد: هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، وحبابة هي جارية له كان مغرمًا بها.
(٥) في القلائد: «قارعًا».
(٦) كلمة «تعالى» غير واردة في القلائد.
(٧) في طبعتي دار صادر وليدن وفي القلائد: «له ما يرتجله... وينفث به...».
(٨) أشار الدكتور إحسان عباس إلى أن هذين البيتين في المغرب (ج ١ ص ٢٥٤) والصواب أنهما لم يردا فيه. نفح الطيب (ج ١ ص ٦٥١، حاشية ٥). وهذان البيتان سيردان في الجزء الخامس من نفح الطيب والسادس باختلاف يسير عمَّا هنا.
(٩) هكذا ورد البيتان في القلائد.

ولـه[1] : [الخفيف]

هَبَّتِ الريحُ بالعشيِّ فحاكَتْ زَرَدًا لِلْغَدِيرِ ناهِيكَ جُنَّهْ [2]
وانْجَلَى البَدْرُ بَعْدَ هَدْءٍ فصاغتْ كَفُّهُ للقتال مِنْهُ أسِنَّهْ

وقولـه[3] : [الكامل]

لله بهجةُ مَنْزَهٍ ضَرَبَتْ به فَوقَ الغَدِيرِ رُوَاقَهَا الأنْسَامُ
فمعَ الأصيلِ النهرُ دِرْعٌ سَابغٌ ومَعَ الضحىٰ يلتاحُ منه حُسَامُ

ولـه[4]: [الكامل]

ما كالعَشِيَّةِ في رُوَاءِ جمالِهَا وبُلُوغِ نَفْسي مُنْتَهَى آمالِهَا
ما شِئْتُ شمسُ الأرض مُشْرِقَةُ السَّنَا والشمسُ قد شَدَّتْ مَطِيَّ رحالِهَا
في حَيثُ تَنْسَابُ المياهُ أراقمًا وتُعِيرُكَ الأفْيَاءُ بُرْدَ ظِلَالِهَا

ولـه[5] : [الكامل]

لله حُسْنُ حديقةٍ بَسَطَتْ لنا منها النفوسَ سَوَالفُ ومَعَاطِفُ
تختالُ في حُلَلِ الربيعِ وحَلْيِهِ وَمِنَ الربيعِ قلائدٌ ومَطَارِف

وقال الفتح في ترجمة ابن عمّار[6]: أخبرني ذو الوزارتين الأجلّ أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤتمن في يوم جادت فيه السماء بهَطْلها، وأتبعت وَبْلَهَا بطلّها، وأعْقَبَ[7] رَعْدَهَا بَرْقُها، وانسكب دِرَاكًا وَدْقُهَا، والأزهار قد تجلَّتْ من كمامها[8]،

---

(١) هكذا روايتهما في القلائد. وسيأتيان في الجزء السادس من نفح الطيب وفيه «فحاكتْ» بدل «فصاغت».
(٢) الجُنَّة، بضم الجيم وفتح النون المشدّدة: ما استترْتَ به من سلاح، والسُّتْرَة. مختار الصحاح (جنن).
(٣) هكذا وردا في المغرب (ج ١ ص ٢٥٩) وفي طبعة دار صادر والقلائد: «الأنشام» بدل «الأنسام». وسيأتيان في الجزء السادس من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا. والأنشام: نوع من الشجر، لسان العرب (نشم).
(٤) لم ترد هذه الأبيات في قلائد العقيان.
(٥) هكذا وردا في قلائد العقيان. وسيأتيان في الجزء السادس من نفح الطيب.
(٦) النص في قلائد العقيان (ص ٨٥ - ٨٦).
(٧) في طبعة بولاق: «وارتقب».
(٨) في طبعة بولاق: «أكمامها».

وتَحَلَّتْ بدُرِّ غَمَامها، والأشجار قد جُلي صَدَاها، وتوشَّحتْ بنَدَاها، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقّد، تديرُها أناملُ تكاد من اللطافة تُعْقَدُ، إذا بفتًى من فتيان المؤتمن أخرس لا يُفصح، ومستعجم[1] لا يبين ولا يوضح، مُتَنَمِّر تَنَمُّر اللَّيث، متشمِّر كالبطل الفارس عند العَيثِ[2] وقد أفاض على نفسه دِرْعًا، تضيق بها الأسنّة ذَرْعًا، وهو يريد استشارة المؤتمن في التوجه[3] إلى موضع بَعَثه إليه ووجَّهه، وكلٌّ[4] مَنْ صَدَّهُ عنه نَهَرَهُ ونَجَهه[5]، حتى وصل إلى مكان انفراده، ووقف بإزاءِ وساده. فلمّا وقعتْ عينُ ابن عَمَّار عليه، أشار بيده إليه، وقرَّبه واستدناه، وضمَّه إليه كأنه تَبَنَّاه، وأراد[6] أن يخلع عنه ذلك الغدير، وأن يكون هو الساقي والمُدِير، فأمره المؤتمن بخلعه، وطاعة أمره وسمعه، فنَضَاه عن جسمه، وقام يسقي على حكمه ورَسْمه، فلمّا دبَّتْ فيه الحُمَيَّا، وشبت غرامَه بهجةُ ذلك المحيَّا واستنزلته سَورة العُقار[7]، من مرقب الوقار، قال[8]: [الكامل]

وهَوِيتُهُ يَسْقِي المُدَام كأنه ... قمرٌ يَدور بكوكب في مَجلِس
متأرِّجُ الحركاتِ تَنْدَى ريحُهُ ... كالغصن هَزَّتْهُ الصَّبَا بتنفُّس
يَسْعَى بكأسٍ في أنامل سَوْسَنٍ ... ويُديرُ أخْرَى من مَحَاجر نرجِسِ
يا حاملَ السَّيفِ الطويل نجادُهُ ... ومُصَرِّف الفرس القصِير المحبس
إيّاك بادِرَة الْوغى من فارس ... خَشِنِ القِنَاع على عِذَار أمْلِس
جَهْمٍ وإن حَسَرَ اللثام[9] فإنما ... كشف الظلامَ عن النهارِ المشمس

---

(١) في القلائد: «مستعجم» بدون واو العطف.

(٢) في طبعة دار صادر: «عند الغَيث». وفي القلائد: «متشمِّرٌ تشمّر البطل الباسل عند الغيث...». والعيث الفساد. والغيث: المطر.

(٣) في طبعة ليدن وفي القلائد: «في الخروج».

(٤) في المصدر نفسه: «فكلٌّ».

(٥) نَجَهَهُ: استقبله بما يكره. محيط المحيط (نجه).

(٦) في طبعة دار صادر والقلائد: «وحَدَّ أن...».

(٧) في قلائد العقيان: «واستنزلته سورة العقار، واستنزلته عن مرقب...».

(٨) هذا الشعر ارتجله ابن عمار كما سيأتي في الجزء الرابع من نفح الطيب. وهي في قلائد العقيان (ص ٨٥ - ٨٦) دون تغيير عمّا هنا.

(٩) في طبعة ليدن: «القناع».

يــطغَــى ويــلعــبُ فــي دلالِ عــذارِهِ　　كـالمُهْر يمـرحُ في اللجـام المُجـرِسِ [1]
سَـلِّمْ فقـد قـصف الْـقَنَـا غـصنُ الـنَّقَـا　　وَسَـطا بِلَيث الغـاب ظبيُ المَكْنِسِ [2]
عَنّـا بكـاسِـكَ، قـد كَـفَـتْنَـا مُـقْـلَةٌ　　حَـوراءُ قـائمـةٌ بِـسُـكـرِ الـمجلسِ

وأورد هذه القصة صاحبُ البدائع بقولـه[3]: حضر أبـو المطرف بن عبـد العزيـز عند المؤتمن بن هُود في يوم أجرى الجوُّ فيه أشْقَرَ بَرْقِهِ، ورمى بنَبْل[4] وَدْقه، وتحمّلت الرياحُ فيه أوقـار السحاب على أعنـاقها، وتمـايلتْ قامـاتُ الأغصـان في الحُلل الخضـر من أوراقهـا، والرياحُ قـد أشرقت نجـومُها في بـروج الراح، وحـاكت شمسُها شمسَ الأفق فتلفّعت بغيـوم الأقداح، ومُديرُها قد ذاب ظَرْفًا فكاد يسيـل من إهابـه، وأخْجل خَـدَّها حُسْنًـا فتظلّل بعـرف حَبَابه، إذا بفتى روميٍّ[5] من فتيان المؤتمن قد أقبل متذرِّعًا كالبـدر اجْتَابَ سحـابًا، والخمـر قد اكتست حبَابا، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن في الخـروج إلى موضـع قد[6] كـان عَوَّل فيه عليه، وأمره أن يتوجَّـه إليه، فحين لمحـه ابنُ عمار والسكـر قد استحـوذ على لبِّه، وبثَّ سراياه في ضواحي قلبه، جَدَّ في أن يستخرج تلك الـدُّرّة من ماء ذلـك الدِّلَاص، وأن يجلِّي عنه سَهَكه[7] كما يُجلِّي الخبثُ عن الخِلَاص، وأن يكون هو الساقي، فأمـره المؤتمن بقبول أمـره وامتثالـه، واحتذاء مِثَـاله[8]، فحين ظهـرت تلك الشمس من حُجُبها، ورُميت شيـاطين النفوس من كُمَيت المدام بشُهُبِهَا، ارتجل ابنُ عمار: وهويته ـ إلخ». إلاَّ أنه قال إثر قوله:

إياك　بادرَةَ　الْوَغَى　مـن　فارس

ما صورته:

يـضـع السنـان على الـعِـذَار الأمـلس

---

(١) المُجْرِسُ: الذي له صوت كصوت الجرس. لسان العرب (جرس).
(٢) المَكْنِسُ: مأوى الغزال. لسان العرب (كنس).
(٣) بدائع البدائه (ج ٢ ص ١٣٣). وسيرد هذا النص في الجزء الرابع ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٤) في بدائع البدائه: «ورمى ببندق وَدْقه وحملت. . .».
(٥) كلمة «رومي» لم ترد في طبعة دار صادر.
(٦) كلمة «قد» غير واردة في طبعة دار صادر.
(٧) السَّهَكُ: الريح الكريهة. محيط المحيط (سهك).
(٨) في طبعة بولاق: «أمثاله».

ولابن عمار الرائية المشهورة في مدح المعتضد عباد والد المعتمد، وهي[1]:

[الكامل]

أَدِرِ الْمُدامَةَ[2] فالنسيمُ قد انْبَرَى ... والنجمُ قد صَرَفَ العِنَانَ عن السُّرَى

والصُّبْحُ قد أهْدَى لنا كافُورَهُ ... لَمَّا استردَّ الليلُ منا العَنْبَرَا

والروض كالحَسْنَا كساه زَهْرُهُ ... وَشْيًا وقَلَّدَهُ نداه جَوْهَرَا

أو كالغُلَامِ زَهَا بِوَرْدِ خُدُودِهِ[3] ... خَجَلًا وتَاهَ بِآسِهِنَّ مُعَذَّرَا

رَوضٌ كأنَّ النهرَ فيه مِعْصَمٌ ... صافٍ أطَلَّ عَلَى رِدَاءٍ أخضَرَا

وتَهُزُّه رِيحُ الصَّبَا فتخالُهُ ... سَيفَ ابن عَبَّادٍ يُبَدِّد عَسْكَرَا[4]

عَبَّادُ المخضرُّ نائلُ كَفِّهِ ... والجوُّ قد لَبِسَ الرداءَ الأغبَرَا

مَلكٌ إذا ازدَحَمَ الملوكُ بِمَوْرِدٍ ... ونَحَاه لا يَرِدُونَ حتى يَصْدُرَا

أندى على الأكباد من قَطْرِ النَّدَى ... وألَذ في الأجفانِ من سِنَةِ الْكَرَى

يَخْتَار إذ يَهَبُ الخريدَةَ كاعبًا ... والطِّرْفَ أجردَ والْحُسامَ مُجَوْهَرَا

قَدَّاحُ زَنْدِ الْمَجْدِ لا ينفَكُّ من[5] ... نارِ الْوَغَى إلَّا إلى نارِ القِرَى

لا خَلْقَ أقْرَى من شِفَارِ حُسَامه ... إن كنت شَبَّهْتَ المواكب أسْطُرَا[6]

أيْقَنْتُ أني مِنْ ذَرَاه بجنَّة ... لَمَّا سقاني مِنْ نداه الكَوْثَرَا

وعلمْتُ حَقًّا أنَّ رَبْعِيَ مُخْصِبٌ ... لَمَّا سألتُ به الغَمَامَ المُمْطِرَا

مَنْ لا تُوَازِنُهُ الجبالُ إذا احْتَبَى ... مَنْ لا تُسَابِقُه الرياحُ إذا جَرَى

ماضٍ وصَدْرُ الرمحِ يَكْهَمُ والظُّبَا ... تَنْبُو وأيدي الخيلِ تعثرُ في الثرَى[7]

---

(١) القصيدة في قلائد العقيان (ص ٩٦ - ٩٧). وورد منها خمسة أبيات في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٤٢٦).

(٢) في القلائد والوفيات: أَدِرِ الزجاجةَ...».

(٣) في القلائد: «بورد رياضه».

(٤) بعد هذا البيت بيت ورد في القلائد وهو:

علق الزمان الأخضر المهدى لنا ... من ماله العاقّ النفيس الأخطرا

(٥) في القلائد: «عنه».

(٦) في المصدر نفسه: «لا خَلْق أقرى... لمواكب أسطرا». وفي طبعة دار صادر: «لا خلق أقرأ».

(٧) في قلائد العقيان: «في البرا». كَهِمَ الرمح والسيف: كَلَّ. لسان العرب (كهم).

قــاد الكتــائـب كــالكــواكـب فــوقُهــمْ ... مِنْ لأمِهِـمْ مِثْـلُ الـسَّحَـاب كـنَهْـوَرَا[1]
مِــنْ كــل أبْـيَضَ قــد تــقـلَّد أبْـيَـضًـا ... عَـضْبًـا وأسـمــرَ قــد تقـلّدَ[2] أسـمــرَا
مــلك يَــرُوقُــكَ خَــلْقُــهُ أو خُــلْقُــه ... كــالــرَّوض يَـحْسُـنُ مَنْـظَرًا أو مَـخْبَـرَا
أقْسَمْتُ بــاسْمِ الـفضْـل حتى شِمْتُـه ... فــرأيـتُــهُ فــي بُــرْدَتَـيـهِ مُـصَــوَّرَا
وجَـهِلْتُ مَـعْـنَـى الـجُـود حـتـى زُرْتُـه ... فـقــرَأْتُـه فـي رَاحَـتَـيـهِ مُـفَـسَّـرَا
فـاحَ الـثَّـرَى مُـتَـعَـطِّرا بـثـنـائِـهِ ... حـتـى حَـسِبْـنَـا كـلَّ تُـرْبٍ عَـنْـبَـرَا
وتَـتَـوَّجَتْ بــالـزهــر صُـلْعُ هـضـابـه ... حـتـى ظنـنّـا كـلَّ هـضـب قـيـصـرا
هَصَـرَتْ يـدي غُصْنَ الغِنَى[3] مِنْ كَفِّـه ... وجَـنَـتْ بـه روضَ الـسُّـرورِ مـنـوَّرَا
حَسْبِي على الـصُّـنْـعِ الـذي أولاه أن ... أَسْـعَـى بِـجَـدٍّ أو أمـوت فـأُعْـذَرَا
يــا أيهــا المـلكُ الـذي حــاز العُــلا[4] ... وحَبَـاه منـه بـمـثـل حـمـدي أنـورا
الـسـيفُ أفصـحُ مـن زِيَـادٍ[5] خـطـبـةً ... في الحـرب إن كـانت يمينـك منبـرا
مــا زلْتَ تُغْني مَنْ عَنَـا لـك راجيًـا ... نَـيـلاً وتُـفْـنِـي مَـنْ عَـتَـا وتَـجَـبَّـرَا
حتى حَلَلْتَ مِنَ الـريـاسـة مَحْجِـرًا ... رحبًـا وضَمَّـتْ منـك طَـرْفًـا أحـورا
شَقِيَتْ بـسيـفـك أُمَّـةٌ لـم تـعـتـقـدْ ... إلاَّ الـيـهـودَ وإنْ تَـسَـمَّـتْ بَـرْبَـرَا
أثْمَـرْتَ رُمْحَـكَ مِنْ رؤوس ملوكـهم[6] ... لَـمَّـا رأيْتَ الـغُصْـنَ يُـعْشَـقُ مثـمـرا
وصَبَغت دِرْعَـكَ مِنْ دمـاءِ كُـمَـاتهِـمْ ... لَـمَّـا علمْـتَ الـحسـنَ يُلْبَسُ أحـمـرا
وإلـيكَهَـا كـالـروض زارتْـهُ الـصَّبَـا ... وحـنـا عـلـيـه الـطَّلُّ حـتـى نَـوَّرا
نَـمَّـقْـتُـهـا وَشْيًـا بـذكـرِكَ مُـذْهَـبًـا ... وفَـتَـقْـتُهـا مِـسْكًـا بـحـمـدكَ أذفـرا[7]
مَـنْ ذا يُـنَـافـحـنـي وذِكْـرُكَ مَـنْـدَلٌ ... أوْرَدْتُـهُ مــن نــارِ فـكـري مِـجْـمَـرَا
فلئنْ وَجَـدْتَ نـسيـمَ مَـدْحيَ عـاطِـرًا ... فـلقـد وَجَـدْتُ نـسـيـمَ بـرِّك أعـطرا

---

(١) في القلائد: «فإذا الكتائب». والكَنَهْوَرُ من السحاب: قطع كالجبال أو المتراكم منه. محيط المحيط (كنهور).
(٢) في القلائد: «تأبّط».
(٣) في المصدر نفسه: «الندى».
(٤) في المصدر نفسه: «المنى».
(٥) زياد: هو زياد ابن أبيه، وكان فصيحًا لا يلحن في كلامه.
(٦) في القلائد: «كماتهم».
(٧) هذا البيت والبيتان بعده غير واردة في قلائد العقيان.

وقال في ترجمة عبد الجليل بن وهْبون المُرسي[١]: ركب بإشبيلية زورقًا في نهرها[٢] الذي لا تدانيه الصَّرَاة[٣]، ولا يضاهيه الفُرَات، في ليلة تنقبت في ظلمتها[٤]، ولم يَبْدُ وَضَحٌ في دُهْمتها، وبين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما في اللُّجَّة، وزاد في تلك البهجة، فقال[٥]: [المنسرح]

كأنَّما الشمعتان إذ سَمَتَا ... خَدًّا[٦] غلامٍ مُحَسَّنِ الغَيَدِ
وفي حشا النهر مِنْ شعاعهما ... طريقُ نارِ الهوى إلى كَبِدِي

وكان معه غلام البكري[٧] معاطيًا للراح، وجاريًا في ميدان ذلك المراح، فلمَّا جاء عبد الجليل بما جاء، وحَلَّى للإبداع الجوانبَ والأرجاء، وحسده على ذلك الارتجال، وقال بين البطء[٨] والاستعجال: [الكامل]

أعْجِبْ بمنظرِ ليلةٍ لَيلاءِ ... تُجْنَى بها اللَّذَّاتُ فوق الماءِ
في زورق يزهو[٩] بغرَّة أغيدٍ ... يَخْتالُ مِثْلَ البانةِ الغَيْنَاءِ
قَرَنَتْ يداه الشمعتين بوجهه ... كالبَدْرِ بين النَّسْرِ والجوزاء
والْتاحَ تحت الماء ضَوءُ جَبِينِهِ ... كالبرق يخفق في غمام سماءِ

وقال الفتح رحمه الله[١٠]: دُعِيتُ يومًا إلى منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية، وهي منتهى الجمال، ومزدهى[١١] الصَّبا والشمال، على وَهْي بنائها، وسكنى[١٢] الحوادث برهة

---

(١) قلائد العقيان (ص ٢٤١).
(٢) في القلائد: «في النهر».
(٣) في القلائد: «السرات». والصراة اسم نهر ببغداد. معجم البلدان (ج ٣ ص ٣٩٩).
(٤) في طبعتي ليدن ودار صادر وفي القلائد: «بظلمتها».
(٥) في القلائد: «فقال مرتجلاً في الحين».
(٦) في المصدر نفسه: «جِيدُ غلام».
(٧) هو أبو الحسن حكم بن محمد غلام أبي عبيد البكري، مولى البكريين؛ أديب وشاعر من شعراء بني عباد بإشبيلية. المغرب (ج ١ ص ٣٤٨) وبغية الملتمس (ص ٢٨٠).
(٨) في القلائد: «البطي».
(٩) في المصدر نفسه: «يزهى».
(١٠) قلائد العقيان (ص ٦٨ ـ ٦٩).
(١١) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «ومزهى».
(١٢) في القلائد: «وسكون الحوادث برهة في أفنائها».

بفِنائها، فوافيتُها والصبحُ قد ألبسها قميصه، والحسن قد شرح بها عَوِيصه، وبوسطها مجلس قد تفتّحت للروض أبوابه، وتوشّحتْ بالأُزر الذّهبية[1] أثوابه، يخترقه جدول كالْحسام المسلول، ويَنْساب فيه انسياب الأَيم[2] في الطُلول، وضَفَّاته بالأدواح محفوفة، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة، وفيه يقول عليُّ بن أحمد أحد شعرائها، وقد حلَّه مع طائفة من وزرائها: [المنسرح]

قُمْ فاسقني[3] والرياضُ لابسةٌ	وَشْيًا مِنَ النَّوْر حاكه القَطْرُ
في مجلسٍ كالسماءِ لاح به	مِنْ وجه مَنْ قد هَوِيْتُهُ بَدْرُ[4]
والشمس قد عُصْفِرَتْ غلائِلُها	والأرضُ تَنْدَى ثيابُها الخَضْرُ
والنهرُ مِثْلُ المَجَرِّ حَفَّ به	مِنَ النَّدامى كواكبٌ زُهْرُ

فحللت[5] ذلك المجلس وفيه أخدان[6]، كأنهم الولدان، وهم في عيش لَدْن، كأنهم في جنّة عَدْن، فأنخْتُ لديهم ركائبي وعقلْتها، وتقلَّدْتُ بهم رغائبي واعتقلْتُها، وأقمْنا نتنعّم بحسنه طولَ ذلك اليوم، ووافى الليل فَذُدْنَا عن الجفون طروق النوم، وظللْنا بليلة كأن الصبح منها مقدود، والأغصان تميس كأنها قُدود، والمجرّة تتراءى نهرًا، والكواكب تخالها في الجو زهرًا، والثُّرَيَّا كأنّها راحة تشير، وعطارد لنا بالطرب بَشير، فلمّا كان من الغد وافيتُ الرئيس أبا عبد الرحمن زائرًا، فأفضْنا في الحديث إلى[7] أن أفضى بنا إلى ذكر منتزهِنا بالأمس[8]، وما لقينا فيه من الأنس، فقال لي: ما[9] بهجة موضع قد بان قَطِينُه وذهب، وسلب الزمان بهجته وانتهب، وباد فلم يبق إلاّ رسمه، ومحاه الحدثان فما كاد يلوح

---

(١) في قلائد العقيان: «المذهّبة».

(٢) الأيمُ، بفتح الهمزة وسكون الياء: الحيّة وذكر الأفعى. محيط المحيط (أيم).

(٣) هكذا في القلائد. وفي طبعة دار صادر: «سَقِّني».

(٤) هذا البيت جاء في القلائد بعد البيت الذي يليه.

(٥) في القلائد: «في ذلك».

(٦) الأخدان: جمع خِدْن وهو الصديق. لسان العرب (خدن).

(٧) في القلائد: «حتى أَفْضَى».

(٨) في المصدر نفسه: «في أمس، وما نلنا فيه..».

(٩) في المصدر نفسه: «وما بهجة... واستلب الزمان...».

وسمه(١) ، عهدي به عندما فرغ من تشييده، وتُنُوهي في تنسيقه وتنضيده (٢)، وقد استدعاني إليه المنصور في وقت(٣) حَلَّت فيه الشمس برج شرفها، واكتست فيه(٤) الأرض بزخرفها، فحللْت به والدوح تميس معاطفه، والنَّور يخجله قاطفه، والمُدام تطلع به وتغرب، وقد حلّ فيه قَحْطَانُ ويَعْرُب، وبين يدي المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع، ولا يحل غير الفؤاد من مَرْبَع، وهم يريدون رحيقًا، خلْتُها في كأسها دُرًّا أو عقيقًا، فأقمْنا والشهبُ تغازلنا، وكأنَّ الأفلاك منازلنا، ووهب المنصور في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفًا من صِلاَت متّصلات، وأقطع(٥) ضياعًا ثم توجّع لذلك العهد، وأفصح بما بين ضلوعه من الوجد، وقال(٦): [الكامل]

سَقْيًا لمنزلة اللِّوى وكثيبها إذ لا أرى زمنًا كأزماني بها

وما أحسن ما كتب به الفتح إلى بعض الملوك يصف نزهة ببعض منتزهات الأندلس المونقة؛ ويذكر استضاءته فيها بشموس المسرّة المشرقة، وهو:

أطال اللّه سبحانه بقاء ناصر الدولة، ومحيي الملّة، الذي حَسُنَ بلقياه العيش، وتزيّن بمحيّاه الجيش، وراق باسمه الملك، وجرَتْ بسعده الفُلك، وأنار به الليل الدامس، ولاح له الأثر الطامس، وجرى الدّهر لسطوته خائفًا، وغدا السعدُ بعقوته طائفًا، والزمان ببرود علياه ملتحف، ولثغور نَدَاه مرتشف، ولا زال للمجد يتملّكه، والسعد يحمله فلكه، أما وقد وافقتني أيامه أيّده اللّه سبحانه وفاقًا، ورأيت للبيان عنده نَفَاقًا، فلا بدّ أن أُرسل كتائبه أفواجًا، وأفيض من بحره أمواجًا، وأصف ما شاهدْتُه من اقتداره، وعايَنْتُه من حسن إيراده وإصداره، بمقال أفصح من شكوى المحزون، وأملح من رياض الحُزُون، وقد كنت أيدكم(٧) اللّه تعالى كَلِفًا بالدول وبَهَائِها، لَهِجًا بالبلوغ إلى انتهائها، لأجد دولة أرتضيها،

(١) في طبعة عبد الحميد: «رسمه».
(٢) في القلائد: «في تنميقه وتنضيده».
(٣) في طبعة دار صادر والقلائد: «في يوم».
(٤) كلمة «فيه» غير واردة في طبعة صادر ولا في القلائد.
(٥) في قلائد العقيان: «وإقطاع».
(٦) في القلائد: «وأنشد».
(٧) في طبعة دار صادر: «أيّده اللّه».

وحظوة علياء أقتضيها، فكلُّ مَلِك فاوضْتُهُ سرًّا وجهرًا، وكل مُلْك قلبْتُهُ بطنًا وظهرًا، والنفس تصدُّ عنه صدود الجبان عن الحرب، والملائكة الكرام عن الشرْب، إلى أن حَصَلْتُ لديه، ووصلت بين يديه، فقلت: الآن أمكن مِنْ راح البغية الانتشاء، وتمثّلت ﴿ الحمدُ اللّه الذي أذْهَبَ عنَّا الحزَنَ﴾[1] ﴿وأورَثَنا الأرضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حيث نشاء﴾[2] وما زلْتُ أُسايره حيث سار، وآخذ اليمينَ تارة وتارة اليسار، وكل ناحية تُسْفر لي عن خَدّ روض أزهر، وعِذَار نبتٍ أخضر، وتبسّم عن ثغر حباب، في نهر كالحباب، وتَرْفَل من الربيع في ملابس سندسيات، وتُهْدِي إلينا نوافحَ مسكيات، وَتُزهَى بهجتها[3] بأحسن منظر، وتتيه بجلباب أينَع من بُرْدِ الشباب الأنضر[4]، فجلنا فيها يمينًا وشمالاً، واستخبرْنا عن أسرارها صَبًّا وشمالاً، ثم مال بنا، أيّده اللّه تعالى، عن هذه المسارح السنيّة، والمنازل البهيّة، إلى إحدى ضياعه الحالية، وبقاعه العالية، فحللْناها والأيمُ قد عَرِيَ من جلبابه، واليوم قد اكتهل بعد شَبَابه، فنزلنا في قصور يقصر عنها جَعْفَرِيُّ جعفر[5]، وقصور بني الأصفر، تهدي مِنْ لَبَّاتها بُرْدًا مُحَبَّرًا، وتُبْدِي من شَذَاها مِسْكًا وعنبرًا، وقد لاحتْ من جوانبها نجومُ أكواس لو رآها أبو نواس لجعلها شعاره، ووقف على نَعْتها أشعاره، ولم يتّخذ سواها نُجْعَة، ولا نَبَّه خَمَّاره بعد هجعة، فتعاطيناها والسعد لنا خادم، وما غير السرور علينا قادم، وخدود سُقَاتها قد اكتست من سناها، وقدودهم تتهيَّلُ علينا بجَنَاها، ونحن بين سكر وصحو، وإثبات لها ومحو، وإصاخة إلى بمٍّ وزِير[6]، والتفاتة إلى ملك ووزير، إلى أن ولَّى النهار فحيّانا، وأقبل الليلُ المميت فأحْيانا، فوصلْنا بلَهْو وقصف، وعيش يتجاوز كلَّ وصف، فكأنَّ يومنا مقيم، أو كأن ليلنا من الظلام عقيم. ولَمّا سل الفجر حُسامه، وأبدى لعبوس الليل ابتسامه، وجاء يختال اختيالاً، ويمحو من بقايا الليل نيالاً، قُمْنا نتنادبُ للمسير، وكلُّنا في يد النشوة أسير، فسِرْنا والملكُ الأجلُّ يقدَمُنا، والأيام تخدمنا، فلا زالت الأيام به زاهية، وعن سواه لاهية، ما عمر وكرًا عُقَاب، وكان للشهور غُرَر وأعقاب، انتهى.

---

(١) سورة فاطر ٣٥، الآية ٣٤.

(٢) سورة الزمر ٣٩، الآية ٧٤.

(٣) في طبعة دار صادر: «من بهجتها».

(٤) في طبعة ليدن: «الأخضر».

(٥) يريد جعفرًا وقصره المسمّى بالجعفريّ.

(٦) البَمُّ، بفتح الباء وتشديد الميم: الوتر الغليظ من أوتار المِزْهر. الزِّيرُ: الدقيق من الأوتار أو أحدُها. لسان العرب (بمم) و (زور).

وقال الفتح في ترجمة الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد بن عباد بعد كلام ما صورته[1]: وأخبرني المعتمد[2] بالله أن أباهُ المعتمد وَجَّهه - يعني أخاه الراضي - إلى شِلْبِ واليًا، وكانت ملعَبَ شبابه، ومَألف أحبابه، التي عمر نجودَهَا غلامًا، وتذكُّر عهودَها أحلامًا، وفيها[3] يقول يخاطب ابن عمار وقد توجّه إليها: [الطويل]

ألا حَيِّ أوطاني بشِلْبَ أبا بكر   وسَلْهُنَّ هل عَهْدُ الوصال كما أدري
وسَلِّم على قَصْر الشراجيب مِنْ فَتًى[4]   له أبدًا شَوْقٌ إلى ذلك القَصْرِ

وقصر الشراجيب هذا مُتَنَاهٍ في البهاء والإشراق، مُبَاهٍ لِزَوْرَاء العراق، ركضت فيه جياد راحاته، وأومَضَتْ بُرُوقُ أمانيه في ساحاته، وجَرَى الدهرُ مطيعًا بين بُكَره[5] ورَوحاته، أيام لم تحلَّ عنه تمائمه، ولا خلت من أزاهير[6] الشباب كمائمه، وكان يعتدُّها مشتهى[7] آماله، ومنتهى أعماله، إلى[8] بَهْجَة جَنَبَاتها، وطِيب نفحاتها وهَبَّاتها، والتفاف خمائلها، وتقلدها بنهرها مكان حمائلها، وفيها يقول ابن اللَّبَّانة: [الطويل]

أما عَلِمَ المعتَدُّ[9] بالله أنَّني   بحَضْرَته في جَنَّةٍ شَقَّهَا نهرُ
وما هُوَ نَهْرٌ أعْشَبَ النَّبْتُ حَولَهُ   ولكنه سَيفُ حمائِلُهُ خُضْرُ

فلمَّا صدر عنها وقد حسنت آثاره في تدبيرها، وانسدلتْ رعايته على صغيرها وكبيرها، نَزَلَ المعتمدُ عليه مشرفًا لأوبته، ومعرفًا بسُمُوّ قدره لديه ورتبته، وأقام يومَه عنده مستريحًا، وجرى في ميدان الأنس بطلاً مُشِيحًا، وكان واجدًا على الراضي فَجَلَتْ الحُمَيَّا أفقه، ومحتْ غيظه عليه وحنَقَه، وصوَّرَتْه له عينُ حُنُوِّه، وذكَّرَتْهُ بعده فجَنَح إلى دنوّه، وبين ما استدعى

---

(١) قلائد العقيان (ص ٣٢ - ٣٣).
(٢) هكذا في القلائد. وفي طبعة دار صادر: «المعتز».
(٣) في القلائد: «فقال يخاطب...».
(٤) في قلائد العقيان: «عن فتى».
(٥) في المصدر نفسه: «بكوره».
(٦) في المصدر نفسه: «أزاهر».
(٧) في طبعة ليدن: «محيا». وفي القلائد: «مجنى».
(٨) في القلائد: «يميل إلى بهجة...».
(٩) هكذا في القلائد. وفي طبعة دار صادر: «المعتز».

وأوفى، مالت بالمُعْتَمد نَشْوَته وأغفى، وألفاه[1] صريعًا في متنداه، طريحًا في منتهى مَدَاه، فأقام تجاهه، يرتقب انتباهه، وفي أثناء ذلك صنع شعرًا أتقنه وجَوَّده، فلما استيقظ أنشده: [المتقارب]

ألانَ[2] تعودُ حياةُ الأملْ ... ويَدْنُو شفاءُ فؤادٍ مُعَلْ
ويُورِقُ للعزِّ غُصْنٌ ذَوَى ... ويَطْلُع للسَّعْدِ نجْمٌ أفَلْ
فقد وَعَدَتْنِي سَحَابُ الرضا ... بِوَابِلِها حينَ جادت بِطَلْ
أيا ملكا أمرُهُ نافِذٌ ... فمن شا أعَزَّ ومَنْ شا أذَلْ
دَعَوتَ فَطَارَ بقلبي السرورُ ... إليك، وإن كان منك الوَجَلْ
كما يَسْتَطِيرُك حُبُّ الْوَغَى ... إليها وفيها الظُّبَا والأسَلْ
فلا[3] غَرْوَ إن كان منك اغْتِفَارٌ ... وإن كان منا جميعا زَلَلْ
فمثلك ـ وهْوَ الذي لم نَجِد[4] ... هُ ـ عاد بحلم على من جَهِلْ

وقال في ترجمة المتوكل على الله ابن الأفطس، ما صورته[5]: وأخبرني الوزير أبو محمد بن عبدون، أن[6] الأرض توالى عليها الجدبُ بحضرته، حتى جَفَّتْ مذانِبُها[7]، واغبرَّتْ جوانِبُهَا، وغَرَّد المُكّاءُ[8] في غير رَوضه، وخاض اليأسُ بالناس[9] أعظم خَوضِه، وأبْدَتِ الخمائلُ عبوسَهَا، وشكتِ الأرضُ للسماء بوسَهَا، فأقلع المتوكلُ عن الشرب واللهو، ونَزَع ملابسَ الخُيَلاء والزَّهْوِ، وأظهر الخشوع، وأكثر السجود والركوع، إلى أن غَيَّم الجوّ،

---

(١) في القلائد: «فألفاه».

(٢) أصلها «الآن» وقد خففها فحذف الهمزة الممدودة مراعاة للوزن.

(٣) في قلائد العقيان: «ولا غرو».

(٤) في المصدر نفسه: «لم يزل يعود».

(٥) قلائد العقيان (ص ٤٢ ـ ٤٤).

(٦) في القلائد: «أن الجدب توالى بحضرته حتى...».

(٧) المذانب: جمع مذنب وهو مسيل الماء. لسان العرب (ذنب).

(٨) المُكّاء، بضم الميم وتشديد الكاف: طائر من القنابر، لونه أبيض، وله صفير حسن. مختار الصحاح (مكا).

(٩) في القلائد: «وخاض الناس بالباس».

وانسجم النوّ، وصاب[1] الغمام، وترنّمت[2] الْحَمام، وسَفرت الأنوار[3]، وزَهت النجود[4] والأغوار، واتّفق أن وصل أبو يوسف المُغَنّي والأرضُ قد لبست زخارفها، ورَقَمَ الغمامُ مَطَارِفَهَا، وتتوّجت[5] الغيطان والربا، وأرِجَتْ نَفَحات الصَّبَا، والمتوكل ما فَضَّ لتوبته خِتامًا، ولا قوّض[6] عن قلبه منها خيامًا، فكتب إليه[7] : [المتقارب]

أَلَمَّ أبو يوسفٍ والمَطَرْ ... فيا لَيت شِعْرِيَ! ما يُنْتَظَرْ؟
ولَسْتُ بآبٍ وأنتَ الشهيدُ ... حُضُورَ نَدِيِّك فيمَنْ حَضَرْ
ولا مَطْلَعي وَسْطَ تلك السما ... ءِ بَينَ النّجوم وبين القَمَرْ
ورَكْضِيَ[8] فيها جيادَ المُدَا ... مِ مَحْثُوثَةً بِسِيَاطِ الْوَتَرْ

فبعث إليه مركوبًا، وكتب معه[9] [المتقارب]

بَعَثْتُ إليكَ جَنَاحًا فَطِرْ ... عَلَى خِفْيَةٍ مِنْ عُيُون الْبَشَرْ
على ذُلُلٍ من نِتَاج الْبُرُوق ... وفي ظُلَل من نَسِيج الشَّجَرْ
فَحَسْبِيَ مِمَّنْ نأى مَنْ دَنَا ... ومَنْ غاب كان فِدَا مَنْ حَضَرْ[10]

فوصل القَصَبَة[11] المطلّة على البطحاء، المُزْرِية بمنازل الرَّوحاء، فأقام منها حيث قال عَدِيُّ بن زيد يصف صنعاء[12]: [المديد]

في قِبَاب حَولَ دَسْكَرَةٍ ... حَولَها الزيتونُ قَدْ يَنَعَا

---

(1) صاب الغمام: هطل، والغمام: المطر. لسان العرب (صوب) و (غمم).
(2) في القلائد: «وغَنّت».
(3) في طبعة بولاق، وفي القلائد: «الأزهار».
(4) في القلائد: «النجاد».
(5) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «وتدبَّجت».
(6) في المصدرين نفسيهما: «ولا نفض... منها قتاما...».
(7) الأبيات أيضًا في الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٠٦).
(8) في القلائد: «وركض».
(9) الأبيات أيضًا في الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٠٦).
(10) في القلائد: «فمن غاب...». وفي الحلة السيراء: «فحسبي عَمَّنْ...».
(11) في طبعة بولاق: «القبّة».
(12) هكذا في القلائد. وفي طبعة دار صادر: «مصنعًا». والبيت في لسان العرب (دسكر) منسوب إلى الأخطل. والدسكرة بناء كالقصر حوله بيوت الشراب واللهو.

ومرَّ[1] لهم من السرور يومٌ ما مَرَّ لذي رُعَين، ولا تصوّر قبل عيونهم لعَين. وأخبرني أنه سايره إلى شَنْتَرين قاصية أرض الإسلام، السامية الذرَا والأعلام، التي لا يَرُوعُها صَرْف، ولا يَفْرَعُهَا[2] طرف، لأنها متوعِّرة المرَاقي، مُعَفَّرة[3] للرّاقي، متمكّنة الرَّوَاسي والقواعد، مِن ضفة نهر استدار بها استدارة القُلْب بالساعد، قد أطلّتْ على خمائلها، إطلالَ العرُوس مِنْ مِنَصَّتِهَا، واقتطعت من الجوّ أكثر من حصتها فمرّوا بأَلْبَشَ[4] قطرٍ سالت به[5] جداوله واختالت فيه خَمائلُه، فما يجول الطَّرف منه إلاّ في حديقة، أو بُقْعة أنيقة، فتلقّاهم ابنُ مُقَانا[6] قاضي حَضرته وأنزلهم عنده، وأورى لهم بالمبرّة زَنْدَهُ، وقدّم لهم طعامًا، واعتقد قَبوله مَنًّا وإنعامًا، وعندما طَعِمُوا قعد القاضي بباب المجلس رقيبًا لا يبرح، وعَينُ المتوكّل حياءً منه لا تجول ولا تَمرح، فخرج أبو محمد وقد أبرمه القاضي[7] بتثقيله، وحَرَمه راحة رواحه ومَقِيله، فلقيَ ابنَ خَيرُونَ منتظرًا له، وقد أعدّ لحلوله[8] منزله، فسار إلى مجلس قد ابتَسَمَت ثغور نُوَّاره، وخجلتْ خدودُ ورده من زُوَّاره، وأبدتْ صدورُ أباريقه أسرارها، وضمّتْ عليه المحاسن أزرارَهَا، ولمّا حضر له وقتُ الأنس وحِينُه، وأرِجَتْ له رياحينُه، وَجَّهَ مَنْ يَرْقُب المتوكلَ حتى يقوم جليسُه، ويزولَ مُوحِشُه لا أنيسه، فأقام رسوله وهو بمكانه لا يَرِيمُه، وقد لازمه كأنه غريمُه، فما انفصل، حتى ظنّ أن عارض الليل قد نَصَلْ، فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث إلى المتوكّل قطيع راح[9] وطبق ورد، وكتب معهما[10]: [الرجز]

إليكها فاجْتَلِهَا منيرة وقد خَبَا حتى الشِّهابُ الثاقبُ

---

(١) في القلائد: «ومضى».

(٢) في المصدر نفسه: «يقرعها». ويفرعها: يعلوها. لسان العرب (فرع).

(٣) في القلائد وطبعة صادر: «معفّرة».

(٤) في طبعة بولاق: «بأنفس قطر». وأليش بالإسبانية هي Elvas، وتقع غربيَّ بطليوس Badajoz.

(٥) في القلائد: «فيه».

(٦) في القلائد: «ابن مغاني» وهو خطأ.

(٧) كلمة «القاضي» لم ترد في طبعة دار صادر ولا في القلائد.

(٨) في القلائد: «وقد أعدَّ لحضور منزله».

(٩) في المصدر نفسه: «بتقطيع خمر وطبق...».

(١٠) الأبيات أيضًا في الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٠٧).

وقال في ترجمة ابن رَزِين، ما ملخَّصه[1]: أخبرني الوزيرُ أبو عامر [بن سنون][2] أنه اصطبح يومًا والجوُّ سِمَاكي[3] الْعَوَارِف، لا زَوَرْدِيُّ المطارف، والروض أنيقة لَبَّاته، رقيقةٌ هَبَاتُه والنَّورُ مُبْتَلٌّ، والنسيمُ مُعْتَلٌّ، ومعه قومُه، وقد راقهم يَومُه، وصِلاَته تُصَافح مُعْتفيهم، ومَبَرَّاته تُشَافه مُوَافِيهم، والراح تُشَعْشَعُ، وماء الأماني ينشع، فكتب إلى ابن عمار وهو ضيفه: [الطويل]

ضَمَانٌ على الأيام أن أبلُغَ الْمُنَى ... إذا كُنْتَ في وِدِّي مُسِرًّا ومُعْلِنَا
فلو تسأل الأيامُ مَنْ هو مفرد ... بِوُدِّ ابنِ عَمَّارٍ؟ لقلْتُ لها: أنا
فإنْ حَالتِ الأيامُ بَينِي وبينه ... فكيف يَطِيبُ العيشُ أو يَحْصُلُ الْمُنَى[4]

فلما وصلت الرقعة إليه تأخّر عن الوصول، واعْتذر بعذر مختلِّ المعاني والفُصُول، فقال أحد الحاضرين: إني لأعجب من قعود[5] ابن عمار، عن هذا المضمار، مع مَيله إلى السَّماع، وكَلَفه بمثل هذا الاجتماع، فقال ذو الرياستين: إن الجواب تعذّر، فلذا اعتذر، لأنه يُعَاني قوله ويُعَلّله، ويُرَوِّيه ولا يرتجله، ويقوله في المدّة[6] ، والساعاتِ الممتدة، فرأى أن الوصول بلا جواب إخجال لأدبه، وإخلال لمنازِلِه[7] في الشعر ورُتَبه، فلمّا كان من الغد وَرَدَ ابنُ عمّار ومعه الجواب، وهو: [الطويل]

هَصَرْتَ لِيَ الآمالَ طَيِّبَةَ الْجَنَى ... وَسَوَّغْتَنِي الأحْوَال مُقْبلَة الدُّنَى
وألْبَسْتَنِي النُّعْما أغضَّ مِنَ النَّدَى ... وأجْمَلَ مِنْ وَشْيِ الرَّبِيعِ وأحْسَنَا
وكم ليلةٍ أَحْظيتني بحُضورها ... فَبِتُّ سميرًا للسَّنَاءِ وللسَّنَا
أعَلِّلُ نفسي بالمكارم والعُلا ... وأذْني وكَفِّي بالغِنَاءِ وبالْغِنَى
سأقرن بالتمويل ذِكْرَك كلّما ... تعاوَرَتِ الأسماءُ غيرَك والكُنَى

---

(١) قلائد العقيان (ص ٥١ ـ ٥٢).
(٢) ما بين قوسين زيادة من القلائد.
(٣) في طبعة ليدن: «مسكيّ».
(٤) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «أو يحسن الغنا».
(٥) في القلائد: «لأعجب من ابن عمار، وكيف قعد عن هذا المضمار...».
(٦) في طبعة دار صادر والقلائد: «في المدة الممتدة، فرأى...».
(٧) في قلائد العقيان: «بمنازله».

لأوسَعْتَنِي قولاً وطولاً كلاهُما ... يُطَوِّقُ أعناقًا ويُخرِسُ أَلْسُنَا
وشَرَّفْتَنِي مِنْ قطعةِ الروضِ بالتي ... تناثر فيها الطَّبْعُ وَرْدًا وسَوسَنَا
تَرُوقُ بِجِيدِ الملك عِقْدًا مُرَصَّعًا ... وتزهُو على عِطْفَيهِ بُرْدًا مُزَيَّنا[1]
فَدُمْ هكذا يا فارسَ الدَّسْتِ والْوَغَى ... لِتَطْعَنَ طَوْرًا بالكلامِ وبالقَنَا[2]

وأخبرني الوزير[3] أبو جعفر بن سَعْدُون أنه اصطبح يومًا بحضرته وللرذاذ رَشٌّ، وللربيع على وجه الأرض فرش، وقد صَقَلَ الغمامُ الأزهار حتى أذهب نَمَشَها، وسقاها فأرْوَى عَطَشَها، فكتب إليه: [الطويل]

فَدَيناكَ لا يَسْتَطِيعُكَ النَّظْمُ والنَّثْرُ ... فأنت مليكُ الأرض، وانفصل الأمرُ[4]
مَرَينا نَداكَ الغمرَ فانْهَلَّ صَيِّبًا ... كما سكبتْ وَطْفَاءُ أو سكبَ البحر[5]
وجاء الربيعِ الطَّلْقُ ينْدى غضارة[6] ... فَحَيَّتْكَ منه الشمسُ والروضُ والنهر

إلى أن قال[7]: ثم وَجَّه[8] فيه إلى روضة قد أرجتْ نفحاتُها، وتدبَّجتْ ساحاتُها، وتفتَّحتْ كمائمُها، وأفصحتْ حمائمُها[9]، وتجرَّدتْ[10] جداولها كالبواتر، ورمقتْ أزهارها بعيون[11] فَوَاتر، وأقاموا يُعْمِلون أكواسهم[12]، ويشتملون إيناسهم، فقال ذو الرياستين[13]: [الطويل]

وَرَوضٍ كَسَاهُ الطَّلُّ وَشْيًا مُجَدَّدَا ... فَأَضْحَى مُقِيمًا للنفوس ومُقْعِدا

---

(١) في القلائد: «عطفيه وشيًا معينًا».
(٢) في المصدر نفسه: «لتطعن بالأقلام فيها وبالقنا». والدَّسْتُ: المجلس. محيط المحيط (دست).
(٣) في القلائد: «الوزير الكاتب».
(٤) في طبعة دار صادر: «واتَّصل الأمر».
(٥) في القلائد: «وطفاء أو فتق الزهر». ومَرَينا نداك: طلبْنا جُودَكَ. لسان العرب (مري) و (ندي).
(٦) في طبعة بولاق: «يبدي طلاقة».
(٧) قلائد العقيان (ص ٥٣).
(٨) في القلائد: «ثم توجّه...».
(٩) في المصدر نفسه: «حمامها».
(١٠) في طبعة دار صادر: «وجردت».
(١١) في طبعتي دار صادر وبولاق: «كالعيون الفواتر».
(١٢) في القلائد: «كاسهم».
(١٣) الأبيات أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩).

واقـفـةً بـالْبَـاب لـم يـؤذَنْ لـهـا   إلاَّ وقـد كـاد يَـنَـامُ الـحـاجـبُ
فَبَعْضُهـا مِنَ الـمَـخـافِ جـامِـدٌ   وبَـعْـضُـهـا مِنَ الـحَـيَـاءِ ذائِـبُ

فقبلها منه رحمه اللّٰه تعالى وعفا عنه وكتب إليه[1]: [الرجز]

قَـدْ وَصَلَتْ تـلك الـتي زَفَفْـتَـهـا   بِكْـرًا وقـد شـابـتْ لـهـا ذَوائِـبُ
فَـهُـبَّ حـتـى نـسـتـردَّ ذاهـبًـا   مِـنْ أنْـسـنـا، إنِ اسْـتُـرِدَّ ذاهـبُ

فركب إليه، ونَقَل معه ما كان بالمجلس بين يديه، وباتا ليلتَهُمَا يَرِيمَانِ السهر، ولا يشيمان برقًا إلاَّ الكاس والزَّهَرْ.

ثم قال بعد كلام[2]: وأخبرني الوزير[3] الفقيه أبو أيوب بن أبي أمية أنه[4] مَرَّ في بعض أيامه بروض مُفْتَرّ المباسم، مُعَطّر الرياح النواسم، قد صَقَلَ الربيعُ حَوْذَانه[5]، وأنطق بلبله وَوَرَشَانَه[6]، وألحف غصونه برودًا مخضَرة، وجعل إشراقه للشمس ضرّة، وأزاهِرَه[7] تَتِيهُ على الكواكب، وتختالُ في خِلَع الغمائم السواكب، فارتاح إلى الكون به بقيّة نهاره، والتنعّم ببنَفْسَجِه وبَهاره، فلمّا حصل مِنْ أنسِهِ في وسط المدَى، عَمَدَ إلى وَرَقَة كُرنبٍ قد بلّلها النّدَى، وكتب فيها بطرف غصن ناعِم[8]، يستدعي الوزير أبا طالب بن غانم، أحد ندمائه، ونجوم سمائه[9]: [مخلع البسيط]

أقْـبِـلْ أبـا طـالـبٍ إلـيـنـا   وَقَـعْ وُقُـوعَ الـنَّـدَى عَلَيـنَـا[10]
فـنَـحْـنُ عِـقْـدٌ بـغـيـر وُسْـطى   مـا لـم تَكُـنْ حـاضـرًا لـديـنـا

---

(١) في القلائد: «فقبلها رحمه اللّٰه وكتب إليه». والبيتان أيضًا في الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٠٧).
(٢) قلائد العقيان (ص ٤٦).
(٣) كلمة «الوزير» لم ترد في القلائد.
(٤) الضمير يعود على المتوكل ابن الأفطس الذي يترجم له المقري.
(٥) الحَوذان: نبت نَورُهُ أصفر. محيط المحيط (حوذ).
(٦) الوَرَشان، بالفتح: طائر مغرّد. مختار الصحاح (ورش).
(٧) في القلائد: «وأزاهيره».
(٨) كلمة «ناعم» غير واردة في طبعة دار صادر ولا في القلائد.
(٩) البيتان أيضًا في الحلة السيراء (ج ٢ ص ١٠٧).
(١٠) هكذا في القلائد، وفي الحلة السيراء: «انْهضْ أبا... واسقط سقوط الندى...». ثم رواه ابن الأبار أيضًا كما هنا.

وقال في ترجمة المعتصم(١) بن صُمَادح، ما صورته(٢): وأخبرني الوزير أبو خالد بن بَشْتَغَيرَ(٣) أنه حضر مجلسه بالصمادحية في يوم غيم(٤) وفيه أعيان الوزراء، ونُبَهاء الشعراء، فقعد على موضع يتداخل الماء فيه، ويلتوي في نَوَاحيه، والمعتصم منشرح النفس، مجتمع الأنس، فقال(٥): [البسيط]

أُنْظُرْ إلى حُسْنِ هٰذَا المـاءِ في صَبَبِهْ ... كـأنـه أَرْقَـمُ قـد جَـدَّ فـي هَـرَبِـهْ

فاستبدعوه، وتيمّوه به وأولَعُوه، فأسكب عليهم شآبيبَ نَدَاه، وأغرب بما أظهره(٦) من بشره وأبْدَاه.

ثم قال بعد كلام(٧): وخرج إلى بَرجَةَ ودَلاَية وهما مَنْظَران(٨) لم يَجُلْ في مثلهما ناظر، ولم تَدَّعِ حُسْنَهُمَا الخدودُ النواضر، غصونٌ تُثَنّيها الرياح، ومياه لها انسياح، وحدائق تهدي الأرَجَ والْعَرْف، ومنازه(٩) تُبْهِجُ النفسَ وتمتع الطرف، فأقام فيها أيامًا يتدرّج في مسارحها،ويتصرّف في مَنَازهها(١٠)، وكانت نزهة أرْبَتْ على نزهة هشام بدير الرُّصَافة، وأنافت عليها أيَّ إنافة.

---

(١) المعتصم بن صمادح هو أبو يحيى محمد بن معن ابن صمادح، صاحب ألمرية؛ تولّى أمرها بعد موت أبيه معن في سنة ٤٤٣ هـ، وظل يحكمها حتى وفاته في سنة ٤٨٤ هـ. البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٧) والحلة السيراء (ج ٢ ص ٨١) ووفيات الأعيان (ج ٥ ص ٤٩).

(٢) قلائد العقيان (ص ٤٩).

(٣) في طبعة بولاق: «بشتغين». وفي طبعة ليدن: «يستغير».

(٤) كلمة «غيم» لم ترد في القلائد.

(٥) ورد البيت أيضًا في الحلة السيراء (ج ٢ ص ٨٥)، كما ورد مع الخبر في المطرب (ص ٣٦). وسيأتي في الجزء الرابع من نفح الطيب وفيه صدر البيت هكذا:

انـظر إلى المـاء كيف انـحطَّ من صَـبَبِـهْ

(٦) هكذا في قلائد العقيان. وفي طبعة دار صادر: «بما ظهر».

(٧) قلائد العقيان (ص ٥١).

(٨) في طبعة دار صادر والقلائد: «نظران».

(٩) في المصدرين نفسيهما: «ومنازل».

(١٠) في القلائد: «في منازهها ومسابحها».

إذا صافحتْهُ الرِّيحُ خِلْتَ غُصُونَه رواقِصَ في خُضْرٍ مِنَ القُضْبِ[1] مُيَّدَا
إذا ما انسكابُ الماءِ عايَنْتَ خِلْتَهُ وقد كَسَرَتْهُ راحةُ الريحِ[2] مِبْرَدا
وإنْ سَكَنَتْ عنه حَسِبْتَ صفاءه حُسَامًا صقيلاً صافيَ المَتْنِ جُرِّدا
وغَنَّتْ به وُرْقُ الحمائم بيننا غِنَاءً يُنَسِّيك الغَرِيضَ ومَعْبَدَا[3]
فلا تجفُوَنَّ الدهرَ ما دامَ مُسْعِدًا ومُدَّ إلى ما قد حَباك به يَدا
وخُذْها مُدامًا مِنْ غزالٍ كأنه إذا ما سَقَى بَدْرٌ تَحَمَّلَ فَرْقَدَا

إلى أن قال[4]: وأخبرني الوزير [أبو عامر][5] ابن سُنون، أنه كان معه في منية العيون، في يومٍ مُطَرَّز الأديم، ومجلس معزّز النديم، والأنس يغازلهم من كلِّ ثنيّة، ويواصلهم بكل أُمنيّة، فسكر أحد الحاضرين سكرًا مَثَّلَ له ميدان الحرب، وسَهَّلَ عليه مستوعر الطعن والضرب، فقلب مجلس[6] الأنس حربًا وقتالاً، وطلب الطعن وحده والنزالا[7]، فقال ذو الرياستين: [الكامل]

نَفْسُ الذليلِ تعزُّ بالْجِرْيَالِ فَيُقاتِلُ الأقرانَ دون قتالِ
كم من جبانٍ ذي افتخارٍ باطلٍ بالراح[8] تحسبه من الأبطال
كَبْشُ النديِّ تَخَمُّطًا وعَرَامَةً وإذا تُشَبُّ الحربُ شاةُ نزالِ

وقال في ترجمة ابن طاهر، ما صورته[9]: وجئْتُه يومًا وقد وقفْتُ بباب الحنش، فقال لي: من أين؟ فأعلمْتُه، ووصفْتُ له ما عاينْتُه مِنْ حسنه وتأمَّلْتُه، فقال لي: كنت أخرج إليه

---

(١) في القلائد: «من العطف».

(٢) في المغرب «الراح».

(٣) في المغرب: «حولنا» بدل «بيننا». وفي القلائد: «القريض» بدل «الغريض»، وهو خطأ؛ لأن الغريض ومعبدًا رجلان مشهوران في الغناء، وقد تقدمت ترجمتهما.

(٤) قلائد العقيان (ص ٥٥).

(٥) ما بين قوسين زيادة من القلائد.

(٦) في القلائد: «مجالس».

(٧) في القلائد: «والنزلا». وهذا من قول المتنبي: [الخفيف]

وإذا ما خَلا الجَبانُ بأرضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزالا

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٣٦).

(٨) في القلائد: «بالخمر».

(٩) قلائد العقيان (ص ٦٤ - ٦٥).

في أكثر الليالي مع الوزير الأجلّ أبي بكر - يعني ابن عبد العزيز - إلى روضته التي وَدَّتِ الشمسُ أن يكونَ منها طلوعُها، وتَمَنّى المِسْكُ أنْ تنضم[1] عليه ضلوعها، والزمان غُلام، والعَيْشُ أحلام، والدنيا تحيّةٌ وسلام، والناسُ قد انتشروا في جوانبه، وقعدوا[2] على مَذَانبه، وفي ساقيته الكبرى دولاب يئنُّ كناقة إثْرَ حُوار[3]، أو كَثَكْلَى مِن حرِّ الأُوَار، وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه، بُكْرتَهُ ورَوَاحه، ويغازل عليه حبيبه، ويصرف إليه تشبيبه، فخرجت عليه ليلة[4] والمتنبي الجزيري[5] واقف وأمامه ظبي آنس، تهيم به المكانس، وفي أذنيه قرطان، كأنهما كوكبان، وهو يتأوَّدُ تأوّد غصن البان، والمتنبي يقول: [الرمل]

مَعْشَرَ النـاسِ ببـاب الحنش ... بَـدْرُ تِـمٍّ طـالـعٌ فـي غَـبَشِ
عَـلَّقَ القُـرْطَ علـى مَسْمَعِـهِ ... مَـنْ عليـه آفـةُ العَيـن خشـي

فلمّا رآني أَمْسَكَ، وسَبَّح كأنه تَنَسَّكَ.

وقال في ترجمة ابن عمار، ما صورته[6]: وتَنَزَّهَ بالدمشق بقرطبة، وهو قصر شيّده بنو أمية بالصُّفّاح والعَمَد، وجَرَوا[7] من إتقانه إلى غاية وأمد، وأُبْدع بناؤه، ونُمِّقَتْ ساحته وفِناؤه، واتّخذوه مَيدان مَرَاحهم، ومضمارًا لانشراحهم، وحكوا به قصرهم بالمشرق، وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق، فحلّه أبو بكر بن عمار على أثر بُوسِهِ، وابتسم له دهرهُ بَعْدَ عُبُوسِهِ، والدنيا قد أعطتْه عَفْوَها، وسقتْه صَفْوَها، وبات فيه مع لُمَّةٍ من أتباعه، ومتفيئي[8] رِباعه، وكلّهم يحيّيه بكاس، ويفديه بنفسه من كل باس، فطابت له ليلته في مشيده، وأطربه الأنس ببسيطه ونشيده، فقال[9]: [الخفيف]

كـلُّ قصْـرٍ بعـد الدمشق يُـذَمُّ ... فيـه طـاب الجَنَى وفاحَ المِشَـمُّ

(١) في قلائد العقيان: «تضمّ».

(٢) في القلائد: «إلى».

(٣) في المصدر نفسه: «الحوار».

(٤) في المصدر نفسه: «إليه ليله».

(٥) هو أبو طالب عبد الجبار؛ يعرف بالجزيري نسبة إلى جزيرة شقر، وهو منها، ويلقب بالمتنبّي لجزالة شعره. الذخيرة (ق ١ ص ٩١٦) والمغرب (ج ٢ ص ٣٧١).

(٦) قلائد العقيان (ص ٨٤). وقد تقدّم بعض هذا النص في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٦ - ١٧).

(٧) في القلائد: «في».

(٨) في المصدر نفسه: «ومتقيلي رباعه، كلهم. . .».

(٩) هكذا وردت في القلائد. وقد تقدّمت في هذا الجزء من نفح الطيب (ص ١٧).

منظرٌ رائقٌ، وماءٌ نميرٌ   وثرًى عاطرٌ، وقصرٌ أشمُّ
بتُّ فيه والليلُ والفَجْرُ عندي   عَنْبَرٌ أَشْهَبُ ومِسْكٌ أَحَمُّ

وعَبَّر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله[١] : تنزّه ابن عمار بالدمشق بقرطبة، وهو قصر شيّده خلفاءُ بني أمية وزخرفوه، ودفعوا صرف الدهر عنه وصَرَفُوه، وأجروه على إرادتهم وصرَّفوه، وذهَّبوا سُقُفَه وفضَّضُوها، ورخَّموا أرضه وروَّضوها، فبات به والسَّعْدُ يلحظه بطَرْفه، والروضُ يحييه بعَرْفه، فلما استنفدَ كافور الصباح مسك الغسق، ورصع آبنوس الظلام نضار الشفق، قال مرتجلاً: «كل قصر بعد الدمشق يُذَمُّ» إلخ، انتهى.

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي عيسى بن لَبُّون[٢]: أخبرني الوزير أبو عامر بن الطويل أنه كان بقصر مُرْبَيطَر بالمجلس الشرقي منها[٣]، والبطحاء قد لبست زخرفها، ودبَّج الغمامُ مُطْرَفها، وفيها حدائق ترنو عن مُقَل نرجسها، وتبثُّ طِيب تنفّسها، والجلنار قد لبس أردية الدماء، وراع أفئدة الندماء، فقال[٤]: [الكامل]

قُمْ يا نديمُ أدِرْ عليَّ القَرْقَفا   أو ما تَرَى زَهْرَ الرياضِ مُفَوَّفا[٥]
فتخالُ محبوبًا مُدِلاً وَرْدَها   وتظنُّ[٦] نَرْجِسَها مُحِبًّا مُدْنَفَا
والجُلَّنارُ دِماءَ قَتْلَى مَعْرَكٍ   والياسمينَ حَبابَ ماءٍ قد طَفَا

إلى أن قال[٧]: وشرب مع الوزراء[٨] والكُتّاب ببطحاء لورقة [عند أخيه، وابنُ اليسع غائب عنهما][٩] في عشيّة تجودُ بدمائها[١٠]، ويصوب عليها دمع سمائها، والبطحاء قد خُلع

(١) بدائع البداله (ج ٢ ص ١٣١).
(٢) قلائد العقيان (ص ٩٩).
(٣) في طبعة ليدن وفي القلائد: «المشرف مبها».
(٤) الأبيات أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٣٧٦).
(٥) القَرْقَفُ: الخمر. مُفَوَّفُ: مخطَّط وملوّن. لسان العرب (قرقف) و (فوف).
(٦) في المغرب: «وتخال».
(٧) قلائد العقيان (ص ١٠٠).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «الوزراء الكتاب».
(٩) ما بين قوسين زيادة من القلائد.
(١٠) في القلائد: «بذمائها».

عليها سندسها، ودُرُّها[1] نرجسها، والشمس تنفض على الرُّبا زعفرانها، والأنوار تغمض أجفانها، فكتب إلى ابن اليسع[2] : [البسيط]

لـو كنتَ تشهـدُ يـا هـذا عَشِيَّتَنـا — والمُزْنُ يسكُبُ أحيانًـا وينحـدرُ [3]
والأرضُ مُصْفَـرَّةٌ بالشمس[4] كـاسيـةٌ — أَبْصَـرْتَ تِبْـرًا عـليـه الـدُّرُّ ينتثـر

وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر بن رُحَيم، ما صورته[5] : ووصل هو وابن وضّاح صهر المرتضى، وابن جمال الخلافة صاحب صقلية، إلى إحدى جنّات مُرْسية، فخلّوا منها في قبّة فوق جدول مُطّرد، وتحت أدواحٍ طَيرُها غرِد، فأقاموا[6] يتعاطَونَ رحيقهم، ويعمرون في المؤانسة طريقهم، إذا بالْجَنّانِ قد[7] وقف عليهم وقال: كان بموضعكم[8] بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة، وخدود غير مستورة، قد رفعت عنها البراقع، وما منها نظرة إلّا ومعها[9] سهم واقع، فاستدعى فحمًا وكتب في إحدى زوايا القبّة: [الخفيف]

قـادَنـا ودُنـا إلـيـك فَجِئْـنـا — بنفوس تفـديـك مِنْ كـلِّ بُـوسِ
فَـنَـزَلْـنـا مـنـازلاً لِـبُـدُورٍ — وحَـلَلْـنـا مَـطالِـعًـا لـشـمـوسِ

وقال في ترجمة الوزير الكاتب أبي محمد بن عبدون،ما صورته[10]:حَلَلْتُ بِيَابرة[11] فأنزلني واليها بقصرها، ومكّنني مِنْ جَنَى الأماني وهَصْرها، فأَقَمْتُ ليلي، أَجُرُّ على المجرّة

---

(١) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «ودَنُّرها».

(٢) البيتان أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٣٧٧) والحلة السيراء (ج ٢ ص ١٦٩). وسيأتيان في الجزء السادس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) في طبعة دار صادر: «تسكب أحيانًا وتنحدر». وفي الحلة السيراء: «يُمْسِكُ» بدل «يسكب».

(٤) في الحلة السيراء: «بالقطر كاسية». وفي المغرب والقلائد: «بالمزن كاسية».

(٥) قلائد العقيان (ص ١١٥ ـ ١١٦).

(٦) في القلائد: «وأقاموا».

(٧) كلمة «قد» لم ترد في قلائد العقيان.

(٨) في القلائد: «هذا بالأمس».

(٩) في المصدر نفسه: «إلّا وهي سهم».

(١٠) قلائد العقيان (ص ١٤٥).

(١١) يابرة: بالإسبانية Evora وهي مدينة من كور باجة الأندلس، أي من البرتغال. الروض المعطار (ص ٦١٥). وفي القلائد: «حللت بابرة».

ذيلي، وتتطارد[1] في ميدان السرور خيلي، فلمَّا كان من الغد باكرني الوزير أبو محمد مسلِّمًا، ومن تَنَكبِي عنه متألِّمًا، ثم عطف على القائد عاتبًا عليه، في كوني لديه، ثم انصرف وقد أخذني من يديه فحللْتُ عنده في رحب، وهَمَتْ عليَّ مِنَ البِرِّ أمطارُ سُحُبٍ، في مجلس كأنَّ الدراريَّ فيه مصفوفة، أو كأن الشمسَ إليه مزفوفة، فلمَّا حان انصرافي، وكثر تطلّعي إلى مآبي[2] واستشرافي، ركب معي إلى حديقة نضرة، مجاورة للحضرة، فأنَخْنا عليها أيديَ عِيسِنَا[3]، ونِلْنا منها ما شِئْنا مِنْ تأنيسنا، فلمَّا امتطيتُ عزمي، وسَدَّدْتُ إلى غرض الرحلة سهمي، أنشدني: [الطويل]

سلامٌ يُنَاجي منه زَهْرَ الرُّبَا عَرْفُ ... فَلاَ سَمْعَ إلاَّ وَدَّ لو أنه أنْفُ
حَنِيني إلى تلك السَّجايا فإنها ... لآثارُ أعيانِ المَساعي التي أقْفُو

ثم سَرَدَ القصيدة[4] إلى أن قال: وله رحمه اللّه تعالى[5]: [المتقارب]

سَقَاهَا الْحَيَا من مَغَانٍ فِسَاحِ ... فَكَمْ لي بها مِنْ مَعَانٍ فِصَاحِ
وحَلَّى أكاليلَ تلْكَ الرُّبَا ... ووَشَّى مَعَاطِفَ تلك البِطَاحِ
فَمَا أنْسَ لا أنْسَ عَهْدِي بها ... وجَرِّيَ فيها ذيولَ الْمِرَاحِ
ونَومي على حِبَرَاتِ الرِّياضِ ... يُجَاذب بُرْدَيَّ مَرُّ الرِّيَاحِ[6]
ولم أعْطِ أمْرَ النُّهَى طاعَةً ... ولم أُصْغِ سَمْعِي إلى قَولِ لاحِ[7]
ولَيلٍ كرَجْعَةِ طَرْفِ المُرِيبِ ... لَمْ آدْرِ له شَفَقًا مِنْ صَبَاحِ[8]

---

(١) في القلائد: «وتتطاول».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «ما بي». وفي القلائد: «قيامي».

(٣) العِيسُ: النُّوقُ. لسان العرب (عيس).

(٤) القصيدة من ١٧ بيتًا في القلائد (ص ١٤٥ ـ ١٤٦).

(٥) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٤٦) والمغرب (ج ١ ص ٣٧٥).

(٦) في طبعة ليدن: «مراح الرياح». وفي القلائد: «تجاذب».

(٧) في طبعة دار صادر: «إلى لَحْي لاحِ». ورواية البيت في القلائد هي:

بحيث لم أعْطِ النُّهَى طاعةً ... ولم أُصْغِ سَمْعًا إلى لَحْي لاحِ

وروايته في المغرب هي:

بحيث لم أعْطِ النُّهَى طاعةً ... ولم أُصْغِ فيها إلى لَحْي لاحِ

(٨) رواية عجز البيت في القلائد هي:

له لم أدرِ شفقا من صباحِ

وقال في ترجمة الوزير أبي محمد بن مالك بعد كلام له فيه وإنشاده بيتيه البديعين اللذين هما[1]: [الخفيف]

لا تَلمْنِي بأنْ طَرِبْتُ لشَجْوٍ[2] يَبْعَث الأُنْسَ فالكريمُ طَرُوبُ
لَيسَ شَقُّ الجُيُوبِ حَقًّا علَينَا إنما[3] الشأنُ أنْ تُشَقَّ القلوبُ

ما صورته[4]: وخَرَجْتُ من[5] إشبيلية مُشَيِّعًا لأحد زعماء المرابطين، فألفيتُه معه مسايرًا له في جملةِ مَنْ شَيَّعَه، فلمّا انْصَرَفْنا مال بنا إلى مُعَرَّس أمير المسلمين أدام اللّه تعالى تأييده الذي ينزله عند حلوله بإشبيلة[6]، وهو موضع مُسْتَبْدَع، كأنَّ الحسن فيه مُودَع، ما شِئْت من نهر ينساب انسياب الأراقم، وروض كما وَشَّتِ البُردَ[7] يدُ راقم، وزهر يحسد المِسْكُ رَيَّاه، ويتمنَّى الصبحُ أن يَبِسمَ به مُحَيَّاه، فقطف غلام وسيم من غِلْمانه نَورة ومَدَّ يده إليَّ وهي في كفِّه، فعزم عليَّ أن أقول بيتًا في وَصْفه، فقلت: [الطويل]

وبَدْرٍ بَدَا والطَّرْفُ مَطْلعُ حُسْنِهِ وفي كَفِّه مِنْ رائقِ النَّورِ كَوكَبُ[8]

فقال أبو محمد: [الطويل]

يَرُوحُ لتَعْذِيب النُّفوسِ ويَغْتَدِي ويَطْلعُ في أفْقِ الْجَمَال ويَغْرُبُ[9]
ويَحْسُد منه الغُصْنُ أيَّ مُهَفْهفٍ يَجيء على مِثْلِ الكثيب ويَذهَبُ[10]

---

(١) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٦٩). وسيأتيان في الجزء الرابع من نفح الطيب وفيه: «الحق» بدل «الشأن».

(٢) في القلائد: «لِشَدْوٍ».

(٣) في المصدر نفسه وفي طبعة ليدن: «إنما الحقُّ».

(٤) قلائد العقيان (ص ١٧٠).

(٥) في القلائد: «بإشبيلية».

(٦) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «إشبيلية».

(٧) في القلائد: «البرود».

(٨) سيأتي هذا البيت في الجزء الرابع من نفح الطيب.

(٩) سيأتي هذا البيت في الجزء الرابع منسوبًا إلى ابن خاقان.

(١٠) هكذا ورد في الجزء الرابع. وفي القلائد: «ويحسن منه الغض».

وقال في ترجمة الوزير أبي القاسم بن السَّقَّاط بعد كلام كثير، ما صورته[1] : وحَمَلَنا الوزيرُ القاضي أبو الحسن بن أضحى إلى إحدى ضِياعه بخارج غرناطة، ومعنا الوزيرُ أبو محمد بن مالك، وجماعة من أعيان تلك الممالك[2]، فحللْنا بضَيعة لم ينحَتِ الْمَحلُ أثلَها، ولم ترمق العيون مِثْلها، وجُلْنا بها في أكناف، جَنّاتٍ ألفاف، فما شئت من دَوحة لَفَّاء، وغصن يميسُ كمعطفي هَيفاء، وماء ينساب في جداوله، وزهرٍ يُضَمَّخُ بالمِسْكِ راحةَ مُتَنَاوِلِه، ولَمَّا قضَينا من تلك الحدائق أرَبًا، واقْتَضَضْنَا منها أترابًا عُرُبًا[3]، مِلْنا إلى مَوضع المقيل، ونزلنا[4] بمَنَازه تُزْرِي بمنازه جذيمة مع مالك وعَقيل[5]، وعند وصولنا بَدَا لي من أحد الأصحاب تقصيرٌ في المبرّة، عرض لي منه تكدير لتلك العين الثَّرّة، فأظهرتُ التثاقُلَ أكثر ذلك اليوم، ثم عَدَلْتُ عنهم إلى الاضطجاع والنوم، فما استيقظْتُ إلاّ والسماء قد نُسِخَ صَحْوُها، وغَيَّمَ جَوُّها، والغمامُ منهملٌ، والثَّرَى من سقياه ثَمِلٌ، فبَسَطني بِتَحَفِّيهِ، وأبهجني ببرٍّ له لم يزل يتمّه[6] ويُوفيه، وأنشدني: [البسيط]

يَومٌ تَجَهَّمَ فيه الأُفْقُ وانتثرتْ ... مَدَامِعُ الغَيثُ في خَدِّ الثَّرَى هَمَلاَ
رأى وُجُومَكَ فارْبَدَّتْ طلاقَتُهُ[7] ... مُضَاهِيًا لك في الأخلاق مُمْتَثِلاَ

وقال في ترجمة الوزير القاضي أبي الحسن بن أضحى، ما نصُّه[8]: وكان لصاحب البلد الذي كان يتولّى القضاء به ابنٌ من أحسن الناس صورة، وكانت محاسن الأفعال[9] والأقوال عليه مقصورة، مع ما شئت مِنْ لسَن، وصَوتٍ حَسَن، وعفاف، واختلاط بالنُّبَهَاء[10]

---

(١) قلائد العقيان (ص ١٧٣ ـ ١٧٤).

(٢) في قلائد العقيان: «المسالك».

(٣) الأتراب: جمع تِرْب وهو المساوي لك في السِّنّ. العُرُب، بالضمّ: جمع عَرُوب وهي المرأة المتحبّبة إلى زوجها. لسان العرب (ترب) و(عرب).

(٤) في طبعة دار صادر وفي القلائد: «وزلنا عن منازه».

(٥) جذيمة: هو جذيمة الأبرش، ومالك وعقيل نديماه. وقد تقدم ذلك.

(٦) في طبعة دار صادر والقلائد: «يتمِّمه».

(٧) رواية صدر البيت في القلائد هي:

رأى وجوهك فارْبَدَّتْ طَلاقَتُهُ

(٨) قلائد العقيان (ص ٢١٦).

(٩) في القلائد: «وكانت محاسن الأقوال والأفعال».

(١٠) في طبعة دار صادر والقلائد: «بالبهاء».

والتفاف، فَحَمَلَنَا إلى إحدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فَحَلَلْنا قرية على ضفة نَهْر، أحسن من شاذَمِهْرَ[1]، تشقّها جداولُ كالصِّلال، ولا تَرْمُقُها الشمسُ من تكاثف الظلال، ومعنا جملة من أعيانها فأَحْضَرَنا من أنواع الطعام، وأرانا من فرط الإكرام والإنعام، ما لا يطاقُ ولا يحدُّ، ويقصر عن بعضه العَدّ، وفي أثناء مُقَامنا بَدَا لي من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام[2] اعتقده، ومَلَام أحْقَده، فلمّا كان من الغد لقيت منه اجتنابه، ولم أَرَ منه ما عهدْتُه من الإنابة، فكتبْتُ إليه مُدَاعبًا، فراجعني بهذه القطعة[3]: [الطويل]

أَتَتْنِي أبا نَصْرٍ نَتِيجَةُ خاطرٍ ... سَرِيعٍ كَرَجْعِ الطَّرْف في الخَطَرَاتِ
فأعْرَبْتَ[4] عنْ وَجْدٍ كمينٍ طَوَيته ... بأَهْيَفَ طاوٍ فاتِرِ اللحَظَاتِ
غَزَالٌ أَحَمُّ المُقْلَتَينِ عَرَفْتَهُ ... بخَيفِ مِنًى للحَينِ[5] أو عَرَفَاتِ
رَمَاكَ فأصْمَى[6] والقُلوبُ رَمِيَّةٌ ... لكلٍّ كحيلِ الطَّرْفِ ذي فَتَكَاتِ
وظَنّ بأنَّ القَلْبَ مِنْكَ مُحَصَّبٌ ... فَلَبَّاكَ مِنْ عَينَيهِ بالجَمَرَاتِ
تَقَرَّبَ بالنُّسَّاكِ في كلِّ مَنْسِكٍ ... وضَحَّى غَدَاةَ النَّحْرِ بالمُهَجَاتِ
وكانت له جَيَّانُ مَثْوًى فأصبحتْ ... ضُلوعُكَ مَثْوَاه بكلِّ فَلاةِ
يَعِزُّ عَلَينَا أنْ تَهِيمَ فتَنْطَوي ... كَئِيبًا على الأشجانِ والزَّفَرَاتِ
فلو قُبِلَتْ للناسِ في الحبِّ فِدْيَةٌ ... فَدَينَاكَ بالأمْوَالِ والْبَشَرَاتِ

وقال في ترجمة أديب الأندلس وشاعرها أبي إسحق بن خفاجة بعد كلام، ما صورته[7]: وقال يندب معاهدَ الشباب، ويتفجّع لوفاة الإخوان والأحباب، بعقب سَيل أعاد الديارَ آثارًا، وقَضَى عليها وَهْيًا وانتثارًا[8]: [الطويل]

أَلاَ عَرَّسَ[9] الإخْوَانُ في ساحةِ الْبِلَى ... ومَا رَفَعُوا غَيرَ القُبُورِ قِبابَا

---

(١) شاذَمِهْرُ: موضع بنيسابور. معجم البلدان (ج ٣ ص ٣٠٥).

(٢) في طبعة دار صادر وفي قلائد العقيان: «بكلام أحقده، وملام اعتقده...».

(٣) ستأتي هذه القصيدة في الجزء الخامس من نفح الطيب دون تغيير عمّا هنا.

(٤) في القلائد: «فأعرب».

(٥) في طبعة دار صادر: «للحسن».

(٦) أَصْمَى الصَّيدَ: رماه فقتله مكانه. لسان العرب (صما).

(٧) قلائد العقيان (ص ٢٣٥).

(٨) الأبيات أيضًا في ديوان ابن خفاجة (ص ٥٢).

(٩) عَرَّسُوا: نزلوا ليلًا. لسان العرب (عرس).

فَدَمْعٌ كما سَحَّ الغَمَامُ ولَوعَةٌ ... كما أضْرَمَتْ[1] ريحُ الشمالِ شِهَابَا
إذا استَوقَفَتْني في الديار عَشِيَّةٌ ... تَلَذَّذْتُ[2] فيها جَيأة وذَهَابَا
أكُرُّ بطَرْفِي في مَعَاهِدِ فتْيَةٍ ... ثَكِلْتُهُمُ بِيضَ الوجوه شَبَابَا
فَطَال وقُوفي بينَ وَجْدٍ وفُرْقَةٍ[3] ... أنَادِي رُسومًا لا تُحِيرُ جَوَابَا
وأمْحُو جميلَ الصَّبْرِ طَورًا بعَبْرَةٍ ... أخُطُّ بها في صَفْحَتَيَّ كِتَابَا
وقد دَرَسَتْ أجسامُهُمْ وديارُهُمْ ... فَلَمْ أرَ إلَّا أعْظُمًا ويَبَابَا[4]
وحَسْبِيَ شَجْوًا أنْ أرى الدار بَلْقَعًا[5] ... خَلاءً وأشْلاءَ الصَّدِيقِ تُرَابَا

ولقد أحلَّني بهذه الديار المندوبة وهي كعهدها في جَودة مَبْناها، وعودة سَنَاها، في ليلة اكتحلْنا ظلامها إثْمِدًا، ومَحَونا بها من نفوسنا كَمَدًا، ولم يزل ذلك الأنس يبسطه، والسرور ينشطه، حتى نشر لي ما طَوَاه، وبَثَّ مكتومَ لوعته وجَوَاه، وأعلمني بلياليه فيها مع أترابه، وما قضى بها من أطرابه.

انتهى ما وقع عليه اختياري من كلام أبي نصر الفتح بن عبيد اللَّه، رحمه اللَّه تعالى، في وصف بعض منتزهات الأندلس البديعة، ورياضها المُونِقة المريعة.

وما أحسن رسالة[6] له مختصرة كَتَبها مُهَنِّئًا بعضَ ملوك الأندلس بما منحه اللَّه تعالى من التمكين الذي أيَّده اللَّهُ به ونصره، وقد جَوَّد أوصافه، واستطرد منها إلى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عَمَرَا الزهراء والرُّصَافة، ونصها:

أدام اللَّه تعالى أيام الأمير للأرض يَتَمَلَّكُها، ويستدير بسعده فَلَكَها، وقد استبشر الملك أيَّدك اللَّه وحُقَّ له الاستبشار، فقد أومأ إليه السعدُ وأشار، بِمَا اتَّفق له من تَوليتك، وخَفَق عليه من ألويتك، فلقد حُبِي منك بملك أمضى مِنَ السَّهْم المُسَدَّد، طويل نِجَاد السيف رَحب المُقَلَّد، يَتَقَدَّمُ حيث يتأخر الذابل[7]، ويتكرّم إذا بخل الوابل، ويَحْمِي الحِمَى

(١) في القلائد: «ضرمت».
(٢) في طبعة دار صادر: «تَلَدَّدْتُ».
(٣) في الديوان والقلائد: «وزفرة».
(٤) في الديوان: «أقْبُرًا ويَبابا». اليَبابُ: الخراب. محيط المحيط (يبب).
(٥) البَلْقَعُ: الأرض القَفْرُ التي لا شيء بها. مختار الصحاح (بلقع).
(٦) الضمير يعود إلى ابن خاقان صاحب قلائد العقيان.
(٧) الذابل: الرمح الدقيق. لسان العرب (ذبل).

كربيعة بن مُكَدَّم[1]، ويسقي الظُّبا نَجيعًا كلون العَنْدَم، فَهَنِيئًا للأندلس فقد استردَّتْ عهد خلفائها، واستجدَّتْ رسومَ تلك الإمامة بعد عَفَائها، فكأن لم تمت أعاصرُهَا، ولم يمت حَكَمُها ولا ناصرها، اللذان عَمَرَا الرصافة والزهرا، ونَكَحَا عقائل الروم وما بذلا غير المشْرَفية مَهْرَا، واللّٰه سبحانه أسأله إظهار أيامك، وبه أرجو انتشار أعلامك، حتى يكون عَصْرُكَ أجمل مِنْ عصرهم، ونَصْرُك أغربَ مِنْ نصرهم، بمنِّه وكرمه ويمنه.

وقال رحمه اللّٰه تعالى في ترجمة الفقيه القاضي الحافظ أبي محمد عبد الحقّ بن عطية صاحب التفسير الشهير، بعد كلام كثير، ما صورته[2]: ومَرَرْنَا في إحدى نُزَهِنَا بمكان مُقْفِر، وعن المحاسن مُسْفِر، وفيه بكير[3] نرجس كأنه عيون مِرَاض، يسيل وسطه ماء رَضْرَاض، بحيث لا حسّ إلاَّ للهام، ولا أنس إلاَّ ما يتعرّض للأوهام، فقال: [الرمل]

نَرْجِسٌ باكَرْتُ منه رَوضَةً ... لَذَّ قَطْعُ الدَّهْر فيها وعَذُبْ
حَثَّتِ الريحُ بها خَمْرَ حَيًا ... رَقَصَ النَّبْتُ لها ثُمَّ شَرِبْ
فَغَدَا يُسْفِرُ عَنْ وَجْنَتِهِ ... نَورُهُ الغَضُّ ويَهْتَزُّ طَرَبْ
خِلْتُ لَمْعَ الشمْسِ في مَشْرِقِهِ ... لَهَبًا يخْمُدُ[4] منه في لَهَبْ
وبَيَاضَ الطَّلِّ في صُفْرتِهِ ... نُقَطَ الفِضَّةِ في خَطِّ الذهَبْ

وسيأتي، إن شاء اللّٰه تعالى، كثير من وصف بلاد الأندلس ومنتزهاتها، وما اشتملتْ عليه من المحاسن، في كلامِ غيرِ واحدٍ مِمَّنْ يجري ذكره في هذا الكتاب، وخصوصًا أديب زمانه غير مُدَافَع، من اعترف له أهل الشرق، بالسبق، وأهلُ المغرب، بالإبداع المُغْرِب، النورُ أبو الحسن عليُّ بنُ سعيد العَنْسي، فإنه لَمَّا[5] اتصل بمصر ودخلها اشتاق إلى تلك المواطن الأندلسية الرائقة، ووصَفَها بالقصائد والمقطوعات الفائقة، وقد أسْلَفْنا أيضًا فيما مَرَّ من هذا الكتاب بعض ما يتعلّق بمحاسن الأندلس، فَلْيُراجَع في محلِّه من هذا الكتاب.

---

(١) هو ربيعة بن مُكَدَّم بن عامر، من بني كنانة، أحد فرسان مضر في الجاهلية. توفي نحو ٦٢ ق هـ. الأعلام (ج ٣ ص ١٧ ومصادر حاشيته).

(٢) قلائد العقيان (ص ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) في القلائد: «برك».

(٤) في المصدر نفسه: «يحمله منه».

(٥) في طبعة دار صادر: «لمّا دخل مصر اشتاق إلى...».

قلت: وماذا عسى أن نذكر من محاسن قُرْطُبة[1] الزَّهراء والزَّهرا، أو نصف من محاسن الأندلس التي تبصر بكل موضع منها ظِلًّا ضافيًا ونهرًا صافيًا وزَهْرا، ويرحم اللّه تعالى أديبها المشهور، الذي اعترف له بالسَّبْق الخاصّةُ والجمهور، أبا إسحق بن خفاجة، إذ قال[2]: [البسيط]

يا أهْلَ أندلُسٍ لِلَّه دَرُّكُمُ ماءٌ وظِلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جَنَّةُ الخُلْدِ إلَّا في دِيَارِكُمُ ولو تَخَيَّرْتُ هذا كُنْتُ أخْتَارُ
لا تَحْسَبُوا في غدٍ أنْ تَدْخُلوا سَقَرا[3] فَلَيسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الجنةِ النارُ

ويروى مكان قوله:

ولو تَخَيَّرْتُ هذا كنت أختارُ

ما مثاله:

وهذه كنتُ لو خُيِّرْتُ أختارُ

وكذا رأيت بخط الحافظ التَّنسي[4]، والأول رأيته بخطِّ العلامة الوانْشَرِيشي[5]، رحمهما اللّه تعالى!.

وحكي أنَّ الخليليَّ لَمَّا قدِم من الأندلس رسولاً إلى سلطان المغرب أبي عِنان فارس ابن السلطان أبي الحسن الْمَرِيني أنشد بحضرة السلطان المذكور أبياتَ ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الأندلس، فقال السلطان أبو عنان: كذب هذا الشاعر ـ يشير إلى كونه جعلها جَنَّة الخلد، وأنه لو خُيِّر لاخْتارها على ما في الآخرة ـ وهذا خروج مِنْ رِبْقة الدين، ولا أقلّ من الكذب والإغراق، وإنْ جَرَتْ عادة الشعراء بذلك الإطلاق، فقال الخليليُّ: يا مولانا،

---

(١) في طبعة دار صادر: «قرطبة والزاهرة والزهرا...».

(٢) الأبيات في ديوان ابن خفاجة (ص ١١٧).

(٣) في طبعة بولاق وفي الديوان: «لا تَخْتَشوا بعد ذا أن تدخلوا...». وسَقَرُ: جهنَّم. لسان العرب (سقر).

(٤) التنسي: نسبة إلى تنس وهي مدينة بآخر إفريقية ممّا يلي المغرب، مسوّرة حصينة، بينها وبين البحر ميلان. معجم البلدان (ج ٢ ص ٤٨).

(٥) الوانشريشي: نسبة إلى وانْشَرِيش وهو جبل بين مليانة وتلمسان من نواحي المغرب. معجم البلدان (ج ٥ ص ٣٥٥).

بل صدق الشاعر؛ لأنها مَوطن جهاد، ومُقَارعةُ للعدوّ وجِلَاد، والنبيُّ ﷺ الرؤوف الودود الرحيم العطوف، يقول: «الجنّة تحت ظِلال السيوف»، فاستحسن منه هذا الكلام، ورفع عن قائل الأبيات الملام، وأجزل صِلَته، ورفع منزلته. ولعمري إن هذا الجواب، لَجَدِيرٌ بالصواب، وهكذا ينبغي أن تكون رُسُلُ الملوك في الافتنان. روّج اللّه تعالى أرواح الجميع في الجنان!.

وأبو إسحٰق بن خفاجة كان أوحَدَ الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين، وقد سبق بعضُ كلامه، ويأتي أيضًا منه بعضٌ في[1] أثناء الكتاب، ومن ذلك قوله[2]: [الكامل]

وكِمَامَةٍ حَدَرَ الصباحُ قناعَهَا[3] ... عن صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ الأزهارِ
في أبْطَحٍ رَضَعَتْ ثغورُ أقاحِهِ ... أخْلَافَ[4] كُلِّ غمامةٍ مِدْرَارِ
نثرتْ بِحِجْرِ الأرض فيه يَدُ الصَّبَا ... دُرَرَ النَّدَى ودَرَاهِمَ النُّوَّارِ
وقد ارتَدَى غُصْنُ النَّقَا، وتقلَّدَتْ ... حَلْيَ الْحَبابِ سَوَالِفُ الأنْهَارِ
فحَلَلْتُ حَيثُ الماءُ صَفْحَةُ ضاحكٍ ... جَذِلٍ وحيث الشَّطُّ بَدْءُ عِذَارِ
والرِّيحُ تنفضُ بُكْرَةً لممَ الرُّبَا ... والطَّلُّ يَنْضَحُ أوجه الأشْجَارِ
مُتَقَسِّمُ الألْحَاظِ بَينَ مَحَاسِنٍ ... مِنْ رِدْفِ رَابِيةٍ وخَصْرِ قَرَارِ
وأراكةٍ سَجَعَ الهديلُ[5] بفَرْعِها ... والصُّبْحُ يُسْفِرُ عن جبين نَهَارِ
هَزَّتْ له أعْطَافَهَا ولرُبَّمَا ... خَلَعَت عَلَيهِ مُلاءَةَ الأنوارِ

وقوله[6]: [الكامل]

سَقْيًا ليوم قد أنَخْتُ[7] بِسَرْحَةٍ ... رَيَّا تُلَاعِبُهَا الرياحُ فَتَلْعَبُ
سَكْرَى يُغَنِّيها الْحَمَام فَتَنْثَنِي ... طَرَبًا ويَسْقِيها الغَمَامُ فَتَشْرَبُ

---

(١) حرف الجر «في» لم يرد في طبعة دار صادر.
(٢) ديوان ابن خفاجة (ص ١١٦).
(٣) الكِمامَةُ: غلاف الزهر. حدَرَ: أنزل. لسان العرب (كمم) و (حدر).
(٤) الأخلاف: جمع خِلْف وهو الثَّدْي. لسان العرب (خلف).
(٥) الهَدِيلُ: الذكر من الحَمام. مختار الصحاح (هدل).
(٦) ديوان ابن خفاجة (ص ٣٦).
(٧) أنَخْتُ: نَزَلْتُ. لسان العرب (نوخ).

يَلْهو فترفعُ للشبيبة رايةً | فيه، ويَطْلعُ للبَهارة[1] كوكبُ
والروضُ وجه أزهرٌ، والظلُّ فرْ | عُ أسْوَدٌ، والماءُ ثغرٌ أشْنَبُ[2]
في حيثُ أطْرَبَنا الحمامُ عشيَّةً | فشَدَا يُغَنِّينا الحمامُ المُطْرِبُ
واهْتَزَّ عِطْفُ الغُصْنِ مِنْ طَرَبٍ بنا | وافْتَرَّ عن ثغرِ الهلالِ المَغْرِبُ
فكأنه والْحُسْنُ مُقْتَرِنٌ به | طَوقٌ على بُرْدٍ[3] الغَمامةِ مُذْهَبُ
في فِتيةٍ تسري فَيَنْصَدِعُ[4] الدُّجى | عَنْها، وتنزل بالجديب فَيُخْصِبُ
كَرُمُوا فلا غيثُ السَّماحةِ مُخْلِفٌ | يوماً، ولا بَرْقُ اللطافة خُلَّبُ[5]
مِنْ كلِّ أزْهرَ للنعيم بوَجْهِه | ماءٌ يُرَقْرِقُهُ الشَّبابُ فَيَسْكُبُ

وقال يمدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم[6]: [الكامل]

سَمَحَ الخيالُ، على النَّوى، بمَزارِ | والصُّبْحُ يَمْسَحُ عَنْ جَبينِ نَهارِ
فَرَفَعْتُ مِنْ نارِي لِضَيفٍ طارقٍ | يَعْشُو إليها مِنْ خَيالٍ طارِي
رَكِبَ الدُّجى، أحْسِنْ به مِنْ مَرْكَبٍ، | وَطَوى السُّرى، أحْسِنْ به من سارِي
وأناخ حيث دموعُ عيني مَنْهَلٌ | يَرْوِي، وحيثُ حَشَايَ مَوقِدُ نارِ
وسَقى فأرْوَى غُلَّةً مِنْ ناهلٍ | أوْرَى بِجَانِحَتَيهِ زَنْدَ أُوارِ[7]
يَلْوِي الضلوعَ مِنَ الولُوعِ لِخَطْرةٍ | مِنْ شَيمِ بَرْقٍ أو شَميمِ عَرارِ[8]

---

(١) البَهارَةُ: الجمال. لسان العرب. (بهر).
(٢) الأزهر: الأبيض، الأشنب: البارد. لسان العرب (زهر) و (شنب).
(٣) البُرْدُ: الثوب، لسان العرب (برد).
(٤) يَنْصَدِعُ: يَنْشَقُّ. لسان العرب (صدع).
(٥) مُخْلِفٌ: غير ممطر. الخُلَّبُ: البرق الذي لا يعقبه مطر. لسان العرب (خلف) و (خلب).
(٦) أبو يحيى بن إبراهيم هو أبو بكر بن إبراهيم، المعروف بابن تيفلويت؛ كان صاحب سرقسطة في عهد المرابطين، وممدوح الفيلسوف ابن باجة. توفي سنة ٥١٠ هـ. ويسأله ابن خفاجة في هذه القصيدة أن يشكر القائد الأعلى ابن عائشة لبرٍّ لحق ابن خفاجة من جهته. وهذه القصيدة في ديوان ابن خفاجة (ص ١٢٨ - ١٣٣) وهي في الديوان من ٩٨ بيتاً.
(٧) الناهل: الظمآن. الأوارُ: العطش. لسان العرب (نهل) و (أور).
(٨) يقال: شام البرقَ: نظر إليه أين يقصد وأين يمطر. العَرارُ: نبت طيب الرائحة. لسان العرب (شيم) و (عرر).

والليلُ قد نضحَ النَّدَى سِرْبَالَهُ   فانْهَلَّ دَمْعُ الطَّلِّ فوق صِدَارِ[1]
مُتَرقِّبٌ رسُلَ الرياحِ عَشِيَّةً   بِمَسَاقِطِ الأنواء والأنْوارِ
ومَجَرِّ ذَيلِ غَمَامةٍ لَبِسَتْ به   وَشْيَ الْحَبَابِ مَعَاطِفُ الأنْهارِ
خَفَقَتْ ظِلالُ الأيكِ فيه ذوائبًا   وارْتَجَّ رِدْفًا مائجُ التَّيَّارِ
وَلَوَى القضيبُ هناك جِيدًا أتْلعًا   قد قَبَّلَتْهُ مَباسِمُ النُّوَّارِ
بَاكَرْتُه والغَيمُ قِطْعَةُ عَنْبَرٍ   مَشْبوبَةٌ والبَرْقُ لَفْحَةُ نارِ
والرِّيحُ تَلْطُمُ فيه أرداف الرُّبَا   لَعِبًا وتَلْثِمُ أَوْجُهَ الأزهارِ
ومَنَابِرُ الأشجارِ قد قامَتْ بها   خُطَبَاءُ مُفْصِحَةٌ مِنَ الأطْيَارِ
في فتيةٍ جَنَبُوا العَجَاجَةَ لَيلَةً[2]   ولربّما سَفَرُوا عنِ الأقمارِ
ثار القَتامُ بهمْ دُخَانًا وارْتَمَى   زَنْدُ الْحَفيظَة[3] منْهُمُ بشَرَارِ
شَاهَدْتُ مِنْ هَيآتِهمْ وهِبَاتِهمْ   إشْرَافَ أطْوادٍ وفَيضَ بِحَارِ
مِنْ كُلِّ منْتَقِبٍ بوَرْدَةِ خَجْلَةٍ   كَرَمًا ومُشْتَمِلٍ بثَوبِ وَقَارِ
في عِمَّةٍ خُلِعَتْ عليه لِلِمَّةٍ   وذُؤَابةٍ قُرِنَتْ بها لِعِذَارِ[4]
ضَافِي رِداءِ المَجْدِ طَمَّاح العُلا   طَامي عُبَاب الجود رَحْب الدارِ
جَرَّار أذيالِ المعالي والْقَنا   حَامِي الحقيقة والحِمَى وَالْجَارِ
طَرَدَ القنيصَ بكلِّ قَيدِ طريدَةٍ   زَجِلِ الجناحِ مُوَرَّدِ الأظفارِ[5]
مُلتَفَّةٌ أعْطَافُهُ بحَبِيرَةٍ[6]   مَكْحُولَةٌ أجفانُه بنُضَارِ
يُرْمَى به الأملُ القَصيُّ فيَنْثَني   مَخْضُوبَ مَرْأَى الظُّفْرِ والمِنْقَارِ[7]
وبكلِّ نائي الشوْطِ أشْدَقَ أخْزَرٍ   طاوي الحَشَا حالي المُقَلَّدِ ضاري[8]

---

(١) الصِّدَارُ، بكسر الصاد: قميص يغشي الصدر. لسان العرب (صدر).

(٢) جَنَّبوا: أبعدوا. العَجاجَةُ: غبار الحرب، لسان العرب (جنب) و(عجج).

(٣) الحفيظة: الدفاع عن المحارم. لسان العرب (حفظ).

(٤) في الديوان: «خَلَعَتْ عليه كلمةً... كعذار».

(٥) قَيدُ الطريدة: أراد به الفرس السريع. زَجِلُ الجناح: مصوّت. لسان العرب (قيد) و(طرد) و(زجل).

(٦) الحبيرة: البُردُ المُوَشَّى والثوب الجديد. لسان العرب (حبر).

(٧) في الديوان: «راءِ» بدل «مرأى».

(٨) في الديوان: «أَصْدَرٍ» بدل «أخزر». نائي الشَّوط: بعيد مجال الجَرْي. الأشدق: الواسع الفم. طاوي الحَشا: ضامر الخصر. حالي المقلَّد: في عنقه حَلْي. الضاري بالصيد: الخبير به. لسان العرب.

يَفْتَرُّ عن مثل النِّصال، وإنما | يَمْشِي على مِثْل القَنا الخَطّارِ
مُسْتَقْرِيًا[1] أثَرَ القنيصِ على الصَّفا | والليلُ مُشْتَمِلٌ بِشَمْلَةِ قارِ
مِنْ كلِّ مُسْوَدٍّ تَلهَّبَ طَرْفُهُ | تَرْميك[2] فَحْمَتُهُ بِشُعْلَةِ نارِ
ومُوَرَّسِ السِّرْبالِ يُخْلَعُ قَيدُهُ[3] | عَنْ نَجْم رَجْمٍ في سَماء غُبارِ
يَسْتَنُّ في سَطْر الطريق وقد عَفَا | قِدْمًا فتقرأ أَحْرُفَ الآثارِ [4]
عَطْف الضمورُ سَرَاتَه[5] فكأنه | والنَّقْعُ يَحْجُبُه هِلالُ سِرَارِ
ولَرُبَّ رَوَّاغٍ هُنالِكَ أنْبَطٍ | ذَلِقِ المسامعِ أطلس الأطْمَارِ [6]
يَجْرِي على حَذَرٍ فيَجْمَعُ بَسْطَه | يَهْوِي فينعَطِفُ انعطافَ سِوَارِ
ممتدَّ حَبْلِ الشأوِ يَعْسِلُ رائِغًا [7] | فيَكادُ يُفْلِتُ أيديَ الأقدَارِ
مِتَرَدِّدٌ[8] يَرْمي به خوفُ الرَّدَى | كُرَةً تهادَتْها أكفُّ قِفَارِ
ولَرُبَّ طَيّارٍ خَفيفٍ قد جَرَى | فَشِلاً بجارٍ، خَلْفَهُ، طَيَّارِ
مِنْ كلِّ قاصِرَةِ الخُطا مُخْتالَةٍ | مَشْيَ الفتاةِ تَجُرُّ فضْلَ إزار
مَخْضُوبَةِ المِنْقارِ تَحْسَبُ أنها | كَرَعَتْ على ظَمَإٍ بكأسِ عُقَارِ
ولو استجارَتْ مِنْهما بحمَى أبي | يَحْيَى، لأَمَّنَها[9] أعَزُّ جِوَارِ
خَدَمَ القضاءُ مُرادَهُ فكأنما | مَلَكَتْ يَداه أعِنَّةَ الأقدَارِ
وَعَنا الزمانُ لأمره فكأنما | أَصْغَى الزمانُ به إلى أمَّارِ
وجَلا الإمارةَ في رفيفِ[10] نَضارةٍ | جَلَتِ الدُّجَى في حُلَّةِ الأنوارِ

---

(١) مُسْتَقْرِيًا أثر القنيص: متتبعًا أثر الصيد. لسان العرب. (قري) و(قنص).

(٢) في الديوان: «تهديك».

(٣) في الديوان: «يَخْلَعُ قَدَّهُ».

(٤) هذا البيت غير وارد في الديوان.

(٥) السَّرَاةُ: الظَّهْرُ. محيط المحيط (سري).

(٦) في الديوان: «ولربَّ رَوّاغٍ... خَلِقِ المسامع...». الأنبط: الأبيض ما تحت الإبطين. لسان العرب (نبط).

(٧) في الديوان: «يَعْسِلُ راتعًا». يَعْسِلُ: يمشي مشية مضطربة. لسان العرب (عسل).

(٨) في الديوان: «متردِّدًا».

(٩) في طبعة دار صادر: «لآمَنَها».

(١٠) في الديوان: «في رقيق».

فـي حَـيـث وَشَّـحَ لَـبَّـةً بـقِـلادَةٍ   مـنـهـا وحَـلَّى مِـعْـصَـمًـا بـسِـوارِ
جَـذْلان يَـمْـلأ مِـنْـحـةً وَبَـشَـاشَـةً   أيـدِي الـعُـفَـاةِ وأعْـيُـنَ الـزُّوَّارِ
أرِجَ الـنَّـدِيُّ بِـذِكْـرِه فـكـأنـه   مُـتَـنَـفِّسٌ عـن رَوضَـة مِـعْـطَارِ
بَـطَلٌ جَرَى[1] الفلكُ المحيطُ بسَـرْجِهِ   واسْـتَـلَّ صـارِمَـه يَـدُ الـمِـقْـدَارِ
بيـمـيـنِـهِ يَـومَ الْـوَغَـى وشِـمَـالِـهِ   مـا شـاء مِـنْ نـارٍ ومـن إعْـصَـارِ
والـسُّمْـرُ حُـمْـرٌ، والـجِـيَـادُ عَـوَابِسٌ   والجَـوُّ كـاس، والسيـوفُ عَـوَارِي[2]
والخَيـلُ تَعْثُـر في شَبَـا شَـوكِ الْقَنَـا   قِصَـدًا وتَسْبَـحُ في الـدَّمِ الـمَـوَّارِ[3]
والـبِيضُ تُـحْنَـى في الـطُّلَى فكـأنمـا   تُـلْوَى[4] عُـرًى مـنـهـا عـلى أزْرَارِ
والنَّقْـعُ يكسـرُ مِنْ سَنَى شمسِ الضحىٰ   فـكـأنـه صَـدَأ عـلـى دِيـنَـارِ
صَحِبَ الحُسَـامَ النَّصْـرُ صُحْبَـةَ غِبْـطَةٍ   فـي كـفِّ صَـوَّالٍ بـه سَـوَّارِ[5]
لـو أنـه أومـىٰ إلـيـه بـنَـظْرةٍ   يَـومًـا لَـثـارَ ولَـمْ يَـنَـمْ عَـنْ ثَـارِ[6]
ومَـضَـى وقـد مَـلَكَـتْـهُ هِـزَّةُ عِـزَّةٍ   تحت الْعَجَـاجِ وضِحْكَـةُ اسْتِبْشَـارِ

وقـال رحمـه اللَّه تعـالى[7]: [الكامل]

وأرَاكَـة ضَـرَبَـتْ سـمـاءً فَـوقَـنَـا   تَـنْـدَى وأفـلاكُ الـكـؤوس تُـدَارُ
حَفَّتْ بِـدَوحتـهـا مَـجَـرَّةُ جَـدْوَلٍ   نَـثَـرَتْ عليـه نُـجُـومَـهـا الأزهـارُ
وكـأنـهـا وكـأنَّ جَـدْوَلَ مـائـهـا   حَـسْـنـاءُ شُـدَّ بـخَـصْـرهـا زُنَّـارُ
زَفَّ الـزجـاجُ بـهـا عَـرُوسَ مُـدَامـةٍ   تُـجْـلَى ونُـوَّارُ الـغـصـون نِـثَـارُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «حوى الفلك».

(٢) رواية البيت في الديوان هي:

فـالـشَّمْسُ خَـمْـرٌ، والـجِـيَـادُ عـرائسٌ   والـجَـوُّ كـاسٍ والـسـيـوفُ مَـداري

(٣) رواية عجز البيت في الديوان هي:

وتَـظلُّ تـسـبـحُ فـي الـدَّمِ الـمَـوَّارِ

(٤) في الديوان: «لُوِيَتْ».

(٥) السَّوّار: الوَثّاب والجسور. لسان العرب (سور).

(٦) في الديوان: «أنه أَوْحَى... لثار فلم ينم...». أومى: أصلها: أومأ، فقلب الهمزة ألفًا للضرورة الشعرية.

(٧) ديوان ابن خفاجة (ص ١١٩ ـ ١٢٠).

فـي رَوضَــة جِــنْــحُ الــدّجَــى ظِــلُّ | وتــجــسَّــمَــتْ نَــورًا بــهــا الأنــوارُ
غَــنَّــاءَ يــنــشُــرُ وَشــيَــه الــبــزَّازُ لـي[1] | فــيــهــا ويَــفْــتُــقُ مِــسْــكَــهُ الْــعَــطّار
قــام الغِنــاء بهــا وقــد نَضَــحَ النَّــدَى | وَجْــهَ الــثَّــرَى واسْــتَــيــقَظَ الــنُّــوّارُ
والــمــاءُ في حَــلْي الْــحَــبَــاب مُــقَــلَّدٌ[2] | زَرَّتْ عــلــيــه جُــيُــوبَــهَــا الأشــجــارُ

وقـال ملتزمًا ما لا يلزم[3]: [الكامل]

خُــذْهَــا إلــيــكَ وإنــهــا لــنَــضِــيــرَةٌ | طَــرَأَتْ إلــيــك قــلــيــلة الــنُّــظَرَاء[4]
حَمَلَتْ وحَسْبُـك بَهجَـةً من نَفْحــةٍ[5] | عَبَـقُ الـعــروس وخَـجْـلةُ الْـعَـذْرَاء
مـن كـل وَارِسَــةِ الْقَـمِيص كـأنـمـا | نَشَــأتْ تُعَــلُّ بِــرِيقَــةِ الصَّــفْــرَاء[6]
نجمتْ تَـرُوقُ بهـا نجـومًـا[7] حَسْبُهـا | بــالأيــكــة الــخــضــراء مِنْ خــضــراء
وأتَـتْـكَ تُـسْـفِـرُ عَـنْ وُجُــوهٍ طَـلْـقَــةٍ | وتَــنُــوبُ مِنْ لُــطْفٍ عــن الــشُّــفَــراء[8]
يَنْــدَى بهــا وَجْــهُ الــنَّــدَى ولَــرُبَّــمَــا | بَسَــطتْ هنــالــك أوجُــهَ الســرَّاء[9]
فــاسْتَضْحَكَتْ وَجْهَ الــدُّجَى مقـطوعــةٌ | حَــمَلَتْ[10] جَــمَــالَ الغُــرَّة الــغَــرَّاء

وقــال أيــضــا[11]: [المجتث]

وَصَــدْرِ نَــادٍ نَــظَــمْــنَــا لــه[12] الــقــوافِــيَ عِــقْــدَا

---

(١) البزّاز: بائع البَزّ، أي بائع الثياب. لسان العرب (بزز).
(٢) رواية صدر البيت في الديوان هي:
والــمــاءُ مِنْ حَــلْي الــحَــيــاءِ مُــقَــلَّدٌ
(٣) الأبيات في الديوان (ص ٧) يصف فيها مقطوعة شعرية.
(٤) النضيرة: الناعمة الجميلة. طرأت عليك: أتتك بُغْتَةً. لسان العرب (نضر) و (طرأ).
(٥) في طبعة ليدن: «نفحة من بهجة...».
(٦) وارسة القميص: حمراء القميص في صفرة. ريقة الصفراء: كناية عن الخمرة. لسان العرب (ورس).
(٧) في الديوان: «نجومٌ».
(٨) في طبعة دار صادر: «عن الشعراء». وفي طبعة عبد الحميد: «عن الشفراء».
(٩) في طبعة دار صادر: «أَسِرَّة» بدل «أَوْجُه». وفي الديوان: «وجه النديِّ... أسرَّة السَّرَّاء».
(١٠) في الديوان: جَمُلَتْ».
(١١) ديوان ابن خفاجة (ص ٧٧) وهي تدور حول وصف مجلس أنس.
(١٢) في الديوان: «به».

فـي مـنـزلٍ قـد سَـحَـبْـنَـا بِـظِلِّهِ الـعِـزِّ بُـرْدَا
تـذكـو بـه الـشُّـهْـبُ جَـمْـرًا ويَـعْـبَـقُ الـلـيـلُ نَـدًّا
وقـد تـأرَّجَ نَـورٌ غَضٌّ يُـخَـالِطُ وَرْدَا
كـمـا تَـنَـفَّسَ[1] ثَـغْـرٌ عَـذْبٌ يـقـبِّـلُ خَـدًّا

وقال من قصيدة يصف منتزهًا[2]: [الكامل]

يـا رُبَّ وضَّـاحِ الـجَـبـيـنِ كـأنـمـا رَسْـمُ الـعِـذَارِ بـصـفـحـتـيـهِ كِـتـابُ
تُغْـرَى[3] بـطلعتـه الـعيـونُ مـهـابـةً وتَـبِـيـتُ تَـعْـشَـقُ عَـقْـلَهُ الألْـبَـابُ
خُلِعَتْ عـلـيـه مِـنَ الـصَّـبـاح غِـلالـةٌ تَـنْـدَى ومِـنْ شَـفَـقِ الـمـسـاء نِـقـابُ
فَكَـرَعْتُ مِـنْ مـاء الصِّـبـا في مَنْهَـلٍ قـد شَفَّ[4] عنـه مـن القـميص سَـرابُ
فـي حيـثُ لـلرِّيـحِ الـرُّخَـاءِ تَـنَـفُّسٌ أَرِجٌ، ولـلـمـاء الـفُـراتُ عُـبـابُ
ولَـرُبَّ غَضِّ الجِسْمِ مَدَّ بحـوضِـه[5] سَبْحًـا كـمـا شَـقَّ الـسَّـمَـاءَ شـهـابُ
ولـقـد أَنَـخْـتُ بـشـاطِئَيـه يَـهـزُّنـي طَـربًـا شـبـابٌ راقَـنِـي وشَـرابُ
وبـكَيْتُ دِجـلَتَـهُ يُـضَـاحِـكُـنـي بـهـا مَـرَحًـا حَـبِـيـبٌ شَـاقَـنِـي وحَـبَـابُ
تُـجْـلَى مِـنَ الـدنـيـا عَـرُوسٌ بَـيـنَـنَـا حَـسْنَـاءُ تـرشـف والـمُـدَامُ رُضَـابُ[6]
ثـم ارتَـحَـلْتُ ولـلـنـهـار ذُؤابـةٌ شَـيبَـاء تـخـضـب والـنـهـارُ خِـضَـابُ
تَـلْوِي مَعَـاطِـفَ الـصَّـبـابـةُ والـصَّـبَـا والـلـيـلُ دون الـكـاشـحـين حِـجَـابُ

وقـال[7]: [مخلع البسيط]

مَـرَّ بـنـا وَهْـوَ بَـدْرُ تِـمٍّ يَـسْـحَـبُ مِـنْ ذَيـلِهِ سَـحَـابَـا

---

(١) في طبعة ليدن وفي الديوان: «تَبَسَّمَ».
(٢) ديوان ابن خفاجة (ص ٣٧).
(٣) تُغْرَى به: تُولَعُ. لسان العرب (غري).
(٤) في الديوان: «قد شُقَّ».
(٥) في الديوان: «بِخَوصِهِ شَبَحًا».
(٦) هـذا البيت والبيتان اللذان يليـانه غيـر واردة في الديـوان. وهي غير واردة في الـذخيرة (ق ٣ ص ٥٧١) حيث وردت الأبيات الخمسة الأوائل فقط من القصيدة.
(٧) القصيدة في ديوان ابن خفاجة (ص ٣٧ ـ ٣٨). وهي أيضًـا في الذخيـرة (ق ٣ ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، وفي الروايتين اختلافات.

بِقَامَةٍ تَنْثَنِي قَضِيبًا وغُرَّةٍ تلتظي شِهَابَا
يَقْرَأ والليلُ مُدْلَهِمٌّ لِنُورِ إجلائه كِتَابَا
ورُبَّ ليلٍ سَهِرْتُ فيه أَزْجُرُ من جِنُحِهِ غُرَابَا[1]
حتى إذا الليلُ مالَ سُكْرًا وَشَقَّ سِرْبَالَهُ وجابَا
وحامَ مِنْ سَدْفِهِ غُرابٌ طالتْ به سِنُّهُ فشابَا
ازْدَدْتُ مِنْ لَوعَتِي خَبَالاً فَحَثَّ مِنْ غُلَّتِي شَرَابَا
وما خَطَا قادِمًا فَوَافَى حتى انْثَنَى ناكِصًا فآبَا
وبَينَ جَفْنَيَّ بَحْرُ شَوقٍ يَعُبُّ في وَجْنَتِي عُبَابَا
قد شَبَّ في وَجْهِه شُعَاع وشَبَّ في[2] قلبيَ التهابَا
وروضةٍ طَلْقَةٍ حَيَاءً غَنَّاءَ مُخْضَرَّةٍ جَنَابَا[3]
يَنْجابُ عن نَورِها كِمامُ يَحُطُّ عن وَجهِه نِقابَا
باتَ بها مَبْسِمُ الأقاحي يرشفُ مِنْ طَلِّها رُضَابَا
ومِنْ خُفُوقِ البُروق فيها ألْوِيَةٌ حُمِّرَتْ خِضَابَا
كأنها أَنْمُلٌ وِرَادُ تحصرُ قَطْرَ الحَيَا حِسَابَا

ولـه أيضًا[4]: [مخلع البسيط]

رَحَلْتُ عنكُمْ ولي فُؤَادٌ تَنْقَضُّ[5] أضلاعُهُ حَنِينَا
أجُودُ فيكمْ بِعِلْقٍ[6] دَمْعٍ كُنْتُ به قبلكمْ ضَنِينَا
يَثُورُ في وَجْنَتَيَّ جَيشًا وكان في جَفْنِهِ كَمِينَا
كأنَّنِي بعدكمْ شِمَالٌ قد فارَقَتْ منكمُ يَمِينَا

---

(١) في طبعة بولاق وفي الديوان: «نِكابا». والنِّكاب: المصائب.
(٢) في الديوان: «عن قلبه».
(٣) الطَّلْقَةُ: المشرقة. الجَنابُ: الناحية. لسان العرب (طلق) و(جنب).
(٤) ديوان ابن خفاجة (ص ٢٦٨) والذخيرة (ق ٣ ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦).
(٥) في الديوان: «تَنْفُضُ».
(٦) العِلْقُ: النفيس من كل شيء. لسان العرب (علق).

وقال[1]: [الطويل]

فيا لشَجَا قلبٍ[2] من الصَّبْرِ فارِغٍ ... ويا لَقَذَى طَرْفٍ من الدمع مَلآنِ
ونَفْسٍ إلى جَوِّ الكنيسة صَبَّةٍ ... وقَلْبٍ إلى أُفْقِ الجزيرة حَنَّانِ
تَعَوَّضْتُ مِنْ واهاً بآهٍ ومِنْ هَوًى ... بِهُونٍ ومِنْ إخوانِ صِدْقٍ بخُوَّانِ
وما كلُّ بيضاءٍ تَرُوقُ بِشَحْمةٍ[3] ... وما كلُّ مَرْعًى تَرْتَعِيه بسَعْدَانِ
فيا لَيتَ شِعْرِي هل لِدهْرِي عَطْفَةٌ ... فَتُجْمَعَ أوطاري عَليَّ وأوطاني؟
مَيادينُ أوطاري ولَذَّةُ لَذّتي ... ومَنْشأ تَهْيَامي ومَلْعَبُ غِزْلاني
كأنْ لم يَصِلْنِي فيه ظَبْيٌ يقومُ لي ... لَماهُ وصُدْغاه براحِي ورَيحاني
فَسَقْيًا لواديهمْ وإن كنتُ إنما ... أَبِيتُ لذكراه بغُلَّة ظمْآن
فكَمْ يَومِ لَهْوٍ قد أدَرْنا بأُفْقِه ... نَجُومَ كؤوسٍ بَينَ أقمارِ نَدْمان
وللقُضْبِ والأطيارِ مَلْهًى بجَزْعِه[4] ... فما شِئْتَ مِنْ رَقْصٍ على رَجْعِ ألحان
وبالحَضْرَة الغَرَّاءِ غِرٌّ عَلِقْتُهُ ... فأحببْتُ، حُبًّا فيه، قُضْبَانَ نَعْمانِ[5]
رقيقُ الحواشي في محاسِنِ وَجْهِهِ ... ومَنْطِقِه مَسْلَى قلوبٍ وآذان
أغار لِخَدَّيهِ على الوَرْدِ كلَّما ... بَدَا وَلِعِطْفَيه على أغْصُنِ[6] البان
وهَبْنِي أجْنِي[7] وَرْدَ خَدٍّ بناظري ... فمن أين لي منه بتُفَّاحِ لُبْنان؟
يعَلِّلني منه بِمَوْعِدِ رَشْفَةٍ ... خيالٌ يُغْري بمَطْلٍ ولَيَّانِ[8]
حبيبٌ عليه لُجَّةٌ مِنْ صَوارِمٍ ... عَلاها حَبَابٌ مِنْ أسِنَّةِ مُرَّان
تراءى لنا في مثل صورة يوسُفٍ ... تراءى لنا في مثل مُلْكِ سُليمان
طَوَى بُرْدُهُ منها صحيفةَ فتنةٍ ... قرأنا له من وجهه سَطْرَ عُنوان
محبَّتُهُ دِيني ومَثْواهُ كَعْبَتي ... ورُؤيَتُه حَجِّي وذكراه قرآني

---

(١) القصيدة في ديوان ابن خفاجة (ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦) وفي الذخيرة (ق ٣ ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦).

(٢) في طبعة دار صادر: «صَدْرٍ».

(٣) في الديوان: «بَرُوقٍ بِشَحْمَةٍ».

(٤) في الديوان: «بِجَزْعَةٍ».

(٥) الحضرة: دار السلطان. نَعْمانُ: وادٍ يكثر فيه شجر الأرك، وهو بين مكة والطائف. معجم البلدان (ج ٥ ص ٢٩٣).

(٦) في طبعة دار صادر: «غُصُنِ».

(٧) في الديوان: «أجبي».

(٨) اللَّيَّان: من لوى فلانًا إذا مَطَلَهُ. محيط المحيط (لوى).

وقـــال(١): [الطـويـل]

ولَـيـلٍ تَعَـاطَـيـنَـا الـمُـدَامَ وبَـيـنَـنَـا حـديثٌ كمـا هَبَّ النسيمُ على الـوردِ
نُعَـاوِدُه والـكـأسُ يَـعْـبَـقُ نَـفْـحُـهُ(٢) وأطـيَبُ منهـا مـا نُعِيـدُ ومـا نُبْـدِي
ونَقْلي(٣) أقـاحُ الثغـر أو سَـوسَنُ الـطُّلى ونـرجِـسَـةُ الأجـفـان أو وَردَةُ الـخَـدِّ
إلى أنْ سَـرَت في جسمه الكـأسُ والكَرى ومـالا بِعـطْفَيـه فمـالَ على عَـضْـدي
فـأَقْبَلْتُ أَسْتَهْـدِي لِمَـا بَيـنَ أضْلُعِي مِنَ الحَـرِّ مـا بين الضلوع(٤) من البَـرْد
وعـايَـنْتُـه قـد سُـلَّ مِـنْ وَشْـيِ بُـرْدِه فعـانَقْتُ(٥) منه السَّيْفَ سُـلَّ من الغِمْـد
لِـيـانَ مَـجَسٍّ واسـتـقـامـةَ قـامـةٍ وهَـزَّةَ أعـطـافٍ ورَونَـقَ إفْـرِنْـدِ(٦)
أغـازلُ منـه الغُصْنَ في مَغْـرِس الـنَّقـا وألْثِمُ وَجْـهَ الشمس في مـطلع السَّـعْـدِ
فـإنْ لـم يَـكُـنْـهـا أو تَـكُـنْـه فـإنـه أخـوهـا كمـا قُـدَّ الشِّـراكُ مِنَ الجِـلْد
تُـسـافِـرُ كـلْتـا راحَـتَـيَّ بِـجِـسْـمِـه فَـطَورًا إلى خَصـرٍ وطـوْرًا إلى نَـهْـد
فـتهـبِطُ مِنْ كَـشْـحَـيْـه كَـفِّي تِـهَـامَـةَ وتَصْعَـدُ مِنْ نَهْـدَيْه أخـرى إلى نَجْـدِ(٧)

وقـال أيـضًا(٨): [الكـامـل]

ورداءِ لَـيـلٍ بـات فـيـه مُـعـانـقـي طَـيـفٌ أَلَمَّ لِـظَبـيـةٍ(٩) الـوَعْـسَـاءِ
فَـجَـمَـعْـتُ بـيـن رُضـابِـه وشَـرابِـهِ وشَـرِبْـتُ مِـنْ رِيـقٍ ومِـنْ صَـهْـبـاء
ولـثـمـت فـي ظَـلـمـاءِ لَـيـلَةِ وَفْـرَةٍ شَـفَـقًـا هـنـاك لِـوَجْـنَـةٍ حـمـراءِ

---

(١) القصيدة في ديوان ابن خفاجة (ص ٨٤) والذخيرة (ق ٣ ص ٥٨٨ - ٥٨٩).
(٢) في الديوان: «نَفْحَةً». وفي طبعة ليدن: «نعانقه والكأس تعبق نَفْحَةً».
(٣) النَّقْلُ: ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب. لسان العرب (نقل).
(٤) في طبعة دار صادر: «بين الثنايا».
(٥) في الديوان: «فعايَنْتُ».
(٦) الإِفْرِنْدُ: جوهر السيف ووَشْيُهُ. لسان العرب (فرند).
(٧) في طبعة دار صادر وفي الذخيرة: «كَفٌّ» بدل «كفِّي». تهامة ونجد موضعان معروفان بالمشرق، وقد كنَّى بتهامة عن المكان المنخفض من جسمها، وكنى بنجد عن المكان المرتفع.
(٨) القصيدة في الديوان (ص ٩ - ١٠) والذخيرة (ق ٣ ص ٥٨٩ - ٥٩٠).
(٩) في طبعة عبد الحميد: بظبية.

والـلـيــلُ مُـشْـمَـطُّ الـذوائـب كَـبْـرَةً　　خَـرِفٌ يـدبُّ على عَصـا الجـوزاء[1]
ثم انْثَنى والصُّبْـحُ[2] يسحبُ فـرعـه　　ويـجُـرُّ مـن طـربٍ فـضـولَ رِداء
تَـنْـدَى بِـفِـيــهِ أقْـحُـوانـةُ أَجْـرَع　　قـد غـازلَـتْـهـا الشمسُ غِـبَّ سمـاءِ
وتـمـيسُ فـي أثـوابـه رَيـحَـانَـةٌ　　كَـرَعَـتْ على ظـمـأٍ بجـدولِ مـاء
نَـفَّـاحـةُ الأنـفـاس إلاَّ أنـهـا　　حَـذَرَ الـنـدى خفَّـاقة الأفْـيـاء[3]
فَلَوَيتُ مِعْـطَفَهـا اعْتنـاقًا حَسْبُنـا[4]　　فـيـه بـقـطر الـدَّمـع مـن أنـواءِ

وكان المعتمد بن عباد، رحمه اللّه تعالى، كثيرًا ما ينتابُ وادي الطلح مع رُمَيكيته[5]، وأُولي أُنْسه ومَسَرَّته، وهو واد بشَرفِ[6] إشبيلية مُلْتَفّ الأشجار، كثير ترنّم الأطيار، وفيه يقول نور الدين بن سعيد[7]: [السريع]

سـائـل بـوادي الـطَّلْح رِيـحَ الـصَّبـا　　هـل سُـخِّـرَتْ لي في زمـان الـصِّبـا
كـانـتْ رسـولاً فـيـه مـا بَـيـنَـنَـا　　لـنْ نـأْمَنَ الـرُّسْـلَ ولـن نَـكْـتُـبـا
يـا قـاتـلَ الـلَّه أُنـاسًـا إذا　　مـا اسْتُؤْمِنُـوا خـانـوا، فمـا أَعْجَبَـا
هَـلاَّ رَعَـوا أَنَّـا وَثِـقْـنـا بـهـمْ　　ومـا اتَّـخَـذْنَـا عـنـهـمُ مـذهـبـا
يـا قـاتـل الـلَّه الـذي لـم يَـتُـبْ　　مِـنْ غـدرهـمْ مِـنْ بَـعْـدِ مـا جَـرَّبـا
والـيَـمُّ لا يـعـرفُ مـا طَـعْـمُـه　　إلاَّ الـذي وافـى لأَنْ يَـشْـرَبـا
دَعْـنِـيَ مِـنْ ذِكْـرِ الـوُشـاة الأُلـى　　لَـمَّـا يَـزَلْ فـكـري بـهـمْ مُـلْـهَـبَـا
واذكـرْ بـوادي الـطَّلْح عَـهْـدًا لـنـا　　لـلَّه مـا أَحْـلَـى ومـا أَطْـيَـبَـا
بـجـانـب الـعـطفِ وقـد مـالـت الـ　　أغـصـانُ والـزَّهْـرُ يـبُـثُّ الـصَّـبـا

---

(١) في طبعة ليدن: «مُشْمَطُّ الذؤابة». المُشْمَطُّ: المختلط السواد بالبياض. الذوائب: جمع ذؤابة وهي خصلة الشعر، وذوائب الليل: سدول ظلامه. الجوزاء: برج في السماء، وعصا الجوزاء: كوكب فيه. لسان العرب.
(٢) في الديوان: «والسُّكْر».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «تفاحة الأنفاس». وفي الديوان: «حذر النَّوى».
(٤) في الديوان: «حسبها».
(٥) الرميكية: هي حظيّة المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، وزوجته.
(٦) في طبعة بولاق: «بشرق إشبيلية». وكذلك في الجزء الثالث من نفح الطيب.
(٧) ستأتي هذه الأبيات في الجزء الثالث من نفح الطيب باختلاف يسير عمَّا هنا.

والطَّيرُ مازَتْ بين ألحانِها وليس إلاَّ مُعْجِبًا مُطْرِبا
وخانني مَنْ لا أسمِّيه مِنْ شُحٍّ أخافُ الدهر أنْ يُسْلَبَا
قد أترع الكأسَ وحَيَّا بها وقلْتُ أهْلاً بالمُنى مَرْحبا
أهلاً وسهلاً بالذي شِئْتُه يا بَدْرَ تِمٍّ مُهْدِيًا كوكبَا
لكنني آليت أُسْقَى بها أو تُودِعَنْها ثغْرَكَ الأشْنَبا
فَمَجَّ لي في الكأس مِنْ ثغره ما حَبَّبَ الشرب وما طَيَّبا
وقال: ها لَثْمِيَ نُقْلاً ولا[1] تَشَمَّ إلاَّ عَرْفِيَ الأطيبا
واقْطُفْ بخدِّي الوَرْدَ والآس والنْـ ـسْرينَ لا تَحْفِلْ بِزَهْرِ الرُّبا
أُسْعِفْتُه غُصْنًا غَدَا مُثْمِرا ومِنْ جَناه مَيْسُه قَرَّبا
قد كنتُ ذا نَهْيٍ وذا إمْرَةٍ حتى تَبَدَّى فحللْتُ الحُبا[2]
ولم أصُنْ عِرْضيَ في حُبِّه ولم أُطِعْ فيه الذي أنَّبا
حتى إذا ما قال لي حاسِدٌ ترجوه والكوكب أن يقرُبا[3]
أرسلْتُ مِنْ شعريَ سحرًا له يُيَسِّر الْمَرْغَبَ والمَطْلَبا
وقالَ عَرِّفْهُ بأني سأحْـ ـتالُ فما أَجْتَنِبُ المَكْتَبَا
فزادَ في شوقي له وَعْدُهُ ولم أزلْ مُقْتَعِدًا مَرْقَبا
أَمُدُّ طَرْفي ثم أَثْنِيهِ مِنْ خَوفِ أخي التنغيص أن يرقبا
أُصَدِّقُ الوَعْدَ وطورًا أرى تَكْذِيبَه والحُرُّ لن يكذبا
أتى ومَنْ سخَّره بعدما أيأس[4] بطءٌ كاد أن يُغْضِبا
قَبَّلْتُ في الترب ولم أسْتَطِعْ مِنْ حَصَرِ اللُّقيا سوى مَرْحَبَا
هَنأْتُ رَبْعي إذا غَدَا هالةً وقلْتُ يا من لم يُضِعْ أشْعَبا
باللَّه مِلْ مُعْتَنِقًا لاثِمًا فمال كالْغُصْن ثَنَتْه الصَّبا
فقال ما ترغبُ قلتُ اتَّئِدْ أدْرَكْتُ إذ كلَّمْتَني المَرْغَبا

---

(١) في طبعة ليدن: «فقال: ها...». ها: اسم فعل أمر بمعن: خُذْ.

(٢) حَلَلْتُ الحُبَا: كناية عن خلع ثوب الوقار والحياء.

(٣) في طبعة دار صادر: «أن يغربا».

(٤) في طبعة ليدن: «آيس».

فقال لا مرغبَ[1] عن ذِكرِ ما تَرْغَبُه قُلْتُ إذن مركبا
وكان ما كان فوالله ما ذكرته دَهْرِيَ أو أُغْلَبا

وستأتي هذه القصيدة بكمالها في جملة من نظم ابن سعيد المذكور[2].

وقال يتشوّق إلى إشبيلية، وهي حمص الأندلس: [الكامل]

أنَّ الخليجُ وغنَّتِ الورْقاءُ هل بَرَّحا إذ هاجتِ البُرَحاءُ[3]؟
أنا منكما أولى بحليةِ عاشقٍ أفْنَى وما نمَّتْ بيَ الصُّعداء
أخْشَى الوُشاة فما أفُوهُ بلفظةٍ والكَتْمُ عند العاشقين عَناء
لولا تَشَوُّقُ أرض حِمْصٍ ما جَرَى دمعي ولا شَمِتَتْ بيَ الأعداء
لم أسْتَطِعْ كَتْمًا له فكأنَّني ما كان لي كَتْمٌ ولا إخْفاء
والبَدْرُ مهما رامَ كَتْمًا مَنْ سَرَى فيه ينمُّ على سُرَاهُ ضياء
بَلَدٌ متى يَخْطُرْ له ذِكْرٌ هفا قلبي وخان تَصَبُّرٌ وعَزاء
من بعده ما الصبح يشرق نورُهُ عندي، ولا تَتَبَدَّلُ الظَّلْماء
كم لي به من ذي وفاء لم يَخُنْ عهدي، ويَنْمُو بالودادِ وفاء
فتراه إذ ما مَرَّ ذكري سائلًا[4] عن حالتي إنَّ قَلَّتِ الأنباء
يُمسي ويُصْبح في تذكُّر مدّة يَرْضَى بها الإصباح والإمساء
مَعَ كلِّ مَبْذُول الوصال مُمَنَّعٍ مِنْ غيرنا تَسْمُو به الخيلاءُ
كالظَّبي، كالشَّمْسِ المنيرة، كالنَّقا كالغُصْن يثني معْطفَيه رُخاء[5]
يَسْعَى براحٍ كالشهاب، براحة كالبَدْر، والوَجْهُ المنيرُ ذُكاء[6]
ما لانَ نحو الوصْلِ حتى طال مِنْـ ـهُ الهَجْرُ واتَّصلَتْ به البَلْوَاء
خَيْرُ المحبّةِ ما تأتَّتْ عن قِلًى تُدْرَى ببؤسِ الفاقةِ النعماءُ

(١) في طبعة دار صادر: «لا مَذْهَبَ».
(٢) ستأتي هذه القصيدة البائية في الجزء الثالث من نفح الطيب مع ترجمة وافية لابن سعيد.
(٣) البُرَحاء: الشدّة. لسان العرب (برح).
(٤) في طبعة ليدن: «فترى إذا ما وَدَّ ذكري سائلٌ». وفي طبعة دار صادر: «فتراه إمّا مَرَّ...».
(٥) الرُّخاء، بضمِّ الراء: الرِّيحُ اللَّيِّنة. مختار الصّحاح (رخا).
(٦) ذُكاءُ، بضم الذال: اسم للشمس غير منصرف للعلمية والتأنيث. محيط المحيط (ذكى).

مـا زِلْتُ أرْقِي[1] بـالـقـريض جُنُـونَـهُ حتـى اسـتـكـان، وكـان مـنـه إبـاء
فـظَفِـرْتُ مـنـه بـمـدّة لـو أنـهـا دامـتْ لَـدامَتْ لـي بـهـا الـسَّرَّاء
صَفْـوٌ تَكَـدَّر بـالتَّحـرُّك، ليتـه[2] مـا زال، لـكـن لا يُـرَدُّ قـضـاء
إنَّ الـفـراق هـو الـمـنـيَّـةُ، إنّـمـا أهْـلُ الـنَّـوَى مـاتـوا وهُـمْ أحـيـاء
لـولا تَـذكُّـرُ لَـذَّةٍ طـابـتْ لـنـا بـذُرَى الجـزيـرة حيث طـابَ هـواءُ
وجَـرَى النسيمُ على الخليـج مُعَطَّرًا وتَـبَـدَّدَتْ فـي الـدَّوحَـة الأنـداء
مـا كـابـدَتْ نـفـسي أَلِيـمَ تَـفَـكُّـرٍ ألـوى بـه عـن جَفْنِيَ الإغْـضَـاء[3]
يـا نَهْرَ حِمْصٍ[4]، لا عَـدَتْـكَ مَسَـرَّةٌ، مـاءٌ يَـسِـيـلُ لـديـك أم صَـهْـبَـاء؟
كـلُّ الـنفـوسِ تَهَشُّ فيـك كـأنـمـا جَـمَـعَـتْ عـلـيـك شَـتـاتَـهـا الأَهْـواء
وُدّي إلـيـك مـع الـزمـان مُـجَـدَّدٌ مـا إنْ يَـحُـولُ تَـذَكُّـرٌ وعـنـاء
ولَـوَ انّنـي لـم أُحْـيِ ذِكْـرًا لِـلّذي أَوْلَـيـتَـهُ مـا كـان فـيَّ حَـيـاءُ
مـا كنتُ أطـمَـعُ في الحـيـاة لـو أنني أَيْـقَـنْـتُ أنْ لا يُـسْـتَـرَدَّ لـقـاء
غـيـري إذا مـا بـان حـان[5]، وإنّـمـا أبـقـى حيـاتـي، حيـن بِنْـتُ، رجـاء

وسيأتي إن شاء اللّه تعالى لهذا النمط وغيره مزيدٌ أثناء الكتاب، بحسْب ما اقتضتْه المناسبة، واللّه تعالى المرجوّ في حسن المتاب، وهو سبحانه لا إلّه إلاّ هو الموفّق للصواب.

(١) أُرْقي: أستعمل الرُّقية، والرُّقْيَةُ هي ما يستعان به من كلام لشفاء المريض أو المصاب بالعين أو المجنون. لسان العرب (رقى).
(٢) في طبعة ليدن: «لينة ما زلْتُ».
(٣) في طبعة دار صادر: «الإغفاء».
(٤) هو نهر إشبيلية واسمه الوادي الكبير Guadalquivir، وكان أهل الأندلس يشبهون إشبيلية بحمص.
(٥) بان: بَعُد. حان: هلك. لسان العرب (بين) و(حين).

الباب الخامس
التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين الى بلاد المشرق

في التعريف ببعض مَنْ رَحَل من الأنـدلسيين إلى بلاد المشـرق الزاكيـة العَرَار والبَشَـام[١]، ومَدْح جماعة من أولئك الأعلام، ذَوِي العقول الراجحة والأحلام[٢]، لِشامَـةِ[٣] وَجْنَةِ الأرض دِمَشْق الشـام، ومـا اقتضتـه المنـاسبـة من كـلام أعيـانهـا، وأربـاب بيـانهـا، ذوي السؤدد والاحتشام، ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حَلَّها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجـرة، وشاهـد بَرْقَ فضلها المبين وَشَام[٤].

اعْلَمْ ـ جعلني اللّٰه تعـالى وإياك مِمَّنْ لـه للمذهب الحقّ انتحـال[٥]! ـ أنَّ حَصْرَ أهـل الارتحال، لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يَعْلم ذلك على الإحاطة إلَّا علّام الغيـوب الشديـد المِحَال[٦]، ولو أطلنا[٧] عِنَان الأقلام فيمن عرفنـاه فقط من هؤلاء العلماء[٨] الأعـلام، لطال

---

(١) العَرارُ: بهار البَرِّ وهو نبتٌ طيب الريح، الواحدة عَـرَارَةٌ. البَشَامُ: شجـر طيب الرِّيـح يُسْتاك بـه. مختار الصحاح (عرر) و (بشم).

(٢) الأحلام: جمع حِلْم وهو العقل. مختار الصحاح (حلم).

(٣) الشامة: الخال وهي علامة في البدن تخالف لونه، مختار الصحاح (شيم).

(٤) شامَ البَرْقَ: نظر إلى سحابته أين تُمْطر. مختار الصحاح (شيم).

(٥) انتحال المذهب: اتخاذه والقول به. مختار الصحاح (نحل).

(٦) شـديد المِحـال: شديـد القوة والتـدبير؛ وهـو من قولـه تعالى: ﴿ وهُمْ يُجادِلُـونَ في اللّٰه وهُـوَ شـديـدُ المِحال ﴾. سورة الرعد ١٣، الآية ١٣.

(٧) في طبعة دار صادر: «أطلقْنا».

(٨) كلمة «العلماء» غير واردة في طبعة دار صادر.

الكتاب وكثر الكلام، ولكنّا نذكر منهم لمعًا على وجه التوسّط من غير إطناب داع إلى الملال واختصار مُؤْذٍ للملام، فنقول مستمدّين من واهب العقول:

١ ـ منهم عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السُّلمي[١].

وقد عرّف به القاضي عِيَاض في المدارك وغير واحد، ورأيتُ في بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفًا، ومن أشهرها كتاب «الواضحة» في مذهب مالك، كتاب كبير مفيد، ولابن حبيب مذهب في كتب المالكية مسطور، وهو مشهور عند علماء المشرق، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما.

ومن نظمه يخاطب سلطان الأندلس[٢]: [البسيط]

لا تَنْسَ لا يُنْسِكَ الرحمنُ عاشُورَا ... واذْكُرْه لا زِلْتَ في التاريخ مذكورا
قال النبيُّ صلاةُ اللّه تَشْمَلُه ... قولاً وَجَدْنَا عليه الحقَّ والنورا
فيمنْ يُوسِّعُ في إنفاق مَوسِمِهِ ... أن لا يزال بذاك العام ميسورا

وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن إذ طال عهدي به، واللّه تعالى أعلم.

وقال الفتح في المطمح[٣]: الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السُّلمي، أيّ شرف لأهل الأندلس وأيّ مَفْخَر[٤]، وأي بحر بالعلوم يَزْخَر[٥]، خلدت منه الأندلس فقيهًا عالمًا، أعاد مجاهل أهلها[٦] معالمًا، وأقام فيها للعلوم أسواقًا[٧] نافقة، ونشر منها ألويةً خافقة، وجلا عن الألباب صَدَأ الكسل، وشَحَذها شحذ الصَّوارم والأسل[٨]، وتصرّف في

---

(١) تقدّمت ترجمته في الجزء الأول.

(٢) هذه الأبيات كتبها إلى أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، المعروف بعبد الرحمن الثاني، في ليلة عاشوراء، وفي روايتها اختلاف عمّا هنا. البيان المغرب (ج ٢ ص ١١١).

(٣) مطمح الأنفس (ص ٣٦).

(٤) في طبعة دار صادر: «الأندلس ومَفْخَر...».

(٥) في المطمح: «وأي مَحْتد شيّد الإسلام وسحر...».

(٦) في طبعة دار صادر: «مجاهل جهلها».

(٧) في مطمح الأنفس: «للمعالم» بدل «للعلوم». وفي طبعة دار صادر: «سوقًا» بدل «أسواقًا».

(٨) الأسَل: الرماح. مختار الصحاح (أسل).

فنون العلوم، وعرف كل معلوم، وسمع بالأندلس وتفقّه، حتى صار أعْلم مَنْ بها وأفْقَه، ولقي أنجاب مالك، وسلك[1] في مُناظرتهم أوعَرَ المسالك، حتى أجمع عليه الاتفاق، ووقع على تفضيله الإصْفَاق[2]، ويقال: إنه لقي مالكًا آخر عمره، ورُوِيَ عنه عن سعيد بن المسَيَّب أن سليمان بن داود، صلى اللّه عليهما وسلم، كان يركب إلى بيت المقدس فيتغدَّى به، ثم يعود فيتعشَّى بإصْطَخْر، وله في الفقه كتاب «الواضحة» ومن أحاديثه غَرائب، وقد تحلَّت بها للزمان نُحُورٌ وتَرَائب[3].

وقال محمد بن لبابة[4]: فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك بن حبيب، وراويها يحيىٰ بن يحيىٰ.

وكان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرّف في فنون الآداب، وكان له شعر يتكلّم به متبحّرًا، ويُرَى ينبوعُه بذلك متفجّرًا، وتوفي بالأندلس في رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعدما جال في الأرض، وقطع طولها والعَرْض، وجال في أكنافها، وانتهى إلى أطرافها.

ومن شعره قوله[5]: [السريع]

قد طاحَ أمري والذي أبتغي ... هَينٌ على الرحمن في قُدْرَتِهْ
أَلْفٌ مِنَ الحُمْرِ وأَقْلِلْ بها ... لِعَالِمٍ أرْبىٰ على بُغْيَتِهْ
زِرْيَابُ قد أُعْطِيَها جُمْلَةً ... وحِرْفَتِي أَشْرَفُ من حِرْفَتِهْ

وكتب إلى الزجاليِّ[6] رسالة وصلها بهذه الأبيات: [السريع]

كيف يُطِيقُ الشِّعْرَ مَنْ أصْبَحَتْ ... حالَتُهُ اليومَ كحالِ الغَرِقْ

(١) في طبعتي دار صادر وليدن: «وسلك من...».
(٢) الإصفاق: الإجماع. مختار الصحاح (صفق).
(٣) الترائب: موضع القلادة من الصدر. لسان العرب (ترب).
(٤) هو أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن لبابة؛ من أهل قرطبة، إمام في الفقه ومقدّم على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفُتْيا. توفي سنة ٣١٤ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٨٠). والنقل هنا في المصدر نفسه (ص ٦٨٠) وفي البيان المغرب (ج ٢ ص ١١٠).
(٥) الأبيات في مطمح الأنفس (ص ٣٦) عدا البيت الثالث، وفي جذوة المقتبس (ص ٢٨٤) وبغية الملتمس (ص ٣٧٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) في مطمح الأنفس: «وكتبت إلى محمد بن سعيد الترحالي». وفي طبقات النحويين واللغويين =

والشِّعْرُ لا يَسْلِسُ إلاَّ عَلَى | فَراغِ قلبٍ واتِّسَاعِ الخلقْ
فاقْنَعْ بهذا القول من شاعر | يَرْضَى من الحظ بأدنى العَنَقْ[1]
فَضْلُكَ قَدْ بَانَ عليه كما | بانَ لأهلِ الأرض ضَوءُ الشَّفَقْ
أمَّا ذِمامُ الودِّ مِنِّي لَكُمْ | فَهْوَ مِنَ الْمَحْتُومِ فيمَا سَبَقْ

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من مُعْتَلِّه، ويفرق[2] مستقيمَه من مُخْتَلِّه، وكان غرضه الإجازة، وأكثر رواياته غير مستجازة، قال ابن وضّاح: قال إبراهيم بن المنذر: أتى صاحبكم الأندلس - يعني عبد الملك هذا - بِغِرَارة مملوءة، فقال لي: هذا علمك، قلت له: نعم، ما قرأ عليَّ منه حَرْفًا ولا قرأْتُهُ عليه.

وحُكِي أنه قال في دخوله المشرق وحضر مجلس بعض الأكابر فازدراه من رآه: [البسيط]

لا تَنْظُرَنَّ إلى جسمي وقِلَّتِهِ | وانْظُرْ لِصَدْرِي وَمَا يَحْوِي مِنَ السُّنَنِ
فَرُبَّ ذِي مَنْظَرٍ مِنْ غَيرِ مَعْرِفةٍ | ورُبَّ مَنْ تزدريهِ العَينُ ذو فِطَنِ
ورُبَّ لؤلؤةٍ في عينِ مَزْبَلَةٍ | لم يُلْقَ بالٌ لها إلاَّ إلى زَمَنِ

انتهى ما في المطمح الصغير.

قلتُ: أمّا ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مُسَلَّم، وقد نقل عنه غير واحد من جَهَابذة المحدِّثين، نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدّثين، حتى إنَّ في شِفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النُّقّاد مَخْرَجَها، مع اعترافهم بجلالة حفّاظ الأندلس الذين نقلوها كبَقِيِّ بن مَخْلد[3] وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم.

= (ص ٢٨٣) للزبيدي: «محمد بن سعيد الزجالي». والأبيات في طبقات الزبيدي.

(١) العَنَقُ، بالفتح: السير السريع، لسان العرب (عنق).

(٢) في طبعة دار صادر: «ولا يفرق».

(٣) أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد من أهل قرطبة؛ ومن حفّاظ المحدثين، وأئمة الدين، رحل إلى المشرق ورجع إلى الأندلس فملأها علمًا جمّا. مات بالأندلس سنة ٢٧٦ هـ. جذوة المقتبس (ص ١٧٧) وبغية الملتمس (ص ٢٤٥) وتاريخ علماء الأندلس (ص ١٦٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨).

وأمّا ما ذكره عنه بالإجازة[1] بما في الغرارة فذلك على مذهب مَنْ يرى الإجازة، وهو مذهب مستفيض، واعتراضُ من اعترض عليه إنّما هو بناء على القول بمنع الإجازة، فاعلم ذلك، واللَّه سبحانه الموفّق.

٢ ـ ومن الراحلين من الأندلس الفقيهُ المحدِّث يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي[2] راوي الموطّأ عن مالك، رضي اللَّه تعالى عنه، ويقال: إنَّ أصله من برابر مَصْمودة. وحُكي[3] أنه لَمَّا ارتحل إلى مالك لازمه، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه إذ قال قائل: قد[4] حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلّهم، ولم يخرج يحيىٰ، فقال له مالك: ما لَكَ لم تخرج وليس الفيل في بلادك؟ فقال: إنّما جئت من الأندلس لأنظر إليك، وأتعلّم مِنْ هَديك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل، فأُعْجِب به مالك، وقال: هذا عاقل الأندلس[5]. ولذلك قيل[6]: إن يحيىٰ هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبدُ الملك بن حبيب عالمها، ويقال: إن يحيىٰ راويها ومحدِّثها، وتوفي يحيىٰ سنة ٢٣٤ في رجب، وقبره يُسْتَسْقَى به بقُرْطُبة، وقيل: إنَّ وفاته في السنة التي قبلها، واللَّه تعالى أعلم.

وروايته المُوَطّأ مشهورة، حتى إنَّ أهل المشرق الآن يُسْندون المُوَطّأ من روايته كثيرًا، مع تعدّد رواة الموطأ، واللَّه أعلم.

وكان يحيىٰ بن يحيىٰ روى الموطأ بقُرْطُبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخْمِيِّ المعروف بشَبَطون، وسمع من يحيىٰ بن مُضَر القَيسي الأندلسي، ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس الموطّأ غيرَ أبواب في كتاب الاعتكاف، شَكَّ في سماعها، فأثبت روايته فيها عن زياد، وذلك مِمَّا يدلّ على وَرَعه.

---

(١) في طبعة دار صادر: «في الإجازة».

(٢) يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق وسمع من مالك، وعاد إلى الأندلس بعلم كثير. توفي سنة ٢٣٣ هـ، وقيل، ٢٣٤ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٥١٠) ووفيات الأعيان (ج ٦ ص ١٤٣).

(٣) النقل هنا عن وفيات الأعيان (ج ٦ ص ١٤٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) كلمة «قد» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٥) هنا ينتهي النقل عن وفيات الأعيان.

(٦) القول هنا هو لمحمد بن عمر بن لبابة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل (ص ٢٢٨).

وسمع بمصر من اللَّيث بن سعد، وبمكّة من سُفْيان بن عُيَينة، وتفقّه بالمدنيين والمصريين كعبد اللّه بن وَهْب وعبد الرحمن بن القاسم العُتَقي[1]، وسمع منهما، وهما من أكابر أصحاب مالك، بعد انتفاعه بمالك وملازمته له.

وانتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار، وتفقّه به جماعة لا يُحْصَون عددًا، ورَوَى عنه خلقٌ كثير، وأشهر رواة الموطّأ وأحسنهم روايةً يحيىٰ المذكور، وكان ـ مع أمانته ودينه ـ مُعَظَّمًا عند الأمراء، يُكَنّى عندهم، عفيفًا عن الولايات، متنزهًا، جَلَّتْ رتبتُه عن القضاء، وكان أعلى من القضاة قدرًا عند ولاة الأمر بالأندلس لزهده في القضاء وامتناعه.

قال الحافظ ابن حزم[2]: مذهبان انتشرا في بَدْء أمرهما بالرياسة والسلطان؛ مذهب أبي حنيفة، فإنه لَمَّا وُلِّي القضاء[3] أبو يوسف كانت القضاة مِنْ قبلِهِ من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولي إلاَّ أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإنَّ يحيىٰ بن يحيىٰ كان مَكِينًا عند السلطان مقبول القول في القضاء[4]، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلاَّ بمشورته واختياره، ولا يشير إلاَّ بأصحابه ومَنْ كان على مذهبه، والناسُ سِرَاعٌ إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يَرْجُون بلوغَ أغراضهم به، على أنَّ يحيى لم يَلِ قضاءً قَطُّ، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائدًا في جَلالَته عندهم، وداعيًا إلى قبول رأيه لديهم، انتهى.

وذكرنا في غير هذا الموضع قولاً آخر في سبب انتشار مذهب مالك بالأندلس، واللّه سبحانه أعلم بحقيقة الأمر.

وقال ابن أبي الفياض[5]: جمع الأمير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء في قصره، وكان وقع على جارية يُحبّها في رمضان، ثم ندم أشدَّ ندم، فسألهم عن التوبة والكَفّارة،

---

(١) هو أبو عبد اللّه عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العُتَقي بالولاء، نسبة إلى العُتَقاء. صحب مالكًا عشرين سنة، وتوفي سنة ١٩١ هـ. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ١٢٩).

(٢) قول ابن حزم في وفيات الأعيان (ج ٦ ص ١٤٤) وجذوة المقتبس (ص ٣٨٣) وبغية الملتمس (ص ٥١١) بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) في الجذوة والبغية: «ولِّي قضاء القضاء».

(٤) في طبعة دار صادر: «القضاة».

(٥) النقل عن وفيات الأعيان (ص ١٤٥) بعض الاختلاف عمّا هنا.

فقال يحيىٰ: تكفّر بصوم شهرين متتابعين، فلمّا بادر يحيىٰ بهذه الفُتْيا سكت الفقهاء حتى خرجوا، فقال بعضهم له: لِمَ لمْ تُفْتِ بمذهب مالك بالتخيير؟ فقال: لو فتحْنا له هذا الباب سَهُلَ عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكنْ حَمَلْتُهُ على أصعب الأمور لئلاَّ يعود.

وقال بعض المالكية: إن يحيىٰ وَرَّى بهذا، ورأى أنه لم يملك شيئًا إذ هو مستغرق الذِّمَّة فلا عتق له ولا إطعام، فلم يبقَ إلاّ الصيام، انتهى.

ولَمَّا انفصل يحيىٰ عن مالك ووصل إلى مصر رأى ابنَ القاسم يُدَوِّن سماعه من مالك، فَنَشِط للرجوع إلى مالك ليسمع منه المسائل التي رأى ابنَ القاسم يُدَوِّنها، فرحل رحلة ثانية، فألفى مالكًا عليلاً، فأقام عنده إلى أن مات وحضر جنازته، فعاد إلى ابن القاسم وسمع منه سماعه من مالك، هكذا ذكره ابن الفَرَضي في تاريخه(١)، وهو ممّا يردُّ الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أنّ يحيىٰ سأل مالكًا عن زكاة التين، فقال له: لا زكاة فيها، فقال: إنها تُدَّخر عندنا، ونَذَر إن وصل إلى الأندلس أن يرسل لمالِكٍ سفينة مملوءة تينًا، فلما وصل أرسلها فإذا مالك قد مات، انتهى.

قال ابن الفَرَضي(٢): ولَمَّا انصرف يحيىٰ إلى الأندلس كان إمامَ وقته، وواحد بلاده، وكان مِمَّنْ اتّهم بالهَيج في وقعة الرَّبَض المشهورة ففرَّ إلى طُلَيطلة ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانًا، وانصرف إلى قرطبة.

وقيل(٣): لم يعطِ أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطي يحيىٰ من الحُظْوة، وعظم القدر، وجلالة الذكر.

وقال ابن بَشْكوال(٤): إن يحيىٰ بن يحيىٰ كان مجابَ الدعوة، وإنه أخذ في سَمْته وهيئته ونفسه ومَقْعده هيئات مالك.

ويُحكى عنه أنه قال(٥): أخذت بركات الليث بن سعد، فأراد غلامه أن يمنعني، فقال: دَعْه، ثم قال لي الليث: خَدَمَك العلم! فلم تزل بي الأيام حتى رأيت مالكًا، انتهى.

---

(١) تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٩٩) ووفيات الأعيان (ص ١٤٥).

(٢) النص في المصدرين نفسيهما (ص ٩٠٠) و (ص ١٤٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) القول لأحمد بن خالد حسبما جاء في المصدرين المذكورين.

(٤) قول ابن بشكوال في وفيات الأعيان، وغير وارد في الصلة.

(٥) القول في وفيات الأعيان (ج ٦ ص ١٤٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

٣ ـ ومنهم القاضي أبو عبد الله بن محمد بن أبي عيسى(١).

قال في المطمح(٢): من بني يحيىٰ بن يحيىٰ الليثي، وهذه ثَنِيةُ علمٍ وعقل، وصحة ضبط ونقل، كان عَلَم الأندلس، وعالمها النَّدُسَ(٣)، وُلِّي القضاء بقُرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق، وجمع فيها من الروايات والسماع كلّ مفترق، وجال في آفاق ذلك الأفق، لا يستقرّ في بلد، ولا يستوطن في جَلَد(٤)، ثم كَرَّ إلى الأندلس فَسَمَتْ رتبتُه، وتَحَلَّتْ بالأماني لَبَّتُه، وتصرّف في ولاياتٍ أُحْمِدَ فيها مَنَابُه، واتَّصلَت بسببها بالخليفة(٥) أسبابه، وولّاه القضاء بقرطبة فتولّاه بسياسة محمودة، ورياسة في الدين مُبْرَمَة القوى مجهودة، والتزم فيها الصَّرامة في تنفيذ الحقوق، والحزامة في إقامة الحدود، والكشف عن البيان(٦) في السِّرّ، والصَّدْع بالحق في الجهر، لم يَسْتَمِلْه مخادع، ولم يكده مخَاتل، ولَمْ يَهَبْ ذا حرمة، ولا داهن ذا مرتبة، ولا أغضى لأحد من أرباب(٧) السلطان وأهله، حتى تحامَوا حدّة(٨) جانبه، فلم يجسر أحد منهم عليه، وكان له نصيب وافر من الأدب، وحظّ من البلاغة إذا نظم وإذا كتب.

ومن ملح شعره ما قاله عند أوبَته عن غربته: [الطويل]

كأنْ لم يكنْ بَينٌ ولم تَكُ فُرْقَةٌ ... إذا كان مِنْ بَعْدِ الفراقِ تَلاَقِ
كأنْ لم تُؤَرِّقْ بالعِرَاقَينِ مُقْلَتِي ... ولم تَمْرِ كَفُّ الشوقِ ماءَ مآقي
ولم أَزُرِ الأَعْرابَ في جَنْبِ أرضهمْ ... بذاتِ اللِّوَى من رَامَةٍ وبِرَاقِ
ولم أَصْطَبِحْ بالبِيد من قَهْوَةِ النَّدَى ... وكأسٍ سَقَاهَا في الأزاهرِ ساقِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «محمد بن عيسى». وقد مرّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) مطمح الأنفس (ص ٤٦).

(٣) النَّدُسُ: الشديد الفطنة. لسان العرب (ندس).

(٤) في المطمح: «في مظلومة جلد»، وكلاهما بمعنى؛ المظلومة هي الأرض، والجلد: أديمها. لسان العرب (ظلم) و(جلد).

(٥) هو الخليفة عبد الرحمن الناصر، إذ ولّاه القضاء بقرطبة سنة ٣٢٦ هـ، كما في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦٠).

(٦) في طبعة دار صادر: «البيّنات».

(٧) في طبعة دار صادر: «أسباب السلطان».

(٨) كلمة «حدّة» ساقطة من طبعة دار صادر.

ولـه أيـضـًا[1]: [البسيط]

مـاذا أكـابـد[2] مِـنْ وُرْقٍ مُـغَـرِّدَةٍ / عـلى قَضِـيبٍ بـذاتِ الجـزعِ مَيّـاسِ
رَدَّدْنَ شَجْـوًا شَجى قلب الخليِّ فهل[3] / في عَبْـرةٍ ذَرَفَتْ في الحُبِّ مِنْ بـاس؟
ذكَّـرْنَـه الـزمَنَ المـاضي بقُـرْطُبَـةٍ / بَـيْنَ الأَحِـبَّـةِ فـي أمْـنٍ[4] وإينـاسِ
هُـم الصـبـابـةُ لـولا هِـمَّـةٌ شَـرُفَتْ / فَصَيَّـرَتْ قَلْبَـه كـالجنـدلِ القـاسي

وله أخبار تدلّ على رقّة العراق والتغذِّي بماء تلك الآفاق؛ فمنها أنه خـرج إلى حضور جنازة بمقابر قريش، ورجل من بني جابر[5] كان يواخيه له منزل هناك، فعزم عليـه في الميل إليـه، وعلى أخيه، فنـزل عليه فـأحضر لهمـا طعامًـا، وأمر جـاريـة لـه بـالغنـاء، فغنّت[6]: [الكامل]

طـابَتْ بـطيب لِشَـاتِـكَ الأقْـدَاحُ / وزَهَـتْ بحُمْـرَةِ خَـدِّكَ التُّـفـاحُ[7]
وإذا الـربيـعُ تَـنَسَّـمَـتْ أَرْوَاحُـه / طـابتْ بـطيب نسيمِـكَ الأرواحُ[8]
وإذا الحنـادسُ[9] أُلْبِسَت ظَلْمَـاءَهـا / فَضِيـاءُ وجهك في الـدُّجى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضي في ظهر يده، وخرج من عنده، قال يونس بن عبد اللّه[10]: فلقد رأيته يُكَبِّرُ للصلاة على الجنازة والأبياتُ مكتوبةٌ على ظهر كَفِّه.

---

(١) الأبيات في جذوة المقتبس (ص ٧٤).
(٢) في الجذوة: «ويل أم ذكراي من ورق. . .».
(٣) في المصدر نفسه: «الخليِّ فقل في شجوِ ذي غربةٍ ناءٍ عن الناسِ».
(٤) في المصدر نفسه: «في لَهْوٍ».
(٥) في المصدر نفسه: «من بني حُدَير».
(٦) الأبيات في جذوة المقتبس (ص ٧٥) وبغيـة الملتمس (ص ١١١). وسترد في الجـزء الخامس من نفح الطيب.
(٧) في البغية: «ووهت بخمرة. . .».
(٨) في طبعة ليدن: «تنسَّمت أدواحه. . . نسيمك الأدواح».
(٩) الحنادس: جمع حندس وهو الليل الشديد الظَّلام. لسان العرب (حندس).
(١٠) كان يونس بن عبد اللّه قاضيًا كما جاء في جذوة المقتبس (ص ٧٥).

وكان، رحمه الله تعالى، في غاية اللطف؛ حكى بعضُ أصحابه قال[1] : ركبنا معه في موكب حافل من وُجوه الناس، إذ عرض لنا فتًى متأدِّبٌ قد خرج من بعض الأزِقَّة سكرانَ يتمايل، فلمَّا رأى القاضيَ هابه، وأراد الانصراف، فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط، وأطرق، فلمَّا قرب القاضي رفع رأسه وأنشأ يقول[2] : [الطويل]

ألا أيّها القاضي الذي عَمَّ عَدْلُه ... فأضحى به بين[3] الأنامِ فَرِيدَا
قرأتُ كتابَ اللّه تسعين مَرَّةً[4] ... فلَم أرَ فيه للشراب حُدُودَا
فإنْ شِئْتَ جَلْدًا لي فدُونَك مَنْكِبًا[5] ... صَبُورًا على ريبِ الزمان جليدَا
وإنْ شئت أن تَعْفُو تكنْ لك مِنّةٌ ... تروحُ بها في العالمين حَمِيدَا
وإنْ أنت تختارُ الحديدَ فإنَّ لي[6] ... لِسَانا على هَجْوِ الزمان حَدِيدَا

فلما سمع شعره ومَيَّز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه، ومضى لشأنه، انتهى ملخَّصًا من المطمح.

ورأيت بخطي في بعض مُسَوَّداتي ما صورته[7]: محمد بن عبد الله بن يحيىٰ بن يحيى الليثي قاضي الجماعة بقرطبة، سمع عمّ أبيه عبيد الله بن يحيىٰ ومحمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد، ورحل من قرطبة سنة ٣١١[8]، ودخل مصر، وحجّ، وسمع بمكّة من ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي[9]، وكان حافظًا، معتنيًا بالآثار، جامعًا للسُّنَن، متصرِّفًا في علم الإعراب ومعاني الشعر، شاعرًا مطبوعًا؛ وشاوره القاضي أحمد بن بقي، واستقضاه الناصرُ عبد الرحمن بن محمد عَلى إلبيرة وبجّانَةَ[10]، ثم ولّاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي

---

(١) هو القاسم بن محمد، كاتب ابن أبي عيسى أيام قضائه بإلبيرة. تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦١).
(٢) الشعر في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦١).
(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «به في العالمين».
(٤) في تاريخ الأندلس: «ألف مرة...».
(٥) في المصدر نفسه: «فإنْ شئت أن تجلد...».
(٦) في المصدر نفسه: «وإن كنت تختار الحدود فإنَّ لي...».
(٧) الترجمة هنا هي ترجمة ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٧١٨) مع بعض الإيجاز.
(٨) هكذا في طبعة دار صادر وفي تاريخ علماء الأندلس. وفي طبعة عبد الحميد: ٣١٣.
(٩) في طبعة دار صادر: «وابن الأعرابي وغيرهم».
(١٠) في طبعة بولاق: «وبجاية».

طالب سنة ٣٢٦[١]، وجُمِعَتْ له مع القضاء الصلاة، وكان كثيرًا ما يخرج إلى الثغور ويتصرّف في إصلاح ما وَهَى منها، فاعتلّ في آخر خرجاته، ومات في بعض الحصون المجاورة لطلَيطلة سنة ٣٣٧[٢]، ومولده سنة ٢٨٤؛ انتهى وأظن أني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ، والله أعلم.

٤ ـ ومنهم عتيق بن أحمد بن عبد الباقي الأندلسي[٣]، الدمشقي وفاةً، يكنى أبا بكر، نزيل دمشق، كان مشهورًا بالصلاح، وانتفع به جماعة من الفقراء، ووُلِدَ على ما قيل سنة ٥١٦، وتوفي سنة ٦١٦[٤]، بدمشق، ودُفِنَ بمقابر الصوفية، فيكون عمره على هذا مائة سنة، رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله!.

٥ ـ ومنهم أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأبَّذِي، الملقّب في البلاد المشرقية ببرهان الدين ـ وأُبَّذة[٥]، بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها ذال معجمة ـ بلد بالأندلس ـ سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد، وبدمشق من الحافظ ابن طبرزذ، وأَمَّ بالصخرة، وكان فاضلاً صالحًا شاعرًا، توفي سنة ٦٥٦، وأخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنّه سمع هاتفًا يقول لَمَّا خرب[٦] القدس: [الخفيف]

إنْ يَكُنْ بالشآم قَلَّ نَصِيري ... ثم خُرِّبْتُ واسْتَمَرَّ هُلوكي
فلقد أثبتَ الغَدَاةَ خرابي ... سمر العار في حياة الملوكِ

هكذا رأيته بخطِّ الصفدي «في حياة» ويحتمل أن يكون «في جباه» جمع جَبْهة، والله أعلم.

---

(١) هكذا في المصادر التي ترجمت له، وفي طبعة عبد الحميد: «٣٢٤».
(٢) في تاريخ علماء الأندلس: سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة.
(٣) عتيق بن أحمد بن عبد الباقي من أهل لورقة، نزل دمشق، وكان شيخًا صالحًا زاهدًا. توفي بدمشق في سنة ٦١٦ هـ. الذيل والتكملة (ج ٥ ص ١١٥، حاشية ١).
(٤) في طبعة بولاق: سنة ٦١٤.
(٥) أُبّذة: بالإسبانية Ubeda، وقد تقدّم الحديث عنها في الجزء الأول.
(٦) في طبعة دار صادر: «خربت».

٦ ـ ومنهم القاضي مُنْذِر بن سعيد البلوطي[١]، قاضي الجماعة بقُرْطُبة، وقد قدَّمْنا جملة من أخباره في الباب الثالث والرابع من هذا القسم، وكان لا يخاف في الله لومَةَ لائم، ومن مشهور ما جرى له في ذلك قصته[٢] في أيتام أخي نَجْدَةَ، وحَدَّثَ بها جماعةٌ من أهل العلم والرواية، وهي أن الخليفة النّاصر احتاج إلى شراء دار بقُرْطبَة لحظِيَّة من نسائه تَكْرُمُ عليه، فوقع استحسانُه على دارٍ كانت لأولاد زكريا أخي نَجْدَةَ، وكانت بقرب النشارين في الرَّبض الشرقي منفصلة عن دُوره، ويتّصل بها حَمَّام له غلّة واسعة، وكان أولاد زكريا أخي نَجْدة أيتامًا في حجر القاضي، فأرسل الخليفةُ مَنْ قَوَّمَها له بعدد ما طابت نفسه، وأرسل ناسًا أمَرَهُمْ بمداخلة وصيّ الأيتام في بَيعهاِ عليهم، فذكر أنه لا يجوز إلّا بأمر القاضي، إذ لم يجز بيع الأصل إلّا عن رأيه ومَشُورته، فأرسل الخليفة إلى القاضي منذر في بيع هذه الدار، فقال لرسوله: البيع على الأيتام لا يَصِحُّ إلّا لوجوه؛ منها الحاجة، ومنها الوَهْي الشديد، ومنها الغبطة[٣]. فأمّا الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأمّا الوَهْي فليس فيها، وأمّا الغبطة فهذا مكانها، فإنْ أعطاهم أميرُ المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أَمَرْتُ وصيّهم بالبيع، وإلّا فلا، فنقل جوابه إلى الخليفة، فأظهر الزهد في شراء الدار طمعًا أن يتوخّى رغبته فيها، وخاف القاضي أن تنبعث منه عزيمة تلحق الأيتام ثورتها[٤]، فأمر وصيَّ الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها، ففعل ذلك وباع الأنقاض، فكانت لها قيمة أكثر مِمّا قوّمت به للسلطان، فاتّصل الخبر به، فعزّ عليه خرابها، وأمر بتوقيف الوصيّ على ما أحدثه فيها، فأحال الوصيّ على القاضي أنه أمره بذلك، فأرسل عند ذلك للقاضي مُنْذِر، وقال له: أأنت[٥] أمَرْتَ بنقض دار أخي نَجْدَة؟ فقال له: نعم، فقال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: أخذت فيها بقول الله تعالى: ﴿أَمَّا السفينةُ فكانتْ لمساكينَ يَعْمَلُونَ في البَحْرِ فأَرَدْتُ أن أَعِيبَها، وكان وراءَهُم مَلِكٌ يأخُذ كلَّ سفينةٍ غَصْبًا﴾[٦] مُقَوِّموك لم يقوموها[٧] إلّا بكذا،

---

(١) مرّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) القصة في مطمح الأنفس (ص ٤٣).

(٣) أراد بالغبطة هنا المنفعة الظاهرة للأيتام.

(٤) في طبعة دار صادر: «سورتها».

(٥) في طبعة دار صادر: «أنت».

(٦) سورة الكهف ١٨، الآية ٧٩.

(٧) في طبعة دار صادر: «لم يقدروها».

وبذلك تعلّق وَهْمُك، فقد نَضّ(١) في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمّام فَضْلاً، ونظر اللَّه تعالى للأيتام، فصبر الخليفة عبدُ الرحمن على ما أتى من ذلك، وقال: نحن أولى مَن انقاد إلى الحق، فجزاك اللَّه تعالى عَنّا وعن أمانتك خيرًا!.

قالوا(٢): وكان على متانته وجزالته حسنَ الخلق، كثير الدُّعابة، فربّما ساء ظنُّ من لا يعرفه، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضاري، فمن ذلك ما حَدَّث به سعيدُ ابنه قال: قعدْنا ليلة من ليالي شهر رمضان المعظَّم مع أبينا للإفطار بداره البرانية، فإذا سائل(٣) يقول: أطعموني مِنْ عشائكم أطعمكم اللَّه تعالى مِنْ ثمار الجنّة، هذه الليلة، ويكثر من ذلك، فقال القاضي: إن اسْتُجِيبَ لهذا السائل فيكم فليس يصبح منّا أحد(٤).

وحكى(٥) عنه قاسم بن أحمد الجهني أنه ركب يومًا لحيازة أرض مُحَبَّسة في رَكْب من وُجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو إبراهيم اللؤلؤي ونظراؤه، قال: فسرْنا نَقْفُوه وهو أمامنا، وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار، وكانت القضاة حينئذ لا تراكب ولا تماشي، فعرض له في بعض الطريق كلاب مع مُسْتَوجِمة، والكلاب تلعق هَنَهَا وتدور حولها، فوقف وصرف وجهه إلينا وقال: تَرَون يا أصحابنا ما أبرَّ الكلاب بالهن الذي تلعقه وتكرمه، ونحن لا نفعل ذلك، ثم لوى عنان دابّته وقد أضحكنا، وبقينا متعجبين من هَزْله.

وحضر(٦) عند الحكم المستنصر باللَّه يومًا في خلوة له في بستان الزّهراء على بِرْكة ماء طافحة، وسط روضة نافحة، في يوم شديد الْوَهَج، وذلك إثر مُنْصَرفه من صلاة الجمعة، فشكا إلى الخليفة من وَهَج الحرّ والجهد(٧)، وبثّ منه ما تجاوز الحدّ، فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن جسمه؛ ففعل، ولم يُطْفِ ذلك ما به، فقال له: الصواب أن تنغمس في وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك، وليس مع الخليفة إلاّ الحاجب جعفر الخادم الصقلبي

---

(١) نَضَّ: حصل. لسان العرب (نضض).

(٢) النص في مطمح الأنفس (ص ٤٤).

(٣) في طبعة بولاق: «بسائل...». وفي مطمح الأنفس: «مسائل يقول: يا أهل هذه الدار الصالح أهلها...».

(٤) في طبعة دار صادر: «منا واحد».

(٥) مطمح الأنفس (ص ٤٤).

(٦) مطمح الأنفس (ص ٤٥) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٢ ـ ٧٣).

(٧) في طبعة دار صادر: «الحرّ الجهد».

أمين الخليفة الحكم، لا رابع لهم، فكأنه اسْتَحْيَا مِنْ ذلك وانقبض عنه وقارًا، وأقصر عنه إقصارًا، فأمر الخليفةُ حاجبَه جعفرًا بسَبْقه إلى النزول في الصهريج ليسهل عليه الأمر فيه، فبادر جعفر لذلك، وألقى نفسه في الصهريج، وكان يُحْسِنُ السِّباحةَ، فجعل يجول يمينًا وشمالاً فلم يسع القاضي إلاَّ إنفاذ أمر الخليفة، فقام وألقى بنفسه خلف جعفر، ولاذ بالقعود في دَرَج الصهريج، وتدرَّج فيه بعض تدريج، ولم ينبسط في السباحة، وجعفر يمرُّ مُصَعِّـدًا ومصوِّبًا[1] فدسَّه الحكم على القاضي، وحمله على مساجلته في العَوم، وهو[2] يعجزه في إخلاده إلى القعود، ويعابثه بإلقاء الماء عليه، والإشارة بالجذْب إليه، وهو لا ينبعث معه، ولا يفارق موضعه، إلى أنْ كَلَّمه الحكم وقال له: ما لك لا تساعد الحاجب في فعله وتتقبل[3] صنعه؟ فمن أجْلِكَ نَزَلَ، وبسببك تبذَّلَ. فقال له: يا سيدي، يا أمير المؤمنين، الحاجب سلمه اللّه تعالى لا هوجل معه، وإنما هذا[4] الهوجل الذي معي يعقلني ويمنعني من أن أجول معه مَجَالَهُ، يعني أن الحاجب خَصِيٌّ لا هوجل معه، والهوجل: الذَّكَر، فاستفرغ الحكم ضحكًا من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر، وخجل جعفر من قوله، وسبَّه سبَّ الأشراف، وخرجَا من الماء، وأمر لهما الخليفة بِخِلَعٍ، ووصلهما بصلات سنيّة تشاكل كلّ واحد منهما.

وحكي أن الخليفة الحكم قال له يومًا[5]: لقد بلغني أنّك لا تجتهد للأيتام، وأنّك تقدّم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم، قال: نعم، وإن أمكنهم نَيك أمهاتهم لم يعفُّوا عنهنَّ، قال: وكيف تقدّم مثل هؤلاء؟ قال: لست أجد غيرهم ولكن أحِلْني على اللؤلؤي[6] وأبي إبراهيم ومثل هؤلاء[7]، فإنْ أبوا أجبَرْتهم بالسّوط والسجن، ثم لا تسمع إلاَّ خَيرًا.

---

(١) أي منحدرًا وصاعدًا.

(٢) في طبعة دار صادر: «فهو».

(٣) في طبعة ليدن: «وتقبل». وفي طبعة دار صادر: «وتتقيّل».

(٤) في طبعة دار صادر: «وأنا بهذا...».

(٥) مطمح الأنفس (ص ٤٥) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٣) مع بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «علي الفقيه اللؤلؤي، وأبي إبراهيم، وأمثالهما...».

(٧) الصواب: «ومثل هذين».

وقال القاضي منذر[1]: أتيت وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملي في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول: [الطويل]

خليليَّ، هـل بـالشـام عَينٌ حـزينـةٌ تـبكّـي على نَـجْـدٍ لَعَـلّي أُعِـينُـهَـا
قَـدَ أسلمهـا البـاكـونَ إلاّ حمـامـةً مُـطَوّقَـةً بـاتَـتْ وبـاتَ قـرِينُـهَـا
تُجـاوِبهـا أخْـرَى عـلى خَيـزُرانـةٍ يـكـاد يُـدَنِّيـهـا مِنَ الأرض لِيـنُـهَـا

فقلت له: يا أبا جعفر، ماذا، أعزَّك اللّه تعالى، باتا يصنعان؟ فقال لي: وكيف تقول أنت يا أندلسي؟ فقلت له: بانت وبـان قرينُهـا، فسكت، وما زال يستثقلني بعـد ذلك، حتى منعني كتاب العين[2]، وكنت ذهبت إلى الانتساخ من نسخته، فلمَّا قطع بي قيل لي: أين أنت من أبي العباس بن وَلّاد؟ فقصدْتُه، فلقيتُ رجلًا كامل العلم حسن المروءة، فسألته الكتابَ، فأخرجه إليَّ، ثم ندم أبو جعفر لَمَّا بلغه إباحة أبي العباس الكتابَ إلي[3]، وعاد إلى ما كنت أعرفه منه.

قال: وكان أبو جعفر لئيم النفس، شديد التقتير على نفسه، وربما وُهِبَتْ له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم، وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه، ويتحامل فيها على أهل معرفته، انتهى.

وأبو جعفر هذا يقال: إن تواليفه تزيد على خمسين، منها «شرح عشرة دواوين للعرب»، و «إعراب القرآن»، و «معاني القرآن»، و «شرح أبيات الكتاب»[4]، وغير ذلك.

رجع ـ وقال منذر بن سعيد: كتبْتُ إلى أبي علي البغدادي أستعير منه كتابًا من الغريب، وقلت: [المجتث]

بِـحَـقِّ رِيـمٍ مُـهَـفْـهَـفْ وصُـدْغِـهِ الـمُـتَـعَـطِّفْ
ابْـعَـثْ إلـيَّ بِـجُـزْءٍ مِنَ الـغَـرِيـبِ الـمُـصَـنَّـفْ

---

(١) طبقات الزبيدي (ص ٢٤٠).
(٢) كتاب العين هو للخليل بن أحمد الفراهيدي.
(٣) في طبعة دار صادر: «لي».
(٤) المراد بالكتاب هنا هو كتاب العين للفراهيدي.

فقضى حاجتي، وأجاب بقوله: [المجتث]

وحَقِّ دُرٍّ تألَّفْ بِفيكَ أيَّ تألُّفْ
لأبْعَثَنَّ بما قَدْ حَوَى الغريبُ المُصَنَّفْ
ولو بَعَثْتُ بنَفْسِي إليك ما كنتُ أُسْرِفْ

فرحم اللّٰه تعالى تلك الأرواح الطاهرة!.

وذكر ابن أصبغ الهمداني عن منذر أنه خطب يومًا، وأراد التواضُعَ، فكان من فصول خطبته أن قال[1]: حتى[2] متى وإلى متى أعظ ولا أتّعظ، وأزجر ولا أنزجر[3]، أدلّ الطريق إلى المستدلين، وأبقى مُقيمًا مع الحائرين؟ كلاَّ إنَّ هذا لهو البلاء المبين ﴿ إنْ هي إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بها مَنْ تشاءُ وتَهْدِي مَنْ تَشاء ﴾[4] الآية[5]، اللهمَّ فرِّغْنِي لِمَا خَلَقْتَني له، ولا تَشْغَلْني بما تكفَّلتَ لي به، ولا تحرمْني وأنا أسألك، ولا تعذِّبْني وأنا أستغفرك، يا أرحم الرّاحمين.

وسمع منذر بالأندلس[6] من عُبَيد اللّٰه بن يحيىٰ بن يحيىٰ ونظرائه، ثم رحل حاجًّا سنة ثمانٍ وثلثمائة فاجتمع بعدّة أعلام، وظهرت فضائله بالمشرق، ومِمَّنْ سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكّة محمد بن المنذر النيسابوري، سمع عليه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمَّى «بالإشراف» وروى بمصر كتاب «العين» للخليل عن أبي العبّاس بن وَلَّاد، وروى عن أبي جعفر بن النحّاس. وكان منذر متفنّنًا في ضروب العلوم وغلب عليه التفقّه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني المعروف بالظّاهري، فكان منذر يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه ويحتجّ لمقالته ويأخذ به في نفسه وذَوِيه، فإذا جلس للحكومة قضى بمذهب الإمام مالك وأصحابه، وهو الذي عليه العمل بالأندلس، وحمل السّلطان أهلَ مملكته عليه، وكان خطيبًا بليغًا، عالمًا بالجدل حاذقًا فيه، شديد العارضة، حاضر الجواب عتيدُه، ثابت

(١) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ٦٩).

(٢) في طبعة دار صادر: «حتى متى أعظ...».

(٣) في طبعة دار صادر: «ولا أزدجر، أدلّ الطريق على...».

(٤) سورة الأعراف ٧، الآية ١٥٥.

(٥) كلمة «الآية» غير واردة في طبعة صادر.

(٦) تاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٤) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٨٤٥)، وطبقات الزبيدي (ص ٢٤٠).

الحجّة ذا شَارَةٍ[1] عجيبة، ومنظر جميل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم، وكان ـ مع وقاره التّام ـ فيه دُعَابة مستملحة، وله نوادر مستحسنة، وكانت ولايته القضاء بقرطبة للنّاصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، ولبث قاضيًا من ذلك التاريخ للخليفة النّاصر إلى وفاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفي، رحمه اللّه تعالى عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة، فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عامًا كاملة، لم يُحْفَظ عليه فيها جَور في قضيّة، ولا قسم بغير سَوِيَّة، ولا ميل لهوى، ولا إصغاء إلى عناية، ورحمه اللّه تعالى ورضي عنه! ودُفِن بمقبرة قريش بالربَض الغربي من قرطبة أعادها اللّه تعالى! جوفيَّ مسجد السيدة الكبرى، بقرب داره.

وله رحمه اللّه تعالى، تواليف مفيدة؛ منها كتاب «أحكام القرآن» و «الناسخ والمنسوخ» وغير ذلك في الفقه والكلام في الردّ على أهل المذاهب، تغمّده اللّه تعالى برضوانه!.

وكتب بعض الأدباء إلى القاضي منذر بقوله: [السريع]

مسألةٌ جِئْتُكَ مُسْتَفتيًا ... عنها، وأنتَ العالم المستشارْ
عَلامَ تَحْمَرُّ وجوهُ الظِّبَا ... وأوجُهُ العُشّاقِ فيها اصفرارْ

فأجاب منذر بقوله: [السريع]

احْمَرَّ وَجْهُ الظَّبْيِ إذ لحظُهُ ... سَيفٌ على العُشّاقِ فيه احْوِرَارْ
واصْفَرَّ وَجْهُ الصَّبِّ لَمّا نأى ... والشمسُ تُبْقي للمغيب اصفرارْ

٧ ـ ومِمَّنْ رَحَلَ إلى المشرق من الأندلس فشهد له بالسبق، كلُّ أهلِ المغرب والشرق، الإمامُ العلامة أبو القاسم[2] الشاطبي، صاحب «حرز الأماني» و «العقيلة» وغيرهما.

---

(١) في طبعة ليدن: «ذا إشارة».

(٢) هو القاسم بن فِيْرُه بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني؛ من أهل شاطبة، استوطن القاهرة، وكان يلقب أيضًا بأبي محمد، وفِيْرُه كلمة إسبانية Ferro وتعني الحديد. كان مقرئًا وإمامًا في النحو. توفي سنة ٥٩٠ هـ. الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٤٨) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٧١) وبغية الوعاة (ص ٣٧٩).

وهـو أبو القـاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمـد الرُّعَيني الشـاطبي، المقـرىء، الفقيـه، الحافظ، الضرير، أحد العلماء المشهورين، والفضلاء المشكورين[1]، خـطب ببلدِهِ شَاطِبة مع صغر سنِّه، ودخل الديار المصـريّة سنـة اثنتين وسبعين وخمسمائـة، وحضر عنـد الحافظ السِّلَفي وابن بَرِّي وغيرهما، ووُلد بشاطبة آخر سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة، وتوفي بالقـاهرة يوم الأحد الثامن والعشرين، وقيل: الثامن عشر، من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة، بعد العصر، ودُفِن من الغد بالتربة الفاضلية بسَفْح المقطَّم.

وحكي أن الأمير عز الدين موسك، الذي كان والدُ ابنِ الحاجب حاجبًا له، بعث إلى الشيخ الشاطبي يـدعوه إلى الحضـور عنده، فـأمر الشيـخ بعض أصحابـه أن يكتب إليه[2]: [مجزوء الكامل]

قُـلْ لـلأمـيـرِ مَـقـالَـةً ... مِـنْ نـاصـحٍ فَـطِنٍ نَـبِـيـهِ[3]
إنَّ الـفـقـيـه إذا أتـى ... أبْـوَابَـكُـمْ لا خَـيـرَ فِـيـهِ

ومن نظمه رحمه اللَّه تعالى: [الكامل]

خَـالَـقْتُ[4] أبنـاءَ الـزمـانِ فلم أجِـدْ ... مَـنْ لـم أرُمْ مـنـه ارْتـيـادِيَ مَـخْـلَصي
رَدُّ الـشـبـاب وقـدِ مَـضَـى لـسـبـيـله ... أهْـيَـا[5] وأمكـنُ مِنْ صـديـقٍ مـخـلصِ

وكان، رحمه اللَّه تعالى، قرأ بشاطبة القراءات، وأتقنها على النَّفْزي[6]، ثم انتقل إلى بَلَنْسِية فقرأ بها «التيسير» من حفـظه على ابن هُذَيـل، وسمع الحـديث ومنه ومن ابن النعمـة وابن سَعَـادة وابن عبد الـرحيم وغيرهم، وارتحـل إلى المشرق فـاستوطن القـاهـرة، واشتهـر اسمُه، وبَعُد صِيتُه، وقصده الـطلبة من النـواحي، وكان إمـامًا عـلّامة، ذكيًـا، كثير الفنـون،

(١) في طبعة دار صادر: «المذكورين».
(٢) البيتان في بغية الوعاة (ص ٣٨٠).
(٣) رواية البيت في بغية الوعاة هي:

قُـلْ لـلأمـيـر نـصـيـحـةً ... لا تـركـنـن إلـى فـقـيـهِ

(٤) في طبعة دار صادر: «خالصْت».
(٥) أهيا: أكثر تهيؤًا، أسهل وأقرب.
(٦) هو ابن علي بن أبي العاصي النفزي. كما في الذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٤٨).

منقطع القرين، رأسًا في القراءات، حافظًا للحديث، بصيرًا بالعربية، واسع العلم، وقد سارت الركبانُ بقصيدته «حرز الأماني»[1] و«عقيلة أتراب الفضائل»[2] اللتين في القراءات والرسم، وحَفِظَهُما خلقٌ كثير[3] لا يُحْصَون، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذّاق القرّاء، ولقد أوجز وسَهَّل الصعب.

ومِمَّنْ روى عنه أبو الحسن ابن خَيْرَة، ووصفه من قوّة الحفظ بأمر عجيب[4] معجب، ومِمَّنْ قرأ عليه بالروايات الإمام الشهير محمد بن عمر القُرْطُبي.

وتصدَّر الشاطبي، رحمه اللَّه تعالى، للإقراء بالمدرسة الفاضلية، وكان موصوفًا بالزهد والعبادة والانقطاع.

وقبره بالقرافة يُزَار، وتُرْجَى استجابة الدّعاء عنده، وقد زرْتُه مرارًا، ودعوت اللَّه بما أرجو قبوله.

وترك أولادًا؛ منهم أبو عبد اللَّه محمد، عاش نحو ثمانين سنة.

وقال السبكي في حق الإمام الشاطبي: إنه كان قوي الحافظة، واسع المحفوظ، كثير الفنون، فقيهًا، مقرئًا، محدّثًا، نحويًا، زاهدًا عابدًا، ناسكًا، يتوقّدُ ذكاء؛ قال السخاوي[5]: أقطع أنه كان مكاشفًا، وأنه سأل اللَّه كتمان حاله، ما كان أحد يعلم أي شيء هو، انتهى.

وترجمته واسعة، رحمه اللَّه تعالى ونفعنا به آمين!.

---

(١) هو الذي سمَّى هذه القصيدة بهذا الاسم، وعدد أبياتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتًا، واسمها الكامل: «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٧١). وذكرها ابن عبد الملك بهذا الاسم وقال: أودعها القراءات السبع. الذيل والتكملة (ص ٥٥١).

(٢) عنوان هذه القصيدة في الذيل والتكملة هو: «عقيلة القصائد في أسنى المقاصد»، وقد ضمّنها رسم المصحف.

(٣) كلمة «كثير» غير واردة في طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة دار صادر: «معجب».

(٥) هو تلميذ علم الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد بن عبد الغالب الهمداني السخاوي؛ من أهل مصر، اشتغل بالقاهرة على الشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي المترجم له، وأتقن عليه علم القراءات والنحو واللغة. وكانت وفاته سنة ٦٤٣ هـ. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٣٤٠).

وقال ابن خَلِّكَان[١]: إنه أبدع[٢] في «حرز الأماني» وهي عمدة قرّاء هذا الزمان في تعلّمهم[٣]، فقلَّ من يشتغل بالقراءات إلاَّ ويقدّم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة، وما أظنّه سُبق إلى أسلوبها. وقد رُوِيَ عنه أنّه يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلاَّ وينفعه اللّه عَزَّ وجَلَّ؛ لأني نظمْتُها للّه تعالى مخلصًا. وكان عالمًا بكتاب اللّه تعالى قراءة وتفسيرًا، وبحديث رسول اللّه ﷺ، مبرزًا فيه، وكان إذا قرىء عليه صحيحا البخاري ومُسْلم والموطّأ يُصَحِّحُ النسخَ مِنْ حفظه، ويُمْلي النكت على المواضع المحتاج إليها، وكان أوحدَ في علم النحو واللغة، عارفًا بتعبير[٤] الرؤيا، حسن المقاصد، مخلصًا فيما يقول ويفعل، وكان يجتنب فُضُولَ الكلام، ولا ينطق في سائر أوقاته إلاَّ بما تدعو إليه الحاجة[٥]، ولا يجلس للقراءة إلاَّ على طهارة في هيئة حسنة وتخشّع واستكانة، وكان يعتلُّ العلّة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوّه، وإذا سُئل عن حاله قال: العافية، لا يزيد على ذلك. وكان كثيرًا ما ينشد هذا اللغز في النعش، وهو لأبي زكريا يحيى بن سلامة الخطيب: [الطويل]

أَتَعْرِفُ شيئًا في السماء نظيرُه[٦] | إذا سارَ صاحَ الناسُ حيثُ يَسِيرُ
فَتَلْقاه مركوبًا وتلقاه راكبًا | وكلُّ أميرٍ يَعْتَلِيهِ أَسِيرُ
يَحضُّ على التقوى ويُكْرَهُ قُرْبُهُ | وتنفرُ منه النفسُ وهو نذيرُ
ولم يستزرْ عن رغبةٍ في زيارة | ولكن على رغمِ المَزُورِ يَزُورُ

وكان يقول[٧] عند دخوله إلى مصر: إنه يحفظ وَقْرَ[٨] بعيرٍ من العلوم، وكان نزيل القاضي الفاضل، ورَتَّبه بمدرسته بالقاهرة، وقيل. إنَّ كنيته أبو محمد حسبما وجد في بعض إجازاته، رحمه اللّه تعالى!.

---

(١) النص في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٧١) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) في طبعة دار صادر: «ولقد أبدع كلّ الإبداع...» وفي وفيات الأعيان، «ولقد أبدع فيها كلَّ الإبداع...».
(٣) في طبعة دار صادر ووفيات الأعيان: «في نقلهم».
(٤) في طبعة ليدن: «بتفسير الرؤيا».
(٥) في طبعة دار صادر: «إليه ضرورة».
(٦) في وفيات الأعيان: «السماء يطير».
(٧) في طبعة دار صادر: «يقال».
(٨) وَقْرُ البعير: حِمْلُهُ. لسان العرب (وقر).

٨ ـ ومن الراحلين إلى المشرق من الأندلس الإمام القاضي أبو بكر بن العربي(١).

قال ابن سعيد: هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر المغرب، أبو بكر محمد بن عبد اللَّه بن العربي المَعافري، قاضي قضاة كورة إشبيلية، ذكره الحِجَاري في المسهب، طبَّق الآفاق بفوائده، ومَلأ الشام والعراق بأوابده، وهو إمام في الأصول والفروع وغير ذلك.

ومن شعره وقد ركب مع أحد أمراء الملثَّمين، وكان ذلك الأمير صغيرًا، فهزَّ عليه رمحًا(٢) كان في يده مداعبًا له: فقال(٣): [الطويل]

يَهُزُّ عَلَيَّ الرُّمْحَ ظَبْيٌ مُهَفْهَفُ ... لَعُوبٌ بألباب البَرِيَّةِ عابِثُ
ولو كان رمحًا واحدًا لاتَّقَيْتُهُ(٤) ... ولكنه رمحٌ، وثانٍ، وثالثُ

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة في لباس خشن: [الرمل]

لَبِسَ الصوفَ لكي أُنْكِرَهُ ... شاحبًا(٥) شاحبًا قد عَبَسَا
قلت إيْهٍ قد عَرَفْنَاكَ وذا ... جُلُّ سوءٍ لا يعيبُ الفَرَسَا
كلُّ شيء أنت فيه حَسَنٌ ... لا يُبالي حَسَنٌ ما لَبِسَا(٦)

وزعم بعضٌ أنَّ الأبيات ليست له، وإنما تمثَّل بها، فاللَّه تعالى أعلم.

وممن عَرَّف بابن العربي وذكره ابنُ الإمام في «سمط الجُمَان»، والشَّقْنْدِي في «الطرف»، وكان قد صحب المهدي محمد بن تُومَرْتَ بالمشرق(٧)، فأوصى عليه عبد المؤمن

---

(١) هو محمد بن عبد اللَّه بن محمد المعافري، المعروف بابن العربي؛ أندلسي من إشبيلية، حافظ مشهور. توفي بالعدوة سنة ٥٤٣ هـ. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٩٦) والصلة (ص ٨٥٥) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٠٥) ومطمح الأنفس (ص ٦٢) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ٦٢، ٨٦) والمغرب (ج ١ ص ٢٥٤) وبغية الملتمس (ص ٩٢).

(٢) في طبعة دار صادر: «رميحًا».

(٣) هذه القطعة والاثنتين التاليتين في المغرب (ج ١ ص ٢٥٥).

(٤) في طبعة دار صادر وفي المغرب: «فلو أنه رمحٌ إذن لاتَّقَيته».

(٥) في طبعة دار صادر: «شاجيًا».

(٦) رواية عجز البيت في المغرب هي: «لا نُبالي حُسْن ما قد لَبِسَا».

(٧) يروي صاحب الحلل الموشية (ص ١٢٢ ـ ١٢٣) أن ابن العربي سئل بعد عودته إلى المغرب، في مجلس عبد المؤمن الموحدي، هل لقي الإمام المهدي بن تومرت، فقال إنه سمع به ولم يلقه.

وكان مكرمًا عنده، وحكي أنه كتب كتابًا فأشار عليه بعض[1] من حضر أن يَذُرَّ عليه نشارة، فقال: قِفْ، ثم فكَّر ساعة، وقال: اكْتُبْ[2]: [الخفيف]

لا تَشِنْهُ بِمَا تَذُرُّ عليه ... فَكَفَاهُ هبوبُ هذا الهواءِ
فكأنَّ الذي تذرُّ عليه ... جُدَرِيٌّ بِوَجْنَةٍ حسناءِ

ولقي أبا بكر الطُّرْطوشي[3]. وما برح معظَّمًا إلى أن تولَّى خطة القضاء، ووافق ذلك أن احتاج سور إشبيلية إلى بنيانِ جهةٍ منه، ولم يكن بها[4] مال متوفّر، ففرض على النّاس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد أضحى، فأحضروها كارهين، ثم اجتمعت العامّة العمياء، وثارت عليه، ونهبوا داره، وخرج إلى قرطبة.

وكان في أحد أيام الجُمَعِ قاعدًا ينتظر الصّلاة، فإذا بغلام رومي وَضِيء قد جاء يخترق الصفوف بشمعة في يده وكتاب مُعَتَّق، فقال: [السريع]

وشَمْعَةٍ تَحْمِلُها شَمْعَةٌ ... يكادُ يُخْفِي نُورُها نارَهَا
لولا نُهَى نَفْسٍ نَهَتْ غَيَّها ... لَقَبَّلتهُ وأَتَتْ عارَها

ولَمَّا سمعها أبو عمران الزاهد قال: إنه لم يكن يفعل، ولكنه هَزَّتْه أريحيةُ الأدب ولو كنت أنا لقلتُ: [البسيط]

لولا الحياءُ وخَوْفُ الله يمنعُني ... وأنّ يقالَ صَبَا موسى على كِبَرِه
إذًا لَمَتَّعْتُ لحظي في نواظِرِه ... حتى أُوَفِّي جفوني الحقَّ مِنْ نَظَرِهْ

رجع إلى أخبار ابن العربي ـ فنقول: إنه سمع بالأندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني وأبا عبد الله السَّرَقُسْطي، وببجاية أبا عبد الله الكُلَاعي، وبالمهديّة أبا الحسن بن الحداد الخَولاني، وسمع بالإسكندرية من الأنماطي، وبمصر من أبي الحسن الخلعي

---

(١) في طبعة دار صادر: «عليه أحد من...».
(٢) هكذا ورد البيتان في المغرب.
(٣) هو محمد بن الوليد من محمد بن خلف الفهري الطرطوشي؛ أهله من طرطوشة، وكان فقيهًا ورعًا متقشفًا، توفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ. الصلة (ص ٨٣٨) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٢) والمغرب (ج ٢ ص ٤٢٤) وبغية الملتمس (ص ١٣٥) وسيترجم له المقري ترجمة وافية في هذا الجزء.
(٤) في طبعة دار صادر: «فيها».

وغيره، وبدمشق غيرَ واحدٍ كأبي الفتح نصر المقدسي، وبمكّة أبا عبد الله الحسين الطبري وابن طلحة وابن بُنْدَار، وقرأ الأدب على التبريزي، وعمل، رحمه الله تعالى، على مدينة إشبيلية سورًا بالحجارة والآجر بالنورة من ماله. وكان ـ كما في الصلة[١] ـ حريصًا على آدابها وسيرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها، ويجمع إلى ذلك كلّه آداب الأخلاق، مع حُسْن المعاشرة، ولين الكَنَفِ، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الودّ.

وذكره ابن بَشْكُوَال في الصلة وقال فيه[٢]: هو[٣] الإمام الحافظ، ختام علماء الأندلس، **رحل إلى المشرق مع أبيه مستهلَّ ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، ودخل** الشام والعراق وبغداد، وسمع بها من كبار العلماء، ثم حَجَّ في سنة تسع وثمانين، وعاد إلى بغداد، ثم صدر منها.

وقال ابن عساكر: خرج من دمشق راجعًا إلى مقرّه سنة ٤٩١، ولما غَرَّبَ[٤] صَنَّف «عارضة الأحوذي» ولقي بمصر والإسكندرية جملةً من العلماء، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إشبيلية بعلم كثير، وكان موصوفًا بالفضل والكمال، ووُلي القضاء بإشبيلية، ثم صُرف عنه، ومولده ليلة الخميس لثمانٍ بَقِينَ من شعبان سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة، وتوفي بمغيلة بمقربة[٥] من مدينة فاس، ودُفِنَ بفاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخّصًا.

وما وفى ابن سعيد حافظَ الإسلام أبا بكر بن العربي حَقَّه، فلنعزِّزْه بما حَضَرَنا من التعريف به، فنقول: إنه لقي ببغداد الشاشي الإمام[٦] أبا بكر والإمام أبا حامد الطوسي الغزالي، ونقل عنه أنه قال: كل من رحل لم يأتِ بمثل ما أتيت به من العلم إلاَّ الباجي، أو

---

(١) في طبعة دار صادر: «في الصلة ـ [مقدّمًا في المعارف كلها] حريصًا...».

(٢) هنا ينقل عن الصلة (ص ٨٥٦) باختصار.

(٣) كلمة «هو» غير واردة في طبعة دار صادر.

(٤) أي لمّا عاد إلى الغرب، أي وهو في طريقه إلى الغرب.

(٥) في طبعة بولاق: «بمقيلة بمقبرة من...».

(٦) كلمة «الإمام» غير واردة في طبعة دار صادر. وفي طبعة بولاق: «والإمام». وفي طبعة ليدن: «الشاشي أبا بكر...».

كلامًا هذا معناه، وكان من أهل التفنّن في العلوم، متقدّمًا في المعارف كلّها، متكلّمًا على أنواعها، حريصًا على نَشْرها، وقام بأمر القضاء أحمدَ قيام، مع الصرامة في الحق، والقوّة والشدّة على الظالمين، والرفق بالمساكين، وقد رُوِيَ عنه أنه أَمَرَ بثَقْب أشداق زَامرٍ، ثم صُرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبَثّه، وقرأ عليه الحافظ ابن بَشْكوال بإشبيلية.

وقال ابن الأبَّار[1]: إن الإمام الزّاهد أبا عبد اللّه بن مجاهد الإشبيلي لازم القاضي ابن العربي نحوًا من ثلاثة أشهر، ثم تخلّف عنه، فقيل له في ذلك، فقال: كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان، انتهى.

وذكره ابن الزبير في صلته[2]، وقال: إنّه رحل مع أبيه أبي محمد عند انقراض الدولة العَبَّادِية[3]، وسنه نحو سبعة عشر عامًا، إلى أن قال: وقيد الحديث، وضبط ما روى، واتّسع في الرواية. وأَتْقَنَ مسائل الخلاف والأصول والكلام على أئمّة هذا الشأن، ومات أبوه - رحمه اللّه تعالى! - بالإسكندرية أوّل سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ إلى إشبيلية، فسكنها وشُوورِ فيها، وسمع ودرّس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنّف في غير فنّ تصانيفَ مليحة حسنة مفيدة، ووُلّي القضاء مدّة أوّلُها في رجب من سنة ثمان وعشرين، فنفع اللّه تعالى به لصَرَامته ونفوذ أحكامه، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أُوْذِي في ذلك بذَهَاب كتبه وماله، فأَحْسَنَ الصبرَ على ذلك كلّه، ثمّ صُرِفَ عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبَثّه، وكان فصيحًا، حافظًا، أديبًا، شاعرًا، كثير الملح، مليح المجلس.

ثم قال: قال القاضي عِيَاض - بعد أن وصفه بما ذكرته -: ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثرَ الناسُ فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحِّدين مدينة إشبيلية، فحبسوا بمراكش نحو عام، ثم سرحوا، فأدركته منيّته، وروى عنه خلق كثير، منهم القاضي عياض وأبو جعفر بن الباذَش وجماعة، انتهى ملخّصًا.

---

(١) انظر تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٠٦) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ٦٣).

(٢) انظر المصدرين السابقين، إضافة إلى الصلة (ص ٨٥٦).

(٣) انقرضت الدولة العبادية بإشبيلية على أيدي المرابطين سنة ٤٨٤ هـ، وفي الصلة أن ابن العربي رحل مع أبيه في مستهل ربيع الأول من سنة ٤٨٥ هـ.

ووقع في عبارة ابن الزبير تبعًا لجماعة أنه دُفن خارج باب الجَيسَة بفاس، والصواب خارج باب المحروق، كما أشبعت الكلام على ذلك في «أزهار الرياض»[1] وقد زُرْتُه مرارًا، وقبره هنالك مقصود للزيارة خارج القصبة، وقد صرّح بذلك بعضُ المتقدّمين الذين حَضَروا وفاته، وقال: إنه دُفِن بتربة القائد مظفر خارج القصبة، وصلّى عليه صاحبه أبو الحَكَم بن حجاج، رحمه اللّه تعالى!.

ومن بديع نظمه[2]: [المتقارب]

أتتني تؤنّبني بالبُكاء[3] ... فأهْلاً بها وبتأنيبها
تقولُ وفي نَفْسِها حَسْرةٌ: ... أتَبْكِي بعينٍ تراني بها؟
فقلْتُ: إذا اسْتَحْسَنَتْ غيرَكُمْ ... أَمَرْتُ جفوني بتعذيبها!

وقال رحمه اللّه تعالى: دخل عليَّ الأديبُ ابن صارة وبين يديَّ نارٌ علاها رماد، فقلت له: قل في هذه، فقال: [الكامل]

شابَتْ نواصي النار بَعْدَ سَوَادها ... وتَسَتَّرَتْ عنا بثَوبِ رمادِ

ثم قال لي: أجز، فقلت: [الكامل]

شابت كما شِبْنَا وزال شَبَابُنَا ... فكأنما كُنَّا على مِيعادِ

وقد اختلف حُذّاق الأدباء في قوله: «ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالث»[4] ما هو الثاني والثالث؟ فقيل: القَدُّ واللَّحْظ، وقيل غير ذلك.

ولَمَّا ذَكَرَ، رحمه اللّه تعالى، في كتابه «قانون التأويل» رُكُوبَه البحر في رحلته من إفريقية قال[5]: وقد سبق في عِلم اللّه تعالى أن يعظِّمَ علينا البحر بِزَوْلِهِ[6]، ويغرقَنا في هَوله، فخرجْنا من البحر خروج المَيِّت من القبر، وانتهينا بعد خَطْب طويل إلى بيوت بني

---

(١) أزهار الرياض (ج ٣ ص ٦٥، ٨٧ - ٨٨).
(٢) المصدر نفسه (ص ٨٨).
(٣) في طبعة دار صادر: «بالبكا».
(٤) هو عجز البيت الذي قاله ابن العربي في أحد أمراء الملثمين، وقد تقدّم في هذا الجزء (ص ٢٤٦).
(٥) النص في أزهار الرياض (ج ٣ ص ٨٩ - ٩١).
(٦) الزَّولُ: العَجَبُ. محيط المحيط (زول).

كعب بن سُليم، ونحن من السَّغَب[1]، على عَطَب، ومن العُرْي، في أقبح زيّ، قد قذف البحر زِقَاق زيت مَزَّقَتِ الحجارةُ هيئتها[2]، ودَسَّمَتِ الأدهانُ وَبَرَهَا وجلدتها، فاحتزمناها أُزُرًا، واشتملْناها لِفافًا[3]، تمجُّنا الأبصار، وتخْذُلُنَا الأنصار، فعطف أميرهم علينا فأوَينَا إليه فآوانا، وأطعمنا اللَّه تعالى على يديه وسقانا، وأكرم مَثْوَانا، وكسانا بأمر حقير ضعيف، وفنّ من العلم طريف، وشرحُه أنَّا لَمَّا وقفْنا على بابه ألفيْناه يدبِّرُ أعواد الشاه[4]، فِعْلَ الساهد اللاّه، فدنوتُ منه في تلك الأطمار، وسمح لي بياذقته[5] إذ كنت من الصغر في حَدٍّ يُسْمَحُ فيه للأغمار، ووقفْتُ بإزائهم، أنظرُ إلى تصرّفهم مِنْ ورائهم، إذ كان عَلِقَ بنفسي بعضُ ذلك من بعض القرابة في خُلَس البِطالة، مع غلبة الصَّبْوة والجهالة، فقلت للبياذقة: الأمير أعلم من صاحبه، فلمحوني شَزْرًا، وعظمْتُ في أعينهم بعد أن كنتُ نَزْرا، وتقدّم إلى الأمير مَنْ نَقَلَ إليه الكلام، فاستدناني، فدنوتُ منه، وسألني: هل لي بما هم فيه بَصَر؟ فقلت: لي فيه بعض نظر، سيبدو لك ويظهر، حرِّك تلك القطعة، ففعل[6] كما أشرت وعارضه صاحبه، فأمرْتُه أنْ يُحَرِّكَ أخرى، وما زالت الحركات بينهم كذلك تَتْرَى، حتى هزمهم الأمير، وانقطع التدبير، فقالوا: ما أنت بصغير، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنّم ابنُ عمّ الأمير منشدًا[7]: [الطويل]

وأحْلَى الْهَوَى ما شكَّ في الوَصْلِ رَبُّه ... وفي الهَجْرِ فَهْوَ الدَّهْرَ يَرْجُو ويَتَّقِي[8]

فقال: لعن اللَّه أبا الطَّيِّب! أَوَيَشكُّ الربُّ؟ فقلت له في الحال: ليس كما ظَنَّ صاحبُك أيها الأمير، إنما أراد بالربِّ ههنا الصاحب، يقول: ألَذّ الهوى ما كان المُحِبُّ فيه

---

(١) السَّغَبُ، بفتح السين والغين: الجوع. مختار الصحاح (سغب).

(٢) في طبعتي عبد الحميد ودار صادر: «منيئها». والمنيئة: الجلد أول ما يُدْبَغُ. محيط المحيط (منأ).

(٣) في أزهار الرياض: «لفعًا».

(٤) يريد أنه يلعب الشطرنج.

(٥) البيادقة: جمع بَيْذَق وهو الدليل في السفر. محيط المحيط (بيذق).

(٦) في طبعة دار صادر: «ففعل وعارضه. . .».

(٧) البيت للمتنبي من قصيدة من ٤٣ بيتًا. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٣٥٨).

(٨) ربُّه: صاحبه. الدهر: ظرف زمان. يقول: أعذب الهوى ما كان صاحبه واقفًا موقف الشكّ بين رجاء الوصل وخوف الهجر.

من الوصال، وبلوغ الغرض من[1] الآمال، على رَيب، فهو في وقته كلّه على رجاء لِمَا يؤمّله، وتُقَاة[2] لِمَا يقع به، كما قال[3]: [الطويل]

إذا لم يكن في الحُبِّ سُخْط ولا رِضًا   فأينَ حَلاواتُ الرسائلِ والكُتْبِ

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض، في طَرَفَي إبرام وانتقاض[4]، ما حرّك منهم إلى جهتي دواعي الانتهاض، وأقبلوا يتعجّبون مني ويسألونني كم سنّي، ويستكشفونني، فَبَقَرْتُ[5] لهم حديثي، وذكرْتُ لهم نَجِيثي[6]، وأعلمت الأمير بأن أبي معي، فاستدعاه، وقُمْنا الثلاثة إلى مَثْوَاه، فخلع علينا خِلَعَهُ، وأسبل علينا أدمعه، وجاء كل خِوَان، بأفنان وألوان[7].

ثم قال بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه: فانظر إلى هذا العلم الذي هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصُّبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذا من العطب؟ وهذا الذكر يرشدكم إنْ عقلتم إلى المطلب، وسرّنا حتى انتهينا إلى ديار مصر، انتهى مختصرًا.

والزَّولُ: العجب، ونجيث الخبر: ما ظهر من قبيحه؛ يقال: بَدَا نجيثُ القوم، إذا ظهر سرّهم الذي كانوا يخفونه، قالهما الجوهري.

وذكر ـ رحمه اللّه تعالى ـ! في رحلته عجائب: منها: أنه حكى في[8] دخوله بدمشق بيوت بعض الأكابر أنه رأى فيها النهر جاريًا[9] إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى، فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبِلِ إلينا، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا، فلما فرغْنا ألقى الخدم الأوانيَ وما معها في النهر الراجع،

---

(١) في طبعة ليدن: «والآمال».

(٢) التقاه هنا بمعنى الخوف والحذر. لسان العرب (وقى).

(٣) لم يرد هذا البيت في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب.

(٤) في طبعة دار صادر: «الإبرام والانتقاض».

(٥) بَقَرتُ لهم حديثي: فَتَحْتُه وكَشَفْتُه. لسان العرب (بقر).

(٦) النجيث: السّرّ الخفيّ. محيط المحيط (نجث).

(٧) في طبعة دار صادر: «بأفنان الألوان».

(٨) في طبعة دار صادر: «حكى دخوله».

(٩) في طبعة دار صادر: «جائيًا».

فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية، فعلمْتُ السِّرّ، وإن هذا لعجيب، انتهى بمعناه.

وقال في «قانون التأويل»[1]: وَرَدَ علينا دَانَشْمَنْد[2] ـ يعني الغزالي ـ فنزل برباط أبي سعيد[3] بإزاء المدرسة النظامية، مُعْرِضًا عن الدنيا، مُقْبلاً على اللّه تعالى، فمشينا إليه، وعرضْنا أُمْنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضالَّتُنَا التي كنّا نُنْشد، وإمامُنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدْنا منه ما كان فوق الصّفة، وتحقَّقْنا أنَّ الذي نُقِل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم، ولو رآه عليُّ بن العباس[4] لما قال: [المتقارب]

إذا ما مَدَحْتَ امْرأً غائبًا ... فلا تَغْلُ في مَدْحِه واقْصِدِ
فإنّك إنْ تَغْلُ تَغْلُ الظنون ... فيه إلى الأمَد الأبْعَدِ
فيَصْغُرُ مِنْ حَيثُ عَظَّمْته ... لفَضْلِ المَغيبِ على المَشْهَدِ

وكنت نقلت من المطمح في حقه ما صورته[5]: الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربي[6] علم الأعلام والطاهر الأثواب، الباهر الألباب، الذي أنسى ذكاء إياس[7]، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في يد الإسلام أمضى من النَّصْل، سقى اللّه تعالى به الأندلس بعدما أجدبت من المعارف، ومدّ عليها منه الظلَّ الوارف، وكساها رَونَقَ نُبْله، وسقاها رَيِّقَ وَبْله، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرًا في فَلَكَها، وصَدْرًا في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عَبّاد، اصطفاء المأمون لابن أبي دُوَاد[8]، وولاّه الولايات الشريفة، وبَوَّأه المراتب المنيفة، فلمّا أقفرتْ حمص[9] من ملكهم وخَلَتْ، وألقتهم منها وتَخَلّتْ،

(١) النص في أزهار الرياض (ج ٣ ص ٩١).

(٢) في طبعة دار صادر: «دانشمند»، وكلاهما بمعنى، وهو الحكيم العلاّمة.

(٣) سيرد (ص ٢٦١) في هذا الجزء من نفح الطيب: رباط أبي سعيد.

(٤) علي بن العباس هو ابن الرومي الشاعر المشهور.

(٥) مطمح الأنفس (ص ٦٢). والنص أيضًا في أزهار الرياض (ج ٣ ص ٩٢).

(٦) عبارة: «الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربي» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٧) هو إياس بن معاوية بن قُرَّة بن إياس المزنيّ، قاضي البصرة الذي يضرب بذكائه المثل، وقد توفي سنة ١٢٢ هـ. الكامل في التاريخ (ج ٥ ص ١٧٥، ٢٤٩).

(٨) المأمون: هو المأمون بن هارون الرشيد. وابن أبي دؤاد: هو القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي، توفي ببغداد سنة ٢٤٠ هـ. وفيات الأعيان (ج ١ ص ٨١).

(٩) حمص: هي مدينة إشبيلية عاصمة بني عباد، وقد كانوا يشبهونها بحمص في نثرهم وشعرهم.

رحَلَ به إلى المشرق، وحلّ فيه محلَّ الخائف الفَرِق، فجال في أكنافه، وأجال قِدَاح الرجاء في استقبال العِزّ واستئنافه، فلم يستردَّ ذاهبًا، ولم يَجِدْ كمعتمده باذلاً وواهبًا، فعاد إلى الرواية والسماع، وما استفاد من آمال تلك الأطماع، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قَضيبٌ ما دَوَّحَ(١)، وفي روض الشباب زهرٌ ما صَوَّحَ(٢)، فألزمه مجالس العلم رائحًا وغاديًا، ولازمه سائقًا إليها وحاديًا، حتى استقرَّتْ به مجالسه، واطَّردتْ له مَقَايسه، فجدَّ في طلبه، واستجدَّ به أبوه متمزّق أربه، ثم أدركه حِمَامَه، ووارتْهُ هناك رِجَامه(٣)، وبقي أبو بكر متفرّدًا، وللطلب متحرّدًا(٤)، حتى أصبح في العلم وحيدًا، ولم تجد عنه رياسته مَحِيدًا، فكرَّ إلى الأندلس فحلَّها والنفوسُ إليه متطلّعة، ولأنبائه متسمّعة، فناهيك مِنْ حُظْوَة لقي، ومِنْ عِزّةٍ سُقِي، ومِنْ رفعة سما إليها ورَقِي، وحسبك من مفاخر قَلَّدها، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخَلَّدها، وقد أثبتُّ من بديع نظمه ما يهزّ أعطافًا، وترده الأفهام نِطافًا(٥)، فمن ذلك قوله يتشوّق إلى بغداد، ويخاطب فيها أهل الوداد: [الطويل]

أمِنْكِ سَرَى والليلُ يُخْدَعُ بالفَجْرِ ... خيالُ حبيبٍ قد حَوَى قَصَبَ الْفَخْرِ؟
جَلا ظُلَمَ الظَّلْماءِ مَشْرِقُ نورِهِ ... ولم يَخْبِط الظلماء بالأنجم الزُّهْرِ
ولم يَرْضَ بالأرضِ البسيطةِ مَسْحَبًا ... فسار على الْجَوزَا إلى فَلَكٍ يجري
وحَثَّ مطايا قد مَطَاهَا بِعِزِّه(٦) ... فأوطأها قَسْرًا على قُنَّةِ النَّسْرِ
فصارت ثِقَالاً بالجَلالة فَوقَهَا ... وسارتْ عِجالاً تتَّقِي ألم الزَّجْرِ
وجَرَّتْ على ذَيْل المَجَرَّةِ ذَيلَهَا ... فمن ثَمَّ يبدو ما هُنَاك لمن يَسْرِي
ومرَّتْ على الجَوزَاء تُوضِعُ فوقَهَا ... فآثارُ ما مَرَّتْ به كَلَفُ البَدْرِ
وساقَتْ أريجَ الخلد مِنْ جَنَّة العُلا ... فدَعْ عنك رَمْلاً بالأُنَيعِم يَسْتَذْرِي

---

(١) ما دَوَّح: أي لم يصر دوحة بعد؛ يقال: دَوَّحَتِ الشجرةُ إذا عظمت، والدوحة هي الشجرة العظيمة. محيط المحيط (دوح).
(٢) صَوَّحَ: يَبِسَ أعلاه. محيط المحيط (صوح).
(٣) الرِّجام: حجارة ضِخام تجمع على القبر لِيُسَنَّم. مختار الصحاح (رجم). وهو تكون جمع رَجَم بفتحتين وهو القبر. محيط المحيط (رجم).
(٤) في طبعة دار صادر: «متجردًا».
(٥) النِّطاف: جمع نُطفة وهي الماء الصافي. مختار الصحاح (نطف).
(٦) في طبعة دار صادر: بعزّة».

فمــا حَــذِرَتْ قَيْسًــا ولا خَيْــلَ عَــامِــرٍ ولا أضْمَــرَتْ خَــوفًــا لِقَــاءَ بَني ضَمْــرِ
سـقى الـلَّهُ مـصـرًا والـعـراقَ وأهـلَهَـا وبـغـداذَ والشـامَـين مـنهـمـلَ القَـطْرِ

انــتهــى[1].

ومن تـآليف[2] الحافظ أبي بكـر بن العربي المـذكور كتـاب «القبس، في شرح موطّأ مالك بن أنس» وكتاب «ترتيب المسالك، في شرح موطّأ مالك» وكتاب «أنوار الفجر» وكتـاب «أحكام القرآن» وكتاب «عارضـة الأحْوَذِيُّ، في شـرح الترمـذي» والأحوذي ـ بفتـح الهمزة، وسكـون الحاء المهملة، وفتـح الواو، وكسـر الذال المعجمـة، وآخره يـاء مُشـدّدة. وكتـاب «مراقي الزُّلَف» وكتـاب «الخلافيـات» وكتاب «نـواهي الدواهي» وكتـاب «سراج المـريدين» وكتاب «المشكلين: مشكل الكتاب[3] والسنّة» وكتاب «الناسخ والمنسوخ في القـرآن» وكتاب «قانون التـأويل» وكتـاب «النَّيِّرَين في الصحيحين» وكتـاب «سراج المهتـدين» وكتاب «الأمـد الأقصى، بـأسمـاء اللَّه الحسنى وصفـاتـه العـلا» وكتـاب «في الكـلام على مشكـل حـديث السُبحات والحجاب»، وكتاب «العقد الأكبر، للقلب الأصغر» و«تبيين الصحيـح، في تعيين الذبيح» و«تفصيل التفضيل، بين التحميـد والتهليل» ورسـالة «الكـافي، في أن لا دليل على النـافي» وكتاب «السبـاعيات» وكتـاب «المسلسـلات» وكتـاب «المتـوسّط في معـرفـة صحّـة الاعتقاد، والرَّدِّ على من خـالف أهل السنّـة من ذوي البِدَع والإلحـاد» وكتاب «شـرح غريب الرسالة» وكتاب «الإنصاف، في مسـائـل الخلاف» عشـرون مجلدًا، وكتاب «حـديث الإفك» وكتاب «شرح حديث جابر في الشفاعة» وكتاب «شرح «حديث أُمِّ زَرْع» وكتاب «ستر العورة» وكتـاب «المحصول، في علم الأصـول» وكتاب «أعيـان الأعيان» وكتـاب «ملجاة المتفقّهين، إلى معرفة غوامض النحويين» وكتاب «ترتيب الرحلة» وفيه من الفوائد ما لا يوصف.

ومن فوائد القاضي أبي بكر بن العربي رحمه اللَّه تعالى قوله[4]: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث إلاّ كان على وَجْهه نَضْـرَة[5]، لقول النبيّ، ﷺ: «نَضَّـرَ اللَّهُ آمْرَأً سمع مقالتي فوَعَاها فأدَّاها كما سمعها ـ الحديث».

(١) كلمة «انتهى» لم ترد في طبعة عبد الحميد.
(٢) عدّ المقري في كتابه أزهار الرياض (ج ٣ ص ٩٤ ـ ٩٥) مؤلفات ابن العربي؛ وسقط فيه بعض ما ذكره هنا.
(٣) في طبعة دار صادر: «مشكل القرآن والسّنّة».
(٤) القول في أزهار الرياض (ج ٣ ص٩٥)
(٥) النَّضْرَةُ: الحُسْن والرَّوْنَق. مختار الصحاح (نضر).

قال: وهذا دعاء منّه عليه الصلاة والسلام لحملة علمه، ولا بدَّ بفضل اللّه تعالى من نيل بركته، انتهى.

وإلى هذه النَّضْرَة أشار أبو العباس الْعَزْفي بقوله: [الكامل]

أهـلُ الحـديثِ عِصَـابـةُ الحقِّ ... فـازُوا بـدَعْـوَةِ سَيِّـدِ الْخَـلقِ
فـوُجُـوهُـهُـمْ زُهْـرٌ مُـنَـضَّـرَةٌ ... لألاؤهـا كـتـألُّـقِ الـبَـرْق
يـا لَـيتَنِي مَـعَـهُـمْ فـيُـدْرِكَنِي ... مـا أدركـوه بـهـا مِنَ الـسَّبْـقِ

انـتـهـى[١].

ولا بأس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبي بكر بن العربي رحمه اللّه تعالى: فمنها قوله في تصريف المحصّنات: يقال: أحْصَنَ الرجلُ فهو مُحْصَنٌ - بفتح العين في اسم الفاعلِ - وأسْهَبَ في الكلام فهو مُسْهَبٌ، إذا أطال البحث فيه، وألفج فهو مُلْفَجٌ، إذا كان عديمًا، لا رابع لها، واللّه تعالى أعلم، انتهى.

ومنها قوله: سمعْتُ الشيخ فخر الإسلام أبا بكر الشاشي وهو ينتصر لمذهب أبي حنيفة في مجلس النظر يقول: يقال في اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا - بفتح الراء - أي لا تتلبّس بالفعل، وإذا كان بضمّ الراء كان معناه لا تَدْنُ من الموضع، وهذا الذي قاله صحيح مسموع. انتهى.

ومنها قوله: شاهدْتُ المائدة بطُورُزَيتا[٢] مرارًا، وأكلْتُ عليها ليلاً ونهارًا، وذكرْتُ الله سبحانه فيها سرًّا وجهارًا، وكان ارتفاعها أشفَّ[٣] من القامة بنحو الشبر، وكان لها دَرَجان قبليّ وجنوبي[٤]، وكانت صخرة صَلُودًا لا تؤثر المعاول، وكان الناسُ يقولون: مسخت صخرة إذ مسخ أربابها قردة وخنازير، والذي عندي أنها كانت صخرة في الأصل قطعت من الأرض محلاً للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفًا

---

(١) كلمة «انتهى» لم ترد في طبعة عبد الحميد.
(٢) طُورُ زَيتا: اسم جبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور، على رأسه شجر زيتون يسقيه المطر ولذلك سمي بطور زيتا. معجم البلدان (ج ٤ ص ٤٧).
(٣) أشَفُّ: أَزْيَدُ أو أقلُّ، وهي من الألفاظ التي تحمل معنيين متناقضين. لسان العرب (شفف).
(٤) في طبعة دار صادر: «وكان لها درجتان قبليًّا وجنوبيًّا...».

بقصور، وقد نُحِتَتْ في ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها، مقطوعة فيها، وحناياها في جوانبها، وبيوت خدمتها قد صُوِّرَتْ من الحجر كما تُصوّر من الطين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثقل[1] ثمن درهم لم يفتحه أهل الأرض لِلُصوقه بالأرض، وإذا هَبَّتِ الريحُ وحَثَتْ تحته التراب لم يُفْتح إلاّ بعد صبِّ الماء تحته والإكثار منه حتى يسيل بالتراب، وينفرج مُنْفَرَجُ الباب، وقد بار[2] بها قومٌ بهذه العلّة، وقد كنت أخلو فيها كثيرًا للدرس، ولكنّي كنت في كل حين أكنس حول الباب، مخافة ممّا جَرَى لغيري فيها، وقد شرحت أمرها في كتاب «ترتيب الرحلة» بأكثر من هذا، انتهى.

ومنها قوله رحمه الله تعالى: تذاكرْتُ بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفِهْري الطرطوشي حديثَ أبي ثعلبة المرفوع «إنَّ من ورائكم أيامًا للعامل فيها أجر خمسين منكم» فقالوا: بل منهم، فقال: «بل منكم؛ لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم لا يجدون عليه أعوانًا»[3] وتفاوضْنا كيف يكون أجر مَنْ يأتي مِنَ الأمّة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسَّسوا الإسلام، وعضدوا في الدين، وأقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البَيْضة، ومَهَّدوا الملّة، وقد قال، ﷺ، في الصحيح: «لو أنفقَ أحَدُكم كلَّ يوم مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه» فتراجعْنا القولَ، وتحصَّل ما أوضحناه في شرح الصحيح، وخلاصته: أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يُدَانيهم فيها بَشَر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر مَنْ أخلص إخلاصهم، وخلّصها من شوائب البِدَع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بابٌ عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضًا انتهاؤه، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام، صَعْب المرام، لغلبة الكُفّار على الحقِّ، وفي آخر الزمان أيضًا يعود كذلك، لوعد الصادق، ﷺ، بفَساد الزمان، وظهور الفتن، وغلبة الباطل، واستيلاء التبديل والتغيير على الحقِّ من الخلق، وركوب مَنْ يأتي سَنَن مَنْ مَضَى من أهل الكتاب، كما قال، ﷺ: «لتركَبُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍّ خربٍ لدخلتموه» وقال، ﷺ: «بدأ

---

(١) كلمة «ثقل» غير واردة في طبعة دار صادر.

(٢) بار: هلك. لسان العرب (بور).

(٣) الحديث في مجمع الزوائد (ج ٧ ص ٢٨٢).

الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ»[1] فلا بدّ، والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق، أن يرجع الإسلام إلى واحد، كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه[2] بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى في الدّعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكّنًا منه مُعانًا عليه بكثرة الدُّعَاة إلى الله تعالى، وذلك قوله: «لأنّكم تجدون على الخير أعوانًا وهم لا يجدون عليه أعوانًا» حتى ينقطع ذلك انقطاعًا باتًّا لضعف اليقين وقلّة الدّين، كما قال، ﷺ: «لا تقوم السّاعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»[3] يروى برفع الهاء ونصبها، فالرفع على معنى لا يبقى موحّد يذكر الله، عَزَّ وجَلَّ، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناهٍ عن المنكر[4] يقول: أخاف الله، وحينئذ يتمنّى العاقلُ الموتَ، كما قال، ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمرَّ الرجلُ بقبر الرجل فيقول: يا ليتني كنت مكانه»[5] انتهى.

وأنشد رحمه الله تعالى لبعض الصوفية: [السريع]

امتَحَنَ اللَّهُ بِذَا خَلْقَهُ ... فالنارُ والجنة في قَبْضَتِهْ
فَهَجْرُهُ أعظمُ مِنْ نارِه ... وَوَصْلُه أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهْ

ومن فوائد ابن العربي رحمه الله تعالى أنه قال: كنت بمجلس الوزير العادل أبي منصور بن جَهِير على رتبة بَيَّنّاها في كتاب «الرحلة، للترغيب في الملّة» فقرأ القارىء ﴿ تحيَّتُهم يومَ يَلْقَونَهُ سلامٌ ﴾[6] وكنت في الصف الثاني من الحلقة بظهر أبي الوفاء علي بن عقيل[7] إمام الحنبلية بمدينة السلام، وكان معتزلي الأصول، فلما سمعتُ الآية قلت لصاحبٍ لي كان يجلس على يساري: هذه الآية دليل على رؤية الله في الآخرة: فإن العرب لا تقول «لقيت فلانًا» إلاّ إذا رأته، فصرف وجهه أبو الوفاء مُسْرِعًا إلينا، وقال ينتصر لمذهب

---

(١) انظر مجمع الزوائد (ج ٧ ص ٢٧٧ - ٢٧٩).
(٢) احتواشه بالمخاوف: إحاطته بالمخاوف. لسان العرب (حوش).
(٣) مجمع الزوائد (ج ٨ ص ١٢).
(٤) في طبعة دار صادر: «منكر».
(٥) صحيح مسلم (ج ٢ ص ٣٧٨) ومجمع الزوائد (ج ٧ ص ٢٨٢).
(٦) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٤٤.
(٧) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي؛ واعظ متكلم أصولي، توفي سنة ٥١٣ هـ. الذيل على طبقات الحنابلة (ج ١ ص ١٤٢).

الاعتزال في أن اللّه تعالى لا يُرَى في الآخرة: فقد قال اللّهُ تعالى: ﴿ فأَعْقَبَهُمْ نِفاقًا في قُلُوبِهِمْ إلى يوم يَلْقَونَه ﴾[1] وعندك أنَّ المنافقين لا يرون اللّه تعالى في الآخرة، وقد شَرَحْنا وَجْهَ الآية في المشكلين، وتقدير الآية: فأعقبهم هو نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه، فيحتمل ضمير يلقونه أن يعود إلى ضمير الفاعل في (أعقبهم) المقدّر بقولنا هو، ويحتمل أن يعود إلى النفاق مجازاً على تقدير الجزاء، انتهى.

ومنها ما نقله عن ابن عبّاس، رضي اللّه تعالى عنهما «لا يقل أحدكم انصرفْنا من الصلاة» فإنَّ قومًا قيل فيهم ﴿ ثم انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّهُ قلوبَهُمْ ﴾[2] وقد أنبأنا[3] محمد ابن عبد الملك القَيسي الواعظ، أنبأنا[3] أبو الفضل الجوهري سماعًا منه: كُنَّا في جنازة فقال المنذر بها: انصرفوا رحمكم اللّه تعالى، فقال: لا يقل أحدكم انصرفوا فإن اللّه تعالى قال في قومٍ ذمَّهم ﴿ ثم انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ولكن قولوا: انْقَلِبُوا رحمكم اللّه، فإنَّ اللّه تعالى قال في قوم مدحهم: ﴿ فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوء ﴾[4] انتهى.

ومنها، وقد ذكر الخلاف في شاهد يوسف، ما صورته: فإذا قلْنا إنه القميص، فكان يَصِحُّ من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقدّم مقاله، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال في بعض الأمور، وقد تُضِيف العرب الكلام إلى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات، ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد: لِمَ تَشقُّني؟ قال: سَلْ مَنْ يَدُقُّني، ما يتركني ورائي[5]، هذا الذي ورائي، لكن قوله تعالى بعد ذلك ﴿ مِنْ أهلها ﴾[6] في صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص، وأمَّا مَنْ قال إنه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فإنه يحتمل، لكن قوله: ﴿ مِنْ أَهْلِها ﴾ يُعْطي اختصاصها من جهة القرابة، انتهى.

---

(١) سورة التوبة ٩، الآية ٧٧.

(٢) سورة التوبة ٩، الآية ١٢٧.

(٣) في طبعة دار صادر: «وقد أخبرنا».

(٤) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٤.

(٥) أي: ما يتركني ورأيي.

(٦) سورة يوسف ١٢، الآية ٢٦.

ومنها قوله: إنه كان بمدينة السلام إمامٌ من الصوفية وأيّ إمام، يُعْرَفُ بابن عطاء، فتكلّم يومًا على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته ممّا نسب[1] إليه من مكروه، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال: يا شيخ، يا سيدنا، فإذن يوسف هَمَّ وما تَمَّ، فقال: نعم؛ لأن العناية من ثَمَّ، فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلّم وفطنة العامي في سؤاله، والعالم في اختصاره واستيفائه، ولذا قال علماؤنا الصوفية: إنَّ فائدة قوله تعالى: ﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا ﴾[2] أن اللّه تعالى أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سببًا للعصمة، انتهى.

ومنها قوله: كنت بمكّة مقيمًا في ذي الحجّة سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكنت أشرب من[3] ماء زمزم كثيرًا، وكلّ ما شربْتُه نويتُ به العلم والإيمان، ففتح اللّه تعالى لي ببركته في المقدار الذي يَسَّرَه لي من العلم، ونسيتُ أن أشربه للعمل، ويا ليتني شربْتُه لهما، حتى يفتح اللّه تعالى لي فيهما، ولم يُقَدَّر فكان صَغْوي[4] للعلم أكثر منه للعمل، وأسأل اللّه تعالى الحفظ والتوفيق برحمته.

ومنها قوله: سمعْتُ إمام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء علي بن عقيل يقول: إنّما تبع الولد الأم في المالية وصار بحكمها في الرقّ والحريّة؛ لأنه انفصل عن الأب نُطْفة لا قيمة له، ولا مالية فيه، ولا منفعة مبتوتة[5] عليه، وإنّما اكتسب ما اكتسب بها ومنها، فلذلك تبعها، كما لو أكل رجل تمرًا في أرض رجل وسقطت منه نواة في الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمّة، لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها، وهذه من البدائع، انتهى.

ومنها قوله: ومن نوادر الفضل الجوهري ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ وغيره أنه كان يقول: إذا أُمْسِكَتْ علاقةُ الميزان بالإبهام والسّبابة، وارتفعت سائر الأصابع كان شكلها مقرّرًا[6] بقولك «اللّه»، فكأنها إشارة منه سبحانه في تيسير الوزن كذلك إلى أن اللّه سبحانه مُطَّلعٌ عليك، فاعدل في وزنك، انتهى.

---

(١) في طبعة دار صادر: «ينسب».

(٢) سورة يوسف ١٢، الآية ٢٢.

(٣) حرف «من» غير وارد في طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة عبد الحميد: «صَفْوي».

(٥) في طبعة دار صادر: «مبثوثة».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «مقروأ».

ومنها قوله: كان ابن الكازروني يأوي إلى المسجد الأقصى، ثم تَمَتَّعْنا به ثلاث سنوات، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى، عليه السلام، فَيُسْمِعُ من الطور، فلا يقدر أحد أن يصنع شيئًا دون قراءته، إلاَّ الإصغاء إليه، انتهى.

ومنها قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ في أيامٍ نَحِسَاتٍ ﴾[1] قيل: إنها كانت آخر شوال، من الأربعاء إلى الأربعاء، والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء لأجل هذه الرواية، حتى إنِّي لقيت يومًا مع خالي الحسن بن أبي حَفْص رجلاً من الكُتَّاب، فودَّعنا بنيّة السفر، فلما فارَقَنا قال لي خالي: إنك لا تراه أبدًا لأنه سافر في يوم أربعاء لا يتكرّر، وكذا كان، مات في سفره، وهذا ما لا أراه؛ لأنَّ يوم الأربعاء يوم عجيب، بما جاء في الحديث من الخلق فيه والترتيب، فإنَّ الحديث ثابت بأن اللَّه تعالى خلق يوم السبت التربة، ويوم الأحد الجبال، ويوم الاثنين الشجر، ويوم الثلاثاء المكروه، ويوم الأربعاء النور، وروي النون، وفي غريب الحديث أنه خلق يوم الأربعاء التِّقْنَ، وهو كل شيء تتّقن به الأشياء، يعني المعادن من الذهب والفضّة والنّحاس والحديد والرّصاص، فاليوم الذي خلق فيه المكروه لا يَعَافُه[2] الناس، واليوم الذي خلق فيه النور أو التِّقْنَ يعافونه، إن هذا لهو الجَهْل المبين!. وفي المغازي أن النبيَّ، ﷺ، دعا على الأحزاب من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء بين الظُّهْر والعصر، فاستُجيب له، وهي ساعة فاضلة، فالآثار الصِّحاح تدلّ على فضل هذا اليوم، فكيف يُدَّعى فيه التحذير والنّحس بأحاديث لا أصل لها، وقد صوّر قوم أيامًا من الأشهر الشمسية ادّعوا فيها الكراهية لا يحلّ لمسلم أن ينظر إليها ولا يشغل بها[3] بالاً، فحسبهم اللَّه، انتهى.

ومنها: وكان يقرأ معنا برباط أبي سعيد[4] على الإمام دانشمند من بلاد المغرب خنثى ليس له لِحْيَةٌ وله ثدْيان وعنده جارية، فربّك أعلم به، ومع طول الصحبة عَقَلَني الحياء عن سؤاله، وبودي اليوم لو كاشفْتُه عن حاله، انتهى.

---

(١) سورة فُصِّلَتْ ٤١، الآية ١٦.

(٢) يَعافُهُ: يكرهه. لسان العرب (عوف).

(٣) في طبعة دار صادر: «بالاً بها»، واللَّه حسبهم...».

(٤) الصواب: رباط أبي سعد كما تقدم (ص ٢٥٣) من هذا الجزء.

ومن شعر ابن العربيّ ممّا نسبه له الشيخ أبو حيّان قوله[1]: [مجزوء الرمل]

لَيتَ شِعْرِي هل دَرَوا أيَّ قَلْبٍ مَلَكُوا
وفُؤادي لو دَرَى أيَّ شِعْبٍ[2] سَلَكوا
أتراهُمْ سَلِمُوا أم تراهمْ هَلَكُوا
حارَ أربابُ الْهَوى في الْهَوَى وارْتَبَكُوا

ومن فؤاده: أخبرني المَهَرَة من السّحرة بأرض بابل أنه مَنْ كَتَبَ آخر آية من كلّ سورة ويعلّقها لم يبلغ إليه سحرنا، قال: هكذا قالوا، واللّه تعالى أعلم بما نقلوه.

وقال رحمه اللّه تعالى: حذقْتُ القرآن ابنَ تسعٍ سنين ثم ثلاثًا لضبط القرآن والعربية والحساب، فبلغْتُ ست عشرة وقد قرأتُ من الأحرف نحوًا من عشرة بما يتبعها من إظهار، وإدغام ونحوه، وتمرَّنْتُ في العربية[3] واللغة، ثم رحل بي أبي إلى المشرق، ثم ذكر تمام رحلته، رحمه اللّه تعالى!.

٩ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر بن حَجّاج، الغافقي، الإشبيلي.

ومن نظمه بالمدينة المشرفّة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: [السريع]

لم يَبْقَ لي سُؤَالٌ ولا مَطْلَبٌ ... مذ صِرْتُ جارًا لحبيبِ الحبيبْ
لا أبتغي شيئًا سوى قُرْبِهِ ... وها أنا منه قريبٌ قريبْ
مَنْ غَابَ عن حَضْرَةِ محبوبِهِ ... فلسْتُ عَنْ طَيبَةَ ممن يغيب
لا تَسْألِ المَغْبُوطَ عن حاله ... جارٌ كريمٌ ومحلٌّ خصيبْ
العَيشُ والمَوتُ هنا طَيِّبٌ ... بطيبةٍ، لي كلُّ شيء يطيبْ

وممّن روى عنه هذه الأبيات الأشرف بن الفاضل.

١٠ ـ ومنهم الشيخ الأديب الفاضلُ البارع جمالُ الدين أبو عبد اللّه محمدُ ابن الفقيه الخطيب أبي الحسن محمد بن أبي عبد اللّه محمد بن عيسى بن محمد بن علي بن ذي

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، وهي في كتابه ترجمان الأشواق (ص ١١).

(٢) الشِّعْب، بكسر الشين وسكون العين: الطريق في الجبل. لسان العرب (شعب).

(٣) في طبعة دار صادر: «في العربية والشعر واللغة...». وفي طبعة بولاق: «في الغريب والشعر واللغة».

النـون، الأنصاري، المـالَقِي، من أشيـاخ أبي حَيَّـان، لقيـه ببُلْبَيس من ديـار مصـر، قـال: وأنشدني لشيخه أبي عبد اللَّه[1] الإسْتِجِي من قصيدة: [الكامل]

مـا للنَّسيم سَـرَى[2] يـهبُّ عـليـلا أتــراهُ يـشـكـو لَـوعَـةً وغَـلـيـلا
فـأتـى يَـجُـرُّ مِـنَ الـسَّـقـام ذُيُـولا جَـرَّ الـذُّيـولَ عـلى ديـار أحبَّتي

وأنشد، رحمه اللَّه تعالى، لرضوان المخزومي [المجتث]

إن كـنـتَ يُـوسُـفَ حُـسْـنًـا وكـنـتُ عـبـدَ الـعـزيـزِ
فـإنَّ يـوسـفَ مِـنْ قَـبْـلُ كـان عـبـدَ الـعـزيـزِ

وأخذ ابنُ ذي النون المذكور عن أبي عبد اللَّه بن صالح، وقرأ للسبعة على أبي جعفر الفحـام وأبي زيد القَمَـارِشي، وعلى أبي جعفر السُّهَيلي. ووُلِـدَ ابن ذي النون سنـة ٦١٨[3] بمالَقَةَ، ومن تواليفه «نفح المِسْك الأذفر، في مدح المنصـور بن المظفـر» و «أزهار الخميلة، في الآثار الجميلة» و «استطلاع البشير» و «محض اليقين» و «روض المتَّقين».

١١ ـ ومنهم زياد بن عبد الـرحمن بن زياد اللخميُّ، المعـروف بشَبَطُون[4]، يُكْنى أبـا عبد اللَّه، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، وهو أوّل من أدخل مذهبه الأندلس، وكـانوا قبله يتفقّهـون على مذهب الأوزاعي، وأراده الأميـرُ هشام على القضـاء بقُرْطُبـة وعزم عليـه، فهرب، فقال هشام: ليت الناس كلُّهم كـزياد حتى أُكْفى[5] الـرغبة في الـدنيا، وأرسـل إلى زياد فأمّنه حتى رجع إلى داره.

ويحكي أنه لَمَّا أراده للقضاء كلّمه الـوزراء في ذلك عن الأميـر، وعرّفـوه عزمـه عليه، فقال لهم: أما إن أكرهتموني على القضـاء فزوْجتي فـلانة طـالق ثلاثًـا، لئن أتاني مُـدَّعٍ في شيء ممّا في أيديكم لأخرجَنّه عنكم ثم أجعلكم مـدَّعين فيه، فلمـا سمعوا منـه ذلك علمـوا صدقه، فتكلّموا[6] عند الأمير في مُعَافاته.

---

(١) في طبعة ليدن: «لشيخه عبد اللَّه. . .».

(٢) في طبعة دار صادر: «سرى الأصيل عليلا». وفي طبعة ليدن: «جرى الأصيل عليلا».

(٣) في طبعة دار صادر: سنة ٦١٧.

(٤) تـرجمة شبـطون في تـاريـخ علمـاء الأنـدلس (ص ٢٧٩) وجـذوة المقتبس (ص ٢١٨) وبغيـة الملتمس (ص ٢٩٤) وقضاة قرطبة (ص ٥٥ ـ ٥٦، ٧٢) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٢).

(٥) في طبعة دار صادر: «أُكْفَى أهلَ الرغبة. . .».

(٦) في طبعة بولاق: «فعملوا عند. . .».

سمع من مالك الموطّأ، ويُعْرَف سماعه بسماع زياد، وسمع من معاوية بن صالح، وكانت ابنة معاوية تحته، وروى يحيىٰ بن يحيىٰ الليثيّ عن زياد هذا الموطّأ قبل أن يرحل إلى مالك، ثم رحل فأدرك مالكًا فرواه عنه إلاَّ أبوابًا في كتاب الاعتكاف، شكَّ في سماعها من مالك، فأبقى روايته فيها عن زياد عن مالك.

وتوفي سنة أربع ومائتين، وقيل: سنة ١٩٣، وقيل: في التي بعدها، وقيل: سنة ١٩٩، والأوّل أولى بالقبول، والله تعالى أعلم.

ورحل في ذلك العصر جماعة من أمثال(١) شَبَطون، كفرْغوس(٢) بن العبّاس، وعيسى بن دينار، وسعيد بن أبي هند، وغيرهم ممَّنْ رحل إلى الحج أيام هشام بن عبد الرحمن والد الحكم، فلمّا رجعوا وَصَفُوا من فضل مالك وَسَعة علمه وجَلاَلة قدره ما عظم به صيته بالأندلس، فانتشر يومئذ(٣) رأيه وعلمه بالأندلس، وكان رائد الجماعة في ذلك شَبَطون.

وهو أوّل من أدخل مُوَطّأ مالك إلى الأندلس مكملاً متقنًا، فأخذه عنه يحيىٰ بن يحيىٰ كما مَرَّ، وهو إذ ذاك صَدْرٌ في طلاّب الفِقْه، فأشار عليه زياد بالرحيل إلى مالك ما دام حَيًّا، فرحل سريعًا، وأخذ يحيىٰ عن زياد هذا الكُتُبَ العشرة المنسوبة إلى يحيىٰ.

ولقي أيضًا عبدَ الله بن وَهْب صاحبَ مالك، وسمع منه المُوَطّأ(٤)، ولقي أيضًا عبد الله بن نافع المدني صاحب مالك، وسمع منه ومن الليث بن سَعْد فقيه مصر، ومن سفيان بن عُيَينة بمكّة، وقدم يحيىٰ الأندلس أيام الحَكَم، فانتشر به وبزياد وبعيسى(٥) بن دينار عِلْم مالك بالأندلس، رضي الله تعالى عن الجميع!.

وقد قدّمْنا الحديث الذي رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك، فليراجع في الباب الثالث(٦).

---

(١) في طبعة دار صادر: «من أنظار...».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «كفرعوس».

(٣) في طبعة ليدن: «حينئذ».

(٤) في طبعة بولاق: «منه موطأة».

(٥) في طبعة دار صادر: «وعيسى».

(٦) تقدم ذلك في الجزء الأول.

١٢ ـ ومنهم سِوَار(١) بن طارق مولى عبد الرحمن بن معاوية؛ قرطبي، حَجَّ ودخل البصرة، ولقي الأصمعي ونظراءه، وانصرف إلى الأندلس، وأدَّبَ الحكم. ومن ولده محمد بن عبد اللّه بن سِوَار، حجَّ أيضًا، ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما، وأدخل الأندلس علمًا كثيرًا، رحم اللّه تعالى الجميع!.

١٣ ـ ومنهم بقي بن مخلد(٢)، الشهير الذكر، صاحب التآليف التي لم يؤلَّفْ مثلُها في الإسلام، ولقي مائتين وأربعة وثمانين شيخًا، وكانت له خاصّة من الإمام أحمد بن حنبل، رحمه اللّه تعالى، وستأتي جملة فيما(٣) يتعلّق ببقي بن مخلد في رسالة ابن حزم في الباب السابع، وبقيٌّ على وزن عَلِيّ، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه! وقد عَرَّفَ ببقي بن مخلد غيرُ واحدٍ من العلماء كصاحب النبراس(٤) وغيره.

١٤ ـ ومنهم قاسم بن أصبغ بن محمد بن محمد بن يوسف، أبو محمد، البَيَّاني(٥) ـ وبَيَّانة(٦) من أعمال قرطبة ـ وأصل سَلَفه من موالي الوليد بن عبد الملك، وسمع المذكور بقرطبة من بقيّ بن مخلد ومحمد بن وضّاح ومطرِّف بن قيس وأصبغ بن خليل وابن مسرّة وغير واحد، ورحل إلى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن ومحمد بن زكريا(٧) بن عبد الأعلى سنة أربع وسبعين ومائتين، فسمع بمكّة من محمد بن إسماعيل الصائغ وعلي بن عبد العزيز، ودخل العراق، فلقي من أهل الكوفة إبراهيم بن أبي العَنْبَس قاضيها وإبراهيم بن عبد اللّه القصار(٨)، وسمع ببغداد من القاضي إسماعيل(٩) وأحمد بن زهير بن

---

(١) ترجمة سوار بن طارق في طبقات النحويين واللغويين (ص ٢٧٩).
(٢) مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.
(٣) في طبعتي دار صادر وليدن: «ممّا».
(٤) صاحب النبراس هو ابن دحية الكلبي، وعنوانه الكامل: «النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس». حققه ونشره الأستاذ عباس العزاوي.
(٥) ترجمة البياني في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦١١) وجذوة المقتبس (ص ٣٣٠) وبغية الملتمس (ص ٤٤٧).
(٦) بيانه، بالإسبانية Baena: مدينة أندلسية من أعمال قرطبة، تبعد عن قرطبة عشرة أميال. الروض المعطار (ص ١١٩).
(٧) في تاريخ علماء الأندلس: «بن أبي عبد الأعلى...».
(٨) في طبعة بولاق: «القصاد».
(٩) في تاريخ علماء الأندلس: «وسمع ببغداد من إسماعيل بن إسحٰق، قاضي القضاة...».

حرب وغيرهما كعبد اللّه ابن الإمام أحمد بن حنبل والحارث بن أبي أسامة. وكتب عن ابن أبي خَيْثَمَة[1] تاريخه، وسمع من ابن قتيبة كثيرًا من كتبه، وسمع من المبرّد وثعلب وابن الجهم في آخرين، وسمع بمصر من محمد بن عبد اللّه العمري ومطلب بن شعيب وغيرهما، وسمع بالقَيْرَوان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حمّاد التاهَرْتي الشاعر، وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير، فمال الناسُ إليه في تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة، وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الأعلى، وكان بصيرًا بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب[2] والشعر، وكان يُشاوَرُ في الأحكام، وصَنَّف على كتاب «السنن» لأبي داود كتابًا في الحديث، وسببه أنّه لَمَّا قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد بن أيمن، فوجدا أبا داود قد مات قبل وصولهما بيسير، فلمّا فاتهما عمل كل واحد منهما مصنَّفًا في السنن على أبواب كتابي أبي داود، وخَرَّجَا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنّفان جليلان، ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه وسمّاه «المجتنى» بالنون - وابتدأ اختصاره في المحرم سنة أربع وعشرين وثلثمائة، وجعله باسم الحكم المستنصر، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثًا في سبعة أجزاء.

ومولده يوم الاثنين عاشر ذي الحجّة سنة سبع وأربعين ومائتين، رحمه اللّه تعالى!.

وحكى القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ قالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنَا ﴾[3] أنَّ قاسم بن أصبغ قال: لمَّا رحلْتُ إلى المشرق نزلْتُ القيروان، فأخذْتُ عن بكر بن حماد حديث مُسَدَّد[4]، فقرأْتُ عليه يومًا فيه حديث النبيّ، ﷺ، «أنه قدم عليه مِنْ مُضَر مجتابي النمار» فقال: إنما هو مجتابي الثمار، فقلْتُ: إنما هو مجتابي النمار، هكذا قرأته على كل مَنْ لقيتُه بالأندلس والعراق، فقال لي: بدخولك العراق تعارضُنا وتفخرُ علينا؟ أو نحو هذا، ثم قال لي: قُمْ بنا إلى ذلك[5]، لشيخ كان في المسجد، فإن له بمثل هذا عِلْماً، فقمْنا إليه وسألناه عن ذلك، فقال: إنماهو مجتابي النمار كما قلْتُ، وهم قوم كانوا

---

(1) ابن أبي خيثمة هو نفسه أحمد بن زهير بن حرب السابق الذكر.

(2) في طبعة دار صادر: «والعربية والشعر...».

(3) سورة البقرة ٢، الآية ٣٢.

(4) في طبعة ليدن: «حديث النبي أنه قدم عليه...».

(5) في طبعة دار صادر: «إلى ذلك [الشيخ] لشيخ...».

يلبسـون الثياب مشقّقـة جيوبهم أمـامهم، والنمار: جمـع نَمِرَة، فقـال بكر بن حمـاد، وأخذ بأنْفِه: رَغِم أنفي للحق، وانصرف، انتهى.

وهذه الحكاية دالّة على عظيم قدر الرجلين، رحمهما اللّه تعالى ورضي عنهما، ونَفَعَنا بهما!.

١٥ ـ ومنهم قاسم بن ثابت، أبو محمد، العوفي، السَّرَقُسْطي(١)، رحل مع أبيه فسمع بمصر من أحمد بن شُعَيب النسائي وأحمد بن عمـرو البزار، وبمكّـة من عبد اللّه بن علي بن الجارود ومحمد بن علي الجوهري، واعتنى بجمـع الحديث واللغـة هو وأبـوه، فأدخـلا إلى الأندلس عِلْمًا كثيرًا، ويقال: إنهما أوّل من أدخل كتاب «العَين» إلى الأندلس، وألّف قـاسم في شرح الحديث كتابًا سمّـاه «الدلائـل»، بلغ فيه الغـاية في الإتقـان، ومات قبـل إكمالـه، فـأكمله أبوه ثـابت(٢) بعده، وقـد رُوِيَ عن أبي علي البغدادي أنـه كان يقـول: كتبْتُ كتاب «الدلائل»، وما أعلم أنه وضع بالأندلس مثله، وكان قاسم عالمًا بالحديث واللغة، متقدّمًا في معرفة الحديث والنّحو والشّعر، وكان مع ذلك وَرِعًا ناسكًـا، وأُريد على القضـاء بسَرَقُسْـطة، فأبى ذلك، فأراد أبوه إكراهه عليه، فسأله أن يتركه ينظر في أمره ثلاثة أيام(٣)، ويستخيـر اللّه تعالى، فمات في هذه الثلاثة الأيام، فيروون أنه دعا لنفسه بالموت، وكـان مجاب الـدعوة، توفي سنة ٣٠٣ بسَرَقُسْطَة، رحمه اللّه تعالى!.

١٦ ـ ومنهم علم الدين أبو محمد الْمُرْسِيُّ اللُّورقي(٤)، وهـو قاسم بن أحمـد بن موفّق ابن جعفر، العلاّمة، المقرىء، الأصـولي، النّحوي. وُلـد سنة خمس وسبعين وخمسمـائة، وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبي جعفر الحصار وأبي عبد اللّه المُرَادي وأبي عبد اللّه بن نوح الغافقي، وقدم مصر فقرأ بها على أبي الجود غيّاث بن فارس، وبدمشق على التـاج زيد الكندي، وسمع ببغداد من أبي البقاء، ولقي الجُزُولي(٥) بالمغرب، وسأله عن مسألة مشكلة

(١) ترجمة قـاسم بن ثابت السـرقسطي في تـاريخ علمـاء الأندلس (ص ٦٠٥) وجـذوة المقتبس (ص ٣٣١) وبغية الملتمس (ص ٤٤٨).

(٢) في طبعة بولاق: «ابن ثابت». وفي طبعة ليدن: «أبو ثابت».

(٣) في طبعة دار صادر: «في أمره ثلاثًا».

(٤) ستكرر ترجمة علم الدين اللورقي في هذا الجزء رقم ٧٩ (ص ٣٥٣).

(٥) هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي، إمام في علم النحو. توفي بمـدينة مـرّاكش سنة ٦١٠ هـ. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٨٨).

في مقدمته، فأجابه، وبرع في العربية وفي علم الكلام والفلسفة، وكان يقرىء ذلك ويحقّقه، وأقرأ بدمشق، ودرس، وشرح «المفصل» في النّحو في أربع مجلدات فأجاد وأفاد، وشرح «الجزولية» و «الشاطبية»، وكان مليح الشكل، حس البزة، موطّأ الأكناف، قرأ عليه جماعة، وتوفي سابع رجب سنة ٦٦١، وكان معمّرًا مشتغلاً بأنواع العلوم، وسمّاه بعضهم أبا القاسم، والأوّل أصحّ.

١٧ - ومنهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار[١]، أبو محمد؛ من أهل قُرْطُبة، وجَدُّه مولى الوليد بن عبد الملك[٢]، رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم[٣] والمزني والبرقي والحارث بن مسكين ويونس بن عبد الأعلى وإبراهيم بن المنذر وغيرهم، ولزم ابنَ عبد الحكم للتفقّه، وتحقّق به وبالمزني، وكان يذهب مذهب الحجّة والنظر وترك التقليد، ويميل إلى مذهب الشافعي، ولَمَّا قال له ابنه محمد بن القاسم: يا أبتِ أوْصِني، قال: أُوصِيكَ بكتاب الله، فلا تَنْسَ حَظَّكَ منه، واَقْرَأْ منه كلَّ يوم جزءًا، واَجْعَلْ ذلك عليك واجبًا، وإنْ أردْتَ أنْ تأخذَ من هذا الأمر بحظٍّ، يعني الفقه، فعليك برأي الشافعي، فإنّي رأيتُه أقلَّ خطأ. قال أبو الوليد بن الفَرَضي[٤]: ولم يكن بالأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة. وقال أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة: ما رأينا أَفْقَهَ من قاسم بن محمد فيمن[٥] دخل الأندلس من أهل الرحلة. وقال أسلم بن عبد العزيز: سمعْتُ عن ابن عبد الحكم أنه قال: لم يقدم علينا من الأندلس أحد أعلم من قاسم بن محمد، ولقد عاتبْتُه في حين انصرافه إلى الأندلس، وقلْتُ له: أَقِمْ عندنا فإنَّك تعتقد[٦] ههنا رياسة ويَحْتاج الناس إليك، فقال: لا بدّ[٧] من الوطن. وقال سعيد بن

---

(١) ترجمة ابن سيّار في تاريخ علماء الأندلس (ص ٤٤٦). والمقري هنا ينقل عن تاريخ علماء الأندلس بشيء من التصرف يسير.

(٢) في الجذوة والبغية: «مولى هشام بن عبد الملك...».

(٣) في تاريخ علماء الأندلس: «وأبي إبراهيم المزني، ومحمد بن عبد الرحيم الرَّقِّي...».

(٤) تاريخ علماء الأندلس (ص ٥٩٨).

(٥) في طبعة دار صادر: «ممن».

(٦) هكذا في تاريخ علماء الأندلس، وهي بمعنى: تعقد لك. وفي طبعة دار صادر: «تقتعد».

(٧) في تاريخ علماء الأندلس: «لا بُدَّ لي...».

عثمان(١): قال لي أحمد بن صالح الكوفي: قدم علينا من بلادكم(٢) رجل يُسَمَّى قاسم بن محمد، فرأيتُ رجلاً فقيهًا.

وألَّف، رحمه اللَّه تعالى، كتابًا نبيلاً في الردِّ على ابن مُزَين(٣) وعبد اللَّه بن خالد والعتبي يدلّ على علمه، وله كتاب في خبر الواحد.

وكان يلي وثائق الأمير محمد طول أيامه.

روى عنه ابن لبابة وابن أيمن والأعناقي وابنه محمد بن قاسم في آخرين(٤).

توفّي سنة ست ـ أو سبع، أو ثمان ـ وسبعين ومائتين، رحمه اللَّه تعالى!.

١٨ ـ ومنهم أبو بكر الغسّاني، وهو محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود(٥)؛ من أهل ألْمُرِية، قدم إلى مصر ولقي بها أبا بكر الطرْطوشي، ثم عاد إلى بلده، وشُووِر، واسْتُقْضِي بمُرْسِية مدّة طويلة، ثم صُرِف، وسكن مراكش. قال ابن بَشْكُوال: توفي بمرّاكش في رجب سنة ٦٣٦، وقال أبو جعفر بن الزبير: إن له كتاب «تفسير القرآن»، وبيته بيت علم ودين.

١٩ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن إبراهيم بن حَيُّون(٦)؛ من أهل وادي الحِجَارة(٧)، قال ابن الفَرَضي(٨): سمع من ابن وضّاح والخشني ونظرائهما بالأندلس(٩)، ورحل إلى

---

(١) في المصدر نفسه: «سعيد بن عثمان الأعناقي».

(٢) في المصدر نفسه: «بلدكم».

(٣) في المصدر نفسه: «يحيى بن إبراهيم بن مُزَين».

(٤) في المصدر نفسه: «روى عنه محمد بن عمر بن لُبابة، وسعيد بن عثمان الأعناقي، وأحمد بن خالد، ومحمد بن عبد الملك بن أيمن، وابن الزّراد، وابنه محمد بن قاسم، في جماعة سواهم».

(٥) ترجمة ابن أسود الغساني في المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٣٤) والصلة (ص ٨٤٩).

(٦) ترجمة ابن حيون في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٦٦) وجذوة المقتبس (ص ٤١) وبغية الملتمس (ص ٥٥) وفيه: «ابن حنون».

(٧) وادي الحجارة، بالإسبانية Guadalajara : مدينة بالأندلس تبعد عن طليطلة ٦٥ ميلاً، الروض المعطار (ص ٦٠٦).

(٨) تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٦٦ ـ ٦٦٨) والمقري ينقل عن هذا المصدر بشيء من التصرف.

(٩) في تاريخ علماء الأندلس: «سمع من أبي عبد الله الخشني، وابن وضّاح، وعبد الله بن مسرة، ومحمد بن عبد الله بن الغازي، وجماعة من نظرائهم بالأندلس».

المشرق، فتردّد هنالك نحوًا من خمس عشرة سنة. وسمع بصنعاء ومكّة وبغداد ولقي جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل؛ منهم عبد اللّه بن أحمد، وسمع بمصر من الخفاف[1] النيسابوري وإبراهيم بن موسى وغيرهما، وبالمصيصة والقيروان، وكان إمامًا في الحديث، عالمًا، حافظًا للعلل بصيرًا بالطرق، ولم يكن بالأندلس قبله أبصر بالحديث منه، وهو ضابط مُتْقن، حسن التوجيه[2] للحديث، صدوق، ولم يذهب مذهب مالك. وممّن روى عنه ابن أيمن[3] وقاسم بن أصبغ ووَهْب بن مسرّة وأحمد بن سعيد بن حزم. وقال خالد بن سعيد[4]: لو كان الصدق لسانًا[5] لكان ابنَ حَيُّون. وكان يُزَنُّ[6] بالتشيُّع لشيء كان يظهر منه في حقّ معاوية، رضي اللّه تعالى عنه! وكان شاعرًا، وتوفي بقرطبة سنة ٣٠٥، سامحه اللّه تعالى!.

٢٠ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن عبد اللّه بن إبراهيم بن غالب، المالَقِيُّ[7]؛ قال ابن نقطة: سمع بالإسكندرية من أبي الحسن بن المقدسي، وكان فاضلًا، رأيت بخطّه إجازة بمصر لبعض المصريين في رجب سنة ٦٠٤، وسمع بمصر شيئًا من الخِلَعِيَّات، قال ابن فُرْتُون الفاسي في «ذيل تاريخ الأندلس»: روى بمالَقَةَ، ورحل إلى المشرق، وحجَّ، ولقي أبا الحسن علي بن المفضل[8] المقدسي، وأخذ عنه كتاب «تحقيق الجواب، عَمَّن أُجيزَ له ما فاته من الكتاب» من تآليفه، ورجع إلى الأندلس، ثم نهض إلى مراكش فتوفي في أقصى بلاد السُّوسِ في حدود سنة ٦٤٥[9]، رحمه اللّه تعالى!.

٢١ ـ ومنهم اليَقُّوري، وهو أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم مصنّف كتاب «إكمال الإكمال» للقاضي عياض على صحيح مُسْلم، وكَتَبَ على كتاب الشهاب القرافي في

---

(١) في طبعة ليدن: «الحفاظ».
(٢) في طبعة ليدن: «التوجه».
(٣) هو محمد بن عبد الملك بن أيمن كما في تاريخ علماء الأندلس، وسيترجم له المقري في الجزء الثالث، رقم ١٤٩.
(٤) في تاريخ علماء الأندلس: «خالد بن سعد».
(٥) في المصدر نفسه: «لو أن الصِّدق إنسان...». وفي طبعة دار صادر: «إنساناً» بدل «لساناً».
(٦) يُزَنُّ: يتّهم. لسان العرب (زنن).
(٧) ترجمة ابن غالب المالقي في التكملة (ص ٦٣٨) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٩٣).
(٨) في طبعة بولاق: «الفضل المقدسي».
(٩) في الذيل والتكملة: سنة ٦٣٧ هـ.

الأصول، وسمع الحديث، وقدم إلى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة، ثم عاد بعد حجّه، ومات بمرّاكش سنة ٧٠٧، وقد زرْت قبره بها مرارًا. قال الحافظ المقريزي: واليَقُّوري نسبه إلى يَقُّورة[١] - بياء آخر الحروف مفتوحة، وقاف مشدّدة، وراء مهملة - بلد بالأندلس، انتهى.

٢٢ - ومنهم أبو عبد الله الأنصاري، وهو محمد بن إبراهيم بن موسى بن عبد السلام، ويعرف بابن شَقّ الليل[٢]، من أهل طُلَيطُلة، سمع بمصر أبا الفرج الصوفي وأبا القاسم الطحّان الحافظ وأبا محمد بن النحّاس وأبا القاسم بن مَيْسَرة وأبا الحسن بن بشر وغيرهم، وسمع بطليطلة من جماعة، وحدّث عن جماعة من المحدّثين كثيرة.

قال ابن بَشْكوال: وكان فقيهًا عالمًا، وإمامًا متكلّمًا، حافظًا للفِقْه والحديث[٣]، قائمًا بهما، مُتْقِنًا لهما، إلاّ أنّ المعرفة بالحديث وأسماء رجاله، والبصر بمعانيه، وعلله، كان[٤] أغلب عليه. وكان مليح الخطّ، جيّد الضبط، من أهل الرواية والدراية والمشاركة في العلوم[٥]. وكان أديبًا شاعرًا مُجيدًا لغويًا دَيِّنًا فاضلاً، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث، حلو الكلام في تآليفه[٦]، وله عناية بأصول الديانات وإظهار الكرامات. توفي بِطَلَبيرة يوم الجمعة[٧] منتصف شعبان سنة ٤٥٥، رحمه الله تعالى!.

٢٣ - ومنهم الشيخ الإمام الشهير الكبير الوالي العارف بالله سيدي أبو عبد الله القرشي الهاشمي الأندلسي[٨]؛ شيخ السالكين، وإمام العارفين، وقدوة المحققين، قدم

---

(١) جاء في الديباج المذهب (ص ٢٢٢): البَقُّوري، بالباء الموحدة المفتوحة، وقاف مشدّدة وراء مهملة، وقال: وهي بلد بالأندلس. وجاء في معجم البلدان (ج ١ ص ٤٧٣): بَقِيْرة، بفتح الباء وكسر القاف وسكون الياء، وقال: مدينة في شرقي الأندلس في أعمال تطيلة. وفي الروض المعطار (ص ٦١٦): يبورة Evora، وقال الحميري: إنها مدينة بالأندلس، بينها وبين بطليوس مرحلتان.

(٢) ترجمة ابن شقّ الليل في الصلة (ص ٧٩٢-٧٩٣).

(٣) في الصلة: «حافظًا للحديث والفقه...».

(٤) في المصدر نفسه: «كانت».

(٥) في المصدر نفسه: «في العلوم، والافتنان بها وبمذاكرتها...».

(٦) في المصدر نفسه: «في تواليفه وتصانيفه، وكانت له عناية...».

(٧) في الصلة: «يوم الأربعاء...».

(٨) هو محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي؛ من أهل الجزيرة الخضراء، سافر إلى الشام قاصدًا زيارة البيت المقدس، فأقام به إلى أن مات سنة ٥٩٩ هـ. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٣٠٥).

مصر بعدما صحب ببلاد المغرب جماعة من أعلام الزهّاد، وكان يقول: صحبْتُ ستمائة شيخ اقتديتُ منهم بأربعة؛ الشيخ أبي الربيع، والشيخ أبي الحسن بن طَريف، والشيخ أبي زيد القرطبي، والشيخ أبي العبّاس الجوزي، وسلك على يده جماعة؛ منهم الشيخ أبو العبّاس القسطلاني، فإنّه أخذ كلامه وجمعه في جزء. وخرج سيدي أبو عبد الله القرشي من مصر إلى بيت المقدس فأقام به إلى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذي الحجّة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة، ودُفن هناك، وقَبْرُه ظاهرٌ يُقْصَد للزيارة، زُرْته أوّل قَدَمَاتي على بيت المقدس سنة ١٠٢٨. ومن كلامه: من لم يدخل في الأمور بلطف الأدب[1] لم يدرك مطلوبه منها، وقوله: العاقل يأخذ ما صَفَا ويدع التكلّف، فإنه تعالى يقول: ﴿ وإنْ يُرِدْكَ بِخَيرٍ فلا رادَّ لِفَضْلِهِ ﴾[2] وقال: مَنْ لم يراعِ حقوق الإخوان بترك حقوقه حُرِم بركة الصحبة، وقال: سمعت الشيخ أبا إسحق إبراهيم بن طَرِيف يقول: لَمَّا حَضَرَتِ الشيخَ أبا الحسن بن غالب الوفاةُ قال لأصحابه: اجتمعوا وهلّلوا سبعين ألف مرّة، واجعلوا ثوابها لي، فإنّه بلغني أنها فداء كلِّ مؤمن من النار، قال: فعملْناها، واجتمعْنا عليها، وجعلنا ثوابها له.

ثم حكى عن شيخه أبي زيد القرطبي ما حكاه السنوسي عنه في أواخر شرح صُغْراه، وقد أنكر غيرُ واحد من الحفّاظ كابن حجر وغيره كون ما ذكر حديثًا ولعلّ هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه، والله تعالى أعلم.

وقال رحمه الله تعالى: دخلْتُ على الشيخ أبي محمد عبد الله المغاوري[3]، فقال لي: أعلمك شيئًا تستعين به، إذا احتجْتَ لشيء فقل[4]: يا واحد يا أحد يا واحد يا واجد يا جوّاد، اِنْفَحْنا منك بنفحة خَير، إنك على كل شيء قدير، قال: فأنا أنفق منها منذ سمعْتها. وقال رحمه الله تعالى: ما من حال ذُكر في رسالة القشيري إلّا وقد شاهَدَتْهُ نفسي، وتزوّج، رحمه الله تعالى، بنساء حدّثْن عنه بكرامات، ومنهنّ أم القطب القسطلاني، وحَكَتْ أنها خرجتْ عنه يومًا لحاجتها، ثم عادتْ فسمعتْ عنده في طبقته حِسَّ رجل، فتوقّفتْ

---

(١) في طبعة دار صادر: «في الأمور بالأدب...».

(٢) سورة يونس ١٠، الآية ١٠٧.

(٣) في طبعة دار صادر: «المغاور».

(٤) في طبعة صادر: «يا واحد يا أحد يا واجد يا جواد...».

وتفقّدَتِ[1] الباب فَوَجَدَتْه مُغْلقًا، فلمّا انقطعَ الكلامُ دَخَلَتْ إليه، فإذا هو وحده كما تـركَتْهُ، وسألَتْه[2] عن ذلك، فقال: هو الخضر دخل عليّ وفي يده حيّة فقال: هـذه حيّتك[3] جئتـك بها من أرض نجد، وفيها شفاء مَرَضك، فقلْتُ: لا أريـد، اذْهَبْ أنت وحيّتك لا حـاجة لي بها. ودخل عليه بعض نسائه يومًا، فوجدتْه بصيرًا نقيّ الجسم من الجُذَام، فلمـا نظرتْـه قال لهـا: أتريـدين أن أبقى لك هكـذا؟ فقالت لـه: يا سيـدي، كُنْ كيف شِئْتَ، إنّما مقصـودي خدمتك وبركتك. وقيل له، وقد تكاثرتْ منه رؤيةُ الأشياء، وإخباره بها، مـع كونـه ضريـرًا، عن ذلك، فقال: كُلّي أعين[4]، بأي عضو أردْتُ أن أنظر به نظرْتُ. وقال: هممْتُ أن أدعـو برفع الغـلاء، فقيل لي: لا تَـدْعُ فما نسمـع لأحد منكم في هـذا الأمر دعـاء، فسافـرت إلى الشـام، فلمّـا وصلت إلى بلد الخليـل، عليـه السـلام، تلقّـاني رسـول اللّه[5] الخليـل حين ورودي عليه، فقلْتُ له: يا رسول اللّه، اجعـل ضيافتي عنـدك أهل مصـر، فدعـا لهم ففرَّج اللّهُ عنهم. ومناقبه، رحمه اللّه تعالى، وكـراماتـه لا يفي بها هـذا المختصر، وإنمـا قصدْنا بذكره البركة وكفّارة ما وقع في هذا الكتاب من الإحماض، واللّه المرجوّ في العفو.

ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبي الربيع المالَقِي أنه قال له: ألَا أعلمك كنزًا تنفق منه ولا ينفد؟ قلت: بلى، قال: قل: «يا اللّه، يا أحد، يا واحد، يا موجود، يا جَواد، يا باسط، يا كريم، يا وهّاب، يا ذا الطّول، يا غني، يا مُغْني، يا فتّاح، يا رزّاق، يا عليم، يا حيّ، يا قَيُّوم، يا رحمن، يا رحيم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يـا حَنَّان، يـا مَنَّان، انفحني منك بنفحةِ خيرٍ تُغْنيني بها عمَّن سواك ﴿ إنْ تَسْتَفْتِحُوا فقدْ جاءكُم الفَتْحُ ﴾[6] ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾[7] ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللّهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾[8] اللهمّ يـا غني يا حميـد، يا مبدىء يا معيد، يا رحيم[9] يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعّالاً لما يريد، اكفني بحلالك

(١) في طبعة دار صادر: «وافتقدت».

(٢) في الطبعة نفسها: «فسألته».

(٣) كلمة «حيّتك» غير واردة في طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة دار صادر: «عين».

(٥) كلمة «اللّه» غير واردة في طبعة ليدن.

(٦) سورة الأنفال ٨، الآية ١٩.

(٧) سورة الفتح ٤٨، الآية ١.

(٨) سورة الصف ٦١، الآية ١٣.

(٩) «يا رحيم» سقطت من طبعة دار صادر.

عن حرامك، وأغنني بفضلك عمّن سواك، واحْفَظْنِي بما حفظت به الذكر الحكيم، وانصرني بما نَصَرْتَ به الرسلَ؛ إنّك على كلّ شيء قدير». فمن داوم على قراءته بعد كلّ صلاة خصوصًا صلاة الجمعة حفظه اللّهُ تعالى من كل مَخُوف، ونَصَرَه على أعدائه، وأغناه، ورزقه من حيث لا يحتسب، ويَسَّر عليه معيشته، وقضى عنه دينه، ولو كان عليه أمثال الجبال دينًا، بكرمه وإحسانه، انتهى. نقله عنه العلامة ابن داود البَلَوي الأندلسي، ومن خطّه نقلت، رحم اللّه تعالى الجميع! ونقله اليافعي كما ذكر رحمه اللّه تعالى، إلاّ أنه لم يقل فيه «يا ودود»، واتفقا فيما عدا ذلك، واللّه سبحانه أعلم.

وقال ابن خلكان في حقّه: محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي العبد[1] الصالح الزّاهد من أهل الجزيرة الخضراء، كانت له كرامات ظاهرة، ورأيتُ أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة، ولقيت جماعة ممّن صحبه، وكل منهم نمى[2] عليه من بركته، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية، وأنّها صحت كلّها. وكان من السّادات الأكابر والطّراز الأول، وهو مغربي صحب[3] بالمغرب أعلام الزهّاد وانتفع بهم، فلمّا وصل إلى مصر انتفع به مَنْ صحبه أو شاهده. ثم سافر إلى الشام قاصدًا زيارة بيت المقدس، وأقام[4] بها إلى أنْ مات، وصُلِّيَ عليه بالمسجد الأقصى، وهو ابن خمس وخمسين سنة، وقبره ظاهر للزيارة والتبرّك به[5].

والجزيرة الخضراء في بلاد الأندلس مدينة تقابل سَبْتَة من بَرّ[6] العُدْوة.

ومن جملة وصاياه لأصحابه: سيروا إلى اللّه تعالى عُرْجًا ومكاسيرَ فإنَّ انتظار الصحة بِطَالة، انتهى ببعض اختصار.

---

(١) في وفيات الأعيان: «العبد الزاهد الصالح...».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «يثني».

(٣) في وفيات الأعيان: «وصحب».

(٤) في المصدر نفسه: «فأقام به إلى أن مات في السادس من ذي الحجة سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وصُلّي...».

(٥) كلمة «به» غير واردة في طبعة بولاق.

(٦) «بر» سقطت من طبعة بولاق.

٢٤ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن[١] بن أبي الحسين القرطبي[٢]؛ سمع من قاسم بن أصبغ وغيره، وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموت[٣]، والبارودي وابن السكَن في آخرين. وسمع بالرملة وبيت المقدس[٤]. وكان ضابطًا بصيرًا بالنَّحو واللّغة فصيحًا بليغًا طويلَ اللسان، وُلّيَ الشرطةَ ببلاد المغرب. توفي سنة ٣٧٢ [٥].

٢٥ ـ ومنهم أبو بكر الجَيَّاني [٦] محمد بن علي بن خلف التُّجيْبِي الإشبيلي [٧] الحافظ الكاتب؛ روى عن ابن الجدّ وغيره، ومَرَّ بمصر حاجًا فلقي بمكّة أبا حفص المَيَانَشِيَّ وأبا الحسن المكْناسي، ولقي بالإسكندرية السِّلفي وابن عوف وغيرهما، وكان مدرِّسًا للفقه، فقيهًا جليلًا، متقدِّمًا فيه عارفًا فاضلًا سَنِيًّا، توفي بعد امتحان من منصور بني عبد المؤمن سنة ٥٩٦، وذلك أنه وُشِيَ به للمنصور أيام عَزَمَ على ترك التقليد والعمل بالحديث[٨].

٢٦ ـ ومنهم أبو بكر الأندلسي الجَيَّاني محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن ياسر، الأنصاري، الجَيَّاني[٩]؛ سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر، ولقي أئمّتها، وتفقّه ببخارى حتى تمهّر في المذاهب والخلاف والجدل، ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصَّلَ منه كثيرًا، ثم سكن بلخ مدّة، وعاد إلى بغداد ودخلها

(١) في طبعة عبد الحميد «الحسين».

(٢) ترجمة أبي عبد الله بن أبي الحسين القرطبي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٧٥٧) وعنه ينقل المقري باختصار.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «أبي الموال». وفي تاريخ عاماء الأندلس: «من عبد الله بن جعفر بن الورد... وأبي بكر بن أبي الموت، وأبي يعقوب الباورديّ... وسعيد بن السَّكن...».

(٤) في تاريخ علماء الأندلس: «وسمع بالرملة من غير واحد».

(٥) هكذا في المصدر السابق وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: ٣٧١.

(٦) كلمة «الجياني» لم ترد في طبعة دار صادر.

(٧) ترجمة أبي بكر الإشبيلي في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤).

(٨) روى ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٤٤) أنه كان لابن خلف التجيبي غرفة مشرفة على الدرب الذي كانت به داره، فكان كثير الجلوس بها، فخطر للمنصور الموحدي أن يستدعيه ليأنس به، فأمر بالبحث عنه، فتوجّه إليه الشرطيون، ولمّا دخلوا على دربه ورآهم من غرفته خاف منهم واستطير قلبه ذعرًا، وتمكن ذلك سنة حتى كاد عقله يختلط، واعتلّ واختلّت حاله جملة، وتمادى على ذلك إلى أن توفي سنة ٥٩٦ هـ.

(٩) ترجمة ابن ياسر الجياني في التكملة (ص ٥٠٠).

سنة ٥٥٩، وتوجّه إلى مكّة فحجَّ، ورجع إلى الشام، واستوطن حلب، إلى أن توفي بها، ووقف كتبه، وكان متديِّنًا صدوقًا حافظًا عالمًا بالحديث، وفيه فَضْلٌ، وُلِدَ بجَيَّان[1] سنة ٤٩٢، ومات بحلب سنة ٥٦٣.

٢٧ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن عليّ التُّجِيبي الدهان الغَرْنَاطي[2]، وكان حَسَنَ السَّمْت بارع الخط والخَلْق والخُلُق، رحل إلى الحجّ، وجال[3] في البلاد في حدود سنة ست وستمائة فأخذ بمكّة والشام ومصر والإسكندرية عن جماعة كثيرة. وكان عدلاً فاضلاً على خير ودين، وكان متحرّفًا بالتجارة بغَرْناطة، ثم خرج منها آخر عمره فمات بقُوص بعدما حَجَّ سنة ٦٥٠، وصدر من مكّة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة[4]، رحمه اللَّه تعالى!.

٢٨ ـ ومنهم أبو عمر محمد بن علي بن محمد بن أبي الربيع القرشي العثماني الأندلسي الإشبيلي النحوي، ولد سنة ٦١٧ بإشبيلية، وقدم مصر فسمع الكثير بها، وبدمشق وغيرها، وكان إمامًا عالمًا نحويًّا فاضلاً، كتب عنه أبو محمد الدمياطي والقطب عبد الكريم، وناهيك بهما علمًا[5].

٢٩ ـ ومنهم أبو بكر وأبو[6] عبد اللَّه محمد بن علي بن محمد بن علي بن هُذَيل البَلَنْسِي[7]، رحل وسمع من السِّلفي، وحجَّ، قال أبو الربيع بن سالم: هو شيخ صدوق متيقّظ، سمع أباه وأبا الوليد بن الدباغ وأبا الحسن[8] طارق بن موسى بن يعيش وجماعة، وأخذ بمكّة سنة ٥٣٩ عن أبي علي حسن[9] المُقْرِىء، وقَفَل إلى الأندلس سنة ٥٤٦، فأُخِذ عنه بها، وسمع منه جماعة. قال ابن الأبار: كان غاية في الصلاح وأعمال البِرِّ والوَرَع،

---

(١) جيان، بالإسبانية Jaén: مدينة بالأندلس كثيرة الخصب. الروض المعطار (ص ١٨٣).

(٢) ترجمة محمد الدهان الغرناطي في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥) وعنه ينقل المقري باختصار.

(٣) في الذيل والتكملة: «رحل حاجًا وتجوّل هنالك سنتي خمس وستّ وستمائة».

(٤) في المصدر نفسه: «فأدركته منيته بمصر بعد الخمسين وستمائة».

(٥) كلمة «علمًا» غير واردة في طبعتي دار صادر وبولاق.

(٦) في طبعة عبد الحميد: «أبو...» بدون واو العطف.

(٧) ترجمة أبي بكر وأبي عبد اللَّه ابني هذيل البلنسي في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩). والتكملة (ص ٥٤٥).

(٨) هكذا في الذيل والتكملة، وقد كنّاه المقري في الجزء الثالث بأبي محمد.

(٩) في طبعة دار صادر: «الحسن».

توفي ببعض قرى بلنسية سنة ٥٨٣[1]، ومولده سنة سبع أو تسع عشرة وخمسمائة، وله حظٌّ من علم التعبير واللغة، رحمه اللّه تعالى!.

٣٠ ـ ومنهم أبو عبد اللّه، ويقال: أبو سَلَمة، محمد بن علي البَيَّاسي الغرناطي الأنصاري ناصر الدين، روى عن الحافظ أبي جعفر[2] بن الزبير وغيره، وقدم إلى القاهرة واستوطنها بعد الحجّ، حتى مات بها سنة ٧٠٣، وكان عارفًا بعلم الحديث وكتب منه كثيرًا، ومال إلى مذهب الظاهرية، وانتفع به جماعة من طلبة الحديث، وكان ثقةً، رحمه اللّه تعالى!.

٣١ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن علي بن يحيىٰ بن علي بن الشامي الأندلسي[3]، الغرناطي؛ قدم مصر حاجًّا، وأقام بمكّة والمدينة، وكان إمامًا فاضلاً عالمًا متفنّنًا في علوم ما بين فقّه وأصول ونحو ولغة وقراءات ونظم ونثر، ومع معرفته بمذهب مالك ينقل كثيرًا من مذهب الشافعي، وسمع المُوَطَّأ بتونس من أبي محمد بن هرون القرطبي. ومولده بغرناطة سنة ٦٧١، وتوفي سنة ٧١٥.

ومن شعره رضي اللّه تعالى عنه: [الطويل]

إذا كنتُ جارًا للنبيِّ وصَحْبِهِ ... ومكّةُ بَيتُ اللّهِ منّي على قُرْبِ
فما ضَرَّني أنْ فاتني رَغْدُ عيشةٍ ... وحسبي الذي أُوتِيتُه نِعْمَةً حَسْبي

وقوله: [المتقارب]

نزيلُ الكرام عزيزُ الجوارِ ... وإنّي نزيلٌ عليكُمْ وجارْ
حَلَلْتُ ذَرَاكَ وأنتَ الكريمُ ... ومَنْ حَلَّ مَثْوَى كريمٍ يُجَارْ

٣٢ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن عمار الكلاعي المَيُورقي[4]؛ قدم مصر، وروى عن أبي محمد[5] ابن الوليد بها، وكان عالمًا، وله قصيدة طويلة فيها حِكَمٌ ومواعظُ يوصي ابنه بها، منها قوله: [الوافر]

---

(١) في التكملة: سنة ٥٨٨.

(٢) في طبعة ليدن: «أبي حفص».

(٣) ستتكرّر ترجمته في الجزء الثالث رقم٢٩٩.

(٤) ترجمة ابن عمار الكلاعي الميورقي في التكملة (ص ٤٠٣).

(٥) في طبعة دار صادر: «وروى عن ابن الوليد...».

وطـاعَــةَ مَـنْ إليــه الأمْــرُ فــالْــزَمْ   وإنْ جـاروا وكــانــوا مُــسْــلِمِــيــنــا
فــإنْ كَـفَــرُوا كَكُـفْــرِ بنـي عُـبَـيْـدٍ   فــلا تَـسْـكُـنْ دِيــارَ الـكــافِـريـنــا

واسم ابنه حسن، وسمع من المذكور الحافظُ القاضي أبو بكر بن العربي في رحلته سنة ٤٨٥، ووصفه بالعلم، وعَمَّار: بالراء.

٣٣ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفَخَّار القرطبي الحافظ(١)؛ روى عن أبي عيسى(٢) الليثي وابن عون الله وأبي جعفر(٣) التميمي وأبي محمد الباجي. وقدم مصر، وحجَّ، وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام، وأفتى بها، وافتخر بذلك على أصحابه، وقال: لقد شُووِرْتُ بمدينة الرسول ﷺ دار مالك بن أنس ومكان شوراه، ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم، وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم، عارفًا بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء، ذاكرًا للروايات، يحفظ «المدوّنة» و«النوادر» لابن أبي زيد، ويوردها من صدره دون كتاب.

قال ابن حيّان مؤرّخ الأندلس: توفّي الفقيه المشاور الحافظ المستبحر(٤) الرواية الطويل الهجرة في طلب العلم النّاسك المتقشّف بمدينة بَلَنْسية في ربيع الأول سنة ٤١٧ لِعَشْرٍ خَلَونَ من الشهر، وكان الحفل في جنازته عظيمًا، وعاين الناسُ فيها آيةً من ظهور أشباه الخطاطيف بها تجلّلت(٥) الجمع، زافَّةً(٦) فوق النعش لم تفارق نعشه إلى أنْ وُورِيَ، فتفرَّقَتْ، ومكثَ مدَّةً ببَلَنْسية مُطاعًا عظيم القَدْر عند السلطان والعامة.

وذكر جُمَاهِرُ بن عبد الرحمن حديث الطير، وكذا ذكر الحسن بن محمد القِبَّشي(٧) خبر الطير. قال: وكانت سنّه نحو الثمانين سنة، وكان مُجاب الدعوة، وظهرتْ في دعوته الإجابة.

---

(١) ترجمة ابن الفخار القرطبي في الصلة (ص ٧٤٦) وعنه ينقل المقري ببعض الاختصار.
(٢) في الأصول: «عن عيسى»، والتصويب عن الصلة.
(٣) في طبعة عبد الحميد: «عون الله أبي جعفر» وهو خطأ.
(٤) في طبعة دار صادر: «المتبحّر».
(٥) تَجَلَّلَتْ: غطَّت.
(٦) في طبعة دار صادر: «رافّةً». وزافّة: لها صوت.
(٧) هكذا في الصلة. وفي طبعة دار صادر: «القيسي».

وقال أبو عمرو الدّاني: إنَّ وفاته يوم السبت لسبعٍ خَلَونَ من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وأربعمائة، ودُفن يوم الأحد بمدينة بَلَنْسية، وبلغ نحو ست وسبعين سنة، وهو آخر الفقهاء الحفّاظ الراسخين العالمين[1] بالكتاب والسنّة بالأندلس، رحمه اللّٰه تعالى!.

٣٤ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عُمروس القرطبي[2]؛ سمع علي بن مفرج وغيره من شيوخ قرطبة، وقدم مصر فأخذ بها عن ابن المهندس وغيره، وحجَّ ودخل العراق، وسمع من أبي بكر الأبهري[3] والدّارقطنيّ وجماعة. وعاد إلى الأندلس، وشُهِرَ بالعِلْم والمال، ووُلّي الأحباس بقرطبة. حدَّث عنه أبو عمر بن عبد البَرِّ وغيره، ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة، رحمه اللّٰه تعالى!.

٣٥ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح، المعافري، المعروف بالأعشى[4]، القرطبي. رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عُيَينة ووكيع بن الجرّاح ويحيىٰ بن سعيد القطّان وعبد اللّٰه بن وهب وجماعة. وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار، وكان صالحًا عاقلاً سَرِيًّا جوادًا يذهب إلى مذهب أهل العراق[5]، وتوفي سنة ٢٢١، ذكره ابن يونس وغيره.

٣٦ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن فُطَيس الغافقي، الإلبيري[6]، الزاهد؛ قال الحميدي في حقِّه: هو من أهل الحديث[7] والحفظ والفهم والبحث عن الرجال، وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد اللّٰه بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد اللّٰه بن وَهْب وغيرهما، وروى بالأندلس عن جماعة منهم بَقِي بن مَخْلد وابن وضّاح، وسمع بمكّة

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «العاملين».

(٢) ترجمة محمد بن عمروس القرطبي في الصلة (ص ٧١٣) وعنه ينقل المقري باختصار.

(٣) الأبهري: هو الفقيه أبو بكر الأبهري. والدارقطني يكنى بأبي الحسن. الصلة (ص ٧١٤).

(٤) ترجمة ابن نجيح الأعشى القرطبي في جذوة المقتبس (ص ٧٤) وبغية الملتمس (ص ١٠٩) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٦٣٣). وعن الأخير ينقل المقري.

(٥) في تاريخ علماء الأندلس: «وكان يذهب في الأشربة مذهب أهل العراق، إذ كان عِلْمُه عراقيًا».

(٦) ترجمة ابن فطيس الإلبيري في جذوة المقتبس (ص ٨٤) وبغية الملتمس (ص ١٢١) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٦٨٩).

(٧) في جذوة المقتبس: «الحديث والفهم والحفظ...».

وغيرهما من مائة شيخ. قال ابن الفَرَضي: كان شيخًا[1] نبيلًا، ضابطًا لكتبه، ثقة في روايته، صدوقًا في حديثه. وكانت الرحلة إليه بإلبيرة، وبها مات في شوّال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة، رحمه اللّه تعالى!.

٣٧ - ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن قاسم بن محمد بن سَيَّار، القرطبي[2]؛ من موالي بني أمية، سمع من أبيه ومن بَقِي بن مَخْلد وغيره، ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي، ومن أحمد بن حماد زغبة، وسمع بمكّة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والإسكندرية والقَيروان من مائة وستين رجلًا. قال أبو محمد الباجي: لم أدرك بقرطبة أكثر حديثًا منه، وكان عالمًا بالفِقْه، متقدّمًا في علم الوثائق، رأسًا فيها، وكان مشاورًا، سمع من الناس كثيرًا، وكان ثقةً صدوقًا، وغزا سنة ٣٢٧، ومات ثالث ذي الحجة منها، ومولده سنة ٢٦٣، وقيل: توفي سنة ٣٢٨، قاله ابن يونس والحميدي.

٣٨ - ومنهم أبو عبد اللّه بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي الفِهْري؛ عُرِف بابن رمان، الغرناطي، قرأ على أبي جعفر بن الزبير بها، وقدم إلى القاهرة سنة ٧٢٢، ومات بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧٢٩.

ومن شعره قوله: [الوافر]

فدِيتُمْ خَبِّروني كيف صَحَّتْ ... فريضةُ هالكٍ من غَيرِ مَينِ[3]
لزيدٍ زوجةٌ ولها ابنُ أمٍّ ... فماتَتْ عنهما لا غيرَ ذينِ
فحازَ البَعْلُ ما تَركَتْهُ إرْثًا ... ووَلَّى غيرهُ صِفْرَ اليَدَيْنِ
ولا رِقٌّ فُدِيتَ على أخيها ... وليس بكافرٍ يُرْمَى بشَينِ
وليس مُعَجِّلًا إرْثًا بقتلٍ ... مخافةَ أنْ ينالَ شقاوَتَينِ

٣٩ - ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن لُبٍّ الشاطبي[4]؛ حدّث بالقاهرة، وتوفي قريبًا من سنة ٦٤٠، وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ، ومن كلامه: اشْتِغالُك بوقْتٍ لم يأتِ تضييعٌ للوقت الذي أنت فيه، ولعمري لقد صدق.

(١) في طبعة بولاق: «شيخنا». وكلمة «شيخنا» غير واردة في تاريخ علماء الأندلس.
(٢) ترجمة محمد بن قاسم بن سيار القرطبي في جذوة المقتبس (ص ٨٧) وبغية الملتمس (ص ١٢٤) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٦٩٧).
(٣) المَينُ: الكذب. لسان العرب (مين).
(٤) ترجمة ابن لب الشاطبي في التكملة (ص ٦٥٢).

٤٠ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن سُرَاقة الشاطبي ابن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سُرَاقة[١]؛ محيي الدين، ويكنى أيضًا أبا القاسم وأبا بكر، الأنصاري الشاطبي، المالكي. وُلد بشَاطِبَةَ سنة ٥٩٢، وسمع من أبي القاسم بن بَقيّ، ورحل في طلب الحديث، فسمع ببغداد من الشيخ أبي حفص عمر السهْرَوَرْدِي وأبي طالب القُبَّيْطي وأبي حفص الدينوري وجماعة، وسمع بحلب من ابن شداد وغيره، وتولَّى مشيخة دار الحديث البهائية[٢] بحلب، ثم قدم مصر وتولَّى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصري سنة ٦٤٢، وبقي بها إلى أن توفي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٦٢[٣]، ودفن بسفح المقطَّم، وكان الجمع كبيرًا، وهو أحد الأئمّة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل، وأحد المشايخ الصوفية، له في ذلك إشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعاني الشعر، وكان صالح الفكرة في حلّ التراجم، مع ما جُبِل عليه من كرم الأخلاق، واطِّراح التكلّف، ورقّة الطبع، ولين الجانب.

ومن شعره قوله: [الطويل]

نَصِبْتُ[٤] ومثلي للمكارم يَنْصَبُ ... ورُمْتُ شُرُوقَ الشمس وهي تُغَرِّبُ
وحاولْتُ إحياءَ النفوسِ بأَسْرِها ... وقد غَرْغَرَتْ[٥] يا بُعْدَ ما أنا أطلبُ
وأتعَبُ إنْ لم تمنحِ الخلقَ راحةً ... وغيريَ إن لم تتعب الخلقَ يتعبُ
مُرَاديَ شيءٌ والمقاديرُ غيره ... ومَنْ عاند الأقدارَ لا شكَّ يُغْلَبُ

وقوله[٦]: [الطويل]

إلى كم أُمَنِّي النَّفْسَ ما لا تَنَالُهُ ... فيذهبَ عمري والأمانيُّ لا تُقْضَى
وقد مَرَّ لي خمسٌ وعشرون حِجَّةً[٧] ... ولم أرْضَ فيها عِيشَتِي فمتى أرضى

---

(١) ترجمة محمد بن سراقة في فوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٤٥).
(٢) في طبعة عبد الحميد: «البهادية». والتصويب عن فوات الوفيات.
(٣) في طبعة عبد الحميد: ٦٦٣.
(٤) نَصِبَ: جَدَّ واجتهد. لسان العرب (نصب).
(٥) غَرْغَرَ: جاد بنفسه عند الموت. لسان العرب (غرغر).
(٦) الأبيات ما عدا الأخير في فوات الوفيات.
(٧) الحِجَّة: السنة. لسان العرب (حجج).

وأعْـلَمُ أنِّـي والـثـلاثـون مُـدَّتِـي حَـرٍ بمَغَـانِي اللَّهْـو أُوسِعُهَـا رَفْضـا[1]
فمـاذا عَسَـى في هــذه الـخمس أرْتَـجِي ووَجْـدِي إلى أوْبٍ من العشـر قـد أفْضَى
فَيَـا رَبِّ عـجِّـلْ لِـي حَـيَـاةً لـذيـذَةً وإلاَّ فبـادِرْ بي إلـى العَـمَـلِ الأرْضَى[2]

وقال رحمه اللَّه تعالى[3]: [مخلع البسيط]

وصـاحِـبٍ كـالـزُّلَالِ يَـمْـحُـو صَـفَـاؤُهُ الشَّـكَّ بـالـيَـقِـيـنِ
لـم يُـحْصِ إلاَّ الـجـمـيـلَ مِـنِّي كـأَنَّـهُ كـاتـبُ اليـمـينِ

وهذا عكس قول المنازي[4]: [مجلع البسيط]

وصـاحِـبٍ خـلْـتـه خَـلـيـلاً ومـا جَـرَى غَـدْرُه بـبـالِـي
لـم يُـحْصِ إلاَّ الـقـبـيـحَ مـنِّـي كـأنـه كـاتـبُ الـشـمـالِ

٤١ ـ ومنهم أبـو عبد اللَّه محمـد بن أحمـد الفِـرِّيشي ـ بكسـر الفـاء، وتشـديـد الـراء المهملة، بعدها شين معجمة ـ نسبة إلى فِرِّيشَ[5] إحدى مدائن قُرْطُبة.

وُلد بغَرْنَاطَة سنة ٥٥٧، وقرأ بالروايات على أبي القاسم بن غالب، وسمع عليـه وعلى أبي القـاسم بن بَشْكُوال وغيـره، وسمع بمكّـة، وحدّث بمصـر، وعـاد إلى الأنـدلس فمـات بقرطبة سنة ٦٣٣، وكان مشهورًا بالصلاح، معروفًا بإجابة الدعاء، وَرِعًـا ثقةً زاهـدًا فاضـلاً، رحمه اللَّه تعالى!.

٤٢ ـ ومنهم أبـو عبد اللَّه محمـد بن محمد بن خَيـرُون[6]، وقيل: محمـد بن عمـر بن خيرون.

---

(١) رواية عجز البيت في فوات الوفيات هي:

وخَيْـرُ مغـاني اللهـو أُوسِعُهَـا ركـضـا

(٢) هذا البيت لم يرد في طبعة دار صادر.

(٣) البيتان في فوات الوفيات (ص ٢٤٦) دون تغيير عمّا هنا.

(٤) هـو أبو نصـر أحمد بن يـوسف المنازي الكـاتب الشاعـر. تـوفي سنة ٤٣٧ هـ. وفيـات الأعيـان (ج ١ ص ١٤٣).

(٥) الفِرِّيشي: نسبة إلى فِرِّيش وهي مدينة بالأندلس بين الجوف والغرب من قرطبة. وتبعد عن قرطبة أربعين ميلاً. الروض المعطار (ص ٤٤٠) ومعجم البلدان (ج ٤ ص ٢٥٩).

(٦) تـرجمة محمـد بن خيرون في جـذوة المقتبس (ص ٥٤) وبغية الملتمس (ص ٧٣) وفيهمـا أن لقبه أبـو جعفر.

أندلسي، سكن القيروان، ورحل إلى المشرق، وأخذ القراآت بمصر عن محمد بن سعيد الأنماطي وغيره كعبد الله[1] بن رَجَاء وأبي الحسن إسماعيل[2] بن يعقوب الأزرق المدني، ودخل العراق، وسمع به من أصحاب علي بن المدني[3] ويحيىٰ بن مَعِين، وعاد إلى القَيروان، وسمع بها وبقرطبة، وقدم بقراءة نافع على أهل إفريقية، وكان الغالبَ على قراءتهم حرفُ حمزة، ولم يكن يقرأ بحرف نافع إلاَّ الخواصّ، حتى قدم بها فاجتمع إليه الناس، ورحل إليه أهل القيروان من الآفاق، وكان يأخذ أخذًا شديدًا على مذهب المشيخة من أصحاب وَرْشٍ، وتُوُفي بشعبان سنة ٣٠٦، وكان رجلاً صالحًا فاضلاً كريمَ الأخلاق، إمامًا في القراآت، مشهورًا بذلك، ثقةً، مأمونًا، وأحد أهل زمانه وأئمّتهم في علم القرآن، رحمه الله تعالى!.

٤٣ ـ ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بُنْدَار، القيسي، الأندلسي، المالَقِي[4].

وُلد بمالَقَة سنة ٦٢٥ وسمع الكثير، وقدم القاهرة حاجًّا فسمع بها وبدمشق وكتب بخطِّه كثيرًا، وكان سريع الكتابة، سريع القراءة، كثير الفوائد، ديِّنًا، خيِّرًا، فاضلاً، له مشاركة جيدة في عدّة علوم، توفي شابًّا بالقاهرة سنة ٦٦٢، رحمه الله تعالى!.

٤٤ ـ ومنهم أبو بكر محمد الزُّهْرِي، المعروف بابن محرز، البَلَنْسِي[5].

وُلد بها سنة ٥٢٩، وقدم مصر فسمع ابنَ الفضل وغيره، وروى عنه جماعة، وكان أحد رجال الكمال علمًا وإدراكًا وفصاحةً وحفظًا للفقه وتفنّنًا في العلوم ومتانةً في الأدب، حافظًا للغة والغريب، وله شعر رائق، ودين متين، وأخذ الناسُ عنه ببلدهِ وبمُرْسِيَة وإشبيلية ومالَقَة، وغَرْنَاطة في اجتيازِه عليها، وبغيرها من البلاد، وعَلاَ صيتُه، وعُرف بالدِّين والعلم والفضل، وكان أبو الخطاب يثني على علمه ودينه. توفي ببَجَاية سنة ٦٥٥ عن سنّ عالية، رحمه الله تعالى!.

---

(١) في طبعة دار صادر: «كعبيد بن رجاء».

(٢) في طبعة بولاق: «وأبي الحسن بن إسماعيل».

(٣) في طبعة دار صادر: «المديني».

(٤) ترجمته في الوافي بالوفيات (ج ١ ص ٢٠٠).

(٥) هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن سليمان، أبو بكر الزهري البلنسي. ترجمته في التكملة (ص ٦٦٤) والوافي بالوفيات (ج ١ ص ١٩٨).

٤٥ ـ ومن الراحلين[١] من الأندلس إلى المشرق القاضي أبو الوليد الباجي[٢]، صاحب التصانيف المشهورة.

وقال ابن ماكولا في حقّه: إنه فقيه، متكلّم، أديب، شاعر، سمع بالعراق، ودرس الكلام وصنّف إلى أن مات، وكان جليلاً رفيع القَدْر والخطر.

وقال غير واحد: إنه وُلد سنة ٤٠٣، وارتحل سنة ٤٢٦، وجاور ثلاثة أعوام ملازمًا لأبي ذر الهَرَوِي الحافظ يخدمه، ورحل إلى بغداد ودمشق، ولقي في رحلته غير واحد، وتفقّه بالقاضي أبي الطيب الطّبري وغيره.

وقال أبو علي بن سكرة[٣]: ما رأيتُ مثل أبي الوليد الباجي، وما رأيتُ أحدًا على هيئته وسَمْته وتوقير مجلسه، ولَمَّا كنتُ ببغداد قدم ولدُه أبو القاسم، فسرْتُ معه إلى شيخنا قاضي القضاة الشاشي، فقلْتُ له: أدام اللّه تعالى عزَّك! هذا ابن شيخ الأندلس، فقال: لعلّه ابنُ الباجي، فقلْتُ: نعم، فأقبَلَ عليه.

قال القاضي عياض: وكَثُرَتِ القَالَةُ في القاضي أبي الوليد لمداخلته الرؤساء، ووُلّي قضاء أماكن تصغر عن قدره، وكان يبعث إلى تلك النواحي خلفاءه، وربّما أتاها المرّة ونحوها، وكان في أول أمره مُقِلاً حتى احتاج إلى القَصْد بشعره، واستأجر نفسه مدّة مقامه ببغداد، فيما سمعْتُهُ مستفيضًا، لحراسة دَرْبٍ. وقد جمع ابنه شِعره.

قال: ولَمَّا قدم الأندلسَ وَجَد لكلام ابن حزم طلاوة، إلَّا أنه كان خارجًا عن المذهب، ولم يكن بالأندلس مَنْ يشتغل بعلمه، فقصرتْ ألسنةُ الفقهاءِ عن مُجَادلته وكلامه، واتّبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل، وحلَّ بجزيرة مَيُورقَةَ، فرأس فيها، واتّبعه أهلُها، فلما قدم أبو الوليد كلّموه في ذلك، فدخل إليه، وناظره وشهر باطله، وله معه مجالس كثيرة.

---

(١) في طبعة دار صادر: «وممّن ارتحل...».

(٢) هو سليمان بن خلف، أبو الوليد الباجي، وترجمته في قلائد العقيان (ص ١٨٧) والمغرب (ج ١ ص ٤٠٤) وبغية الملتمس (ص ٣٠٢) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٩٥) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٤٠٨) والذخيرة (ق ٢ ص ٩٤) والصلة (ص ٣١٧).

(٣) أبو علي بن سكّرة هو القاضي حسين بن محمد بن فِيْرّه الصدفي، وسيترجم له المقري في هذا الجزء (رقم ٤٨).

ولمَّا تكلَّم أبو الوليد في حديث الكتابة يوم الحديبية الذي في البخاري قال بظاهر لفظه، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره بإجازة الكَتْب[1] على الرسول الأُمِّي، ﷺ، وأنه تكذيب للقرآن، فتكلَّم في ذلك مَنْ لم يفهم الكلام، حتى أثاروا عليه الفتنة وقبَّحوا عليه عند العامّة ما أتى به، وتكلّم به خطباؤهم في الجمع، وقال شاعرهم: [البسيط]

بَرِئْتُ مِمَّنْ شَرَى دُنْياه بآخرةٍ وقال: إن رسول اللَّه قد كَتَبا

فصنَّف أبو الوليد، رحمه اللَّه تعالى، رسالة بَيَّنَ فيها أن ذلك غير قادح في المعجزة، فرجع بها جماعة؛ إذ ليس مَنْ عَرَفَ أن يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه أمِّيًا لأنه لا يُسَمَّى كاتبًا، وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة العلامة وهم أمِّيون، والحكم للغالب لا للصورة النادرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنّا أُمَّة أمّيون» أي: أكثرهم كذلك، لندور الكتابة في الصحابة، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾[2] انتهى، وبعضه بالمعنى.

وذكر ابنُ بَسَّام أن أبا الوليد الباجي نشأ وهمّته في العلم، وأنه بدأ بالأدب، فبرز في ميادينه، وجعل الشعر بضاعته، فنال به من كل الرغائب، ثم رحل فما حلَّ بلدًا إلَّا وَجَده ملآنَ بذكره[3]، نَشْوَانَ مِنْ قَهْوَتَي[4] نظمه ونثره، فمال إلى علم الديانة، فمشى بمقياس، وبنى على أساس، حتى صار كثيرٌ من العلماء يسمعون منه، يرتاحون للأخذ عنه، ثم كَرَّ واستُقْضِي في طريقه بحلب، فأقام بها نحوًا من عام.

قال: وبلغني عن ابن حزم أنه كان يقول: لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلَّا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم.

وصَنَّف أبو الوليد كتبًا كثيرة منها كتاب «التسديد، إلى معرفة التوحيد» وكتاب «سنن المنهاج، وترتيب الحِجَاج» وكتاب «إحكام الفصول، في أحكام الأصول» وكتاب «التعديل والتجريح، لِمَنْ خَرَّجَ عنه البخاري في الصحيح» وكتاب «شرح الموطأ» وهو نسختان:

---

(١) سيرد ذكر هذا الأمر بعد قليل في هذا الجزء (ص ٢٨٨).

(٢) سورة الجمعة ٦٢، الآية ٢.

(٣) هذا القول كناية عن ذيوع صيته.

(٤) القَهْوَةُ: الخمر.

نسخة سمّاها «الاستيفاء»، ثم انتقى منها فوائد سمّاها «المنتقى» في سبع مجلدات، وهو أحسن كتاب أُلِّف في مذهب مالك؛ لأنه شرح فيه أحاديثَ الموطّأ، وفرَّعَ عليها تفريعًا حسنًا، وأفرد منه شيئًا سمّاه «الإيماء»، وقال بعضهم: إنه صَنَّف كتاب «المعاني» في شرح الموطأ» فجاء عشرين مجلدًا عديم النظير، وكان أيضًا صنَّف كتابًا كبيرًا جامعًا بلغ فيه الغاية سَمّاه «الاستيفاء» وله كتاب «الإيماء» في الفِقْه، خمس مجلدات، انتهى.

ومن تصانيفه «مختصر المختصر» في مسائل المدوّنة، وله كتاب «اختلاف الموطّأ» وكتاب «الإشارة في أصول الفقه» وكتاب «الحدود» وكتاب «سنن الصالحين» وكتاب «التفسير» لم يتمّه، وكتاب «شرح المنهاج» وكتاب «التبيين، لسبيل المهتدين» في اختصار فرق الفقهاء وكتاب «السراج» في الخلاف، ولم يتمّ، وغير ذلك.

وحَجَّ الباجي، رحمه اللّه تعالى، أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازمًا لأبي ذر عبد بن أحمد الهَرَوي، وكان يُسَافر معه للسَّرَوَات[1]؛ لأنَّ أبا ذرّ تزوّج من العرب، وسكن بها.

وأبو ذرّ المذكور هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن غفير الأنصاري المالكي، ويعرف بابن السمّاك[2]، سمع بهَرَاة وسَرَخسَ وبَلخ ومَرْو والبصرة وبغداد ودمشق ومصر، وجاور بمكّة، وألَّف معجمًا لشيوخه، وعمل الصحيح، وصنَّف التصانيف. قال الخطيب: قدم أبو ذرّ بغداد وأنا غائب، فحدث بها، ثم حَجَّ وجاور، ثم تزوّج في العرب، وسكن السَّروات، وكان يحجُّ كلَّ عام ويحدث ثم يرجع[3]، وكان ثقة ضابطًا ديِّنًا، وقال الحسن بن بقي المالقي: حدّثني شيخي قال: قيل لأبي ذرّ: مِنْ أين تَمَذْهَبْتَ بمذهب مالك ورأي الأشعري مع أنّك هَرَوي؟ فقال: قدمْتُ بغداد، وكنت ماشيًا مع الدّارقطنيّ، فلقينا أبا بكر ابن الطيب، فالتزمه الدّارقطنيّ، وقَبَّلَ وجهه وعينيه، فلمّا افترقْنا قلْتُ: مَنْ هذا؟ قال: هذا إمام المسلمين، والذابُّ[4] عن الدين، القاضي أبو بكر بن الطيب، فمن ذلك الوقت تكرَّرْتُ إليه وتَمَذْهَبْتُ بمذهبه، انتهى.

---

(١) السروات: عدة مواضع ينسب إليها القوم الذين يحضرون مكة يجلبون المِيرة. معجم البلدان (ج ٣ ص ٢١٧).

(٢) ترجمة أبي ذر الهروي في تذكرة الحفاظ (ص ١١٠٣).

(٣) في طبعة دار صادر: «ويرجع».

(٤) الذابُّ عن الدين: المدافع عنه. لسان العرب (ذبب).

قلت: هذا صريح في أن القاضي أبا بكر الباقلاني مالكي، وهو الذي جزم به غير واحد، ولذا ذكره عياض في المدارك في جملة المالكية، وكذلك شيخُ السّنّة الإمام أبو الحسن الأشعري[1] مالكي المذهب فيما ذكره غير واحد من الأئمّة، وذكر بعض الشافعية أنهما شافعيان، واللّه تعالى أعلم.

وقال عبد الغافر في «تاريخ نيسابور»: كان أبو ذرّ زاهدًا، وَرِعًا، عالمًا، سخيًّا لا يدّخر شيئًا، وصار كبير مشيخة الحرم، مشارًا إليه في التصوّف، خَرَّجَ على الصحيح تخريجًا حسنًا، وكان حافظًا، كثير الشيوخ، توفي سنة ٤٣٥، وقال أبو علي بن سُكرة: توفي عقب شوّال سنة ٤٣٤، وقال الخطيب: في ذي القعدة من سنة أربع وثلاثين، رحمه اللّه تعالى! وأكثر نسخ البخاري الصحيحة بالمغرب إمّا من رواية الباجي عن أبي ذرّ عبد بن أحمد الهروي المذكور، وإمّا من رواية أبي علي الصَّدَفي الشهير المعروف بابن سكرة بسنده.

واعْلَمْ أنّ هَرَاة المنسوب إليها الحافظ أبو ذرّ ليست بَهَرَاة التي وراء النهر نظيرة بَلْخَ، وإنّما هي هَرَاة بني شيمانة بالحجاز[2]، وبها كان سكنى أبي ذرّ، واللّه تعالى أعلم.

رَجْعٌ إلى القاضي أبي الوليد الباجي رحمه اللّه تعالى - ثم إنه - أعني الباجي - قدم بغداد، وأقام بها ثلاثة أعوام يُدَرِّس الفقه، ويقرأ الحديث، فلقي بها عدّة من العلماء كأبي الطيب الطبري والإمام الشهير أبي إسحٰق الشيرازي والصَّيمَري وابن عُمروس المالكي، وأقام بالموصل سنة مع أبي جعفر السِّمْناني يأخذ عنه علم الكلام؛ فبرع في الحديث وعِلله ورجاله، وفي الفقه وغوامضه وخِلَافه، وفي الكَلام ومضايقه، وتدبّج مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي بحيث روى كلٌّ واحد منهما عن الآخر، رضي اللّه تعالى عنهما ونفع بهما! ورجع إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جَمٍّ حَصَّلَه مع الفَقْر والتَّعفُّف.

---

(١) هو علي بن إسماعيل بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول اللّه ﷺ، توفي سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة، وقيل: ٣٢٤ هـ. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٢٨٤) والبداية والنهاية (ج ١١ ص ١٨٧) وتاريخ بغداد (ج ١١ ص ٣٤٦).

(٢) ليس في معاجم المواضع اسم «هراه» أو قوم اسمهم «بنو شيمانة»، وإنما جاء في معجم البلدان (ج ٣ ص ٣١٧ في مادة: شبابه) ما يلي: «سراة بني شبابة، بفتح أوله، وبعد الألف باء موحدة أخرى: من نواحي مكة، ينسب إليها أبو جميع عيسى ابن الحافظ أبي ذرّ عبد اللّه بن أحمد الهروي الشبابي، حدّث بهذا الموضع عن أبيه أبي ذرّ...».

وممَّا يفتخر به أنه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البرّ والخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادي، وناهيك بهما، وهما أسنُّ منه وأكبر، وأبو عبد اللَّه الحميدي، وعلي بن عبد اللَّه الصِّقلي، وأحمد بن علي بن غَزْلُون، وأبو بكر الطرطوشي، وأبو علي بن الحسين السَّبْتي، وأبو بحر سفيان بن العاصي، ومِمَّنْ روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد. وكان لَمَّا رَجَعَ إلى الأندلس فَشَا عِلْمُه، وتهيَّأتِ الدنيا لـه، وعظم جاهُه، وأُجْزلتْ له الصِّلات، فمات عن مال وافر، وترسل[1] للملوك، ووُلِّي القضاء بعدّة مواضع، رحمه اللَّه تعالى!.

وأما ما تقدَّم عن القاضي أبي الوليد الباجي من إجراء حديث الكتابة على ظاهره فهو قول بعض، والصوابُ خلافه، قال القاضي أبو الفضل عياض: حدّثنا محمد بن علي المعروف بابن الصيقل الشاطبي من لفظه، قال: حدّثني أبو الحسن بن مُفَوِّز قال: كان أبو محمد بن أحمد بن الحاج الهوّاري من أهل جزيرة شُقْر مِمَّنْ لازم الباجي وتفقّه عنده، وكان يميل إلى مذهب الباجي في جواز مباشرة النبيّ، ﷺ، الكتابةَ بيده في حديث المقاضاة في الحديبية على ما جاء في ظاهر بعض رواياته، ويعجب به، وكنت أنكر ذلك عليه، فلمّا كان بعد بُرْهَة أتاني زائرًا على عادته، وأعلمني أنّ رجلاً من إخوانه كان يَرَى في النوم أنه بالمدينة، وأنه يدخل المسجد، فيرى قبر النبيّ، ﷺ، أمامه، فتحدث[2] له قُشَعْرِيرَة وهيبة عظيمة، ثم يراه ينشَقُّ ويميد، ولا يستقرّ، فيعتريه منه فَزَع عظيم، وسألني عن عبارة رؤياه، فقلْتُ: أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول اللَّه، ﷺ، بغير صفته، أو ينحله[3] ما ليس له بأصل[4]، أو لعلّه يفتري عليه، فسألني باللَّه[5] من أين قلت هذا؟ قلت له: من قول اللَّه عَزَّ وجَلَّ ﴿ تَكادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ منه ﴾ ـ إلى قوله تعالى: ﴿ ولدًا ﴾[6] فقال لي: للَّه دَرُّكَ يا سيدي! وأقبل يُقَبِّلُ رأسي وبين عَينيَّ، ويبكي مرّة ويضحك أخرى، ثم قال لي: أنا صاحب الرؤيا، واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك، قال: إنه لَمَّا رأيتني في ذلك الفزع العظيم كنت أقول: واللَّه ما هذا إلاَّ أنني أقول وأعتقد أن رسول اللَّه، ﷺ،

(١) تَرَسَّلَ للملوك: كتب لهم الرسائل. لسان العرب (رسل).
(٢) في طبعة دار صادر: «فيجد له».
(٣) ينحله: ينسب إليه. لسان العرب (نحل).
(٤) في طبعة ليدن: «بأهل».
(٥) كلمة «باللَّه» غير واردة في طبعة دار صادر.
(٦) سورة مريم ١٩، الآيات ٩٠، ٩١، ٩٢.

كَتَبَ، فكنتُ أبكي وأقول: أنا تائب يا رسول اللّه، وأكرّر ذلك مرارًا، فأرى القبر قد عاد إلى هيأته أوّلاً، وسكن، فاستيقظت، ثم قال لي: وأنا أشهد أن رسول اللّه، ﷺ، ما كتب قطّ حرفًا، وعليه ألقى اللّه تعالى، فقلت: الحمد للّه الذي أراك البرهان، فاَشْكُر له كثيرًا، انتهى.

وقال ابن الأبار: حدّثني بهذه الحكاية أبو الربيع بن سالم بقراءتي عليه، عن الكاتب أبي بكر عبد الرحمن بن مُغَاور قراءةً عليه، عن القاضي أبي جعفر[1] أحمد بن عبد الرحمن بن جَحْدر، عن أبي الحسن طاهر بن مُفَوِّز قال: كان أبو محمد ـ إلى آخرها ـ، وهي أتمّ من هذه، انتهى.

رجع إلى الباجي ـ ذكر أبو العرب عبد الوهاب البقساني بسنده إلى القاضي أبي الوليد الباجي أنه كان يقول، وقد ذكر له صحبة السلطان: لولا السلطان لنقلتني الذرُّ من الظِّلِّ إلى الشمس، أو ما هذا معناه، انتهى.

ومن فوائد الباجي أنه حكى أن الطلبة كانوا يتناوَبُون[2] مجلس أبي علي البغدادي، واتّفق أنه كان يوم مَطَر[3] ووَحَل، فلم يحضر من الطلبة سوى واحد، فلمّا رأى الشيخ حرصه على الاشتغال وإتيانه في تلك الحال أنشده[4]: [البسيط]

دَبَبْتَ للمْجدِ والساعُونَ قد بَلَغُوا ... حَدَّ[5] النفوسِ وألْقَوا دُونَه الأُزُرَا
وكابَدُوا المَجْدَ حتّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ ... وعَانَق المَجْدَ مَنْ وافى[6] ومَنْ صَبَرَا
لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنتَ آكِلُه ... لَنْ تَبلُغَ المَجْدَ حتى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

انتهى[7].

---

(١) في طبعة دار صادر: «أبي حفص».
(٢) في طبعة دار صادر: «يتنابون».
(٣) في طبعة دار صادر: «كان يومًا مَطَرٌ...».
(٤) الأبيات في الأمالي في لغة العرب (ج ١ ص ١١٢ ـ ١١٣).
(٥) في الأمالي: «جهد النفوس».
(٦) في المصدر نفسه: «من أوفى».
(٧) كلمة «انتهى» لم ترد في طبعة عبد الحميد.

وروى عن القاضي أبي الوليد الباجي، رحمه اللّه تعالى، الخطيبُ البغدادي قوله رحمه اللّه تعالى[1]: [المتقارب]

إذا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمَ اليقينِ ... بأنَّ جميعَ حياتي كسَاعَهْ
فَلِمْ لا أكونُ ضَنِينًا بها ... وأجْعَلُها في صلاح وطاعَهْ

وقد ذكرناهما فيما يأتي قريبًا من كلام الفتح[2]؛ لكوننا نقلْنا كلامه بلفظه، رحمه اللّه تعالى، ورضي عنه!.

وقال في القلائد في حقِّ الباجي رحمه اللّه تعالى، ما صورته: بَدْرُ العلوم اللائح، وقَطْرُها الغادي الرائح، وثبيرها الذي لا يُزْحم، ومُنِيرُها الذي ينجلي به ليلها الأسحم، كان إمام الأندلس الذي تُقْتَبس أنواره، وتُنْتَجَع نجُودُه وأغْواره، رحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهرًا، وقَطَفَ من العلم أزاهرًا، وتفنَّن في اقتنائه، وثنى إليه عِنَانَ اعتنائه، حتى غدا مملوء الوِطاب، وعاد بَلَحُ طلبه إلى الإرطاب، فَكَرَّ إلى الأندلس بَحْرًا لا تخاضُ لجَجُه، وفجرًا لا يُطْمَسُ منهجه، فتهادتْه الدول، وتلقَّتْه الخيل والخَوَل[3]، وانتقل من مَحْجِر إلى ناظر، وتبدّل من يانع بناضر، ثم استدعاه المقتدر[4] باللّه فصار إليه مرتاحًا، وبَدَا بأفقه مُلْتاحًا، وهناك ظهرت تواليفه وأوضاعه، وبدا وَخْدُه في سُبُل الهدى[5] وإيضاعه، وكان المقتدر يباهي بانحياشه إلى سلطانه، وإيثاره لحَضْرَته باستيطانه، ويحتفل فيما يرتبه له ويُجْرِيه، وينزله في مكانه متى كان يُوَافيه، وكان له نَظْم يوقفه على ذاته، ولا يصرفه في رَفَث القول وبَذَاتِهِ[6].

---

(١) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٨٨) والمغرب (ج ١ ص ٤٠٤) وبغية الملتمس (ص ٣٠٣) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٩٥) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٤٠٨- ٤٠٩) والذخيرة (ق ٢ ص ٩٨) والصلة (ص ٣١٩).

(٢) سيأتي ذلك (ص ٢٩١) من هذا الجزء.

(٣) الخَوَلُ، بالفتح: الإماء والحاشية. محيط المحيط (خول).

(٤) هو المقتدر بن هود، صاحب سرقسطة.

(٥) في طبعة دار صادر: «سبل العلم». والوخد والإيضاع: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخد) و (وضع).

(٦) رَفَثُ القول: فحش الكلام. بذاته: أي بذاءته.

فمن ذلكَ قوله في معنى الزهد: [المتقارب]

إذا كــنــتُ أَعْــلَـمُ عِــلْـمَ الــيَــقــيــنِ ... بــأنَّ جـمـيـعَ حـيــاتي كـســاعَــةْ
فَــلِـمْ لا أكــونُ ضَــنِـيــنًــا بــهــا ... وأَجْـعَـلُهــا فــي صــلاحٍ وطــاعَــةْ

وله يرثي أبنيه وماتا مغتربَين، وغربا كوكبين، وكانا ناظري الدّهر، وساحري النَّظْمِ والنثر[1]: [الطويل]

رَعَى اللَّه قَبْـرَيـنِ اسْتَكَـانَـا ببلدَةٍ ... هُمـا أُسْكنـاهـا في السَّـواد مِنَ القَلْبِ
لَئِـنْ غُيِّـبَـا عـن نـاظـري وتَـبَـوَّءا ... فُؤادي لقـد زاد التبـاعـدُ في القُـرْبِ
يَـقَـرُّ بـعَـيـنـي أنْ أزورَ ثـراهـمـا ... وأُلْـصِقَ مَكْنُـونَ التـرائب بـالـتُّـرْبِ
وأبْكِـي وأُبْكِـي ساكِنيهـا لعَلَّنِي ... سـأنجـدُ مِنْ صَحْبٍ وأُسْعـدُ مِنْ سُحْبِ
فمـا سـاعَـدَتْ وُرْقُ الحَمَـام أخـا أسًى ... ولا رَوَّحَتْ ريـحُ الصَّبَـا عن أخي كَـرْب
ولا اسْتَعْـذَبَتْ عينـاي بَعْـدَهُمـا كـرًى ... ولا ظَـمِئَتْ نـفسي إلى البـارد العَـذْب
أحِـنُّ ويثـني اليـأسُ نفسي عـن الأسى ... كما اضْطُرَّ محمـولٌ على المَرْكَبِ الصَّعْبِ

وله يرثي ابنه محمدًا[2]: [الكامل]

أمحمـدًا، إنْ كُنْتُ بَعْـدَكَ صـابـرًا ... صَبْـرَ السليـمِ لـمـا بـه لا يَسْـلَمُ
ورُزِئْـتُ قَبْـلَكَ بـالـنـبيِّ مـحـمـدٍ ... ولَـرُزْؤه[3] أدْهَـى لـديَّ وأعـظَمُ
فـلقـد علمْـتُ بـأنـني بـك لاحِقٌ ... مِـنْ بَعْـدِ ظَـنِّـي أنَّـنـي مُـتَـقَـدِّمُ
لـلَّه ذِكْـرٌ لا يـزالُ بـخـاطـري ... مُـتَـصَـرِّفٌ في صَبْـرِهِ مـتـحـكـم[4]
فـإذا نـظرْتُ فَشَخْـصُـهُ مُتَـخَيَّـلٌ ... وإذا أصَـخْـتُ[5] فـصـوتُـهُ مُـتَـوَهَّـمُ
وبـكـلِّ أرضٍ لـي مِـنَ آجـلك لَـوْعـةٌ ... وبـكـلِّ قَـبْـرٍ وقـفـةٌ وتَـلَـوُّمُ[6]

---

(١) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٨٨) والمغرب (ج ١ ص ٤٠٥). وفي وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٤٠٨) البيتان الثاني والثالث فقط.
(٢) الأبيات في قلائد العقيان (ص ١٨٨) والذخيرة (ق ٢ ص ١٠١) وفي روايتها بعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) الرُّزْءُ: المصيبة. لسان العرب (رزأ).
(٤) في طبعة دار صادر: «مستحكم».
(٥) أصاخَ: استمع وأصغى. محيط المحيط (صوخ).
(٦) التَّلَوُّمُ: التلبّث والانتظار والتمهّل. لسان العرب (لوم).

فـإذا دَعَـوتُ سـواكَ حـاد عـن آسمِـهِ ودعـاه بـاسْمِـكَ مُعـولٌ بـك مُـغْـرَمُ
حُـكْمُ الـردَى ومنـاهـج قـد سَنَّـهَـا لأولـي النُّهَىٰ والـحُـزْن قَبْـلُ مُتَمِّمُ[1]

انـتـهـى[2].

ولعمري إنه لم يُوفِ القاضي أبا الوليد الباجي حَقَّه الواجب المفترض، ووددْتُ أنه مَدَّ النَّفَسَ في ترجمته بعبارة يعترف[3] ببراعتها مَنْ سَلّم له ومن اعترض، فإنَّ ترجمة المذكور ممّا سطَّره أفسحُ مجالاً، وأفصحُ رويَّة وارتجالاً، وبالجملة فهو أحد الأعلام بالأندلس[4]، وهو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التُّجيبي، وذكره ابنُ بَسَّام في الذخيرة وابن خلِّكان وغيرُ واحد، وأصله من بَطَلْيوس، وانتقل جدّه إلى بَاجَةَ قرب إشبيلية، وليس هو من باجة القيروان، ومولده سنة ٤٠٣، ورحل سنة ٤٢٦، فقدم مصر، وسمع بها، وأَجَّر نفسه ببغداد لحراسة الدروب، وكان لَمَّا رَجَعَ إلى الأندلس يضرب ورق الذهب، ويعقد الوثائق، إلى أن فَشَا علمه، وتهيأت له الدنيا، وشهرتُهُ تغني عن وصفه.

ومن نظمه قوله[5]: [الكامل]

مـا طـالَ عهـدي بـالـديـار، وإنَّمـا أنْسَـى مَعَـاهِـدَهَـا أَسًـى وتَـبَـلُّدُ
لـو كُنْتُ أَنْبـأتُ الـديـارَ صَبَـابتي رَقَّ[6] الصَّفَـا بِفِنـائِهـا والجَلْمَـدُ

وله في المعتضد بن عباد والد المعتمد[7]: [مخلع البسيط]

عَـبَّـادُ آسْتَـعْـبَـدَ الْـبَـرَايـا بـأَنْـعُـمٍ تَـبْـلُغُ الـنـعـائـمْ
مَـديـحُـه ضِمْـنَ كـلِّ قَلْبٍ[8] حـتـى تَـغَـنَّـتْ بـه الـحَـمـائـمْ

(١) متمِّمُ: هو متمم بن نويرة الذي أكثر من رثاء أخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد، وهو هنا فاعل سنها. الأغاني (ج ١٥ ص ٢٨٩ وما بعدها).
(٢) كلمة «انتهى» لم ترد في طبعة عبد الحميد.
(٣) في طبعة دار صادر: «بعبارته الي يعترف...».
(٤) في الطبعة نفسها: «أعلام الأندلس».
(٥) البيتان في الذخيرة (ص ٩٩) ضمن قصيدة طويلة.
(٦) في الذخيرة: «نحل».
(٧) البيتان في الذخيرة (ص ١٠٠).
(٨) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:
مـديـحُـهُ خـيـمُ كـلِّ نَـفْسٍ

ومن أشهر نظمه قوله:

إذا كنت أعلم - البيتين، وقد سبقا[١].

ومِمَّنْ ذكره أيضًا الحِجَاري في المسْهب، وابن بَشْكُوَال في الصِّلة، وأنه حَجَّ أربع حجج، رحمه اللَّه تعالى! وتوفي في ألمَرِيَّة لإحدى عشرة بقيت من رجب، وقيل: ليلة الخميس تاسع رجب، وقيل[٢]: تاسع عشر صفر، سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ومن تواليفه «المنتقى، في شرح الموطأ» ذهب فيه مذهب الاجتهاد وإيراد الحجج، وهو مِمَّا يدلُّ على تبحّره في العلوم[٣] والفنون، ولَمَّا قدم من المشرق إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عامًا وجد ملوك الطوائف أحزابًا مفترقة، فمشى بينهم في الصلح، وهم يُجِلُّونَهْ في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبردون نزعته، ولم يفد شيئًا، فاللَّه تعالى يجازيه عن نيّته، ولَمَّا ناظر ابنَ حزم قال له الباجي: أنا أعظم منك هِمَّةً في طلب العلم؛ لأنَّك طلبْتَه وأنتَ مُعَان عليه[٤] تسهر بمشكاة الذهب وطلبتُه وأنا أسهر بقنديلٍ بائتِ السوقِ[٥]، فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنك إنّما طلبْتَ العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبْتُه في حين ما تعلمه وما ذكرتَه، فلم أَرْجُ به إلاَّ علوَّ القَدْر العلمي في الدنيا والآخرة، فأفحمه.

قال عياض: قال لي أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء، وفي يده أثر المِطْرَقة، إلى أنْ فَشَا عِلْمُه ونوهت الدنيا به، وعظم جاهه، وأُجْزِلَتْ صِلاتَه، حتى مات عن مال وافر، وكان يستعمله الأعيان في ترسُّلهم، ويقبل جوائزهم، ووُلِّي القضاء بمواضع من الأندلس.

وابن حزم المذكور هو أبو محمد بن حزم الظاهري[٦]، قال ابن حيان وغيره: كان ابنُ حَزْم صاحبَ حديث وفِقْه وجَدَل، وله كتب كثيرة في المنطق والفلسفة لم يَخْلُ فيها من

---

(١) هما في الزهد، وقد تقدّما (ص ٢٩٠).

(٢) عبارة: «تاسع رجب، وقيل» غير واردة في طبعة ليدن.

(٣) في طبعة دار صادر: «تبحره في الفنون».

(٤) كلمة «عليه» غير واردة في طبعة ليدن.

(٥) يريد بقوله: إنه يسهر بقنديل بائت السوق: أي يسهر على قنديل الدّرّاب وهو الحارس الليلي، وسمي بذلك لأنه كان يبيت في السوق للحراسة.

(٦) مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٣٤).

غلط، وكان شافعيَّ المذهب، يُناضل الفقهاء[1] عن مذهبه، ثم صار ظاهريًا، فوضع الكتب في هـذا المذهب، وثبت عليـه إلى أن مات، وكـان له تعلُّق بـالأدب، وشَنَّع عليـه الفقهاء، وطَعَنُوا فيه، وأقصاه الملوك وأبعدوه عن وطنه، وتوفي بالبادية[2] عشية يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة.

وقال صاعد في تاريخـه: كان ابن حَـزْم أَجْمَعَ أهـل الأندلس قـاطبةً لعلوم الإسـلام، وأوسعهم معرفة، مع توسّعه في علم اللسان والبلاغة والشعـر والسِّيَر والأخبـار، أخبرني ابنـه الفضل[3] أنه اجتمع عنده بخطِّ أبيه من تواليفه نحو أربعمائة مجلَّد، نقله عن تـاريخ صـاعد الحافظُ الذهبي.

قال الذهبي: وهـو العلاّمـة أبو محمـد علي بن أحمد بن سعيـد بن حزم بن غـالب بن صـالح، الأمـوي، مولاهم، الفـارسي الأصل، الأنـدلسي، القرطبي، الـظاهري، صـاحبُ المصنَّفات، وأوّل سماعه سنة ٣٩٩، وكان إليه المنتهى في الذكاء وحِدَّة الذهن وسعـة العلم بالكتاب والسّنّة والمذاهب والمِلل والنِّحَـل والعربيـة والآداب والمنطق والشعـر، مع الصـدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب.

قال الغزالي رحمه اللّه تعالى: وَجَدْتُ في أسماء اللّه تعالى كتابًا لأبي محمد بن حـزم يدلُّ على عظم حفظه وسَيلان ذهنه، انتهى باختصار.

وعلى الجملة فهـو نَسِيجُ وَحْـدِه، لولا مـا وصف به من سـوء الاعتقـاد، والـوقـوع في السلف الذي أثار عليه الانتقاد، سامحه اللّه تعالى!.

وذكر الذهبي أن عمره اثنتان وسبعون سنة، وهـو لا ينافي قـول غيره: «إنـه كان عمـره إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر»؛ لأنه وِلد، رحمه اللّه تعالى، بقرطبة بالجانب الشرقي في رَبَض مُنْية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صـلاة الصبح آخـر ليلة الأربعاء آخر يوم من شهر رمضان، سنة أربع وثمانين وثلثمائة، بطالع العقرب، وتوفي ليومين بَقِيَا من

---

(١) يناضل الفقهاء: أي يجادلهم.

(٢) يعني قريته التي منها منبته وهي ببادية لبلة، واسمها منت لشم كما سيأتي بعد قليل.

(٣) سيذكر المقري بعد قليل من هذا الجزء ابنه الفضل ويكنى أبا رافع، وسيذكـر أنَّ المؤلّفات الأدبيـة التي كانت عند ابنه المذكور بلغت أربعمائة مجلد وتشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة.

شعبان سنة ٤٥٦، وكان كثيرَ المواظبة على التأليف، ومن جملة تآليفه كتاب «الفِصَل، بين أهل الأهواء والنِّحَل» وكتاب «الصادع والرادع، على مَن كَفَّرَ أهل التأويل من فرق المسلمين والردِّ على فرق التقليد» وكتاب «شرح حديث الموطأ، والكلام على مسائله» وكتاب «الجامع، في حَدِّ[1] صحيح الحديث باختصار الأسانيد والاقتصار على أصحّها» وكتاب «التلخيص والتخليص[2]، في المسائل النظرية وفروعها التي لا نصَّ عليها في الكتاب والحديث» وكتاب «منتقى الإجماع وبيانه من جملة ما لا يعرف فيه اختلاف» وكتاب «الإمامة والخلافة في سِيَر الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها» وكتاب «أخلاق النفس» وكتاب «الإيصال، إلى فهم كتاب الخصال» وكتاب «كشف الالتباس، ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس» انتهى.

وقال ابن سعيد في حقّ ابن حزم، ما ملخَّصُه: الوزير العالم الحافظ أبو محمد علي ابن الوزير أبي عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي، وشهرته تُغْني عن وصفه، وتوفي مَنْفِيًّا بقرية من بلده[3] لَبْلَةَ، ووصله من ابن عمه أبي المغيرة رسالةٌ فيها ما أوجب أنْ جاوَبَه بهذه الرسالة، وهي: سمعْتُ وأطعْتُ، لقوله تعالى: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾[4] وأسلمْتُ وآنْقدْتُ لقول نبيِّه عليه الصلاة والسلام: «صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وآعْفُ عَمَّنْ ظلَمك» ورضيت بقول الحكماء: كفاك انتصارًا مِمَّنْ تعرض لأذاك إعْرَاضُك عنه، وأقول[5]: [المتقارب]

تَتَبَّعْ[6] سِوَايَ آمْرَأً يبتغي ... سِبَابَكَ إنَّ هواكَ السِّبابُ
فإني أَتَيتُ طِلابَ السَّفاه ... ونَزَّهْتُ عِرْضِيَ عَمَّا يُعَابُ[7]
وقُلْ ما بَدَا لكَ مِنْ بَعْدِ ذا ... وأَكْثِرْ فإنَّ سكوتي خطابُ[8]

---

(١) كلمة «حدّ» غير واردة في طبعة دار صادر.
(٢) كلمة «والتخليص» غير واردة في طبعة ليدن.
(٣) في طبعة دار صادر: «بلد».
(٤) سورة الأعراف ٧، الآية ١٩٩.
(٥) الأبيات في المغرب (ج ١ ص ٣٥٦).
(٦) في المغرب: «تَبَغَّ».
(٧) في طبعة دار صادر وفي المغرب. «وصُنْتُ محَلّي عَمّا يُعاب».
(٨) في المغرب: «فإنَّ سكوتي عنه خطاب».

وأقــول[1]: [الطـويـل]

كفــاني بـذكــر النـاس لي ومــآثـري وَمَــا لَــكَ فيهـمْ يـا ابن عَـمِّيَ ذاكِــرُ
عَـدُوِّي وأشيـاعي[2] كثيــرٌ كـذاك مَنْ غَــدَا وهـو نَقَّــاعُ المسـاعي وضـائـر
وإنِّـي وإنْ آذيـتــنـي وعَـقَـقْـتَـنــي لمحتمـلٌ مـا جـاءني منك صـابـر

فـوقَّع لـه أبو المغيـرة على ظهر رقعتـه: قرأْتُ هـذه الرقعـة العاقَّـة، فحين استوعبتهـا أنشدتني: [مجزوء الرجز]

نَــحْــنَــحَ زَيْــدٌ وسَــعَــلْ لَــمَّــا رأى وَقْــعَ الأَسَــلْ

فأردت قطعها، وترك المراجعة عنهـا، فقالت لي نفسي: قـد عَرَفْتَ مكـانها، بـاللَّه لا قَطَعَتْهَا إلاَّ يَدَه، فأثبتُّ على ظهرها ما يكونُ سببًا إلى صونها، فقلت: [المتقارب]

نَـعَقْـتَ ولـم تَــدْرِ كـيـف الـجـوابُ وأخْــطَأْتُ حــتـى أتــاك الــصــوابُ
وأجْـرَيـتَ وَحْـدَكَ فــي حَـلْـبـةٍ نَــأَتْ عنـك فيهــا الْجِيــادُ العِــرابُ
وبِـتَّ مِنَ الـجَهْــلِ مُـسْتَـصْحِـبًـا[3] لـغـيــر قِــرًى فــأتْــتــكَ الــذئــابُ
فـكـيـف تَـبَـيَّـنْـتَ عُـقْـبَـى الـظَّلُوم إذا مــا انْقَضَتْ بـالخميسِ العُقـابُ
لـعـمـري[4] مــا لــي طـبــاعٌ تُـذَمُّ ولا شِـيـمَــةٌ يَــومَ مَــجْــدٍ تُــعَــابُ
أُنِـيــلُ الـمـنــى والـظُّبَـا سُـخَّطٌ وأُعْـطي الـرضـا والعَـوالي[5] غضـاب

وأقــول: [الطـويـل]

وغــاصِـبِ حَـقٍّ أَوبَـقَـتْــهُ الـمـقــادِرُ يُـذَكِّـرُني حـامِيمَ والـرُّمحُ شـاجِرُ[6]
غـدا يستعيـرُ الفخــرَ مِنْ خيم خَصْمـه ويـجـهــلُ أنَّ الـحَـقَّ أبـلجُ ظـاهــرُ

---

(١) الأبيات في المغرب.

(٢) الأشياع: الأتباع، واحدتها شيعة. لسان العرب (شيع).

(٣) في طبعة دار صادر: «مستنبحًا».

(٤) في طبعة دار صادر: «لعمرك».

(٥) العوالي: جمع عالية وهي الرمح. لسان العرب (علا).

(٦) حاميم: هو اسم اللَّه الأعظم، وهو حروف الرحمن. وعجـز البيت هو صـدر بيت للأشتـر النخعي وقيل لشريح بن أوفى العبسي، والبيت هو التالي:

يُـذَكِّرُني حـاميمَ، والـرُّمْـحُ شـاجـرٌ فهـلاَّ تـلا حـاميمَ قبـل التقـدّم؟

والضمير في «يذكرني» هو لمحمد بن طلحة، وقد قتله الأشتر أو شريح. لسان العرب (حمم).

ألـم تـتـعـلَّمْ يـا أخـا الـظُّلْمِ أنـنـي ... بـرغـمـك نـاءٍ مـنـذ عـشـرٍ وآمـرُ
تُـذِلُّ لـيَ الأمـلاكُ حُـرَّ نـفـوسـهـا ... وأركبُ ظَهْـرَ النَّسْرِ والنَّسْـرُ طـائـر
وأبعثُ فـي أهـلِ الـزمـانِ شـواردًا ... تُـلَيِّنُـهُمْ وَهْـيَ الصِّعـابُ الـنـوافـر
فـإنْ أنْـوِ فـي أرضٍ فـإنِّيَ سـائِـرٌ ... وإنْ أنْـأَ عَـنْ قـومٍ فـإنِّي حـاضِـرُ
وحَسْبُـكَ أنَّ الأرض عـنـدك خـاتمٌ ... وأنَّـك في سطح السـلامـةِ عـاثـرُ
ولا لَـومَ عـنـدي في استـراحتك التي ... تَنَفَّسْتَ عـنـهـا والـخـطوبُ فـواقـر
فـإنِّيَ لـلحِلْفِ الـذي مَـرَّ حـافظٌ ... ولـلـنـزعـة الأولى بـحـامِـيـمَ ذاكـرُ
هَـنِـيئًـا لـكـلٍّ مـا لـديـه فـإنَّـنـا ... عَـطِيَّـةُ مَنْ تُبْلَى لـديـه الـسـرائـر

ومن شعر أبي محمد بن حَزْم يخاطب قاضي الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشر(١):

[الطويل]

أنـا الـشمسُ فـي جَـوِّ العلومِ مـنـيـرةً ... ولـكـنَّ عَـيـبـي أنَّ مَـطْلَعِـيَ الـغَـرْبُ
ولـو أنَّني مِنْ جـانبِ الـشـرقِ طـالـعٌ ... لَجَـدَّ على مـا ضـاعَ مِنْ ذكـرِيَ النَّهْبُ
ولـي نـحـو آفـاق الـعـراقِ صَـبـابَـةٌ ... ولا غَـرْوَ أنْ يَسْتَـوحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ
فـإنْ يُـنْـزِل الـرحمنُ رَحْلِيَ بـيـنـهـمْ ... فـحـيـنـئـذٍ يَـبْـدُو الـتـأسُّفُ والكَـرْبُ
فـكم قـائـلٍ أغْـفَلْتُـهُ وهـو حـاضِـرُ ... وأطلبُ مـا عنـه تـجـيءُ بـه الكُـتْـبُ
هـنـالـك يـدري أنَّ لـلعـبـدِ قِـصَّـةً ... وأنَّ كـسـادَ الـعِـلْمِ آفـتُـهُ الـقُـرْبُ
فـيـا عَجَبًـا مَنْ غـابَ عـنهُـمْ تَشَـوَّقُـوا ... لـه، ودُنُـوُّ الـمَـرْءِ مِـنْ دارهـمْ ذَنْـبُ
وإنَّ مـكـانًـا ضـاقَ عـنِّـي لَـضَـيِّـقٌ ... عـلى أنـه فـيـحٌ مَـهَـامِـهُـهُ سُـهْـبُ(٢)
وإنَّ رجـالًا ضَـيَّـعُـونـي لَـضُـيَّـعٌ ... وإنَّ زمـانًـا لـم أنـلْ خِـصْـبَـهُ جَـدْبُ

(١) الأبيات في جذوة المقتبس (ص ٣١٠) وبغية الملتمس (ص ١٤٧) والذخيرة (ق ١ ص ١٧٣). والبيتان الأول والثاني في المغرب (ج ١ ص ٣٥٦). وفي أصول النفح: عبد الرحمن بن بشير، والتصويب عن تاريخ قضاة الأندلس (ص ٨٧) والصلة (ص ٤٨٥). وابن بشر هو عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن محمد بن بشر بن غرسية، أبو المطرف، ويعرف بابن الحصّار. تولّى قضاء الجماعة بقرطبة في عهد علي بن حمود في سنة ٤٠٧ هـ، وظل في منصبه في عهد أخيه القاسم بن حمود. وظل كذلك إلى عام ٤١٩ هـ حيث عزله الخليفة هشام المعتدّ. توفي سنة ٤٢٢ هـ.

(٢) الفيح: الواسعة، جمع فَيحاء. المهامه: الصحارى، جمع مَهْمَة. لسان العرب (فيح) و (مهمه).

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه:

ولكنَّ لي في يوسفٍ خيرَ أُسْوَةٍ   وليس على مَنْ بالنبيِّ ائتسَى ذَنْبُ[1]
يقولُ مقالَ الصِّدْق والحقِّ إنني   حَفِيظٌ عليمٌ، ما على صادقٍ عَتْبُ

وقوله[2]: [البسيط]

لا يشمتنْ حاسدي إنْ نكبةٌ عَرَضَتْ   فالدهرُ ليس على حالٍ بمُتَّرَكِ
ذو الفضل كالتِّبْرِ يُلْقَى تحت متربةٍ   طَوراً يُرَى تاجًا على مَلِكِ

وقوله لَمَّا أحرق المعتضد بن عباد كتبه بإشبيلية[3]: [الطويل]

دَعُوني مِنْ إحْرَاقِ رَقٍّ وكاغِدٍ[4]   وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ مَنْ يَدْري
فإنْ تحرقوا القرطاسَ لم تحرقوا الذي   تَضَمَّنه القرطاسُ، بل هو في صدري
يسيرُ معي حيث استقلَّتْ ركائبي   وينزلُ إنْ أنزلْ ويُدْفَنُ في قبري

وقوله[5]: [الوافر]

لئن أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلاً بِشَخْصي   فقلْبي عندُكمْ أبدًا مُقِيمُ
ولكنْ للعيان لَطِيفُ معنًى   لذا سأَلَ المعايَنَةَ الكَليمُ

وقوله[6]: [الطويل]

وذي عَذَلٍ فيمن سباني حُسْنُهُ   يطيلُ ملامي في الهوى ويقولُ
أمن أجل[7] وَجْهٍ لاحَ لم تَرَ غيره   ولم تَدْرِ كيف الجِسمُ أنت عليلُ

---

(١) الأُسوة: القدوة. ائتسى: اقتدى. لسان العرب (أسا).
(٢) البيتان في جذوة المقتبس (ص ٣١٠) والذخيرة (ق ١ ص ١٧٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ١٧١) دون تغيير عمّا هنا. وسيأتي في الجزء الرابع من نفح الطيب البيتان الأول والثاني فقط.
(٤) الرَّقُّ، بفتح الراء وتشديد القاف: الجلد يستعمل للكتابة. الكاغد: القرطاس. لسان العرب (رقق) و (كغد).
(٥) البيتان في جذوة المقتبس (ص ٣١٠) وبغية الملتمس (ص ٤١٧) والمغرب (ج ١ ص ٣٥٦) والذخيرة (ق ١ ص ١٧٤) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٦) الأبيات في المغرب (ج ١ ص ٣٥٦) والذخيرة (ق ١ ص ١٧٥).
(٧) في طبعة ليدن: «أمن حسن وجه...».

فقلتُ له أسرفْتَ في اللوم فاتَّئِدْ فعنديَ رَدٌّ لو أشاء طويلُ
ألم تَرَ أنِّي ظاهريٌّ، وأنني على ما أرى حتى يقومَ دليلُ

وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد بن حَزْم بن غالب بن مَزيَد، القرطبي.

قال ابنه أبو رافع الفضل: اجتمع عندي بخطِّ أبي من تواليفه نحو أربعمائة مجلّد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة، انتهى.

وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور بن أبي عامر، وتوفي ـ كما قال ابن حيان ـ بذي القعدة سنة اثنتين وأربعمائة، وكان منشؤه ومولده بقرية تُعْرَفُ بالزاوية.

وحُكي أن الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بن شُهَيد في يوم غزير المطر والوَحَل شديد الريح، فلقيه أبو عامر، وأعظم قصده على تلك الحال، وقال له: يا سيدي، مثلك يقصدني في مثل هذا اليوم، فأنشده أبو محمد بن حزم بَديهًا: [الطويل]

فلو كانت الدنيا دُوَينَك لُجَّةً وفي الجوِّ صَعْقٌ دائمٌ وحريقُ
لَسَهَّلَ وُدِّي فيك نَحْوَكَ مَسْلَكًا ولم يَتَعَذَّرْ لي إليكَ طريقُ

قال الحافظ ابن حزم: أنشدني الوزير أبي في بعض وصاياه لي[1]: [الطويل]

إذا شِئْتَ أنْ تَحْيَا سَعيدًا[2] فلا تكن على حالةٍ إلاَّ رَضِيتَ بدونها

وهذا كافٍ في فضل الفرع والأصل، رحم الله[3] الجميع.

قال ابن حزم في «طَوق الحمامة»[4]: إنه مَرَّ يومًا هو وأبو عمر بن عبد البرّ صاحب «الاستيعاب» بسكّة الحطّابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شابٌّ حسن الوجه، فقال أبو

---

(١) ترجمة أحمد بن سعيد بن حزم، والد ابن حزم المترجم له، وبيته هذا في جذوة المقتبس (ص ١٢٦) وبغية الملتمس (ص ١٨٢). وسيأتي البيت في الجزء السادس من نفح الطيب وفيه: «غنيًّا» بدل «سعيدًا».

(٢) في الجذوة والبغية وفي طبعة دار صادر: «غنيًّا».

(٣) في طبعة دار صادر: «سامح الله...».

(٤) لم يرد هذا النص في طوق الحمامة.

محمد: هذه صورة حسنة، فقال له أبو عمر: لم نَرَ إلاّ الوجه، فلعلّ ما سترته الثياب ليس كذلك، فقال ابن حزم ارتجالاً:

«وذي عَذَلٍ فيمن سباني حُسْنُه»

الأبيات المتقدِّمة[1].

ولابن حزم أيضًا قوله[2]:

لا تلمني لأنَّ سبقةَ لَحْظٍ ... فات إدْراكُها ذوي الألباب
يَسْبِقُ الكاتبُ وَثْبَةَ اللَّيثِ فِي الْعَدْ ... وِ وَيَعْلُو النُّخالُ فوق اللُّبَابِ

ولأبي بكر بن مُفَوِّز جزء يردُّ فيه على أبي محمد بن حزم، وفيه قال مُعَرِّضًا[3]: [البسيط]

يا مَنْ تُعَاني أمورًا لَنْ تُعَانِيها ... خَلِّ التعاني وأعْطِ القَوسَ بَارِيهَا
تَرْوِي الأحاديثَ عن كلٍّ مُسَامَحَةً ... وإنَّما لِمُعَانِيها مَعَانِيهَا

وقيل: إنه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم.

رجع إلى القاضي أبي الوليد الباجي - ومن نظمه قوله من مرثية[4]: [الطويل]

أحِنُّ وَيَثْنِي اليأسُ نَفْسِي عَلَى الأَسَى ... كَمَا اضْطُرَّ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَرْكَبِ الصَّعْبِ

ومن جيد نظمه قوله: [الطويل]

أسرُّوا على الليل البهيم سُراهُمُ ... فَنَمَّتْ عَلَيهِمْ في الشَّمالِ شَمَائِلُ[5]
مَتى نَزَلُوا ثاوِينَ بالخَيفِ مِنْ مِنًى ... بَدَتْ للهَوَى بالمأزِمَينِ مَخَايِلُ
فللَّهِ ما ضَمَّتْ مِنًى وشِعَابُها ... وَما ضُمِّنَتْ تلك الرُّبا والْمَنَازِلُ

---

(١) كلمة «المتقدمة» غير واردة في طبعة دار صادر.

(٢) سيأتي هذان البيتان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) سيأتي هذان البيتان في الجزء الثالث وفيه: «يعانيها» بدل «تعانيها».

(٤) هو بيت من سبعة أبيات تقدّمت (ص ٢٩١) من هذا الجزء، وجاء هناك: «عن الأسى».

(٥) نَمَّتْ عليهم: وَشَتْ بهم. الشمائل: جمع شميلة وهي الطبع. لسان العرب (نمم) و (شمل).

وَلَمَّا التَقَيْنَا لِلجِمَارِ وأبرزتْ أُكُفٌّ لِتَقْبِيلِ الحَصَى وأنامِلُ
أشارَتْ إلَيْنا بالغَرَامِ مَحَاجِرٌ[1] وَبَاحَتْ بِهِ مِنَّا جُسُومٌ نَوَاحِلُ

وقال الباجي أبو الوليد رحمه اللّٰه تعالى: [الوافر]

مَضَى زَمَنُ الْمَكَارِمِ وَالْكِرَامِ سَقَاهُ اللّٰهُ مِنْ صَوبِ الْغَمَامِ
وَكَانَ البِرُّ فِعْلاً دُونَ قَولٍ فَصَارَ البِرُّ نُطْقًا بِالْكَلَامِ

وذَيَّلَهُ بعضُهُم بقوله: [الوافر]

وزَالَ النُّطْقُ حَتَّى لَسْتَ تَلْقَى فَتًى يَسْخُو بِرَدٍّ لِلسَّلَامِ
وزَادَ الأمْرُ حَتَّى لَيسَ إلَّا سَخِيٌّ بِالأذَى أو بِالمَلَامِ

٤٦ ـ ومنهم الفقيه العالم الشهير أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفِهْرِي الطرطوشي[2] صاحب «سراج الملوك»، ويُعْرف بابن أبي رَنْدَقَة[3] ـ بالراء المهملة المفتوحة، وسكون النون ـ وكفى بسراج الملوك دليلاً على فضله.

ذكره ابن بَشْكُوال في الصلة، وتوفي بالإسكندرية في شعبان، وقيل: جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة[4]، وزرْتُ قبره بالإسكندرية، ومِمَّنْ أخذ عنه الحافظ القاضي أبو بكر بن العربي وغيره.

ومن نظم الطرطوشي قوله من رسالة: [الطويل]

أقَلِّبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ تَرَدُّدًا لَعَلِّي أرى النَّجْمَ الذي أنْتَ تَنْظُرُ
وأَسْتَعْرِضُ الرُّكْبَانَ مِنْ كلِّ وجْهَةٍ لَعَلِّي بمن قَدْ شَمَّ عَرْفَكَ أظْفَرْ
وأستقبلُ الأرواحَ[5] عند هُبُوبها لَعَلَّ نسيمَ الريحِ عنكَ يُخَبِّرُ
وأمْشِي وَمَالِي فِي الطَّرِيقِ مَآرِبٌ عَسَى نَغْمَةٌ بِاسْمِ الحبيبِ سَتُذْكَرُ
وألمحُ مَنْ ألقاهُ مِنْ غيرِ حاجَةٍ عَسَى لمحةٌ مِنْ نُورِ وَجْهِكَ تُسْفِرُ

---

(١) المحاجر: جمع محجر وهو ما أحاط بالعين، والمراد هنا العين. لسان العرب (حجر).
(٢) مرَّ التعريف بأبي بكر الطرطوشي والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص٢٤٧).
(٣) رندقة: لفظة إفرنجية، معناها: رد تعال. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٥). وفي الصلة: «وندقة».
(٤) ذكر ابن خلكان أن الطرطوشي توفي في سنة ٥٢٠ هـ، ثم يشك في صحة هذا التاريخ. وفي بغية الملتمس: سنة ٥٢٥ هـ.
(٥) الأرواح: جمع ريح.

ومن نظمه أيضًا قوله: [المتقارب]

يقولون ثكلى ومَنْ لم يذُقْ فراقَ الأحِبَّةِ لم يثْكَلِ
لقد جرَّعَتْنِي ليالي الفِراقِ كؤوسًا أمرَّ من الحَنْظَلِ

ومِمّا يُنْسَب إليه وكان كثيرًا ما ينشده[1]: [المتقارب]

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً وأنتَ بإنجازها مُغْرَمُ
فأرْسِلْ بأكْمَهَ جلَّابةٍ به صَمَمٌ أغْطَشُ أبْكَمُ[2]
ودَعْ عَنْكَ كُلَّ رَسُولٍ سِوَى رَسُولٍ يقالُ لَهُ الدِّرْهَمُ

وكان كثيرًا ما ينشد[3]: [الرمل]

إن لله عِبادًا فُطنًا طَلَّقوا الدُّنْيا وخَافُوا الفِتَنا
فَكَّروا فيها، فلمَّا علموا أنَّها لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنا
جَعَلوها لُجَّةً واتَّخذوا صالح الأعمال فيها سُفُنا

وقال رحمه الله تعالى: كنت ليلة نائمًا بالبيت المقدس إذ سمعت في الليل صوتًا حزينًا ينشد[4]: [الطويل]

أَخوفٌ ونَومٌ؟ إنَّ ذا لَعَجيبُ ثَكِلْتُكَ مِنْ قَلْبٍ فأنتَ كَذُوبُ
أَمَا وَجَلالِ الله لو كنْتَ صادقًا لما كان للإغماضِ فيكَ نَصِيبُ

قال: فأيقظ النُّوَّام، وأبكى العيون.

وكان رحمه الله تعالى زاهدًا، عابدًا[5]، متورّعًا، متقلّلاً من الدنيا، قوّالاً للحقّ.

---

(١) جملة: «وكان كثيرًا ما ينشده» غير واردة في طبعة صادر. والأبيات في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٣).

(٢) في وفيات الأعيان: «خلابة» بدل «جلابة». الأَكْمَهُ: الذي يولد أعمى. والأغطش: من كان في عينيه عمش. لسان العرب (كمه) و (غطش).

(٣) الأبيات في الصلة (ص ٨٣٩) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٢) والمغرب (ج ٢ ص ٤٢٤) دون تغيير عمّا هنا.

(٤) البيتان في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٤) دون تغيير عمّا هنا.

(٥) كلمة «عابدًا» غير واردة في طبعة دار صادر.

وكان يقول: إذا عرض لك أمران[1] أمرُ دنيا وأخرى، فبادِرْ بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنْيا والأخرى، وله طريقة في الخلاف.

ودخل مرّة على الأفضل بن أمير الجيوش فوعظه، وقال له: [2]إنَّ الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنّما صار إليك بموتِ من كان قبلك، وهو خارج عن يدك بمثل ما صار إليك، فاتّقِ اللّه فيما خوَّلك من هذه الأمة، فإنَّ اللّه، عَزَّ وجَلَّ، سائلك عن النقير والقِطْمير والفَتيل، واعلمْ أنَّ اللّه، عَزَّ وجلَّ، آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخَّرَ له الإنس والجنَّ والشياطين والطير والوحوش[3] والبهائم، وسَخّر له الريح تجري بأمره رُخاء حيث أصاب، ورفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال عزَّ من قائل: ﴿ هذا عَطاؤنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بِغَيرِ حِسابٍ ﴾[4] فما عَدَّ ذلك نعمة كما عددتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجًا من اللّه عَزَّ وجَلَّ، فقال: ﴿ هذا مِنْ فَضْلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾[5] فافْتَحِ البابَ، وسَهِّل الحجابَ، وانْصُرِ المظلوم.

وكان إلى جانب الأفضل رجل نصراني فأنشده[6]: [السريع]

يا ذا الذي طاعتُهُ قُرْبَةٌ   وحَقُّهُ مُفْتَرَضٌ واجِبُ
إنَّ الذي شَرُفْتَ مِنْ أجْلِهِ   يَزْعُمُ هذا أنه كاذِبُ

وأشار إلى النصراني، فأقامه الأفضل من مكانه.

والطرطوشي ـ بضمِّ الطاءين ـ نسبة إلى طُرْطُوشة من بلاد الأندلس، وقد تفتح الطاء الأولى.

وعبر عنه ابن الحاجب في مختصره الفِقْهي في باب العتق بالأستاذ.

وكان رحمه اللّه تعالى صحب القاضي أبا الوليد الباجي، رحمه اللّه تعالى، بسَرَقُسْطة، وأخذ عنه مسائل الخلاف، وسمع منه، وأجازه، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حَزْم بمدينة إشبيلية، ثم رحل إلى المشرق سنة ست وسبعين

---

(١) كلمة «أمران» غير واردة في طبعة دار صادر.

(٢) هذا النص في سراج الملوك (ص ٦١) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٦٤) مع بعض الاختلاف.

(٣) في طبعة دار صادر: «والوحش».

(٤) سورة ص ٣٨، الآية ٣٩.

(٥) سورة النمل ٢٧، الآية ٤٠.

(٦) البيتان في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٣) دون تغيير عمّا هنا.

وأربعمائة، ودخل بغداد والبصرة فتفقّه هناك[1] عند أبي بكر الشاشي وأبي محمد الجرجاني، وسمع بالبصرة من أبي علي التُّسْتَري، وسكن الشام مدّة، ودرس بها، وكان راضيًا باليسير.

وقال الصفدي في ترجمة الطرطوشي[2]: إن الأفضل ابن أمير الجيوش أنزله في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد، وكان يكرهه، فلمّا طال مُقامه به ضجر، وقال لخادمه: إلى متى نصبر؟ اجْمَعْ لي المباح، فجمعه، وأكله ثلاثة أيام، فلمّا كان عنده صلاة المغرب قال لخادمه: رميته الساعة، فلمّا كان من الغد ركب الأفضل فقُتِلَ، ووُلّي بعده المأمون بن البطائحي فأكرم الشيخ إكرامًا كثيرًا، وله ألَّف الشيخ «سراج الملوك» انتهى.

ومقامه ـ أعني الطرطوشي ـ مشهور، وهذه الحكاية تكفي في ولايته.

ومن تآليفه «مختصر تفسير الثعالبي»، و«الكتاب الكبير في مسائل الخلاف»، وكتاب «في تحريم جبن الروم»، وكتاب «بدع الأمور ومحدثاتها» وكتاب «شرح رسالة الشيخ ابن أبي زيد».

وولد سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريبًا، ولمّا توفي صلّى عليه ولده محمد، ودُفِن رحمه اللّه تعالى قِبَلَ الباب الأخضر بإسكندرية، وزرْتُ قبره مرارًا، رحمه اللّه تعالى، ورضي عنه، ونَفَعَنَا به!.

وكان القاضي عياض مِمَّن استجازه فأجازه ولم يَلْقَهُ، وشهرته، رضي اللّه تعالى عنه، تُغْني عن الإطناب فيه[3].

وحكي أنه كتب على «سراج الملوك» الذي أهداه لولي الأمر بمصر: [السريع]

النـاسُ يُهْـدُونَ عـلى قَـدْرِهِـم ... لـكـنـنـي أُهْـدِي عـلى قَـدْرِي
يُـهْـدُونَ مـا يَفْنَـى وأُهْـدِي الـذي ... يَـبْـقَـى عـلى الأيـام والـدَّهْـرِ

(١) كلمة «هناك» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٢) النص في وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٦٣)، وروايته مختلفة بعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) كلمة «فيه» ساقطة من طبعة دار صادر.

وحُكِي أنه[1] سمع، رضي الله تعالى عنه، مُنْشِدًا ينشد للوأواء الدمشقي[2]. [مجزوء الكامل]

قَمَر أتَى مِنْ غَيرِ وَعْدِ   في لَيلَةٍ طَرَقَتْ بِسَعْدِ
باتَ الصَّبَاحُ إلى الصَّبا   حِ مُعَانِقي خَدًّا بِخَدِّ
يَمْتَار[3] فيَّ وناظِرِي   ما شِئْتَ مِنْ خَمْرٍ وشَهْدِ

فقال: أوَ يَظنُّ هذا الدمشقي أن أحدًا لا يحسنُ ينظم الكذب غيره؟ لو شِئْنا لَكَذَبْنا مثل هذا، ثم أنشد لنفسه يعارضه: [مجزوء الكامل]

قمر أتى[4] مِنْ غيرِ وَعْدِ   حُفَّتْ شمائلُه بِسَعْدِ
قَبَّلْتُهُ ورَشَفْتُ ما   في فِيهِ مِنْ خَمْرٍ وشَهْدِ
فَمَزَجْتُ[5] مُزْنَ السلسبيـ   ـلِ بزَنْجَبِيلٍ مُسْتَعِدِّ
ولَثَمْتُ فاه مِنَ الْغُرُو   بِ إلى الصَّبَاح الْمُسْتَجِدِّ
وسَكِرْتُ مِنْ رَشْفِي العَقِيـ   ـقَ على أقاحٍ تحت رَنْدِ
فنَزَعْت عن فمِهِ فمِي   ووَضَعْتُ خَدًّا فَوقَ خَدِّ
وشَمِمْتُ عَرْفَ نسيمه الـ   ـجاري عَلَى مِسْكٍ ونَدِّ
وصحَوتُ مِنْ رَيَّا القَرَنْـ   ـفُلِ بين رَيحانٍ ووَرْدِ
وأَلَذُّ مِنْ وَصْلِي به   شَكْواه وَجْدًا مِثْل وَجْدِي

ومن نظم الطرطوشي قوله أيضًا: [المتقارب]

كأنَّ لِسَانِيَ والمُشْكِلاتِ   سَنَى الصُّبْحِ يَنْحَرُ لَيلاً بَهِيما
وغَيرِيَ إنْ رام ما رُمْتُهُ   خَصِيٌّ يحاولُ فَرْجًا عَقِيما

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «لمّا سمع».
(٢) كلمة «الدمشقي» لم ترد في طبعة دار صادر.
(٣) في طبعة دار صادر: «يمتاز».
(٤) في طبعة دار صادر: «قمرٌ بَدَا».
(٥) في طبعة دار صادر: «فرشفْتُ».

وقوله أيضًا: [المتدارك]

اعْمَلْ لمعادك يا رَجُلُ فالنَّاسُ لِدُنْيَاهُمْ عَمِلُوا[1]
واذخر لمسيرك زادَ تُقًى فالْقَومُ بلا زادٍ رَحَلُوا

٤٧ ـ ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشي؛ وفد إلى المشرق، وذكره العماد في «الخريدة» وله في الآمدي العلي[2] بمصر، وكان يخضب بسواد الرمّان قوله[3]: [الخفيف]

إخْلِطِ العَفْصَ فيه يا أحْوَجَ النَّا سِ إلى العَفْصِ حينُ يُعْكَسُ عَفْصُ

٤٨ ـ ومنهم القاضي الشهير الشهيد أبو علي الصدفي[4]، وهو حسين بن محمد بن فِيرُّه بن حَيُّون، ويعرف بابن سُكَّرة[5]، وهو من أهل سَرَقُسْطة، سكن مُرْسِية، وروى بسَرَقُسْطة عن الباجي وأبي محمد عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل وغيرهما، وسمع بِبَلَنْسِيَةَ من أبي العباس العذري، وسمع بالمَرِيَّةِ من أبي عبد اللّه محمد بن سعدون القروي وأبي عبد اللّه بن المرابط وغيرهما، ورحل إلى المشرق أول المحرم من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وحجَّ من عامه، ولقي بمكّة أبا عبد اللّه الحسن[6] بن علي الطبري وأبا بكر الطرطوشي وغيرهما، ثم سار إلى البصرة فلقي بها أبا يعلى المالكي وأبا العبّاس الجرجاني وأبا القاسم بن شعبة وغيرهم، وخرج إلى بغداد فسمع بواسط من أبي المعالي محمد بن عبد السلام الأصبهاني وغيره، ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، فأطال الإقامة بها خمس سنين كاملة، وسمع بها من أبي الفضل بن خَيرُون مُسْنِدِ بغداد، ومن أبي الحسين المبارك بن عبد الجبّار الصيرفي، وطراد الزينبي، والحميدي، وغيرهم، وتفقّه عند أبي بكر الشاشي وغيره، ثم رحل منها سنة سبع وثمانين، فسمع بدمشق من أبي الفتح نصر

---

(١) في طبعة دار صادر: «فاعمل... فالقومُ لدنياهُم...».

(٢) في طبعة بولاق: «الأمد العجلي».

(٣) في طبعة دار صادر: «الرمان، يخضب بأقبح سواد خضب به».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الصيرفي» وهو خطأ. وترجمة ابن سكرة في الصلة (ص ٢٣٥) ومعجم البلدان (ج ٤ ص ٣١٠ مادة قُتُنْدَة). وفي أصحابه ألف ابن الأبار «المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي) وهو مطبوع.

(٥) في طبعة عبد الحميد: «شكرة».

(٦) في الصلة: «أبا عبد الحسين بن علي...».

المقدسي وأبي الفرج الإسفرايني[١] وغيرهما، وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن[٢] الخِلَعي وأبي العبّاس أحمد بن إبراهيم الرازي، وأجاز له الحبال مُسْنِد مصر في وقته ومكثرها، وسمع بالإسكندرية من أبي القاسم الوراق[٣] وشعيب بن سعيد وغيرهما، ووصل إلى الأندلس في صفر من سنة تسعين[٤] وأربعمائة، وقصد مُرْسِية، فاستوطنها، وقعد يُحَدِّث الناس بجامعها، ورحل الناس من البلدان إليه، وكثر سماعهم عليه، وكان عالمًا بالحديث وطرقه، عارفًا بعلله، وأسماء رجاله ونَقَلَته، وكان حسن الخطّ جيّد الضبط، وكتب بخطّه علْمًا كثيرًا، وقيَّده، وكان حافظًا لمصنّفات الحديث، قائمًا عليها، ذاكرًا لمتونها وأسانيدها ورُوَاتها، وكتب منها «صحيح البخاري» في سِفْر، و«صحيح مسلم» في سِفْر، وكان قائمًا على الكتابين مع مُصَنَّف أبي عيسى الترمذي، وكان فاضلاً، دَيِّنًا، متواضعًا، حلومًا، وَقُورًا، عالمًا، عاملاً، واسْتُقضِي بمُرْسِية، ثم اسْتُعْفَى فأُعْفِي، وأقبل على نَشْر العلم وبَثِّه[٥].

وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه لدخوله الشام، قال[٦]: وبعد أن استقرَّتْ به النَّوَى، واستمرَّتْ إفادته بما قيَّد ورَوَى، رفعتْه ملوكُ أوانه، وشَفَّعتْه في مطالب إخوانه، فأوسعتْه رَعْيًا، وأحسنتْ فيه رأيًا، ومن أبنائهم من جعل يقصده، لسماع يُسْنده، وعلى وقاره الذي كان به يُعْرَف، نَـدَر له مع بعضهم ما يستطرف[٧]، وهو أن فَتًى يُسَمَّى يوسف لازم مجلسه، معطّرًا رائحته ومنظّفًا مَلْبَسه، ثم غاب لمرض قطعه، أو شغل منعه، ولَمَّا فرغ أو أبلَّ، عاود ذلك النادي المبارك والمحلّ، وقبل إقضائه إليه، دلّ طيبُه عليه، فقال الشيخ على سلامته من المجون، وخَلاَصه من الفتون ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لولا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾[٨] وهي من طُرَف[٩] نوادره، رحمه اللّٰه عليه.

---

(١) هو سهل بن بشر الإسفرايني كما في الصلة. وفي طبعة دار صادر: «الأسفراييني».

(٢) هو أبو الحسن علي بن الحسن الخلعي. الصلة (ص ٢٣٦).

(٣) هو مهدي بن يونس الوراق. الصلة (ص ٢٣٦).

(٤) هكذا في الصلة وفي طبعة دار صادر. وفي طبعة عبد الحميد: سبعين.

(٥) إلى هنا كان النقل عن الصلة في ترجمة ابن سكرة، مع شيء من الإيجاز.

(٦) لم يرد هذا النص في تهذيب تاريخ ابن عساكر للشيخ عبد القادر بدران.

(٧) في طبعة ليدن: «يستظرف».

(٨) سورة يوسف ١٢، الآية ٩٤.

(٩) في طبعة ليدن: «ظرف».

ولمَّا قُلِّد قضاء مُرْسِية وعزم عليه صاحبُ الأمر فيه فَرَّ إلى ألمَرِية فأقام بها سنة خمس وبعض سنة ست وخمسمائة، وفي سنة ست قَبِلَ قضاءها على كره إلى أن استخفى آخر سنة سبع في قصة يطول إيرادها، ولطول[1] مقامه بألمرية أخذ الناس عنه بها، فلمَّا كانت وقعة كُتُنْدَة[2] كان مِمَّنْ حضرها فَفُقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة، رحمه اللّٰه تعالى!.

وقال القاضي عياض: ولقد حَدَّثني الفقيه أبو إسحٰق إبراهيم بن جعفر أنه قال له: خذ الصحيح، واذكرْ أيَّ مَتْنٍ شِئْتَ منه أذكر لك سنده، أو أيَّ سند شئت أذكر لك متنه، انتهى.

وذكر غير واحد أنه حَدَّث ببغداد بحديث واحد، واللّٰه أعلم وهو من أبناء الستين.

٤٩ ـ ومنهم ابن أبي روح الجزيري؛ ومن شعره لَمَّا تغرّب بالمشرق قوله: [الطويل]

أحِنُّ إلى الخضْراءِ[3] في كلِّ مَوطِنٍ حَنِينَ مَشْوقٍ للعِنَاقِ وللضَّمِّ
وما ذاكَ إلَّا أنَّ جِسْمِي رَضِيعُهَا ولا بُدَّ مِنْ شَوقِ الرضيعِ إلى الأُمِّ

٥٠ ـ ومنهم العالم أبو حَفْصٍ عمر بن حسين الهوزني[4]، الحسيب العالم المحدِّث، ذكره ابن بسام في «الذخيرة» والحِجَاري في «المُسْهب» وسبب رحلته للمشرق أنه لَمَّا تولَّى المعتضدُ بن عَبَّاد خاف منه، فاسْتأذنه في الحج سنة ٤٤٤[5]، ورحل إلى مصر، ثم إلى مكّة، وسمع في طريقه كتاب صحيح البخاري، وعنه أخذه أهلُ الأندلس، ورَجَع، وسكن إشبيلية وخدم المعتضد، فقتله، ومَنْ خاف[6] مِنْ شيء سلط عليه، وكان قتله يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلتْ من ربيع الأوّل سنة ستين وأربعمائة.

---

(١) في طبعة دار صادر: «ويطول مقامه».

(٢) كُتُنْدة: من ثغور سرقسطة، كانت فيها الوقعة الشهيرة بين المرابطين والإفرنج سنة ٥١٤ هـ. معجم البلدان (ج ٤ ص ٣١٠).

(٣) هي بلدة الجزيرة الخضراء، وقد مرّ التعريف بها في الجزء الأول.

(٤) ترجمة الهوزني في الصلة (٥٨٥) والذخيرة (ق ٢ ص ٨٣) والمغرب (ج ١ ص ٢٣٩).

(٥) في الذخيرة: سنة أربعين وأربعمائة.

(٦) كلمة «خاف» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

ومن شعره يُحَرِّضه على الجهاد[1]: [الطويل]

أعَبَّاد، جَلَّ الرُّزْءُ والقَومُ هُجَّعُ ... على حالةٍ مِنْ[2] مِثْلِها يُتَوَقَّعُ
فَلَقِّ كتابي مِنْ فَراغِكَ ساعةً ... وإنْ طالَ فالموصُوفُ للطول مَوضِعُ
إذا لم أبُثَّ الداءَ رَبَّ شِكايةٍ[3] ... أضَعْتُ، وأهلٌ للمَلامِ المُضَيِّعُ

ووصله بنثر، وهو: وما أخطأ السبيلَ مَنْ أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجأ الدليلَ من ناط[4] الأمورَ بأربابها، ولَرُبَّ أمَل بين أثناء المحاذير مُدْمَجٌ، ومحبوب في طيِّ المكاره مُدْرَجٌ، فانتهز فرصتها فقد بان لك[5] من غير العَجْز، وطَبِّق مضاربها[6] فقد أمكنك الحَزّ، ولا غَرْوَ أن يُسْتَمْطر الغمام في الجذب، ويُسْتَصْحَبَ الحُسَام في الحرب.

وله[7]: [المديد]

صَرَّحَ الشَّرُّ فلا يُسْتَقَلُّ ... إنْ نَهِلْتُمْ جاءكُمْ بَعْدُ عَلُّ
بَدْءُ صَعْقِ الأرضِ رَشٌّ[8] وطَلٌّ ... ورياحٌ ثم غَيمٌ أبَلُّ
خَفِّضُوا فالداءُ رُزْءٌ أجَلُّ[9] ... واغْمِدوا سَيفًا عليكُمْ يُسَلّ

وابنه أبو القاسم هو الذي كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل المعتضد والدَهُ كما مرّ!.

[وبيتُ بني الهوزني بالأندلس بيت كبير مشهور، ومنهم عدّة علماء وكبراء، رحم الله الجميع][10].

---

(١) الأبيات في الذخيرة والمغرب. وسترد في الجزء الثالث من نفح الطيب).
(٢) في المغرب: «ما مِثْلُها».
(٣) في المغرب: «رَبَّ نجاحه». وفي الذخيرة: «رَبَّ دوائه».
(٤) في طبعة دار صادر: «أناط».
(٥) كلمة «لك» غير واردة في طبعة دار صادر.
(٦) في طبعة دار صادر: «وطبّق مفاصلها».
(٧) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٨٩ ـ ٩٠). وستأتي في الجزء الثالث من نفح الطيب.
(٨) في الذخيرة: «نَشْءٌ وطَلٌّ».
(٩) في الذخيرة: «نَقِّبُوا فالداء رُزْءٌ يَحُلُّ...».
(١٠) ما بين قوسين سقط في طبعة عبد الحميد.

٥١ ـ ومنهم أبو عمرو عثمان بن الحسين[١]، أخو الحافظ أبي الخطاب ابن دَحْيَة الآتي ذكره[٢]، كان أسنَّ من أخيه أبي الخطاب، وكان حافظًا للغة العرب، قيِّمًا بها. وعَزَلَ الملكُ الكاملُ[٣] أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين ورتَّب مكانه أخاه أبا عمرو المذكور، ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٦٣٤ بالقاهرة، ودُفِن بسفح المقطم كأخيه، وكان موت أبي عمرو بعد أبي الخطاب بسنة، رحمهما الله تعالى!.

٥٢ ـ ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم[٤]، من أهل وادي الحِجَارة، ويُعْرف باشكنهادة[٥]، وارتحل إلى المشرق لَمَّا نَبَتْ به حضرة قرطبة عند تقلّب دُوَلها، وتحول ملوكها وخَوَلها، فجال في العراق، وقاسى ألم الفراق، واجتاز بحَلَب، وأقام بها مقام غريب لم يَصْفُ له حَلَب، وقال[٦]: [الرمل]

أين أقْصَى الغَرْبِ مِنْ أرض حَلَبْ ... أَمَلٌ في الغَرْبِ مَوصُولُ التَّعَبْ
حَنَّ مِنْ شَوقٍ إلى أوطانه ... مَنْ جفاه صَبْرُه لَمَّا اغْتَرَبْ
جالَ في الأرض لجاجًا حائرًا ... بَينَ شَوْقٍ وعَنَاءٍ ونَصَبْ
كلُّ مَنْ يَلْقَاهُ لا يَعْرِفُه ... مُسْتَغِيثًا بَينَ عُجْمٍ وَعَرَبْ
لَهْفَ نَفْسِي أين هاتِيكَ العُلاَ ... واضَيَاعاهُ ويا غَبْنَ الحَسَبْ
والذي قدْ كان ذُخْرًا وبه ... أرْتَجي المالَ وَإدْرَاكَ الرُّتَبْ
صار لي أبْخَس ما أعْدَدْتُهُ ... بَينَ قَومٍ مَا دَرَوا طَعمَ الأَدَبْ
يا أحبَّايَ اسْمَعُوا بَعْضَ الذي ... يَتَلَقَّاهُ الطَّرِيدُ المُغْتَرِبْ

---

(١) ترجمة عثمان بن الحسين في شذرات الذهب (ج ٥ ص ١٦٨) ووفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٥٠) وفيه أنه عثمان بن الحسن.

(٢) ترجمة أبي الخطاب ابن دحية ستأتي رقم ٥٥ من هذا الجزء، (ص ٣١٤).

(٣) الملك الكامل هو ناصر الدين أبو المعالي محمد بن محمد الملك العادل؛ تولَّى الديار المصرية بعد وفاة أبيه العادل سنة ٦١٥ هـ، وحسنت سياسته فيها إلى أن توفي سنة ٦٣٥ هـ. كان عارفًا بالأدب، وله شعر. وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٧٩، ٨٩).

(٤) ترجمة أبي بكر محمد بن القاسم في المغرب (ج ٢ ص ٣١).

(٥) في المغرب: «أشكهباط». وجاء في الذخيرة (ق ١ ص ٢٣٠) كلام على الكاتب أبي بكر المعروف بأشكمياط، وأغلب الظن هو نفسه.

(٦) ورد في المغرب (ج ٢ ص ٣١ ـ ٣٢) سبعة أبيات من هذا الشعر فقط.

ولْـيَكُـنْ زَجْـرًا لـكـمْ عـن غُـرْبَـةٍ | يَـرْجِـعُ الـرأسُ لَـدَيـهـا كـالـذَّنَـبْ
واحْـمِـلوا طَـعْـنًـا وضَـرْبًـا دائـمًـا | فَهْـوَ عِنْـدِي بَينَ قَـومِي كـالضَّـرَبْ[1]
وَلَئِـنْ قـاسَـيـتُ مـا قـاسَـيـتُـه | فَبِـمَـا أبْـصَـرَ لَـحْـظي مِـنْ عَـجَـبْ
ولـقـد أخـبـرْكُـمْ أنْ الـتـقـي | بِـكُـمُ حـتـى تـقـولـوا قـد كَـذَبْ

واجتاز بدمشق فقال من أبيات رحمه اللّٰه تعالى[2]: [الوافر]

دِمَشْقُ جَنَّـةُ الـدُّنْيـا حَقِيـقًـا | ولـكـنْ لـيس تَـصْـلُحُ لـلغَـرِيـبِ
بِـهـا قـومٌ لـهـمْ عَـدَدٌ ومَـجْـدٌ | وصُـحْـبَـتُـهُـمْ تَـؤولُ إلـى حُـرُوبِ

ثم إنه وَدَّعَ الشرقَ بلا سَلام، وحَلَّ بحضرة دَانِيَةَ لدى ملكها مجاهد العامري في بُحْبُوحة عزٍّ لا يخشى فيه الملام، واستقبل الأندلس بخاطر جديد، ونال بها بَعْدُ من بلوغ الآمال ما ليس له عليه مزيد، وقال[3]: [الطويل]

وكم قـد لقِيتُ الجَهْـدَ قَبْـلَ مُجَـاهِـدٍ | وكم أبْصَـرَتْ عيني وكم سَـمِعَـتْ أُذْني
ولاقَيْتُ مِنْ دهـري وصَـرْفِ[4] خـطوبه | كمـا جَـرَتِ النكبـاءُ في معطف الغصن
فـلا تـسـألـوني عـن فـراقِ جَـهَـنَّـمٍ | ولـكن سـلوني عـن دخـولي إلـى عَـدْنِ

وله من كتاب: وحامل كتابي ـ سلَّمه اللّٰه تعالى وأعانه! ـ مِمَّنْ أَخْنَى عليه الزمان، وأدار عليه وما صحا إلى الآن كؤوسَ الهوَان، وقد قَصدَ على بُعْدٍ جنابَكَ الرحيب الخصيب، قَصْدَ الحسن مَحَلَّ الخصيب[5] ويَمَّمَ جنابَ ابن طاهر حبيب[6]، وإنِّي لأَرْجُو أن يرجع منك

---

(١) في المغرب: «واصلوا طعنًا. . . هو عندي بين. . .». والضَّرَبُ، بالفتح: العسل الأبيض. محيط المحيط (ضرب).

(٢) سيأتي هذان البيتان في الجزء الثالث من نفح الطيب ضمن أربعة أبيات.

(٣) الأبيات في المغرب (ج ٢ ص ٣٢).

(٤) في المغرب: «صروف».

(٥) الحسن: هو الحسن بن هانىء أبو نواس. الخصيب هو أبو نصر الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان الخراج بمصر في زمن هارون الرشيد، وممدوح أبي نواس. وفيات الأعيان (ج ١ ص ٦١، ١٣٧).

(٦) ابن طاهر: هو أبو العباس عبد اللّٰه بن طاهر بن الحسين الخزاعي والي الدِّيَنَوَر وخراسان، توفي سنة ٢٢٨ هـ. وحبيب هو حبيب بن أوس أبو تمام، وقد قصد ابن طاهر من العراق. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٨٣ ـ ٨٤).

رجوع نصيب عن سليمان[1]، ويستعينُ في شكرك بكل لسان، وأنت عليم بأنَّ الثناء هو الخلف، وقد قال الأول: [مجزوء المتقارب]

أرى النـاسَ أُحْـدُوثَـةً ... فكـوني حـديـثًـا حَسَـنْ

وأنا القائل: [الطويل]

فلا تَزْهَدَنْ في الخير قد ماتَ حاتمٌ ... وأخبارُهُ حتى القيامةِ تُذْكَرُ

ومع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الأوان، عارف وجوه الأعذار غير ذي عَجَل في العتب قبل البيان، وعند سيدي من التهدي للإيفاء[2]، وما يحقّق فيه جميل[3] الرجاء، دامت أرجاؤه مؤمّلة، ولا برحتْ نعمه سابغة مكملة.

٥٣ ـ ومنهم الكاتب أبو عبد اللَّه محمد بن عبد ربه المالَقِي[4]. وقال بعضهم: إنه من الجزيرة الخضراء، له رحلة إلى الديار المصرية، صنع فيها مَقَامة يقول فيها: [الطويل]

وفي جَنَبَات الروض نَهْرٌ ودَوحَةٌ ... يَرُوقُكَ منها سُنْدُسٌ ونُضارُ
تقولُ وَضوءُ البَدْرِ فيه مغرّبٌ[5] ... ذراعُ فتاةٍ دارَ فيه سِوارُ

ومن شعره: [السريع]

ما كلُّ إنسانٍ أخٌ مُنْصِفٌ ... ولا الليالي أبدًا تُسْعِفُ
فلا تُضِعْ إنْ أَمْكَنَتْ فرصَةً ... واصْحَبْ مِنَ الإخوان مَنْ يُنْصِفُ
وانْتِفْ من الدهر ولو رِيشَةً ... فإنّما حَظُّك ما تَنْتِفُ

وقوله يرثي السيد أبا عمران ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن علي ملك المغرب والأندلس: [الطويل]

بجيد المعالي أيُّ عِقْدٍ تَبَدَّدَا ... وصَدْرِ العوالي أيُّ رُمْحٍ تَقَصَّدَا

---

(١) نصيب: هو أبو الحجناء، وقيل: أبو محجن نصيب الشاعر المشهور، شاعر الخليفة سليمان بن عبد الملك الأموي. وفيات الأعيان (ج ٦ ص ٨٨ ـ ٨٩).

(٢) في طبعة دار صادر: «للإيصاء».

(٣) في الطبعة نفسها: «جميع الرجاء».

(٤) ترجمة ابن عبد ربه المالقي في المغرب (ج ١ ص ٤٢٧) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٤٧) وفيه أنه يكنى أبا عمرو. والمعجب (ص ٣٧٥).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «مغرّبا».

ولَـمَّـا دَهَـتْ خيـلُ الـشـقـيِّ فـجـاءةً وسـال العِـدَا بَحْـرًا مِنَ المـوت مُـزْبِـدَا
شَهِـدْتَ بـوجـهٍ كـالغـزالـة[1] مشـرقًـا وإن كـان وَجْـهُ الشمسِ بـالنَّقْـع مـرْبَـدا
عـزائـم صِـدْقٍ ليس تـصـرف هـكـذا إلى المـوتِ تسعى أو على الموت يُعْتَـدَى

وكـان السيد أبـو عمران المَـرْثي قتله المَيُورقي[2] صـاحب فتنة إفـريقيـة في الهـزيمـة المشهورة على تاهَرْت، وجمع ابن عبد ربه المذكور شعر السيد أبي الربيع بن عبـد اللّه ابن أميـر المؤمنين عبد المؤمن بن علي، وكـان ابن عبد ربـه المذكـور كاتبًـا للسيـد أبي الـربيـع سليمان المذكور، ولَمَّا أُنْشِدَ لبعض الشعراء[3]: [المنسرح]

فحـاكتْ يَمِينُ الـرِّيـاحِ محكمـةً فـي نَـهَـرٍ واضـحِ الأسـاريـرِ
فكلَّمـا ضَـعَّـفـت بـه حـلقًـا قـام لهـا القَـطْرُ بـالمسـاميـر

وأنشد لنفسه[4]: [البسيط]

بَـينَ الـريـاضِ وبَـيْنَ الـجَـوِّ مُعْتَـرَكٌ بِيضٌ مِنَ الـبَـرْقِ أو سمْـرٌ مِـنَ الـسُّمْـر
إنْ أوتَـرَتْ قَـوْسَهـا كَفُّ السمـاء رَمَتْ نَبْـلاً مِنَ المَـاءِ في زَغْفٍ من الـغُـدُرِ[5]
لأجْـلِ ذاك[6] إذا هَـبَّتْ طـلائِـعُـهـا تَـدَرَّعَ الـنهـرُ واهـتـزَّتْ قَنَـا الـشَّجَـرِ

واجتمع ابن عبد ربه المذكور في رحلته بالسعيد بن سنـاء الملك، وأخذ عنـه شيئًا من شعره، ورواه بالمغرب.

---

(١) الغزالة هنا: الشمس.
(٢) أبو عمران: هو موسى بن يـوسف بن عبد المؤمن، صـاحب تلمسان. والميورقي هو يحيىٰ بن غـانية. يـروي ابن خلدون أن المفسـدين من زنـاتـة أغـروا بيحيىٰ بن غـانيـة صـاحب تلمســان أبـا عمـران المـذكور، فلقيـه بتاهـرت فهزمـه ابن غـانيـة وقتله وذلـك في عـام ٦٠٥ هـ. تـاريـخ ابن خلدون (م ٦ ص ٤٠٤).
(٣) البيتان في المعجب (ص ٣٧٦).
(٤) الأبيات في المقتضب من كتاب تحفـة القادم (ص ١٤٧)، وقـال ابن الأبار: ويُـرْوَى هذا الشعر لبعض الأمـراء. وهذا الأمير هو أبـو الربيـع المـوحـدي، وقـد جـاء البيت في ديـوان أبي الـربيـع المـوحـدي (ص ١٤٠).
(٥) في المقتضب: «نَبْلاً من المُزن في صافٍ من الغُدُر». والزَّغْف والمزن بمعنى.
(٦) في المقتضَب: «لأجل هذا».

٥٤ ـ ومنهم الشاعر الأديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان، المالَقِيُّ(١).

ومن نظمه في السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه اللّه تعالى(٢):
[الطويل]

وفي صَهَـوَات المُقْـرَبـات وفي القَنَـا حُصُونٌ حِمًى لا في هِضاب المَعـاقِلِ

ومـنهـا(٣):

ولا مَـلِكٌ يـأتـي كَـيُـوسُـفَ آخَـرًا كمـا لم يَجِيءْ مِثْـلٌ لـه في الأوائـلِ

٥٥ ـ ومنهم الحافظ أبو الخطاب ابن دَحْيَة(٤)، وهو مجدّ الدين عمر بن الحسن بن علي بن محمد(٥) بن فرح بن خلف، الظاهري المذهب، الأندلسي.

كان من كبار المحدّثين، ومن الحفّاظ الأثبات المحصلين، استوطن بِجَاية في مدّة أبي عبد اللّه بن يومور(٦)، وروى بها، وأسمع، وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة، حتى صار حُوشِيُّ اللغة عنده مستعملاً غالبًا، ولا يحفظ الإنسان من اللغة حُوشِيَّهَا إلاَّ وذلك أضعاف أضعاف محفوظه من مستعملها، وكان قَصْدُه ـ واللّه تعالى أعلم ـ أن ينفرد بنوع يشتهر به دون غيره، كما فعل كثير من الأدباء حيث تركوا طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر، ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس، وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دَحْية له رسائل ومخاطبات كلّها مُغْلَقَات مُقْفَلات، وكان ـ رحمه اللّه تعالى! ـ إذا كتب اسمه فيما يجيزه أو غيره ذلك يكتب «ابن دَحْية ودِحْية معًا المتشبِّه به جبريلُ وجبرائيل» ويذكر ما يُنَيِّفُ على

---

(١) يلقب أيضًا بأبي الفضل، ويعرف بالجلياني الوادي آشي؛ لأنه من وادي آش، وجليانة من عمل وادي آش. وترجمته في فوات الوفيات (ج ٢ ص ٤٠٧) والذيل والتكملة (ج ٥ ص ٥٧) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٤٣) ومعجم البلدان (ج ٢ ص ١٥٧، مادة جليانة). وسيترجم له المقري فيما بعد رقم ٢٣٨ ورقم ٢٦٣، وفي الرقم الأخير ترجمة وافية.

(٢) بعض أبيات هذه القصيدة في فوات الوفيات، وعددها سبعة.

(٣) هذا البيت في فوات الوفيات دون تغيير عمّا هنا.

(٤) أبو الخطاب ابن دحية هو عمر بن الحسن بن علي الكلبي، الأندلسي البلنسي الحافظ، من أعيان العلماء، كان متقنًا لعلم الحديث، عارفًا بالنحو واللغة وأيام العرب. توفي سنة ٦٣٣ هـ بالقاهرة. وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٤٨).

(٥) في وفيات الأعيان: «محمد الجميل بن فَرْح». وفي طبعة دار صادر: «محمد بن الجميل بن فرح».

(٦) في طبعة بولاق: «تومور».

ثلاث عشرة لغة مذكورة في جبريل، ويقول عند فاطر السمٰوات والأرض، وهذا فرع انفرد به عَمَّنْ عَداه من أهل العلم.

قال صاحب عنوان الدراية: رأيت له تصنيفًا في رجال الحديث لا بأس به، وارتحل إلى المشرق في دولة بني أيوب، فرفعوا شأنه، وقربوا له مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وحضروا له مجلسًا أقرّوا له بالتقدّم، وعرفوا أنه مِنْ أولي الضبط والإتقان والتفهّم، وذكروا أحاديث بأسانيد حَوَّلوا مُتونَها، فأعاد المتون المُحَوَّلة، وعَرَّفَ عن تغييرها، ثم ذكر الأحاديث على ما هي عليه مِنْ مُتُونها الأصلية، ومثل هذه الحكاية اتّفق لأبي عمر بن عات في كتاب مسلم بمراكش ببيت الطلبة منها.

ومن شعر أبي الخطاب ما كتب به إلى الكامل بن العادل بن أيوب: [الكامل]

مـا لـي أسـائـلُ بَـرْقَ بـارقَ عَـنْكُمُ ... مِنْ بَعْـدِ مـا بَعُـدَتْ ديـاري مِنْكُمُ
فـمحـلّكُمْ قَلْبي وأنتمْ بـالْحَشـا ... لا بـالـعَـقِـيـقِ ولا بِـرَامَـةَ أنْـتُـمُ
وأنـا الـمُقِيمُ على الـوَفَـاءِ بَعـهْـدِكُمْ ... يـا مـالـكـيـن، وَفَـيـتُمُ أو خُـنْـتُـمُ

وهي طويلة، ومنها:

رَفَعَتْ لـه الأمـلاكُ مِنْـهُ سَجِيّـةً ... مَلَكَ السِّمـاكُ الرُّمْحَ وَهْـوَ مُحَـرَّمُ

ومنها أيضًا:

لـذوي النُّهى والفَهْمِ سِـرُّ حكـومـةٍ ... قـد حـارَ فـيـهـا كـاهِـنٌ ومُنَـجِّـمُ
فـاقْصِدْ مُـرَادَكَ حيث سِرْتَ مُـظَفَّـرًا ... والـلّه يَـكْـلأُ والـكـواكِـبُ نُـوَّمُ
ولَيَهنِـكَ الشَّـهْـرُ السَّعِيـدُ تَـصُـومُـهُ ... وتَـفُـوزَ فـيـه بـالـثـوابِ وتَـغْـنَـمُ
فـلأنْـتَ فـي الـدنـيـا كَليـلَةِ قَـدْرِهِ ... قَـدْرًا، فقَـدْرُكَ فـي الـملوك مُعَـظَّمُ

فأجابه السلطان مكافأة بنثر ونظم، فمن النظم: [الطويل]

وهَيَّجْنَ شـوقي لـلأجـارعِ بـالـلِّوَى ... وأيـن الـلِّوَى مـنِّـي وأيـن الأجـارِعُ
مَـرَابـعُ لـو أنَّ الـمـرابـعَ أنْـجُـمٌ ... لـكـان نجـومَ الأرض تـلك الـمـرابـعُ
رَعَى الـلّه أيـامًـا بـهـا[1] ولَـوَ انّهـا ... إلـيَّ، وقَـدْ ولَّى الـشـبـابُ، رَوَاجـعُ
لـيـالـي لا لَـيـلَى إذا رُمْـتُ وَصْـلَهـا ... يَـلُوحُ لهـا مـن صُبْـحِ شيبي مَـوَاقِـعُ

(١) في طبعة دار صادر: «لها».

في جملة أبيات.

ومن النثر: الحمد للّه ولي الحمد، وقف ولده على الأبيات التي حَسُنَ شعرها، وصَفَا دُرُّها، وليس من البديع أنْ يقذف البحر دُرّاً، أو ينظم الخليلُ[1] شِعْرًا، وقد أخذْتُ الورقة لأتنزّه في معانيها، وأستفيد بما أَوْدَعَه فيها، فاللّه تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته، وصالح أدعيته، والسلام.

فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الأبيات بقوله من قصيدة: [الطويل]

شَجَتْني شَوَاجٍ في الغُصُونِ سَوَاجِعُ ... ففاضَتْ هَوَامٍ للجفون هَوَامِعُ

وأكثر فيها من التغزّل، إلى أن قال:

ولا حاكمٌ أرْضاه بيني وبينَها ... سِوَى حاكمٍ دَهْرِي له الْيَومَ طائِعُ
يُدَافِعُ عنّي الضَّيمَ قائمُ سَيفِهِ ... إذا عَزَّ مَنْ للضَّيم عَنِّي يُدَافِعُ
هو الكاملُ الأوصافِ والمَلِكُ الذي ... تشير إليه بالكمال الأصَابعُ
وبِيضُ أياديهِ الكريمة في الْوَرَى ... قَلاَئِدُ في الأعناق وَهْيَ الصَّنَائعُ
وَيَوماه يَوْماه اللذانِ هُما هُما ... إذا جَمَعَتْ غُلْبَ الملوكِ المجامعُ

ومنها:

فما روضةٌ غَنَّا[2] بها مَرَّتِ الصَّبَا ... ونَشْرُ شذاها الطَّيِّبِ النَّشْرِ ذائعُ
له من شَذِيِّ الزَّهْرِ بُرْدٌ مُفَوَّفٌ[3] ... أُتِيحَ له من أرض صَنْعَاء صانعُ
فَرَاقَكَ منها أَخْضَرُ الثوب ناضرٌ ... وشَاقَكَ منها أصفرُ اللون فاقعُ
وأحمرُ قانٍ للخدود مُورَّدٌ ... وأبْيضُ كالثغر المفلّج[4] ناصعُ
بأَحْسَنَ مِنْ توشيع[5] مدْحي الذي لهُ ... بدائعُ مِنْ وشْي البديع وشائعُ
وما ضائع مِنْ نشْر شُكري الذي به ... تَأَرَّجَتِ الأرجاءُ عندك ضائعُ

---

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض.

(٢) غَنّا: أصلها: غنّاء، وقد قصرها للضرورة الشعرية.

(٣) مفوّف: فيه خطوط بيض. مختار الصحاح (فوف).

(٤) الثغر المُفَلَّج: يريد الأسنان المفلّجة، والفَلَجُ في الأسنان هو التباعد ما بين الثنايا والرباعيات. مختار الصحاح (فلج).

(٥) التوشيع: الزخرفة والتزيين. لسان العرب (وشع).

ولـو لـم يُـقـيِّـدْنـي نَـدَاكَ لـكـان لـي مـجـالٌ فسيـحٌ في الـبسيـطةِ واسـعُ
فـأنـت الـذي لـي والأعـادي كـثـيـرة فُـوَيقَ مكـانِ الـنجـمِ في الأُفـقِ دافـعُ

ومـنـهـا:

بَقِـيـتَ لـعـبـدٍ جَـدُّه دَحْيَـةُ الـذي يُـشـابـه جِـبْـرِيـلُ لـه ويُـضـارعُ
وجَـدَّتُـهُ الـزهـراءُ بـنـتُ مـحـمـدٍ عليـه الـسـلامُ الـدائـمُ الـمـتـتـابـعُ
ولا عـدمتْ منـك الممـالـكُ مـالكًـا يُـقـرِّبُ لـلآمـال مـا هـو شـاسـعُ
ومـنـك عُـيُـونٌ لـلمُـهِـمَّـات يُـقَّظُ وعنـك عيـونُ الـحـادثـات هـواجـعُ

وقال المقريزي في ترجمة الملك الكامل: إنه كـان مشغوفًـا بسماع الحـديث النبوي، وتقدّم عنده أبـو الخطاب بن دَحْيَـةَ، وبنى له دار الحـديث الكامليّـة بين القصرين بالقاهرة، انتهى.

وقال أبو الخطاب بن دَحية: أنشدني أبو القاسم السُّهيلي لنفسه(١)، وذكـر أنه مـا سأل اللَّه تعالى بها شيئًا(٢) إلاَّ أعطاه(٣): الكامل]

يـا مَن يَـرَى مـا في الضميـر ويَسْمَـعُ أنـتَ الـمُـعَـدُّ لـكـلٍّ مـا يُـتَـوَقَّـعُ
يـا مَـنْ يُـرَجَّـى لـلشـدائِـدِ كُـلِّهـا يـا مَـنْ إليـه الـمُـشْـتَكَـى والْـمَـفـزَعُ
يـا مَـنْ خَـزائـنُ رِزْقـهِ فـي قَـولِ كُـنْ امْـنُـنْ فـإنَّ الـخَـيـرَ عـنـدك أجـمـعُ
مـا لـي سـوى فَـقْـري إلـيـكَ وسيـلةٌ فـبـالافـتـقـار(٤) إليـكَ فَـقْـرِيَ أدفـعُ
مـا لـي سـوى قَـرْعي لِـبَـابِـكَ حِيـلَةٌ فـلـئـنْ رُدِدْتُ فـأيَّ بـابٍ أقـرعُ
ومَـن الـذي أدْعُـو وأهْـتِـفُ بـاسْـمِـه إنْ كـان فَضْلُكَ عـن فقيـرك(٥) يُمْـنَـعُ
حـاشـا لجـودك(٦) أنْ يُقنِّط عـاصيًـا الـفـضـلُ أَجْـزَلُ والـمـواهـبُ أوْسَـعُ

---

(١) أبـو القاسم السهيلي هـو عبد الـرحمن بن عبد اللَّه بن أحمـد بن أبي الحسن؛ فقيه، محدِّث، نحوي، أصولي. نشأ بمالقة وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ. المطرب (ص ٢٣٠).
(٢) كلمة «شيئًا» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٣) الأبيات في المطرب.
(٤) في طبعة ليدن: «وبالافتقار».
(٥) في المطرب: «عن فقير».
(٦) في المصدر نفسه: «لمجدك أنْ تُقَنِّطَ».

ومن نظم السُّهيلي رضي اللَّه تعالى عنه[1]: [الطويل]

أُسَائِلُ عن جيرانه مَنْ لَقِيتُهُ وأُعْرِضُ عن ذِكْراه والحالُ تَنْطِقُ[2]
وما لي إلى جيرانه مِنْ صبابةٍ ولكنَّ نفسي عن صبوحٍ ترقَّقُ[3]

وله[4]: [الكامل]

لَمَّا أجابَ بلا طَمِعْتُ بوَصْلِهِ إذ حَرْفُ لا حرفانِ مُعْتَنِقَانِ
وكذا نَعَمْ بنعيمِ وَصْلٍ آذَنَتْ فَنَعَمْ ولا في اللفظ[5] مُتَّفِقانِ

ولد أبو الخطاب بن دَحية في ذي القعدة سنة سبع ـ أو ثمانٍ ـ وأربعين وخمسمائة[6] وتوفي في انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم.

وتكلّم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجّار، وقدره أَجَلُّ مِمَّا ذكروه، وقد روَى، رحمه اللَّه تعالى، بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم، وكل ذلك في طلب الحديث، وسمع بالأندلس من ابن بَشْكُوال وابن زرقون في جمع كثير[7]، وببغداد من أبي الفرج بن الجوزي، وبأصبهان من أبي جعفر الصيدلاني «معجم الطبراني» ومن غيره، وبنيسابور من أبي سعيد بن الصفّار ومنصور بن الفراوي والمؤيد الطوسي، وحصّل الكتب والأصول، وحدّث، وأفاد، وكان من أعيان العلماء، ومشاهير الفضلاء، مُتْقِنًا لعلم الحديث وما يتعلّق به، عارفًا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها[8].

وصَنّف كتبًا كثيرة مفيدة جدًّا، منها كتاب «التنوير، في مولد السراج المنير» صنّفه عند قدومه إلى إربل سنة أربع وستمائة، وهو متوجّه إلى خراسان لَمَّا رأى ملك إِرْبِلَ مظفر الدين

---

(١) البيتان في أدباء مالقة (ص ١٢٩).
(٢) في طبعة ليدن: «والحال ينطق».
(٣) في طبعة دار صادر: «وما بي إلى جيرانه...». وفي أدباء مالقة: «ولكن قلبي عن صبوحٍ يرقّق».
(٤) البيتان في أدباء مالقة (ص ١٣٠).
(٥) في أدباء مالقة: «في الحب».
(٦) في وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٥٠) أنه ولد سنة ٥٤٤ هـ.
(٧) في طبعة دار صادر: «كبير».
(٨) قارن بما جاء في وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٤٩).

كُوكُبُرِي[1] معتنيًا بعمل المولد النبوي في شهر ربيع الأوّل كل عام، ومهتمًا به غاية الاهتمام، وكمله وقرأه عليه بنفسه، وختمه بقصيدة طويلة، فأجازه بألف دينار، وصنّف أيضًا «العلم المشهور، في فضائل الأيام والشهور»، و «الآيات البيّنات، في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات» وكتاب «النبراس، في أخبار خلفاء بني العباس»، وكتاب «الإعلام المبين، في المفاضلة بين أهل صِفِّين»[2].

ووُلّي قضاء بلد أصوله دَانِيَة مرتين، ثم صرف عن ذلك لسيرة نسبت إليه[3]، فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٥، ثم حَجَّ وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور، وعاد إلى مصر، فاستأدبه العادل لولده الكامل، وأسكنه القاهرة، فنال بذلك دنيا عريضة، ثم زادت حَظوته عند الكامل، وأقبل عليه إقبالاً عظيمًا وكان يعظّمه ويحترمه، ويعتقد فيه الخير، ويتبرّك به، حتى كان يسوي له المداس حين يقوم، وهو بَلَنسي كما قاله ابن خلكان وغيره، وبَلَنْسِية مشهورة بشرق الأندلس[4].

٥٦ ـ ومنهم خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ، الحافظ، الأندلسي[5].

رحل إلى المشرق، وكان حافظًا فهمًا عارفًا بالرجال، حدّث حديث مالك وشعبة وأشياء في الزهد، وسمع بمصر أبا الحسن بن الورد والبغدادي ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة، وسمع بدمشق علي بن أبي العقب وأبا الميمون بن راشد وبمكّة من بكير الحداد وأبي الحسن الخزاعي والآجري، وبقرطبة من أحمد بن يحيىٰ بن الشاهد ومحمد بن معاوية، وتوفي سنة ٣٩٣.

٥٧ ـ ومنهم خلف بن سعيد بن عبد الله بن زرارة أبو القاسم بن المرابط[6]؛ الكلبي، مِنْ ذُرّيّة الأبرش الكلبي، ويعرف بالمبرقع، المحتسب، القرطبي.

---

(١) إربل: مدينة كبيرة من أعمال الموصل، قام بعمارتها وبناء سورها وأسواقها وقيساريّتها الأمير مظفر الدين كُوكُبُرِي بن زين الدين كُوجكَ علي، وأقام بها، وقاوم الملوك حتى هابوه، وكان كثير الظلم عَسُوفًا بالرعيّة راغبًا في أخذ الأموال من غير وجهها. معجم البلدان (ج ١ ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٢) أغفل المقري ذكر كتاب «المطرب» الذي يهتمّ بأدب الأندلسيين.

(٣) في طبعة دار صادر: «نعيت عليه».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «الأندلس ثلث سنة بالتصحيف».

(٥) ترجمة ابن الدباغ في جذوة المقتبس (ص ٢٠٩) وبغية الملتمس (ص ٢٨٦) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٢٥٠).

(٦) ترجمة ابن المرابط في الصلة (ص ٢٥٨) وفيه: «زبارة» بدل «زرارة».

رحل إلى المشرق مرتين، أولاهما سنة ٣٣٣[١]، وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، وسمع أبا سعيد بن الأعرابي، وابن الورد، وأبا بكر الآجري، وروى عنه أبو إسحق بن شِنْظِير وأبو جعفر الزهراوي، وقال ابن شنظير: إنه توفي في نحو الأربعمائة رحمه اللّه تعالى، ورضي عنه!.

٥٨ ـ ومنهم سابق فضلاء زمانه، أبو الصَّلْت أُميّة بن عبد العزيز بن أبي الصَّلْت الإشبيلي[٢].

يقال: إنَّ عمره ستون سنة، منها عشرون في بلده إشبيلية، وعشرون في إفريقية عند ملوكها الصِّنهاجيين، وعشرون في مصر محبوسًا في خزانة الكتب، وكان وَجَّهه صاحب المهدية إلى ملك مصر فسُجن بها طول تلك المدّة في خزانة الكتب، فخرج في فنون العلم إمامًا، وأَمْتَنُ علومه الفلسفة والطبّ والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته، وكان يُكْنى بالأديب الحكيم، وهو الذي لحّن الأغاني الإفريقية.

قال ابن سعيد: وإليه تُنْسب إلى الآن. وذكره العماد في «الخريدة». وله كتاب «الحديقة» على أسلوب «يتيمة الثعالبي»[٣]. وتوفي سنة ٥٢٠، وقيل: سنة ٥٢٨ بالمهدية، وقيل: مستهل السنة بعدها، ودُفن بها.

وله فيمن اسمه واصل[٤]: [الكامل]

يا هاجرًا سَمَّوه عَمْدًا واصِلًا ... وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ
أَلْغَيتني حتى كأنَّك واصلٌ ... وكأنني من طول هجري الراء[٥]

(١) هكذا في الصلة، وقد ذكر ابن بشكوال أن رحلته الثانية كانت في سنة ٤٣٩ هـ.
(٢) مرت الإشارة إليه وإلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٤١).
(٣) في طبعة دار صادر: «يتيمة الدهر» للثعالبي.
(٤) واصل هو غلام، وهو مُغَنٍّ مليح حسبما جاء في الخريدة، قسم شعراء المغرب (ج ١ ص ١٨٩).
(٥) في الخريدة: «هجرك راءً».

وقوله، وهو من بدائعه[1]: [الكامل]

لَا غَـرْوَ أَنْ سَبَقَـتْ لُهَـاكَ[2] مـدائـحي ... وتَـدَفَّـقَـتْ جَـدْواك مِـلْء إنائـها
يُـكْسَـى القـضـيـبُ ولـم يَـحِـنْ إِثْـمـارُهُ ... وتُـطَوَّقُ[3] الـوَرْقـاء قـبـل غنـائـهـا

وقال في الأفضل[4]: [الكامل]

تَـرْدِي[5] بكـل فَتًى إذا شهـدَ الـوغى ... نَثَـرَ الـرِّمـاح على الـدروبِ كعـوبَـا
قـد لَـوَّحَتْـهُ يَـدُ الهـواجـرِ فـاغتـدى ... مِثْـلَ القـنـا قضـافـةً[6] وشحـوبـا
تَخِـذُوا القَـنَـا أَشْـطانهـمْ واسْتَـنْبَـطُوا ... فـي كـلِّ قلبٍ بـالـطِّعـان قَـلِيـبـا[7]

ومنها[8]:

تُعْـطي الـذي أعْـطَتْـكَـهُ سُمْـرُ القَـنَا ... أبـدًا فـتغـدو سـالِـبًـا مَسْلُوبَـا[9]

ومنها[10]:

وأنـا الـغـريبُ مـكـانُـهُ وبـيـانـه ... فـاجْعَـلْ صَنِيعَـكَ في الغريبِ غريبا

وله[11]: [الكامل]

ومُهَفْهَفٍ شَـرِبَتْ[12] محـاسنُ وَجْهِـهِ ... مـا مَجَّـهُ في الكـاس مِنْ إبْـريـقِـهِ
فَـفِعـالُـهـا مِنْ مُـقْلَتَيـهِ، وَلَـونُهـا ... مِنْ وَجْنَـتَيـهِ، وطَـعْمُـهـا مِنْ ريقِـهِ

---

(١) البيتان في الخريدة (ص ١٩١) ووفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٤٤) والمغرب (ج ١ ص ٢٦٢).
(٢) في وفيات الأعيان والمغرب: «يداك مدائحي».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «وتطقطق».
(٤) الأبيات في الخريدة (ص ١٩١) من قصيدة طويلة قالها في الأفضل سنة ٥١٤ هـ. وهذه الأبيات تدخل في وصف الخيل، والبيت الثالث في المغرب (ج ١ ص ٢٦٢).
(٥) يقال: رَدَتِ الفرسُ تَرْدِي إذا رَجَمَت الأرض بحوافرها. محيط المحيط (ردا).
(٦) في الخريدة: «قصافة».
(٧) القليب: البئر. لسان العرب (قلب).
(٨) هذا البيت في الخريدة (ص ١٩٣) والمغرب (ج ١ ص ٢٦٢).
(٩) في الخريدة: «فتغدو السالبَ المسلوبا».
(١٠) البيت في الخريدة (ص ١٩٣).
(١١) البيتان في وفيات الأعيان (ج ١ ص ٢٤٥) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠٨).
(١٢) في المصدرين السابقين: «شركتْ».

أخذه من ابن حَيُّوس، وقصر عنه، في قوله[1]: [الكامل]

ومهفهفٍ[2] يَغْنَى بلحظِ جفونِهِ عن كاسه المَلأى وعن إبريقِهِ
فِعْلُ المُدامِ ولونُهَا ومَذاقُهَا في مقلتيه ووجنتيهِ وريقِهِ

ولأبي الصلت فيمن اسمه مُحْسِن: [مجزوء الخفيف]

أيها الظالمُ المسي ءُ مَدَى دَهْره بنا
ما لهمْ أخطأوا الصوا ب فسَمَّوكَ مُحْسِنا

وله في لابس قرمزية حمراء[3]: [المنسرح]

أقبلَ يَسْعَى أبو الفوارسِ في مَرأى عجيبٍ ومَنْظَرٍ أنِقِ
أقْبَلَ في قِرْمِزِيَّةٍ عَجَبٍ قد صَبَغَتْ لونَ خَدِّه الشَّرِقِ
كأنَّما جِيدُهُ وغُرَّتُه مِنْ دُونِهَا إذ بَدَونَ[4] في نَسَقِ
عَمُودُ فَجْرٍ مِنْ فَوقِهِ[5] قَمَرٌ دارَتْ به قِطْعَةٌ مِنَ الشَّفَقِ

وله في ثقيل وقد أجاد[6]: [الخفيف]

لي جليسٌ عَجِبْتُ كَيفَ اسْتَطاعَتْ هٰذِهِ الأرْضُ وَالْجِبَالُ تُقِلُّهْ
أنا أرْعَاهُ مُكْرَهًا وبقَلْبِي مِنْهُ ما يُقْلِقُ الجِبالَ أقَلُّهْ[7]
فَهْوَ مِثْلُ المَشِيبِ أكْرَهُ مَرْآ هُ ولَكِنْ أصُونُهُ وَأجِلُّهْ

---

(1) البيتان في وفيات الأعيان.
(2) في وفيات الأعيان: «وممنطق».
(3) الأبيات في الخريدة (ص ٢٤١ ـ ٢٤٢).
(4) في الخريدة: «بَرَزْنَ».
(5) في المصدر نفسه: «فَجْرٍ فُوَيْقَهُ...».
(6) جملة: «وقد أجاد» ساقطة في طبعة دار صادر. والأبيات في الخريدة ص(٢٤٩).
(7) في طبعة ليدن: «ما يتلف الجبال». وفي الخريدة: «ما يتلف الحياة».

أخذه من قول أبي الحسن جعفر بن الحاج اللورقي[١]، وهما في عصر واحد[٢]: [الكامل]

لـي صـاحِبٌ عَـمِيَتْ عليَّ شؤونُـهُ   حَـركَـاتُـهُ مَجْهُـولَـةٌ وسُكـونُـهُ
يَـرْتـابُ بـالأمـرِ الجَليِّ تَـوَهُّـمًـا   فـإذا تَـيَقَّـنَ نـازَعَتْـهُ ظُـنُـونُـهُ
إنِّـي لأهْـواه عَـلَى شَـرَقِـي بـه   كـالشَّيبِ تكـرهُـه وأنْتَ تَصُـونُـهُ

وأوصى أبو الصَّلْت المذكور أنْ يُكْتَبَ على قَبْرِه[٣] مِمَّا نظمه قبل موته[٤] : [الطويل]

سَكَنْتُـكِ يـا دَارَ الفَنَـاءِ مُصَـدِّقًـا   بـأنِّـي إلـى دار الـبَـقـاء أَصِـيـرُ
وأَعْـظَمُ مـا فـي الأمـر أنِّـيَ صـائـرٌ   إلى عـادلٍ في الحُكْم ليس يَجُـورُ
فَيَا لَيتَ شِعْرِي كيف ألقَـاه عِنْدَهـا[٥]   وزَادِي قـلـيـلٌ والـذنـوبُ كـثـيـرُ
فـإنْ أكُ مَجْـزِيًّـا بـذَنْـبِـي فـإنَّـنـي   بِشَـرِّ عِقَـاب[٦] المـذنبيـنَ جَـديـرُ
وإنْ يَـكُ عَـفْـوٌ ثَـمَّ[٧] عنِّي ورحـمـةٌ   فَـثَـمَّ نَـعِـيـمٌ دائـمٌ وسُـرورُ

---

(١) في أصول النفح: «الميورقي» وهو خطأ، لأن الذين ترجموا لـه ذكروا أنـه من أهل لـورقة، وهـو أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن أحمد الحاج من أهل لورقـة، من أعمال تـدمير، وعَينُهـا. لُقِّب بذي الـوزارتين، وكان مقدَّمًا في النثر والنظم. المعجم في أصحاب القاضي الصـدفي (ص ٧٧) والمطرب (ص ١٧٨) والمغرب (ج ٢ ص ٢٧٧) وقلائد العقيان (ص ١٣٩) وبغية الملتمس (ص ٢٥٧).

(٢) الأبيات في المصادر الآنفة الذكر، عدا المعجم، ولكن ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) هكـذا في طبعة ليـدن. وفي طبعتي عبد الحميـد ودار صادر: «وأوصى أن يكتب على قبـره أبـو الصلت المذكور. . .».

(٤) الأبيـات في خريـدة القصر ـ قسم شعـراء المغـرب (ج ١ ص ٢٦٩) ووفيـات الأعيـان (ج ١ ص ٢٤٦) وعيـون الأنبـاء في طبقـات الأطبـاء (ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤). وستـأتي في الجـزء الـرابـع من نفـح الـطيب وفيه: «من غنيٍّ ومُفْضِل» بدل «ثم عنِّي ورحمة» في البيت الأخير.

(٥) في الخريدة: «بعدها».

(٦) في المصدر نفسه: «بِحَرِّ عذاب المذنبين. . .».

(٧) في وفيات الأعيان: «عفوٌ منه».

وله أيضًا[1]: [الطويل]

إذا كان أصْلِي[2] مِنْ تُرابٍ فكُلُّها بلادي، وكُلُّ العالمين أقاربي
ولا بُدَّ لي أن أسألَ العِيسَ[3] حاجَةً تَشُقُّ على شُمِّ الذُرا والغوارِبِ

وقال[4]: [الكامل]

دَبَّ العِذارُ بخدِّه ثم انْثَنَى عَنْ لثْمِ مَبْسِمِهِ البَرُودِ الأَشْنَبِ
لا غَرْوَ أن خَشِيَ الرَّدى في لَثْمِهِ فالرِّيقُ سُمٌّ قاتلٌ للْعَقْرَب

وقد ذكروا أن مِنْ خواصّ ريق الإنسان أنه يقتل العقرب، وهو مجرَّب[5].

وقال[6]: [السريع]

لا تَدْعُني[7] ولْتَدْعُ مَنْ شِئْتَهُ إليكَ مِنْ عُجْم ومِنْ عَرَبِ
فنحْنُ أكّالون للسُّحْت في ذراكَ[8] سَمَّاعون للكَذِب

وقال[9]: [الكامل]

لا تسألنِّي عن صنيعِ جُفُونِها يومَ الوداع وسَلْ بذلك مَنْ نَجا
لو كُنْتُ أَمْلِكُ خَدَّها لَلَثَمْتُهُ حتى أُعِيدَ به الشقيقَ بَنَفْسَجا
أو كنْتُ أهجعُ لاحْتَضَنْتُ خيالها ومَنَعْتُ ضَوءَ الصبح أن يتبلَّجا
وبَثَثْتُ[10] في الظَّلْماء كُحْلَ جُفُونها وعَقَدْتُ هاتِيكَ الذوائبَ بالدُّجا

---

(١) البيتان في الخريدة (ص ١٩٨) ووفيات الأعيان (ص ٢٤٤). وهما ينسبان أيضًا إلى أبي العرب الصقلي.

(٢) في الخريدة: «كان جسمي».

(٣) في المصدر نفسه: «العيش».

(٤) الأبيات في الخريدة (ص ١٩٩).

(٥) في الخريدة: «يقال: من خواصّ...».

(٦) البيتان في الخريدة (ص ٢٠٠).

(٧) في الخريدة: «لا تَدْعُنا».

(٨) في المصدر نفسه: «دارك». والسُّحْتُ: الحرام. لسان العرب (سحت).

(٩) الأبيات في الخريدة (ص ٢٠٦).

(١٠) في الخريدة: «فَبَثَثْتُ».

وقال مهنئاً بمولود[1]: [السريع]

يَلُوح في المَهْدِ على وَجْهِهِ تَجَهُّمُ البأسِ وبُشْرى[2] النَّدى
والشمْسُ والبَدْرُ إذا استَجمَعَا لم يَلْبَثا أن يَلِدَا فَرْقَدا
فابْقَ له حتى ترى نَجْلَهُ وإنْ عرا خَطْبُ فنحنُ الْفدا

قال ابن سعيد: وهذا البيت الأخير من أثقل الشعر يُتَطَيَّرُ مِنْ سماعه، وتَرْكُهُ أولى.

وقال رحمه اللّه تعالى في الرصد[3]: [البسيط]

فذا غديرٌ، وذا رَوضٌ، وذَا جبَلٌ، فالضَّبُّ والنُّونُ والملاَّحُ وَالْحَادي

٥٩ ـ ومنهم الفقيه أبو محمد عبد اللّه بن يحيىٰ بن محمد بن بهلول السَّرَقُسطي.

ذكره العماد الأصبهاني في «الخريدة»[4] وذكره السمعاني في الذيل، وأنه دخل بغداد في حدود سنة ست عشرة وخمسمائة.

ومن شعره[5] [الطويل]

أيا شَمْسُ إني إنْ أتَتْكَ مَدَائحي وَهُنَّ لآلٍ نُظِّمَتْ وقلائِدُ
فلسْتُ بمَنْ يَبْغي على الشِّعْرِ رَشْوَةً أبَى ذاك لي جَدٌ كريمٌ ووالِدُ
وأني مِنْ قومٍ قَدِيمًا ومُحْدَثا تُباعُ عليهِمْ بالألوف القَصَائِدُ

٦٠ ـ ومنهم الفقيه المقرىء أبو عامر التياري[6].

---

(١) الأبيات في الخريدة (ص ٢١٢ ـ ٢١٣).
(٢) في الخريدة: «وبِشْرُ».
(٣) تقدم هذا البيت (ص ٤٣) من هذا الجزء من نفح الطيب.
(٤) ترجم له الأصفهاني في الخريدة قسم شعراء المغرب (ج ١ ص ٣٠٥) وعدّه من الفقهاء الفضلاء، والشعراء النبلاء، وذكر أنه توفي في حدود سنة ٥١٦ هـ.
(٥) الأبيات يخاطب بها ممدوحه، وهي في الخريدة (ص ٣٠٦).
(٦) في طبعة بولاق «الباري». وفي طبعة ليدن: «المتباري». وفي الذخيرة (ق ٣ ص ٥٢٩): «البماري» نسبة إلى بادية بمار.

من رجال «الذخيرة»[1] رحل إلى المشـرق، وقرأ على أبي جعفـر الديبـاجي كتابَـه في العروض وسائر كتبه[2]، ولقي شيخ القيروان في العربية ابنَ القزاز، وأديبَها الحُصْري[3]

وأخبر عن نفسه[4] أنـه كان بين يـديه تلميـذ له وَسيمٌ، فمـرَّ به أبـو جعفر التجَـاني[5] بسَحَاءة كتب له فيها وخلّاها بين يديه، وهو قد غلَب النومُ عليه، فقال[6]: [مجزوء الكامل]

يـا نـائـمًـا مـتـعـمِّـدًا إبْـصَـارَ طَـيـفِ حَـبـيـبِـهِ
هُـوَ جَـوْهَـرُ فـاثْـقُـبْـهُ إنْ نَ الـطِّـيـبَ فـي مَـشْـقـوبِـهِ
أو أَرْكِـبَـنِّـي[7] ظَـهْـرَهُ إنْ لـم تـقُـلْ بـرُكـوبِـهِ

فلما قرأها[8] علم أنها للتَّجَاني، فكتب تحتها[9] : [مجزوء الكامل]

يـا طـالـبـا أضْـحَـى حـجـا بٌ دُونَ مـا مَـطْلُوبِـهِ
لـو لـم يَـكُـنْ فـي ذاك إثـ ـمُ لـم أكـن أسْـخُـو بِـهِ
إنـي أغـارُ عَـلـيـه مـنْ أثـوابِـهِ ورَقْـيـبِـه

وأُنْشِدَ يومًا في حلقته لابن الرومي في خبّاز[10] : [البسيط]

إن أنس لا أنس خَـبَّـازًا مَـرَرْتُ بـه يَـدْحُو الـرقاقَـةَ وشْكَ اللَّمْـحِ بالبَصَرِ[11]

---

(١) النص في الذخيرة (ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠).
(٢) في الذخيرة: «في العروض والقوافي وسائر كتبه».
(٣) هو أبو إسحق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري، كما في الذخيرة.
(٤) في الذخيرة: «أنه كان يُؤدِّب بمصر بالقرآن، وبين يديه تلميذٌ...».
(٥) في المصدر نفسه: «البخاني الأندلسي».
(٦) الأبيات في الذخيرة.
(٧) في الذخيرة: «ركِّبنيّ».
(٨) في المصدر نفسه: «فلما قرأها البماري».
(٩) الأبيات في الذخيرة.
(١٠) الأبيات في الذخيرة.
(١١) في الذخيرة: «ما أنس لا.. الرقاق كوشك...».

مـا بَـيـنَ رؤيـتـهـا فـي كَـفِّـه كُـرَةً   وبـين رؤيـتـهـا قَـوراء[1] كـالـقَـمَـرِ
إلاَّ بـمـقـدارِ مـا تَنْدَاحُ[2] دائـرةٌ   في صَفحَـة الماء يُـرْمَى فِيه بـالحجـرِ

فقال بعضُ تلامذته: أما إنه لا يَقْدَر على الزيادة على هذا، فقال[3]: [البسيط]

فكـادَ يَضْـرُطُ إعجَـابًـا بـرُؤيتِهَـا[4]   ومَـنْ رأى مثْـلَ مـا أبْـصَـرْتُ منـه خَـرِي

فضحك مَنْ حضر، وقال: البيت لائقٌ بالقطعة لولا ما فيه من ذكر الرجيع، فقال[5]: [البسيط]

إن كـان بيتـيَ هـذا لَيسَ يُعْجِبُكُمْ   فعجّلوا مَحْـوَهُ أو فـالْـعَـقُـوهُ طَـري

٦١ - ومنهم الأديب الطيب أبو الحجاج يوسف بن عتبة الإشبيلي[6]،

مطبوع في الشعر والتوشيح، قال ابن سعيد[7]: اجتمعت به في القاهرة مرارًا بمجلس الأمير جمال الدين أبي الفتح موسى بن يغمور بن جَلْدَك وفي غيره، وتوفي في مارستان القاهرة.

ومن شعره: [الكامل]

أمَّـا الـغُـرَابُ فـإنـه سَبَبُ النَّـوى   لا رَيـبَ فيـه ولـلـنَّـوى أسـبَـابُ
يَـدْعُـو الغُـرابُ وبَعْـدَ ذاكَ يُجِيبُـهُ   جَـمَـلٌ وتَـعْـوِي بَـعْـدَ ذاكَ ذِئَـابُ
لا تَـكْـذِبَـنَّ فـهـذه أسْـبـابُـهُ   لَـكِـنَّ مـنْـهـا بـدأة وجـوابُ

---

(١) القوراء: المستديرة. (لسان العرب قور).

(٢) تنداح: تتّسع. لسان العرب (ندح).

(٣) في الذخيرة: «قال البماري».

(٤) رواية صدر البيت في الذخيرة هي:

فكـدْتُ أضـرط إعجـابًا لـرؤيتها

(٥) هكذا ورد البيت في الذخيرة.

(٦) يوسف بن عتبة الإشبيلي أديب وشّاح مطبوع، سافر إلى إفريقية ثم إلى مصر، فمات في مارستان القاهرة سنة ٦٣٦ هـ. اختصار القدح المعلى (ص ١٦١) والمغرب (ج ١ ص ٢٦٣). وسيترجم له المقري رقم ٣٠١ في الجزء الثالث، (ص ٤١٦).

(٧) في اختصار القدح (ص ١٦٣) أن أبا الفضل التيفاشي، صاحب ابن عتبة، هو الذي أخبر ابن سعيد أن ابن عتبة قدم عليهم بالقاهرة، وأنه لم يجد من يُقْبل عليه إلاَّ كهف المغاربة الرئيس السيد جمال الدين بن يغمور.

٦٢ ـ ومنهم الإمام المحدّث الحافظ جمال الدين أبو بكر محمد بن يوسف بن موسى، الأندلسي، المعروف بابن مُسْدِي[١].

وهو من الأئمة المشهورين بالمشرق والمغرب، قال رحمه اللّه تعالى: أنشدني رئيس الأندلس وأديبها أبو الحسن سهْل بن مالك الأزدي[٢] الغرناطي لنفسه سنة ٦٣٧ في شوّال بداره بغرناطة[٣]: [البسيط]

مُنَغَّصُ العيش لا يأوِي إلى دَعَةٍ ... مَنْ كان ذا[٤] بلدٍ أو كان ذا ولدِ
والسَّاكنُ النفسِ مَنْ لم ترْضَ هِمَّتُه ... سُكْنى مكانٍ ولم يسْكُنْ[٥] إلى أحدِ

٦٣ ـ ومنهم الإمام الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن فتُّوح بن عبد اللّه الأزدي الحميدي، نسبة لجده حُمَيد الأندلسي[٦].

ولد أبوه بقرطبة، وولد بالجزيرة بُلَيدة بالأندلس، قبل العشرين وأربعمائة، وكان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥، فأول ما سمع من الفقيه أبي القاسم أصبغ، قال: وكنت أفْصح من يقرأ عليه، وكان قد لقي ابن أبي زيد وقرأ عليه وتفقّه، وروى عنه رسالته ومختصر المدوّنة، ورحل سنة ٤٤٨، وقدم مصر وسمع بها من الضَّرَّاب والقُضَاعي[٧] وغير واحد، وكان سمع بالأندلس من ابن عبد البَرِّ وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنّفاته وأكثر من الأخذ عنه، وشهر بصحبته وصار على مذهبه إلاَّ أنه لم يكن يتظاهر به، وسمع بدمشق وغيرها،

---

(١) كان ابن مُسْدي من حفاظ الحديث المُصَنِّفين فيه. أصله من غرناطة، رحل منها بعد سنة ٦٦٣ هـ. الأعلام (ج ٧ ص ١٥٠ ومصادر حاشيته).

(٢) هو سهل بن محمد بن سهل بن أحمد بن مالك الأزدي؛ من أهل غرناطة وأعيانها. تفنَّن في العلوم وبرع في المنثور والمنظوم. مات بغرناطة سنة ٦٣٩ هـ. بغية الوعاة (ص ٢٦٤) والذيل والتكملة (ج ٤ ص ١٠١) واختصار القدح (ص ٦٠) وفيه أن وفاته سنة ٦٤٠ هـ، والمغرب (ج ٢ ص ١٠٥)

(٣) البيتان في بغية الوعاة (ص ٢٦٥) والذيل والتكملة (ص ١٠٤).

(٤) في الذيل والتكملة: «في بلدٍ».

(٥) في بغية الوعاة: «ولم تسكن».

(٦) الحميدي فقيه عالم محدّث، من جزيرة ميورقة، وأصله من قرطبة. رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨ هـ فحجَّ، واستوطن بغداد وبها توفي سنة ٤٤٨ هـ. الصلة (ص ٨١٨) ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢٨٢) وبغية الملتمس (ص ١٢٣) ومواطن من فهرسة ابن خير.

(٧) في طبعة بولاق: «القراعي».

وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنّفاته، وسمع بمكّة من الزنجاني، وأقام بواسط مدّة بعد خروجه من بغداد، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيرًا من الحديث والأدب وسائر الفنون، وصنّف مصنّفات كثيرة، وعلق فوائد، وخرَّج تخاريج للخطيب ولغيره، وروى عنه أبو بكر الخطيب أكثر مصنّفاته وابن ماكولا، وكان إمامًا من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونُبْله وديانته وورعه ونزاهته، حتى قال بعض الأكابر مِمَّنْ لقي الأئمة: لم تَرَ عيناي مثل أبي عبد اللّه الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة[1] علمه وحرصه على نشر العلم وبثّه في أهله، وكان ورعًا ثقةً إمامًا في علم الحديث وعلله ومعرفته متونه ورُوَاته، محقّقًا في علم الأصول على مذهب أصحاب الحديث، مُتَبَحِّرًا في علم الأدب والعربية، ومن تصانيفه كتاب «جذْوة المقتبس، في أخبار علماء الأندلس» وكتاب «تاريخ الإسلام» وكتاب «من ادَّعى الأمان، من أهل الإيمان» وكتاب «الذهب المسبوك، في وعظ الملوك» وكتاب «تسهيل السبيل، إلى علم الترسيل» وكتاب «مخاطبات الأصدقاء، في المكاتبات واللقاء» وكتاب «ما جاء من النصوص والأخبار، في حفظ الجار» وكتاب «ذم النميمة»[2] وكتاب «الأماني الصادقة» وغير ذلك من المصنّفات، والأشعار الحسان، في المواعظ والأمثال. وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحرّ ويجلس في إجانة ماء يتبرّد به، ومن مشهور مصنّفاته كتاب «الجمع بين الصحيحين».

وذكره الحِجَاري في المُسْهب وقال عنه[3]: إنه أظهر العلم في طرق ميورقة بعدما كانت عطلاء من هذا الشأن، وترك لها فخرًا تاري به خواصّ البلدان، وهو من علماء أئمّة الحديث، ولازم أبا محمد بن حزم في الأندلس واستفاد منه، ورحل إلى بغداد، وبها ألّف كتاب «الجذوة»، ومن شعره قوله رضي اللّه تعالى عنه: [الطويل]

ألفْتُ النَّوَى حتى أَنسْتُ بِوَحْشِها ... وصِرْتُ بها لا في الصَّبَابَة مُولَعَا
فلم أُحْصِ كم رافَقْتُهُ مِنْ مُرَافِق ... ولم أُحْصِ كم خَيَّمْتُ في الأرضِ مَوضِعَا
ومِنْ بَعْدِ جَوبِ الأرضِ شرقًا ومَغْرِبًا ... فلا بُدَّ لي مِنْ أنْ أوافيَ مَصْرَعا

(١) في طبعة عبد الحميد: «وغزار».
(٢) في طبعة دار صادر: «وكتاب التميمة».
(٣) في طبعة دار صادر: «إنه طرق ميورقة بعدما كانت عطلاً من. . .».

وقال رحمه اللّه تعالى[1]: [الوافر]

لـقـاءُ الـنـاسِ لـيس يُـفِـيـدُ شـيـئًـا سـوى الهَـذَيـانِ مِنْ قِيـلٍ وقـالِ
فَـأقْـلِلْ مِـنْ لـقـاء الـنـاس إلاَّ لأخْـذِ الـعِلْمِ أو إصْلاحِ[2] حـالِ

وذكره ابن بَشْكُوالٍ في الصِّلة، وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائـة، رحمه اللّه تعالى!.

قال ابن ماكولا: أخبرنا صديقنا أبو عبـد اللّه الحميدي، وهـو من أهل العلم والفضـل والتيقّظ، لم أَرَ مثله في عِفَّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم، وكان أوصى مظفر[3] بن رئيس الرؤساء أن يدفنه عند قبر بشـر الحافي، فخـالف وصيّته ودفنـه في مقبرة بـاب أبرز[4]، فلمّـا كانت مدّة رآه مظفر في النوم كأنه يعاتبه على مخالفتـه، فَنُقل في صفـر سنة ٤٩١ إلى مقبـرة باب حرب، ودفن عند قبر بشر، وكان كفنـه جديـدًا وبدنـه طريًّـا تفوح منـه رائحة الـطِّيب، ووقف كتبه على أهل العلم، رحمه اللّه تعالى!.

ومن مناقبه أنه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ: تعديت بعين إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت، انتهى.

ومن شعر الحميدي أيضًا قوله[5]: [الوافر]

طـريقُ الـزُّهْـدِ أفضلُ مـا[6] طـريقٍ وتَـقْـوَى الـلّه تـالـيـةُ الـحـقـوقِ
فَـثِقْ بـالـلّه يَـكْـفِـكَ، واسْـتَـعِـنْـهُ يُـعِنْـكَ، ودَعْ بُـنَـيَّـاتِ[7] الـطَّرِيـقِ

وقـولـه[8]: [الـوافـر]

كـلامُ الـلّه عَـزَّ وجَـلَّ قَـولِـي وما صَـحَّـتْ بـه الآثـارُ ديـنـي

(١) البيتان في الصلة (ص ٨١٩) ووفيات الأعيان (ص ٢٨٣).

(٢) في الصلة: «أو لِصلاحِ...».

(٣) في طبعة دار صادر: «مظفرًا».

(٤) في طبعة بولاق: «البزر».

(٥) سيأتي هذان البيتان في الجزء السادس من نفح الطيب باختلاف يسير عمّا هنا.

(٦) كلمة «ما» هنا زائدة.

(٧) بُنَيّاتُ الطريق: أي الطريق الضيّقة الصغيرة المتشعّبة من الجادة. وأراد هنا ما التبس من الأمور؛ ويريد أن يقول: دَعِ الطرق الضيّقة لأنها غير مأمونة والْزَمِ الجادة التي توصلك إلى رضى اللّه.

(٨) سنرد هذه الأبيات في الجزء السادس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

ومــااتّــفق الــجـمــيـعُ عــليـه بَدْءًا وعَـودًا فـهْـو عـن حـقٍّ مُـبِـيـنِ
فـدَعْ مـا صَـدَّ عــن هــذا وهــذا[1] تـكـن مـنـهــا عــلى عَـيـن الـيـقـيـن

٦٤ ـ ومنهم الكمال أبو العباس أحمد الشريشي[2]، وهو أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن، القيسي، من أهل شَريش. روى عن أبي الحسن بن لَبَّال[3] وأبي بكر بن أزهر وأبي عبد الله بن زَرْقُون وأبي الحسين بن جبير وغيرهم، وأقرأ العربية، وله تواليف أفاد بما حشد[4] فيها: منها «شرح الإيضاح» للفارسي، و«الجمل» للزجّاج، وله في العروض تواليف، وجمع مشاهير قصائد العرب، واختصر «نوادر» أبي علي القالي.

قال ابن الأبار: لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية، قبل توجّهي إلى إشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه، وأجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه، وأخذ عنه أصحابنا، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية، انتهى.

ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوّق إلى الشام[5]: [البسيط]

يـا جيرةَ الشامِ، هَلْ مِنْ نحـوكُمْ خَبَرُ فـإنَّ قَلْبي بنـار الشـوقِ يَسْتَعِـرُ؟
بَـعُـدْتُ عـنـكُـمْ فـلا والـلّه بَـعْـدُكُـمُ مـا لـذَّ لـلعَـيـنِ لا نَـومٌ ولا سَـهَـرُ
إذا تَـذَكَّـرْتُ أوقـاتًـا نـأتْ ومَـضَـتْ بـقـربـكُـمْ كـادتِ الأحشـاءُ تـنـفـطرُ
كـأنَّني لم أكن بـالـنَّيـرَبَينِ[6] ضُـحًى والغَيمُ يبـكي ومـنـه يضحـكُ الـزهـر

---

(١) رواية صدر البيت في طبعة دار صادر هي:
فَـدَعْ مـا صَـدَّ عن هـذي وخُـذْهـا

(٢) هو أحمد بن عبد المنعم بن موسى القيسي الشريشي النحوي وشارح المقامات؛ كان مبرزًا في النحو واللغة والعروض. مات بشريش سنة ٦١٩ هـ. بغية الوعاة (ص ١٤٣).

(٣) في طبعة بولاق: «ليال».

(٤) في طبعة دار صادر: «حشر».

(٥) سترد هذه الأبيات في الجزء الثالث من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٦) مثنى «نَيرَب»، ونَيرَبُ: قرية مشهورة بدمشق، من أنزه المواضع، وقد ذكرها أبو المطاع وجيه الدولة بن حمدان في شعر له، وسمّاها النَّيرَبَين بلفظ التثنية أيضًا، فقال: [الطويل]
فـمـا ذَكَـرَتْهـا الـنَّفْسُ إلّا اسْـتَخَـفَّـني إلـى بَـرْدِ مـاءِ الـنَّـيـرَبَـيـنِ شُـجُـونُ
معجم البلدان (ج ٥ ص ٣٣٠).

والـوُرْق تُـنْشِـدُ، والأغـصـانُ راقصـةٌ والـدَّوْحُ يَـطْرَبُ بـالـتَّصْـفيـق والنهـر
والسَّفْـحُ أيـن عَشِيَّـاتي الـتي سـلفتْ لي منـه فهي لعمـري عِنْـدِيَ العُـمُـرُ
سقـاكَ يـا سفـحُ سفـحُ الـدَّمْـعِ مُنْهمـلاً وقَـلَّ ذاك لـه إن أَعْـوَزَ الـمـطرُ

ولـه رحمه اللَّه تعالى شروح لمقامات الحريري: كبير[1]، ووسط، وصغير، وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له، وكان رحمه اللَّه تعالى مُعْجبًا بالشام.

وقال ابن الأبار عندما ذكره: إنه شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ: كبراها الأدبية، ووسطاها اللغوية، وصغراها المختصرة، انتهى.

وتوفي بشَرِيش بلده سنة تسع وستمائة، رحمه اللَّه تعالى!.

٦٥ ـ ومنهم أبو بكر يحيىٰ بن سعدون بن تمام بن محمد، الأزدي، القرطبي، الملقب بضياء الدين[2].

أحد الأئمة المتأخّرين في القراآت وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك.

قال القاضي الشمس ابن خلكان[3]: إنه رحل[4] من الأندلس في عُنْفُوان شبابه وقدم[5] مصر فسمع بالإسكندرية أبا عبد اللَّه محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيىٰ بن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالسِّلَفي وغيرهم. ودخل بغداد سنة ٥١٧، وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد اللَّه بن علي المقرىء المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط، وسمع عليه كتبًا كثيرة منها كتاب سيبويه، وقرأ الحديث على أبي بكر محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان وأبي القاسم بن الحصين وأبي العز[6] وغيرهم. وكان ديِّنًا وَرِعًا

---

(١) الشرح الكبير هو المطبوع من شروح المقامات.
(٢) ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان (ج ٦ ص ١٧١) والسيوطي في بغية الوعاة (ص ٤١٢) ولقبه فيها هو «سابق الدين». وترجم له ابن سعيد في المغرب (ج ١ ص ١٣٥).
(٣) وفيات الأعيان (ج ٦ ص ١٧١ ـ ١٧٣).
(٤) في وفيات الأعيان «خرج».
(٥) في المصدر نفسه: «وقدم ديار مصر».
(٦) في المصدر نفسه: «وأبي العزّ ابن كادش وغيرهم».

عليه وقار[1] وسكينة، وكان ثقة صدوقًا ثبْتًا نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيدًا، أقام بدمشق مدّة، واستوطن الموصل، ورحل منها إلى أصبهان، ثم عاد إلى الموصل، وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر، وذكره الحافظ ابنُ السمعاني في كتاب «الذيل»، وقال: إنه اجتمع به بدمشق، وسمع عنه مشيخة أبي عبد اللّه الرازي، وانتخب عليه أجزاء، وسأله عن مولده فقال: ولدت سنة ٤٨٦ في مدِينة[2] قرطبة، ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة ٤٨٧، والأول أصح. وكان شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب رحمه اللّه تعالى يفتخر بروايته[3] وقراءته عليه، وقال: كُنّا نقرأ عليه بالموصل، ونأخذ عنه، وكُنّا نرى رجلاً يأتي إليه كل يوم فيسلّم عليه وهو قائم، ثم يمدُّ يده إلى الشيخ بشيء ملفوف، فيأخذه الشيخ من يده، ولا نعلم ما هو، ويتركه ذلك الرجل ويذهب، ثم تقفّينا ذلك فعلمْنا أنها دجاجة مسموطة كانت تُرْسم[4] للشيخ في كل يوم، يبتاعُها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها، وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولّى طبخها بيده.

وذكر في كتاب[5] «دلائل الأحكام» أنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة، آخرها سنة ٥٦٧.

وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيرًا ما ينشد مسندًا إلى أبي الخير الكاتب الواسطي[6]: [الوافر]

جَرَى قلمُ القضاء بما يكونُ فسيّانِ التَّحَرُّكُ والسكونُ
جُنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ ويُرزق في غشاوته الجنينُ

وتوفي القرطبي المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧[7]، رحمه اللّه تعالى!.

---

(١) في المصدر نفسه: «عليه وقار وهيبة وسكينة».

(٢) في المصدر نفسه: «بمدينة قرطبة من ديار الأندلس».

(٣) في المصدر نفسه: «برؤيته».

(٤) في وفيات الأعيان: «كانت برسم الشيخ».

(٥) في المصدر نفسه: في كتابه الذي سمّاه «دلائل الأحكام».

(٦) في المصدر نفسه: «الواسطي رواهما بالإسناد المتّصل إليه أنهما له...». وليس في البيتين تغيير عمّا هنا.

(٧) هكذا في وفيات الأعيان وبغية الوعاة. وفي المغرب: ٥٧١ هـ، وقيل: ٥٦٧ هـ.

انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار.

٦٦ ـ ومنهم الوزير أبو عبد اللّٰه محمد، ابن الشيخ الأجلّ أبي الحسن بن عبد ربّه[١]، وهو من حفداء صاحب كتاب «العقد» المشهور.

حدّث الشيخ الأجلّ أبو عبد اللّٰه محمد بن علي اليحصبي القَرْمُوني رفيقه قال: اصطحبْتُ معه في المركب من المغرب إلى الإسكندرية، فلمّا قربْنا منها هاجَ علينا البحر، وأشفينا على الغرق، فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الإسكندرية، فسررْنا برؤيته، وطمعْنا في السلامة، فقال لي: لا بُدَّ أن أعمل في المنار شيئًا، فقلت له: أَعَلَى مثل هذه الحال التي نحن فيها؟ فقال: نعم، فقلْتُ: فاصنع، فأطرق ثم عمل بديهًا: [البسيط]

لِلَّه دَرُّ مَنَار اَسْكَنْدَرِيَّةَ كَمْ ... يَسْمُو إليه على بُعْدٍ مِنَ الحدقِ
من شامخِ الأنف في عِرْنِينِهِ[٢] شَمَمٌ ... كأنه باهتٌ في دارة الأفقِ
يكسّرُ الموجُ منه جانبي رجلٍ ... مُشَمِّرِ الذَّيْلِ لاَ يَخْشَى مِنَ الغرقِ
لا يبرحُ الدَّهْرَ مِنْ وردٍ على سُفُنٍ ... ما بَينَ مُصْطبحٍ منها ومُغْتبقِ
للمنشآت الجواري عند رؤيته ... كموقع النوم مِنْ أجفانِ ذي أرق

وتقدّمت ترجمة الكاتب أبي عبد اللّٰه بن عبد ربّه، وأظنّه هذا، فَلْيُتَنَبَّه له، بل أعتقد أنه هو لا غيره، واللّٰه تعالى أعلم.

٦٧ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن الصفار، القرطبي[٣].

قال في القدح المعلى: بيتهم[٤] مشهور بقرطبة، لم يزل يتوارث في العلم والجاه وعلوّ المرتبة. ونشأ أبو عبد اللّٰه هذا حافظًا للآداب[٥]، إمامًا في علم الحساب، مع أنه كان أعمى مُقعدًا مشوّه الخِلْقة، ولكنّه إذا نطق علم كلّ منصف حقّه. ومن عجائبه أنه سافر على تلك الحالة، حتى غدت بغداد له هالة. اجتمعْتُ به[٦] بحضرة تونس فرأيت بحرًا زاخرًا،

---

(١) ترجم له المقري في هذا الجزء رقم ٥٣، (ص ٣١٢).
(٢) العِرْنينُ: الأنف.
(٣) ترجمة ابن الصفار في اختصار القدح المعلى (ص ٢٠٣) والمغرب (ج ١ ص ١١٧).
(٤) في اختصار القدح: «بيته».
(٥) في المصدر نفسه: «عبد اللّٰه حافظًا لفنون الآداب».
(٦) في المصدر نفسه: «به غير ما مرّة بحضرة تونس ـ كَلأَها اللّٰهُ ـ فرأيتُ منه بحرًا. . .».

وروضًا ناضرًا، إلّا أنه حاطبُ ليلٍ[1]، وساحب[2] ذيل، لا يبالي ما أورده، ولا يلتفت إلى ما أنشده، جامعًا بين السمين والغَثّ، حافظًا للمتين والرثّ، وكان يُقْرِىء الأدبَ بمراكش وفاس وتونس وغيرها.

ومن مشهور حكاياته أنه لَمّا قال أبو زيد الفازاذي[3] في أبي العلاء[4] المستنصر[5] قصيدته التي مطلعها: [البسيط]

الحَـزْمُ والعَـزْمُ منسوبان للعربِ

عارضه بقصيدة[6]، ثم قال فيه وفي ابن[7] أخيه يحيىٰ بن الناصر، الذي نازعه في ذلك الأوان [رداء السلطان][8]: [البسيط]

وإنْ يُنازِعْكَ في المنصور ذو نَسَبٍ ... فَنَجْلُ نُوحٍ ثَوَى[9] في قسمة العَطَبِ
وإنْ يقلْ أنا عَمٌّ فالجوابُ له ... عَمُّ النبيِّ بلا شكٍّ أبو لَهَبِ

وشاعت القصيدة فلبغت[10] أبا العلاء، فحرّض على قتله، وسلّمه اللّه تعالى منه، ومات سنة ٦٣٩.

ومن شعره قوله[11]: [السريع]

---

(١) حاطبُ ليل: أي لا يبالي بما يجمعه ولا يدرك الغثَّ من السمين.
(٢) في اختصار القدح: «وصاحب طَول وذيل... جامع بين الثمين والغثّ، وحافظ... وقد أقرأ الأدب في مرّاكش وفاس وحضرة تونس وغيرها من الأقطار، وشاع ذكره حينما جالت به الأسفار...».
(٣) في طبعة دار صادر: «الفازازي». وفي القدح: «الفزاريّ».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «أبي علي».
(٥) المستنصر هنا ليس لقبًا لأبي العلاء، كما يتوهّم المقري؛ لأنه جاء في اختصار القدح: «في أبي العلاء المستنصر بالعرب على أهل مراكش».
(٦) في اختصار القدح: «عارضها ابن الصفار بقصيدة ذمَّ فيها أنصاره».
(٧) في المصدر نفسه: «وفي أخيه».
(٨) ما بين قوسين زيادة من اختصار القدح، والبيتان في اختصار القدح وفي المغرب.
(٩) في اختصار القدح: «توى».
(١٠) في اختصار القدح: «وبلغت».
(١١) البيتان في اختصار القدح (ص ٢٠٤) والمغرب (ج ١ ص ١١٩).

لا تَحْسَبِ النـاسَ سَـواءً مـتى تَشـابَهُـوا[1] فـالـنـاسُ أطـوارُ
وانـظرْ إلى الأحجـار، في بعـضهـا مـاءٌ، وبَـعْضُ ضِـمْـنُـهـا[2] نـارُ

وقـولـه[3]: [المجتث]

يـا طـالـعًـا فـي جـفـونـي وغـائـبًـا فـي ضـلوعـي
بـالـغْتَ فـي الـسُّـخْطِ ظُلْمًـا ومـا رَحِـمْـتَ خُـضُـوعـي
إذا نَـوَيـتَ انـقـطاعًـا فـاحْسِبْ[4] حسـاب الـرجـوع

انتهى باختصار يسير.

٦٨ ـ ومنهم أبو الوليد بن الْجَنَّانِ محمد ابن المشرف أبي عمرو بن الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء بن الجنَّان، الكناني، الشاطبي[5].

قال ابن سعيد[6]: تـوارثوا بشـاطبة، مـراتِبَ تحسُدُهـا النجوم الشاقبة، وأبـو الوليـد[7] أشعـرهم، وقد تجـدَّد به في أقـطار المشرق مَفْخَـرُهم، وهـو معـروف هنـاك بفخـر الـدين، ومتصـدِّر في أئمة النحـويين، ومرتَّب في شعـراء الملكِ الناصـرِ صاحبِ الشـام، ومُقَطَّعـاتـه الغرامية قلائدُ أهـل الغرام. صحْبتُـه بمصر ودمشق وحلب، وجَـرَيتُ معه طَلْقَ الجمـوح في ميادين الأدب، وأنشدني بدمشق[8]: [الرمل]

أنـا مِـنْ سُـكْـرِ هَـواهُـمْ ثَـمِـلُ لا أبـالـي هَـجَـرُوا أم وَصَـلوا
فـبِـشـعْـري وحـديـثـي فِـيـهِـمُ زَمْـزَمَ الـحـادي وسـار الـمـثـلُ

---

(١) في المصدرين المذكورين: «ما اشتبهوا».
(٢) في المصدرين نفسيهما: «ضِمْنُهُ».
(٣) الأبيات في المصدرين نفسيهما.
(٤) في المصدرين المذكورين: «فاعْمَلْ».
(٥) كان فخر الدين أبو الوليد محمد بن سعيد بن هشام بن الجنان أديبًا فاضلاً وشاعرًا محسنًا. ولد بشاطبة سنة ٦١٥ هـ، وقدم الشام، وتوفي سنة ٦٧٥ هـ. اختصار القدح المعلى (ص ٢٠٦) والمغرب (ج ٢ ص ٣٨٣) وبغية الوعاة (ص ٤٥) وفوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٦٣).
(٦) اختصار القدح (ص ٢٠٦).
(٧) في المصدر نفسه: «وصاحبنا أبو الوليد أشعرهم، وبه تجدد في أقطار شرق الأندلس معجزهم، وهو معروف هناك».
(٨) الأبيات في اختصار القدح.

إن عُشاق الحِمَى تعرفني والحمى يَعْرِفُني والطَّلَلُ[1]
رَحَلُوا عن رَبْعِ عيني فلذا أدْمُعِي عن مُقْلتي ترتحل
ما لها قد فارقتْ أوطانَها وَهْيَ ليستْ لحماهُمْ تَصِلُ
لا تَظُنُّوا أنني أسلو فما مذهبي عن حُبِّكُمْ[2] ينتقلُ

وقوله رحمه اللَّه تعالى[3]: [البسيط]

باللَّه يا بانَةَ الوادي إذا خَطَرَتْ تلك المعاطفُ حيث الشِّيحُ والغارُ
فعانِقِيها عن الصَّبِّ الكئيب فما على معانقة الأغصان إنكارُ
وعَرِّفيها بأني فيكِ مكتئبٌ فبعض هذا[4] لها بالحبِّ إخبارُ
وأنتُمْ جيرةُ الجرْعاءِ مِنْ إضَمٍ لي في حماكُمْ أحاديثُ وأسمارُ[5]
وأنْتمُ أنْتمُ في كل آونةٍ وإنما حُبُّكُمْ[6] في الكَونِ أطْوارُ
ويا نسيمًا سَرَى تحدُو ركائبُهُ لي بالغوير[7] لُبَاناتٌ وأوطارُ

وقوله[8]: [الخفيف]

يا رَعَى اللَّه أُنْسَنَا بين رَوضٍ حيثُ ماءُ السرْوِ فيه يَجُولُ[9]
تَحْسَبُ الزهرَ عنده يتثنَّى وتخالُ الغُصُونَ فيه تَمِيلُ[10]

---

(١) جاء في اختصار القدح بعد هذا البيت الآتي:
فإذا ما جئتُ ليلاً أرْضَهُمْ لم يَقُلْ ما يَبْتغيه الرجلُ
(٢) في اختصار القدح: «عن جدكم».
(٣) الأبيات في اختصار القدح (ص ٢٠٧).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «هذي».
(٥) في اختصار القدح: «وأسرار». والجرعاء: الأرض التي لا تنبت. لسان العرب (جرع). إضمٌ: وادٍ بجبال تهامة، يشقّ الحجاز حتى يفرغ في البحر. معجم البلدان (ج ١ ص ٢١٤).
(٦) في اختصار القدح: «حُسْنُكُمْ».
(٧) في المصدر نفسه: «نحو الغوير». والغُوَيرُ: ماء بين العقبة والقاع في طريق مكة، معجم البلدان (ج ٤ ص ٢٢٠).
(٨) في طبعة دار صادر: «وله». والبيتان في اختصار القدح (ص ٢٠٨) وفوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٦٦) وقد قالهما بجنة دمشق على نهر ثَورًا من أنهار جِلّق.
(٩) في فوات الوفيات: «اللَّه عيشنا. مالَ السرورُ فيه تميلُ».
(١٠) في المصدر نفسه: «تحسب النهرَ... فيه تسيلُ».

ولـه[1] : [البسيط]

هـاتِ المُدامَ فقـد نـاحَ الحَمـامُ على ... فقْـدِ الظلام وجَيشُ الصبح في غَلَبِ [2]
وأعينُ الـزهـرِ مِنْ طـولِ البكـا رمـدَتْ ... فَكَحَّـلَتْهـا يميـنُ الشمس بـالـذهب
والكـأس حُلَّتهـا حمـراءُ مُـذْهَبَـةٌ ... لـكـنْ أزِرَّتُـهَـا مِنْ لـؤلـؤ الـحَبَـبِ
كم قلْتُ لـلأفْقِ لَمَّـا أنْ بَـدَا صَلَفًـا ... بشمسـه عنـدمـا لاحتْ مِنَ الحُجُـبِ
إنْ تِهْتَ بـالشمسِ يـا أفقَ السمـاءِ فلي ... شمسـان وَجْـهُ نـديمي وابْنَـةُ العِنَبِ
قُم اسْقِنِيهـا[3] وثَغْـرُ الصبـح مبتسمٌ ... والليـلُ تبكيـه عينُ البـدر بـالشُّهُبِ
والسُّحْبُ قـد لَبِسَتْ سُودَ الثيـاب وقـد ... قـامتْ لتـريَـةُ الأطيـارُ في القُضُبِ

ولـه[4]: [السريع]

عليـكَ مِـنْ ذاكَ الحِمَـى يـا رسـولْ ... بُشْـرَى عـلامـاتِ الـرِّضـا والقَبُـول
جِئْتَ وفـي عِـطْفَيـكَ منهـمْ شَـذًى ... يَـسْكـرُ مِـنْ خَمْـرِ هَـواهُ الـعَـذُولْ

ومنـهـا:

أحـبـابـنـا وَدَّعْـتُـمُ نـاظـري ... وأنـتُـمُ بـيـن ضـلوعـي نُـزُولْ
حَـلَلْتُـمُ قـلبـيَ وَهْـو الـذي ... يـقـولُ في دين الهـوى بـالـحلولْ
أنـا الـذي حَـدَّثَ عنّي الـهـوى ... بـأنـني عـن حُبِّـكُـمْ لا أحـولْ
فـلْيَـزِدْ[5] الـعـاذلُ فـي عَـذْلِـهِ ... ولَـيَقُـلِ الـواشي لكمْ مـا يـقـولْ

انتهى كلام النور بن سعيد.

وقال غيره: ولد المذكور بشاطِبَة منتصف شوال سنة ٦١٥، ومات بـدمشق ودفن بسفح قاسيون، وكان عالمًا فاضلاً، دمث الأخلاق، كريم الشمائل، كثير الاحتمال، واسع الصدر، صحب الشيخ كمال الدين بن العديم، وولـده قاضي القضـاة مجد الـدين، فاجتـذبوه إليهم،

---

(١) الأبيات في اختصار القدح (ص ٢٠٨).
(٢) في اختصار القدح: «وقد ناح.. الصبح في الطَّلَبِ».
(٣) في اختصار القدح: «سَقِّنيها».
(٤) اختصار القدح (ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩) وفوات الوفيات (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٥) في اختصار القدح: «فَلْيُبْدِ ذا العاذلُ...».

وصار حنفيَّ المذهب، ودرس بالمدرسة الإقبالية الحنفيّة بدمشق، وله مشاركة في علوم كثيرة، وله يَدٌ في النظم، ومن شعره[1]: [الكامل]

لِلَّه قَومٌ يعشقون ذوي اللُّحَى | «لا يَسْأَلُونَ عن السواد المقبلِ[2]»
وبمهجتي قومٌ وإني منهُمُ | «جُبِلوا على حُبِّ الطرازِ الأولِ»

وله أيضًا[3]: [البسيط]

قم اسْقِينِها وليلُ الهَمِّ مُنْهَزِمٌ[4] | والصُّبْحُ أَعْلامُهُ محمرَّةُ العَذَبِ
والسُّحْبُ قد نثرت في الأرض لؤلؤها | تضمُّهُ الشمسُ في ثوبٍ من الذهبِ[5]

وقد تقدّم عن ابن سعيد له ما يقارب هذا.

وله - رحمه اللّه تعالى! - في كاتب: [الطويل]

وبي كاتبٌ أضمرْتُ في القلب حُبَّه | مخافةَ حُسَّادي عليه وعُذّالي
له صنعةٌ في خطِّ لامِ عذارِهِ | ولكنْ سَهَا إذ نَقَّطَ اللامَ بالخالِ

٦٩ - ومنهم أبو محمد القرطبي[6]. .

قال ابن سعيد[7]: لقيته بالقاهرة، وكأنه لا خبر عنده من الآخرة. وقال طال عمره في أكل الأعراض، وفساد الأغراض، ومِمَّا بقي في أذني من شعره قوله: [الخفيف]

رَحِم اللَّه مَنْ لقيت[8] قديما | فلقدْ كان بي رؤوفًا رحيمَا

---

(١) في طبعة دار صادر: «ومنه قوله».
(٢) عجز هذا البيت لحسان بن ثابت الأنصاري. الشعر والشعراء (ص ٢٢٤).
(٣) البيتان في المغرب (ج ٢ ص ٣٨٣) وفوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٦٦ - ٢٦٧).
(٤) في المغرب: «سَقِّنِها وجيشُ الليلِ». وفي فوات الوفيات: «فاسْقِينِها وجيشُ الليل».
(٥) في المغرب: «والسحب قد بَدَّدَتْ. . .» وفي فوات الوفيات: «فَضَمَّها الشمسُ».
(٦) ترجم له ابن سعيد في اختصار القدح المعلى (ص ٢١٢) تحت عنوان: «أبو المحامد القرطبي» وقال: كان يلقب بأبي بغل، ولقب أيضًا بجسر بلبيس لأنه أقام فيها زمانًا يُكْري كلَّ من جاء من الشام أو من سافر إليها. ومات بالقاهرة سنة ٦٤٣ هـ.
(٧) النص في اختصار القدح ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٨) في اختصار القدح: «من لَعَنْتُ».

أتمنّى لقاء حُرٍّ وقد أعْـ ـوَزَ بختي[1] كما عدمْتُ الكريما

وتوفي بالقاهرة سنة ٦٤٣، انتهى.

٧٠ ـ ومنهم علي بن أحمد، القادسي، الكناني[2].

قال ابن سعيد[3]: لقيتُه ببيت المقدس على زيّ الفقراء، وحصَّلْت منه هذه الأبيات، وندمْتُ بعد ذلك على ما فات، وهي: [المجتث]

ذاك العِذارُ المُطِلُّ دمي عليه يُطَلُّ
كأنّما الخَدُّ ماءٌ وقد جَرَى فيه ظِلُّ
عُقودُ صَبْري عليه مُذْ حَلَّ[4] قلبي تُحَلُّ
جَرَتْ دموعي عليه فقلْتُ آسٌ وطَلُّ

٧١ ـ ومنهم أبو عبد الله بن العطار، القرطبي[5].

قال ابن سعيد[6]: هو حلو المَنَازع، ظريف المقاطع والمطالع، مطبوع النوادر، موصوف بالأديب الشاعر. مازجْتُه بالإسكندرية، وبهذه الحضرة العلية، وما زال يدين بالانفراد، والتجوّل في البلاد، حتى قضى مُناه، وألقى بهذه المدينة عَصَاه، لا يخطر الهَمُّ له ببال، ولا يبيت إلاّ على وَعْدٍ من وصال، وله حين سمع ما ارتجلته في السكين بالإسكندرية حين داعبني باختلاسها القاضي زين القضاة ابن الرِّيغي، وقال: ما لي إليه سبيل، حتى يحضر مصري نبيل[7]: [الطويل]

---

(١) في المصدر نفسه: «بحثي».

(٢) ترجم له ابن سعيد في اختصار القدح (ص ٢١٣) وقال إنه اجتمع به في سنة ٦٤٣ هـ ولم يسمع له خبرًا منذ ذلك الحين.

(٣) النص في اختصار القدح مع بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) في اختصار القدح: «مذ مَلَّ».

(٥) ترجمته في اختصار القدح (ص ٢١٥).

(٦) النص في اختصار القدح مع بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٧) البيتان في اختصار القدح (ص ٢١٥) والمغرب (ج ٢ ص ١٧٣) وسيردان في الجزء الثالث من نفح الطيب.

أيـا سـارقًـا ملكًـا[1] مَصُـونًـا ولم يَجِبْ | عــلى يَـدِهِ قَـطْعٌ وفـيــه نِـصــابُ
ستَنْـدُبُــه الأقــلامُ عــنــد عِـشـارهــا | ويبكـيــه إنْ يَعْـدُ[2] الـصــوابَ كتــابُ

فقــال[3]: [الطـويـل]

أُحــاجِيـكَ مــا شيءٌ إذا مــا سَــرَقْتَــهُ | وفيــه نصــابٌ ليس يلزمـك الـقَـطْعُ
على أنَّ فيــه القــطعَ والحَــدُّ ثــابـتٌ | ولا حَــدَّ فيـه، هكــذا حَكَمَ الشَّــرْعُ

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه «القدْح المُعَلَّى» فيما أظنّ.

ويعني واللَّه سبحـانه وتعـالى أعلم بقولـه: «وبهذه الحضـرة العلية» حضـرة تـونس[4] المحروسة، فإنها كانت محطَّ رحال الأفاضل، من الأواخر والأوائل، حتى إن قـاضي القضاة ابن خلدون أقـام بها مـدة ومنها ارتحـل إلى مصر، وكـذلـك الخـطيب الجليـل سيـدي أبـو عبد اللَّه بن مرزوق رحمه اللَّه تعالى، ومنها خاطب الوزيرَ لسانَ الدين ابن الخطيب وسلطانه في الشفـاعة لـه عند سلطان المغـرب، فكتب لسان الـدين عن سلطانه في ذلـك مـا نَصُّـه: المقام الذي نؤكّد إليه ببرٍّ سلفه الوداد، وتغري بتخليد فخره وأمـره القَلَمَ والمداد، ونصـل به الاسـتظهار على عـدوِّ اللَّه تعالى والاستعـداد[5]، ونخـطب لـه من اللَّه بهـزِّ أعـطافـه للخيـر والتوفيق والسداد، والإعانة منه والإمداد، مقامُ محلِّ أخينا الذي اشتهر فضله ودينه، ووضـح سعده متألّقةً براهينُهُ، وحيّاه الصنع الجميل وبَيَّـاه مشرقًـا جَبينُه، السلطان الكـذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقـاه اللَّه يرعى الـذِّمم، ويسلك من الفضائـل المنهج الأَمَمَ[6]، ويُغْلي البضائع النـافقة عنـد اللَّه تعالى ويعلي الهمم، معـظم قدره، وملتـزم برّه، الحـريص على توفير أجـره، وتخليد فخـره، فلان. أمَّـا بعدَ حمـدِ اللَّه تعالى نـاصر الإمـرة المطاعـة، المحافظة على السُّنّة والجماعة، وحافظها من الإضاعة، إلى قيام الساعة، الذي جعل المودّة

(١) في اختصار القدح: «سِلْكا».

(٢) في المصدر نفسه: «إنْ بَعْدَ الصواب».

(٣) البيتان في اختصار القدح.

(٤) يتّضح لنا أن ابن سعيد ألّف كتابه «القدح المعلى» لصاحب تونس أبي زكريّا ابن الإمـام المستنصر بـاللَّه الحفصي.

(٥) في طبعة دار صادر: «والاعتداد».

(٦) الأَمَمُ: القريب. لسان العرب (أمم).

فيه أنفع الوسائل النفّاعة، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة على العموم والإشاعة، متمّم مكارم الأخلاق من الفضل والبذل والحياة والشجاعة، والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة، وزرعوا الخير في العاجلة ففازوا في الآجلة بفائدة[1] تلك الزراعة، والدعاء لمقامكم الأعلى بصنع يَرْوِي فيه عن الأشمط الباتر خبرَ النصر المتواتر لسانُ البراعة، وتأييد لا ترضى فيه القنا بمقام تلك[2] القناعة، فإنّا كتبْناه إليكم كتب اللّه تعالى لثنائكم العاطر بتخليد المفاخر منشورَ الإذاعة، في أيدي النواسم الضَّوَّاعة، من حمراء غَرْنَاطة - حرسها اللّه تعالى! - عن خَيرٍ هامي السحاب، وبشرٍ مفتّح الأبواب، وعِزٍّ للإسلام - ببركة الاعتداد بملككم المنصور الأعلام - مقتبل الشباب، ويمن ضافي الجِلْباب، والحمد للّه على تضافر الأيدي في ذاته وتوفُّر الأسباب، وجانبكم الرفيع الأمل للمنتاب، إذا حَدَتِ الحداةُ ذواتِ الأقتاب[3]، ومطمح الوسائل المطرّزة المسائل بتصحيح الود اللُّباب، وإلى هذا وصل اللّه تعالى سعيكم[4] بسوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب، وجعل ما عجل لكم من نعمه وآلائه[5] كفيلةً بالزلفى وحسن المتاب، وألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولاً وعملاً فالشكر مستدعي المزيد كما ورد[6] في الكتاب، فإنَّ من المنقول الذي اشتهر، وراق فضله وبَهَر، قوله «اشفعوا تؤجروا» وما في معناه من المعتبر في الخبر وتنفيس كربة عن مسلم، وسماع شكوى من متظلّم، ولولا أن مقامكم السني أغنى، لجلبْنا الكثير من هذا المعنى، ولَمَّا تحقّق ما أنتم عليه من سلوك سبيل والدكم الملك الصالح - قدّس اللّه تربته، وضاعف قربته! - من يمن الظفر، وسلوك سبيل الخبر وإقامة رسوم الدين، والاهتداء من هَدْيِهِ بالنور المبين، خفَّ علينا أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات، ونتَّجر لكم مع اللّه بأنفس البضاعات، فما أثمر من ذلك شكرْنا اللّه تعالى عليه وشكرْناكم عليه شريعة، وما تأخّر أوسَعْنَاكم فيه عذرًا يسدّ ذريعة، وعلمْنا أن اللّه تعالى لم يأذن في تعجيله، وسألناه في تيسيره وتسهيله، سواء لدينا في ذلك ما عاد،

---

(١) في طبعة ليدن: «بفائد».

(٢) كلمة «تلك» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) يريد بذوات الأقتاب: العِيس.

(٤) في طبعة دار صادر: «تعالى، سوابغ نعمه...».

(٥) كلمة: «وآلائه» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٦) في طبعة دار صادر: «كما وَعَدَ». وهنا إشارة إلى قول اللّه تعالى: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾. سورة إبراهيم ١٤، الآية ٧.

بإعانة عامّة وإمداد، وساهم في قصد جهاد، وما لم يَعُدْ علينا خصوصًا وعلى المسلمين عمومًا بإعانة ولا إرفاد، إنّما علينا أن نجلب الخير الباقي والأجر الراقي إلى بابكم، وندلُّ عليه كريم جنابكم، بمقتضى وداد، صُبحة باد، وجميل ظنّ في دينكم المتين واعتقاد، سَلِم مجمله ومفصّله من انتقاد، وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الأوحد العلامة[1] سلالة الصالحين، وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين، ويا لها من مزية دنيا ودين، أبا عبد اللّه بن مرزوق جَبَرَ اللّه تعالى على يدكم البرة حاله، وسَنّى من مقامكم السنيِّ آماله، جرى عليه من المحن، وتباريح[2] الإحَن، ما يعلم كلُّ ذي مروءة وعقل، واجتهاد ونقل[3]، أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب، وإلى مَعَقّاته منسوب، ولو كانت ذنوبه رَضْوَى وثَبِيرا[4]، لاستدعت إلى تعمدها عفوًا كبيرا، رَعْيًا لذلك الإمام الصالح الذي كَبَّر خلفه وأحرم، وتشهّد وسلّم، وأمّن عقب دعائه، ونَصَبَ كفّه لمواهب اللّه تعالى وآلائه، وأنصت لخطبته ووعظه، وأوجب المزيّة لسعة حفظه وعذوبة لفظه، فأحبط ذلك من أحبط الأعمالَ الصالحة، وعَطَّل المتاجر الرابحة، وأسِفَ الملكُ المذكورُ بدم ولده، وإحراق خزائنه وعدده، وتغيير رسومه وحُدُودِهِ وإسخاطه وإسخاط اللّه معبوده، إلى أنْ طَهَّر سيفكم المُلْك من عاره، وأخذ منه بثاره، وتقرّب إلى اللّه وإلى السلف الكريم بمحو آثاره، والحمد للّه على ما خَصَّه من إيثاره، وتدارك الإسلام بإقالة عثاره، وإنه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرّر من حاله ما يَفُتُّ الفؤاد، ويوجب الامتعاض له والاجتهاد، يطلب منّا الإعانة بين يديكم والإنجاد، ويشكو العَيلة والأولاد، والغربة التي أحَلّته الأقطار النازحة والبلاد، والحوادث التي سلبته الطارف والتّلاد، وأنْ نذكركم بوَسيلته، وضعف حيلته، فبادرنا لذلك عملاً بالواجب، وسلوكًا من برّه ورَعْي حقّه على السَّنن اللاحب[5]، وإن كنا نُطَوّقه في أمرنا عند الحادثة علينا تقصيرًا، ولا نشكر إلاّ اللّه وليًّا ونصيرًا، فحقُّه علينا أوجب، فهو الذي لا يُجْحَدُ ولا يُحْجَب، ولا يلتبس منه المذهب، وكيف لا يشفع فيمن

---

(١) كلمة «العلامة» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) في طبعة ليدن: «ونتائج الإحن».

(٣) في الطبعة نفسها: «وفضل».

(٤) رَضْوَى: جبل بالمدينة. معجم البلدان (ج ٢ ص ٥١). ثبير: جبل آخر. معجم البلدان (ج ٢ ص ٧٢).

(٥) اللاحبُ: الطريق الواضح. محيط المحيط (لحب).

جعله السلف إلى اللّه تعالى شفيعًا، وأحلّه محلاً منِيعًا رفيعًا، إلى وليّه الذي جبر ملكه سريعًا، وصيّر جنابه بعد المُحُول مَرِيعًا[1]، وجدّد رسومه تأصيلاً لها وتفريعًا، ومثلكم من اغتنم برّه في نصر مظلوم، وسبر مكلوم، وإعداء كَرَم على لوم، وهي منّا ذكرى تنفع، وحرصٌ على أجرِ مَنْ يشفع، وإسعاف لمن سأل ما يُعْلي من قدركم ويرفع، وتأدية لحقّ سلفكم الذي توفّرت حقوقه، وإبلاغ نصيحة دينيّة إلى مجدكم الذي لا يمنعه عن المجد مانع ولا يعوقه، ومطلبه في جنب مُلككم الكبير حقير، وهو إلى ما يفتح اللّه تعالى به على يد صدقتكم فقير، ومنهلكم الأرْوَى، وباعُكم في الخير أطول وساعدكم أقوى ﴿ وما تَفْعَلُوا مِنْ خيرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزادِ التقوَى ﴾[2] واللّه، عَزَّ وجَلَّ، يسلك بكم المسالك التي تخلّد بالجميل ذكركم، وتعظّم عند اللّه أجركم، فما عند اللّه خير للأبرار، والدنيا دار الغرور والآخرة دار القرار، وهو سبحانه يَصِل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته، انتهى.

والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المَرِيني، وكان ابن مرزوق غالبًا على دولة السلطان أبي سالم أخي أبي فارس المذكور، فقتله الوزير عمر بن عبد اللّه الفُودُودِي، وتغلّب على الملك، ونصب أخًا لأبي سالم مَعْتُوهًا، وسجن ابنَ مرزوق، ورام قتله، فخلّصه اللّه تعالى منه، ثم إنَّ السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلّب وقتله، واستقلّ بالملك، فخوطب في شأن ابن مرزوق بما ذكر.

رجع إلى ما كُنّا فيه من ذكر الراحلين من أعلام الأندلسيين إلى البلاد المشرقيّة المحروسة باللّه سبحانه وتعالى، فنقول:

٧٢ ـ ومنهم أبو الوليد وأبو محمد عبد اللّه بن محمد بن يوسف بن نَصْر، الأزدي، القرطبي، المعروف بابن الفَرَضي، الحافظ المشهور[3].

---

(١) المَرِيعُ: الخصيبُ. محيط المحيط (مرع).

(٢) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٧.

(٣) ترجمة القاضي ابن الفرضي في جذوة المقتبس (ص ٢٥٤) وبغية الملتمس (ص ٣٣٤) والصلة (ص ٣٩١) ومطمح الأنفس (ص ٥٧) والذخيرة (ق ١ ص ٦١٤) ووفيات الأعيان (ج ٣ ص ١٠٥) والمغرب (ج ١ ص ١٠٣) والمطرب (ص ١٣٢).

كان فقيهًا عالمًا، عارفًا بعلم الحديث ورجاله، بارعًا في الأدب وغيره، وله من التصانيف «تاريخ علماء الأندلس»، وقفْتُ عليه بالمغرب، وهو بديع في بابه هو الذي ذَيَّل عليه ابن بَشْكُوال بكتاب «الصلة» وله كتاب حسن في «المؤتلف والمختلف» وفي «مشتبه النسبة»، وكتاب «في أخبار شعراء الأندلس»، وغير ذلك، ورحل من الأندلس إلى المشرق سنة ٣٨٢، فحجَّ وسمع من العلماء وأخذ منهم وكتب مِنْ أماليهم، وروى عن شيوخ عدّة من أهل المشرق.

ومن شعره[١]: [الطويل]

أَسِيرُ الخطايا عِنْدَ بابِكَ واقِفُ ... على وَجَلٍ مِمَّا به أنتَ عارِفُ
يخافُ ذنوبًا ولم يغِبْ عنك غَيْبُها ... ويرجوك فيها فَهْوَ راجٍ وخائفُ
ومَنْ ذا الذي يُرْجى[٢] سواك ويُتَّقى ... وما لكَ في فصل القضاء مُخَالِفُ
فيا سَيِّدي لا تُخْزني في صحيفتي ... إذا نُشِرَتْ يومَ الحسابِ الصحائفُ
وكُنْ مؤنسي في ظلمة القبر عندما ... يَصُدُّ ذوو القربى[٣] ويجفو المؤالف
لئنْ ضاق عنِّي عَفْوُك الواسعُ الذي ... أُرَجِّي لإسرافي فإنِّي لَتَالِفُ

وكان ـ رحمه اللّه تعالى! ـ حَسَن الشعر والبلاغة.

ومن شعره أيضًا رحمه اللّه تعالى[٤]: [الكامل]

إنَّ الذي أَصْبَحْتُ طَوعَ يمينه ... إن لم يكن قَمَرًا فليس بدونِهِ
ذُلِّي له في الحبِّ مِنْ سلطانه ... وسَقَامُ جسمي مِنْ سَقَامِ جُفونِهِ

وله شعر كثير، ومولده في ذي القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١، وتولَّى القضاء بمدينة بَلَنْسية في دولة محمد المهدي المرواني، وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم

---

(١) الأبيات في الصلة (ص ٣٩٣) ووفيات الأعيان (ج ٣ ص ١٠٥).
(٢) في وفيات الأعيان: «يرجو سواك ويتّقي».
(٣) في الصلة: «ذوو ودِّي».
(٤) البيتان في جذوة المقتبس (ص ٢٥٦) وبغية الملتمس (ص ٣٣٦) والصلة (ص ٣٩٥) والذخيرة (ص ٦١٦) ووفيات الأعيان (ص ١٠٦) والمطرب (ص ١٣٢) دون تغيير عمّا هنا.

الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣[١]، وبقي في داره ثلاثة أيام، ودُفن متغيرًا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة، رحمه اللّٰه تعالى!.

ورُوِيَ عنه أنه قال: تعلَّقْتُ بأستار الكعبة، وسألْتُ اللّٰه تعالى الشهادة، ثم انحرفْتُ وفكَّرْتُ في هَول القتل، فندمْتُ وهَمَمْتُ أن أرجع فأستقيل اللّٰه سبحانه وتعالى فاستحييت.

وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف: «لا يُكْلَمُ أحد في سبيل اللّٰه، واللّٰه أعلم بمن يُكْلَم في سبيله، إلَّا جاء يوم القيامة وجُرْحُه يَثْعَبُ دمًا[٢] اللونُ لونُ الدم والريح ريح المسك»، كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك، قال: ثم قَضَى على إثر ذلك وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه.

وقد ساق في المطمح حكايته فقال: كان حافظًا عالمًا كلفًا بالرواية، رحل في طلبها، وتبحّر في المعارف بسببها، مع حظّ من الأدب كثير، واختصاص بنظيم منه ونثير، حجّ وبَرَع، في الزهادة والوَرَع، فتعلّق بأستار الكعبة يسأل اللّٰه الشهادة ثم فكَّر في القتل ومرارته، والسَّيفْ وحرارته، فأراد أن يرجع ويستقيل اللّٰه تعالى فاسْتَحْيا، وآثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا، فأُصِيْبَ في تلك الفتن مكلومًا وقُتل مظلومًا، ثم ذكر مثل ما مَرَّ.

وممّا قال في طريقه إلى قرطبة[٣] يتشوق إلى فَرِيقِهِ[٤]: [الطويل]

مَضَتْ لي شهورٌ منذ غبتُّم ثلاثةٌ ... وما خِلْتُني أبقى إذا غبتُّمُ شَهْرَا
وما لي حياةٌ بعدكُمْ أستلذُّها ... ولو كان هذا لم أكنْ في الهوى حُرَّا
ولم يُسْلِني طولُ التنائي عليكُمُ ... بلى زادني وَجْدًا وجَدَّد لي ذكرا
يمثّلكم لي طولُ شوقي إليكُمُ ... ويُدْنيكُمُ حتى أُناجيكُمُ سِرَّا
سأستعتبُ الدهرَ المُفَرِّقَ بَيْنَنا ... وهل نافعي أنْ صِرْتُ أستعتبُ الدهرا
أُعَلِّلُ نفسي بالمُنَى في لقائكمْ ... وأستسهلُ البَرَّ الذي جُبْتُ والبَحْرَا

---

(١) هذا التاريخ يوافق ما جاء به ابن خلكان في وفيات الأعيان. وفي بقية المصادر التي ترجمت لابن الفرضي: سنة أربعمائة أو في حدود الأربعمائة.

(٢) يَثْعَبُ دمًا: يسيل. لسان العرب (ثعب).

(٣) «إلى قرطبة» سقطت من طبعة دار صادر.

(٤) الشعر في الجذوة، (ص ٢٥٦) وبغية الملتمس (ص ٣٣٦) والصلة (ص ٣٩٥) ومطمح الأنفس (ص ٥٧) والذخيرة، (ص ٦١٥) والمغرب (ص ١٠٤) ولكن مع بعض الاختلاف عمّا هنا.

ويُؤْنِسُني طيُّ المراحل عنكُمُ أروحُ على أرضٍ وأغدو على أخرى
وتاللَّه ما فارقتكُمْ عن قِلًى لكُمْ ولكنّها الأقدارُ تجري كما تُجْرَى
رَعَتْكُم مِنَ الرحمنِ عينٌ بصيرةٌ ولا كَشَفَتْ أيدي النوى عنكُمُ سِتْرَا

وقد عرَّف به ابن حيان في المقتبس، وذكر قصّة شهادته، رحمه اللَّه تعالى!.

٧٣ ـ ومنهم الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللَّه، البكري، الشريشي، المالكي[١].

ولد بِشَرِيش سنة ٦٠١، ورحل إلى العراق، فسمع به المشايخ كالقطيعيّ وابن رَوزَبَة[٢] وابن الكثير وغيرهم، واشتغل وساد أهل زمانه، واشتهر بين أقرانه، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية، ثم انتقل إلى القدس الشريف، فأقام به شيخ الحرم، ثم جاء إلى دمشق المحروسة باللَّه، وتولَّى مشيخة الحديث بتربة أم صالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية، وعُرض عليه القضاء فلم يقبل، وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب، بالرباط الناصري، ودفن بسفح قاسيون، رحمه اللَّه تعالى! وذلك سنة خمس وثمانين وستمائة، رحمه اللَّه تعالى[٣]!.

وليس هو بشارح المقامات[٤]، بل هو غيره، وقد اشتركا في البلد، فبسبب ذلك ربّما يقع في الأذهان الوهم في أمرهما، وشارح المقامات أحمد وهذا محمد، وقد ترجمْنا صاحب شرح المقامات فيما تقدّم من هذا الباب[٥]، فليراجع، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم.

٧٤ ـ ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلِّس، القَيسي، الأندلسي، البَلَنْسي[٦].

---

(١) هو جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللَّه بن سجمان البكري الشريشي المالكي؛ فقيه نحوي، ولد بشريش، ورحل إلى المشرق، وتوفي بدمشق سنة ٦٨٥ هـ. بغية الوعاة (ص ١٨) وشذرات الذهب (ج ٥ ص ٣٩٢).

(٢) في طبعة ليدن: «زوربة».

(٣) جملة «رحمه اللَّه تعالى» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) جاء في شذرات الذهب أنه هو شارح المقامات، وهو وَهْمٌ من ابن العماد، وهذا ما يُنَبِّه عليه المقري.

(٥) مرّت ترجمة كمال الدين أحمد الشريشي في هذا الجزء (ص ٣٣١، رقم ٦٤).

(٦) ابن مُغَلِّس من أهل العلم باللغة العربية، رحل من الأندلس واستوطن مصر، فمات بها سنة ٤٢٧ هـ. جذوة المقتبس (ص ٢٨٨) وبغية الملتمس (ص ٣٨٤) والصلة (ص ٥٣٩) وفيات الأعيان (ج ٣ ص ١٩٣).

كـان من أهل العلم بـاللغة والعربية، مشـارًا إليه فيهمـا، رحل من الأنـدلس، وسكن بمصر واستوطنها، وقرأ الأدب على أبي العلاء صاعـد اللغوي صـاحب كتاب «الفصـوص»، وعلى أبي يعقـوب يوسف بن خُـرَّزاذ النَّجِيرَمي[1]، ودخـل بغداد، واستفـاد وأفاد، ولـه شعر حسن، فمن ذلك قوله[2]: [المتقارب]

مـريضُ الـجـفـون بـلا عِـلَّةٍ ولـكـنَّ قـلبـي بـه مُـمْـرَضُ
أعـانَ الـسُّـهَـادَ عـلى مُـقْـلتـي بِـفَـيضِ الـدمـوعِ فـمـا تُـغْـمَضُ
ومـا زارَ شـوقًـا ولـكـنْ أتـى يُـعَـرِّضُ لـي أنّـه مُـعْـرِضُ

وله أشعار كثيرة، وتوفي يوم الأربعاء لست بقين من جُمادى الأولى سنة ٤٢٧، وقيـل: سنة ٤٢٩، بمصر وكان استوطنها، وصلَّى عليه الشيخ أبو الحسن علي ابن إبـراهيم الحوفي صاحب التفسير في مصلَّى الصَّدَفي، ودُفن عند أبي إسحٰق، رحمه اللَّه تعالى.

ومُغَلِّس: بضمِّ الميم، وفتح الغين، وتشديـد اللام المكسـورة، وبعدهـا سين مهملة. وكانت بينه وبين أبي الطاهر إسمـاعيل بن خلف[3] صـاحب كتاب «العنـوان» معارضـات في قصائد.

ومن شعر ابن المغلِّس أيضًا قوله في حَمَّام: [الطويل]

ومَـنْـزِلِ أقـوامٍ إذا مـا اغْـتَـدَوا بـه تـشـابَـهَ فـيـه وَغْـدُه ورئـيـسُـهُ
يُـخـالطُ فيـه الـمـرءُ غَـيـرَ خَلِيطِهِ ويُـضْحـي عـدوُّ المـرء وهـو جـليسـه
يـفـرِّجُ كـربـي إنْ تـزايـدَ كَـرْبُـهُ ويُـؤْنِسُ قـلبـي أنْ يُـعَـدَّ أنـيسـه
إذا مـا أعـرْتَ الـحـوضَ[4] مـاءً تكـاثـرتْ عـلى مـائـه أقـمـارُهُ وشـمـوسـه

---

(١) أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن خُرَّزاذ النَّجِيرَمي، نسبة إلى نَجيرَم، وهي محلة بـالبصرة؛ كان ماهرًا في اللغة، وكانت وفاته سنة ٤٢٣ هـ. وفيات الأعيان (ج ٧ ص ٧٥).

(٢) الأبيات في وفيات الأعيان (ج ٣ ص ١٩٤) دون تغيير عمّا هنا.

(٣) هو إسماعيل بن خلف بن سعيد بن عمران المالكي المقرىء الأندلسي؛ استوطن مصر وحدَّث بها. كـان حيًّا في سنة ٥٥٣ هـ. الصلة (ص ١٧٤).

(٤) في طبعة بولاق: «أَعَرْتَ الجَوَّ طرفًا...».

٧٥ ـ ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله، الحكيم، الأديب، المعروف بالمغربي[١].

وهو من أهل ألْمَرِية، وانتقل إلى المشرق، وكان كامل الفضيلة، وجمع بين الأدب والحكمة، وله ديوان شعر جيِّد، والخلاعة والمجون غالبة عليه، وذكر العماد في «الخريدة» أنه كان طبيب المارستان المستصحب في معسكر السلطان السلجوقي حيث حَلَّ[٢] وخيَّم، وكان السديد[٣] يحيى بن سعيد المعروف بابن المرخِّم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي قاصدًا وطبيبًا في المارستان. وأثنى العماد على أبي الحكم المذكور، وذكر فضله وما كان عليه، وأن له كتابًا سمّاه «نهج الوضاعة، لأولي الخلاعة» ثم إن أبا الحكم انتقل إلى الشام، وسكن دمشق، وله فيها أخبار وماجريات[٤] ظريفة تدلّ على خفّة روحه.

قال ابن خلكان: رأيت في ديوانه أنَّ أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسي كان عند الأمراء بني مُنْقِذ بقلعة شَيزَر، وكانوا مقبلين عليه، وكان بدمشق شاعر يقال له أبو الوحش[٥]، وكانت فيه دُعَابة، وبينه وبين أبي الحكم المذكور[٦] مداعبات، فسأل منه كتابًا إلى ابن منير بالوصية عليه، فكتب أبو الحكم: [المنسرح]

أبا الحسين اَسْتَمِعْ مقالَ فتًى ... عُوْجِلَ فيما يقولُ فارتجلاَ
هذا أبو الوَحْشِ جاء مُمْتَدِحًا ... للقوم فاهْنَأْ به إذا وَصَلاَ[٧]

---

(١) ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان (ج ٣ ص ١٢٣) وقال: أصله من أهل المرية بالأندلس، وُلد ببلاد اليمن سنة ٤٨٦ هـ، وتوفي بدمشق سنة ٥٤٩ هـ. وعلى هذا يكون أبو الحكم مشرقيًا لا أندلسيًا؛ لأنه ولد بالمشرق ومات به. وانظر ترجمته أيضًا في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٦١٤). وسيترجم له المقري في الجزء الثالث رقم ٢٦٥.

(٢) في طبعة دار صادر: «حيث خيَّم».

(٣) في وفيات الأعيان: «وكان السديد أبو الوفاء يحيىٰ بن سعيد بن يحيى بن المظفر، المعروف بابن المرخّم..».

(٤) هكذا في وفيات الأعيان. وفي طبعة دار صادر: «ومجاريات».

(٥) في وفيات الأعيان: «أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن هبة الله الفقعسي، وكانوا يصغرون كنيته فيقولون: «وحيش»، وكانت فيه دُعابة...»، وقد تقدّمت ترجمة أبي الوحش في الجزء الأول من نفح الطيب.

(٦) من هنا يختلف النص في وفيات الأعيان عمّا هنا.

(٧) في وفيات الأعيان: «جاء ممتدح القوم فَنَوِّهْ...».

وآتْلُ عليهمْ بِحُسْنِ شَرْحِكَ ما   أَنْقُلُهُ[1] مِنْ حديثه جُمَلا
وخَبِّرِ القومَ أنه رَجُلٌ   ما أبصر الناسُ مِثْلَهُ رَجُلا
تنوبُ عن وَصْفِهِ شمائلُه   لا يَبْتَغي عاقلٌ به بَدَلا

ومنها:

وهو على خِفَّةٍ به أبدًا   معترفٌ أنه مِنَ الثُّقَلا
يَمُتُّ بالثَّلْبِ والرقاعة والـ   ـسُخْفِ، وأمّا بغير ذاك فلا[2]
إنْ أنت فاتَحْتَهُ لِتَخْبُرَ ما   يَصْدُرُ عنه فَتَحْتَ منه خَلا
فَهَبْه[3] إنْ حَلَّ خطّة الخَسْف والـ   ـهُون ورَحِّبْ به إذا رَحَلا
وأسقِهِ[4] السَّمَّ إنْ ظفرت به   وامْزُج له مِنْ لِسانك العسلا

وله أشياء مستملحة، ومنها مقصورة هزلية ضاهى بها مقصورة ابن دريد، من جملتها: [الرجز]

وكلُّ ملمومٍ فلا بُدَّ له   مِنْ فرقةٍ لو ألْزَقُوهُ[5] بالغِرَا

وله مرثية في عماد الدين زنكي بن آق سنقر الأتابكي[6]، شابَ فيها الجِدَّ بالهَزْل، والغالبُ على شعره الانطباع.

وتوفي ليلة الأربعاء رابع ذي القعدة سنة ٥٤٩، وقيل: في السنة التي قبلها، بدمشق، رحمه اللّه تعالى!.

والقاضي ابن المرخِّم المذكور هو الذي يقول فيه أبو القاسم هبة اللّه ابن الفضل الشاعر المعروف بابن القطان[7]: [الكامل]

---

(١) في المصدر نفسه: «أتلوه من...».
(٢) في المصدر نفسه: «وأمّا بما سواه فلا». الثَّلْب: العيب والنقص. الرقاعة: الحمق. لسان العرب (ثلب) و(رقع).
(٣) في طبعة دار صادر: «فَنُبْهُ». وفي وفيات الأعيان: «فَسُمْهُ».
(٤) في وفيات الأعيان: «وسَقِّهِ».
(٥) في وفيات الأعيان: «لزقوه».
(٦) في المصدر نفسه: «الأتابك».
(٧) هو أبو القاسم هبة اللّه بن الفضل بن القطان ابن سالم، المعروف بابن القطان؛ شاعر بغدادي مشهور،

يا ابن المرخّمِ صِرْتَ فينا قاضيًا[1] | خَرِفَ الزمانُ تَراهُ أمْ جُنّ الفَلَكْ؟
إن كنت تحكم بالنجوم فربما | أمّا بشرع محمدٍ[2] من أين لكْ؟

وكان أبو الحكم المذكور فاضلاً في العلوم الحكمية، متقنًا للصناعة الطبّيّة، حسن النادرة، كثير المداعبة، محبًّا للّهو والخَلاَعة والشراب، وكان يعرف صنعة الموسيقى ويلعب بالعود، ويجلس في دكان بجيرون للطب، وسكناه باللبادين[3]، وأتى في ديوانه «نهج الوضاعة» بكل غريب، يدلّ على أنه أريب، سامحه اللّه تعالى وغفر له!.

٧٦ ـ ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق: من هو الأحقُّ بالتقديم والسَّبْق، الشهير عند أهل الغرب والشرق، الحافظ المقرىء الإمام الرباني، أبو عمرو الدَّاني[4]، عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر، الأموي، مولاهم، القرطبي، صاحب التصانيف التي منها «المقنع» و «التيسير».

وعرف بالداني لسكناه دَانِيَةَ، وولد سنة ٣٧١، وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل إلى المشرق سنة ٣٩٧، فمكث بالقَيرَوان أربعة أشهر، ودخل مصر في شوّالها، فمكث بها سنة، وحجَّ، ورجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة ٣٩٩، وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسي وغيره بقرطبة، وعلى أبي الحسن بن غَلْبُون وخلف بن خاقان المصري وأبي الفتح فارس بن أحمد، وسمع من أبي مسلم الكاتب، وهو أكبر شيخ له، ومن عبد الرحمن بن عثمان القُشَيري، وحاتم بن عبد اللّه البزّار، وغير واحد من أهل مصر وسواها، وسمع من الإمام أبي الحسن القابسي، وخلّف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس، وتلا عليه خلقٌ منهم مفرج الأقفالي وأبو داود بن نجاح صاحب «التنزيل» في الرسم، وهو من أشهر تلامذته، وحدَّث عنه خلقٌ كثير، منهم خلف بن إبراهيم الطُّلَيطلي.

= ولد ونشأ ببغداد، وبها توفي سنة ٥٥٨ هـ. وفيات الأعيان (ج ٦ ص ٥٣) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٣٨٠). والبيتان في المصدرين المذكورين.

(١) في عيون الأنباء: «حاكمًا».

(٢) في المصدر نفسه: أحمد».

(٣) اللبادين: موضع بدمشق مشرف على باب جَيرون. معجم البلدان (ج ٥ ص ١٠).

(٤) أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد محدِّث أديب، يعرف بابن الصيرفي؛ من أهل قرطبة، سكن دانية، ورحل إلى المشرق قبل الأربعمائة. وعاد إلى الأندلس فتوفي بدانية سنة ٤٤٤ هـ. جذوة المقتبس (ص ٣٠٥) وبغية الملتمس (ص ٤١١) والصلة (ص ٥٩٢).

قال أبو محمد عبيد اللّه الحَجَرِي: ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن في عصر الحافظ أبي عمرو الداني ولا بعد عصره أحد يدانيه ولا[1] يضاهيه في حفظه وتحقيقه، وكان يقول: ما رأيت شيئًا قطُّ إلَّا كتبْتُه، ولا كتبْتُهُ إلَّا حفظْتُه، ولا حفظْتُه فنسيتُه.

قال ابن بشكوال: كان أبو عمرو أحد الأئمّة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه، وجمع في[2] ذلك كله تواليف حِسَانًا. وله معرفة بالحديث وطرقه وإعرابه[3] وأسماء رجاله[4]، وكان حسن الخطّ والضبط، من أهل الحفظ والذكاء واليقين، وكان ديِّنًا فاضلاً وَرِعًا سَنيًّا.

وقال بعضهم، وأظنه المَغَامي[5]: كان أبو عمرو مُجَابَ الدعوة، مالكي المذهب.

وقال بعض أهل مكّة: إن أبا عمرو الدّاني مقرىء متقدّم، وإليه المنتهى في علم القراءات وإتقان القرآن، والقرّاء خاضعون لتصانيفه، واثقون بنقله في القراءات والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك، وله مائة وعشرون مصنّفًا، وروى عنه بالإجازة رجلان؛ أحمد بن محمد بن عبد اللّه الخَوْلاني، وأبو العبّاس أحمدُ بن عبد الملك بن أبي حمزة، وكانت وفاته، رحمه اللّه تعالى، بدانية في نصف شوّال سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

٧٧ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّه بن عيسى بن عبد اللّه بن أحمد بن أبي حبيب، الأندلسي[6].

---

(١) في طبعة دار صادر: «أحد يضاهيه».

(٢) في الصلة: «وجمع في معنى ذلك كله تواليفَ حِسانًا مفيدة يكثر تعدادها، ويطول إيرادها، وله معرفة بالحديث...».

(٣) كلمة «وإعرابه» غير واردة في الصلة.

(٤) من هنا حتى... «ورعًا سنيًّا» جاء في الصلة ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) في الصلة: «وقال المغامي... والمغامي هو أبو عبد اللّه محمد بن عتيق بن فرج بن أبي العباس بن إسحٰق التجيبي المغامي، نسبة إلى مَغَام بلد بالأندلس، وقد لقي أبا عمرو الداني وعليه اعتمد. معجم البلدان (ج ٥ ص ٦١، مادة مغام).

(٦) ابن أبي حبيب قاضٍ من شِلْب، من رؤساء الأندلس، له الحظ الوافر من كل علم. رحل إلى المشرق وتوفي بخراسان. أخبار وتراجم أندلسية (ص ٥٧ ـ ٥٨) والتكملة (ص ٨٣٤) وفيه أنه توفي سنة ٥٥١ هـ.

من بيت علم ووزارة، وصرَف عمره في طلب العلم، وكـان غـزيـر العلم في الفقـه والحديث والأدب، ووُلّي القضاء بالأندلس مدّة[1]، ثم دخل الإسكـندرية[2] ومصـر، وجاور بمكّة المشرّفة، ثم قدم العراق، وأقام ببغداد مدّة، ثم وافى خُـراسان فـأقام بنيسـابور وبلخ، وكانت ولادته ببلاد الأندلس، وتوفي بِهَرَاة في شعبـان سنة ٥٤٨، رحمـه اللّه تعالى، ورضي عنه!.

٧٨ ـ ومنهم أبـو العبّاس أحمـد بن علي بن محمـد بن علي بن شكـر[3]، الأنـدلسي، المقرىء.

رحـل وأخذ القـراءات عن أبي الفضل جعفـر الهمـداني، وسمـع من أبي القـاسم بن عيسى، وسكن الفيّوم، واختصر «التيسير» وصنّف شرحًا للشاطبية، وتوفي سنـة ٦٤٠، رحمه اللّه تعالى!.

٧٩ ـ ومنهم العـلاّمـة ذو الفنـون علم الـدين القـاسم بن أحمـد المـرسي، اللورقي، المقرىء، النحوي[4].

ولـد سنة ٥٧٥، وقـرأ القراءات، وأحكم العـربية، وبـرع فيها، واجتمـع بالجـزولي، وسأله عن مسألة في مقـدّمته، وقـرأ علم الكلام والأُصـولَين[5] والفلسفة، وكـان خبيرًا بهـذه العلوم، مقصودًا بإقرائها، ووُلّي مشيخة قراءة العادلية، ودرس بالعزيزية نيابة، وصنّف شـرحًا للشاطبيّة، وشرحًا للمفصّـل في عدّة مجلّدات، وشـرح الجزوليّـة، وغير ذلـك، وكان مليح الشكل، حسن البزّة، وتوفي سنة ٦٦١، رحمه اللّه تعالى، ورضي عنه!.

٨٠ ـ ومنهم أبو عبد اللّه بن أبي الربيع، القيسي، الأندلسي، الغرناطي.

قدم مصر سنة ٥١٥ أو بعدها، فسمع على السِّلَفي، وبقراءته على جمـاعة من شيـوخ مصر، وكان لديه فقهٌ وأدب، ثم سافر إلى باب الأبواب، وكان حيًّا سنة ٥٥٦.

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «مرة».
(٢) قدم الإسكندرية حاجًّا سنة ٥٢٧ هـ. أخبار وتراجم أندلسية.
(٣) ترجمة ابن شكر الأندلسي في غاية النهاية (ج ١ ص ٨٧).
(٤) في طبعتي دار صادر وعبد الحميد: «المريني» بـدل «المرسي»، وهو خطأ، وقد ترجم لـه المقري في هـذا الجزء تحت رقم ١٦.
(٥) في أصول الفقه وأصول الدين.

ومن نظمه يمدح كتاب الشهاب: [البسيط]

إنَّ الشهاب له فَضْلٌ على الكُتبِ ... بما حَوَى من كلام المصطفى العربي
كم ضَمَّ مِنْ حكمةٍ غَرًّا وموعظةٍ ... ومِنْ وعيدٍ ومِنْ وَعْدٍ ومن أدبِ
أما القضاعيُّ فالرحمن يَرْحَمُهُ ... كما حَباهُ مِنَ التأليف بالعجب

٨١ ـ ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجي، القرشي، العَبْدَري[١].

من أهلِ مَيُورقة من بلاد الأندلس، سكن بغداد، وسمع بها من أبي الفضل بن خيرون وطَرَّاد[٢] الزينبي وأبي عبد اللّٰه الحميدي وجماعة، ولم يزل يسمع إلى حين وفاته، وكتب بخطِّه كثيرًا من الكتب والأجزاء، وجَمَعَ وخَرَّج، وكان صحيح العقل، معتمد الضبط، مرجوعًا إليه في الإتقان، وكفاه فخرًا وشرفًا أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السِّلَفي وأبو الفضل محمد بن ناصر، وكان فهّامة علّامة ذا معرفة بالحديث، متعفّفًا مع فقره، وكان يذهب إلى أنَّ المناولة والعَرْض كالسماع.

وقال السلفي فيه إنه من أعيان علماء الإسلام، بمدينة السلام، متصرّف في فنون من العلم أدبًا ونحوًا ومعرفةً بأنساب العرب والمحدثين، وكان داوديَّ المذهب، قرشيَّ النسب، وقد كتب عنّي وكتبت عنه، وسمعْنا معًا كثيرًا على شيوخ بغداد، ومولده بقرطبة منّ مدن الأندلس. وقبل اجتماعي به كنت أسمع إسماعيل بن محمد ابن الفضل الحافظ بأصبهان يُثْني عليه، فلمّا اجتمعْنا وجدْتُه فوق ما وصفه، انتهى.

وقال ابن عساكر: كان أحفظ شيخ لقيتُه، وربّما حكى عنه بعضهم كابن عساكر أمورًا منكرة، فاللّٰه أعلم.

وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٢٤ ببغداد، رحمه اللّٰه تعالى!.

٨٢ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن سعدون، الباجي[٣].

---

(١) ترجمة العبدري في معجم البلدان (ج ٥ ص ٢٤٦، مادة ميورقة).

(٢) في معجم البلدان: أبو الفوارس الزينبي.

(٣) محمد بن سعدون من ساكني حصن مُورة من عمل باجة، ويعرف بالزنوني؛ رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ. وكان رجلًا صالحًا زاهدًا وَرِعًا. تاريخ علماء الأندلس (ص ٧٩١).

سمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وابن رشيق، وبمكّة من الآجري، وكان صالحًا فاضلًا زاهدًا وَرِعًا، حدَّث، ومات بِبَطَلْيَوسَ فجأة سنة ٣٩٢، ومولده سنة ٣٢٢.

٨٣ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن سعدون، التميمي، الجزيري، المتعبّد.

كانت آدابه كثيرة، وحجَّ غير مرّة، ورابط ببلاد المغرب، وكان حسن الصوت بالقرآن، سمع بمصر من جماعة، وبمكّة، وصحب الفقراء، وطاف بالشام، وغَزَا غزوات، وتعرّض للجهاد وحرّض عليه، وساح بجبل المقطم، وذكر أنه صلّى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة، ثم نام فرأى النبيَّ، ﷺ، فقال: يا رسول اللّه، إنّ مالكًا والليث اختلفا في الضحى، فمالكُ يقول: اثنتا عشرة ركعة، والليث يقول: ثمانٍ[1]، فضرب عليه الصلاة والسلام بين وركي ابن سعدون وقال: رأيِ مالك هو الصواب، ثلاث مرّات، قال: وكان في وركي وجع، فمن تلك الليلة زال عنّي. وكان له براهين من نور يضيء عليه إذا صلّى ونحوه، وأنشد: [الكامل]

سِجْنُ اللسانِ هو السلامَةُ للفتى ... مِنْ كلِّ نازلةٍ لها استئصالُ
إن اللسان إذا حَلَلْتَ عِقالَهُ ... ألقاكَ في شَنْعاءَ ليس تُقَالُ

توفي سنة ٣٤٤.

٨٤ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن سعد الأعرج، الطُّلَيطلي الخطيب[2].

وقال فيه ابن سعيد: سمع بمصر ابن الورد وابن السكن، وحدَّث. مولده سنة ٣٠٩، وتوفي في ربيع الآخر سنة ٣٨٤.

٨٥ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن إسحٰق بن يوسف، الأموي، القرطبي[3].

---

(١) في طبعة بولاق: «ثمانية». وفي طبعة عبد الحميد: ثمانيا».

(٢) محمد بن سعد من أهل طليطلة، ويعرف بابن الأعرج؛ له رحلة إلى المشرق. كان بصيرًا بالقراءة. ولد سنة ٣٠٩ هـ، وتوفي سنة ٣٨٤ هـ. تاريخ علماء الأندلس (ص ٣٨١).

(٣) ترجمة محمد بن سعيد في الصلة (ص ٧٥١).

وأصله من لَبْلَة، ولكن سكن قرطبة[1]، وقدم مصر، وحجَّ، وسمع في طريقه من الشيخ أبي محمد بن أبي زيد صاحب الرسالة، وأخذ عن القابسي[2] وعن جماعة من علماء مصر والحجاز، ومولده سنة ٣٥٢، ورحلته سنة ٤١٨.

٨٦ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام، القرطبي[3].

سمع من أبيه ويحيىٰ بن يحيىٰ وعبد الملك بن حبيب، ورحل، فسمع من أشهب بن عبد العزيز بن نافع وعبد اللّٰه بن عبد الحكم، وعاد إلى الأندلس وبها توفي سنة ٢٦٠، رحمه اللّٰه تعالى!.

٨٧ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن سليمان، الْمَعَافري، الشاطبي[4]، نزيل الإسكندرية، ويُعْرف بابن أبي الربيع.

أحد أولياء اللّٰه تعالى، شيخ الصالحين، صاحب الكرامات المشهورة، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى اللّٰه تعالى والتخلّي عن الناس والتمسّك بطريقة السّلف، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبي عبد اللّٰه محمد بن سعادة الشاطبي وغيره، وقرأ بدمشق على الواسطي، وسمع عليه الحديث، ورحل، فسمع من الزاهد أبي يوسف يعقوب خادم أضياف رسول اللّٰه، ﷺ، بين قبره ومنبره سنة ٦١٧، وسمع بدمشق على أبي القاسم بن صَصْرَى وأبي المعالي بن خضر وأبي الوفاء بن عبد الحق وغيرهم، وانقطع لعبادة اللّٰه تعالى في رباط سِوَار من الإسكندرية بتربة أبي العبّاس الراسي[5]، وتَلْمَذَ للشّاطبي تلميذ الراسي، وصنّف كتبًا حسنة؛ منها كتاب «المسلك القريب، في ترتيب الغريب» وكتاب «اللمعة الجامعة، في العلوم النافعة» في تفسير القرآن العزيز، وكتاب

---

(١) في الصلة: «سكن قرطبة وإشبيلية».

(٢) في المصدر نفسه: هو أبو الحسن بن القابسي.

(٣) ترجمة محمد بن سعيد بن حسان في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٣٧) وجذوة المقتبس (ص ٥٩) وبغية الملتمس (ص ٧٩) وفيهما أنه: محمد بن سعيد بن حسان الصائغ، مولى الحكم بن هشام.

(٤) ترجمة محمد بن سليمان الشاطبي في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٢٠) وفيه: محمد بن سليمان بن محمد بن سليمان بن عبد الملك المعافري الحميري، الملقب بعلم الدين. كان محدّثًا حافظًا، زاهدًا متصوّفًا، ماهرًا في علم الكلام.

(٥) هو الزاهد أبو العباس أحمد بن محمد اللخمي الولي المعروف بالرأس. الذيل والتكملة. وهكذا هو «الراس» وليس «الراسي».

«شرف المراتب والمنازل، في معرفة العالي من[1] القراءات والنازل» وكتاب «المباحث السنيّة، في شرح الحصريّة» وكتاب «الحرقة، في إلباس[2] الخرقة» وكتاب «المنهج المفيد، فيما يلزمه الشيخ والمريد» وكتاب «النبذ الجليّة، في ألفاظ اصطلح عليها الصوفية» وكتاب «زهر العريش، في تحريم الحشيش» وكتاب «الزهر المضي، في مناقب الشاطبي» وكتاب «الأربعين المضيّة، في الأحاديث النبوية». ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥، ووفاته بالإسكندرية في رمضان سنة ٦٧٢، ودفن بتربة شيخه[3] المجاورة لزاويته، رحمهما اللّه تعالى، ونفع بهما!.

٨٨ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن شُرَيح، الرُّعَيني، الإشبيلي[4].

قدم مصر، وسمع بها من ابن نفيس وأبي علي الحسن البغدادي وأبي جعفر النحوي وأبي القاسم بن الطيب البغدادي الكاتب، وبمكّة من أبي ذرّ الهروي. .

قال ابن بَشْكُوال: كان من جملة المقرئين وخيارهم، ثقة في روايته، وكانت رحلته إلى المشرق سنة ٤٣٣[5]، وولد سنة ٣٩٢، وتوفي سنة ٤٧٦، وعمره أربع وثمانون سنة إلاَّ خمسة وخمسين يومًا، وروى بإشبيلية عن جماعة، رحمه اللّه تعالى!.

٨٩ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن صالح الأنصاري، المالَقِي.

قال السلفي: هو شاب من أهل الأدب، له خاطر سمح، كان يحضر عندي بالإسكندرية، كثير السماع للحديث، وذكر أنه قرأ الأدب على أبي الحسين بن الطَّراوة النحوي بالأندلس[6]، وعلى نظرائه، وأنشدني لنفسه: [الكامل]

كم ذا تُقَلْقلني النوى وتَسُوقني ... وإلى مَتَى أشْجَى بها وأُسَامُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «في القراءات».

(٢) في الطبعة نفسها: «لباس».

(٣) أي بتربة مشيخة أبي العباس الراس.

(٤) ترجمة محمد بن شريح في الصلة (ص ٨٠٩) واسمه فيه هو: محمد بن شريح بن أحمد بن محمد بن شريح الرعيني.

(٥) هكذا في طبعة دار صادر وفي الصلة. وفي طبعة عبد الحميد: ٤٢٣.

(٦) هو أبو الحسين سليمان بن محمد بن عبد اللّه السبائي أو السبئي، المعروف بابن الطراوة؛ من أهل مالقة، وقد برز في علوم اللسان نحوًا ولغة وأدبًا. توفي سنة ٥٢٨ هـ. الذيل والتكملة (ج ٤ ص ٧٩) وبغية الملتمس (ص ٣٠٤) وبغية الوعاة (ص ٢٦٣) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٦٤) وأخبار=

أَلِفَتْ ركـائـبـيَ الـفَـلاَ فكـأنـمـا لـلـبَـيـنِ عَـهْـدٌ بَـيـنَـنـا وذِمَـامُ
يـا وَيـحَ قـلبـي مِـنْ فـراقِ أحِـبَّـةٍ أبـدًا تُـصَـدِّعُـهُ بـه الأيـامُ

٩٠ ـ ومنهم أبـو عبـد اللّٰه محمـد بن صـالـح، القحـطاني، الْمَعـافـري، الأنـدلسي، المالكي(١).

رحل إلى المشرق فسمع بالشام من خَيثمة بن سليمان، وبمكّة أبا سعيد بن الأعرابي، وببغداد إسماعيـل بن محمد الصفّـار، وسمع بـالمغرب بكـر بن حماد التّـاهَرْتي ومحمـد بن وضّاح وقاسم بن أصبغ وغيرهم(٢) وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزني. روى عنه أبو عبد اللّٰه الحاكم وقـال: اجتمعْنا بـه بهمذان، مـات ببخارى سنـة ٣٨٣، وقيل: سنـة ثمان، وقيل: سنة تسع وسبعين(٣). وقال فيه أبو سعيـد الأندلسي(٤): إنـه كان من أفـاضل النـاس، ومن ثقـاتهم. وقال غُنْجَـار: إنه كـان فقيهًا حـافظًا، جمـع تـاريخًـا لأهـل الأنـدلس، وقـال السمعاني فيه: كان فقيهًا حـافظًا، رحـل في طلب العلم إلى المشرق والمغـرب، رحمه اللّٰه تعالى!.

٩١ ـ ومنهم أبـو عبد اللّٰه محمـد بن طاهـر بن علي بن عيسى، الخـزرجي، الـداني، النحوي(٥)، أخو أبي العباس بن عيسى.

سمع بدَانِيَـةَ من أبي داود المقرىء وغيـره، وقدم دمشق سنـة ٥٥٤ حين خرج حـاجًّا، وأقـرأ بدمشق النحـو مدّة، ثم خـرج إلى بغداد، وأقـام بهـا إلى أن مـات سنـة ٦١٩، ووُلـد سنـة ٥١٢، وقدم مصـر سنة ٥٧٢، ولـه من المصنَّفات كتـاب «تحصيـل عين الـذهب، من

وتراجم أندلسية (ص ١٧) والمغرب (ج ٢ ص ٢٠٨) وفيـه ينفرد ابن سعيـد بجعل كنيـة ابن الطراوة أبـا الحسن.

(١) ترجمة محمد بن صالح في تاريخ علماء الأنـدلس (ص ٧٦٧) والتكملة (ص ٣٧٢). وستتكرر تـرجمته رقم ١٠١.

(٢) كلمة: «وغيرهم» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) في تاريخ علماء الأندلس: توفي سنة ٣٧٨ هـ.

(٤) في طبعة دار صادر: «الإدريسي».

(٥) ترجمة محمد بن طاهر في التكملة (ص ٤١٩) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٢٣٣) وبغية الوعاة (ص ٤٩) وفيه ينقل السيوطي عن ابن عساكر. وستتكرر هذه الترجمة رقم ١٠٤.

معدن جوهر الأدب، في علم مجازات العرب». ومن كلامه: ليست هيبة الشيخ لشيبه[1] ولا لسنِّه ولا لشخصه، ولكن لكمـال عقله، والعقل هـو المُهَـاب[2]، ولـو رأيت شخصًـا جمـع جميع الخصال وعَدِمَ العقل لَمَا هِبْتَهُ، وقال: من جهل شيئًا عابه، ومن قَصَّر عن شيء هابه.

٩٢ ـ ومنهم القـاضي الشهيـر محمـد بن بشيـر، وهـو محمـد بن سعيـد بن بشيـر بن شَرَاحيل، المَعَافري[3]، وقيل في آبائه غير ذلك كما يأتي.

ولَمَّا أُشِيرَ على الحكم بن هشـام بن عبد الـرحمن الدّاخـل بتقديم ابن بشيـر إلى خطّة القضـاء بقُرْطبـة وَجَّه إليـه ببَاجـه، فأقبـل ولا يعلم ما دُعِيَ إليـه، ونـزل على صـديق لـه من العُبَّاد[4]، فتحدَّث في شأن استدعائه، وقدّم أنه يعرف فن[5] الكتابة، فقال له العابد: ما أراه بعث فيك إلاَّ للقضاء، فإن القاضي بقرطبة مات وهي الآن دون قاضٍ، فقال ابن بشير: فأنا أستشيرك في ذلك إن وقع، فقال: أسألك عن أشياء ثلاثة، وأعزم عليـك أنْ تصدّقني فيهـا، ثم أشير بعد ذلـك عليك، فقـال: ما هي؟ فقـال: كيف حُبُّك لـلأكل الـطيّب واللباس الليّن وركوب الفاره[6]؟ فقـال: واللَّه لا أُبالي مـا رددْتُ به جـوعي وستَرْتُ بـه عورتي وحملْتُ بـه رحلي، فقال: هذه واحدة، فكيف حُبُّك للتمتّع بالوجوه الحسان والتبطّن للكواعب الغِيد وما شاكل كـل ذلك من الشهـوات؟ فقال: هـذه حال واللَّه مـا استشْرَفْتُ قطُّ إليهـا، ولا خَطَرَتْ ببالي، ولا اكترثْتُ لفقدها، فقال: وهذه ثانية، فكيف حُبُّك لمدح الناس لك وثَنَائهم عليك؟ وكيف حُبُّك للولاية وكـراهيتك للعـزل؟ فقال: واللَّه مـا أُبالي في الحقّ مَنْ مَـدَحني وذمّني، وما أُسرُّ للولاية ولا أستوحش للعزل، فقال: وهـذه الثالثـة، اقْبَلِ الـولاية فـلا بأس عليـك، فقدم قرطبة، فولاّه الأمير الحكم القضاء والصلاة.

---

(١) في بغية الوعاة: «لشيبته».

(٢) في المصدر نفسه: «المهيب».

(٣) ترجمة محمـد بن سعيد بن بشيـر في قضاة قـرطبة (ص ٧٣) وتـاريخ قضـاة الأندلس (ص ٤٧) والـذيل والتكملة (ص ٢٠٨) والتكملة (ص ٣٥٥).

(٤) في قضاة قرطبة (ص ٧٤) أن محمد بن بشير «أتى وهو لا يعلم مـا يُرادُ بـه، فلمّا صـار بسهل المـدوّر، مال إلى صديق له كان بها من العباد فنزل عليه، وتحدّث معه في أمر نفسه...».

(٥) في طبعة دار صادر: «أنه يصرّف في الكتابة...».

(٦) الفاره من الدواب: القوي النشيط. لسان العرب (فره).

قال ابن وضّاح[١]: أخبرني مَنْ كان يرى محمد بن بشير القاضي داخلاً على باب المسجد الجامع يوم الجمعة، وعليه رداء مُعَصْفَر، وفي رجله نعل صَرَّارة[٢]، وله جُمَّة[٣] مفرقة، ثم يقوم فيخطب[٤] ويصلّي وهو في هذا الزي، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس، فإنْ رام أحدٌ من دينه شيئًا وجده أبْعَدَ من الثريّا.

وأتاه[٥] رجل لا يعرفه، فلمّا رأى ما هو فيه من زيّ الْحَدَاثة من الجُمَّة المفرقة والرداء المُعَصْفَر وظهور الكحل والسّواك وأثر الحنّاء في يديه، توقّف وقال: دلّوني على القاضي، فقيل له: ها هو، وأُشِيرَ إليه، فقال: إنّي رجل غريب، وأراكم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي، وأنتم تدلّوني على زامِرٍ، فصحّحوا له أنه القاضي، فتقدّم إليه واعتذر، فأدناه وتحدّث معه، فوجد عنده من العدل والإنصاف فوق ما ظنّه، فكان يحدّث بقصّته معه.

وعوتب في إرسالِ لِمَّتِهِ[٦] ولبسه الخزّ والمعصفر، فقال: حدّثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر ـ وكان سيّد القرّاء ـ كانت له لِمَّةٌ، وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد ـ يعني المدينة ـ كان يلبس المعصفر، وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخزّ. ولقد سئل يَحْيَىٰ بن يحيىٰ عن لباس العمائم فقال: هي لباس الناس في المشرق، وعليه كان أمرهم في القديم، فقيل له: لو لبستها لاتّبعك الناس في لباسها، فقال: قد لبس محمد بن بشير الخزّ فما تبعه الناس فيه، وكان ابنُ بشير أهلاً أن يُقْتَدَى به، فلعلّي لو لبست العمامة لتركني الناس ولم يتبعوني كما تركوا ابن بشير.

وكان أوّل[٧] ما نظر فيه محمد بن بشير ـ حين ولي القضاء ـ التسجيل على الخليفة الحكم في أَرْحِي[٨] القنطرة، إذ قِيمَ عليه فيها وثبت عنده حق المدّعي، وأعذر إلى الحكم

---

(١) هو محمد بن وضاح، وقوله في قضاة قرطبة (ص ٧٩).

(٢) في قضاة قرطبة: «وفي رجليه حذاء يصرُّ...». يصرُّ: يصوّت، صرّارة: يسمع لها صوت إذا سار. لسان العرب (صرر).

(٣) الجُمَّةُ: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن. لسان العرب (جمم).

(٤) في قضاة قرطبة: «فيخطب ويقضي، وهو في هذا الزيّ، وإذا رام...».

(٥) يتابع المقري النقل عن الخشني في قضاة قرطبة مع بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٦) اللِّمَّة، بكسر اللام وتشديد الميم: الشعر الذي يجاوز شَحْمَة الأذن. مختار الصحاح (لمم).

(٧) ما زال يتابع نقله عن قضاة قرطبة (ص ٧٥ ـ ٧٦) وفي الرواية اختلاف عمّا هنا.

(٨) في قضاة قرطبة: «أرحاء».

فلم يكن عنده مدفع، فسجّل فيها، وأشهد على نفسه، فما مضت مُدَيدة حتى ابتاعها الحكم ابتياعًا صحيحًا، فَسُرَّ بذلك، وقال: رحم اللّٰه محمد بن بشير! فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منّا، كان في أيدينا شيء مشتبه فصحّحه لنا، وصار حلالاً طيب الملك[1] في أعقابنا. وحكم على ابن فُطَيس الوزير[2]، ولم يُعَرِّفْه بالشهود، فرفع الوزير ذلك إلى الحكم. وتظلّم من ابن بشير، فأومأ الحكم إليه أن الوزير كره[3] حُكْمَك عليه بشهادة قوم لم تعرِّفه بهم، ولا أعذرت إليه فيهم، وإن أهل العلم يقولون: إن ذلك له، فكتب إليه ابن بشير: ليس ابن فُطَيس ممّن يُعَرَّف بمن شهد عليه؛ لأنه إنْ لم يجد سبيلاً إلى تجريحهم لم يتحرّج عن طلب أذاهم في أنفسهم وأموالهم، فَيَدعون الشهادة هم ومن ائْتَسَى بهم، وتضيع أموالُ الناس.

وأكثر[4] موسى بنُ سماعة أحدُ خواصّ الأمير الحكم في ابن بشير الشكاية، وأنه يجور عليه، فقال له الحكم: أنا أمتحن قولك الساعة، فاخرج إليه فورًا، واستأذن عليه، فإن أذن لك عزلْته، وصدَّقْتُ قولَكَ فيه، وإن لم يأذن لك دون خصمك ازددْتُ بصيرة فيه، فليس هو عندي بجائر[5] على حال، وإنما مقصده الحقّ في كلّ ما يتصرّف فيه، فخرج يؤمّ دار ابن بشير: وقد أمر الحكم مَنْ يثق به من الفتيان الصَّقَالبة أن يَقْفُوا[6] أثره ويعلموا ما يكون منه، فلم يكن إلّا رَيثما بلغ، ثم انصرف فحكى للحكم أنه لمّا خرج الآذن إلى موسى وعلم القاضي بمكانه عاد إليه فقال له: إن كانت لك حاجة فاقصد فيها إذا جلس القاضي مجلس القضاء، فتبسّم الحكم، وقال: قد أعلمْتُه أن ابن بشير صاحبُ حقّ لا هَوَادة فيه عنده لأحد.

ووُلّي[7] القضاء مرتين، فلمّا عُزِل المرّة الأولى انصرف إلى بلده. وكان بعض إخوانه يعاتبه في صَلاَبته، ويقول له: أخشى عليك العَزْل، فيقول له: ليته قُدِّر، إنَّ الشقراء ـ يعني

(١) في قضاة قرطبة: «فطاب لنا ملكه».

(٢) في المصدر نفسه: «حكم محمد بن بشير على ابن فطيس...».

(٣) في طبعة دار صادر: «ذكر حكمك...».

(٤) يتابع المقري النقل عن قضاة قرطبة (ص ٨٧) وفيه أن موسى بن سماعة هو صاحب الخيل. وفي رواية قضاة قرطبة بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) في طبعة ليدن: «بجائز».

(٦) في قضاة قرطبة: «يَقْفُوَ».

(٧) قارن بما جاء في قضاة قرطبة (ص ٨٢ ـ ٨٣).

بغلته ـ تقطع الطريق بي جادة[1] نحو باجة. فما مضى إلَّا يسير حتى عتب عليه الأمير في قصة اشتدَّ فيها على بعض خاصّته، فكانت سببًا لعزله، وانصرف كما تمنَّى، فلم يمكث إلَّا يسيرًا حتى أتى فيه رَقّاص[2] من قبل الأمير الحكم ـ والرقاص عند المغاربة: هو الساعي عند المشارقة ـ فعاد إلى قُرْطُبة، وجَبَره على القعود للقضاء الأمير الحكم، فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته وبصدقة ما يملك في سبيل اللَّه تعالى، إنْ حَكَمَ بين اثنين، فلم يَعْذِره، وأخرجه من ماله، وعَوّضه من طيب ما عنده، ووهب له جارية من جواريه، فعاد إلى القضاء ثانية.

ومِمَّا يُحْكى[3] عنه في العدل أن سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وَكَّلَ عند ابن بشير وكيلاً يخاصم عنه لشيء اضطرَّ إليه، وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا، ولم يكن فيها من الأحياء إلَّا الأمير الحكم وشاهد آخر مُبَرَّزٌ، فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد، وضُرِبَتْ على وكيله الآجالُ في شاهد ثانٍ، وجَدَّ به الخصام، فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الحكم وأراه[4] شهادته في الوثيقة، وقد كان كتبها قبل الخلافة[5] في حياة أبيه، وعرّفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه خوفًا من بطلان حقّه. وكان الحكَم يعظّم سعيد الخير عَمَّه، ويلتزم مبرّته، فقال له: يا عمّ، إنّا لسْنا من أهل الشهادات، وقد التبسْنا من هذه الدنيا بما لا تجهله، وتخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مَخْزاة كُنّا نفديه بملكنا، فصِرْ في خصامك حيث صَيَّرك الحقّ إليه، وعلينا خَلَفُ ما انتقصك، فأبى عليه، وقال: سبحان اللَّه! وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك؟ وأنت وَلَّيته، وهو حسنة من حسناتك، وقد لزمتك[6] في الديانة أن تشهد لي بما علمته، ولا تكتمني ما أخذ اللَّه عليك! فقال: بلى، إنَّ ذلك لمن حقّك كما تقول، ولكنّك تُدْخِلُ علينا به داخلة، فإن أعفيتنا منه فهو أحبُّ إلينا، وإن اضطررْتنا لم يمكنّا[7] عقوقك. فعزم عليه عَزْمَ من لم يشكَّ أنْ قد ظفر

---

(١) في طبعة دار صادر: «حائة».

(٢) في قضاة قرطبة: «ركاض» وهو خطأ.

(٣) النّقل هنا عن تاريخ قضاة الأندلس (ص ٤٨ ـ ٥٠) وفي الرواية بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) هكذا في تاريخ قضاة الأندلس. وفي طبعة بولاق: «وأراد».

(٥) في تاريخ قضاة الأندلس: «الإمارة» وهو الصواب.

(٦) في المصدر نفسه: «لزمك».

(٧) في تاريخ قضاة الأندلس: «يمكننا».

بحاجته، وضايقته الآجال، فألحَّ عليه، فأرسل الحكم عند ذلك إلى[1] فقيهين من فقهاء زمانه، وخَطَّ شهادته بيده في قرطاس، وختم عليها[2] بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين وقال لهما: هذه شهادتي بخطِّي تحت ختمي[3]، فأدِّياها إلى القاضي، فأتياه بها إلى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود فأدّياها إليه، فقال لهما: قد سمعْتُ منكما فقوما راشدين في حفظ اللّٰه تعالى. وجاء[4] وكيل سعيد الخير، وتقدّم إليه مُدِلاًّ واثقا، وقال له: أيها القاضي، قد شهد عندك الأمير ـ أصلحه اللّٰه تعالى! ـ فما تقول؟ فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه، ثم قال للوكيل: هذه شهادة لا تعمل عندي، فجئني بشاهد عَدْل، فدُهش الوكيل، ومضى إلى سعيد الخير فأعلمه، فركب من فوره إلى الحكم، وقال: ذهب سلطاننا، وأُزيل بهاؤنا، يجترىء هذا القاضي على ردّ شهادتك، واللّٰه سبحانه قد استخلفك على عباده، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك؟ هذا ما يجب[5] أن تحمله عليه، وجعل يُغْريه بالقاضي ويحرّضه على الإيقاع به. فقال له الحكم: وهل شَكَكْتُ أنا في هذا يا عمِّ؟ القاضي رجلٌ صالح واللّٰه، لا تأخذه في اللّٰه لَومَة لائم، فعل ما يجب عليه ويلزمه، وسَدَّ دونه بابًا كان يصعب عليه الدخول منه، فأحْسَنَ اللّٰه تعالى جزاءه! فغضب سعيد الخير، وقال: هذا حسبي منك، فقال له: نعم قد قضيتُ الذي كان لك عليّ، ولست واللّٰه أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله.

ولَمَّا عُوتب ابنُ بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه: يا عاجز، أما تعلم أنه لا بُدَّ من الإعذار في الشهادات؟ فمن كان يجترىء على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟ ولو لم أعذر لبَخَسْتُ المشهود عليه حقّه[6].

وتوفي القاضي محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعي بست سنين كما يأتي قريبًا، ومحاسنه ـ رحمه اللّٰه تعالى! ـ كثيرة، وقد استوفى ترجمته بقدر الإمكان القاضي عيّاض في المدارك، فليراجعها من أرادها، فإنَّ عهدي بها في المغرب.

---

(١) في المصدر نفسه: «عن».

(٢) في المصدر نفسه: «عليه». وكلمة «عليها» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «طابعي».

(٤) في المصدر نفسه: «وجارت دولة وكيل سعيد...».

(٥) في طبعة دار صادر: «هذا ما لا يجب أن تُحْمَل عليه...». وفي تاريخ قضاة الأندلس «هذا ما لا ينبغي أن تحتمله عليه...».

(٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «بعض حقّه».

وقال بعض من عرّف به، ما نصُّه[1]: القاضي محمد بن بشير بن محمد المعافري، أصله من جند بَاجة من عرب مصر، ولاّه الحكم بن هشام قضاء القضاة الذي يعبّرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة، بقرطبة، بعد المصعب بن عمران، ثم صرفه وولّى مكانه الفرج بن كنانة. وعن ابن حارث، قال أحمد بن خالد: طَلَبَ محمد بن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظّ وافر، ثم كتب لأحد أولاد عبد الملك بن مروان[2] لمظلمة نالتْه على وجه الاعتصام به وتصرّف معه تصرّفًا لطيفًا، ثم انقبض عنه، وخرج حاجًّا، قال ابن حارث: وكتب محمد بن بشير في حَدَاثته للقاضي مُصْعَب بن عمران، ثم خرج حاجًا فلقي مالك بن أنس وجالسه وسمع منه، وطلب العلم أيضًا بمصر، ثم انصرف فلزم ضيعته في بَاجَةَ.

وقال ابن حيان: إنه اسْتُقْدِمَ من باجة للقضاء برأي العبّاس بن عبد الملك.

وقال ابن شعبان في الرواة[3] عن مالك من أهل الأندلس: محمد بن بشير بن سَرَافيل، ويقال شراحيل، وُلّي القضاء، وكان رجلاً صالحًا وبعدله تُضْرب الأمثال، واستوطن قرطبة، وتوفي بها سنة ثمان وتسعين ومائة، انتهى، وبعضه عن غيره.

ومن شعره قوله: [الرمل]

إنما أزْرَى بقدْري أنني ... لستُ من بابَةِ أهل البلدِ[4]
ليس منهمْ غيرُ ذي مَقْلِيَةٍ[5] ... لِذَوِي الألباب أو ذِي حَسَدِ
يتحامَونَ لقائي مثل ما ... يتحامَونَ لقاءَ الأسَدِ
مَطْلَعِي أثقلُ في أعينهمْ ... وعَلَى أنْفُسِهم من أُحُدِ
لو رأوني وَسْطَ بحرٍ لم يَكُنْ ... أحدٌ يأخذُ منهمْ بيدي

٩٣ ـ ومنهم محمد بن عيسى بن دينار، الغافقي[6].

---

(١) انظر تاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٣) والتكملة (ص ٣٥٥).
(٢) في طبعة دار صادر: «عبد الملك بن عمر المرواني...».
(٣) في طبعة ليدن: «في الرواية».
(٤) يقول في عجز هذا البيت إنه ليس من مسلك أهل البلد ولا يسير على منهاجهم.
(٥) المَقْلية: البغض؛ يقال: قلاه إذا كرهه وبغضه. لسان العرب (قلا).
(٦) ترجمة محمد بن عيسى في التكملة (ص ٣٥٦).

من أهل قرطبة، كان فقيهًا زاهدًا، وحجّ وحضر افتتاح إقريطش، واستوطنها، قاله الرازي.

٩٤ ـ ومنهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثي(١).

خرج حاجًّا، ولقي سَحنُون بن سعيد بإفريقية، ولقي بمصر رجالاً من أصحاب مالك، فسمع منهم، وعُرف بالفقه والزهد، وجاور بمكّة، وتوفي هنالك.

٩٥ ـ ومنهم محمد بن مروان بن خطاب، المعروف بابن أبي جَمْرَةَ(٢).

رحل حاجًّا هو وآبناه خطاب وعميرة في سنة اثنتين وعشرين ومائتين، وسمعوا ثلاثتهم من سَحْنون بن سعيد المدوّنة بالقيروان، وأدركوا أصبغ بن الفرج، وأخذوا عنه.

٩٦ ـ ومنهم محمد بن أبي عِلاَقَةَ البواب(٣)، من أهل قرطبة.

كانت له رحلة إلى المشرق، ولقي فيها جماعة من أهل العلم، وأخذ عن أبي إسحٰق الزجاجي، وعن أبي بكر بن الأنباري، وعن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش، وأبي عبد الله نِفْطَويه، وغيرهم، وسمع من الأخفش «الكامل» للمبرّد، وقال الحكم المستنصر: لم يصحّ كتاب «الكامل» عندنا من رواية إلاَّ من قبل ابن أبي علاقة، وكان ابن جابر الإشبيلي قد رواه قبل بمصر بمدّة، وما علمْتُ أحدًا رواه غيرهما، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه، وكان صدوقًا، ولكن كتابه ضاع، ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدّمين.

٩٧ ـ ومنهم محمد بن حزم بن بَكر، التَّنُوخي(٤).

من أهل طُلَيطلة، وسكن قرطبة، يُعْرف بابن المديني، سمع من أحمد بن خالد وغيره، وصحب محمد بن مسرّة الْجَبَلي قديمًا، واختصّ بمرافقته في طريق الحجّ، ولازمه بعد انصرافه، وكان من أهل الورع والانقباض، وحكى عن ابن مسرّة أنه كان في سكناد المدينة يتتبّع آثار النبيّ، ﷺ، قال: ودلّه بعض أهل المدينة على دار ماريّة أم إبراهيم سُرِّيَّةِ

---

(١) ترجمة محمد بن يحيىٰ الليثي في التكملة (ص ٣٥٦).
(٢) ترجمة ابن أبي جمرة في التكملة (ص ٣٥٦).
(٣) ترجمة محمد بن أبي علاقة في التكملة (ص ٣٦٢).
(٤) ترجمة محمد بن حزم التنوخي في التكملة (ص ٣٦٥).

النبيّ، ﷺ، فقصد إليها فإذا هي[1] دُوَيْرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة عرضها وطولها واحد قد شق في وسطها بحائط، وفُرش على حائطها خشب غليظ يرتقي إلى ذلك الفرش على خارج لطيف، وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبيّ، ﷺ، في الصيف، قال: فرأيت أبا عبد اللّه بعدما صلّى في البيتين والسقيفة وفي كلّ ناحية من نواحي تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره، فكشفته بعد انصرافي وهو ساكن في الجبل عن ذلك، فقال: هذا البيت الذي تراني فيه بنيتُه على تلك الحالة في العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان، انتهى.

٩٨ ـ ومنهم محمد بن يحيىٰ بن مالك بن يحيىٰ بن عائذ[2]، ولد أبي زكريا الراوية.

من أهل طرطوشة، يكنى أبا بكر، تأدَّب بقرطبة، وسمع بها من قاسم بن أصبغ، ومحمد بن معاوية القرشي، وأحمد بن سعيد، ومنذر بن سعيد، وأبي علي القالي، وغيرهم، وكان حافظًا للنحو واللغة والشعر، يفوت مَنْ جاراه على حَدَاثة سنِّه، شاعرًا مجيدًا مرسلاً بليغًا، ورحل مع أبيه إلى المشرق سنة تسع وأربعين وثلثمائة، فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكناني وغيرهم، وسمع أيضًا بالبصرة وبغداد كثيرًا، وخرج إلى أرض فارس فسمع هنالك، وجمع كتبًا عظيمة، وأقام بها إلى أن توفي بأصبهان مُعْتَبَطًا[3] مع الستين وثلثمائة، ومولده بطرطوشة صدر ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، ذكره ابن حيان، رحمه اللّه تعالى!.

٩٩ ـ ومنهم محمد بن عَبْدُون الجَبَلي، العدوي[4]، من أهل قرطبة.

أُدِّبَ بالحساب والهندسة، ورحل في سنة سبع وأربعين وثلثمائة، فدخل مصر والبصرة، وعُنِي بعلم الطبّ فمهر فيه، ودبّر في مارستان الفسطاط، ثم رجع إلى الأندلس في سنة ستين وثلثمائة، فاتّصل بالمستنصر باللّه وابنه المؤيّد باللّه، وله في التكسير تأليف حسن، رحمه اللّه تعالى!.

---

(١) كلمة «هي» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) ترجمة محمد بن يحيى بن عائذ في التكملة (ص ٣٦٧).

(٣) معتبطًا: شابًا صحيحًا لم تُصِبْه علة. لسان العرب (عبط).

(٤) ترجمة محمد بن عبدون الجبلي في التكملة (ص ٣٦٧) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٢٧) وطبقات الأطباء والحكماء (ص ١١٥) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٤٩٢).

١٠٠ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن عبد الرحمن، الأزدي الفراء، القرطبي[١].

صحب أبا بكر بن يحيىٰ بن مجاهد[٢]، واختصَّ به، ولطف محلُّه منه، وقرأ عليه القرآن، ورحل صحبته لأداء فريضة الحجّ، وكان رجلًا صالحًا كثير التلاوة للقرآن والخشوع، إذا قرأ بكى ورتَّل وبيَّن في مهل، ويقول: أبو بكر علّمني هذه القراءة. وحُكي[٣] أنه سردَ الصوم[٤] اثنتي عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطرًا كلَّ ليلة وقت الإفطار، ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطرًا عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب إليها، تَزَيُّدًا من الخير، واجتهادًا في العمل.

١٠١ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن صالح، الْمَعَافري، الأندلسي[٥].

رحل إلى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد بن الأعرابي وإسماعيل بن محمد الصفار وبكر بن حماد التاهَرْتِي وغيرهم. روى عنه أبو عبد اللَّه الحاكم، وقال: اجتمعْنا بهمذان سنة إحدى وأربعين، يعني وثلثمائة، فتوجّه منها إلى أصبهان، وكان قد سمع في بلاده وبمصر من أصحاب يونس، وبالحجاز وبالشام وبالجزيرة من أصحاب علي بن حرب، وببغداد، وورد نيسابور في ذي الحجّة سنة إحدى وأربعين فسمع الكثير، ثم خرج إلى مَرْوَ ومنها إلى بُخارى فتوفي بها في رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة، وروى عنه أيضًا أبو القاسم بن حبيب النيسابوري وغيرهما، ذكره ابن عساكر، وأسند إليه قوله: [الكامل]

وَدَّعْتُ قلبي ساعةَ التوديعِ وأَطَعْتُ قلبي وهو غير مُطيعي
إن لم أُشَيِّعْهُمْ فقد شَيَّعْتُهُمْ بِمُشَيِّعَيْنِ تَنَفُّسِي ودموعي

وذكره ابن الفَرَضي وقال: إنه استوطن بخارَى، وجعل وفاته بها سنة ثمان وسبعين، والأول قول الحاكم، وهو أصحّ.

---

(١) ترجمة محمد بن عبد الرحمن الأزدي في التكملة (ص ٣٦٩) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٦٧).
(٢) في الذيل والتكملة: «تلا القرآن على أبي بكر يحيىٰ بن مجاهد الإلبيري».
(٣) في المصدر نفسه أنَّ الذي حكى ذلك هو يونس بن الصفار القاضي.
(٤) سرد الصومَ: تابعه. لسان العرب (سرد).
(٥) هذه الترجمة مكرّرة، وقد مرَّت رقم ٩٠.

١٠٢ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري، السَّرَقُسْطِي[١].

روى عن الباجي وابن عبد البرّ، ورحل حاجًّا فقدم دمشق وحدّث بها عن شيوخه الأندلسيين، وعن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي زيد القَفْصِيِّ، وذكره ابن عساكر، وقال: سمع عنه أبو محمد الأكفاني، وحكى عنه تدليسًا ضَعَّفَهُ به، وتوفي سنة ٤٧٧.

١٠٣ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن عيسى بن بَقَاء، الأنصاري[٢].

من بلاد الثغر الشرقي، أخذ القراءات عن أبي داود سليمان بن نجاح، ورحل حاجًّا، فقدم دمشق، وأقرأ بها القرآن بالسبع[٣]، وأخذ عنه جماعة من أهلها، وكان شيخًا فاضلاً حافظًا للحكايات قليل التكلّف في اللباس، ذكره ابن عساكر وقال: رأيتُه وسمعْتُه يُنْشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلّى للاستسقاء على المنبر، أولها: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذنبي وإنْ كَبُرَا وأستقلُّ له شكري وإنْ كَثُرَا

وكان يسكن في دار الحجارة، ويُقْرِىء بالمسجد الجامع.

وُلد في الثاني والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وتوفي يوم الأربعاء عند صلاة العصر، ودُفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثاني من ذي الحجّة سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، ودُفِن في مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبي الدَّرْدَاء، رضي اللَّه تعالى عنه! قال: وشهدْتُ أنا غسله والصلاة عليه ودفنه، وذكره السلفي.

١٠٤ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن طاهر بن علي بن عيسى، الأنصاري، الخزرجي[٤].

من أهل دانية، سمع كتاب «التقصّي» لابن عبد البرّ، ولقي أبا الحسن الحصري ثم خرج حاجًّا فقدم دمشق سنة أربع وخمسمائة، وأقام بها مدّة يُقرىء العربية، وكان شديد الوسوسة في الوضوء.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللَّه بن يونس بن حبيب الأنصاري، وترجمته في التكملة (ص ٣٩٧) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٩).

(٢) ترجمة محمد بن عيسى الأنصاري في التكملة (ص ٤١٣).

(٣) أي بالقراءات السبع.

(٤) الترجمة مكرّرة، وقد مرّت رقم ٩١.

ذكره ابن عساكر وقال: أنشدني أخي أبو الحسين هبة الله بن الحسن الفقيه قال: أنشدنا ابن طاهر الأندلسي بدمشق قال: أنشدني الحصري لنفسه: [مخلع البسيط]

يموتُ مَنْ في الأنام طُرًّا ... مِنْ طيِّبٍ كان أو خَبِيثِ[1]
فَمُسْتَرِيحٌ ومُسْتراحٌ ... منه، كما جاء في الحديثِ

قال: وأنشدني الحصري لنفسه: [الكامل]

لو كان تحت الأرضِ أو فوق الذرى ... حُرٌّ أتيح له العَدُوُّ لِيُوذَى[2]
فاحْذَرْ عَدوَّكَ وهو أهْوَنُ هَيِّنٍ ... إنَّ البعوضةَ أرْدَتِ النمرُوذا

١٠٥ ـ ومنهم محمد بن أبي سعيد الفرج بن عبد الله، البزاز[3].

من أهل سَرَقُسْطة، لقي بدانية الحُصري، وسمع منه بعض منظومه، ورحل حاجًّا فأدّى الفريضة، ودخل العراق فسمع من جماعة وأجازوا له: منهم ابن خَيرون، والحُمَيدي، وأبو زكريا التبريزي، والمبارك بن عبد الجبّار، وثابت بن بُنْدَار، وهبة الله بن الأكفاني[4]، وغيرهم، ونزل الإسكندرية، وحدَّث بها، وأخذ الناس عنه، وتوفي هنالك، وأنشد للحصري[5]: [السريع]

الناسُ كالأرضِ، ومِنْها هُمُ ... مِنْ خَشِنِ اللَّمْسِ ومِنْ لَيِّنِ
صَلْدٌ تَشَكَّى الرِّجْلُ مِنْهُ الوَجَى ... وإثْمِدٌ يُجْعَلُ في الأعينِ[6]

وروى عنه ابن الحضرمي وابن جارة، وغيرهما.

١٠٦ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين، الشهير بالْمَيُورقي[7]؛ لأنَّ أصله منها، وسكن غَرْنَاطة.

---

(١) في طبعة بولاق: «ومن خبيث»، وهكذا يختلُّ الوزن.

(٢) لُيوذَى. أصلها: لِيُؤْذَى، حذفت الهمزة لكي لا ينكسر الوزن.

(٣) ترجمة البزاز في التكملة (ص ٤٣٣).

(٤) ورد اسمه في الجزء الثالث من نفح الطيب: هبة الله الأكفاني.

(٥) سيرد هذان البيتان في الجزء السادس من نفح الطيب ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٦) تَشَكَّى: أصلها: تتشكّى، وقد حذف التاء وهذا جائز. الوَجَى: وجع يأخذ الإنسان من المشي. الإثمِدُ: حجر يُكْتَحَلُ به. لسان العرب (وجى) و (ثمد).

(٧) ترجمة محمد بن الحسين الميورقي في التكملة (ص ٤٤٠) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ١٦٩).

وروى عن أبي علي الصَّدَفي، ورحل حاجًّا فسمع بمكّة من أبي الفتح عبد الله ابن محمد البيضاوي[1]، وأبي نصر عبد الملك بن مسلم النهاوَنْدِي، في شوّال وذي القعدة من سنة ٥١٧، وبالإسكندرية من أبي عبد الله الرّازي وأبي الحسن بن مُشَرَّف وأبي بكر الطُّرْطوشي وغيرهم، وعاد إلى الأندلس بعد مدّة طويلة فحدَّث في غير ما بلد لتجوُّله، وكان فقيهًا ظاهريًا، عاريًا، عارفًا بالحديث وأسماء الرجال، مُتْقِنًا لِمَا رواه، يغلب عليه الزهد والصلاح، روى عنه أبو عبد الله النميري الحافظ، ويقول فيه «الأزدي» تدليسًا؛ لأنَّ الأنصار من الأزد، وأبو بكر بن رزق، وأبو عبد الله بن عبد الرحيم، وابنه عبد المنعم، وسواهم، وصار أخيرًا إلى بجَايَةَ هاربًا من صاحب المغرب[2] حينئذ بعد أن حمل إليه هو وأبو العبّاس بن العريف وأبو الحكم بن بَرُّجان، وحدّث هنالك وسُمع منه في سنة ٥٣٧، رحمه الله تعالى!.

١٠٧ ـ ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطُّفَيل[3]، العبدي، الإشبيلي[4]..

ويعرف بابن عَظيمة، أخذ القراءات عن أبي عبد الله السرَقُسْطي، وروى عن أبي عبد الله الخَوْلَاني، وأبي عبد الله بن فرج، وأبي علي الغساني، وأبي داود المقرىء، وأبي جعفر بن عبد الحق، وأبي الوليد بن طريف، ورحل حاجًّا فروى بمكّة عن رَزِين بن معاوية، ثم بالإسكندرية عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور، وأبي الحسن بن مُشَرَّف الأنماطي، وبالمهدية عن المازريّ، وكانت رحلته مع أبي علي منصور بن الخير الأحدب للقاء أبي معشر الطبري، فبلغهما نَعْيه بمصر، فلمّا قَفَلا من حجّهما قعد منصور يقول:

---

(١) هكذا في الذيل والتكملة. وفي طبعة بولاق: «البياضي».

(٢) صاحب المغرب آنذاك هو علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي (٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ). يذكر ابن عبد الملك المرّاكشي في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ١٧٠) أن علي بن يوسف بن تاشفين امتحن محمد بن الحسين، فضربه بالسوط وسجنه وقتًا ثم سرحه، فعاد إلى الأندلس وأقام بها يسيرًا ثم انصرف إلى المشرق، فتوفي بالجزائر سنة ٥٣٧ هـ.

(٣) في طبعة ليدن: «الطفيلي».

(٤) هو محمد بن أبي عمرو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن الطفيل العبدي. وترجمته في التكملة (ص ٤٤٥) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ٣٥٩) وفهرسة ابن خير (ص ٩٣) وغاية النهاية في طبقات القراء (ج ٢ ص ١٦٦).

قـرأت على أبي معشر، واقتصـر أبو الحسن في تصـدّره للإقـرار على التحـديث عمَّنْ لقي، فَعُرِف مكانـه من الصدق والعـدالة، ووُلّي الصـلاة ببلده، وتقدَّم في صنـاعته، واشتهـر بها، وتـلاه أهل بيتـه فيها، فـأخذ عنهم النـاس. وله أرجـوزة في القـراءات السبـع، وأخـرى في مخارج الحروف، وشرح قصيدة الشُّقْـراطسي، وله أيضًـا كتاب «الفـريدة الحمصيـة[1]، في شرح القصيدة الحصرية» وإليه وإلى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشأن، ومن جلّة الرواة عنه أبو بكر محمد[2] بن خيـر، قرأ عليـه «الشهابَ» للقضـاعي[3]، وأجاز لـه جميع روايـاته وتواليفه في رجب سنة ٥٣٦، وتوفي في حدود الأربعين وخمسمائة، وروى عنه أبـو الضحّاك الفزاري.

١٠٨ ـ ومنهم أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن إبـراهيم بن عيسى بن هشام بن جـراح، الخزرجي[4].

من أهل جَيَّان، ويعرف بالبغـدادي لطول سكنـاه إيّاهـا. روى عن أبي علي الغَسَّاني، وأبي محمد بن عتاب، ورحل حاجًّا فلقي أبا الحسن الطبري المعروف بالكَيَّا[5]، وأبا طالب الـزينبي[6]، وأبا بكـر الشاشي[7]، وغيـرهم. وكان فقيهًـا مشاوَرًا، حـدّث عنه أبـو عبد اللَّه النميـري، وأبو محمـد بن عبيد اللَّه، وأبـو عبد اللَّه بن حميـد، وأبو القـاسم عبد الـرحيم بن الملجوم، وغير واحد، وتوفي بفاس سنة ٥٤٦[8].

---

(١) اسمه في فهرسة ابن خير (ص ٩٣): «كتاب منح الفريدة الحمْصية، في شرح القصيدة الحُصْرية».

(٢) كلمة «محمد» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) القضاعي: هو أبو عبد اللَّه محمد بن سلامة بن جعفر بن محمد بن علي القضاعي. وكتـابه هـو: «كتاب الشهـاب في الآداب، والأمثـال والمـواعظ والحكم المَـرْوِيَّـة عن رسـول اللَّه ﷺ». فهـرسـة ابن خيـر (ص ٢٢٠).

(٤) محمـد الخزرجي فقيـه عارف بـأصول الفقـه، صنَّف في مسائـل الخلاف «تعليقـه» المشهور في سبعـة أسفار، وكتاب «أسرار الإيمان» في سفر. نزل مدينة فاس أول قدومه من المشرق إلى المغرب وأقام بها مدة، ثم تحول إلى بلده جيان فجلس فيها بمسجده المنسوب إليـه «مسجد البغـدادي». ثم غادر جيـان إلى فاس فتوفي بها سنة ٥٤٦ هـ. التكملة (ص ٤٧٤) والذيل والتكملة (ج ٤ ص ٥٨٢ ـ ٥٨٤).

(٥) في الذيل والتكملة ص ٥٨٤: «الكِيَا هَرّاس»، والكِيَا معناه الحِبر، وهرّاس: من هرس، لأن عبيدًا كانوا لأبيه عملوا في الهريسة، فنسب إلى ذلك.

(٦) هو الحسين بن محمد الزينبي كما في الذيل والتكملة (ص ٥٨٢).

(٧) هو محمد بن أحمد الشاشي. الذيل والتكملة (ص ٥٨٢).

(٨) في طبعة عبد الحميد: سنة ٥٤٧.

١٠٩ - ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر، الأنصاري، الجيَّاني[١]، ونزل حلب، يُكْنى أبا بكر.

رحل إلى المشرق، وأدَّى الفريضة، وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة، وسكن قنطرة سنان منها، وكان يعلِّم القرآن، ويتردّد إلى أبي[٢] عبد الله نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه، ثم رحل صحبة أبي القاسم بن عساكر صاحب «تاريخ الشام» إلى بغداد سنة عشرين، وكان زميله، فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره، ثم خرج إلى خُراسان فسمع بها من حمزة الحسيني وأبي عبد الله الفراوي وأبي القاسم الشَّحّامي وغيرهم، وسمع ببَلخ جماعة منهم أبو محمد الحسن بن علي الحسيني[٣] وأبو النجم مصباح بن محمد المسكي[٤] وغيرهما، وبلغ الموصل فأقام بها مدّة يُسْمَع منه ويؤخذ عنه، ثم انتهى إلى حلب فاستوطنها، وسُلِّمت إليه خزانة الكتب النورية، وأُجْريت عليه جراية، وكان فيه عُسْر في الرواية والإعارة معًا، ووقف كتبه على أصحاب الحديث، وله عَوَالٍ مخرّجة من حديثه ساوى بها[٥] بعض شيوخه البخاريَّ ومسلمًا وأبا داود والترمذي والنسائي، روى عنه أبو حَفْص الْمَيَّانشي[٦] وأبو المنصور مظفر بن سوار اللخمي وأبو محمد عبد الله بن علي بن سويدة وابن أبي السنان وغيرهم.

ذكره ابن عساكر في تاريخه وقال: سمعت منه، ومات بحلب[٧] في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغني.

وقال ابن نقطة: حدَّث عن جماعة منهم أبو القاسم سهل بن إبراهيم النيسابوري وأبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الهَمْذَاني، حدّثنا عنه أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبي وأخوه أبو العبّاس أحمد، وحُكِي عن الحسن بن هبة الله بن صَصْرَى أنه توفي بحلب

---

(١) هذه الترجمة مكررة، انظر ما تقدم الرقم ٢٦.

(٢) في التكملة: «أبي الفتح».

(٣) في التكملة: «الحسني».

(٤) في طبعة عبد الحميد: «المكي».

(٥) كلمة «بها» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٦) المَيَّانشي: نسبة إلى مَيَّانش، بفتح المِيم والياء المشددة ونون مكسورة، وهي قرية صغيرة من قرى المهدية بإفريقية، بينها وبين المهدية نصف فرسخ. معجم البلدان (ج ٥ ص ٢٣٩).

(٧) كلمة «بحلب» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

في جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة كما تقدّم، وقد بلغ السبعين، قاله ابن الأبار.

١١٠ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن يوسف بن سَعَادة[1].

مُرْسِيّ سكن شاطِبَةَ، ودارُ سلفه بَلَنْسِية، سمع أبا علي الصَّدَفي واختصّ به، وأكثر عنه، وإليه صارت دواوينه وأصوله العِتَاق وأمّهات كتبه الصحاح، لصهر كان بينهما، وسمع أيضًا أبا محمد بن أبي جعفر، ولازم حضور مجلسه للتفقّه به، وحمل ما كان يرويه، ورحل إلى غرب الأندلس فسمع محمد[2] بن عتاب، وأبا بحر الأسدي، وأبا الوليد[3] بن رشيد، وأبا عبد اللّٰه الخَولاني، وأبا الوليد بن رُشْد، وأبا عبد اللّٰه بن الحاج، وأبا بكر العربي، وغيرهم، وكتب إليه أبو عبد اللّٰه الخَولاني، وأبو الوليد بن طريف، وأبو الحسن بن عفيف، وأبو القاسم بن صواب، وأبو محمد بن السيِّد، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق سنة عشرين وخمسمائة، فلقي بالإسكندرية أبا الحجاج بن نادر المَيُورَقي، وصحبه وسمع منه، وأخذ عنه الفقه وعلم الكلام، وأدّى فريضة الحجّ في سنة إحدى وعشرين، ولقي بمكّة أبا الحسن رَزِين بن معاوية العَبْدَري إمام المالكيّة بها، وأبا محمد بن صدقة المعروف بابن غَزَال من أصحاب كريمة المروزية، فسمع منهما وأخذ عنهما، وروى عن أبي الحسن علي بن سند بن عيّاش الغسّاني ما حمل عن أبي حامد الغزالي من تصانيفه، ثم انصرف إلى ديار مصر فصحب ابن نادر إلى حين وفاته بالإسكندرية، ولقي أبا طاهر بن عوف وأبا عبد اللّٰه بن مسلم القرشي وأبا طاهر السِّلفي وأبا زكريا الزناتي وغيرهم، فأخذ عنهم، وكان قد كتب إليه منها أبو بكر الطُّرْطُوشي وأبو الحسن بن مُشَرَّف الأنماطي، ولقي في صَدَره بالمهديّة أبا عبد اللّٰه المازِري فسمع منه بعض كتاب «المعلم»، وأجاز له باقيه، وعاد إلى مُرْسية في سنة ست وعشرين. وقد حَصَّلَ في رحلته علومًا جمّة ورواية فسيحة، وكان عارفًا بالسنن والآثار، مشاركًا في علم القرآن وتفسيره، حافظًا للفروع، بصيرًا باللغة والغريب، ذا حظٍّ مِنْ علم الكلام، مائلاً إلى التصوّف، مُؤْثرًا له، أديبًا بليغًا خطيبًا فصيحًا، ينشىء الخطب مع الهَدْي

(١) ترجمة ابن سعادة في التكملة (ص ٥٠٥) وبغية الوعاة (ص ١١٩) والوافي بالوفيات (ج ٥ رقم ٢٣٢٥).

(٢) في طبعة دار صادر: «فسمع أبا محمد...».

(٣) في طبعة دار صادر: «الأسدي، وأبا الوليد ابن رشد، وأبا عبد اللّٰه الخولاني وأبا عبد اللّٰه ابن الحاج...».

والسَّمْت والوقار والحلم، جميل الشارة، محافظًا على التلاوة بالخشوع[1]، راتبًا على الصوم، ووُلّي خطّة الشورى بمُرْسِيَةَ مضافة إلى الخطبة بجامعها، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه، ثم وُلّي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثّمين، ونقل إلى قضاء شاطبة فاتّخذها وطنًا، وكان يسمعُ الحديث بها وبمُرْسية وبَلَنْسية، ويقيم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبًا عليها، وقد حدّث بألمَرية وهناك أبو الحسن بن موهب وأبو محمد الرُّشَاطي وغيرهما، وسمع منه أبو الحسن بن هُذَيل «جامع الترمذي»، وألّف كتابه «شجرة الوهم، المترقية إلى ذِرْوة الفهم» ولم يُسْبق إلى مثله، وليس له غيره، وجمع فهرسة حافلة.

ووصفه غيرُ واحد بالتّفنُّن في العلوم والمعارف، والرسوخ في الفقه وأصوله، والمشاركة في علم الحديث والأدب.

وقال ابن عياد في حقّه: إنه كان صَلبيًا في الأحكام، مُقْتفيًا للعدل، حسن الخَلْق والخُلُق، جميل المعاملة، ليّن الجانب، فَكِه المجالسة، ثبتًا، حسن الخطّ، من أهل الإتقان والضبط.

وحُكي أنه كانت عنده أصول حِسَان بخطّ عمّه، مع الصحيحين بخطّ الصَّدَفي في سفرين، قال: ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه في صحّتها وإتقانها وجودتها، ولا كان فيهم مَنْ رُزِق عند الخاصّة والعامّة من الحظوة والذكر وجلالة القدر ما رُزِقَهُ.

وذكره أبو سفيان أيضًا وأبو عمر بن عاتٍ، ورفعوا جميعًا بذكره.

وتوفّي بشاطبة مصروفًا عن قضائها آخر ذي الحجّة سنة خمس وخمسين وخمسمائة[2] ودفن أوّل يوم من سنة ست وخمسين[3] وخمسمائة، ودُفن[4] بالروضة المنسوبة إلى أبي عمر بن عبد البر، ومولده في رمضان سنة ٤٩٦.

١١١ ـ ومنهم محمد بن إبراهيم بن وضّاح، اللخمي[5].

---

(١) في طبعة دار صادر: «التلاوة، بادي الخشوع».

(٢) في طبعة دار صادر وفي التكملة: «سنة خمس وستين وخمسمائة».

(٣) في طبعة دار صادر: «سنة ست وستين وخمسمائة».

(٤) كلمة «ودُفن» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٥) ترجمة محمد بن وضاح اللخمي في التكملة (ص ٥٤٤) والذيل والتكملة (ج ٦ ص ١٠٤).

ومن أهل غَرْنَاطة، ونزل جزيرة شُقْر، يُكنى أبا القاسم، وأخذ القراءة عن أبي الحسن بن هُذَيل وسمع منه كثيرًا، ورحل حاجًا فأدّى الفريضة، وأخذ القراءات بمكّة عن أبي علي بن العَرْجَاء في سنة ست وأربعين وخمسمائة وسنة سبع بعدها، وحَجَّ ثلاث حجّات، ودخل بغداد، وأقام في رحلته نحوًا من تسعة أعوام، وقَفَل إلى الأندلس، فنزل جزيرة شُقْر من أعمال بَلَنْسِية، وأقرأ بها القرآن نحوًا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أجرًا، ولا قَبِلَ هديّةً، ووُلّي الصلاة والخطبة بجامعها، وكان رجلًا صالحًا، زاهدًا مشاوِرًا[1] يُشار إليه بإجابة الدّعوة، معروفًا بالوَرَع والانقباض، وتوفّي في صفر سنة ٥٨٧.

١١٢ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن، التجيبي، نزيل تلمسان[2].

من أهل لَقَنْت عمل مُرْسِية، وسكن أبوه أُرْيُولَةَ، رحل إلى المشرق فأدّى الفريضة، وأطال الإقامة هنالك، واستوسع في الرواية، وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين، من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السِّلَفي، صحبه واختصّ به وأكثر عنه، وحَكَى عنه[3] أنه لَمَّا ودَّعه في قفُوله إلى المغرب سأله عَمّا كتب عنه، فأخبره أنه كتب كثيرًا من الأسفار ومئين من الأجزاء، فسُرَّ بذلك، وقال له: تكون محدّث المغرب إن شاء اللّه تعالى، قد حصَّلت خيرًا كثيرًا، قال: ودعا لي بطول العمر حتى يؤخذ عني ما أخذْتُ عنه، وقد جمع في أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفًا مفيدًا أكثر فيه من الآثار والحكايات والأخبار، وقَفَلَ من رحلته، وله أربعون حديثًا في المواعظ، وأخرى في الفقر وفضله، وثالثة في الحبِّ في اللّه تعالى، ورابعة في فضل الصلاة على النبيِّ، ﷺ، ومسلسلاته في جزء، وكتاب «فضائل الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان» وكتاب «فضل عشر ذي الحجّة» وكتاب «مناقب السبطين» وكتاب «الفوائد الكبرى» مجلّد، و «الفوائد الصغرى» جزء، وكتاب «الترغيب في الجهاد» خمسون بابًا في مجلد، وكتاب «المواعظ والرقائق» أربعون مجلسًا، سِفْران، وكتاب «مشيخة السِّلَفي» وغير ذلك.

ومولده بلقَنْتَ الصغرى في نحو الأربعين وخمسمائة، وتوفّي سنة عشر وستمائة، رحمه اللّه تعالى!

---

(١) كلمة «مشاورًا» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) ترجمة محمد بن عبد الرحمن التجيبي في التكملة (ص ٥٨٨) والذيل والتكملة (ص ٣٥٢).

(٣) كلمة «عنه» ساقطة من طبعة دار صادر.

١١٣ - ومنهم الشيخ الأكبر، ذو المحاسن التي تَبْهَر، سيِّدي محيي الدين بن عربي محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، الحاتمي(١)، من ولد عبد الله بن حاتم أخي عَدِيّ بن حاتم، الصوفي، الفقيه، المشهور، الظاهري.

وُلِدَ بمُرْسِية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠، قرأ القرآن على أبي بكر بن خلف بإشْبِيلية بالسبع وبكتاب الكافي، وحدّثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرُّعَيني عن أبيه، وقرأ أيضًا السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشَّرَّاط القرطبي، وحدّثه به عن ابن المؤلف، وسمع على أبي بكر محمد بن جَمْرة كتاب «التيسير» للدّاني عن أبيه عن المؤلّف، وسمع على ابن زَرْقُون وأبي محمد عبد الحقّ الإشبيلي الأزدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم.

وكان انتقاله من مُرْسِية لإشبيلية سنة ٥٦٨، فأقام بها إلى سنة ٥٩٨، ثم ارتحل إلى المشرق، وأجازه جماعة منهم الحافظ السِّلفي وابنُ عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي، ودخل مصر، وأقام بالحجاز مدّة، ودخل بغداد والموصِلَ وبلاد الروم، ومات بدمشق سنة ٦٣٨(٢)، ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بسفح قاسِيُون، وأنشدني لنفسه مؤرّخًا وفاته الشيخُ محمد بن سعد الكلشني سنة ١٠٣٧، حفظه الله تعالى: [الخفيف]

إنما الحاتميُّ في الكون فَرْدٌ ... وهو غوثٌ وسَيِّدٌ وإمامُ
كم علومٍ أتى بها مِنْ غيوب ... مِنْ بحارِ التوحيدِ يا مُسْتَهَامُ
إنْ سألتمْ متى تُوفِّي حَميدًا ... قلت أَرَّخْتُ: مات قطبٌ هُمَامُ

وقال ابن الأبار: هو من أهل أَلْمَرِيَّة، وقال ابن النجار: أقام بإشبيلية إلى سنة ٥٩٨، ثم دخل بلاد المشرق، وقال ابن الأبار: إنه أَخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الوُلَاة، ثم رحل إلى المشرق حاجًا، ولم يعد بعدها إلى الأندلس. وقال المنذري: ذكر أنه سمع بقُرْطُبة من أبي القاسم بن بَشْكُوال وجماعة سواه، وطاف البلاد، وسكن بلاد الروم مدّة، وجمع مجاميع في الطريقة، وقال ابن الأبار: إنه لقيه جماعة من العلماء والمتعبّدين، وأخذوا عنه، وقال غيره: إنه قدم بغداد سنة ٦٠٨، وكان يُومأ إليه بالفضل

(١) مرَّ التعريف بمحيي الدين بن عربي والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء (ص ٦٤).
(٢) في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٩٨): سنة سبع وثلاثين وستمائة.

والمعرفة، والغالبُ عليه طرق أهل الحقيقة، وله قَدَمٌ في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوّف، ووصَفَه غيرُ واحد بالتقدّم والمكانة من أهل هذا الشأن بالشام والحجاز، وله أصحاب وأتباع.

ومن تآليفه مجموع ضَمَّنه مَنَامات رأى فيها النبيَّ، ﷺ، وما سمع منه ومنامات قد حدّث بها عمّن رآه ﷺ.

قال ابن النجار: وكان قد صحب الصوفية، وأرباب القلوب، وسلك طريق الفقر، وحجَّ وجاور، وكتب في علم القوم، وفي أخبار مشايخ المغرب وزهّادهم[1]، وله أشعار حسنة، وكلام مليح، اجتمعْتُ به[2] في دمشق في رحلتي إليها، وكتبْتُ عنه شيئًا من شعره، ونِعْمَ الشيخ هو، ذكر لي أنه دخل بغداد سنة ٦٠١، فأقام بها اثني عشر يومًا، ثم دخلها ثانيًا حاجًّا مع الركب سنة ٦٠٨، وأنشدني لنفسه: [الطويل]

أيَا حائرًا[3] ما بين عِلْمٍ وشَهْوَةٍ ... لِيَتَّصِلَا، ما بين ضِدَّين مِنْ وَصْلِ
ومَنْ لم يكن يَسْتَنْشِقُ الرِّيحَ لم يكنْ ... يَرَى الفَضْلَ للمِسْكِ الفَتِيقِ على الزِّبْلِ

وسألْتُه عن مولده فقال: ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمُرْسِية من بلاد الأندلس، انتهى.

وقال ابن مُسْدِي: إنه كان جميل الجملة والتفصيل، محصِّلاً لفنون العلم أخصّ تحصيل، وله في الأدب الشأو الذي لا يُلْحَق، والتقدّم الذي لا يُسْبَق، سمع ببلاده من ابن زَرْقون والحافظ ابن الجدّ وأبي الوليد الحضرمي، وبسَبْتة من أبي محمد بن عبد الله، وقدم عليه إشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي فسمع منه، وأبو جعفر بن مُصَلِّي، وذكر أنه لقي عبد الحقّ الإشبيلي، وفي ذلك عندي نظر، انتهى.

قلت: لا نظر في ذلك؛ فإن سيدي الشيخ محيي الدين ذكر في إجازته للملك المظفر غازي بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ما معناه أو نَصُّه: من شيوخنا الأندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي، رحمه الله تعالى! حدَّثني بجميع مصنّفاته

---

(١) في طبعة دار صادر: «وزهّادها».

(٢) هنا ينقل المقري عن الصفدي في الوافي بالوفيات (ج ٤ ص ١٧٨).

(٣) في الوافي بالوفيات: «أنا حائرٌ».

في الحديث، وعيّن لي من أسمائها تلقين المهتدي، والأحكام الكبرى، والوسطى، والصغرى، وكتاب التهجّد، وكتاب العاقبة، ونظمه ونثره، وحدّثني بكتب الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم عن أبي الحسن شُرَيح بن محمد بن شريح عنه، انتهى.

وقال: إن الحافظ السِّلَفي أجاز له، انتهى.

قال بعض الحفّاظ: وأحسبها الإجازة العامّة. وكان[1] ظاهريّ المذهب في العبادات[2]، باطنيَّ النظر في الاعتقادات، وكان دَفْنه يوم الجمعة بجبل قاسيون، واتّفق أنه لَمَّا أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملكُ فقال: هذا تذلُّ له الأُسُود[3]، أو كلامًا هذا معناه، فسُئِلَ عن ذلك، فقال: خدمت بمكّة بعض الصلحاء، فقال لي يومًا: اللّه يُذِلُّ لك أَعَزَّ خلقه، وأمر له ملك الروم مرّة بدارٍ تساوي مائةَ ألف درهم، فلمّا نَزَلَها وأقام بها مَرَّ به في بعض[4] الأيام سائل، فقال له: شيء للّه، فقال: ما لي غير هذه الدّار، خُذْها لك، فتسلّمها السائل وصارت له.

وقال الذهبي في حقّه: إنَّ له توسّعًا في الكلام، وذكاء، وقوّة خاطر، وحافظة، وتدقيقًا في التصوّف، وتواليفَ جَمَّة في العرفان، لولا شَطْحُه في كلامه وشعره، ولعلَّ ذلك وقع منه حال سكره وغيبته، فيرجى له الخير، انتهى.

وقال القطب اليونيني في ذيل «مرآة الزمان»: عن سيّدي الشيخ محيي الدين ـ رضي اللّه تعالى عنه ونَفَعَنا به! ـ أنه كان يقول: إنِّي أعرف اسم اللّه الأعظم، وأعرف الكيمياء، انتهى.

وقال ابن سَودَكِين[5] عنه: إنه كان يقول: ينبغي للعبد أن يستعمل همّته في الحضور في مناماته، بحيث يكون حاكمًا على خياله يصرفه بعقله نومًا، كما كان يحكم عليه يقظة، فإذا حصل للعبدِ هذا الحضور وصار خُلُقًا له وَجَد ثمرة ذلك في البرزخ وانتفع به جدًّا، فليهتمّ العبد بتحصيل هذا القدر، فإنه عظيم الفائدة بإذن اللّه تعالى.

---

(١) النقل عن ابن مسدي. فوات الوفيات (ج ٣ ص ٤٣٦).

(٢) في فوات الوفيات: «في العبارات».

(٣) في فوات الوفيات: «هذا تذعر له الأسود». وفي الوافي بالوفيات: «هذا بدعوة الأسود».

(٤) في طبعة ليدن: «مرّ به بعض الليالي سائل».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «شودكين» بالشين.

وقال: إن الشيطان ليقنع من الإنسان بأنْ ينقله من طاعة إلى طاعة ليفسخ عَزْمه بذلك.

وقال: ينبغي للسّالك أنه متى حضر له أنه يعقد على أمرٍ ويعاهد اللّه تعالى عليه، أن يترك ذلك الأمر إلى أن يجيء وقته، فإنْ يَسَّر اللّهُ تعالى فِعْلَهُ فَعَلَهُ، وإنْ لم ييسِّر اللّهُ فِعْله يكون مخلَصًا من نكث العهد، ولا يكون متّصفًا بنقض الميثاق.

ومن نظم الشيخ محيي الدين ـ رحمه اللّه تعالى! ـ قوله: [الكامل]

بين التَّذَلُّلِ وَالتَّدَلُّلِ نُقْطَةٌ فيها يَتِيهُ العالِمُ النِّحْرِيرُ[١]
هي نقطةُ الأكوان إنْ جاوَزْتَها كنتَ الحكيمَ وعِلْمُكَ الإكسيرُ[٢]

وقوله أيضًا رحمه الله: [الكامل]

يا دُرَّة بيضاءَ لاهُوتيَّةً قد رُكِّبَتْ صَدَفًا من الناسوتِ
جَهِلَ البسيطةُ قَدْرَها لشقائِهِمْ وتنافسوا في الدُّرِّ والياقوتِ

وحكى العماد بن النحّاس الأطروش[٣] أنه كان في سَفْح جبل قاسِيُون على مستشرف، وعنده الشيخ محيي الدين، والغَيْثُ والسحاب عليهم، ودمشق ليس عليها شيء، قال: فقلت للشيخ: أما تَرَى هذه الحال؟ فقال: كنت بمرّاكش وعندي ابن خروف الشاعر، يعني أبا الحسن علي بن محمد القرطبي القبْذَاقي[٤]، وقد اتّفق الحال مثل هذه، فقلْتُ له مثل هذه المقالة، فأنشدني: [المتقارب]

يَطُوفُ السَّحابُ بِمَرَّاكشٍ طوفَ الحجيج ببيتِ الْحَرَمْ
يَرُومُ نزولاً فلا يستطيعُ لِسَفْكِ الدّماءِ وهَتْكِ الْحُرَمْ

وحكى المقريزي في ترجمة سيدي عمر بن الفارض ـ أفاض اللّه علينا من أنواره! ـ أنَّ الشيخ محيي الدين بن العربي بعث إلى سيدي عمر يستأذنه في شرح التائية، فقال: كتابك المسمَّى بالفتوحات المكّيّة شرحٌ لها، انتهى.

---

(١) النِّحْرِيرُ: العالِمُ المُتْقِنُ. مختار الصحاح (نحر).
(٢) الإكْسِيرُ: ما يُلْقى على الفِضّة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص. محيط المحيط (كسر).
(٣) في طبعة ليدن: «الأطروشي».
(٤) في طبعة بولاق: «القيداقي».

وقال بعضُ مَنْ عَرَّف به: إنه لَمَّا صنَّف «الفتوحات المَكِّيّة» كان يكتب كلَّ يوم ثلاث كراريس حيث كان، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة، فما ادَّخَرَ منها شيئًا، وقيل: إن صاحب حمص رتَّب له كل يوم مائة درهم، وابن الزكي كلَّ يوم ثلاثين درهمًا، فكان يتصدّق بالجميع، واشتغل الناس بمصنَّفاته، ولها[1] ببلاد اليمن والروم صيتٌ عظيم، وهو من عجائب الزمان، وكان يقول: أعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب.

ومن نظمه رضي اللَّه تعالى عنه[2]: [مجزوء الرجز]

حقيقتي هِمْتُ بها   وما رآها بَصَرِي
ولو رآها لَغَدَا   قتيلَ ذاك الحَوَرِ
فعندما أبْصَرْتُها   صِرْتُ بِحُكْمِ النظرِ
فبتُّ مسحورًا بها   أهيمُ حتى السَّحَرِ
يا حذري مِنْ حذري   لو كان يُغْني حذري
واللَّه ما هَيَّمَني   جمالُ ذاك الخَفَرِ
في حُسْنها مِنْ ظبيةٍ   ترعى بذات الْخَمَرِ[3]
إذا رَنَتْ أو عَطَفَتْ   تَسْبِي عقولَ البَشَرِ
كأنَّما أنفاسُهَا   أعْرَافُ مِسْكٍ عَطِر
كأنها شمسُ الضُّحَى   في النُّورِ أو كالقمر
إنْ أسْفَرَتْ أبْرَزَها   نورُ صباحٍ مُسْفِرِ
أو سَدَلَتْ غَيَّبها   سوادُ ذاك الشَّعَرِ
يا قمرًا تحت دُجىً   خُذِي فؤادي وذَرِي
عيني لكي أُبْصِركم   إذا كان حظِّي نظري

وقال الخُوَيِّيُّ[4]: قال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي، رضي اللَّه تعالى عنه:

---

(١) في طبعة ليدن: «وله».

(٢) جملة: «رضي اللَّه تعالى عنه» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) الخَمَرُ، بالفتح: الشجر الكثير الملتفّ. لسان العرب (خمر).

(٤) في طبعة بولاق: «الخوييّ».

رأيت بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة، فسألني: كيف حالك مع أهلك فقلت[1]:
[البسيط]

إذا رأتْ أهلُ بيتي الكِيسَ ممتلئًا تَبَسَّمَتْ ودَنَتْ مِنِّي تمازِحُني
وإنْ رأتْهُ خَلِيًّا مِنْ دراهمه تَجَهَّمَتْ وانْثَنَتْ عني تقابحني

فقال لي: صدقت، كلُّنا ذلك الرجل.

وذكر الإمام العالم باللَّه تعالى لسان الحقيقة، وشيخ الطريقة، صفي الدين حسين ابن الإمام العلامة جمال الدين أبي الحسن علي، ابن الإمام مفتي الأنام كمال الدين أبي منصور ظافر الأزدي الأنصاري، رضي اللَّه تعالى عنه، في رسالته الفريدة المحتوية على مَنْ رأى مِنْ سادات مشايخ عصره، بعد كلام، ما صورته: ورأيت بدمشق الشيخَ الإمامَ العارفَ الوحيدَ محيي الدين بن عربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية، وما وقر[2] له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيدُ علمًا وخلقًا وحالاً، لا يكترث بالوجود، مقبلاً كان أو معرضًا، وله علماء أتباع أرباب مَوَاجيد، وتصانيف، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الحرَّار[3] إخاء ورفقة في السياحات، رضي اللَّه تعالى عنهما، في الآصال والبكرات، ومن نظم سيدي الشيخ محيي الدين رضي اللَّه تعالى عنه قوله: [مخلع البسيط]

يا مَنْ يَرَاني ولا أَرَاه كَمْ ذا أَرَاه ولا يَرَاني

قال رحمه اللَّه تعالى: قال لي بعض إخواني لَمَا سمع هذا البيت: كيف تقول: إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فقلت له مرتجلاً[4]: [مجزوء الرجز]

يا من يَرَاني مُجْرِمًا ولا أراه آخِذَا
كم ذا أراه مُنْعِمًا ولا يراني لائِذَا

---

(١) ديوان ابن عربي (ص ٢٢٦).
(٢) في طبعة دار صادر: «وفَّر».
(٣) في طبعة بولاق: «الخراز».
(٤) البيتان في الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٤٩٦) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

قلت: مِنْ هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ، رحمه اللَّه تعالى، مؤوَّلٌ، وأنه لا يقصد ظاهره، وإنّما له محامل تليق به، وكفاك شاهدًا هذه الجزئية الواحدة، فأحْسِنِ الظنَّ به ولا تنتقدْ، بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير، والتسليم أسلم، واللَّه سبحانه بكلام أوليائه أعلم.

ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدي محيي الدين رضي اللَّه تعالى عنه في ضابط ليلة القدر: [الطويل]

وإنَّا جميعًا إنْ نَصُمْ يومَ جُمْعَةٍ ... ففي تاسع العشرين خُذْ لَيلَةَ القَدْرِ
وإنْ كان يومُ السبت أوّلَ صومِنَا ... فحادي وعشرين اعْتَمِدْهُ بلا عُسْرِ
وإنْ كان صومُ الشهر في أَحَدٍ فَخُذْ ... ففي سابع العشرين ما شِئْتَ فاسْتَقْرِي[1]
وإنْ هَلَّ بالاثنين فاعْلَمْ بأنه ... يُوَاتيك نَيلُ المجد[2] في تاسع العشر
ويوم الثلاثا إنْ بَدَا الشهرُ فاعتمدْ ... على خامِسِ العشرين فاعْمَلْ بها تدري
وفي الأربعاء إنْ هَلَّ يا مَنْ يَرُومُهَا ... فدُونَك فاطْلُب وَصْلَها سابِعَ العشر
ويوم خميس[3] إنْ بَدَا الشهرُ فاجْتَهِدْ ... ففي ثالث العشرين تظفر بالنصر
وضابِطُهَا بالقَولِ لَيلَةُ جُمْعَةٍ ... تُوَافيكَ بَعْدَ النّصفِ في ليلة الوتر

قلت: لستُ على يقين من نسبة هذا النظم إلى الشيخ رحمه اللَّه تعالى! فإنَّ نفسَه أعلى من هذا النظم، ولكني ذكرته لما فيه من الفائدة، ولأنَّ بعض الناس نسبة إليه، فاللَّه تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

ومِمّا نسبه إليه رحمه اللَّه تعالى غيرُ واحد قوله: [الدوبيت]

قلبيَ قطبي، وقالبي أَجْفاني[4] ... سرِّيَ خضري، وعينه عرفاني
رُوحي هَرُون وكليمي موسى ... نَفْسِيَ فرعون، والهوى هاماني

---

(١) اسْتَقْرَى الأشياءَ واستقرأها. تتبّعها ليعرف أحوالها وخواصّها. لسان العرب (قرى).
(٢) في طبعة دار صادر: «الوجد».
(٣) في طبعة ليدن: «الخميس».
(٤) في طبعة ليدن: «أجناني».

وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يُكْتبان لمن به القُولَنْجُ في كفه، ويلحسهما، فإنه يبرأ بإذن اللّٰه تعالى، قال: وهو مِنَ المُجرَّبات.

وقد تأوَّلَ بعضُ العلماء قول الشيخ رحمه اللّٰه تعالى بإيمان فرعون أن مراده بفرعون النفس بدليل ما سبق، وحكي في ذلك حكاية عن بعض الأولياء مِمَّنْ كان ينتصر للشيخ، رحمه اللّٰه تعالى!.

وولد للشيخ محيي الدين ـ رحمه اللّٰه تعالى! ـ ابنه محمدٌ المدعوُّ سعد الدين[1] بملطية في رمضان سنة ٦١٨، وسمع الحديث، ودرس، وقال الشعر الجيد، وله ديوان شعر مشهور، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦[2] سنة دخل هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم، ودفن المذكور عند والده بسفح قاسِيُون، وكان قدم القاهرة، وسكن حلبا، ومن شعره[3]: [الرجز]

لَـمَّـا تَـبَـدَّى عـارضـاه فـي نَـمَطْ　　　قِـيـلَ ظَـلامٌ بـضـيـاءٍ اخْـتَـلَطْ
وقِيـل سَـطْرُ الحُسْنِ في خَـدِّيـهِ خَطّ　　　وقـيـل نَـمْـلٌ فـوق عـاجٍ انْـبَـسَطْ[4]
وقِـيـلَ مِـسْـكٌ فَـوقَ وَرْدٍ قـد نُـقِطْ　　　وقـال قـوم: إنـهـا الـلاَّمُ فـقط[5]

قلت: تذكَّرْتُ بهذا ما قاله الكاتب أبو عبد اللّٰه بن جُزَيٍّ الأندلسي[6] كاتبُ سلطان المغرب أبي عنان حين تنازع الكُتّابُ أربابُ الأقلام والرؤساء أصحابُ السيوف في تشبيه العِذَار، وقالت كل فرقة: لا تشبّهه إلاَّ بما هو مناسب لصنعتنا، فلمّا فرغوا قال ابن جُزي: [البسيط]

أتى أولـو الكُتْبِ والسَّيفِ الألى عَـزَمُـوا　　　مِنْ بَعْـدِ سِلْمي على حـربي وإسـلامي

---

(١) ترجمة سعد الدين بن محيي الدين بن عربي في فوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٦٧) والوافي بالوفيات (ج ١ ص ١٨٦) وفي شذرات الذهب (ج ٥ ص ٢٨٣).

(٢) هكذا في الوافي بالوفيات وفي شذرات الذهب، وفي فوات الوفيات: سنة ست وثمانين وستمائة.

(٣) الشعر في فوات الوفيات (ص ٢٦٨) والوافي بالوفيات ((ص ١٨٨).

(٤) عجزا هذا البيت والذي بعده وردا بيتًا واحدًا في فوات الوفيات، هكذا:

وقـيـل نـمـلٌ فـوق عـاج قـد سـقط　　　وقـال قـوم إنـهـا الـلام فـقط

(٥) اللام: حرف من حروف الهجاء، شبه به العذار، على عادة الشعراء، بجامع الانعطاف والالتواء.

(٦) هو محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّٰه بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن جزي الكلبي الغرناطي؛ من كتاب بني نصر بغرناطة وبني مرين بفاس. توفي بفاس سنة ٧٥٨ هـ. نثير فرائد الجمان (ص ٢٩٢) والكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣) وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٩).

بكُلِّ مَعْنًى بديعٍ في العِذار عَلَى ... ما تقتضي منهمُ أفكارُ أحلامي

فقال ذو الكُتْب: لا أرضى المحارب في ... تشبيهه لا وأنْقَاسِي[1] وأقلامي

وقال ذو الحرب: لا أرضى الكتائب في ... تشبيهه ومِظَلَّاتي وأعلامي

فقُلْتُ: أجْمَعُ بَينَ المذهبين معًا ... باللَّام، فاسْتَحْسَنُوا التَّشبيه باللام

وهذه الغاية التي لا تدرك مع البديهة ولزوم ما لا يلزم.

رجع - ومن نظم سعد الدين قوله[2]: [الكامل]

سَهَرِي من المحبوب أصْبَحَ مُرْسَلاً ... وأراهُ متصِلاً بِفَيضِ مدامعِ

قال الحبيبُ: بأنَّ رِيقي نافعٌ ... فاسْمَعْ روايةَ مالِكٍ عن نافعٍ[3]

ومن نظمه أيضًا قوله: [الطويل]

قالوا: قَصِيرٌ شَعْرُ مَنْ قد هَوِيتَهُ، ... فقلتُ: دَعُوني لا أرى منه مَخْلَصَا

مُحَيَّاهُ شمسٌ قد عَلَتْ غُصْنَ قَدِّهِ ... فلا عَجَبٌ للظِّلِّ أنْ يَتَقَلَّصَا

وقوله[4]: [مخلع البسيط]

ورُبَّ قاضٍ لنا مَليح ... يُعْرِبُ عن مَنْطِقٍ لَذِيذِ

إذا رَمَانا بسَهْمِ لَحْظٍ ... قُلْنا له دائمُ النفوذ

وقوله[5]: [مجزوء الخفيف]

لكَ واللَّه مَنْظَرٌ ... قَلَّ فيه المُشَارِكُ

إنَّ يومًا نَرَاكَ[6] فِيهِ ... لَيَومٌ مُبارَكُ

---

(١) الأَنْقاس: جمع نِقْس وهو المداد الذي يكتب به. مختار الصحاح (نقس).

(٢) البيتان في الوافي بالوفيات (ج ١ ص ١٨٨).

(٣) مالك: هو الإمام مالك بن أنس، وقد مرَّ التعريف به في الجزء الأول. ونافع هو أبو رُوَيم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم، المقرىء المدني أحد القراء السبعة؛ إمام أهل المدينة، قرأ عليه الإمام مالك. يكنى أبا الحسن، وقيل أبا عبد اللَّه، وقيل أبا عبد الرحمن، وقيل: أبا نعيم. توفي سنة ١٥٩ هـ بالمدينة. وفيات الأعيان (ج ٥ ص ٣٦٨).

(٤) البيتان قالهما في قاض مليح، وهما في فوات الوفيات (ج ٣ ص ٢٦٨) والوافي بالوفيات (ج ١ ص ١٨٨).

(٥) البيتان في فوات الوفيات (ص ٢٦٩) من قصيدة من تسعة أبيات.

(٦) في فوات الوفيات: «أراك».

ومن نظمه أيضًا ما كتب به إلى أخيه عماد الدين أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته قوله: [البسيط]

مـا لـلنَّـوَى رِقَّـةٌ تـرثي لِـمُكْـتَئِبِ ... حَـرَّانُ في قَلْبِـه والـدَّمْـعُ في حَلَبِ
قـد أصْبَحَتْ حَلَبُ ذاتَ العمـاد بكُمْ ... وجِـلَّقٌ إرَمٌ هـذا مِـنَ الـعـجـب

وتوفي الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧، ودفن بسفح قاسِيُون عند والده بتربة القاضي ابن الزكي، رحم الله تعالى الجميع!.

وابن الزكيِّ أيضًا محيي الدين.

ومن نظم سعد الدين المذكور في وَسيم رآه بالزيادة في دمشق[1]: [الخفيف]

يـا خَـلِيـلَيَّ، فـي الـزيـادة ظَـبْـيٌ ... سَـلَبَـتْ مُـقْـلَتَـاه جَـفْـنـي رُقَـادَهْ
كـيف أرْجُـو الـسُّلُوَّ عـنـه وطَـرْفـي ... نـاظـرٌ حُسْنَ وجهـه في الـزيـادَهْ؟

ولـه: [السريع]

عَـلِقْتُ صـوفِـيًّـا كَبَـدْرِ الـدُّجَى ... لـكـنَّـه فـي وَصْـلِيَ الـزاهـدُ
يَـشْـهَـدُ وَجْـدِي بـغَـرَامـي لـه ... فَـدَيْـتُ صُـوفِـيًّـا لـه شـاهِـدُ

ولـه أيضًا: [الوافر]

صَـبَـوتُ إلى حَـرِيـرِيِّ مَـلِيـحٍ ... تَـكَـرَّرَ نـحـو مـنـزلـه مَسِـيـرِي
أقـولُ لـه: أَلَا تَـرْثِـي لِـصَـبٍّ ... عَـديمٍ للمُسَـاعِـد والنصِـيـر؟
أقـامَ بِـبَـابِـكُـمْ خَـمْـسِـيـنَ شَـهْـرًا ... فقَـالَ: كـذا مَقَـامَاتُ الحـريـري

ولـه: [الخـفيـف]

وغـزال مـن الـيَـهُـود أتـانـي ... زَائـرًا مـن كَنِـيسِـهِ أو كِـنَـاسِـهْ[2]
بِتُّ أجْنِي الشقِيقَ[3] مِنْ وَجْنَتَيـهِ ... وأشَـمُّ الـعَـبِـيـرَ مِـنْ أنْـفَـاسِـهْ
واعْـتَـنَـقْـنَـا إذا لـم نَـخَفْ مِنْ رقـيـبٍ ... وأمِـنَّـا الـوُشَـاةَ مـن حُـرَّاسِـهْ
مَـنْ رآنـي يـظُـنُّـنِـي لِـنُـحُـولـي ... وٱصْـفِـرَارِي عَـلَامـة فـوق رَاسِـهْ

(١) البيتان في فوات الوفيات (ص ٢٦٨) والوافي بالوفيات (ص ١٨٨).
(٣) الكِناسُ، بكسر الكاف: بيت الظبي. لسان العرب (كنس).
(٤) الشقيق: ورد أحمر، ويُقال له: شقائق النعمان. لسان العرب (شقق).

ولـه [الخفيف]

لي حبيبٌ بالنحو أصْبَحَ مُغْرَى ... فَهْوَ مِنِّي بِمَا أعانيه أدْرَى
قلتُ: ماذا تقولُ حين تُنادي ... يا حَبيبي المضافَ نَحْوَكَ جَهْرَا
قال لي: يا غلامُ، أو يا غلامِي، ... قلتُ: لَبَّيك ثم لَبَّيك عَشْرَا

ولـه أيضًا [الكامل]

ساءَلْتَنِي عن لفظةٍ لُغَوِيَّةٍ ... فأجَبْتُ مُبْتَدِئًا بغير تفكُّرِ
خاطَبْتَنِي مُتَبَسِّمًا فرأيتُها ... من نظم ثغرك في صحاح الجوهري

ولـه: [الكامل]

وعَلِمْتُ أنَّ مِنَ الحديدِ فُؤَادَهُ ... لَمَّا انْتَضَى[1] مِنْ مُقْلَتَيهِ مُهَنَّدَا
آنسْتُ مِنْ وَجْدِي بجانب خَدِّه ... نارًا ولكنْ ما وَجَدْتُ بها هُدَى

وقال الشيخ محيي الدين ـ أفاض اللّه تعالى علينا من أنواره، وكَسَانا بعض حلل أسراره! ـ إنه بلغني في مكّة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلَّمَتْ فيَّ بأمور عظيمة، فقلْتُ: هذه قد جعلها اللّه تعالى سببًا لخير وصل إليَّ فلأكافِئَنَّهَا، وعقدْتُ في نفسي أن أجعل جميع ما اعتمرت في رجب لها وعنها[2]، ففعلت ذلك، فلمّا كان الموسم استدلَّ عليَّ رجل غريب، فسأله الجماعة عن قصده، فقال: رأيت بالينبع في الليلة التي بِتُّ فيها كأنَّ آلافًا من الإبل أوقارُهَا المِسْكُ والعنبر والجوهر، فعجبت من كثرته، ثم سألت: لمن هو؟ فقيل: هو لمحمد بن عربي يهديه إلى فلانة، وسمَّى تلك المرأة، ثم قال: وهذا[3] بعض ما تستحقّ، قال سيدي ابن عربي: فلمَّا سمعْتُ الرؤيا واسمَ المرأة، ولم يكن أحدٌ مِنْ خلق اللّه تعالى عَلِمَ منِّي ذلك، علمْتُ أنه تعريف من جانب الحقّ، وفهمْتُ من قوله إن هذا بعض ما تستحقُّ أنها مكذوب عليها، فقصدْتُ المرأة وقلْتُ: اصدقيني، وذكرْتُ لها ما كان من ذلك، فقالت: كنت قاعدة قبالة البيت، وأنت تطوف، فشكرك الجماعة الذين كنتَ فيهم، فقلْتُ في نفسي: اللهمَّ إني أشهدك أني قد وهبْتُ له ثواب ما أعمله في يوم الاثنين وفي يوم

(١) انتضى السيف: استلّه من غِمْده. لسان العرب (نضا).
(٢) كلمة «وعنها» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٣) في طبعة ليدن: «وهو بعض ما تستحقّ يا سيدي ابن عربي...».

الخميس، وكنت أصومهما وأتصدّق فيهما، قال: فعلمْتُ أن الذي وصل مني إليها بعض ما تستحقّ فإنّها سبقت بالجميل، والفضل للمتقدِّم.

ومن نظم الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

يا غاية السُّؤْلِ والمأمولِ يا سندي ... شوقي إليكَ شديدٌ لا إلى أحدِ
ذُبْتُ اشْتياقًا ووَجْدًا في محبتكُمْ ... فآهِ مِنْ طُولِ شوقي آهٍ مِنْ كَمَدي
يَدِي وضَعْتُ على قلبي مخافَةَ أنْ ... يَنْشَقَّ صَدْرِيَ لمّا خانني جَلَدِي
مازال يَرْفَعُهَا طَورًا ويخفضها ... حتى وَضَعْتُ يدي الأخرى تَشُدُّ يدي

وحكى سِبْطُ ابن الجوزي عن الشيخ محيي الدين أنه كان يقول: إنه يحفظ الاسم الأعظم، ويقول: إنه يعرف السيميا بطريق التنزّل، لا بطريق التكسّب، انتهى واللّه تعالى أعلم، والتسليم أسلم.

ومن نظم الشيخ محيي الدين قوله: [السريع]

ما فاز بالتَّوبَةِ إلاّ الذي ... قَدْ تَابَ قِدْمًا والوَرَى نُوَّمُ
فمن يَتُبْ أدْرَك مَطْلوبَهُ ... مِنْ توبةِ الناس ولا يعلمُ

وله رحمه اللّه تعالى من المحاسن ما لا يُسْتوفى.

وأنشدني لنفسه بدمشق صاحبُنا الصوفي الشيخ محمد بن سعد الكُلْشَني ـ حفظه اللّه تعالى! ـ قوله شيخنا: الحاتمي... الأبيات[1]؛ فأنشدني لنفسه: [الطويل]

أمَولاَيَ محيي الدين أنْتَ الذي بَدَتْ ... علومُكَ في الآفاق كالغَيث مُذْ هَمىٰ
كشَفْتَ معاني كلِّ علْمٍ مُكَتَّمٍ ... وأوَضَحْتَ بالتحقيق ما كان مُبْهَما

وبالجملة فهو حجّة اللّه الظاهرة، وآيته الباهرة، ولا يلتفت إلى كلام من تكلّم فيه، وللّه دَرُّ السيوطي الحافظ! فإنه ألّف «تنبيه الغبي، على تنزيه ابن عربي» ومقامُ هذا الشيخ معلوم، والتعريف به يستدعي طولاً، وهو أظهر من نار[2] على عَلَم.

---

(١) عبارة: «شيخنا... لنفسه» ساقطة من طبعة عبد الحميد. ويقصد بالأبيات هنا الثلاثة الميمية التي مرّت (ص ٣٧٦) وأولها:

إنما الحاتميُّ في الكون فَرْدٌ ... وهو غوثٌ وسَيِّدٌ وإمامُ

(٢) في طبعة ليدن: «من نور».

وكان بالمغرب يُعْرَف بابن العربي بـالألف واللام، واصطلح أهل المشـرق على ذكره بغير ألف ولام، فرقًا بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي.

وقال ابن خاتمة في كتابه «مزية ألمريّة» ما نصُّه: محمد بن علي بن محمد الطائي الصوفي، من أهل إشْبِيلية، وأصله من مُرْسِية، يكنى أبا بكر، ويُعْرف بابن العربي، وبالحاتمي أيضًا، أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الآداب، وكتب لبعض الولاة بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجًا فأدّى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الْحَرَسْتاني[1] ومن غيره، وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن بن أبي نصر في شوّال سنة ٦٠٦، وكان يحدّث بالإجازة العامّة عن أبي طاهر السِّلَفي، ويقول بها، وبَرَع في علم التصوّف، وله في ذلك تواليف كثيرة: منها «الجمع والتفصيل، في حقائق التنزيل» و«الجذوة المقتبسةُ، والخطرة المُخْتَلَسةُ» وكتاب «كشف المعنى، في تفسير الأسماء الحسنى» وكتاب «المعارف الإلْهية» وكتاب «الإسْرَا إلى المقام الأسْرَى»[2] وكتاب «مواقع النجوم، ومطالع أهلّة أسرار العلوم» وكتاب «عَنْقَاء مُغْرب، في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب» وكتاب «في فضائل مشيخة عبد العزيز بن بكر القرشي المهدوي»، والرسالة الملقّبة بـ«مشاهد الأسرار القدسيّة، ومطالع الأنوار الإلَهيّة» في كتب أُخر عديدة، وقدم على ألْمَرِيَّة من مُرْسِية مُسْتَهَلَّ شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وبها أَلَّف كتابه الموسوم بـ«مواقع النجوم» انتهى.

ولا خفاء أنَّ مقام الشيخ عَظُمَ بَعْدَ انتقاله من المغرب، وقد ذكره رحمه اللّه تعالى، في بعض كتبه أن مولده بمُرْسِية.

وفي الكتاب المسمّى بـ«الاغتباط، بمعالجة ابن الخيّاط» تأليف شيخ الإسلام قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي الصديقي صاحب القاموس، قدَّس اللّه تعالى روحه! الذي ألّفه بسبب سؤالٍ سُئِل فيه عن الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي الطائي قدَّس اللّه تعالى سرّه العزيز في كتبه المنسوبة إليه، ما صورته:

---

(١) في طبعة بولاق: «الخرستاني» بالخاء المعجمة. والحرستاني؛ بالحاء غير المعجمة، نسبة إلى حَرَسْتا، بفتح الحاء والراء وسكون السين، وهي قرية كبيرة عامرة وسط بساتين دمشق على طريق حمص. معجم البلدان (ج ٢ ص ٢٤١).

(٢) الأَسْرَى: الأفضل والأشرف. لسان العرب (سرى).

ما تقول السادة العلماء شَدَّ اللَّهُ تعالى بهم أزر الدين، ولَمَّ بهم شَعَثَ المسلمين، في الشيخ محيي الدين بن عربي في كتبه المنسوبة إليه كالفتوحات والفصوص، هل تحلُّ قراءتها وإقراؤها ومطالعتها؟ وهل هي الكتب المسموعة المقروءة أم لا؟ أفتونا مأجورين جوابًا شافيًا لتحوزوا جميل الثواب، من اللَّه الكريم الوهّاب، والحمد للَّه وحده.

فأجابه بما صورته: الحمد للَّه، اللهمّ أنْطقنا بما فيه رضاك، الذي أعتقده في حال المسؤول عنه وأدين اللَّه تعالى به، أنه كان شيخ الطريقة حالاً وعلمًا، وإمام الحقيقة حقيقة ورسمًا، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسمًا: [البسيط]

إذا تَغَلْغَلَ فِكْرُ المرْءِ في طَرَفٍ مِنْ بَحْرِهِ غَرِقَتْ فيه خواطره

وهو عُبَاب لا تكدره الدِّلاء، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء، وكانت دعواته تخترق السبع الطِّباق، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق، وإنِّي أصفه وهو يقينًا فوق ما وصفْتُه، وناطق بما كتبتُه، وغالب ظني أنِّي ما أنصفْتُه: [البسيط]

وما عليَّ إذا ما قلْتُ مُعْتَقَدِي دَعِ الجهولَ يظُنُّ العَدْلَ عُدْوَانا
واللَّه واللَّه العظيم وَمَنْ أَقَامَهُ حُجَّةً للدِّين بُرْهَانا
بأنَّ ما قلتُ بَعْضٌ مِنْ مَنَاقِبِهِ ما زِدْتُ إلاَّ لَعَلِّي زِدْتُ نقصانا

وأما كتبه ومصنَّفاته فالبحار الزواخر، التي لجواهرها وكثرتها لا يُعْرف لها أول ولا آخر، ما وضع الواضعون مثلها، وإنّما خَصَّ اللَّه سبحانه بمعرفة قدرها أَهْلَهَا، ومن خواصّ كتبه أن مَنْ واظب على مطالعتها والنظر فيها، وتأمّل ما في مبانيها، انشرح صدره لحلِّ المشكلات، وفكِّ المعضلات، وهذا الشأن لا يكون إلاَّ لأنفاس مَنْ خصَّه اللَّه تعالى بالعلوم اللّدنيّة والربانيّة، ووقفت على إجازة كَتَبَهَا للملك المعظَّم فقال في آخرها: وأجزته أيضًا أن يروي عنِّي مصنّفاتي، ومن جملتها كذا وكذا، حتى عدّ نيِّفًا وأربعمائة مصنَّف، منها التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾(١) وتوفي ولم يكمل، وهذا التفسير كتاب عظيم، كلُّ سِفْرٍ بَحْرٌ لا ساحل له، ولا غَرْوَ فإنه صاحب الولاية العظمى، والصديقيّة الكبرى، فيما نعتقد وندين اللَّه تعالى به، وثم طائفة،

(١) سورة الكهف ١٨، الآية ٦٥.

في الغير حائفة[1] يُعْظِمون عليه النكير، وربّما بلغ بهم الجهل إلى حدّ التفكير، وما ذاك إلاّ لقصور أفهامهم عن إدراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها، ولم تصل أيديهم لِقِصَرها إلى اقتطاف مجانيها[2]: [البسيط]

عَلَيَّ نَحْتُ القوافي مِنْ مَعَادِنِها ... وما عليَّ إذا لم تَفْهَمِ البَقَرُ

هذا الذي نعلم ونعتقد، وندين اللّٰه تعالى به في حقّه، واللّٰه سبحانه وتعالى أعلم، وصورة استشهاده: كتب محمد الصديقي الملتجىء إلى حرم اللّٰه تعالى، عفا اللّٰه عنه!.

وأمّا احتجاجه بقول شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح، بل كذب وزور، فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ كلّهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه قال: كنّا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، فجاء في باب الردّة ذكر لفظة الزنديق، فقال بعضهم: هل هي عربية أو عجمية؟ فقال بعض الفضلاء: إنّما هي فارسية معرّبة، أصلها زن دين، أي على دين المرأة، وهو الذي يضمر الكفر ويظهر الإيمان، فقال بعضهم: مثل مَنْ؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ: مثل ابن عربي بدمشق، فلم ينطق الشيخ ولم يَرُدَّ عليه، قال الخادم: وكنت صائمًا ذلك اليوم، فاتّفق أنَّ الشيخ دعاني للإفطار معه، فحضرْتُ ووجدْتُ منه إقبالاً ولطفًا، فقلْتُ له: يا سيدي، هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا؟ فقال: ما لَكَ ولِهذا؟ كُلْ، فعرفْتُ أنه يعرفه، فتركْتُ الأكل وقلْتُ له: لوجه اللّٰه تعالى عرِّفني به، مَنْ هو؟ فتبسَّم، رحمه اللّٰه تعالى، وقال لي: الشيخ محيي الدين بن عربي، فأطرقْتُ ساكتًا متحيّرًا، فقال: ما لَكَ؟ فقلت: يا سيّدي، قد حِرْتُ، قال: لِمَ؟ قلْتُ: أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي وأنت ساكت؟! فقال: اسكت ذلك مجلس الفقهاء، هذا الذي روى لنا بالسند الصحيح عن شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام.

---

(١) حائفة: جائرة في الحكم. لسان العرب (حيف).

(٢) مجانيها: أراد ثمارها. وسيرد هذا البيت في الجزء السابع ببعض الاختلاف. والبيت للبحتري قاله من قصيدة مدح من ٤١ بيتًا في علي بن مر الأرمني، وروايته في الديوان:

عليَّ نَحْتُ القوافي في مقاطعها ... وما عليَّ لهمْ أنْ تفهمَ البقرُ

ديوان البحتري (ص ١٨٦).

وأمّا قول غيره من أضراب الشيخ عزّ الدين فكثير، كان الشيخ كمال الدين الزَّمْلَكَاني[1] من أجَلِّ مشايخ الشام أيضًا يقول: ما أجهل هؤلاء! ينكرون على الشيخ محيي الدين بن عربي لأجل كلمات وألفاظ وقعتْ في كتبه قد قَصَّرَتْ أفهامهم عن درك معانيها، فليأتوني لأُحِلَّ لهم مشكله، وأبيّن لهم مقاصده، بحيث يظهر لهم الحقّ، ويزول عنهم الوهم.

وهذا القطب سعد الدين الحموي سُئِل عن الشيخ محيي الدين بن عربي لَمّا رجع من الشام إلى بلاده: كيف وَجَدْتَ ابن عربي؟ فقال: وجدْتُه بحرًا زخّارًا لا ساحل له.

وهذا الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِي له كتاب جليل وضعه في تاريخ علماء العالم في مجلدات كثيرة، وهي موجودة في خزانة السلطان، تنظر في باب الميم ترجمة محمد بن عربي لتعرف مذاهب أهل العلم الذين بابُ صدورهم مفتوحُ لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية.

وقوله في شيء من الكتب المصنّفة كالفصوص وغيره: إنه صنّفه بأمر من الحضرة الشريفة النبوية، وأمره بإخراجه إلى الناس.

قال الشيخ محيي الدين[2] الذّهبي حافظ الشام: ما أظنُّ المحيي يتعمّد الكذب أصلًا، وهو من أعظم المنكرين وأشدّهم على طائفة الصوفية.

ثم إن الشيخ محيي الدين رحمه اللّه تعالى، كان مسكنه ومظهره، بدمشق، وأخرج هذه العلوم إليهم، ولم ينكر عليه أحدٌ شيئًا من ذلك، وكان قاضي القضاة الشافعية في عصره شمس الدّين أحمد الْخُوَيِّي يخدمه خدمة العبيد، وقاضي القضاة المالكية زوّجه بابنته، وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ.

---

(١) الزَّمْلَكاني: نسبة إلى زَمْلَكا، بفتح الزاي واللام وسكون الميم، أو زَمَلْكا، بفتح الزاي والميم وضمّ اللام، وهي قرية بغوطة دمشق. معجم البلدان (ج ٣ ص ١٥٠).

(٢) لقب الذهبي هو «شمس الدين» وليس «محيي الدين» كما يتوهم المقري. والذهبي هو صاحب كتابي «سير أعلام النبلاء» و «تذكرة الحفاظ». ووفاته سنة ٧٤٨ هـ.

وأمّا كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلّدات، وقول المنكرين في حقّ مثله غُثَاء وهَبَاء[1] لا يعبأ بـه، والحمـد للّه تعـالى، انتهى مـا نقلتـه من كـلام العـارف بـاللّه تعـالى سيـدي عبد الوهّاب الشعراني، رضي اللّه تعالى عنه!

وقد حكى الشيخ، رضي اللّه تعالى عنه، عن نفسـه في كتبه مـا يبهر الألبـاب، وكفى بذلك دليلاً على ما منحه اللّه، الذي يفتح لمن شاء الباب، وقد اعتنى بتربته بصالحيّة دمشق سلاطينُ بني عثمان، نصرهم اللّه تعالى، على توالي الأزمان! وبنى عليـه السلطانُ المرحـومُ سليم خان المدرسة العظيمة، ورتّب له الأوقـاف، وقد زرْتُ قبـره وتبرّكتُ بـه مرارًا، ورأيتُ لوائح الأنوار عليه ظاهرة، ولا يجد منصف مَحِيدًا إلى إنكار ما يشاهد عنـد قبره من الأحـوال الباهرة، وكانت زيارتي له بشعبان ورمضان وأوّل شوّال سنة ١٠٣٧ .

وقال في «عنوان الدراية»: إن الشيخ محيـي الدين كان يُعْرَف بالأندلس بـابن سُرَاقـة، وهو فصيح اللسان، بارع فهم الجنان، قوي على الإيراد، كلّما طلب الزيادة يزاد، رحل إلى العُدْوة، ودخل بِجَايَةَ[2] في رمضـان سنة ٥٩٧، وبهـا لقي أبا عبـد اللّه العربي وجمـاعةً من الأفاضل، ولمّا دخل بجَايَةَ في التـاريخ المـذكور قـال: رأيت ليلة أني نكحْتُ نجوم السمـاء كلّها، فما بقي منها نجم إلاّ نكحْتُه بلذّة عظيمة روحانيّة، ثم لَمّا كملْتُ نكاحَ النجوم أعطيتُ الحروف فنكّحْتُها، ثم عـرضْتُ رؤياي هـذه على مَنْ قَصَّها على رجـل عارف بـالرؤيـا بصير بها، وقُلْتُ للذي عرضْتُها عليه: لا تذكرني، فلمّـا ذكروا الـرؤيا استعـظمها وقـال: هذا هـو البحر الذي لا يُدْرَك قعره، صاحبُ هذه الرؤيا يفتـح اللّه تعالى لـه من العلوم العلويّة وعلوم الأسرار وخواصّ الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه، ثم سكت ساعة وقال: إنْ كان صاحب هذه الرؤيا في هذه المدينة فهو ذاك الشاب الأندلسي الذي وصل إليها.

ثم قـال صاحب العنـوان ما ملخَّصُـه: إن الشيـخ محيـي الـدين رحـل إلى المشـرق، واستقرَّتْ به الدّار، وألّف تواليفه، وفيها ما فيها، إنْ قيَّض اللّهُ تعالى مَنْ يسامح ويتأوّل سَهُلَ المرام، وإنْ كان ممّن ينظر بالظاهر فالأمر صعب، وقد نقد عليه أهل الديار المصريّة وسَعَـوا في إراقـة دمه، فخلّصـه اللّه تعـالى على يـد الشيـخ أبي الحسن البجـائي، فـإنـه سعى في

---

(١) الغُثاء، بضم الغين: ما يحمله السَّيل من القماش. الهَبَاء، بالفتح: الشيء المُنْبَثُّ الذي تـراه في البيت من ضوء الشمس، وهو أيضًا دُقاق التراب، مختار الصحاح (غثا) و (هبا).

(٢) بجاية: قاعدة المغرب الأوسط، وهي مدينة عظيمة على ضفة البحر. الروض المعطار (ص ٨٠).

خلاصه وتأوّل كلامه، ولمّا وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ، رحمه اللّه تعالى: كيف يحبس من حلّ منه اللاّهوت في الناسوت؟ فقال له: يا سيّدي، تلك شطحات في محل سكر ولا عتب على سكران.

وتوفي الشيخ محيي الدين في نحو الأربعين وستمائة، وكان يحدِّث بالإجازة العامّة عن السِّلفي، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضي اللّه تعالى عنه قوله(١):

مطلع

سَرَائِرُ الأعيانْ(٢) لاحَتْ على الأكوانْ للنّاظِرِينْ
والعاشِقُ الغَيرَانْ مِنْ ذاكَ في بُحْرانْ(٣) يُبْدِي الأنين

دور

يقولُ والوَجْدُ أَضْناهُ والبُعْدُ(٤) قد حَيَّرَهْ
لَمَّا دَنَا البُعْدُ لم أَدْرِ مِنْ بَعْدُ مَنْ غَيَّرَهْ
وهُيِّمَ العَبْدُ والواحِدُ الفَرْدُ قد خَيَّرَهْ
في البَوحِ والكِتْمَانْ والسِّرِّ والإعْلانْ في العَالمين
أنا(٥) هُوَ الدّيّان يا عابِدَ الأوثانْ أنْتَ الضَّنين(٦)

دور

كلُّ الهَوَى صَعْبُ على الذي يَشْكُو ذُلَّ الحِجابْ(٧)

---

(١) هذه الموشحة في ديوان ابن عربي (ص ٨٥ - ٨٦). وهي موشحة تامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات.

(٢) الأعيان: حقائق الأشياء التي تدركها العين. لسان العرب (عين).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «حَرَّان». والبُحْران: التغير الذي يحدث للمريض دفعة في الأمراض الحادّة. لسان العرب (بحر).

(٤) في الديوان: «والسّهْدُ».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «أما هو».

(٦) عابد الأوثان: أي عابد الجسد المادي. أنت الضَّنين: أنت البخيل بقهره لتقوية الروح.

(٧) الحجاب: أي حجاب الإنسان، الذي يحجبه عن مشاهدة اللّه والاتصال به.

يـا مَـنْ لـه قَـلْبٌ لـو أنـه يَـذْكُـو[1] عِـنْـدَ الـشَّـبـابْ
قَـرَّبَـهُ[2] الـرَّبُّ لـكـنـه إفْـكُ فـأَنْـوِ الـمَـتَـابْ
ونـادِ يـا رَحْـمَنْ يـا ربِّ[3] يـا مـنَّـانْ إنِّـي حـزيـنْ
أَضْـنـانـي الـهِـجْـرَانْ ولا حَـبِـيـبُ دانْ ولا مُـعِـيـنْ

دور

فَـنِـيـتُ بـالـلَّه عَمَّـا تـراه العيـنْ مـن كـونِـهِ
فـي مـوقـف الـجـاهِ وصِـحْـتُ أيـنَ الأيـنْ[4] فـي بَـيـنِـه
فـقـال: يـا سـاهـي عـايَـنْـتَ قطّ عَـيـن بِعَينِه
أمـا تَـرَى غَـيـلانْ وقَـيْسَ أو مَـنْ كـانْ فـي الـغـابـريـنْ[5]
قـالـوا الـهَـوَى سُلْطَانْ إنْ حـلَّ بـالإنـسـانْ أَفْـنـاهُ دِيـنْ

دور

كَـمْ مَـرَّةٍ قـالاَ أنـا الـذي أهْـوَى مَـنْ هـو أنـا
فـلا أرى حـالاَ ولا أرى شَـكْـوَى إلَّا الْـفَـنَـا
لَـسْـتُ كـمَـنْ مَـالاَ عَـنِ الـذي يَـهْـوَى بَـعْـدَ الـجَـنَـا
ودَانَ بـالـسُّـلْوَانْ هـذا هـو الـبُـهْـتَـانْ للعارفينْ
سَـلُوهُـمُ مـا كـانْ عـن حضـرة الـرحـمـنْ والآفكين

دور

دَخَـلْتُ فـي بُـسْـتـانْ الأُنسِ والـقُـرْبِ كَمَكْنِسِهِ[6]

---

(١) يذكو: يستضيء ويتّقد بنور الصوفيّة.

(٢) في طبعة عبد الحميد: «قد قرَّب الرَّبُّ».

(٣) هكذا في الديوان. وفي طبعة دار صادر: «يا برّ».

(٤) في طبعة ليدن: «أين البين».

(٥) غيلان: هو ذو الرمّة الشاعر المشهور، وقد مرَّ التعريف به في الجزء الأول. وقيس: هو على ما يبدو قيس بن ذريح (قيس لبنى).

(٦) المَكْنِسُ: المأوى، يريد القرب من اللَّه تعالى والأنس به.

فـقـامَ لي الـرّيـحـانْ[1] يَـخْـتـالُ بـالْـعُـجْـبِ[2] فـي سُـنْـدُسِـهْ
أنـا هـو الإنـسـانْ[3] مُـطَـيَّـبُ الـصَّـبِّ فـي مَـجْـلِـسِـهْ
جَـنَّـانُ يـا جَـنّـانْ[4] اجْـنِ مِـنَ الـبُـسْـتـانْ الياسمينْ
وحَـلِّلِ الـرَّيـحـانْ بِـحُـرْمَـةِ الـرحـمـنْ للعاشقينْ

وقال الإمام الصفي بن ظافر الأزدي في رسالته[5]: رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي، وكان من أكبر علماء الطريق، جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر[6] له من العلوم الوهبية، ومنزلته شهيرة، وتصانيفه كثيرة، وكان غلب عليه التوحيد علمًا وخلقًا وحالاً، لا يكترث بالوجود مقبلاً كان أو معرضًا، وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف، وكان بينه وبين سيدي الأستاذ الخراز[7] إخاء ورفقة في السياحات، رضي الله تعالى عنهما! انتهى.

وذكر الإمام سيِّدي عبد الله بن سعد اليافعي اليمني في «الإرشاد» أنه اجتمع مع الشهاب السُّهْرَوَرْدِي، فأطرق كل واحد منهما ساعة، ثم افترقا من غير كلام، فقيل للشيخ ابن عربي: ما تقول في السُّهْرَوَرْدي؟ فقال: مملوء سُنَّةً من قرنه إلى قدمه، وقيل للسُّهْرَوَرْدي: ما تقول في الشيخ محيي الدين؟ فقال: بحر الحقائق.

ثم قال اليافعي ما ملخَّصُه: إن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه، فلمّا حضرته الوفاة نَهى عن مطالعته، وقال: إنكم لا تفهمون معاني كلامه، ثم قال اليافعي: وسمعْتُ أنَّ العزّ بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول: هو زنديق، فقال له بعض أصحابه: أريد أن تريني القطب، أو قال وليًا، فأشار إلى ابن عربي، فقال له: فأنت تطعن فيه، فقال: أصون ظاهر الشرع، أو كما قال.

---

(١) الريحان: كناية عن التجلّي عند الصوفية، أي تجلّيات الله وحلوله في الإنسان.
(٢) في طبعة ليدن: «يختال من عجب».
(٣) قوله: «أنا هو الإنسان» هو مذهب الحلولية عند الصوفية. وفي طبعة دار صادر: «أنا هو يا إنسان».
(٤) الجَنّانُ: حارس الجنّة أو صاحبها، وتطلق الجنّة عند الصوفيين على جنة المطاعم اللذيذة والمشارب الهنيّة ثوابًا للأعمال الصالحة، وتسمّى جنّة الأعمال وجنّة النفس أيضًا.
(٥) تقدّم هذا النص في هذا الجزء (ص ٣٨١).
(٦) في طبعة دار صادر: «وفر».
(٧) في طبعة دار صادر: «الحرار».

وأخبرني بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام، ثم قال: وقد مدحه وعظّمه طائفةٌ كالنّجم الأصبهاني والتاج بن عطاء اللَّه وغيرهما، وتوقّف فيه طائفة، وطعن فيه آخرون، وليس الطاعن فيه بأعلم من الخضر عليه السلام، إذ هو أحد شيوخه، وله معه اجتماع كثير.

ثم قال: وما يُنْسَبُ إلى المشايخ له محامل: الأول أنه لم تصحَّ نسبته إليهم، الثاني بعد الصِّحّة يُلْتَمَسُ له تأويلٌ موافق، فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمْه، وإنّما يعلمه العارفون، الثالث: أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة، والسكران سكرًا مباحًا غير مُؤَاخِذٍ ولا مُكَلَّف، انتهى ملخصًا.

وممّن ذكر الشيخ محيي الدين الإمام شمس الدّين محمد بن مُسْدِي في معجمه البديع المحتوي على ثلاث مجلّدات، وترجمه ترجمة عظيمة مطوّلة أذكر منها أنه قال: إنه كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات، خاض بحار[1] تلك العبارات، وتحقّق بمُحَيًّا تلك الإشارات، وتصانيفه تشهد له عند أُولي البصر بالتقدّم والإقدام، ومواقف النهايات في مزالق الأقدام، ولهذا ما ارتبْتُ في أمره واللَّه تعالى أعلم بسرٍّه، انتهى.

ونقلت من خط ابن عُلْوَان التونسي، رحمه اللَّه تعالى، قال الشيخ محيي الدين: [مخلع البسيط]

بالمال يَنْقادُ كلُّ صَعْبٍ ... من عالَمِ الأَرضِ والسماءِ
يَحْسَبُهُ عالَمٌ حجابًا ... لم يعرفوا لذّة العَطاءِ
لولا الذي في النفوس منه ... لم يُجِبِ اللَّهُ في الدعاءِ
لا تَحْسَبِ المالَ ما تراهُ ... مِنْ عَسْجَدٍ مُشْرِقِ الضياء[2]
بل هو ما كنت يا بنيَّ ... به غنيًّا عَنِ السّواء
فَكُنْ بِرَبِّ العُلا غَنِيًّا ... وعامِلِ الخَلْقَ بالوفاءِ

(١) في طبعة دار صادر: «بحر».
(٢) في الطبعة نفسها: «مشرقٍ لراءٍ».

وقـال: [السريـع]

نَـبِّـهْ عـلى الـسِّـرِّ ولا تُـفْـشِـهِ　　فـالْـبَـوحُ بـالـسِّـرِّ لـه مَـقْـتُ
عـلى الـذي يُـبْـديـه فـاصْـبِـرْ لـه　　واكْـتُـمْـهُ حـتـى يـصـلَ الـوقـتُ

وقـال: [مـخلـع البسيط]

قـد شـابَ غِـلْـمـانُـنـا عـلـيـنـا　　فـمـا لـنـا فـي الـوجـودِ قَـدْرُ
أَذْنـابُـنـا صُـيِّـرَتْ رؤوسًـا　　مـا لـي عـلى مـا أراهُ صَـبْـرُ
هــذا هــو الـدهـرُ يـا خـلـيـلي　　فَـمَـنْ يـقـاسـيـهِ فـهـو قَـهْـرُ

ونَظْمُ الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له.

ولنختم ما أوردنا منه بقوله: [السريع]

يـا حبَّـذا المَسْجِـدُ مِنْ مَسْجِـدِ　　وحَبَّـذا الـروضَـةُ من مَشْهَـدِ
وحـبَّـذا طَـيـبَـةُ مِـنْ بـلدةٍ　　فيهـا ضريـحُ المصطفى أحمـدِ
صَـلَّى عـليـه الـلَّه مِنْ سَـيِّـدٍ　　لـولاه لـم نُـفْـلِحْ ولـم نَـهْـتَـدِ
قـد قَـرَنَ الـلَّهُ بـه ذِكْـرَهُ　　في كـل يـوم فـاعْـتَـبِـر تَـرْشُـدِ
عَـشْـرٌ خَـفِـيَّـاتٌ وعَـشْـرٌ إذا　　أُعْلِنَ بـالتـأذين في المسجـد
فـهـذه عـشـرون مـقـرونـة　　بـأفضل الـذكـر إلى المـوعـد

١١٤ ـ ومنهم الصوفي الشهير أبو الحسن علي الشُّشْتُرِي(١)، وهو علي بن عبد اللَّه النميري.

عروس الفقهاء، وإمام(٢) المتجرّدين، وبركة لابسي الخرقة، وهو من قرية شُشْتُر من عمل وادي آش، وزقاق الششتري معلوم بها، وكان مُجَوِّدًا للقرآن، قائمًا عليه، عارفًا بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال(٣) في الآفاق، ولقي المشايخ، وحجَّ حجّات، وآثر التجرّد والعبادات.

---

(١) ترجمة أبي الحسن الشُّشْتري في عنوان الدراية (ص ١٤٠) والإحاطة (ج ١ ص ٢٠٥) وفي مقدمة ديوانه بتحقيق الدكتور علي سامي النشار.
(٢) في طبعة دار صادر: «وأمير المتجردين».
(٣) كلمة «في» ساقطة من طبعة دار صادر.

وذَكَرَهُ القاضي أبو العبّاس الغبريني في «عنوان الدراية» فقال: الفقيه الصوفي، من الطلبة المحصّلين، والفقراء والمنقطعين، له علم بالحكمة، ومعرفة بطريق الصوفية، وتقدُّم في النظم والنثر على طريقة التحقيق، وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع.

أخذ عن القاضي محيي الدين محمد بن إبراهيم بن الحسن بن سُرَاقة الأنصاري الشاطبي وغيره من أصحاب السُّهْرَوَرْدي صاحب «عوارف المعارف» واجتمع بالنجم ابن إبراهيم[1] الدمشقي سنة ٦٥٠، وخدم أبا محمد بن سبعين، وتَلْمَذَ له، وكان ابن سبعين دونه في السن، لكن اشتهر باتباعه، وعول على ما لديه، حتى صار يُعَبِّر عن نفسه في منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين، وقال له لَمّا لقيه - يريد المشايخ -: إن كنت تريد الجنّة فَسِرْ إلى أبي مدين، وإن كنت تريد ربَّ الجنّة فهلمّ إليَّ، ولَمّا مات أبو محمد انفرد بعده بالرئاسة والإمامة على الفقراء المتجرّدين، فكان يتبعه في أسفاره ما ينيِّف على أربعمائة فقير فيقتسمهم[2] الترتيب في وظائف خدمته.

صَنَّف كتبًا: منها كتاب «العروة الوثقى في بيان السنن وإحصاء العلوم وما يجب على المسلم أن يعمله ويعتقده إلى وفاته» وله كتاب «المقاليد الوجودية، في أسرار الصوفية» و «الرسالة القُدْسيّة في توحيد العامّة والخاصّة» و «المراتب الإيمانية والإسلاميّة والإحسانيّة» و «الرسالة العلميّة» وغير ذلك.

وله ديوان شعر مشهور، ومن نظمه قوله رحمه اللّٰه تعالى[3]: [الطويل]

لقد تِهْتُ عُجْبًا بالتجرّد والفَقْر ... فلم أندرجْ تحت الزمانِ ولا الدهرِ
وجاءتْ لقلبي نَفْحَةٌ قُدُسِيَّةٌ ... فَغِبْتُ بها عن عالم الخلقِ والأمرِ
طويتُ بِساطَ الكونِ والطيُّ نَشْرُهُ ... وما القصدُ إلّا التركُ للطيِّ والنَّشْرِ
وغَمَّضْتُ عينَ القَلْبِ غيرَ مطلّقٍ ... فألْفَيتَني ذاك المُلَقَّبِ بالغَيرِ
وصلْتُ لمن لم تنفصِلْ عنه لحظة ... ونَزَّهْتُ مَنْ أَعْني[4] عنِ الوصلِ والهجرِ
وما الوَصْفُ إلّا دونه غيرَ أنّني ... أريد به التشبيبَ عن بعض ما أدري

---

(١) في طبعة دار صادر: «إسرائيل الدمشقي».
(٢) في طبعة دار صادر: «فيتقسّمهم».
(٣) ديوان أبي الحسن الششتري (ص ٥١).
(٤) في طبعة ليدن: «من أغنى».

وذلـك مثـلُ الصـوتِ أيقظ نـائمًـا فـأبصرَ أمـرًا جَـلَّ عَنْ ضـابط الحصـر
فـقلْتُ لـه الأسـمـاء تبـغي بيـانـه فكـانت لـه الألفـاظُ سترًا على ستـر

وقـال[1]: [الكـامـل]

مَـنْ لامـنـي لـو أنـه قـد أَبْـصَـرَا مـا ذُقْتُـه أضـحـى بـه مُـتَـحَـيِّـرَا
وغـدَا يـقـولُ لِصَـحْـبـه إنْ أنـتُـمُ أَنْـكَـرْتُـمُ مـا بـي أَتَـيـتُـمْ مـنـكـرَا
شَـذَّتْ أمـورُ الـقـومِ عـن عـاداتـهـمْ فَـلأَجْـلِ داكَ يُـقـالُ سِحْـرٌ مُـفْتَـرَى

وقال، وهي من أشهر ما قال[2]: [الطويل]

أرى طـالبًـا منّـا الـزيـادةَ لا الحُسْنَى بفكـرٍ رَمَى سَهْمًا فعـدَّى بـه عـدْنَـا
وطَـالَبنَـا مَـطْلُوبُـنَـا مِنْ وُجـودِنـا نغيبُ[3] بـه عنّـا لـدى الصَّعْق إنْ عَنَّـا

وهي طويلة مشهورة بالشرق والغرب، وقد شرحها شيخ شيوخ شيوخنا العارف بالله تعالى، سيدي أحمد زَرُّوق، نَفَعَنَا اللَّهُ تعالى ببركاته! وأشار ابن الخطيب في «الإحاطة» إلى أنها لا تخلو[4] عن شذوذ من جهة اللسان، وضعف في العربية، قال: ومع ذلك فهي غريبة المنزع، أشار فيها إلى مراتب الأعيان[5] الأعلام من أهل هذه الطريقة، وكأنها مبنيّة على كلام شيخه الذي خاطبه به عند لقائه حسبما قدَّمْناه، إذا الحسنى: الجنة، والزيادة: مقام النظر وقوله فيها:

وأَظْهَـرَ منـهـا الـغـافـقـيُّ لَـنَـا جَـنًـى وَكَشَّفَ عَنْ أطـوارِهِ الغَيمَ والـدَّجْـنـا[6]

هو شيخه أبو محمد بن سبعين لأنه مُرْسِيُّ الأصل غافِقِيُّه.

ولَمَّا وصل الششتري من الشام إلى ساحل دِمْياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومي فقال: ما اسم هذه القرية؟ فقيل: الطينة، فقال: حَنَّتِ الطينة إلى

---

(١) ديوان أبي الحسن الششتري (ص ٤١).
(٢) ديوان أبي الحسن الششتري (ص ٧٢).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «تغيب».
(٤) في طبعة ليدن: «أنها لم تَخْلُ».
(٥) في طبعة دار صادر: «مراتب الأعلام».
(٦) الدَّجْنُ، بفتح الدال وسكون الجيم: المطر الكثير.

الطينة، وأوصى أنْ يُدْفن بمقبرة دمياط، إذ الطينة بمفازة، وأقرب المدن إليها دمياط، فحمله الفقراء على أعناقهم إلى دمياط.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨، فدفن بدمياط، رحمه اللَّه تعالى، ورضي عنه!

١١٥ ـ ومنهم سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الْحَرَالي الأندلسي[١].

وحرالة: قرية من أعمال مُرْسِية، غير أنه ولد بمراكش، وأخذ بالأندلس عن أبي الحسن بن خروف وغير واحد، ورحل إلى المشرق فأخذ عن أبي عبد اللَّه القرطبي إمام الحرم وغيره، ولقي جملة[٢] من المشايخ شرقًا وغربًا.

وهو إمام وَرِعٌ، صالحٌ، زاهد، كان بقيّة السلف، وقُدْوة الخلف، وقد زهد في الدنيا وتخلَّى عنها، وأقام في تفسير الفاتحة نحوًا من ستة أشهر يُلْقي في التعليل قوانين تتنزّل في علم التفسير نزلة أصول الفقه من الأحكام، حتى مَنَّ اللَّهُ تعالى ببركات مواهب لا تُحْصَى، وعلى أحكام تلك القوانين وضع كتابه «مفتاح اللُّبِّ المُقْفَل، على فَهْمِ القرآن المُنْزَلِ» وهو ممّن جمع العلم والعمل، وصنَّف في كثير من الفنون كالأصول[٣] والمنطق والطبيعيات والإلٰهيات، وكان يُقْرىء «النجاة» لابن سينا فينقضه عُرْوَة عُرْوة، وكان من أعلم الناس بمذهب مالك، ولَمَّا ظنَّ فقهاء عصره أنه لا يُحْسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات قرأ[٤] «التهذيب» وأبدى فيه الغرائب، وبَيَّن مخالفته للمدوّنة في بعض المواضع، ووقع بينه وبين الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام شيء، وطلب عزّ الدين أن يقف على تفسيره، فلمَّا وقف عليه قال: أين قول مجاهد؟ أين قول فلان وفلان؟ وكثر القول في هذا المعنى، ثم قال: يخرج من بلادنا إلى وطنه، يعني الشام، فلمَّا بلغ كلامه الشيخ قال: هو يخرج وأقيم أنا، فكان كذلك. وله عدّة مؤلّفات في الفنون، وقال، رحمه اللَّه تعالى: أقمْتُ ملازمًا لمجاهدة النفس سبعة أعوام، حتى استوى عندي مَنْ يُعطيني دينارًا ومن يَزْدريني. وأصبح ـ رحمه اللَّه

---

(١) ترجمة أبي الحسن الحرالي في عنوان الدراية (ص ٨٥) وشذرات الذهب (ج ٥ ص ١٨٩).

(٢) في طبعة دار صادر: «جلّة».

(٣) في طبعة دار صادر: «كالأصلين».

(٤) في الطبعة نفسها: «أقرأ».

تعالى! ـ ذات يوم ولا شيء لأهله يقيمون به أوَدَوهُمْ، وكانت أم ولده جارية تسمَّى كريمة، وكانت سيِّئة آلخلق، فاشتدَّت عليه في الطلب، وقالت له: إنَّ الأصاغر لا شيء لهم، فقال لها[1]: الآن يأتي من قبل الوكيل ما نتقوَّتُ به، فبينما هم كذلك وإذا بالحمَّال يضرب الباب ومعه قمح، فقال لها: يا كريمة، ما أعْجَلَك! هذا الوكيل بعث بالقمح، فقالت: ومَنْ يصنعه؟ فأمر فتصدّق به، ثم قال لها: يأتيك ما هو أحسن منه، فانتظرت يسيرًا، وبَدَا لها فتكلّمت بما لا يليق، فبينما هم كذلك، وإذا بحمّال سميذ، فقال لها: هذا السميذ أيسر وأسهل من القمح، فلم يقنعْها ذلك، فأمر أيضًا بصَدَقته، فلمَّا تصدّق به زادت في المَقَال، وإذا برجل على رأسه طعام، فقال لها: يا كريمة، قد كُفِيتِ المؤونة، وهذا الوكيل قد لطف[2] بحالك.

ومن كراماته أنَّ بعض طلبته اجتمعوا في نزهة، وأخذوا حليًا من زينة النساء، فزيّنوا به بعض أصحابهم، فلمَّا انقضى ذلك واجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذي كان في يده الحلي يتحدّث ويشير بيده، فقال الشيخ: يد يجعل فيها الحلي لا يشار بها في الميعاد.

ومنها أنه أصاب الناسَ جَدْبٌ ببجَايَةَ، فأرسل إلى داره مَنْ يَسُوق ماء إلى الفقراء، فامتنعت كريمة، ونَهَرَتْ رُسُلَهُ، فسمع كلامها، فقال للرسول: قلْ لها يا كريمة، واللَّه لَأَشْرَبَنَّ من ماء المطر الساعة، فرمَقَ السماء بِطَرْفه، ودعا اللَّه سبحانه وتعالى، ورفع يده به، وشرع المؤذن في الأذان، ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كأفواه القِرَب.

وتوفي، رحمه اللَّه تعالى، بحَمَاة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة، انتهى مُلَخَّصًا من «عنوان الدراية» للغبريني[3].

ووقع للذّهبي في حقّه كلام على عادته في الحطّ على هذه الطائفة، ثم قال: ورأيتُ شيخنا المجد التونسي يتغالى في تفسيره، ورأيت غير واحد معظّمًا له وموقرًا[4] وقوما تكلّموا في عقيدته، وكان نازلاً عند قاضي حَمَاه البارزي؛ وقال لنا شرف الدّين البارزي: تزوّج

---

(١) كلمة «لها» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) في طبعة دار صادر: «قد علم بحالك».

(٣) هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد الغبريني، نسبة إلى غبرى إحدى قبائل البربر في المغرب. ولد ببجاية وتولّى قضاءها ومات بها سنة ٧٠٤ هـ. الأعلام (ج ١ ص ٩٠ ومصادر حاشيته).

(٤) كلمة: «وموقرًا» ساقطة من طبعة دار صادر.

بحَمَاه، وكانت زوجته تشتمه وتؤذيه، وهو يتبسّم، وإنَّ رجلاً راهَنَ جماعةً على أن يُخْرجه، فقالوا: لا تقدر، فأتى وهو يعظ وصاح، وقال له: أنت أبوكَ كان يهوديًّا وأسلم، فنزل من الكرسي، فاعتقد الرجل أنه غضب وأنه تمَّ له ما رامه حتى وصل إليه فخلع مرطيه[1] عليه، وأعطاه إيّاهما، وقال له: بَشَّرَكَ اللَّهُ بالخير! لأنك شهدت لأبي أنه كان مسلمًا، انتهى.

وظاهر كلام الغبريني أنَّ تفسير الشيخ الحرالي كامل، وقال بعضهم: إنه لم يكمل، وهو تفسير حسن، وعليه نَسَجَ البقاعيُّ مناسباته، وذكر أن الذي وقف عليه منه من أول القرآن إلى قوله في سورة آل عمران ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عليها زكريّا الْمِحرَابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا ﴾[2].

وكلام الذهبي في الشيخ يردّه كلام الغبريني، إذ هو أعرف به، واللَّه تعالى أعلم.

وحكى الغبريني أنه أنشد بين يديه الزجل المشهور[3]:

جَنّان يا جنانْ اِجْن من البستانْ الياسمينْ
واتْرُكِ[4] الريحانْ بحُرْمة الرَّحمنْ للعاشقينْ

فسأل بعضٌ عن معناه، فقال بعض الحاضرين: أراد به العذار، وقال آخر: إنّما أشار إلى دَوَام العهد؛ لأن الأزهار كلَّها ينقضي زمانها إلاَّ الريحان فإنه دائم، فاستحسن الشيخ هذا أو وافق عليه.

١١٦ ـ ومنهم وليُّ اللَّه العارف به الشيخ الشهيرُ الكرامات، الكبيرُ المقامات، سيدي أبو العبّاس المُرْسِي[5]، نَفَعَنا اللَّه تعالى به!.

---

(١) في طبعة ليدن: «قِرْطية». والمِرْطُ، بكسر الميم، كساء من صوف أو خزّ كان يُؤْتَزر به، والجمع مُرُوطٌ. مختار الصحاح (مرط).

(٢) سورة آل عمران ٣، الآية ٣٧.

(٣) الأولى أن يقال: «الموشح المشهور» بدل «الزجل المشهور»؛ لأن ما جاء هنا هو خرجة إحدى موشحات محيي الدين ابن عربي، وقد تقدّمت (ص ٣٩٥) من هذا الجزء.

(٤) في ديوان ابن عربي (ص ٨٦): «وخَلِّلِ الريحانْ».

(٥) أبو العباس المرسي هو أحمد بن عمر بن محمد المرسي، وترجمته في الوافي بالوفيات (ج ٧ ص ٢٦٤).

وهو من أكابر الأولياء، صحب سيّدي الشيخ الفَرْدَ القطب الغوث الجامع سيّدي أبا الحسن الشاذلي، أعاد اللّٰه تعالى علينا من بركاته! وخلفه بعده، وكان قدم من الأندلس من مُرْسِية، وقبره بالإسكندرية مشهورٌ بإجابة الدعوات، وقد زرْتُه مرارًا كثيرة، ودعوتُ اللّٰه عنده بما أرجو قبوله.

وقد عرَّف به الشيخ العارفُ باللّٰه ابنُ عَطَاء اللّٰه[1] في كتابه «لطائف المنن في مناقب الشيخ سيّدي أبي العبّاس وشيخه سيّدي أبي الحسن، رضي اللّٰه تعالى عنهما».

وقال الصفدي في الوافي: أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العبّاس، الأنصاري الْمُرْسِي، وارثُ شيخه الشاذلي تصوّفًا، الأشعريّ معتقدًا، توفي بالإسكندرية سنة ٦٨٦، ولأهل مصر ولأهل الثغر فيه عقيدة كبيرة، وقد زرْتُه لَمَّا كنت بالإسكندرية سنة ٧٣٨، قال ابن عَرَّام سبط الشاذلي: ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة، كان من الشهود بالثغر، انتهى.

وكان سيدي أبو العبّاس يكرّم الناس على نحو رتبهم عند اللّٰه تعالى، حتى إنه ربّما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به، وربّما دخل عليه عاصٍ فأكرمه؛ لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثِّر بعمله[2]، ناظر لفعله، وذلك العاصي دخل بكسر معصيته وذل[3] مخالفته، وكان شديدَ الكراهة للوَسْوَاس في الصلاة والطهارة، ويثقل عليه شهود مَنْ كان على صفته، وذُكر عنده يومًا شخصٌ بأنه صاحب علم وصلاح، إلَّا أنه كثير الوسوسة، فقال: وأين العلم؟ العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود.

وله كلام بديع في تفسير القرآن العزيز: فمن ذلك أنه قال: قال اللّٰه سبحانه وتعالى: ﴿ الحمد للّٰه ربّ العالمين ﴾[4] علم اللّٰه عجزَ خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه في أزله، فلمَّا خلقَ الخلقَ اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: ﴿ الحمدُ للّٰه ربّ العالمين ﴾ أي: الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له، لا ينبغي أن يكون لغيره، فعلى

---

(١) هو تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء اللّٰه الإسكندري؛ متصوف، من أشدّ خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ. الأعلام (ج ١ ص ٢٢١ ومصادر حاشيته).

(٢) في طبعة دار صادر: «لعمله».

(٣) في طبعة دار صادر: «وذلة».

(٤) سورة الفاتحة، الآية ٢.

هذا تكون الألف واللام للعهد. وقال في قوله تعالى: ﴿ إيَّاك نَعْبُدُ وإيَّاك نستعينُ ﴾[1]: إيّاك نعبدُ شريعة، وإيّاك نستعين حقيقة، إيّاك نعبدُ إسلام، وإيّاك نستعين إحسان، إيّاك نعبدُ عبادة، وإيّاك نستعين عبوديّة، وإيّاك نعبدُ فرق، وإيّاك نستعين جمع. وله في هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدلُّ على عظيم ما منحه اللّه سبحانه من العلوم اللدنية. وقال، رضي اللّه تعالى عنه، في قوله تعالى: ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المستقيمَ ﴾[2] بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل[3]، وهذا الجواب ذكره ابن عطيّة في تفسيره، وبسطه الشيخ رضي اللّه تعالى عنه، فقال: عمومُ المؤمنين يقولون: ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المستقيمَ ﴾ مَعْناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد، وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون يقولون: ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المستقيمَ ﴾ معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل؛ لأنهم حصل لهم الصلاح، وفاتهم درجاتُ الشهداء، والشهداء[4] يقولون: ﴿ اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ ﴾ أي بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم[5] حصلت لهم درجة الشهادة، وفاتهم[6] درجة الصديقية، والصديق كذلك يقول: ﴿ اهْدِنا الصراطَ المستقيمَ ﴾ إذا حصلت له درجة الصديقية، وفاتَتْهُ درجة القطبانية[7]، والقطب كذلك يقول: ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المستقيم ﴾ فإنه حصلت له رتبة القطبانية، وفاته علم إذا شاء اللّه تعالى أن يطلعه عليه أطلعه. وقال، رضي اللّه تعالى عنه: الفتوّة الإيمان، قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ إنَّهمْ فِتْيَةٌ آمنوا بِرَبِّهِمْ وزِدْناهُمْ هُدًى ﴾[8]. وقال، رضي اللّه تعالى عنه، في قوله سبحانه وتعالى حاكيًا عن الشيطان: ﴿ ثمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَين أيديهمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية[9] ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لأنَّ فوقهم التوحيد وتحتهم الإسلام.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآية ٦.

(٣) في طبعة ليدن: «بحامل».

(٤) في طبعة دار صادر: «والشهيد».

(٥) في طبعة دار صادر: «فإنه».

(٦) في الطبعة نفسها: «وفاته».

(٧) في الطبعة نفسها: «القطب».

(٨) سورة الكهف ١٨، الآية ١٣.

(٩) سورة الأعراف ٧، الآية ١٧.

وقال، رضي اللّه تعالى عنـه: التقوى في كتـاب اللّه، عزّ وجـلّ، على أقسام: تقـوى النار، قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ واتَّقُوا النَّارَ ﴾(١) وتقوى اليـوم، قال اللّه تعـالى: ﴿ واتَّقُوا يَـومًا تُـرْجَعُونَ فيـه إلى اللّهِ ﴾(٢) وتقوى الـربوبيـة، قال الله تعـالى ﴿ يـا أيهـا النـاسُ اتّقُـوا رَبَّكُمْ ﴾(٣) وتقـوى الألوهيـة (واتقوا الله)(٤) وتقـوى الإنّيـة ﴿ واتَّقُـونِ يـا أُوْلي الألْبـابِ ﴾(٥) وقال، رضي اللّه تعالى عنه، في قول رسول اللّه، ﷺ: «أنا سيِّدُ ولد آدم ولا فخـر» أي: لا أفتخر بالسيادة، وإنّما الفخر لي بالعبودية للّه، وكان كثيرًا ما ينشد: [السريع]

يـا عـمـرو، نـادِ عَبْـدَ زهـراءِ يَـعْـرِفُـهُ الـسـامـعُ والـرائـي
لا تَـدْعُـنِـي إلاَّ بـيـا عَـبْـدَهـا فـإنـه أشـرفُ أسـمـائـي

وقال، رضي اللّه تعالى عنه، في قول سَمْنُون المحبّ: [مخلع البسيط]

ولـيس لـي فـي سـواكَ حَظٌّ فـكيـفـمـا شِئْتَ فـاخْتَـبِـرْني

الأولى أن يقـول: فكيفما شِئْتَ فـاعْفُ عنّي، إذ طلبُ العفو أَوْلى مِنْ طَلَبِ الاختبـار. وقال رضي اللّه تعالى عنه: الزّاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جـاء من الآخرة إلى الدنيا. وقال رضي اللّه تعالى(٦): العارف لا دُنْيا له؛ لأنَّ دنياه لآخرته، وآخرتُهُ لربِّه. وقال: الـزّاهـد غـريب في الـدنيـا؛ لأنَّ الآخـرة وَطَنُـهُ، والعـارف غـريبٌ في الآخـرة. قـال بعض العـارفين: معنى الغربـة في كلام الشيـخ، رضي اللّه تعالى عنـه، أنَّ الزاهـد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومُعَشَّش روحه، فيكون غريبًا في الدنيا، إذ ليست وطنًا لقلبـه(٧)، عاين الآخـرة فأخـذ قلبه فيمـا عاين من ثـوابها ونـوالها، وفيمـا شهد من عقـوبتها ونكالها، فتغرّب في هذه الدّار. وأمّا العارف فإنه غريب في الآخـرة إذ كشف له عن صفـات معروفة فأخذ قلبه فيما هنـاك، فصار غـريبًا في الآخـرة؛ لأنَّ سرّه مـع اللّه تعالى، بـلا أين،

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ١٣١.
(٢) سورة البقرة ٢، الآية ٢٨١.
(٣) سورة الحج ٢٢، الآية ١.
(٤) سورة المائدة ٥، الآيات ٤، ٧، ٨، ١١.
(٥) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٧.
(٦) في طبعة دار صادر: «تعالى عنه».
(٧) في طبعة ليدن: «إذ ليست بوطن لقلبه».

فهؤلاء العباد تصير الحضرة مُعَشَّشَ قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق، أو أرض الخصوص، فبالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الخصوص لشهوة ولم يصعدوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كلّه بآداب اللّه تعالى وآداب رسله وأنبيائه متأدّبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين، رضي اللّه تعالى عنهم، ونَفَعَنا بهم آمين!.

وكلام سيّدي الشيخ أبي العبّاس، رضي اللّه تعالى عنه، بَحْرٌ لا ساحل له، وكراماته كذلك، وليُرَاجع كتاب تلميذه ابن عطاء اللّه، فإنَّ فيه من ذلك ما يشفي ويكفي، وما بقي أكثر.

ومن كراماته، رضي اللّه تعالى عنه، أنه عزم عليه إنسان وقدَّم إليه طعامًا يختبره به، فأعرض عنه ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال له: إنّ الحارث المحاسبي(١)، رضي اللّه تعالى عنه، كان في إصبعه عرق إذا مَدَّ يَدَهُ إلى طعام فيه شبهة تحرّك عليه، وأنا في يدي سبعون عرقًا تتحرّك عليَّ إذا كان مثل ذلك، فاسْتَغْفَرَ صاحبُ الطعام، واعْتَذَرَ إلى الشيخ، رضي اللّه تعالى عنه ونَفَعَنا به!

١١٧ ـ ومنهم أبو إسحٰق الساحلي، المعروف بالطُّوَيجِن(٢) ـ بضمِّ الطاء المهملة، وفتح الواو، وسكون الياء التحتيّة، وكسر الجيم، وقيل بفتحها ـ العالم المشهور، والصالح المشكور، والشاعر المذكور، من أهل غَرْنَاطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطّارين بغرْناطة، وكان مع أمانته من أهل العلم فقيهًا مُتْقِنًا(٣) مُتَفَنِّنًا، وله الباع المديد في الفرائض.

---

(١) هو أبو عبد اللّه الحارث بن أسد المحاسبي، من كبار المتصوفة، وله التصانيف في الزهد والردّ على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، وتوفي ببغداد سنة ٢٤٣ هـ. تاريخ بغداد (ج ٨ ص ٢١١) ووفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٧).

(٢) هو أبو إسحٰق إبراهيم ابن الفقيه محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي، وبالطويجن؛ فقيه وشاعر، وهو من بيت فقه وأمانة وخطابة. توفي بمالي من أرض جناوة في عام ٧٤٤ هـ. نثير فرائد الجمان (ص ٣٠٨) والإحاطة (ج ١ ص ٣٢٩) والكتيبة الكامنة (ص ٢٣٥). وسيترجم له المقري في الجزء الثالث رقم ٢٩٤.

(١) كلمة «متقنًا» ساقطة من طبعة دار صادر.

وأبو إسحنق هذا كان في صغره مُوَثِّقًا[1] بسماط شهود غرناطة، وارتحل عن الأندلس إلى المشرق، فحجَّ، ثم سار إلى بلاد السودان فاسْتَوطَنَها، ونال جاهًا مَكِينًا من سلطانها، وبها توفّي، رحمه اللّه تعالى! انتهى مُلَخَّصًا من كلام الأمير ابن الأحمر في كتابه «نثير الْجُمَان، فيمن نظمني وإيّاه الزمان».

وقال أبو المكارم منديل بن آجُرُّوم[2]: حدَّثني مَنْ يوثق بقوله أن أبا إسحنق الطوَيجِن كانت وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأخيرة سنة ٧٤٧[3] بِتَنْبُكْتُو موضع بالصحراء من عمالة مالي، رحمه اللّه تعالى! ثم ضبط الطُّويجن بكسر الجيم، قال: وبذلك ضبطه بخطِّ يده، رحمه اللّه تعالى، قال: ومن نسبه للسّاحلي فإنه نسبه لجدّه للأمِّ، انتهى.

١١٨ ـ ومنهم الشيخ الأديب الفاضل المعمّر ضياء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن عفيف، الخزرجي، السّاعدي[4].

من أهل غَرْنَاطة، ويشهر بالخزرجي، مولده ببِغيَةَ، رحل عن الأندلس قديمًا واستقرَّ أخيرًا بالإسكندرية، وبها لقيه الحافظ ابنُ رُشَيد غير مرّة، وقد أطال في رحلته في ترجمته، إلى أن قال: وذكره صاحبنا أبو حيان، وهو أحد من أخذ عنه ولقيه، فقال: تلا القرآن بالأندلس على أبي الوليد هشام بن واقف المقرىء، وسمع بها من أبي زيد الفازازي العشرينيّات، وسمع بمكّة من شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِي صاحب «عوارف المعارف» وتلا بالإسكندرية على أبي القاسم بن عيسى، ولا يُعْرف له نظمٌ في أحد مِنَ العالم إلاَّ في مدح رسول لله، ﷺ.

ومن شعره يعارض الحريري: [المربعات]

أهْنِ لأهلِ[5] البِدَعِ والهَجْرِ والتَّصَنُّعِ وَدِنْ بِتَرْكِ الطَّمَعِ
ولُذْ بأهلِ الوَرَعِ

---

(١) المُوَثِّقُ: من يكتب التوثيقات الشرعية. لسان العرب (وثق).

(٢) هو أبو المكارم منديل ابن الإمام، الشهير صاحب المقدمة الأجرومية، وسيذكره المقري وقصيدته الحائية في الجزء التاسع من نفح الطيب.

(٣) في نثير فرائد الجمان (ص ٣٠٨) أنه توفي سنة ٧٤٤ هـ.

(٤) ترجمة ابن عفيف الخزرجي في رحلة ابن رشيد (القسم الثالث من مخطوطة الإسكوريال، الورقة ٨).

(٥) في رحلة ابن رشيد: «هوِّنْ بأهل».

وعَدٍّ عَنْ كلِّ بَذِي لم يكترثْ بالنَّبَذِ والْهَجْ بِبِرٍّ جَهْبَذِ
وعالِمٍ مُتَّضِعِ
وانْدِبْ زمانًا قد سَلَفْ ولم تَجِدْ منه خَلَفْ وآبْعَثْ بأنواعِ الأسَفْ
رسائِلَ التَّضَرُّعِ

وهي طويلة[1]، فلتراجع ترجمته في «ملء العيبة» لابن رشيد، رحمه اللّٰه تعالى!.

۱۱۹ ـ ومنهم الفقيه الجليل، العارف النبيل، الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحقّ بن إبراهيم بن محمد بن نصر، الشهير بابن سبعين، العكي، المرسي، الأندلسي، ويلقَّب من الألقاب المشرقية بقطب الدّين[2].

قال الشيخ المؤرّخ ابن عبد الملك[3]: درس العربية والآداب بالأندلس، ثم انتقل إلى سبتة، وانتحل التصوّف، وعكف برهة على مطالعة كتبه، والتكلّم على معانيها، فمالت إليه العامّة، ثم رحل إلى المشرق، وحجّ حججًا، وشاع ذكره، وعظم صيته، وكثر أشياعه، وصنَّف أوضاعًا كثيرة تلقّوها منه، ونقلوها عنه، ويُرْمَى بأمورٍ، اللّٰهُ تعالى أعلمُ بها وبحقيقتها، وكان حسن الأخلاق، صبورًا على الأذى، آية في الإيثار، انتهى.

وقال غير واحد[4]: إنَّ أغراض الناس فيه متباينة، بعيدة عن الاعتدال، فمنهم المرهق المُكَفِّر، ومنهم المقلّد المعظّم الموقّر، وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد، والنفرة والانتقاد، ما لم يقع لغيره، واللّٰه تعالى أعلم بحقيقة أمره. ولمَّا ذكر الشريف الغَرْنَاطي عنه أنه كان يكتب عن نفسه «ابن ٥» يعني الدّارة التي هي كالصفر، وهي في بعض طرق المغاربة في حسابهم سبعون، وشهر لذلك بابن دارة، ضَمَّنَ فيه البيت المشهور: [الطويل]

مَحَا السَّيفُ ما قال ابنُ دارَةَ أَجْمَعَا[5]

---

(۱) يقول ابن رشيد إنَّ عدد أبياتها ٤١ بيتًا.

(۲) ترجمة ابن سبعين في فوات الوفيات (ج ۲ ص ۲٥۳) والبداية والنهاية (ج ۱۳ ص ۲٦۱) والإحاطة (ج ۱ ص ۳۱) ومقدمة كتاب «رسائل ابن سبعين» بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي.

(۳) نص ابن عبد الملك في الإحاطة (ج ۱ ص ۳۱ ـ ۳۲) وفيه بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) النص في الإحاطة (ص ۳۳) وفيه أيضًا بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٥) هذا عجز بيت للكميت بن معروف الفقعسي، قاله في الشاعر سالم بن دارة، وصدره هو:

فلا تُكْثِرا فيه الضِّجاجَ فإنَّه

الشعر والشعراء (ص ۳۱٦).

حسبما ذكره الشريف في شرح مقصورة حازم، وقد طال عهدي به فليـــراجعه مـــن ظفـــر بـــه.

وقال صاحب «درّة الأسلاك» في سنة ٦٦٩، ما صورته: وفيها توفي الشيخ قطب الدّين أبـو محمد عبـد الحقّ بن سبعين الْمُرْسِي، صـوفي متفلسف، متـزهّـد متقشّف، يتكلّم على طريق أصحابه، ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه، شاع أمره، واشتهـر ذكره، ولـه تصانيف وأتباع، وأقوال يميل إليها بعض القلوب وتملّها بعض الأسماع، وكانت وفاتـه بمكّة المشـرّفة عن نحو خمسين سنة، تغمّده اللّه تعالى برحمته! انتهى.

وقال بعض الأعلام في حقّ ابن سبعين: إنّـه كان، رحمـه اللّه تعالى، عـزيز النّفس، قليـل التصنّع، يتـولّى خدمـة الكثير من الفقـراء والسِّفارة أصحـاب العباءات[1] والـدفـافيس بنفسه، ويحفون به في السكك، ولمّا توفّرت دواعي النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل، ووجّهت لألفاظه المعاريض، وفُلِيَتْ موضوعاته، وتعاورتْه الوحشـة، وجَرَتْ بينـه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوب يطول ذكرها.

ووقـــع في رسـالــة لبعض تـلامـــذة ابن سبعين المـذكـــور، وأظنُّ اسمـــه يحيـىٰ بن محمد[2] بن أحمد بن سليمان، وسمّاها بـ«الوراثة المحمديّة، والفصول الذاتيّة» ما صورته: فإنْ قيل: ما الدليل على أن هذا الرجل الذي هو ابن سبعين هو الوارث المشـار إليه؟ قلْنـا: عدم النظير، واحتياج الوقت إليه، وظهور الكلمة المشار إليها عليـه، ونصيحته لأهـل الملّة، ورحمته المطلقة للعالم المطلق، ومحبّته لأعدائه، وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه، وعَفْوه عنهم مع قدرته عليهم، وجذبهم إلى الخير مع كونهم يطلبون هـلاكه، وهـذه كلُّها من عـلامـات الـوراثـة والتبعيّـة المحضـة التي لا يمكن أحـدًا أن يتّصف بهـا إلّا بمجـد أزليّ وتخصيص إلّهِي، وها أنا أصف لـك بعض ما خصّـه اللّه سبحانـه وتعالى بـه من الأمور التي هي خـارقة للعـادة، ونلغي عن الأمور الخفيّـة التي لا نعلمها، ونقصـد الأمور الـظاهرة التي نعلمهـا، والتي لا يمكن أحـدًا أن يسـتريب[3] فيهـا إلّا مَنْ أصمّـه اللّه تعـالى وأعْمـاه، ولا

---

(١) في طبعـة عبد الحميـد: «العبادات». الـدفافيس: جمـع دفاس وهـو ضرب من الثيـاب. راجع الـطالع السعيد (ص ٤٤).

(٢) في طبعة دار صادر: «يحيى بن أحمد بن سليمان».

(٣) في طبعة ليدن: «يتريّب». ويستريب: يرى ما يريبه، ويقع في الشك لسان العرب (ريب).

يجحدها إلّا حسود قد أتعب اللَّه تعالى قلبه وأنساه رشده، ونعوذ باللَّه مِمَّنْ عاندَ مَنِ اللَّهُ تعالى مُسَاعِدُه ومؤيِّدُه، وهو معه بنصره وعونه. فما أتعب معانده، وما أسعد موادده، وما أكتب مراده، فنبدأ بذكر ما وعدنا، فنقول:

الأوّل(١): في شرفه واستحقاقه لما ذكرنا، كونه خلقه اللَّه تعالى من أشرف البيوت التي في بلاد المغرب، وهم بنو سبعين، قرشيًا، هاشميًا، علويًا، وأبواه وجدوده يشار إليهم، ويُعَوَّلُ في الرياسة والحسب والتعين عليهم.

والثاني: كونه من بلاد المغرب، والنبيّ عليه السلام قال: «لا يزال(٢) أهل المغرب ظاهرين على الحق(٣) إلى قيام الساعة» وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه، فهو المشار إليه بالحديث، ثم نقول: أهل المغرب أهل الحقّ، وأحقّ الناس بالحقّ وأحقّ المغرب بالحقّ علماؤه لكونهم القائمين بالقسط، وأحقّ علمائه بالحقّ محقّقهم وقطبهم الذي يدور الكلُّ عليه ويعوّل في مسائلهم ونوازلهم السهلة والعويصة عليه، فهو حَقُّ المغرب، والمغربُ حقّ اللَّه تعالى، والملّة حَقُّ العالم، فهو المشار إليه بالوراثة، ثم نقول: أهل المغرب ظاهرون على الحقّ، أي على الدّين، والحقّ سِرُّ الدِّين، والمحقّق سِرُّ الحقّ، فالمحقّق سِرُّ الدِّين، فهو المشار إليه بالوراثة. ثم نقول: أهل اللَّه خير العالم، وأهل الحق هم خير أهل اللَّه، والمحقّق خير أهل الحقّ، فالمحقّق خير العالم، فهو المشار إليه. ثم نقول: انظر في بدايته وحفظ اللَّه سبحانه(٤) له في صغره، وضبطه له من اللهو واللّعب، وإخراجه من اللّذّة الطبيعية التي هي في جِبِلّة البشرية، وتركه للرياسة العرضيّة المعوّل عليها عند العالم، مع كونه وجدها في آبائه، هي الآن في إخوته، وخروجه عن الأهل والوطن الذي قَرَنه الحقّ مع قتل الإنسان نفسه، وانقطاعه إلى الحقّ انقطاعًا صحيحًا تعلم تخصيصه وخرقه للعادة، ثم انظرْ في تأيده وفتْحه من الصغر، وتأليف كتاب «بدُّ(٥) العارف» وهو ابن خمس عشرة سنة، وفي جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوي على جميع الصّنائع العلمية

---

(١) في طبعة دار صادر: «أول ما ذكر في شرفه...».

(٢) في طبعة عبد الحميد: «لا يزال طائفة من...».

(٣) «على الحق» ساقط من طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة دار صادر: «وحفظ القديم له في صغره».

(٥) في طبعة عبد الحميد: «بدء العارف». وبدّ العارف حقّقه الدكتور جورج كتورة، دار الأندلس، دار الكندي، بيروت، ١٩٧٨.

والعملية، وجميع الأمور السُّنّية والسَّنيّة، تجده خارقًا للعادة، وفي نشأته في بلاد الأندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التي لم تسمع قطّ تعلم أنه خارق للعادة، وفي تواليفه واشتمالها على العلوم كلِّها، ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيّتها بالتحقيق الشاذّ عن أفهام الخلق تعلم أنه[1] مؤيَّدٌ بروح القدس، وفي شجاعته وقوّة عزمه ونصره[2] لصنائعه وظهور حجّته على خصمائه وإقامة حقّه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوّة إلّهيّة وعناية ربانيّة، وفي امتحان أهل المغرب له، واجتماعهم عليه في كلِّ بلدٍ مُعْتبرٍ للمناظرة، ويظهر اللّه تعالى حجتّه، ويقمع خصمه، ويَكْبت[3] عدوّه، ويعجز مُعَارضه، ويُفْحم معترضه، وفي غيره الحقّ عليه، وهلاك من تعرض بالأذى إليه ـ يعلم العاقل المخصوص، أنه عند اللّه مخصوص، وفي خلقه وقهره لقواه النزوعية والغضبية وإسلام قرينه وجلالة قوّته الحافظة التي لا تنسى شيئًا والمفكّرة التي تتصوّر الذوات المجرّدة والمعلومة سِرًّ[4] عين الطيف، وكذلك الذاكرة وسرعة ظهوره وانتشار رايته واستجلاب ثنائه في الجهات كلِّها، وبالجملة جميع ما ذكرت فيه هو خارق للعادة البشرية، ومعجز لمعارضه من كل الجهات، ولولا خوف التطويل لكنت أفصِّل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعي، ونقيم الأدلّة القطعيّة على تعجيزها، ولكن أعطيت الأنموذج، وعرفت أنَّ النبيه يمعن فكره، ويجد ذلك كله[5] كما قلته، وبالجملة جميع جزئياته إذا تؤملت توجد خارقة للعادة، وتشهد لها ماهيّة الوجود بالتخصيص، فصحّ أنه هو المشار إليه، والمعوّل في جملة الأمور عليه، وإنما أعطيت الأمر المشهور، وتركت ما يُعْلَمُ منه من خرق العوائد في ظهور الطعام والشّراب والسّمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون، وإخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت كما أخبر، فصحّ أنه هو المذكور، انتهى ما تعلّق به الغرض مِمَّا في الرسالة في شأن الشيخ ابن سبعين.

وقد ذكر غير واحد من المؤرّخين ـ ومنهم لسان الدّين بن الخطيب في «الإحاطة» كما سيأتي قريبًا ـ أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها، فعظم عليه بذلك الحمل، وقبحت الأحدوثة عنه، انتهى.

(١) في طبعة دار صادر: «بأنه».

(٢) في طبعة دار صادر: «وقوة توكّله في عزمه ونصره...».

(٣) كَبَتَ عدوَّه: أذلَّه وأهلكه. لسان العرب (كبت).

(٤) في طبعة دار صادر: «أسر عين...».

(٥) كلمة «كله» ساقطة من طبعة دار صادر.

لكن قال شهاب الدّين بن أبي حَجَلة التلمساني الأديب الشهير، وهو صاحب كتاب «السكردان» و «ديوان الصبابة» و «منطق الطير» و «الاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض»، ما معناه: أخبرني الشيخ الصالح أبو الحسن بن بُرْغوش التلمساني شيخ المجاورين بمكّة وكانت له معرفة تامّة بهذا الرجل، أنه صَدَّه عن زيارة رسول الله، ﷺ، أنه كان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام يُهْرَق[1] منه دم كدم الحيض، والله تعالى أعلم بحقيقة أمره، انتهى.

وقال غيره: نعم زار النبيّ، ﷺ، مستخفيًا على طريق المشاة، حدّث بذلك أصهاره بمكّة، انتهى.

وقال لسان الدّين[2]: أما شهرته ومحلّه من الإدراك والآراء والأوضاع والأسماء والوقوف على الأقوال والتعمّق في الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلّمين فما يقضى منه بالعجب.

وقال الشيخ أبو البركات بن الحاج البَلْفِيقي رحمه الله تعالى[3]: حدّثني بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الأمير أبا عبد الله بن هُودٍ، سَالَمَ طاغيةَ النّصارى، فنكث به[4]، ولم يَفِ بشرطه، فاضطرّه ذلك إلى مخاطبة القس[5] الأعظم برومية، فوكّل أبا طالب بن سبعين، أخا أبي محمد عبد الحقّ بن سبعين في التكلّم عنه، والاستظهار بين يديه، قال: فلمّا[6] بلغ ذلك الشخص رومية، وهو بلد لا يصل إليه المسلمون، ونظر إلى ما بيده، وسُئل عن نفسه، فأخبر بما ينبغي، كَلَّم ذلك القسّ مَنْ دنا منه بكلام معجم تُرْجم لأبي طالب بما معناه: اعلموا أنَّ أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه، انتهى.

وقال غير واحد: إنه[7] اشتهرت عنه أشياء كثيرة، اللَّهُ تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ما ادّعاه منها: فمنها قوله ـ فيما زعموا ـ وقد جرى ذكر الشيخ وليّ الله، سيّدي أبي مَدْين نفعنا

(١) في طبعة عبد الحميد: «يُهراقُ».
(٢) الإحاطة (ج ١ ص ٣٤).
(٣) المصدر نفسه (ص ٣٤ ـ ٣٥)،
(٤) في الإحاطة: «فنكث عهده».
(٥) في المصدر نفسه: «القومس الأعظم برومه...».
(٦) في المصدر نفسه: «فلما بلغ باب ذلك الشخص المذكور برومه...».
(٧) في طبعة عبد الحميد: «إنه ظهر منه واشتهرت عنه...».

اللَّه تعالى ببركاته: «شُعَيبُ عبدُ عَمَلٍ، ونحن عبيد حضرة» ومِمَّنْ حكى هذا لسانُ الدِّين في الإحاطة[1].

وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه الكبير[2] في ترجمة السّلطان المستنصر باللَّه تعالى أبي عبد اللَّه محمد ابن السّلطان زكريّا بن عبد الواحد بن أبي حَفْص ملك إفريقية وما إليها: أنَّ أهل مكّة بايعوه، وخطبوا له بِعَرَفَةَ، وأرسلوا له بيعتهم، وهي من إنشاء ابن سبعين، وسردها ابن خلدون بجملتها، وهي طويلة[3]، وفيها من البلاغة والتّلاعب بأطراف الكلام ما لا مطمح وراءه، غير أنه يشير فيها إلى أن المستنصر هو المهديّ المُبَشَّرُ به في الأحاديث، الذي يَحْثُو المال ولا يَعُدّه، وحمل حديث مسلم وغيره عليه، وذلك ما لا يخفى ما فيه، فليراجَع كلام ابن خلدون في محلّه.

ولابن سبعين من رسالة[4]: سلام عليك ورحمة اللَّه، سلام عليك ثم سلام مناجاتك، سلام اللَّه ورحمة اللَّه الممتدّة على عوالمك كلِّها، السلام عليك يا أيّها النبيّ ورحمة اللَّه تعالى وبركاته، وصلّى اللَّه عليك كصلاة إبراهيم من حيث شريعتك، وكصلاة أعزّ ملائكتك من حيث حقيقتك، وكصلاته من حيث حقّه ورحمانيته، السلام عليك يا حبيب اللَّه، السلام عليك يا قياس الكمال، ومقدّمة العلم، ونتيجة الحمد، وبرهان المحمود، ومن إذا نظر الذهن إليه قرأ ﴿ نِعْمَ العَبْدُ ﴾[5]، السلام عليك يا من هو الشرط في كمال الأولياء، وأسرار مشروطات الأذكياء الأتقياء، السّلام عليك يا من جاوز في السمٰوات مقام الرّسل والأنبياء، وزادك رفعة واستعلاء على ذوات الملأ الأعلى، وذكر قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلى ﴾[6].

وقال بعضهم عند إيراده جملة من رسائله التي منها هذه: إنها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوّة وإيثار الورع، انتهى.

---

(١) الإحاطة (ج ١ ص ٣٥).
(٢) تاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٦٢٦ وما بعدها).
(٣) الرسالة في المصدر نفسه (ص ٦٣٥ وما بعدها).
(٤) بعض هذه الرسالة في الإحاطة (ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٦).
(٥) سورة ص ٣٨، الآية ٣٠.
(٦) سورة الأعلى ٨٧، الآية ١.

وقال بعض العلماء الأكابر، عند تعرّضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به، ما نَصُّهُ ببعض اختصار: هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم، وتعدّد المعارف، وكثرة التصانيف، ولد سنة ٦١٤، ودرس العربية والأدب بالأندلس، ونظر في العلوم العقلية، وأخذ عن أبي إسحق بن دهاق، وبرع في طريقه، وجال في البلاد، وقدم القاهرة، ثم حجَّ واستوطن مكّة، وطار صِيتُه، وعَظُمَ أَمْرُه، وكثر أتباعه، حتى إنه تَلْمَذَ له أمير مكة، فبلغ من التعظيم الغاية، وله كتاب «الدرج» وكتاب «السفر» وكتاب «الأبوبة اليمنية» وكتاب «الكدّ» وكتاب «الإحاطة»(١) ورسائل كثيرة في الأذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والغنائم.

ومن شعره(٢): [البسيط]

كم ذا تُمَوِّهُ بالشِّعْبَينِ والعَلَمِ والأَمْرُ أَوْضَحُ مِنْ نارٍ على علم(٣)
وكم تُعَبِّرُ عن سَلْعٍ وكاظمةٍ وعن زَرُودٍ وجِيرانٍ بذي سَلَمِ
ظَلَلْتَ تسألُ عن نَجْدٍ وأنت بها وعن تِهامةَ، هذا فعلُ متّهمِ
في الحَيِّ حيٌّ سوى ليلى فتسأله(٤) عنها؟ سؤالُكَ وَهْمٌ جَرَّ للعَدَمِ

ونشأ، رحمه الله تعالى، تَرِفًا مُبَجَّلاً في ظلِّ جاه ونعمة، لم تفارق معها نفسه البأو(٥)، وكان وسيمًا، جميلاً، ملوكيّ البزة، عزيز النّفس، قليل التصنّع، وكان آية من الآيات في الإيثار والجود بما في يده، رحمه الله تعالى!

وقال في الإحاطة(٦): للنّاس في أمره اختلاف بين الولاية وضدّها(٧)، ولَمَّا وَجَّه إلى كلام سهام الناقدين قَصُرَ أكثرهم عن مَدَاه في الإدراك، والخوض في تلك البحار والاطّلاع،

---

(١) كتاب «الإحاطة» هو غير كتاب الإحاطة لابن الخطيب، وقد ورد كاملاً في رسائل ابن سبعين (ص ١٣٠ - ١٥٠).

(٢) الأبيات في الإحاطة (ج ١ ص ٣٧).

(٣) العَلَم؛ بالفتح: الجبل. مختار الصحاح (علم).

(٤) رواية صدر البيت في الإحاطة (ج ١ ص ٣٧) هي:

في الحيِّ حتى ولا سوى ليلى وتسألها

(٥) البأو: العظمة، والكِبْرُ والفخر. لسان العرب (بأي).

(٦) النص في الإحاطة (ج ١ ص ٣٣ - ٣٤) وفيه بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٧) في الإحاطة: «وأغراض الناس في هذا الرجل متباينة، بعيدة عن الاعتدال...».

وسـاءت منهم في الممازجـة له السيـرة، فانصـرفوا عنـه مكلومين[١]، يبذرون عنـه في الآفاق من سوء القالة ما لا شيء فوقه، وجـرت بينه وبين أعـلام المشرق خـطوب، [ثم نزل مكّـة][٢]، وعاقه الخوف من أمير المدينة[٣] عن الدخول إليها إلى أن توفي فعظم بذلك الحَمْلُ عليـه، وقَبُحَتِ الأحدوثةُ عنه. ولَمَّا وردت على سبتة المسائل الصقلية ـ وكـانت جملة من المسائـل الحكمية وَجَّهها علماء الروم تبكيتًـا للمسلمين ـ انتدب للجـواب المقنع عنهـا، على فَتَاء مِنْ سنِّه[٤]، وبديهة من فكرته، رحمه اللّه تعالى! انتهى.

وقال بعض من عرف به: إنه من أهل مُرْسِية، وله علم وحكمة ومعرفة ونباهـة وبراعـة وفصاحة وبلاغة.

وقـال في «عنوان الـدراية»[٥]: رحـل إلى العدوة، وسكن ببجـايـة مـدّة، ولقي[٦] مِنْ أصحابنا نـاسًا، وأخـذوا عنه، وانتفعـوا به في فنـون خاصّـة، له مشـاركة في معقـول العلوم ومنقولها، وله فصاحة لسان، وطلاقة قلم، وفهم جَنَان[٧]، وهو أحد العلماء[٨] الفضلاء، وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامّة الناس، وله موضوعات كثيرة هي موجـودة بأيـدي أصحابـه، وله فيها ألغاز وإشارات بحروف أبجد، وله تسميات مخصوصة في كتبه هي نوع من الرموز، ولـه تسميات ظـاهرة هي كـالأسـامي المعهـودة، ولـه شعـر في التحقيق، وفي مَـرَاقي أهـل الـطريق، وكتابتـه مستحسنة في طـريق الأدباء، ولـه من الفضل والمـزية مـلازمتـه لبيت اللّه الحرام، والتزامُه الاعتمارَ على الدوام، وحَجُّهُ مع الحجّاج في كل عام، وهذه مزية لا يُعْرَف قَدْرُها ولا يُرام، ولقد مشى به للمغاربة في الحرم الشـريف حظٌ لم يكن لهم في غير مـدّته، وكان أهل مكّة يعتمدون على أقواله، ويهتدون بأفعاله.

---

(١) في طبعة ليدن: «مكظومين». وفي الإحاطة: «مكظومين يُنَدِّرُونَ في الآفاق عليه من سوء القِيلة...».

(٢) ما بين قوسين زيادة من الإحاطة.

(٣) في الإحاطة: «أمير المدينة المعظمة النبوية... عن القدوم إليها...».

(٤) الفَتاء، بالفتح: الحداثة في السّنّ. لسان العرب (فتى).

(٥) النص في عنوان الدراية (ص ١٣٩ ـ ١٤٠)، وهو أيضًا في الإحاطة (ج ١ ص ٣٢ ـ ٣٣).

(٦) في عنوان الدراية: «ولقيه من أصحابنا أناس...».

(٧) الجَنان، بالفتح: القَلْبُ. مختار الصحاح (جنن).

(٨) كلمة «العلماء» ساقطة من طبعة دار صادر.

توفي، رحمه اللّه تعالى، يوم الخميس تاسع شوّال سنة ٦٦٩، انتهى ببعض اختصار[١].

وذكر[٢]، رحمه اللّه تعالى، في ترجمة تلميذه الشيخ أبي الحسن الشُشْتُري السابق الذكر أنَّ أكثر الطلبة يُرَجِّحونه على شيخه أبي محمد بن سبعين، وإذا ذكر له هذا يقول: إنّما ذلك لعدم اطّلاعهم على حال الشيخ وقصور باعهم[٣].

ومن تآليف ابن سبعين «الفتح المشترك». ومِمّا حكاه صاحب «عنوان الدراية»[٤] في ترجمة الششتري ـ مِمّا لم نذكره في ترجمته الماضية، ورأينا ذكره هنا تبرّكًا ـ أنَّ الششتري كان في بعض أسفاره في البرية، وكان رجل من أصحابه قد أُسِر فسمعه الفقراء يقول: إلينا يا أحمد، فقيل له: مَنْ أحمد الذي ناديتَه يا سيدي في هذه البرية؟ فقال لهم: مَنْ تُسِرُّون به غدًا إنْ شاء اللّه تعالى. فلمَّا كان مِنَ الغَدِ ورد الشيخ وأصحابُه بلد[٥] قابِس، فعند دخولهم إذا بالرجل المأسور، فقال الشيخ للفقراء وأصحابه[٦]: هنيئًا لنا باقتحام العَقَبة، صافحوا أخاكم، المنادِيَ به.

ومن مناقبه ـ نفعنا اللّه تعالى به! ـ أنه لَمَّا نزل بلدة قابِسَ[٧] برباط البحر المعروف بمسجد الصهريج[٨] جاءه الشيخ الصالح أبو إسحٰق الزرنانِيُّ[٩] نفع اللّه تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة، فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الوليّ أبي عبد اللّه الصنهاجي ـ نفع اللّه تعالى به! ـ مع جملة أصحابه للزيارة، فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج إلى موضع بخارج المدينة برسم الخلوة، فجلسوا لانتظاره، فلم يكن إلاَّ قليل إذ أقبل

---

(١) هكذا هو النص في عنوان الدراية والإحاطة دون أن يختصره كما يقول.

(٢) عنوان الدراية (ص ١٤١).

(٣) في طبعة دار صادر: «وقصور طباعهم».

(٤) عنوان الدراية (ص ١٤١ وما بعدها).

(٥) في طبعة دار صادر: «بلدة».

(٦) كلمة «وأصحابه» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٧) في طبعة دار صادر: «ببلدة قابس». وقابس: بلدة بين طرابلس وسفاقس. معجم البلدان (ج ٤ ص ٢٨٩).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «المعروف بالصهريج».

(٩) في طبعة بولاق: «الزرناتي». وفي عنوان الدراية: «الورقاني».

الشيخ على هيئة معتبر متفكّر، فلمّا دخل الرباط سلّم على الواصلين برسم الزيارة، وحيّا المسجد، وأقبل على الفقراء، وأثَرُ العَبْرةِ على وَجْنته، فقال: ائتوني بمداد، فلما أُحْضِرَ بين يديه تأوّه تأوُّهًا شديدًا كاد أن يحرق بِنَفَسِهِ جَلِيسَهُ وَجعَلَ يكتب على لوح[1] هذه الأبيات[2]: [السريع]

لا تَـلْتَـفِـتْ بـالـلّه يـا نـاظـري | لأهْـيَـفٍ كـالـغُـصُـنِ الـنـاضِـرِ
يـا قَلْبُ واصـرفْ عنـكَ وَهْمَ البقـا | وخَـلِّ عن سِـرْبِ حمـى حـاجـرِ
مـا الـسِّـرْبُ والبـانُ ومـا لَـعْـلَعُ[3] | مـا الْخَيفُ مـا ظبي بني عـامـرِ؟
جـمـالُ مَـنْ سَـمَّـيـتُـهُ دائـرٌ | مـا حـاجـةُ العـاقـلِ بـالـدائـرِ؟
وإنّـمـا مَـطْلَبُـهُ فـي الـذي | هـامَ الـوَرَى في[4] حسنـه البـاهـر
أفـاد لـلشمسِ سَـنًـى كـالـذي | أعـارَهُ لـلقَـمَـرِ الـزاهـرِ
أصبـحْـتُ فـيـه مُـغْـرَمًـا حـائـرًا | لـلّه دَرُّ الـمُـغْـرَمِ الـحـائـر

وكانوا يومًا ببلد مالَقَةَ، وكثيرًا ما يجوّد عليه القرآن العزيز، فقرأ طالب قوله تعالى: ﴿ إنني أنـا اللّه لا إلّه إلاّ أنـا فاعْبُـدني ﴾[5] فقال معجّلاً، رضي اللّه تعالى عنه، وفهم من الآية ما لم يفهم، وعلم منها ما لم يعلم[6]: [البسيط]

أُنْـظُرْ لِـلَفْظِ أنَـا يـا مُـغْـرَمًـا فيـه | مِـنْ حيـثُ نَـظْرَتُنـا لَعَـلَّ تَـدْرِيـهْ
خَـلِّ ادِّخَـارَكَ لا تـفخـرْ بعـاريـةٍ | لا يـسـتـعـيـرُ فـقـيـرٌ مِـنْ مـواليـه
جسـومُ أَحْـرُفِـهِ لـلسِّـرِّ حـامـاةٌ | إنْ شِئْـتَ تعـرفـه جَـرِّبْ مـعـانيـه

ودخل عليه شخص ببجَايَةَ من أهلها يُعْرَف بـأبي الحسن بن علال، من أهـل الأمانـة والديانة، فوجده يذاكر بعض أهل العلم، فاستحسن منه إيراده للعلم، واستعماله لمحاضرة الفهم، فاعتقد شياخته وتقديمه، ثم نـوى أن يؤثر الفقـراء من مالـه بعشرين دينـارًا شكرًا للّه تعـالى، ويأتيهم بمـأكول، فلمّـا يسر جميـع ما اهتمّ بـه أراد أن يقسمه فيعـطيه شـطره ويدع

---

(١) في طبعة دار صادر: «في اللوح».
(٢) ديوان أبي الحسن الششتري (ص ٤٨).
(٣) لَعْلَعُ: أحد مواضع غرناطة الصالحة للنزهة، وقد تغنّى به الشعراء.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «من».
(٥) سورة طه ٢٠، الآية ١٤.
(٦) ديوان أبي الحسن الششتري (ص ٨٠).

الشطر الثاني إلى حين انصراف الشيخ، ليكون للفقراء زادًا، فلما كان في الليل رأى في منامه النبيَّ، ﷺ، ومعه أبو بكر وعلي رضي اللّه تعالى عنهما، قال الرجل: فنهضْتُ إليه بسرور رؤية النبي، ﷺ، وقلت: يا رسول اللّه، ادْعُ اللّه تعالى لي، فالتفت لأبي بكر، رضي اللّه تعالى عنه، وقال: يا أبا بكر، أعطه، فإذا به، رضي اللّه عنه، قَسَم رغيفًا كان بيده وأعطاني نصفه، ثم أفاق الرجل من منامه، وأخذه وَجْدٌ من هذه الرؤيا المباركة، فأيقظ أهله، واستعمل نفسه في العبادة، فلمّا كان من الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها، فلمّا دفعها للشيخ قال له الشيخ: يا علي، اقرب، فلمّا قرب قال له: ياعلي، لو أتيت بالكُلِّ لأخذت منه الرغيف بكماله، انتهى.

١٢٠ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم، الشهير بابن غصن، الإشبيلي[(١)].

من ولد شدّاد بن أوس الأنصاري، الجزيري، نسبة إلى الجزيرة الخضراء، الإمام المقرىء، الزاهد، عرض على الأستاذ ابن أبي الربيع «المُوَطّأ» من حفظه وأخذ عنه النحو، وكان من أولياء اللّه تعالى الصالحين، وعباده النّاصحين، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المُنْكَر، قوّالاً بالحقّ، لا تأخذه في اللّه لومة لائم، عارفًا بمُتُون الحديث وأحكامه، فقهيًا عارفًا[(٢)] متقنًا لمذاهب الأئمّة الأربعة والصّحابة والتّابعين، لايقبل من أحد شيئًا، مُخْلِصًا للّه تعالى، يتكلّم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية، وأقرأ القرآن بمكّة مدّةً بالقراءات وبالمدينة وبيت المقدس، وممّن قرأ عليه خليل إمام المالكية بالحرم، والشهاب الطّبري إمام الحنفية بالحرم، وله مصنّفات في القراءات: منها «مختصر الكافي» وكتاب في معجزات النبيّ ﷺ ومولده سنة ٦٣١ تخمينًا[(٣)]، وتوفي ببيت المقدس آخر سنة ٧٢٣، رحمه اللّه تعالى!

١٢١ ـ ومنهم الشيخ الفقيه، الأستاذ النحوي، التاريخي، اللغوي، أبو جعفر أحمد بن يوسف الفِهْرِي، اللَّبْلي[(٤)]، يُكْنَى أبا العبّاس وأبا جعفر .

---

(١) ترجمة ابن غصن في غاية النهاية (ج ٢ ص ٤٧) وفيه: «القصري السبتي»، إذ لم ينسبه ابن الجزري إشبيليا ولا جزيريا.

(٢) كلمة «عارفًا» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٣) في غاية النهاية: سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

(٤) وُلد أبو جعفر اللبلي بلبلة سنة ٦٢٣ هـ، وتوفي بتونس سنة ٦٩١ هـ. ترجمته في عنوان الدراية (ص ٢١١) وبغية الوعاة (ص ١٧٦).

قرأ بالأندلس على مشايخ من أفضلهم الأستاذ أبو علي عمر الشَّلَوبين، ثم ارتحل إلى العُدْوة، وسكن بجَايَة. وأقرأ بها مدة، وارتحل إلى المشرق فحجّ، ثم رجع إلى حضرة تونس واتّخذها وطنًا، واشتغل بها بالإقراء إلى أن مات. كان يتبسّط لإقراء سائر كتب العربية، وله علم جليل باللغة، وله تواليف كثيرة؛ منها على الجمل، و«شرح الفصيح» لثعلب، ولم يشذّ فيه شيء من فصيح كلام العرب.

قال الغبريني رحمه اللّه تعالى: ورأيت له تأليفًا في الأذكار، وله عقيدة في علم الكلام، ورأيت له مجموعًا سمّاه «الإعلام، بحدود قواعد الكلام» تكلّم فيه على الكلم الثلاث، الاسم والفعل والحرف، وله تواليف أُخَر، وكان من أساتيذ إفريقية في وقته، ومِمَّنْ أُخذ عنه، واستفيد منه، انتهى.

وذكر الشيخ أبو الطيب بن علوان التونسي عن والده أحمد التونسي الشهير بالمصري أنّ للمذكور تأليفًا سمّاه «التجنيس» وله شرح أبيات الجمل، سمّاه «وشي الحلل» رفعه للملك المستنصر الْحَفصي بتونس، فدفعه المستنصر للأستاذ أبي الحسن حازم، وأمره أن يتعقّب عليه ما فيه مِنْ خَلَلٍ وَجَدَه، فحكى أبو عبد اللّه القطّان المسفِّر ـ وكان يخدم حازمًا ـ قال: كنت يومًا بدار أبي الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب، فسمعْتُ نَقْرَ الباب، فخرجْتُ فإذا بالفقيه أبي جعفر، فرجعْتُ وأخبرْتُ أبا الحسن، فقام مبادرًا حتى أدخله وبالغ في بِرِّه وإكرامه، فرأى الكتاب بين يديه، فقال له: يا أبا الحسن، قال الشاعر: [الطويل]

وعَينُ الرِّضا عن كلِّ عَيبٍ كَلِيلَةٌ

فقال له: يا فقيه أبا جعفر، أنت سيّدي وأخي، ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه إلاَّ قول الحقّ، والعلم لا يحتمل المُدَاهنة، فقال له: فأخبرني بما عثرت عليه، قال له: نعم، فأظهر له مواضع، فسلّمها أبو جعفر وبَشرَها وأصلحها بخطه.

وأصل هذا اللَّبْلي من لَبْلَة قرية[1] بالأندلس، اجتمع في رحلته للمشرق بالقاضي ابن دقيق العيد، وكان نحويًّا، فلمَّا دخل عليه اللَّبْلِي قال له القاضي: خَيرَ مَقْدَمٍ، ثم سأله بعد حين: بِمَ انتصب خير مقدم؟ فقال له اللبلي: على المصدر، وهو من المصادر التي لا تظهر

---

(١) كلمة «قرية» ساقطة من طبعة دار صادر.

أفعالها، وقد ذكره سيبويه، ثم سرد عليه الباب من أوّله[1] إلى آخره، فإنه كان يحفظ أكثره، فأكرمه القاضي وعظّمه.

ثم قال ابن علوان: وذكر والدي أيضًا، رحمه اللَّه تعالى، ومِنْ خطِّه المبارك نَقَلْتُ، أنَّ الأستاذ أبا جعفر اللبلي المذكور، رحمه اللَّه تعالى، قرىء عليه يومًا قول امرىء القيس[2]: [الكامل]

حَيِّ الْحُمولَ بجانبِ العَزْلِ ... إذ لا يلائمُ شَكْلُها شكلي

فقال لطلبته: ما العامل في هذا الظرف يعني «إذ»؟ فتنازعوا القول، فقال: حسبكم، قرىء هذا البيت على أستاذنا أبي علي الشّلَوبين، فسألَنَا هذا السؤال، وكان أبو الحسن بن عصفور[3] قد برع واستقلَّ وجلس للتدريس، وكان الشلوبين يَغُضّ منه، فقال لنا: إذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل، يعني ابن عصفور، فلمّا خرجنا سِرْنا إليه بجمعنا، ودخلْنا المسجد، فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة، وهو يتكلّم بغرائب النحو، فلم نجسر على سؤاله لهيبته، وانصرفْنا، ثم جئْنا بَعْدُ على عادتنا لأبي علي، فنسي حتى قرىء عليه قول النابغة[4]: [البسيط]

فَعَدَّ عَمَّا تَرَى إذْ لا ارْتِجَاعَ لَهُ

فتذكّر، وقال: ما فعلتمْ في سؤال ابن عصفور؟ فصدقنا له الحديث، فأقسم ألَّا يخبرنا ما العامل فيه، ثم قال اللّبْلي لطلبته: وأنا أقول لكم مثل ذلك، فانظروا لأنفسكم، قالوا: فنظرْنا فإذا المسألة فحص ونظر، كلّما حكمْنا بحكم صدَّتْنا عنه قوانين نحوية، حتى مضت

---

(١) في طبعة دار صادر: «من سيبويه إلى آخره».

(٢) البيت مطلع قصيدة من ٢٢ بيتًا. والحُمولُ: الإبلُ التي عليها الأحمال والهوادج، والإبل الراعية. جانبُ العَزْل: موضع. ديوان امرىء القيس (ص ٢٣٦).

(٣) هو أبو الحسن علي بن عبد المؤمن بن محمد بن علي، ابن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي المتوفَّى سنة ٦٦٩ هـ. وترجمته في مقدمة كتابه «ضرائر الشعر» بتحقيق السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢.

(٤) هو صدر البيت السابع من معلقة النابغة الذبياني، يمدح فيها النعمان بن المنذر، ومطلعها:

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأَبَدِ

والبيت هو:

فَعَدَّ عمَّا تَرَى إذْ لا ارتجاعَ له ... وانْمِ القُتُودَ على عَيرانةٍ أُجُدِ =

مدّة طويلة، فوفد علينا بتونس المحروسة أحدُ طلبة ابن أبي الربيع، وكان ابن أبي الربيع هذا ساكنًا بِسَبْتَة، وهو أحد طلبة الشلوبين أيضًا، ومن كبار هذه الطبقة التي نشأت بعده، قالوا: فتذاكرْنا مع هذا الطالب في مسائل نحوية، فمرَّتْ هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمينَ ﴾[1] فقال هذا الطالب: إن هذا الظرف وقع موقع لام العلّة، فعلمْنا أن هذا هو الذي أراد الأستاذ أبو علي، ثم ناقشْنا الطالب وقلْنا له: إذا جَعَلْتَه ظرفًا فلا بُدَّ من العامل، وإذا جَعَلْتَه واقعًا موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين، والذي يجوز عكسه على مذهب الجميع، وإنّما الأَوْلَى أن يقال: إذْ حرفٌ معناه التعليل تشترك فيه الأسماء والحروف كما اشتركتْ في عن، واللّه أعلم بغيبه، انتهى.

١٢٢ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي[2].

قال الحافظ المقريزي: وفَرْح بسكون الرّاء، وقال الحافظ عبد الكريم في حقّه: إنه كان من عباد اللّه الصّالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزّاهدين في الدّنيا، المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة، فيما بين توجُّهٍ وعبادة وتصنيف، جمع في تفسير القرآن كتابًا خمسة عشر مجلدًا، وشرح أسماء اللّه الحسنى في مجلّدين، وله كتاب «التذكرة، في أمور الآخرة» في مجلدين، وشرح «التقصّي»[3] وله تآليف غير ذلك مفيدة، وكان مطَّرِح التكلّف، يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية، سمع من الشيخ أبي العبّاس أحمد بن عمر القرطبي صاحب «المفهم، في شرح مسلم» بعضَ هذا الشرح، وحدَّث عن أبي الحسن علي بن محمد بن علي ابن حفص اليَحْصُبي، وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري، وغيرهما، وتوفي بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوّال سنة ٦٧١، ودُفن بها، رحمه اللّه تعالى!.

وفي تاريخ الكتبي في حقّه ما نَصُّه: كان شيخًا فاضلًا، وله تصانيف مفيدة تدلُّ على كثرة اطّلاعه ووفور علمه، منها «تفسير القرآن» مليح إلى الغاية، اثنا عشر مجلدًا، انتهى.

= ديوان النابغة الذبياني (ص ١٩ ـ ٢٠).

(١) سورة الشعراء ٢٦، الآية ٩٨.

(٢) ابن فرح هو صاحب كتاب «جامع أحكام القرآن» المعروف بتفسير القرطبي. وترجمته في الوافي بالوفيات (ج ٢ ص ١٢٢) وطبقات المفسرين (ص ٢٨).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «التفصي» بالفاء.

وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته: قد أجحف المصنّف في ترجمته جدًّا، وكان مُتْقِنًا[1] متبحّرًا في العلم، انتهى.

وكتب بعضٌ بإثر هذا الكلام ما نصّه: قال الذهبي: رحلٍ وكتب وسمع، وكان يَقِظًا، فهمًا، حسن الحفظ، مليح النّظم، حسن المذاكرة، ثقة، حافظًا، انتهى.

وكتب آخر إثر ذلك الكلام ما صورته: مشاحة شيخنا للمصنّف في هذه العبارة ما لها فائدة، فإنَّ الذهبي قال في تاريخ الإسلام: العلاّمة أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، الإمام، القرطبي، إمام متفنّن، متبحّر في العلم، وله تصانيف مفيدة، تدلُّ على كثرة اطّلاعه ووفور عقله وفضله، ثم ذكر موته، وقال بعده: وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبانُ، وله «الأسنى»[2]، في شرح الأسماء الحسنى» و«التذكرة» وأشياء تدلُّ على إمامته وذكائه وكثرة اطّلاعه، انتهى.

وكتب آخر بإثر هذا الكلام ما نصّه: غفر اللَّه لك! إذا كان الذّهبي ترجمه بما ذكرت، وهو واللَّه فوق ذلك، فكيف تقول: إنَّ مشاحة شيخك لا فائدة فيها، وتسيء الأدب معه، وتقول إنَّ كلامه لا فائدة فيه؟ فاللَّه يستر عليك! انتهى.

١٢٣ ـ ومنهم أبو القاسم بن حاضر، الجزيري، الخزرجي، محمد بن أحمد.

من جزيرة شقْر، قدم مصر، وسكن قُوصَ[3] بعدما كان من عدول بَلَنْسِية، وكان فصيحًا، عالمًا بصناعة التوريق، وله نظم لم يحضرني الآن شيء منه، ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة، رحمه اللَّه تعالى!.

١٢٤ ـ ومنهم أبو القاسم التُّجِيبي، محمد بن أحمد التُّجِيبي[4].

---

(١) في طبعة دار صادر: «مُتَفَنّنًا».

(٢) للغزالي كتاب اسمه «المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحُسْنى» كما في كشف الظنون (ص ١٨٠٥) وربما توارد المؤلّفان على اسم الكتاب نفسه.

(٣) قُوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة بصعيد مصر، شديدة الحرّ لقربها من البلاد الجنوبية، معجم البلدان (ج ٤ ص ٤١٣).

(٤) هو محمد بن أحمد بن حسن بن عامر بن حسن التجيبي. وترجمته في الوافي بالوفيات (ج ٢ ص ١٤٠).

من أهـل بَلّش، قرأ على ابن مُفَـرِّج وابن أبي الأحوص، ورحـل فاستـوطن القاهـرة، وكان شيخًا فاضلاً خيّرًا، له أدب وشعر، ومنه قوله من أبيات[1]: [الكامل]

أَحْـوَى الـجـفـون لـه رَقِـيـبٌ أَحْـوَلُ ... الـشـيءُ فـي إدراكـه شَـيـئـانِ
يـا لـيـتـه تَـرَكَ الـذي أنـا مُـبْـصِـرٌ ... وَهْـوَ الـمُخَيَّـرُ في الـغـزالِ الـثـانـي

وُلد ببَلّش سنة ٦٢٣، وتوفي بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥، ومِمَّنْ روى عنه نحويُّ الزمان أثير الدّين أبو حَيَّان وغيره، رحم اللّه تعالى الجميع!.

١٢٥ ـ ومنهم أبـو بكـر الخـزرجي، محمـد بن أحمـد بن حسن، وقيـل: محمـد بن عيسى، المالَقِيُّ، المالكي[2].

قال الشريف أبو القاسم: إنه كان أحـد الزهّـاد الوَرِعين، وعبـاد اللّه المتقين، مشتغلاً بنفسه، متخلّيًا عمًّا في أيدي النّاس، يأكـل مِنْ كَسْب يده، ولا يقبـل لأحد شيئًـا، مع وَجْـد وعلم[3] وعمل وفضل وأدب، ولم يكن في زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له.

وقـال الحافظ عبـد الكريم: إنـه دخل إشبيليـة، واشتغل بـالعربيـة على الشَّلَوبين وقرأ القراءات السبع، ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك، وكان والده نجارًا، وكان لا يـأكل إلاّ مِنْ كَسْب يده، يخيط الثياب، فازدحم الناس عليه تبرّكًا به، فترك ذلك وصـار يدقّ القصـدير ويأكل منه ويتصدّق بما فضل عنه، وكان شـديد الـزّهد، كثيـر العبادة، لايسلّم يـده إلى أحد ليقبّلها، وجاءه شخص قد زيد عليه في أجرة مسكنـه ليشفع إلى صـاحب الدّار أن لا يقبـل الزائد، فمضى إلى صاحب الدّار وأعطاه الزّائـد مدّة أشهـر، فعلم بذلـك السّاكن بعـد مدّة، فقال له: يا سيدي، ما سألت إلاّ شفاعة، وأنت تـزن[4] عني، فقال لـه: رجل لـه دار يأخـذ أجرتها يجيء إليه الخزرجي يقطع عليه حقّه؟ واللّه ما يدفع هذا إلاّ أنا، فلم يزل يدفع الزّائد

---

(١) البيتان في الوافي بالوفيات، وسيردان في الجزء التاسع من نفح الطيب.

(٢) تـرجم له السيـوطي في بغية الـوعـاة (ص ٨٨) بـاسم محمـد بن عيسى، وهـو ينقـل عن كتـاب «البـدر السافر».

(٣) كلمة «وعلم» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة ليدن: «تنقد عني».

إلى أن انتقل السّاكن إلى غيرها[1]، ومات ليلة الاثنين[2] الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١[3]، عن خمس وأربعين سنة، ودفن بالقرافة، رحمه اللّٰه تعالى، ونفعنا به!.

١٢٦ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرج الهاشمي[4]، مولاهم؛ لأنَّ ولاءه لبني العبّاس من أهل قرطبة.

وُلد في شهر رمضان سنة ٣٢٢، بقرطبة، وسمع بها من وهب بن مسرّة، وخالد بن سعيد[5] وغيره، ورحل فحجَّ وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق[6]، وأبا علي بن السكن ونظراءهم في سنة ٣٤٩، وعاد إلى بلده، وبها مات في شهرِ رمضان سنة ست وأربعمائة.

قال ابن بَشْكُوال[7]: كان رجلاً صالحًا فاضلاً، من أهل الاجتهاد في العبادات[8] مائلاً إلى التقشّف والزّهادة، قديم الطلب، حسن المذهب، متبعًا للسّنن.

١٢٧ ـ ومنهم أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد بن سلمان[9] بن أحمد بن إبراهيم، الزهري، الأندلسي، الإشبيلي[10].

وُلد بمالَقَة، وطاف الأندلس، وطلب العلم، وحصَّل طرفًا صالحًا من علم الأدب، ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة، فسمع الحديث بها، ودخل الشام وبلاد الجزيرة، وقدم بغداد سنة ٥٩٠، وعمره ثلاثون سنة، وأقام بها مدّة، وسمع من شيوخها كأبي الفرج بن كليب ونحوه، وقرأ ونسخ بخطّه، وسافر إلى أصبهان وبلاد الجبل، وكان فاضلاً حسن المعرفة بالأدب، يقول الشعر، وينشىء المقامات، وصنّف كتاب «البيان، والتبيين، في

(١) في طبعة دار صادر: «غيره».
(٢) كلمة «الاثنين» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٣) هكذا في بغية الوعاة.
(٤) ترجمته في الصلة (ص ٧٢٧).
(٥) في الصلة: خالد بن سعد.
(٦) هو أبو الحسن بن رشيق كما في الصلة.
(٧) لم يرد هذا النص في الصلة.
(٨) في طبعة دار صادر: «في العبادة».
(٩) في طبعة دار صادر وفي الوافي بالوفيات: «سليمان».
(١٠) ترجمة محمد بن أحمد الزهري في بغية الوعاة (ص ١١) والوافي بالوفيات (ج ٢ ص ١٠٤).

أنساب المحدّثين» ستة أجزاء، وكتاب «البيان، فيها أبهم من الأسماء في القرآن» مجلّد، وكتاب «أقسام البلاغة، وأحكام الصناعة»[1] في مجلدين، وكتاب «شرح الإيضاح، لأبي علي الفارسي»[2] في خمسة عشر مجلدًا، وكتاب «شرح المقامات» مجلّد، وكتاب «شرح اليميني» في مجلد. قال المنذري: توفي شهيدًا، قتله التتار في رجب، وقال ابن النجار: في سابع عشر رجب سنة ٦١٧، رحمه اللّه تعالى!.

١٢٨ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عبد الأعلى بن القاسم، القرطبي، المقرىء المعروف بالورشي، نسبة إلى قراءة وَرْش لاشتهاره بها.

وهو أحد القرّاء المعروفين. قال الحاكم: هو من الصالحين المذكورين بالتقدّم في علم القراءات[3]، سمع بمصر والشام والحجاز والعراقَين والجبل وأصبهان، وورد نيسابور، ودخل خراسان فسمع علي بن المرزبان بأصبهان، وبالأهواز عبد الواحد بن خلف الجنديسابوري، وبفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي، وقال ابن النجّار: قدم بغداد، وحدّث بها، وتوفي بسجستان في ربيع الأول سنة ٣٩٣.

١٢٩ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد الباجي، اللخمي[4].

قال ابن بشكوال: مولده في صفر سنة ٣٥٦[5]، وسمع عن جدّه[6]، ورحل إلى المشرق.

وقال ابن غَلْبُون في مشيخته: إنه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل، قائمًا بها، واقفًا عليها، قاعدًا للشروط، مُحْسِنًا لها، عارفًا، وبيتهم بيت علم، ونشأ فيه[7] هو وأبوه وجدّه، وكان جميعهم في الفضل والتقدّم على درجاتهم في السّنّ،

---

(١) هكذا في بغية الوعاة. وفي الوافي بالوفيات: «وأحكام الفصاحة...».

(٢) في بغية الوعاة: «شرح الإيضاح» في النحو.

(٣) في طبعة دار صادر: «علم القرآن».

(٤) هو محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن محمد بن علي بن شريعة اللخمي الباجي، من أهل إشبيلية. ترجمته في الصلة (ص ٧٦٤ ـ ٧٦٥).

(٥) لم يذكر في الصلة سنة مولده.

(٦) في الصلة: «سمع من جدِّه عبد اللّه بن محمد ورحل مع أبيه إلى المشرق».

(٧) في طبعة دار صادر: «ونشأ فيهم».

وعلى منازلهم في السَّبْق، وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة، وشاركه في السماع والرواية عن جدِّه، وسمع بمصر من[1] أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد بن زريق المخزومي.

وقال ابن بشكوال: كان[2] من أجلّ الفقهاء عندنا دراية ورواية، بصيرًا بالعقود، ومتقدّمًا[3] على أهل الوثائق، عارفًا بعللها، وألَّف فيها كتابًا حسنًا، وكتابًا في السّجلات إلى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخّرين، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى، وتوفية العلم حقّه من الوفاء[4] والتصون، توفي في المحرم سنة ٤٣٣ لعشرين[5] بقين منه.

١٣٠ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز، العُتْبي[6]، الأندلسي، القرطبي، الفقيه المالكي المشهور، صاحب العُتْبِيّة.

سمع بالأندلس من يحيىٰ بن يحيىٰ، وسعيد بن حسّان، وغيرهما، ورحل إلى المشرق فسمع من سُحْنون[7] وأصبغ بن الفرج وغيرهما، وكان حافظًا للمسائل، جامعًا لها، عالمًا بالنّوازل، وهو الذي جمع المستخرجة من الأسمعة المسموعة غالبًا من مالك بن أنس، وتعرف بالعُتْبية، وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذّة، وكان يُؤْتَى بالمسألة الغريبة الشاذّة فإذا سمعها قال: أدخلوها في المُسْتَخْرَجَة. ولذا رُوِيَ عن ابن وضّاح أنه كان يقول: المستخرجة فيها خطأ كثير، كذا قال، ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من علماء[8] المالكية كابن رشد وغيره.

---

(١) في طبعة دار صادر: «على أبي».
(٢) في الصلة: «وكان أجلّ...».
(٣) في المصدر نفسه: «متقدّمًا في علم الوثائق وعللها، وألَّف فيها كتابًا حسنًا، وكتابًا مستوعبًا في سجلات القضاة، إلى ما جمع من أقوال...».
(٤) في المصدر نفسه: «من الوقار والتصاون».
(٥) في المصدر نفسه: «لِعَشْرٍ».
(٦) ترجمة العُتْبي في جذوة المقتبس (ص ٣٩) وبغية الملتمس (ص ٤٨) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٦٣٤) والوافي بالوفيات (ج ٢ ص ٣٠).
(٧) هو سحنون بن سعيد كما في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٣٥).
(٨) في طبعة دار صادر: «من أعلام».

قال ابن يونس: توفِّي بالأندلس سنة ٢٥٥[1].

والعتبي: نسبة إلى عُتْبَةَ بن أبي سفيان بن حرب، وقيل: إلى جَدٍّ للمذكور يُسَمَّى عتبة، وقيل إلى ولاء عتبة بن أبي يعيش.

١٣١ ـ ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المَعَافري، المقرىء، الفَرَضي، الأديب.

وُلِد بالأندلس سنة ٥٩١، ونشأ ببلنسية، وأقام بالإسكندرية، وقرأ القرآن على أصحاب ابن هُذَيل، ونظم قصيدة في القراءات على وزن الشاطبية، لكن أكثر أبياتًا، وصرّح فيها بأسماء القرّاء، ولم يرمز كما فعل الشاطبي، وكانت له يد في الفرائض والعروض، مع معرفة القراءات والأدب.

ومن شعره: [الطويل]

إذا ما اشْتَرَتْ بِنْتٌ أباها فَعِتْقُهُ[2] ... بنفس الشِّرا شَرْعًا عليها تَأَصَّلا
ومِيراثُه إنْ ماتَ من غير عاصب ... ومن غير ذي فَرْضٍ لها قد تَأَثَّلاَ
لها النّصف بالميراث والنّصف بالوَلاَ ... فإنْ وُهِبَ ٱبْنًا أو شَرَاه تفضلاَ
فأعتق شرعًا ذلك الابن ما لَهَا ... سوى الثلث، والثلثان للأخ أصلا
وميراثها فيه إذا مات قبلها ... كميراثها في الأب من قبل يُجْتَلَى
ومولى أبيها ما لها الدهر فيه من ... ولاء ولا إرث مع الأب فاعْتَلى

وهذه المسألة ذكر الغزالي في «الوسيط» أنه قضى فيها أربعمائة قاضٍ، وغلطوا، وصورتها ابنة اشترت أباها فعتق عليها، ثم اشترى الأب ابنًا فعتق عليه، ثم اشترى الأبُ عبدًا فأعتقه، ثم مات الأب، فورثه الابن والبنت للذّكر مثل حظ الأنثيين، ثم مات العبد المعتق، فلمن يكون ولاؤه؟ وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهي مشهورة.

١٣٢ ـ ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل، أبو عبد الله، الأموي، الأندلسي، الطُّليطلي، المعروف بالنقاش.

---

(١) هكذا في جذوة المقتبس، وتاريخ علماء الأندلس. وأضاف ابن الفرضي: وقيل: سنة ٢٥٤ هـ.

(٢) في طبعة دار صادر: «فَعِتْقُها».

نزل مصر، وقعد للإقراء بجامع عمرو بن العاص، وأخذ عنه جماعة، وتوفي بمصر سنة ٥٢٩.

١٣٣ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد القَيسي، القَبْري، القُرْطُبي، المؤدّب[١].

رحل من الأندلس سنة ٣٤٢، فسمع بمصر من أبي محمد بن الورد، وأبي قتيبة سالم بن الفضل[٢] البغدادي وغيره. وكان صالحًا خيِّرًا مؤدّبًا، سمع الناسُ منه كثيرًا[٣] وتوفي سنة ٣٦٢.

والقَبْري ـ بفتح القاف، وسكون الباء الموحدة، ثم راء مهملة ـ نسبة إلى قَبْرَة بلد بالأندلس بقرب قُرْطُبَة بنحو ثلاثين ميلاً.

١٣٤ ـ ومنهم جمال الدين أبو بكر الوائلي، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن سُجْمَان، الشريشي، المالكي[٤].

ولد بشَرِيش سنة ٦٠١، ورحل فسمع بالإسكندرية من ابن عماد الحراني، وبدمشق من مكرم بن أبي الصقر، وبحلب من أبي البقاء يعيش بن علي النحوي، وسمع بإرْبِلَ وبغداد، وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدّة يفيد الناس فتخرّج به جماعة، ووُلّي مشيخة المدرسة بالقدس، ومشيخة الرّباط النّاصري بالجبل، وأقام بدمشق يفتي ويدرّس، وكان من العلماء الزهّاد كثير العبادة والورع والزّهد، أحد الأئمّة المبرزين المتبحّرين في العربية والفقه على مذهب الإمام مالك، والتفسير، والأصول، وصنّف كتابًا في الاشتقاق، وشرح ألفية ابن معطي، وأخذ عنه النّاس، وطُلِب للقضاء بدمشق فامتنع منه زهدًا وورعًا، وبقي المنصب لأجله شاغرًا إلى أن مات برجب سنة ٦٨٥، ودُفِن بقاسِيُون.

وسُجْمَان: بسين مهملة مضمومة، ثم جيم ساكنة، بعدها ميم مفتوحة، ونون.

---

(١) هو محمد بن أحمد بن محمد بن طالب القيسي القبري المؤدّب، وترجمته في تاريخ علماء الأندلس (ص ٧٤١).

(٢) هكذا في تاريخ علماء الأندلس. وفي طبعة دار صادر: «مسلم بن الفضل».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «سمع من الناس»، والتصويب عن تاريخ علماء الأندلس.

(٤) ترجمة ابن سجمان في بغية الوعاة (ص ١٨) وقد ضبطه السيوطي هكذا: «سحمان» بضمّ السين وسكون الحاء غير المعجمة.

١٣٥ ـ ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن يحيىٰ بن مُفَرِّج، القرطبي، المعروف والده بالقَنْتُوري[١].

وكان جدّ أبيه مفرج صاحب الرّكاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل، وكان أبوه أحمد بن يحيىٰ رجلاً صالحًا، ووُلِد هو سنة ٣١٥[٢]، وكان سكناه بقُرْطُبة بقرب عين قَنْت أورية، وسمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ كثيرًا، ومن ابن أبي دَلِيم والخشَني، ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكّة من ابن الأعرابي، ولزمه حتى مات، وسمع بها من جماعة غيره، وسمع بجدّة، وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسّلام، ودخل صنعاء وزبَيد وعَدَن، وسمع بها من جماعة، وسمع بمصر من البرقي صاحب أحمد البزار، وسمع من السيرافي وجماعة كثيرة، وسمع بغَزّة وعَسْقَلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصَيْدا والرملة وصور وقيسارية والقِلْزِم والفَرَمَا والإسكندرية، فبلغت عدّة شيوخه إلى مائتين وثلاثين شيخًا، وروى عنه أبو عمر الطلمنكي وجماعة، وكتب تاريخ مصر عن مؤلّفه أبي سعيد بن يونس، وروى عنه ابنُ يونس وهو من أقرانه، وعاد إلى الأندلس من رحلته سنة ٣٤٥، واتّصل بالحكم المستنصر، وصارت له عنده مكانة، وألّف له عدّة كتب، واستقضاه على إسْتِجَةَ ثم على ألَمرِيَّة، ومات برجب سنة ٣٤٨[٣].

قال الحميدي: هو محدّث، حافظ، جليل، صنّف كتبًا في فقه الحديث، وفي فقه التّابعين؛ فمنها «فقه الحسن البصري» في سبع مجلّدات، و«فقه الزُّهْرِي» في أجزاء كثيرة، وسمع مسند ابن الفَرَضي وحديث قاسم بن أصبغ.

قال ابن الفرضي: وكان عالمًا بالحديث، بصيرًا برجاله، صحيح النقل، حافظًا، جيد الكتابة على كثرة ما جمع.

---

(١) ترجمة محمد ابن مفرج في جذوة المقتبس (ص ٤٠) وبغية الملتمس (ص ٤٩) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٧٧٠ ـ ٧٧٣).

(٢) في أصول نفح الطيب: سنة ٣٢٥، والتصويب عن ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، وفيه أنه ولد سنة ٣١٥، ورحل إلى المشرق سنة ٣٣٧ هـ، وهذا هو المعقول، وهو لو كان ولد سنة ٣٢٥ هـ لكانت رحلته وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وهذا أمر مستبعد.

(٣) ذكر ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (ص ٣٧٣) أنه توفي سنة ثمانين وثلاثمائة، وهذا هو المعقول؛ لأن الحكم المستنصر، خليفة الأندلس، لا يمكن أن يستقضيه قبل عام ٣٥٠ هـ، سنة توليه مقاليد الحكم بعد والده عبد الرحمن الناصر.

وقال ابن عفيف في حقّه: إنه كان من أعنى النّاس بالعلم، وأحفظهم للحديث، وأبصرهم بالرجال، ما رأيت مثله في هذا الفن، من أوثق المحدّثين بالأندلس، وأصحّهم كتبًا، وأشدّهم تعبًا لروايته، وأجودهم ضبطًا لكتبه، وأكثرهم تصحيحًا لها، لم[1] يَدَع فيها شبهة، رحمه اللّه تعالى!

١٣٦ - ومنهم أبو عبد اللّه القَيْسِي، الوضاحي، محمد بن أحمد بن موسى[2].

رحل إلى المشرق[3]، وسمع من السِّلفي وغيره جملة صالحة، ثم عاد إلى الأندلس بعد الحجّ، وسكن ألمَرِيّة مدّة، وبها مات سنة ٥٣٩[4]، وقيل: في التي بعدها، وكان من أظرف النّاس، وأحسنهم أدبًا، فقيهًا، فاضلاً، ثقة، ذا فرائد جمّة، عفيفًا معتنيًا بالعلم.

١٣٧ - ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن موسى بن هُذَيل، العَبْدَري، البَلَنْسي[5].

وُلِد سنة ٥١٩، وسمع من أبيه وجماعة، ورحل حاجًّا فسمع من السِّلَفي وابن عوف والحضرمي والتّنوخي والعثمانيّ وغيرهم، ورجع بعد الحجّ إلى الأندلس فحدَّث، وكان غاية في الصّلاح والورع وأعمال البِرّ، وله حظٌّ من علم العبارة، ومشاركة في اللغة، وكتب بخطِّه على ضعفه كثيرًا، رحمه اللّه تعالى!

١٣٨ - ومنهم أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن نوح، الإشبيلي.

ومولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة بإشبِيلِية، وجال في بلاد المغرب والمشرق، وقرأ على الشيوخ الفضلاء، وحَصَّل كثيرًا في علم القراءات[6] والأدب، وله نظم ونثر، وكان كثير التّلاوة للقرآن، جيّد الأداء له، وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩، رحمه اللّه تعالى!

---

(١) في طبعة دار صادر: «لا يدع».

(٢) ترجمة محمد الوضاحي في أخبار وتراجم أندلسية (ص ١١٥ - ١١٦).

(٣) في طبعة دار صادر: «رحل من المغرب».

(٤) في أخبار وتراجم أندلسية: سنة ٥٤٠ هـ.

(٥) ترجمة محمد بن هذيل في التكملة (ص ٥٥٢) وفيه: أصله من أبيشة من ثغور بلنسية، وفي الذيل والتكملة (ج ٦ ص ٦٩) وفيه أنه مرباطري وأنه توفي بمربيطر سنة ٥٩٢ هـ أو ٥٩٣ هـ.

(٦) في طبعة دار صادر: «علم القرآن والأدب...».

١٣٩ ـ ومنهم محمد بن أسباط، المخزومي، القرطبي[(١)].

روى عن يحيىٰ بن يحيىٰ، وقدِم مصر فسمع من الحارث بن مسكين، وكان حافظًا للفقه، عالمًا، توفي سنة ٢٧٩.

١٤٠ ـ ومنهم أبو بكر محمد بن إسحاق، الشهير بابن السَّليم[(٢)]، قاضي الجماعة بقُرْطُبة.

مولده سنة ٣٠٦، روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته، ورحل سنة ٣٣٢، فسمع بمكّة من ابن الأعرابي، وبمصر من الزبيريّ وابن النحّاس وغيرهما، وعاد إلى الأندلس فأقبل على الزّهد ودراسة العلم، وحدَّث، فسمع منه النّاس، وكان حافظًا للفقه، بصيرًا بالاختلاف، حسن الخطّ والبلاغة، متواضعًا، وتوفي بجمادى الأولى سنة ٣٦٧.

وسَليم بفتح السين مكبرًا.

١٤١ ـ ومنهم موسى بن بهيج، المغربي، الأندلسيّ، الواعظ، الفقيه العالم.

من أهل ألمَرية، نزل مصر، يكنى أبا عمران، كان من أهل العلم والأدب، وله في الزّهد وغيره أشعار حُمِلَتْ عنه، وحدّث المَرْشَاني عنه بمُخَمَّسة في الحجّ وأعماله كلّها، ولقيه بمصر وقرأها عليه.

ولابن بهيج هذا قوله: [مجزوء الرمل]

إنَّما دُنْيَاكَ ساعةْ ... فاجْعَلِ السّاعةَ طَاعَةْ
واحْذَرِ التقْصِيرَ فيها ... واجْتَهِدْ، ما قَدْرُ ساعةْ
وإذا أحْبَبْتَ عِزًّا ... فالْتَمِسْ عِزَّ القناعةْ

١٤٢ ـ ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة، مولى سعيد بن نصر[(٣)].

---

(١) ترجمة محمد بن أسباط في تاريخ علماء الأندلس (ص ٦٤٤).

(٢) ترجمة ابن السليم في جذوة المقتبس (ص ٤٣) وبغية الملتمس (ص ٥٩) وتاريخ علماء الأندلس (ص ٧٤٩) وتاريخ قضاة الأندلس (ص ٧٥).

(٣) ترجمة موسى بن سعادة في المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٩٣) وفيه أن سعيد بن ناصر وهو مولى عبد الرحمن.

من أهل مُرْسِيـة[1]، سمع صهـره أبا علي ابن سُكـرة الصَّدَفي، وكـانت بنته عنـد أبي علي، ولازمه، وأكثر عنه، وروى عن أبي محمد بن مُفَوَّز الشاطبي وأبي الحسن بن شفيـع، قرأ عليهما المُوَطَّأ، ورحل، وحجّ، وسمع السّنن من الطرْطُـوشي، وعُنِي بالـرواية، وانتسـخ صَحِيحَي البخـاري ومسلم بخطِّه، وسمعهمـا على صهره أبي علي، وكـانت أصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما، حكى الفقيه أبو محمـد عاشـر بن محمد أنـه[2] سمعهما على أبي علي نحـو ستّين مرّة، وكتب أيضًـا «الغريبين» للهَـرَوي، وغير ذلـك، وكان أحـد الأفـاضـل الصُّلَحاء، والأجواد السُّمَحاء، يؤمُّ الناس في صلاة الفريضة، ويتولَّى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج إليه من دقيق الأشياء وجليلها، وإليه أوصى عند توجُّهه إلى غزوة كَتَنْدَة التي فُقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكانت لـه مشاركـة في علم اللغة والأدب، وقـد حدّث عنه ابنُ أخيه القاضي أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن سعادة بكتـاب «أدب الكتّاب»[3] لابن قتيبة، «وبالفصيح» لثعلب.

١٤٣ ـ ومنهم أبو محمد عبد اللّه بن طاهر، الأزدي[4].

من أهل وادي آش، له رحلة إلى المشرق أدّى فيها الفريضة، وسمـع بدمشق من أبي طاهر الخُشُوعي مقامات الحريري وابن عساكـر وغيرهمـا، ثم قَفَلَ إلى بلده، انتهى ملخّصًـا من ابن الأبار.

وحكى الصّفـدي[5] أن ابن المستكفي اجتمع بـالمتنبي بمصـر، وروى عنـه شيئًـا من شعره، ومِمّا روى عنه أنه قال: أنشدني المتنبّي لنفسه: [السريع]

لاعَـبْـتُ بـالـخـاتـم إنْـسـانَـةً   كمثْـلِ بَـدْرٍ في الـدّجى الـفـاحِمِ

---

(١) في المصدر نفسه أنه من أهل بلنسية، ولكنه خرج منها عندما تملّكها الروم بعـد سنة ٤٨٠ هـ إلى دانيـة ثم استوطن مرسية.

(٢) في طبعة دار صادر: «أنهما سمعا على. . . ».

(٣) هـو كتاب «أدب الكـاتب» ويحوي من كـل شيء، صنّفه ابنُ قتيبـة لأبي الحسن عبيد اللّه بن يحيىٰ بن خاقان، وزير المعتمد بن المتوكل الخليفة العباسي. انظر مقدّمة عيون الأخبـار بقلمنا (ص ١٨)، طبعـة دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.

(٤) هو أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن طاهر بن عبد اللّه بن طاهر، وقد وقف ابن الأبار على خطّه بالسمـاع منه والإجازة في ذي القعدة سنة ٥٩٩ هـ. التكملة(ص ٨٧٥).

(٥) العلاقة بين هذا النص والذي قبله غير واضحة، وقد يُراد: «وحكى عنه الصفدي. . . ».

وكلّما حاولْتُ أخذي له مِنَ البَنَانِ المطرف[1] النّاعم
أَلْقَتْهُ في فيها فقلْتُ: انظروا قد خَبَّتِ الخاتَمَ في الخاتم

١٤٤ ـ ومن الرّاحلين من الأندلس إلى المشرق أبو عبد اللّه بن مالك[2].

صاحب التسهيل والألفية، وهو: جمال الدّين محمد بن عبد اللّه بن عبد اللّه بن مالك، الإمام العلاّمة، الأوحد، الطّائي، الجيَّاني، المالكي حين كان بالمغرب، الشّافعي حين انتقل إلى المشرق، النحوي، نزيل دِمِشْق.

وُلِد سنة ستمائة أو في التي بعدها[3]، وسمع بدمشق من مكرم وأبي صادق الحسن بن صَبَّاح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم، وأخذ العربية عن غير واحد، فممّن أخذ عنه بجَيَّان أبو المظفر، وقيل: أبو الحسن، ثابت بن خيار[4]، عُرِف بابن الطيلسان، وأبي رَزِين بن ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكُلاَعي من أهل لَبْلة، وأخذ القراءات عن أبي العبّاس أحمد بن نَوَّار، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبد اللّه بن مالك المرشاني، وجالس يعيش وتلميذه ابن عَمْرُون وغيره بحلب، وتصدَّر بها لإقراء العربية، وصرف همّته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدّمين، وكان إمامًا في القراءات، وعالمًا بها، وصنّف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية، وأما اللغة فكان إليه المنتَهَى فيها.

قال الصفدي: أخبرني[5] أبو الثناء محمود قال: ذَكَرَ ابن مالك يومًا ما انفرد به صاحبُ المحكم عن الأزهري في اللغة، قال الصفدي: وهذا أمر مُعْجِز؛ لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين[6]، وأخبرني عنه أنه كان إذا صلَّى في العادلية ـ لأنه كان إمام المدرسة ـ يُشَيِّعه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان إلى بيته تعظيمًا له.

---

(١) في طبعة دار صادر: «المترف الناعم».

(٢) ترجمة ابن مالك في الوافي بالوفيات (ج ٣ ص ٣٥٩) وفوات الوفيات (ج ٣ ص ٤٠٧) وبغية الوعاة (ص ٥٣) وغاية النهاية (ج ٢ ص ١٨٠).

(٣) في الوافي بالوفيات: ولد سنة ستماية وإحدى للهجرة.

(٤) هكذا في غاية النهاية، وفي بغية الوعاة فهو ثابت بن حيان.

(٥) في الوافي بالوفيات: «أخبرني الشيخ الإمام شهاب الدين أبو الثناء...».

(٦) في المصدر نفسه: «لأنه يريد وينقل الكتابين...».

وقد روى عنه الألفية شهابُ الدين محمود المذكور، ورواها الصفدي خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ورواها إجازةً عن ناصر الدين شافعِ بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه.

وأما النّحو(١) والتصريف، فكان فيهما ابن مالك بحرًا لا يُشَقُّ لُجه، وأما اطّلاعه على أشعار العرب التي يُسْتَشهد بها على النحو واللغة فكان أمرًا عجيبًا، وكان الأئمّة الأعلام يتحيّرون في أمره، وأما الاطّلاع على الحديث فكان فيه آية؛ لأنه كان(٢) أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عَدَلَ إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شيء عَدَلَ إلى أشعار العرب، هذا مع ما هو عليه من الدّين والعبادة، وصدق اللهجة، وكثرة النوافل، وحسن السَّمْت، وكمال العقل، وأقام بدمشق مدّة يصنّف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادليَة، وتخرّج به جماعة، وكان نظم الشعر عليه سهلاً رَجَزُه وطَويله وبَسيطه، وصنّف كتاب «تسهيل الفوائد». قال الصفدي: ومدحه سعد الدّين محمد بن عربي بأبيات مليحة إلى الغاية، وهي(٣): [البسيط]

إنَّ الأمام جمالَ الدين جَمَّلَهُ ... رَبُّ العُلا ولِنَشْرِ العِلْمِ أَهَّلَهُ(٤)
أمْلَىٰ كتابًا له يُسْمَى «الفوائد» لم ... يَزَلْ مُفيدًا لِذِي لُبٍّ تأمَّلَهُ
وكل(٥) مسألة في النحو يَجْمَعُها ... إنَّ الفوائد جَمْعٌ لا نظير له

وقال: وفي هذه الأبيات مع حُسْن التورية فيها ما لا يخلو من إيرادٍ ذكرْتُه في كتابي «فضّ الخاتم»(٦) انتهى.

قلت: أجاب العَجِيسي عن ذلك بأنَّ الأبيات ليست في التسهيل، وإنّما هي في كتاب له يسمّى «الفوائد» وهو الذي لخّصه في «التسهيل» فقوله في اسم التسهيل «تسهيل الفوائد» معناه تسهيل هذا الكتاب، وذكر أيضًا أنه مثل التسهيل في القدر على ما ذكره مَنْ وقف

(١) يتابع المقري النقل عن الوافي بالوفيات.
(٢) كلمة «كان» ساقطة من طبعة دار صادر.
(٣) الأبيات في الوافي بالوفيات وفوات الوفيات وبغية الوعاة.
(٤) في بغية الوعاة: «الدين فضّله إلاهُه ولِنَشْرِ...».
(٥) في فوات الوفيات وبغية الوعاة: «فكلٌ».
(٦) الكتاب للصفدي واسمه كما في الوافي بالوفيات هو: «فضّ الختام عن التورية والاستخدام». وفي طبعة عبد الحميد: «فضُ» بالصاد.

عليه، وقال: وإليه يشير سعد الدّين محمد بن عربي بقوله: «إن الإمام - إلى آخره» وسعد الدين ابنُ الشيخ محيي الدين صاحب «الفُصُوص» وغيرها.

ثم قال العجيسي: وذكر غير واحد من أصحابنا أنَّ له كتابًا آخرَ سمّاه بـ «المقاصد»، وضمّنها تسهيله، فسمّاه لذلك «تسهيل الفوائد، وتكميل المقاصد» فعلى هذا لا يَصحُّ قولُ الصفدي: إن المدح المذكور في التسهيل إلّا بارتكاب ضرب من التأويل، انتهى كلام العَجِيسي.

قلت: وذكر غيره أنَّ قوله في الألفية «مقاصِدُ النحو بها محوية» إشارة لكتاب المقاصد، وتعقّب بقوله «محوية» فإنه لو كان كما ذكر لقال محويٌّ، وأجاب بعضهم بأنه من باب الاستخدام، وفيه تعسّف.

رجع - ومن تصانيف ابن مالك «الموصل، في نظم المفصل» وقد حلّ هذا النّظم فسمّاه «سبك المنظوم، وفكّ المختوم» ومن قال: «إن اسمه فكّ المنظوم وسبك المختوم» فقد خالف النقل والعقل، ومن كتب ابن مالك كتاب «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف بيت، وشَرْحُها، و «الخلاصة»[1]، وهي مختصر الشافية، و «إكمال الإعلام، بمثلث الكلام» وهو مجلّد كبير كثير الفوائد يدلّ على اطّلاع عظيم، و «لامية الأفعال» وشرحها، و «فَعَلَ وأفعل» و «المقدّمة الأسدية» وضعها باسم ولده الأسد، و «عُدَّة اللافظ، وعمدة الحافظ» و « النظم الأوجز، فيما يهمز»، و «الاعتضاد، في الظاء والضاد» مجلّد، و «إعراب مشكل البخاري» و «تحفة المودود، في المقصور والممدود» وغير ذلك كشرح التسهيل. وروى عنه ولده بدر الدين محمد، ومحبّ الدين[2] بن جعوان، وشمس الدين بن أبي الفتح، وابن العطّار، وزين الدين أبو بكر المِزِّي، والشيخ أبو الحسين اليونيني، وأبو عبد اللّه الصيرفي، وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وشهاب الدين محمود، وشهاب الدين بن غانم، وناصر الدين بن شافع، وخلق كثير سواهم.

ومن نظمه في الحَلْبة: [البسيط]

خَيلُ السباق المُجَلِّي يقتفيه مُصَلْ ... لِ والمُسَلِّي وتالٍ قبل مرتاحِ
وعاطِفٌ وحَظِيٌّ والمُؤَمَّلُ والـ ... لَطيمُ والفِسْكِلُ السُّكَّيتُ يا صاحِ

(١) الخلاصة هو الكتاب الذي عرف بالألفية.
(٢) في طبعة دار صادر: «وشمس الدين بن جعوان».

وله من هذه الضوابط شيء كثير.

وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب: إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل، وصاحب المفصل نحويٌّ صغير[1]، وناهيك بمن يقول هذا في حقّ الزمخشري.

وكان الشيخ ركن الدين بن القَوْبع يقول: إنَّ ابن مالك ما خَلَّى للنحو حرمة.

وحكى عنه أنه كان يومًا في الحمام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسى، فهجم عليه فتى فقال: ما تصنع؟ فقال: أكنس لك الموضع للقعود، قال بعضهم: وهذا مِمَّا يُسْتبعد على دين ابن مالك، والعُهْدَة على ناقله، قال الصفدي: ولا يستبعد ذلك من لُطْف النحاة وطباع أهل الأندلس.

وتوفي ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة.

وقال بعضهم: من أحسن شعر ابن مالك قوله: [الطويل]

إذا رَمِدَتْ عيني تداوَيتُ منكُمُ ... بنظرةِ حُسْنٍ أو بسَمْعِ كلام
فإن لم أجِدْ ماءً تَيَمَّمْتُ باسمكمْ ... وصَلَّيتُ فرضي والديارُ أمامي
وأخلصْتُ تكبيري عن الغير مُعْرِضًا ... وقابلْتُ أعلام السوى بسلام
ولم أرَ إلاَّ نور ذاتك لائحًا ... فهل تَدَعُ الشمسُ امْتدادَ ظلام؟

وقدم - رحمه اللّه تعالى! - القاهرة، ثم رحل إلى دمشق، وبها مات كما عُلم.

وقال الشريف الحصني يرثيه[2]: [الخفيف]

يا شَتَاتَ الأسماءِ والأفعالِ ... بَعْدَ موتِ ابن مالكِ المِفْضالِ
وانحرَافَ الحروفِ مِنْ بَعْدِ ضَبْطٍ ... منه في الانْفِصَالِ والاتِّصَالِ
مَصْدَرًا كان للعلوم بإذن الـ ... ـله مِنْ غَيرِ شُبْهَةٍ ومِحَالِ
عدم النَّعْت[3] والتعطّف والتو ... كيدُ مُسْتَبْدلاً من الأبْدالِ
ألمٌ اعتراه أَسْكَنَ منه[4] ... حركاتٍ كانتْ بغير اعتلالِ

---

(١) في الطبعة نفسها: «المفصل نحوه صُغيرات». وفي طبعة بولاق: «وصاحب الفصل ونحوه صغيرات».

(٢) الأبيات في الوافي بالوفيات وفوات الوفيات وبغية الوعاة.

(٣) هكذا في كل المصادر، وفي طبعة عبد الحميد: «النحو».

(٤) في بغية الوعاة: «ألم قد عراه...».

يــا لــهــا سَــكْـتَـةً لِـهَـمْـزِ قـضــاءٍ[1] أورَثَــتْ طــول مــدّة الانــفــصــالِ
رَفَـعُـوه فـي نَـعْـشِـه فـانـتـصـبْـنـا نَصْبَ تـمـيـيـز، كيفَ سَيـرُ الـجـبـالِ؟
فـخَـمـوه عـنـد الـصَّـلاة بِـدَلٍّ فـأُمِـيـلَـتْ أسـرارُهُ لـلـدلالِ
صـرفـوه يـا عُـظْـمَ مـا فَـعَـلوه وهْـوَ عَـدْلٌ مُـعَـرَّفٌ بـالـجَـمَـالِ
أدْغَـمُـوه في الـتُّـرْبِ من غيـر مثـلٍ سـالِـمًـا مِـنْ تـغـيّـر الانـتـقـال
وَقَـفُـوا عـنـد قـبـره ساعـة الـدَّفْـنِ وُقـوفًـا وضـرورةَ الامـتـثـال
ومَـدَدْنَـا الأكُـفَّ نـطلبُ قَـصْـرًا[2] مسكـنًـا لـلـنـزيـل من ذي الـجـلال
آخـر الآيِ مِـنْ سَبَـا الـحظِّ مـنـه[3] حـظّه جـاء أوّل الأنـفـالِ
يـا بَـيَـان الإعْـرَاب يـا جـامـعَ الإعـرابِ يـا مُـفْـهِـمًـا لـكـلٍّ مـقـال[4]
يـا فـريـد الـزمـان في الـنـظم والـنثـرِ وفـي نَـقْـلِ مُـسْـنَـدَاتِ الـعـوالـي
كـم عـلـومٍ بَـثَـثْـتَـهَـا فـي أنـاس عـلـمـوا مـا بـثـثـت عـنـد الـزّوالِ[5]

انتهت ملخصة.

قال الصفدي: وما رأيت مَرْثية في نحوي أحسن منها على طولها، انتهى.

ودُفِن ابن مالك بسفح قاسيون، بتربة القاضي عزّ الدين بن الصائغ، وقال العَجيسي: بتربة ابن جعوان.

ورثاه الشيخ بهاء الدين بن النّحاس بقوله[6]: [الكامل]

قُـلْ لابنِ مـالـكَ إنْ جَـرَتْ بـك أدمعي حُـمْـرًا يُحَـاكِيهـا النَّجِيـعُ القَـانِـي[7]

---

(١) في فوات الوفيات: «ما لها سكنة بهمز قناة...».
(٢) في بغية الوعاة: «ومدّ فالأكفّ تطلب قصرًا».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «من سبأ الحظ...». وفي الوافي بالوفيات وفوات الوفيات وبغية الوعاة: «من سبا حظنا منه...».
(٤) في طبعة ليدن: «يا لسان الأعراب». وفي الوافي بالوفيات وفوات الوفيات وبغية الوعاة: «يا لسان الأعراب يا جامع الإعراب...».
(٥) في طبعة ليدن وفي الوافي بالوفيات: «علموا ما ثنيت عند الزوال». وفي فوات الوفيات: «كم علومًا».
(٦) الأبيات، عدا البيت الأخير، في بغية الوعاة (ص ٥٧).
(٧) النجيع: الدم. القاني: الأحمر. لسان العرب (نجع) و (قنا).

فلقد جَرَحْتَ القلبَ حين نُعِيتَ لي | وتَدَفَّقَتْ[1] بدمائه أجفاني
لكن يُهَوِّنُ ما أُجِنُّ مِنَ الأَسَى[2] | علمي بنُقْلَتِهِ إلى رضوان
فَسَقى ضريحًا ضَمَّه صَوبُ الحَيَا | يَهْمِي به بالرَّوْحِ والرَّيحَانِ

وابنُ النحاس المذكور أحد تلامذة ابن مالك، وهو القائل يخاطب رضيّ الدين الشاطبي الأندلسيّ، وقد كلّفه أن يشتري له قِطْرًا[3]: [الخفيف]

أيّها الأوحدُ الرضيُّ الذي طا | ل علاءً وطابَ في الناس نَشْرا
أنت بَحْرٌ لا غرو إن نحن وافيـ | ـناكَ رَاجينَ مِنْ نَداكَ القِطْرَا

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس، وهو: بهاء الدّين أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن محمد بن نصر، الحلبي الأصل، المعروف بابن النحاس، وهو شيخ أبي حَيَّان، ولم يأخذ أبو حَيَّان عن ابن مالك وإن عاصره بنحو ثلاثين سنة.

وقال بعض مَنْ عَرَّف بابن مالك: إنه تصدَّر بحلب مدّة، وأَمَّ بالسّلطانية، ثم تحوّل إلى دمشق، وتكاثر عليه الطلبة، وحازَ قَصَبَ السَّبْق، وصار يُضْرَبُ به المثل في دقائق النحو، وغوامض الصَّرْف، وغريب اللغات، وأشعار العرب، مع الحفظ والذّكاء والوَرَع والدّيانة وحسن السَّمْت والصّيانة والتحرّي لِمَا ينقله والتحرير فيه، وكان ذا عقل راجح، حسن الأخلاق، مهذّبًا، ذا رَزَانة وحياء ووقار، وانتصاب للإفادة، وصَبْرٍ على المطالعة الكثيرة، تخرّج به أئمّة ذلك الزمان كابن المنجي وغيره، وسارت بتصانيفه الرُّكْبان، وخضع لها العلماء الأعيان، وكان حريصًا على العلم، حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد.

وقال بعض الحفّاظ حين عَرَّفَ بابن مالك: يقال إنَّ عبد اللّه في نسبه مذكور مرّتين متواليتين، وبعضٌ يقول: مرّة واحدة، وهو الموجود بخطّه أول شرحه لعمدته، وهو الذي اعتمده الصفدي وابن خطيب دَارَيَّا محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري، وعلى كل حال فهو مشهور بجَدِّه في المشرق والمغرب.

---

(١) في بغية الوعاة: «فتدفقت».

(٢) في بغية الوعاة: «لكن يهون على ما أجني الأسى». وأُجِنُّ: أتّقي وأستتر؛ يقال: جَنَّ عليه الليلُ وأَجَنَّه إذا ستره. مختار الصحاح (جنن).

(٣) القِطْرُ، بكسر القاف وسكون الطاء: النحاس الذائب. لسان العرب (قطر).

وحَكَى بعضُهُمْ أنَّ ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وعليه عَوَّل شيخ شيوخ شيوخنا ابن غازي في قوله: [الراجز]

قد خَبَعَ ابنُ مالكٍ في خَبَعَا ... وهو ابنُ عَهْ كذا وَعَى مَنْ قَدْ وَعَى[1]

وقيل، كما تقدّم: إن مولده سنة ستمائة أو بعدها بجَيَّان الحرير مدينة من مدن الأندلس جبر اللّه كسرها ـ وهي مفتوحة الجيم وياؤها مشدّدة تحتانية ـ وتصدَّر ابن مالك بحَمَاه مدّة، وانْتَقد بعضهم على ابن خلكان إسقاطه من تاريخه، مع كونه كان يعظِّمه إلى الغاية. وقدّم، رحمه اللّه تعالى، لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه: إنه أعلم النّاس بالعربية والحديث، ويكفيه شرفًا أنَّ من تلامذته الشيخ النووي[2]، والعَلَم الفارقي، والشمس البعلي، والزين المِزِّي، وغيرهم ممّن لا يُحْصَى.

وكان، رحمه اللّه تعالى، كثير المطالعة، سريع المراجعة، لا يكتب شيئًا من محفوظه حتى يراجعه في محلّه، وهذه حالة المشايخ الثّقات، والعلماء الأثبات، ولا يُرَى إلاّ وهو يُصَلِّي أو يتلو أو يصنِّف أو يقرأ[3]، وكذا كان الشيخ أبو حَيَّان، ولكن كان جِدُّه في التصنيف والإقراء.

وحكي أنه توجّه يومًا مع أصحابه للفرجة بدمشق، فلمّا بلغوا الموضع الذي أرادوه غَفَلوا عنه سويعة[4]، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فحصوا عنه فوجدوه منكبًّا على أوراق.

وأغرب من هذا في اعتنائه بالعلم ما مَرَّ أنه حفظ يوم موته عدّة أبيات حَدَّها بعضهم بثمانية، وفي عبارة بعض «أو نحوها» لقّنه ابنه إيّاها، وهذا ممّا يصدق ما قيل: بقدر ما تتعَنّى، تنال ما تتمنّى، فجزاه اللّه خيرًا عن هذه الهمّة العليّة!.

وذكر أبو حيّان في الجوازم من تذليله وتكميله، أنه لم يصحب مَنْ له البراعة في علم اللسان، ولذا تَضْعُفُ استنباطاته وتعقُّباته على أهل هذا الشان، وينفر من المنازعة،

---

(١) خبع: أقام. ومجموع حروف «خَبَعَا» بحسب الجمل هو سنة ٦٣٧ هـ وهي سنة وفاته عنده، وحرفا «عه» ٧٥ سنة وهو مقدار سِنِّه.

(٢) في طبعة ليدن: «النوري».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «يقرئ».

(٤) في طبعة دار صادر: «بسويعة».

والمباحثة والمراجعة، قال: وهذا شأن مَنْ يقرأ بنفسه، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه، ولقد طال فَحْصِي وتنقيري عمّن قرأ عليه، واستند في العلم إليه، فلم أجد مَنْ يذكر لي شيئًا من ذلك، ولقد جرى يومًا مع صاحبنا تلميذه علم الدّين سليمان بن أبي حرب الفارقي الحنفي فقال: ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيّار من أهل بلدِهِ جيّان، وأنه جلس في حلقة الأستاذ أبي علي الشلوبين نحوًا من ثلاثة عشر يومًا، وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة في هذا الشأن، وإنما جلالته وشهرته في إقراء القرآن، هذا حاصل ما ذكره أبو حيّان.

قال بعض المحقّقين، وهو العلاّمة يحيىٰ الْعَجِيسي: وليس ذلك منه بإنصاف، ولا يحمل على مثله إلاّ هوى النَّفس وسرعة الانحراف، فنفيه المسنَد عنه والمتبعَ، شهادةُ نفي فلا تنفع ولا تُسمع، ويكفي ما سطّر في حقّه قوله في أثنائه: نظم في هذا العلم كثيرًا ونثر، وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدّواوين العربية وطول السنّ من هذا العلم غرائبَ، وحَوَتْ مصنّفاتُه منها نوادر وعجائب، وإنَّ منها كثيرًا استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة، إذ هي مَرْتَبة الأكابر النقّاد، وأرباب النظر والاجتهاد، وقوله في موضع آخر من تذليله «لا يكون تحت السماء أنحى ممّن عَرَفَ ما في تسهيله» وقرنه في «بحره» بمصنّف سيبويه فيما ينبغي له أن يغمصه[1]، ولا أنْ يحطّ عليه، ولا أن يقع فيما وقع فيه، فإنه مِمّا يُجَرِّىء على أمثاله الغبيّ والنبيه، والحليم والسّفيه، وما هذا جزاء السلف من الخلف، والدُّرر مِنَ الصدف، والجيِّد من الحشف، أوَمَا ينظر إلى شيخه أبي عبد اللّه بن النحّاس، فإنه لا يذكره إلاّ بأحسن ذكر كما هو دأب[2] خيار الناس، ومن كلامه في نقله عنه: وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول، وإلى تلميذه أبي البقاء الحافظ[3] المصري حيث يقول فيه، أعني في أبي حيان: [الطويل]

هو الأوحدُ الفردُ الذي تمَّ عِلْمُه ... وسارَ مَسِيرَ الشمس في الشرق والغربِ
ومِنْ غايةِ الإحسان مبدأُ فَضْلِهِ ... فلا غَرْوَ أنْ يسمو على العُجْمِ والعُرْبِ

---

(١) غمصه: احتقره وتهاون بحقِّه. لسان العرب (غمص).

(٢) في طبعة دار صادر: «أدب».

(٣) كلمة «الحافظ» ساقطة من طبعة دار صادر.

ومن غاية الإحسان، في هذا الشان، التصانيف التي سارت بها الرُّكْبان، في جميع الأوطان، واعترف بحسنها الحاضر والبادي، والدّاني والقاصي، والصديق والعدوّ، فتلقّاها بالقبول والإذعان، فسامح اللّه تعالى أبا حيّان! فإنَّ كلامه يحقق قول القائل: كما تدين تدان، ورحم اللّه تعالى ابن مالك! فلقد أَحْيَا من العلم رسومًا دارسة، وبَيَّنَ معالمَ طامسة، وجمع من ذلك ما تفرّق، وحقّق ما لم يكن تبين منه ولا تحقق، ورحم شيخه ثابت بن الخيار، فإنه كان من الثقات الأخيار! وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكُلاَعِي[1] - بضمّ الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب في الإحاطة - وأصله من لَبْلَة، ويعدّ في أهل جَيَّان وتوفي بغرناطة سنة ٦٢٨. وكان أبو حَيَّان يغضّ من هذا الكتاب ويقول: ما فيه من الضوابط والقواعد حائد عن مَهيع الصواب والسّداد، وكثيرًا ما يشير إلى ذلك في شرحه المسمَّى بـ «منهج[2] السالك»، ومن غَضِّه منه بالنظم في ملإٍ مِنَ الناس من جملتهم شيخه بهاء الدين بن النّحاس والأقسراني يجاريهِ مقتفيًا له ومتأسيًّا في تسويد القرطاس: [مجزوء الرجز]

ألفيةُ ابن مالكٍ　　مطموسةُ المسالك
وكم بها مشتغلُ　　أوقع في المهالكِ

ولا تغترّ أنت بهذا الغرر، فإنه ما كلّ سحاب أبرق ممطر، ولا كلّ عود أورق مثمر، وقيل معارضة للقوم، وتنبيهًا لهم ممّا هم فيه من النوم: [مجزوء الرجز]

ألفية ابن مالكٍ　　مشرقةُ المسالكِ
وكم بها مشتغل[3]　　عَلاَ على الأرائكِ

وما أحسن قول ابن الوردي في هذا المعنى: [الرجز]

يا عائبًا أَلْفِيَّةَ ابنِ مالكٍ　　وغائبًا عن حفظها وفَهْمِها
أَمَا تَرَاها قد حَوَتْ فضائلاً　　كثيرةً فلا تَجُرْ في ظُلْمِها
وازْجُر لمن جادلَ مَنْ يَحْفَظُها　　برابع وخامس مِنِ آسْمِها

---

(١) جاء في بغية الوعاة (ص ٢١٠): ثابت بن محمد بن يوسف بن حيّان الكلاعي أبو الحسين الغرناطي؛ كان فاضلاً نحويًا ماهرًا مقرئًا، معروفًا بالزهد والفضل والانقباض، ومات سنة ٦٢٨ هـ.

(٢) في طبعة دار صادر: «المسمَّى منهج...».

(٣) في الطبعة نفسها: «بها من مشغل».

يعني «صه» فإنه عند الاستقلال بمعنى اسكت، انتهى ملخّصًا.

وقال أيضًا عند ذكره مصنّفات ابن مالك: وهي كما قيل غزيرة المسائل، ولكنها على النّاظر بعيدة الوسائل، وهي مع ذلك كثيرة الإفادة، موسومة بالإجادة، وليس هي[1] لمن هو في هذا الفن في درجة ابتدائه، بل للمتوسّط يترقّى بها درجة انتهائه، انتهى.

واعلمْ أنَّ الألفيّة مختصرة الكافية كما تقدّم، وكثير من أبياتها فيها بلفظها، ومَتْبُوعُه فيها ابنُ مُعْطِي، ونظمه أجمع وأوْعَب، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب، وذكر الصفدي عن الذّهبي أن ابن مالك صنّف الألفية لوالده تقي الدّين محمد المدعو بالأسد، واعترضه العلاّمة الْعَجِيسي بأنَّ الذي صنّفه له عن تحقيق «المقدمة الأسدية» قال: وأما هذه - يعني الألفية - فذكر لي مَنْ أثِقُ بقوله أنه صَنّفها برسم القاضي شرف الدين هبة اللّه بن نجم الدّين عبد الرّحيم بن شمس الدّين بن إبراهيم بن عفيف الدّين بن هبة اللّه بن مسلم بن هبة اللّه بن حسّان الجهني الحموي الشافعي الشهير بابن البارزي، ويقال: إن هذه النسبة إلى باب أبرز أحد أبواب بغداد، ولكن خفّف لكثرة دَورِهِ على الألسنة، انتهى مختصرًا.

وقال بعض مَنْ عَرَّفَ بابن مالك: هو مقيم أَوَد، وقاطع لدَد، ومزين سماء مَوَّهَتِ الأصائلُ ديباجَتَها، وشعشعتِ البُكَرُ زُجاجَتَها، وجاءت أيامُهُ صافيةً مِنَ الكدر، ولياليه وما بها شائبة من الكبر، قد خَلَّفها العشيُّ برَدْعِه، وخلفها الصباح برَبْعه، فكان كل متعيّن حول مسجده، وكل عين فاخرة بعَسْجَده، هذا وزُمَرُ الطلاب، وطلبة الأجلاب، لا تزال تُزْجِي إليه القِلاَص[2]، وتكثر مِنْ سِرْبِهِ الاقتناص، كان أوحد وقته في علم النّحو واللغة مع كثرة الديانة والصّلاح، انتهى.

وقال بعض المغاربة: [الطويل]

لقد مَزَّقَتْ قلبي سِهَامُ جُفُونها ... كما مَزَّقَ اللخميُّ مَذْهَبَ مالِكِ
وَصَالَ على الأوصال بالقَدِّ قَدُّها ... فأضحَتْ كأبياتٍ بتقطيع مالك
وقَلَّدْتُ إذ ذاك الهَوَى لمرادها ... كتقليدِ أعلام النحاة ابنَ مَالِكِ
ومَلَّكْتُها رِقِّي لرِقَّة لفظها ... وإن كنتُ لا أرضاه ملكًا لمالك
ونادَيتُهَا يا مُنْيَتي بَذْلُ مهجتي ... وما لي قليلٌ في بديع جمالك

(١) كلمة «هي» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) القِلاصُ: جمع قلوص وهي الناقة الطويلة القوائم. لسان العرب (قلص).

ويعني بقوله: «بتقطيع مالك» مالك بن المرحَّل السَّبْتي، رحمه اللَّه تعالى!.

ولَمَّا سُئِل مالك عن قول النبيّ، ﷺ، «نعوذ باللَّه من الْحَورِ بعد الكَورِ» هل هو بالرّاء أو بالنون؟ أنكر النون، فقيل له: إنَّ في «الغريبين» للهروي رواية بالنون، فرجع عن قوله الأول، وقال: إنّما هو بالنون، انتهى.

وقد ذكر في «المشارق» النون والرّاء، فقال «الحَورُ بَعْدَ الكَورِ» بالراء، رواه العذري وابن الحذّاء، وللباقين بالنّون، معناه النقصان بعد الزيادة، وقيل: من الشّذوذ بعد الجماعة، وقيل: من الفساد بعد الصلاح، وقيل: من المقلّة بعد الكثرة، كَارَ عمامَتَه إذا لفَّها على رأسه واجتمعت، وحارها إذا نَقَضَها فافترقتْ، ويقال: حار إذا رجع عن أمر كان عليه، ووهَّم بعضهم رواية النون، وقيل: معناها رجع إلى الفساد بعد أن كان على خير ممَّا رجع إليه، وقال عياض في موضع آخر بعد: الحور بعد الكور، كذا للعذري، والكون للفارسي والسجزي[1] وابن ماهان، وقول عاصم في تفسيره «حار بعدما كار» وهي روايته، ويقال: إن عاصمًا وهم فيه، انتهى.

والسّائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خَلِّكَان؛ لأنَّ ابن الأثير سأل ابن خَلِّكان عنها، فسأل هو ابن مالك، رحم اللَّه تعالى الجميع!

وقد عَرَّف الحافظُ الذهبيُّ بابن مالك في تاريخ الإسلام، وذكر فيه ترجمة لولده بَدْر الدّين محمد، وأنه كان حادَّ الذّهن، ذكيًا، إمامًا في النّحو وعلم المعاني والمنطق، جيّد المشاركة في الفقه والتّدريس، وأنه تَصَدَّر بعد والده للتدريس، ومات شابًا قبل الكهولة سنة ٦٨٦، ومن أجل تصانيفه شَرْحُه على ألفية والده، وهو كتاب في غاية الإغلاق، ويقال: إنه نظير الرضي في شرح الكافية، وللنّاس عليه حواشٍ كثيرة، رحمهم اللَّه تعالى أجمعين!

---

(١) في طبعة ليدن: «والشجري».

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد اللّٰه عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٢ ـ أخبار وتراجم أندلسية (قطعة مستخرجة من معجم السفر للسلفي). أعدّها وحقّقها الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩.

٣ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠.

٤ ـ أدباء مالقة لابن عسكر. صورة عن نسخة خطّية خاصّة بمكتبة الأستاذ محمد المنوني.

٥ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ ـ ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٦ ـ الأعلام للزِّركلي (١ ـ ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٧ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٨ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٩ ـ الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي (١ـ ٢). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

١٠ ـ بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.

١١ ـ البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير (١ ـ ١٤). مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.

١٢ ـ بُدُّ العارف لابن سبعين. تحقيق وتقديم الدكتور جورج كتورة. دار الأندلس، دار الكندي، بيروت، ١٩٧٨.

١٣ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبِّي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٤ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي. دار المعرفة، بيروت.

١٥ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (١ـ ٤). تحقيق ج .س. كولان وإ. ليڤي بروڤنسال والدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت.

١٦ ـ تاريخ ابن خلدون (سبعة مجلدات في أربعة عشر جزءًا). دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

١٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١ ـ ١٤). دار الكتاب العربي، بيروت.

١٨ ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.

١٩ ـ تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقبة العُلْيا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.

٢٠ ـ تأريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين لابن أبي صاحب الصلاة. تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي. دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩.

٢١ ـ تذكرة الحفّاظ لشمس الدين الذهبي (١ ـ ٤). حيدر أباد الدكن، ١٩٥٥.

٢٢ ـ ترجمان الأشواق للشيخ الإمام محيي الدين بن العربي. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١.

٢٣ ـ التشبيهات من أشعار الأندلس لابن الكتاني. تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

٢٤ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). عُني بنشره وصحّحه السيد عزّت العطّار الحسيني. مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦.

٢٥ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٢٦ ـ جغرافية الأندلس وأوروبا (من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري). تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي. دار الإرشاد، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٦.

٢٧ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

٢٨ ـ الحلّة السِّيَراء لابن الأبار (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٢٩ ـ الحُلَل الموشيَّة في ذكر الأخبار المراكشيّة لابن الخطيب، مطبعة التقدّم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدّرة بعبارة «مجهول المؤلف» وهي عبارة صحيحة؛ لأنه لا يَصِحُّ أن يُنْسَبَ هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدّة منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا طبعة تونس لعدم توفّر الطبعة الثانية.

٣٠ ـ الحيوان للجاحظ (١ ـ ٨). تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار الجيل، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

٣١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب ـ قسم شعراء المغرب (الجزء الأول). تحقيق الأساتذة محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى. الدار التونسية للنشرة ١٩٦٦.

٣٢ ـ الديباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي. الطبعة الأولى، مصر، ١٣٥١ هـ.

٣٣ ـ ديوان ابن حمديس. صحّحه وقدّم له الدكتور إحسان عباس. دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.

٣٤ ـ ديوان ابن خفاجة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٣٥ ـ ديوان ابن درّاج القسطلي. تحقيق الدكتور محمد علي مكي. منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ١٩٦١.

٣٦ ـ ديوان ابن زيدون. تحقيق وشرح الأستاذ كرم البستاني. دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.

٣٧ ـ ديوان ابن شهيد الأندلسي. عني بجمعة Charles Pellat. دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٣.

٣٨ ـ ديوان ابن عربي. طبعة بولاق، ٢٧١ هـ/١٨٥٥ م.

٣٩ ـ ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

٤٠ ـ ديوان أبي الحسن الششتري. تحقيق الأستاذ علي سامي النشار. الإسكندرية، ١٩٦٠.

٤١ ـ ديوان أبي الربيع الموحدي. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ورفاقه. من منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط.

٤٢ ـ ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

٤٣ ـ ديوان البحتري (١ ـ ٢). دار صعب، بيروت.

٤٤ ـ ديوان الشريف الرضي (١ ـ ٢). دار صادر ودار بيروت، بيروت.

٤٥ ـ ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم، بيروت.

٤٦ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

٤٧ ـ ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق الأستاذين أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. القاهرة، ١٩٥١.

٤٨ ـ ديوان النابغة الذبياني. تحقيق الأستاذ فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.

٤٩ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشَّنْتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

٥٠ ـ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١ ـ ٢). ط. القاهرة، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣.

٥١ ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

٥٢ ـ رحلة ابن رشيد ـ القسم الثالث من مخطوطة الإسكوريال.

٥٣ ـ رسائل ابن سبعين لأبي محمد عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي. تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي. الدار المصرية للتأليف والترجمة. يطلب من المكتبة العصرية ببيروت.

٥٤ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٥٥ ـ سراج الملوك للطرطوشي. الإسكندرية، ١٢٨٩.

٥٦ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب للعماد الحنبلي (١ ـ ٨). نشر القدسي، القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١ هـ.

٥٧ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ ـ ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٥٨ ـ صحيح مسلم (١ ـ ٢). ط. القاهرة، ١٢٩٠ هـ.

٥٩ ـ الصلة لابن بشكوال (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.

٦٠ ـ صورة الأرض لابن حوقل. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩.

٦١ ـ ضرائر الشعر لابن عصفور الإشبيلي. تحقيق السيد إبراهيم محمد. دار الأندلس، ١٩٨٢.

٦٢ ـ الطالع السعيد لكمال الدين أبي الفضل الأدفوي. الطبعة الأولى، ١٩١٤.

٦٣ ـ طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (ومعه تاريخ الأطباء والفلاسفة لإسحاق بن حنين). تحقيق الأستاذ فؤاد سيد. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.

٦٤ ـ طبقات الشعراء لابن سلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٦٥ ـ طبقات المفسرين لجلال الدين السيوطي. ط. ليدن، ١٨٣٩، طهران، ١٩٦٠.

٦٦ ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي النحوي. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٤.

٦٧ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني. الطبعة الأولى، الجزائر، ١٩١٠.

٦٨ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (١ ـ ٢). شرح وضبط الدكتور يوسف طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٦٩ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٧٠ ـ غاية النهاية في طبقات القرّاء لابن الجزري (١ ـ ٣). تحقيق برجشتراسر. ط. القاهرة، ١٩٣٢ ـ ١٩٣٣.

٧١ ـ فرحة الأنفس (قطعة من كتاب فرحة الأنفس: عن كُوَر الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة) لابن غالب. نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، مطبعة مصر، ١٩٥٥.

٧٢ ـ فضائل الأندلس وأهلها (ثلاث رسائل لابن حزم وابن سعيد والشقندي). نشر الدكتور صلاح المنجد، بيروت، ١٩٦٨.

٧٣ ـ فهرسة ابن خير لابن خير الأموي الإشبيلي. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

٧٤ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

٧٥ ـ قاموس عربي إسباني للدكتور المستشرق الإسباني د. كورينطي. المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٧.

٧٦ ـ قاموس إسباني عربي للدكتور المستشرق الإسباني ف. كورينطي. المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٠.

٧٧ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٧٨ ـ قضاة قرطبة للخشني. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.

٧٩ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

٨٠ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ ـ ١٣). دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.

٨١ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٨٢ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (١ ـ ٢). إستانبول، ١٩٤١ ـ ١٩٤٣.

٨٣ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.

٨٤ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب. نشره الأستاذ محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧ هـ.

٨٥ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.

٨٦ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لابن حجر الهيثمي (١ ـ ١٠). نسخة مصورة بدار الكتاب العربي عن الطبعة المصرية.

٨٧ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٨٨ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

٨٩ ـ المرقصات والمطربات لابن سعيد. دار حمد ومحيو، بيروت، ١٩٧٣.

٩٠ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.

٩١ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في مِلَح أهل الأندلس لابن خاقان. الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ١٣٠٢ هـ.

٩٢ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين بن فضل الله العمري. مخطوطة آيا صوفيا ومخطوطة طوبقبو سراي.

٩٣ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي. تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان. ط. القاهرة، ١٩٦٣.

٩٤ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.

٩٥ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة، ١٩٦٧.

٩٦ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

٩٧ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.

٩٨ ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

٩٩ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (١ ـ ٢). دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.

١٠٠ ـ الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١ ـ ١٧). ڤيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨١.

١٠١ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.

١٠٢ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ ـ ٤). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

فهرس الجزء الثاني من كتاب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري




